الدكتور
أحمد طربين
استاذ في كلية الآداب
جامعة دمشق

تاريخ
المشرق العربي المعاصر

١٤٠٥ - ١٤٠٦ هـ

١٩٨٥ - ١٩٨٦ م

المطبعة الجديدة - دمشق

الدكتور
أحمد طربين
استاذ في كلية الاداب
جامعة دمشق

تاريخ
المشرق العربي المعاصر

١٤٠٥ - ١٤٠٦ هـ
١٩٨٥ - ١٩٨٦ م

المطبعة الجديدة - دمشق

بين يدي الكتاب

نستطيع أن نقسم العصر العثماني في الاقطار العربية الى عصرين ، لكل منهما ميزاته وخصائصه التي يختلف بها عن الآخر اختلافا تاما ٠ فالعصر العثماني الاول ، في اصطلاح جمهرة المؤرخين ، يمتد من القرن السادس عشر الذي شهد الفتوح العثمانية للاقطار العربية ، حتى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر ٠ والعصر العثماني الثاني ، ويمتد من القرن التاسع عشر حتى جلاء العثمانيين عن الاقطار العربية عام ١٩١٨ ٠

وهذان العصران يقابلان كامل الفترة الحديثة ومعظم الفترة المعاصرة من تاريخ العرب المندمجين في الدولة العثمانية ٠ ولهذا لايمكن دراسة تاريخ المشرق العربي المعاصر ، أو تاريخ العرب المعاصر عموما بمعزل عن عوامل تكوين وبناء هذا التاريخ التي ترجع خاصة الى العصر العثماني الثاني ٠

ففي العصر العثماني الاول ، خضع العرب لأنظمة الحكم التي وضعت للولايات ، وهي أنظمة تركت قدرا كبيرا من حرية التصرف للسلطات المحلية ، وتميز الحكم فيها باللامركزية والبساطة والسطحية والمحافظة ؛ وبهذا الوصف لاينتظر منه أن يحدث تغييرا جوهريا في نظم البلاد أو حياة المجتمع ٠

وفي العصر العثماني الثاني ، تميّز الحكم والتشريع بالنظام المركزي ، وربطت الولايات بالعاصمة ربطا قويا ، وأخضع أصحاب الحقوق المكتسبة والجماعات والهيئات والعصبيات اخضاعا تاما ٠ وتكفلت الدولة بأداء واجبات وتحمّل مسؤوليات لاعهد للرعية بها من قبل ٠ وسجّل هذا العصر بداية التقدم والنهوض في الدولة ، بفضل التنظيمات الاصلاحية التي أحدثت انقلابا عظيما في الامور الادارية والقضائية ، وأثّرت تأثيرا عميقا في الاحوال السياسية والاجتماعية

والاقتصادية والفكرية والادبية ، بحيث يمكن اعتبارها أهم الخطوات التي اتخذتها الدولة نحو اقتباس النظم الغربية ، بعد الغاء الانكشارية وتجديد الحياة العسكرية • ومن هنا تبرز أهميتها كعامل من العوامل الثلاثة ، التي ساهمت في تكوين وبناء المشرق العربي المعاصر بصورته الراهنة • وعلى الرغم من أن أقطار المشرق العربي شهدت بعض مظاهر التجديد قبيل القرن التاسع عشر ، الا أن هذا القرن هو الذي يستحق أن نسميه عصر التجديد أو عصر النهضة •

أما العامل الثاني ، فهو احتدام التنازع الدولي حول الاقطار العربية مشرقا ومغربا ، وما رافقه من استمرار زحف الاستعمار الاوربي لاحتلال هذه الاقطار • لقد أقامت الدولة العثمانية في القرن السادس عشر سياجا أحاط بالاقطار العربية ، وجعل أوربة تتردد كثيرا في محاولة اختراقه خوفا من اصطدامها بالدولة العثمانية التي تكافأت قوتها أو رجحت على قوة أوربة • وبذلك ظلت الكتلة العربية عموما بمنأى عن أي تهديد أو احتلال أوربي حتى أواخر القرن الثامن عشر ، حين عجزت القوة العثمانية عن مواجهة الظروف والتحديات الجديدة ، بسبب ضعفها وانحطاط أداتها العسكرية ، بالقياس الى الغرب الاوربي الذي اندفع قدما لتجديد نظمه وتنمية قوته ، منذ أن بلغت حركة الكشف الجغرافي أوجها في القرن السادس عشر ، ومكنت الاوربيين من تطويق العالم العربي ، ونشر سيادتهم في بحار لم يكن ينازع الملاحة العربية فيها منازع •

بيد أن هذا التطويق الاوربي الذي بدأ بتأسيس امبراطوريات آسيوية للدول الاستعمارية ، ولم يؤد الى اعتداء على حوزة الوطن العربي في العصر العثماني الاول ، لم يلبث أن تطور الى احتلال في العصر العثماني الثاني ، لتفاوت قوة العثمانيين والاوربيين في العلم والحرب والاقتصاد • وساهم ذلك في انهاء عهد الركود والسكون والمحافظة ، وبدء عهد الحركة والتطور والتغيير • ففي حين كانت الدولة العثمانية تمثل القديم ولاتقبل التجديد الا مضطرة في القرن السادس عشر ، إذا بها تقبله واردا عليها من الغرب الاوربي في القرن

التاسع عشر، وذلك للوقوف على أسباب انتصاره ، ومحاولة وقف تدهور الدولة والابقاء على ممتلكاتها ضد أطماع الاستعمار الاوربي •

أما العامل الثالث ، فهو ظهور القومية العربية : وهو عامل نما مستقلا بذاته ، ومتأثرا بالعاملين السابقين كليهما • ولكن حركة القومية العربية لم تتخذ شكلا موحدا في مختلف مراكز الحياة العربيـة في القرن التاسع عشـر ، وانما اتسمت بداياتها بمظاهر مختلفة في وحيها ودوافعها وتطلعاتها •

ونحن سنتناول ايجازا هذه العوامل الثلاثة في تكوين المشرق العربـي المعاصر ، وسنقتصر في الفصلين الاول والثاني على أبرز اتجاهاتها وأهم مظاهرها • ولنسرع الى القول إن هذه العوامل لم تكن مستقلة يفعل كل منها فعله بمعزل عن الآخر ، وانما كانت متداخلة التأثير • ففي الوقت الذي كانت تجري فيـه حركات الاصلاح الوطني أو التنظيم العثماني ، كانت المطامـع الدولية تتربص بأمتنا الدوائر وتكيد لها لاخماد الجذوة القومية فيها •

أما الفصل الثالث فنرصد فيه الفترة مابين الحربين العالميتين ، وما اشتملت عليه من حركات التحرر الوطني ضد السيطرة الاجنبية ، ومن نزعات التضامن القومي العربي • ذلك أن الدول الكبرى الاستعمارية استولت عـلى مختلف الاقطار العربية في تواريخ مختلفة ، وفي ظـروف متباينة ، وصارت تحكمهـا بأساليب متنوعة • وأوجدت في كل قطر منها أنظمة ادارية وتشريعية واقتصادية وثقافية خاصة ، تولّدت عنها أوضاع سياسية ونزعات اقليمية ، سعى العرب في الفترة مابين الحربين الى ازالتها ، وتحقيق تطلعاتهم في الدولة العربية الموحدة التي تآمر عليها الحلفاء في أعقاب الحرب العالمية الاولى •

ونعرض في الفصل نفسه لمساعي العرب في فترة الحرب العالمية الثانية وما بعدها بقليل ، لاستكمال تحرير أقطارهم ولوضعها على طريق التحرر والوحدة • وقد تحكمت في هذه المساعي الرسمية عوامل المرحلة السابقة ، فتأسست جامعة الدول العربية • ولكن الجماهير الواسعة كانت تأمل أن واضعي ميثاق الجامعةسوف يعدلونه مستقبلا بما يتفق مع تحرق العرب نحو بناء وحدة عربية تحول التضامن

العفوي التاريخي بين جماهير أمتنا العربية الى حقيقة فعلية تفرض وجودنا على السياسة الدولية بما يتناسب مع مكانتنا البشرية والاقتصادية والاستراتيجية •

وطبيعي أن هذا الكتاب لايمكن أن يطمح للوفاء بمتطلبات تاريخ المشرق العربي المعاصر بمختلف أقطاره ، نظرا لتشعب مواضيعه وتنوع مصادره ، وتفاوتها بين القلة والوفرة ، وانما هو مدخل ومنطلق لتحقيق دراسات أوفى في المستقبل عن تاريخ أمتنا العربية •

المؤلف

تقديم

مجمل احوال المشرق العربي حتى مطلع القرن التاسع عشر
(١٥١٦ – ١٨٠٠)

حصرت أدوات النظام العثماني فيما يسمى (الرياسة السلطانية) أو الحكم السياسي ، وفيه تتعهد الدولة رجالاتها من بين الأرقاء ، بينما تقتصر الرياسة الدينية أو الحكم الديني الشرعي على الاحرار ؛ وهذا التمييز معروف في الدول الاسلامية التي كانت تميز بين أصحاب السيوف وأصحاب الأقلام •

وقد شاء السلاطين أن تستمد الرياسة السلطانية رجالاتها من تربية الأرقاء تربية عسكرية دينية خاصة ، ليكونوا رجال ادارة وقواد جيش وحكام مقاطعات • ومن هنا يصح وصف نظام الدولة بأنه عسكري ديني ، كما يصح وصفه بأنه اقطاعي ما دام النظام الاداري يقوم في الأصل على أساس عسكري متصل بالاقطاعات العسكرية التي تمنح الى الجنود والقواد إثر الاستيلاء على قطر من الاقطار واحصاء قراه ودساكره وتقسيمها الى مقاطعات صغيرة أو كبيرة ؛ ورأى السلاطين أن تكون الرياسة السلطانية تحت سلطتهم المطلقة فأوجدوا نظام مصادرة الأطفال (الدوشرمة أو الدفشرمة) وتسمى ضريبة الدم •

ذلك أن آل عثمان اعتبروا ديار الروم (الروم إيلي) التي ملكوها بعد عبور مضيق الدردنيل الى أوربة ، (دار حرب وجهاد) يسوغ فيها الاسترقاق ، فابتكروا طريقة تضاعف عدد المحاربين لديهم بما يسد حاجة الفتوح المتسعة ، وتضمن لهم تكوين جيش دائم لايعرف أفراده أصلهم ونسبهم ، وانما ينشأون على الولاء للسلطان • فأخذوا يغيرون بين حين وآخر على مايقع وراء حدودهم في بلاد النصرانية ، بقصد اختطاف الاطفال والعودة بأكبر عدد منهم ، فيودعونهم في مؤسسات خاصة لتنشئتهم نشأة اسلامية عسكرية • وهذا الجيش

الذي كان يتشكل من هؤلاء هو الذي عرف باسم الانكشارية ــ يني تشري أي النظام الجديد ــ • وكانت ضريبة الدم تجمع كل خمس سنوات مرة ، ثم قصرت المــدة حتى صارت تجمع كل سنة • واذا لم يكن للعائلة سوى طفل واحد ترك لها • إن أفراد هــذا الجيش لايعرفون الا ارتباطهم بأسرة الجيش وفكرة الجهاد التي يدرجون عليها ، وشعارهم دائما (إما غازي أو شهيد)[1] •

ومن بعض هؤلاء الاطفال المقطوفين يتشكل المصدر الوحيد للرياسة السلطانية الحاكمة ، ذلك أن الاطفال يقسمون الى قسمين : قسم يبقى في العاصمة وهم أنبههم عقلا وأحسنهم شكلا لتدريبهم على شؤون الحكم في مدارس ملحقــة بالقصور السلطانية بالآستانة ، وبعض المدن الكبرى ، حيث يتعلمون اللغات التركية والعربية والفارسية ، ويتلقنون علوم الدين ، ويدربون عــلى ركوب الخيل والفروسية ويؤخذون بالنظام الشديد الصارم ، ثــم يلحقون بخدمــة السلطان ، ولا يلبث أن يختار منهم أصحاب الوظائف في الحكم والادارة ، سواء في الحكومة المركزية أو في حكومات الاقاليــم والولايات • والقسم الثاني يرسل الى أصحاب الاقطاعات حيث يقضون فترة ٣ــ٤ سنوات في مزارعهم ويكتسبون الصحة والقوة ، ويتعلمون اللغة التركية ، ويدربون عــلى العمل اليدوي فيعملون في الزراعة • ثم يعودون الى العاصمة فيلحق بعضهم بفرقــة (البستانية) وبعضهم بالبحرية ، وآخرون يؤجرون لأرباب الصناعة والتجارة • وبعد مدة ينتقى أحسنهم من كل وجه ، ويلحقون بالانكشارية المشاة ويسرح الباقون • ويلاحظ أن هذا النظام لايقضي بإرغام الاطفال والغلمان على اعتناق الاسلام ، ولكن الوسط كان له تأثير عليهم فيسلمون ، ويلاحظ أيضا أن بعض من وصل المناصب الرفيعة منهم ، لم ينسوا علاقاتهم القديمة بأهلهم ، فكانوا يصلون من بقي حياً منهم بالمال وخلافه • والانكشارية في الصدر الاول مــن العهد العثماني كان عددهم محدودا ، لا يزيد على اثني عشر ألفا ، وكــان لهــم امتيازات كثيرة ، والسلطان مسجل بسجلاتهم وشعارهم الاواني النحاسية التي تطهى بها الشوربة •

---

(١) ساطع الحصري ــ « البلاد العربية والدولة العثمانية » ، ص١٧

بيد أن هذا النظام الذي كان الانكشارية بفضله أحسن مثل للجيوش ، والحكام العثمانيون أحسن مثل للحكام ، أفلس في النهاية ، لان القائمين عليه لم يراعوا قواعده وانما أخلّوا بها • أتى هذا النقض من استنكار بقية رعايا السلطان لفكرة النظام المبنية علـى حرمانهم مـن عضوية الرياسة السلطانية الحاكمة ، ومن الخدمة العسكرية ، وعلى الاخص أصحاب الاقطاعات الذيـن يفترض أن يكونوا دائما على استعداد للحرب بتقديم عدد من الخيالة والفرسان المحاربين ولوازمهم بنسبة محسوبة من دخل المقاطعة • حقا لقد كان أصحاب الاقطاعات يشتركون في الجيش بمـا يقدمون له مـن فـرق الفرسان الخفيفة (الايكنجي) وقت الحرب ، ولكن هؤلاء الاقطاعيين كانوا محرومين من وظائف الحكم • ومن ناحية أخرى ، فان أعضاء الرياسة السلطانية الحاكمة أنفسـهم تذمروا ، لانهم أرادوا لأولادهم أن يتمتعوا بوظائف الادارة • وكانت نتيجة ذلك أن سمح بدخول سلك الانكشارية لأبناء الترك الاحـرار ، ولأبناء الرياسـة السلطانية الحاكمة ، فدخلوا فيه على أساس غير أساس آبائهم ، فأخلّوا بنظام الحكم ، ففسد عمليا وانتقض • وحدث هـذا بالتدريج بعـد حكم سليمان القانوني ، أي أنه لم يدم الا نحو قرنين من الزمان ، وذلـك لأنه في جوهره ينافي الطبيعة البشرية •

لقد كان للجيش العثماني أهمية كبرى في الدولة ، حتى ان كاتب جلبي المعروف باسم (حاجي خليفة) والمشهور بمؤلفه (كشف الظنون) يقول في احدى رسائله : « أركان الدولة أربعة : العسكر ، العلماء ، التجار ، الرعية » • وكان يقصـد بالعلماء (علماء الديـن) وبالرعية ، عامة الناس مـن العمال والفلاحين[1] •

أمـا الرياسة الدينية الشرعية في الحكومة المركزية العثمانية فتشمل الوظائف الشرعية الدينية وعلى الأخص وظائف القضاء والتدريس والخطابة والافتاء وما يشبهها مما يتصل بالسادة الأشراف والمشايخ والمدرسين والدراويش والمريدين

---

(١) المصدر نفسه ص ٣٢

وطلبة العلم ... وكانت الدولة تنظم كل فئة منهم تنظيما دقيقا لا مثيل له في أية دولة من دول الاسلام السابقة ؛ والفرق بين الرياستين السلطانية والدينية آن الاولى كانت تقتصر على الأرقاء ، بينما الثانية اقتصرت على الاحرار . وكان يفصل في الشؤون العدلية القضاة أو نوابهم ، كما يشرفون على الأوقاف وأموال الأيامى واليتامى وفقا لأحكام الشرع الاسلامي .

ولا يتناول القاضي ونوابه رواتب مقننة من الدولة نظير عملهم ، بل كانوا يأخذون رسما معينا من الأطراف المعنية على القضايا التي يفصلون بها ، ومن هنا كانت رشوة القضاة .

وأهم المناصب الدينية كانت : قاضي عسكر وأمين الفتوى وشيخ الاسلام ، يقوم أصحابها بدور فعّال في شؤون الدولة لأن السلاطين يستشيرونهم في كثير من الامور ، ويحاولون تدعيم أعمالهم وتبرير تصرفاتهم بفتاوى شرعية يستحصلونها من علماء الدين هؤلاء . وأصحاب المناصب من كبار العلماء يفدون على عاصمة الدولة من مصر والشام غالبا . وتعتبر الادارة الحكومية مسؤولة عن أربعة واجبات أساسية هي : حفظ الأمن ، والذود عن البلاد ، وجباية الاموال العامة ، والقضاء . وما عدا ذلك تتركه الحكومة للجماعات والطوائف والافراد تديره طبقا لأعرافها وتقاليدها .

ظل الفلاح يقاسي من عسف الملاك ومساوىء الجفاف وظلم الملتزمين والجباة ، ووطأة الضرائب والديون وانتهاب البدو لمحاصيله . فالفلاح يعمل في أرض اقطاع أو أرض أميرية ، وطبيعي أن تسمى الارض التي يقيم عليها أرض تصرف لا أرض ملك ، فهو يتصرف بأرضه من حيث فلاحتها وزراعتها ، فاذا تركها أكثر من سنتين دونما زراعة ، حرم من تصرفه بها الى أن يدفع ضريبة اهماله . وتقف القرية وحدة متآلفة في تنظيم الحياة الزراعية حتى فوق الاسرة ، بيد أنه يلاحظ أن حرية الفلاحين مقيدة . فالحكومة تحول دون مهاجرة بعض الأسر الى اقطاعات أخرى إلا عند موافقة صاحب الارض ، باعتبار أن الفلاح مستأجر له ، وبمقدوره أن يطلب مساعدة السلطة في حال فرار الفلاح أو تهربه من دفع ما هو مرتب عليه . وليس معنى هذا أن الفلاح فقد حقوقه وأصبح

رقيق الارض التي زرعها ، وانما معناه أن الملتزم يحرص علـى إبقاء الفلاح في أرضه الزراعية لضمان زرعها ودفع الاموال المقررة عليها ، والتي منح الملتزم التزامها والاشراف عليها كيلا تترك بوراً ، نظير مبلـغ معين يؤديه للـدولة • فالفلاحون يزرعون الارض بكدهم ويكسبون حق بقائهم عليها •• ويرتبط بهذا أن الفلاحين فقدوا حرية الانتقال وامتهان أية حرفة أخرى • ولكن اذا تمكن ابن الفلاح من الفرار والتحق بالأزهر (مثلا) ، فانه يحق له أن يبقى هناك ، لأن طلب العلم الديني كان وسيلة للفرار من الزراعة ، ولـذا نقرأ في الجبرتي أن معظم طبقة المشايخ كانوا من الفلاحين ، وقلتهم من أهل المدن • فلا عجب اذا اقتصر الفلاح على زرع مايكفي قوته اليومي ، دون التفكـير بتحسين الارض أو النهوض بانتاجيتها ومضاعفة أرباحه منها •

أما أرباب الصناعة فقد انتظموا في طوائف ، وأحوالهم تفضل كثيرا أحوال الفلاحين ؛ فالبضائع لاتتكدس لديهم لأنهم يتقيدون بالطلبات المقدمة اليهم مـن التجار والوسطاء ، وهؤلاء غالبا مايقدمون المواد الخام اللازمة ، ولذا لم تكن الصناعة تتطلب رأس المال بـل تتطلب الاتقان وكفاءة اليـد العاملة وسرعتها • والطائفة على خلاف نقابة العمال اليوم تضم مختلف العاملين في الحرفة أو المهنة من معلمين وصناع ومبتدئين وشيوخ الحرفـة ؛ وكل حـرفة أو صنعة تلتزم بتقاليدها وعاداتها ، ولا يباح لأحد أن يمتهن صنعة أو حرفة إلا اذا تعلمها على يد معلم يشهد له باتقانها •

وقد تتدخل الحكومة في وجـه المنافسة الفردية وتحدد الاسعار في كـل موسم ، ولا تسمح بتغيير شكل البضاعة المصنوعة ، ولذا جمدت الصناعة في قالبها التقليدي القديـم ، وضعفت روح الخلـق والتجديد في نفوس طوائف الحرف • وكان يصح أن تقوم هـذه الطوائف الصناعية المهنيـة بدور فعّال في التوجيه السياسي والحكومي بفضل انسجام أفرادها وتعاونهم ، ولكن انصراف الطوائف الى أعمالها ، وغلبة الصبغة الدينية المحافظة عليها جعلها بعيدة عـن حركات العصيان والتمرد •

والتجار أيضـا تنتظمهم طوائف بحسب بلدانهم ؛ ففي مصر مثلا هنـاك

طوائف الشوام والمغاربة والترك ينتظمون في سوق واحـد حسب جنسيتهم ، ويعرضون بضائع بلادهم ، أو بحسب نوع التجارة التـي يتعاطونها كالعطارة وخلافها . ولكل طائفة سوق خاص ، ويفصل رئيس التجار (البازارباشي أو الشاهبندر) في خصوماتهم ويتحدث عنهم لدى دوائر الحكومة . وكان ممـا يعرقل الحركة التجارية بـين الحواضر العربية البلبلـة وفوضى الحكم والادارة والثورات وحركات العصيان ، بالاضافة الـى تخلف وسائل النقل والمواصلات وفقدان الامن على طرق القوافل . وعلى الرغم من تحول طرق التجارة الـى رأس الرجاء الصالح والمحيط الهندي ، فالتجارة الخارجية لم تتلاش نهائيـا ، ولكنها بدأت تتركز تدريجيا بيد الجاليات الاجنبية في الثغور البحرية الشامية ، وخاصة بعد توقيع معاهدة ١٥٣٥ بين سليمان القانوني وفرنسوا الاول ملـك فرنسة وعدو" شارل الخامس . وتركزت أيضا بيد المسيحيين واليهود من أهل البلاد ، ولا عجب إذا تنازل المسلمون عن التجارة في بلادهم لمنافسيهم من التجار الفرنجة بسبب الامتيازات الخاصة التي حصل عليها هؤلاء ، وأهمها إباحة الاقامة لأغراض التجارة في الثغور والمدن ، وأن يكون للجالية الاجنبية فندق وكنيسة ومخبز ومدفن ، وأن يخضع أعضاؤها في علاقاتهم بعضهم ببعض لسلطة قناصلهم وقوانين بلادهم ، وألا" يدفعوا إلا" الرسـوم الجمركية علـى مايستوردونه ويصدرونه . فالقنصل يرأس الجالية ويدير شؤونها بمعونة نائبه ، وهو يتبع الشركة الشرقية (الليفانت Levant) إن كان انكليزيا ، أو غرفة تجارة مرسيليا إن كان فرنسيا . فالقنصل يمثل الشركة ومصالحها أكثر ممـا يمثـل حكومته ، لأنه يرعى مصالح تجارية أكثر مما يرعى مصالح سياسية . وتطلق الدولة العثمانية على المسيحي الاجنبي الوافد الى أراضيها الاسم الشرعي (مستأمن) ، أي أنه أقام على الارض العثمانية بالامان المعطى له . ومعاهدات الامتيازات Capitulations معناها الحرفي الفصول أو العناوين والبنود أو مواد المعاهدات التي عقدتها الدولة مع الدول الاجنبية لتمكن رعاياها من القدوم والتعامل التجاري في أراضـي السلطان ، والسبب في منحهـا أن المستأمن الاجنبي لا هو مسـلم ليندمج في المعاملة الاسلامية لرعايا السلطان ، ولا هو رعية ذمية ، بل هو حالة خاصـة

يجب وضع نظام خاص بها بالاتفاق مع دولته • وأهم عيب في الامتيازات هو أن المستأمن لا يدفع الضرائب المترتبة على رعايا السلطان ، وانما يدفع فقط رسوم الجمارك على متاجره ، وقيمتها تقل كثيرا عما يدفعه التجار الوطنيون • وقد أدى ذلك الى تنافس الدول على تجاره الشرق الادنى ، فكان بداية الصراع السياسي لبسط النفوذ الاجنبي على المنطقة ، وبدأت فرنسة تركّز أنظارها على بلاد الشام ، يغريها تعاطف ديني كان يبديه المسيحيون الكاثوليك في جبل لبنان خاصة • وبرزت خطورة الامتيازات بعد أن رجح ميزان القوى لمصلحة الدول الاوربية حتى الحرب العالمية الاولى • وهنا أصبحت الامتيازات مصدر ضعف للدولة العثمانية ، وظهرت مساوئها بوضوح بين تكاثر عدد الوافدين الاوربيين الى أقطار المشرق العربي لمباشرة أنواع من النشاط المحظور عليهم قبيل القرن التاسع عشر ، أي حين تغيرت ظروف اقامة الاجانب في الارض العثمانية فأصبحوا يعدّون بالآلاف ، ويزاولون ما شاؤوا من أعمال • وهنا أصبحت الامتيازات امتيازات حقا للاجانب ، ونقمة على أهل البلاد ، الذين عجزت الدولة العثمانية عن رفع الحيف عنهم وانصافهم ، في فترة عجزها عن مواجهة القوة الاوربية المتفوقة(١) •

أما سياسة الدولة العثمانية نحو رعاياها من النصارى واليهود أي نحو أهل الذمة ، فهي السياسة الشرعية : دخل الذميون في ذمة المسلمين فيجب على الدولة أن تلحقهم بالجماعة وأن تكفل لهم حرية شعائرهم وتضمن لهم الحياة والمال ، ولكن لاتمنحهم المساواة الكاملة بالجماعة لأن شرط المساواة لايتحقق الا بوحدة الدين • وعليهم أعباء مالية خاصة وهي الجزية المقررة على أفرادهم الذكور البالغين القادرين على العمل ، وتعفيهم الدولة مقابل ذلك من الخدمة العسكرية ومن الحرب • لذلك وضعت الدولة نظاما للملل (ملّت) يقوم على تنظيم رعايا السلطان الغير مسلمين بحسب مذاهبهم الدينية ، باعتبار أن الملّة عبارة عن كتلة من الناس تنتظمها رابطة مذهبية واحدة ، لا تنظر للجنس أو للّغة

---

(١) محمد شفيق غربال « منهاج مفصل لدروس العوامل التاريخية في بناء الامة العربية .. » القاهرة ١٩٦١ ، ص ١٣٨

أو للقومية ، بل تنظر لوحدة المذهب الديني . فعندما يتكلمون في الدولة عن ملّة الروم مثلا ، لايقصدون بذلك من نعرفهم بالأروام أو اليونان فحسب ، بل يدخل في ذلك جميع المسيحيين التابعين للكنيسة اليونانية الارثوذكسية ، أي المسيحيون من أبناء اليونان والصرب والبلغار والعرب في الشام ومصر ... تمحي فيها فكرة القومية . وتعترف الحكومة بالملّة على هذا النحو ، وتترك لبطارقة المسيحيين وحاخامات اليهود شؤون طوائفهم ورعيتهم ، والحكومة تتصل بهؤلاء الرؤساء الدينيين لتنسيق علاقاتهم مع الذميين من رعاياها . فالبطريرك الارثوذكسي في الآستانة يشرف على شؤون ملّته وأحوال أفرادها الشخصية ، وكان بدرجة باشا ، وله حاشية ومساعدون ، وسجن في مقره بحي الفنار ، وله أن يوزع الضرائب وينظر في جمعها ومقدارها بالاتفاق مع الباب العالي . كذلك يرجع اليهود الى حاخام باشي العاصمة ، وسلطاته واسعة كالبطريرك الارثوذكسي ويأتيان في مراسم الاحتفالات بعد شيخ الاسلام .

لقد استلم أهل الذمة مناصب رفيعة جدا في الحكومة المركزية ؛ فمثلا لما توثقت علاقات الدولة العثمانية بالدول الاجنبية ، وبرزت الحاجة الى رجال يجيدون اللغات الاجنبية .. خصصت الدولة على وجه لامثيل له في الدول الاسلامية سابقا ، وظائف يتولاها أفراد من ملّة الروم الارثوذكس اليونانيين ، مثل وظيفة ترجمان الباب العالي ، وكان واسطة العقد بين الحكومة العثمانية والحكومات الاجنبية ، يعرض وجهة نظر هذه وتلك . ووظيفة ترجمان الاسطول ، لان قواعد الاسطول العثماني توجد في بحر الارخبيل وكثير من بحارته كانوا من اليونانيين ، وقائده هو الحاكم الفعلي للجزر ، فالترجمان كان الصلة والواسطة الفعلية بين الطرفين . هذا الى تعيين الدولة اثنين من حي الفنار ، لحكم مقاطعتي الافلاق والبغدان الرومانيتين ، بواسطة أميرين من أبنائهما .

ونتابع استعراضنا لطبيعة التنظيم العثماني في الولايات العربية بالاشارة الى أن الدولة لاتتولى أمور التعليم ، اذ ترك حرا يسير طبقا لنظام موروث . والتعليم مجاني ، تدبر نفقاته بما فيها أجور المعلمين واعانات الطلبة مما يحبسه

أهل الخير وجمعيات الاحسان والاسعاف ، التـي تجمع المعونات مـن جميع الطبقات لتنفق على معاهد العلم وكتاتيبه ومدارسه ، بحيث لم تخل مدينة ولا قرية من هذه المؤسسات التعليمية • ولم ينقطع ارتحال طلبة العلم من مدينة لاخرى • ولم يلاحظ اتصال بين المعاهد العربية والمعاهد التركية ، باستثناء ما كان بين العلماء الشوام والمعاهد التركية وسـلك القضاء العثماني الذي كـان يرتبط ارتباطا وثيقا بسلك التدريس • ودرجات التدريس والقضاء متصلة بحيث يمكن للقاضي ان يكون مدرسا والعكس طالما كانت ثقافتهما واحدة • ويعتبر الجامع الازهر أكبر معاهد العلم آنذاك وأغناها لكثرة الاوقاف المرتبة له ، وكان الجامع الاموي بدمشق والمدارس الملحقة به موئلا للكثير من العلماء والمتعلمين ؛ ولم تخل الحواضر الشامية الاخرى من معاهـد العلم ، كما وجد كثير مـن المدارس في بغداد والموصل والبصرة والعراق ، ووجد مثلها أيضا في حواضـر الحجاز واليمن ، وبقية العالم العربي في المغرب • وظل علماء الدين برغم كـل شيء أكثر تعلقا بالدولة وكرها للثورة والتجديد • وزاد نفوذهم بصبغة الدولة الدينية ، وبتوفر الحكام على بناء المساجد والمدارس والتكايا مع حبس الاوقاف الشاسعة عليها • وكان يسمع صوت العلماء في قضايا الادارة ومشاكل المجتمع وقـد ميزتهم الدولة باعفائهم من الضريبة والمصادرة • واذا نجح العلماء فـي الحفاظ على كيان المجتمع من الانهيار والانحلال ، فانهم جمدوه في أطره القديمة السـالفة • .

وتتم استعراضنا لطبيعة التنظيم العثماني في الولايات العربية ما قبل عصر التنظيمات ، بقولنا أنه يقوم على تنظيم الجماعات في طوائف ، وتجري الادارة العثمانية على قاعدة ترك كل جماعة وطائفة تدبر شؤونها على الوجه الذي ينطبق مع العرف والتقاليد • ونظام الطوائف كان له أثر كبير في حياة الناس ، فمن خلاله يمارس كل فرد دوره في المجتمع دون تدخل من الحكومة • وكان النظام أيضا مرغوبا فيه من وجهة نظر الدولة مادام يقدم لها خدمات مجانية ؛ فهـو يعينها على حفظ النظام بين الاهالي ، ويمكنها من الاتصال بهم والاطلاع عـلى ما يشغل بالهم بأقل العناء والنفقة •

وعلى الرغم من وجود فارق مميز بين الارستقراطية التركية الحاكمة ممثله في الحكام والجيش ، وبين الرعيه العربية ممثلة بالصناع والزراع والتجار والعلماء .. فقد حافظ المجتمع على قوالبه الادارية العربية وعلى مصطلحاته ولغته . ومن المعلوم أنه كان للشعوب والولايات العربية مقام خاص ورعاية خاصة في العهد العثماني ، على اعتبار أن هؤلاء العرب لغتهم لغة القرآن ، ومآثر الحضارة الاسلامية مرتبطة بتلك اللغة وبتلك الولايات . ومما سهل هذا التعايش الايجابي بين الطرفين أن الدولة عاشت طويلا تؤمن بالفكرة العثمانية ، أقصد انها تؤمن بتنوع الثقافات وتعدد الشعوب ، ولم تأخذ بالفكرة الطورانية التركية الضيقة الا مؤخرا . والعثمانيون ما كانوا يرون مانعا من الاستعانة في الحكم برجال لاينتسون الى العنصر التركي ؛ فنحن نرى في أجهزة الرياسة السلطانية الحاكمة أخلاطا من العرب واليونان والارمن وغيرهم ، كما نرى في البلاط العثماني (المابين) كثيرا من كبار الموظفين العرب احتفظوا بأصلهم ، وحذقوا آداب السلوك العثماني واتقنوا اللغة التركية بحكم مناصبهم . ولكن كتلة الجماهير العربية الواسعة ظلت سليمة العروبة بعيدة عن التأثير العثماني . ما علة ذلك ؟

١ ــ يبدو أن طبيعة الحكم العثماني نفسه مسؤولة عن هذا ؛ فالحكم قام على مبدأ الاستعانة بعناصر الحكم القديمة في البلاد المفتوحة ، والاكتفاء بمظاهر السيادة : وجود حاميات عثمانية ، تعيين كبار القضاة والموظفين من العثمانيين ، والاطمئنان الى ارسال الاموال بانتظام الى عاصمة السلطنة . وفيما عدا ذلك ، ترك الحكم العثماني البلاد المفتوحة تتابع السير في الطريق التي كانت تسير فيها ، وحول عناصر الحكم القديمة الى أدوات للحكم العثماني . يظهر ذلك واضحا في مصر وسورية وغيرها بحيث لم يتدخل الحكم العثماني في حياة الناس .

٢ ــ العامل الآخر هو العلاقة بين الترك والعرب : حقيقة ان العرب لم يشتركوا في المقاومه المملوكية العسكرية التي جوبه بها الفاتحون العثمانيون . في الواقع عندما نقرأ للمؤرخين المعاصرين للفتح نلحظ ان الحقيقة الاولى هي

ان الجيوش التي خرجت لمناجزة سليم كانت من المماليك • انما تلا ذلك ان الشعوب العربية استكانت للحكم العثماني عن رهبة أو رغبة أو عجز ، وظلت مدة طويلة كأنها مخدرة مستسلمة ، الى أن استفاقت أواخر القرن التاسع عشر بتأثير انبعاث الروح القومية • وهذه الاستكانة التي قواها طبعا الشعور بالولاء والعطف نحو مركز الخلافة الاسلامية ، لم تؤد الى أن ينزل العرب عن قوميتهم، وانما بدأوا ينظرون الى العثمانيين ــ وخاصة في عصر الانحطاط وفساد الادارة والحكم ــ بنوع من الفتور والانكماش ، وليس من شأن هذا الفتور أن يمهد لتأثير قوي بين الفريقين •

بقي المجتمع متحفظا حيال من يريد بتقاليده سوءا ، وكانت روح المحافظة هذه مما يعجب السلطات العثمانية تماما كما يعجبها توزع المجتمع في طوائف وجماعات لكل منها شيخها المشرف على شؤونها وقضاياها ؛ فالحكم يهمه ألا تنصهر الجماعات وتتكاتف قواها ، في حين كانت الرياسة الدينية الشرعية تتدخل لمصلحة التوازن بين الحاكم والرعية والتقريب بينهما ، وكانت تمارس نفوذا لا يستهان به على الناس وعلى الحكام ، الذين يعرفون من تدين رجال القلم وحرصهم على نقاوة الدين واحقاق العدل ونشر الالفة بين الناس ، ماهو جدير بأن يعلي راية الاسلام الذي كان الرابطة الوحيدة التي تجمع العربي الى التركي • والحق ان رجال السيف من اصحاب الرياسة السلطانية لم يكونوا يرتاحون كثيرا الى هيمنة أصحاب الرياسة الدينية على شؤون المجتمع وأمور الشرع والعقيدة والتعليم ، فنشأ بين الطرفين نوع من التنافر ، الخفي والسافر، ولكن العقلاء من الحكام كانوا يقدرون الدور الذي يقوم به علماء الدين في الحفاظ على وحدة الجماعة الاسلامية وترابطها ، غير مبالين بتباين العنصر والجنس ، وغير مكترثين بالتنظيمات السياسية الجديدة الطارئة •

ومع هذه الاجواء الساكنة المخيمة على الناس في العصر السابق للتنظيمات ، فان المجتمع لم يكن فاقد الحيوية وعديم الشعور بالذات ؛ فما الانتفاضات الناشبة بين حين وآخر في هذا الجزء أو ذاك من الولايات العربية الخاضعة للحكم العثماني الا دليلا على القوة الكامنة في أعماقه ، لولا ماكان يشعر به

من الارتباط المعنوي الذي يشده الى مقام الخلافة الاسلامية في الآستانة •
ويبدو أنه مهما وجه النقد الى الحكم العثماني القائم وشجبت مفاسده ونقائصه في كثير من النواحي ، فانه لايبلغ حد الرغبة في الانفصال عن هذا الحكم •

هذا الى أن المشاكل الدولية الخارجية ، والمشاغل الكبرى التي كانت تواجه الدولة العثمانية ، كانت تضطرها الى ترك الامور بيد أصحاب النفوذ والعصبيات• والدولة دائما تفضل معالجة الاهم على المهم بحسب مقتضى الحال • لأنها كانت مشغولة ـ باستمرار ـ باخماد ثورات البلقان ، وبمجابهة روسية وتهديداتها ، وقمع الثورات الداخلية وتأديب الولاة والعصاة •و من الحوادث المألوفة أن تقوم الدولة بحصار أحد الولاة العاصين لعدة شهور ، ثم ترفع الحصار عنه لانشغالها في مكان آخر ، وهكذا •• وكان اهتمام الدولة منصرفا الى الولايات والسناجق (الالوية) القريبة من العاصمة ، أما في الاماكن البعيدة القاصية كالبلاد العربية، فكانت خططها تجري على تسوية الامور وتسهيلها قدر المستطاع • وكثيرا مانقرأ في التواريخ العثمانية الرسمية تعليمات الدولة للولاة والمتصرفين بما يتفق مع سياسة التساهل والتهاون التي درجوا عليها من ناحية ، وحسب ما يرونه موافقا للظروف القائمة وقتئذ من ناحية أخرى •

على هذا النحو كان خضوع أكثر العرب للدولة العثمانية • وبما أن مفهوم (الدولة) كان يستخدم بمعناه اللغوي ـ بما يقابل الصولة ـ ولا يعبّر عن وظيفة الحكم في حياة المجتمع ـ كما هو معروف اليوم ـ فقد جرت العادة أن يترك أمر الحكم لعوامل القهر والغلبة والتنافس بشرط ألا يقوم على خطط تناقض الشرع الاسلامي وتنافي العدالة على نحو جريء صريح مستمر ، من ناحية • ومن ناحية أخرى أن يتمتع بقدر كاف من القوة يضمن بقاءه ، فاذا عجز عن الاستمرار انتقل الخضوع لمن تغلب عليه[1] •

وهذا ما يفسر أن الانتقال من الخضوع للمماليك الى الخضوع للعثمانيين لم يؤد الى عجب الاهلين العرب أو استنكارهم ، وخاصة ان الملك العثماني لم

---

(١) المصدر نفسه ص ١٢٧

يقم على فكرة تنظيمية سياسية أو اجتماعية جديدة ، وانما ظلّ مبدأ (ابقاء ما كان على ما كان) حجر الزاوية في جهاز الحكم والادارة العثماني . فلم يطرأ أي تغيير على مقومات المجتمع وخاصة في بلاد الشام ومصر ، حيث بقيت عناصر السلطان كما كانت : الفلاحون ، والبدو ، والصناع والتجار والعلماء والاجناد وأصحاب المناصب . وبقي ما كان بين هذه العناصر من علاقات كما بقيت نظم ملكية الاراضي والجباية كما كانت من قبل . ولعل أسوأ ماكان في انتقال العرب من الحكم المملوكي الى الحكم العثماني ينحصر في أن الاول كان يقوده الزعيم القوي المقتدر على كبح عناصر التمرد والفوضى . وفي الثاني رتبت أدوات الحكم وهيئاته على منع ظهور حاكم من هذا النوع .

ولما كانوا يعدّون وظيفة الحكم شيئا ثانويا في حياة المجتمع ، ويعتبرون أن الشؤون الحكومية الاساسية أربعة هي حفظ الأمن والذود عن البلاد وجباية الاموال العامة والقضاء ، فانهم تركوا ما عدا ذلك للجماعات والطوائف تديره وفقا لعرفها وتقاليدها . ولذا كان قصارى همّ الحكومة أن تحافظ على الاوضاع الراهنة لئلا يطرأ عليها أي تجديد أو تغيير خشية أن يؤدي الى زعزعة البناء التقليدي الاداري الموروث .

وكان لابد أن يتلاءم المجتمع مع هذه الحالة ، وذلك بأن ينتظم الناس في طوائف حرفية وهيئات شعبية ، ليكونوا أقدر على تأمين مصالحهم ؛ فأهل الفلاحة يهيمن عليهم نظام الالتزام ، وأهل الصناعة منتظمون في طوائف الحرف . وأهل العلم طائفة لها اعتبارها وكيانها . والمتصوفة لهم طرقهم ، والاجناد منتظمون في اوجاقاتهم أو تابعون لأمرائهم أو أغواتهم . والاعراب البدو منتمون الى عشائر معروفة . والحكومة لاتعرف الفرد من هؤلاء الا عن طريق طائفته ؛ ولكل طائفة كيانها وتقاليدها وزعامتها ، وكلمتها نافذة بالتنظيم والتأديب والتهذيب في أعضائها ، ومقابل ذلك تقوم بالدفاع عنهم وعن مصالحهم وتتحدث باسمهم دون أن يتجاوز محيط اهتمامها الدائرة أو الحي أو المدينة التي تعيش فيها باكتفاء ذاتي . وقامت مبادىء الحكم العثماني حتى القرن التاسع عشر على أساس ان تتخفف الدولة ما أمكن من أعباء الحكم المباشر ، فتترك لطوائف الشعب وهيئاته

أن تدير شؤونها بنفسها مادامت على ولائها للدولة • ونحن اذا أردنا تقييم الحكم العثماني فلا يجب أن تتكلم على حكومات ذلك الزمان بمقاييس وأحكام الزمن الحاضر ، لأن أوضاع وحقائق ذلك الزمان تختلف عن أوضاع وحقائق زماننا • فالشعوب اليوم لها وجهة نظر في الحكومة ومهامها ، مغايرة لوجهة نظر الشعوب في الماضي ؛ فما تراه الآن من واجب الحكومة،لم يكن أولئك يرونه على هذا النحو •

إن انصراف الحكم العثماني قبل عصر التنظيمات عن وضع خطط للتنمية في شتى وجوه حياة المجتمع المتصلة بما يعرف اليوم بالمواصلات والتعليم والصحة والاشغال العامة والشؤون البلدية والقروية ، والشؤون الاجتماعية والعمل ، والزراعة ، والصناعة ، والاقتصاد ، والتموين والتجارة الخ ••• يعني انه لم يكن يفترض في الحكومة ــ كما رآها العثمانيون ــ أن تهتم بهذه الوجوه العمرانية من حياة المجتمع ، فهي متروكة لرعاياها وطوائفها وهيئاتها المختلفة ، ولم يسبق لحكومة عثمانية أن عالجتها أو مارستها لا في موطنها الاصلي بآسية الصغرى ولا في ولاياتها العربية أو الاوربية • صحيح ان السلطان أو الوالي يبني مدرسة ، ولكن ينفق عليها من ماله الخاص ، وليس معنى هذا أن هذه الوجوه كانت مهملة ولكن معناها أنها لم تكن منتظرة من الحكومة • ثم إن الباشا أو الوالي في ولايته يتمشى مع نزعة المحافظة المسيطرة على الدولة ، لأن أي تجديد يدخله على ادارته يقتضي منه حركة وجهدا في المتابعة والاشراف ، وقد يؤدي الى اضطراب أمورها وطمع الطامعين فيها ، في حين أنه قانع بأن يعيش ليومه ويزود نفسه وحكمه بأسباب الحماية اللازمة لدفع كيد خصومه وتعزيز مركزه ومضاعفة ثروته • فاذا حدّث عن اصلاح ترعة أو قنطرة أو معبر وعما يعود به ذلك الاصلاح من الخير على الأهلين ، لردّ أنه لو قتل في الغد لانتفع بالترعة غيره ! وهذه هي الحكومة الشخصية التي يقيس صاحبها كل شيء بما يعود على شخصه من فائدة مضمونة ، والتي ترى بسياستها الخرقاء أن المستقبل غير مضمون ، فلا عجب اذا تدهورت الاحوال الاقتصادية والاجتماعية عموما ، وتجلى تدهورها بتقلص رقعة الارض المزروعة ، وانتشار الخراب والاهمال في

المدن والريف ، وغزو البادية للحاضرة ، وعجز البلاد عن احتمال نكبة طبيعية طارئة كوباء أو فيضان أو جراد • ولا عجب اذا جمد المجتمع العثماني في أطره القديمة وتوقف عن النمو ، واتسم بشيوع روح التواكل ، وانعدام الحوافز ، واهمال مرافق البلاد • وزاده سوءا اختلال توازن القوى المهيمنة على الادارة والحكم ، واصطناعها العصابات المسلحة للاحتماء بها ، واضطرارها لارضاء نزوات أخلاطها في الانتهاك والانتهاب • ولذلك لم يؤد الحكم العثماني الى قيام علاقات اقتصادية وثقافية بين مختلف الاقطار العربية أكثر توثيقا من ذي قبل •

فالرعايا المسلمون في الولايات متفرقون حسب انتمائهم لجماعات أهل الحرب أو أهل العلم أو الشرع أو الكتابة أو الفلاحة أو الحرف أو التجارة ، يدورون في أطر طوائفهم واهتماماتهم التقليدية ، ولم يكن قد ظهر فيهم أساس أو فكرة لبناء تضامني جديد •

أما الرعايا المسيحيون فكانت شؤون طوائفهم تستغرق كل آمالهم وآلامهم • ويقتضينا الانصاف ان نلاحظ أن هذا المجتمع العثماني كان خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر ، في موقف لم يكن من صنعه وحده • بل كان أيضا من صنع سياسات الدول الاوربية نحو الدولة العثمانية ، نجم عنها تقييد حريتها في الحركة والتصرف • ذلك أن تربّص كل من الدول الاوربية بالدولة لتقتطع ما يمكن من أملاكها ، وامتعاض هذه الدول من خضوع شعوب مسيحية لحكم اسلامي ، كان لابد أن يرتبط بسهر الدول على حماية أوضاع معينة في الدولة • فبينما اعتنقت الدولة العثمانية النظرية الاسلامية التي قسمت العالم الى دار اسلام ودار حرب ، وصدّت عن دار الحرب في أيام اختلال توازن القوى ورجحان كفة اوربة ، فان اعتناق الدول الاوربية لنظرية مسيحية من نفس النوع ، لم يمنعها من الاقبال على الدول الاسلامية وتوثيق الصلات بشعوبها ، لتحقق منافع متنوعة أسهمت في تفوقها السياسي والحربي والاقتصادي والعلمي •

ولكن هل قطع العثمانيون أسباب الاتصال التجاري بين العرب وأوربة ؟ كلا ؛ لان التجارة كان أكثرها قد تحول عن الطرق القديمة التي تمر بالاقطار

العربية (مصر والشام والعراق) • وقد حدث هذا قبل الفتح العثماني للاقطار العربية وليس بعده ؛ وقد تم هذا التحول نتيجة لحركة الكشوف الجغرافية التي حملت البرتغاليين الى الهند والشرق الاقصى مباشرة عبر رأس الرجاء الصالح • وبعد ذلك قاموا بتحويل التجارة الشرقية التي كان يتولاها العرب الى الطريق الجديد ، وفرضوا الحصار على البحار والسواحل العربية ، وأدى ذلك الى فقر المنطقة العربية ، وانزوائها عن السياسة العالمية والاقتصاد العالمي • وهذا واضح فيما كتبه المؤرخون وأبرز من يمثلهم ابن إياس الذي عاصر أواخر عهد السلطنة المملوكية وأوائل الحكم العثماني ، وبيّن في كتابه الهام « بدائع الزهور في وقائع الدهور » ، كيف أثّر هذا التحول التجاري في تدهور رخاء بلاد مصر والشام الى حد كبير • وكان أول عمل قام به العثمانيون بعد استخلاص مصر والشام من المماليك الذين عجزوا عن مدافعة البرتغاليين ، هو ارسال الاساطيل العثمانية الى البحار العربية في عدة تجريدات وصلت الى الهند والبصرة عن طريق ميناء السويس والبحر الاحمر والبحار العربية ، لفك الحصار الذي فرضه البرتغاليون واختراق تطويقهم للسواحل العربية • اضافة الى مسعاهم لتشجيع البنادقة على احياء الطرق العربية القديمة عبر مصر ، واعادة أسباب التجارة اليها •

حقيقة ان الدولة العثمانية في القرن السادس عشر ، لم تضرب نطاقا من العزلة حول العالم العربي الذي امتلكت معظم أقطاره ؛ ولكن عندما بدأت تلوح على الدولة العثمانية فيما بعد ، مظاهر الانحطاط والضعف ، وتقاسي من هزائم جيوشها أمام روسية والنمسة من ناحية • وعندما بدأت بعض الدول الاوربية تفكر في العودة الى استخدام الطرق القديمة ، والاتصال بحكام الاقطار العربية التي تمر بها تلك الطرق ، من ناحية أخرى ، صارت الدولة تشك في مداخلات الاوربيين ، ورأت من المصلحة وقفها والحيلولة دون فتح باب التدخل الاوربي في شؤونها ، خشية أن يؤدي الى انتهاك سيادة السلطان على ممتلكاته ، وتحرّزا من أن تتكون مصالح للحكام مع الدول الاجنبية التي تتصل بهم من وراء ظهر الباب العالي • ومن الأمثلة على ذلك ، فخر الدين المعني الثاني مع

تسكانة واسبانية واليابوية • وعلي بك الكبير مع روسية ، وبعده البكوات المماليك في مصر مع فرنسة ثم مع انكلترة • ونقرأ في أحد الفرمانات التي أرسلها السلطان العثماني الى بعض أمراء المماليك في مصر ، يحذرهم ويضرب لهم المثل بما حدث للامارات الاسلامية في الهند على يد الانكليز ، الذين نزلوا في الهند كتجار أولا ، ثم أصبح لشركة الهند الشرقية التي شكلوها ، جيوش وأساطيل استولوا بها على معظم الهند • فالسلطان يقول للمماليك تأملوا ما حدث في الهند وخذوا منه عبرة : تبدأ السيطرة بالتجارة وتنتهي بالاحتلال •

ولعله نتيجة لشعور العثمانيين بالاخطار التي تتهدد دولتهم ، وبضعفهم ازاءها ، وجدوا أن أسلم طريقة هي أن يقفلوا الباب دون رياح التغييرات والمداخلات ، خوفا أن يؤدي فتحه الى تعريض الدولة لمشاكل لاتقوى على مواجهتها •

بيد أن الدولة ماكان بمقدورها أن تحافظ على نظمها الموروثة مدة طويلة دون أن يتطرق اليها الخلل والفساد ، وقد حدث ذلك في المرحلة التالية • وهكذا لم تتجه الدولة في القرن السادس عشر نحو العزلة بسبب تكافؤ قوتها أو رجحانها على قوة أوربة ؛ ولكن في القرنين التاليين ، ونتيجة لانحطاط أداتها العسكرية برا وبحرا ، وتخلف نظمها وأحوالها بالقياس الى أوربة ، عجزت عن مواجهة هذه المداخلات ، وأوصدت الباب دونها ، وبذلك فوّتت على ولاياتها التركية والعربية فرصة الافادة من منجزات التقدم الاوربي في ميادين الحرب والعلم والاقتصاد التي كانت تحفل بها أوربة آنذاك •

لقد انتهت مرحلة ماقبل التنظيمات التي جرى فيها الحكم نظريا وفق خطط وتقاليد موروثة ، قبيل نهاية القرن الثامن عشر ، وذلك حين تحقق أصحاب الحل والعقد في الدولة من ضرورة الاخذ بسياسة الاصلاح والتجديد ، لانقاذ الدولة من فتن العصبيات والمغامرين في الداخل ، ومن عواقب الهزائم العسكرية في الخارج ، في ما يسمى بعصر الانحطاط الذي بدأ بفساد الانكشارية •

ان ضعف الدولة العثمانية الذي بدأ في أواخر القرن السادس عشر باختلال الاداة العسكرية (الجيش الانكشاري) يسجل اتجـاه الدولة نحو الانحطاط والانهيار بسرعة متفاوتة حتى مستهل القرن التاسع عشر • هذه الاداة العسكرية التي أوصلت العثمانيين الى قمم المجد الحربي والاداري بدأت تتحول من أداة أمن ودفاع الى أداة شر وفساد • ففي داخل البلاد تكرر عدوانهم على الأموال والارواح والاعراض ، وتضاءل ارتباطهـم بثكناتهم ، وصار الكثيرون منهـم لا يترددون عليهـا الا لاستلام (العلوفات) أي المرتبات ، « ولا يجتمعون الا لرفع صوت العصيان ، بمطالبة زيادة العلوفات والعطايا ، أو بطلب عزل وزير ، أو تنصيبه ، أو شنق جماعة من الوزراء ، مندفعين في كل ذلك بتسويلات أرباب المنافع والاغراض ، وأبطال الدسائس والمؤامرات • وعندما تقرر الدولة تسفير الانكشارية الى ساحال القتـال ، ماكانت تجـد هناك الا عددا ضئيلا مـن المسجلين ــ يقل عن النصف تقريبا ــ وهؤلاء أيضا ، قلما كانوا يصمدون أمام هجمات الاعداء ، بل كثيرا ماكانوا ينهزمون عند أول اصطدام • ثم يحاولون أن يستروا (عار هزيمتهم) بنشر شـتى الاشاعات بـين الناس ، مدعين (أن القواد باعوهم ، أو أرادوا أن يبيعوهم الى الاعداء الكفار) »[1] •

ان اختلال الاداة العسكرية التي قامت عليها الدولـة العثمانية أساسا ، أفسح المجال لانطلاق أطماع الولاة ، وتعسف أصحاب الاقطاعات • وبمـا أن أمراء الالوية والايالات وجميع الموظفـين ماكانوا يتناولون مرتبات مقننة مـن خزانة الدولة ، وانما كانوا يتقاضون الضرائب والتكاليف المخصصة لوظيفتها ، بعد الاستعانة بطائفة من أهل البـلاد (متسلمين) يتولون جبايـة الضرائب

---

(١) الحصري ، المصدر السابق ص ٤٧ــ٤٨
قيّد في سجلات الجند كثير من الدخلاء كالباعة والفطاطرية والقهوجية ومن اليهم . ويقال في مبدأ قيد المحاربين في صفوف الجيش الانكشاري (النظامي) ان احد السلاطين احب ان يكافىء المهرجين الذين اشتركوا في مهرجانات ختان ابنه فقيّدهم في سجلات الجند . ثم ان الجند الاقطاعي (غير النظامي) اختل عندما صارت الاقطاعات تمنح لا نظير استعداد اصحابها للحرب عند الحاجة ، وانما صارت تمنح لبواعث أخرى كالحظوة والرضا والمحسوبية .

باسمهم ، فلا عجب اذا استرسل الباشوات والولاة في ارهاق الاهالي وفرض المغارم عليهم ، مستخدمين القوة العسكرية لضمان منافعهم واستئثارهم وجماعاتهم بالثروة والنفوذ ، مما أدى الى اضطراب أمور الدولة واختلال موازينها من جميع الوجوه المادية والمعنوية • هذا الى أن الدولة أخذت تعين الولاة والمتصرفين الذين يدفعون لها أكبر حصة من الاموال ، فترسو هذه المناصب على المزايد الاخير • كذلك أخذت الدولة بنظام الالتزام في جباية الاموال الاميرية والضرائب وذلك عن طريق المزايدة ، وطبيعي أن الملتزمين يلجأون الى شتى صنوف التسلط والاستغلال لكي يضمنوا لأنفسهم الثروة بعد استيفاء قيمة التزامهم •

وعلى الرغم من أن الملك العثماني حرص على وضع نظام مفصل لكل الامور ، كما انه اهتم بقيدها في الدفاتر والسجلات ، وحتّم أن يكون النظر في بعض الشؤون من حق دواوين أو هيئات ينعقد اجتماعها بين حين وآخر ، ولا يترك النظر فيها للاشخاص مهما كانوا ، غير أن احترام الانظمة كان شكليا أكثر منه حقيقيا • ونضرب لذلك مثلا من أيام مصر محمد علي في القرن التاسع عشر ، حيث بقيت فيها حتى أيامه حامية عثمانية مسجلة في السجلات ولها مرتبات • في حين أن القوة الحقيقة التي تصدت للحملة الفرنسية (١٧٩٨) كانت تتألف من المماليك وبكواتهم لا من الحامية العثمانية •

وبعد ، فقد استتبع اتساع الدولة وتعدّد عناصرها وشعوبها ، أنها تركت لها حرية السير على مألوف حياتها ، فلم تحاول السيطرة على حياة الناس ، ولم تصطنع سياسات تؤثر على العناصر القومية والعصبيات المختلفة ، لان الدولة لاتقوم على أساس قومي يرمي الى تغليب عنصر على آخر ، وانما تقوم على أساس رابطة عثمانية تجمع هذه الشعوب المتباينة أصلا ودينا وثقافة ولغة ، عن طريق الخدمة في الجيش (ضريبة الدم) وفي الحكم والادارة والسفارات ••• بيد أن الدولة لجأت الى احياء الرابطة العثمانية حين بدأت رياح القومية تهب عليها وتتأثر بها عناصر الدولة ، وخاصة في النصف الثاني ، من القرن التاسع عشر ، وفي عهد السلطان عبد الحميد الثاني • ولكن الاتحاديين الذين حكموا

الدولة من بعده ، سيطرت على تفكيرهم النزعة الطورانية الداعية الى تتريك عناصر الدولة ، وتمييز العنصر التركي في الحكم والجيش واللغة ، وان ظلوا ينادون بالعثمانية كمجرد وسيلة للابقاء على ولاء العرب للدولة •

وهكذا ساعدت سطحية الحكم في العصر العثماني الاول الذي ينتهي مع مطلع القرن التاسع عشر ، على احتفاظ العرب بقوميتهم سليمة متميزة • حتى اذا هبت رياح القومية في العصر العثماني الثاني ، وجدت القومية العربية مستكملة العناصر وتامة البناء • ولم تقو السياسة الطورانية أن تتغلب عليها ، بل بالعكس كانت الغلبة في النهاية للقومية العربية ، وتم انفصال العرب عن الدولة في الحرب العالمية الاولى •

الفصل الأول

تكوين المشرق العربي (١٨٠٠ – ١٩٢٠)

(عصر النهضة)

١ – المشرق العربي بين المطامع الدولية وحركات الاصلاح الوطني

أدى اختلال نظم الحكم العثماني الموروثة الى أمرين : الاول هو زحف الاستعمار الاوربي الى أجزاء الدولة العثمانية بما فيها المشرق العربي ، ومارافقه من التنازع الدولي على امتلاك أقطاره في القرن الماضي وحتى العشرينات من القرن الحالي ، وما خلفته المطامع الاستعمارية من الاوضاع السياسية والنزعات الاقليمية التي تولدت عن تلك الاوضاع • والثاني هو ظهور حركة الاصلاح والتجديد في الدولة في مطلع القرن التاسع عشر ، على أساس هدم النظم الاقطاعية وبناء الدولة الحديثة لوقف تدهور الدولة والابقاء على ممتلكاتها ضد المطامع الاوربية التي سيطرت على أجزاء منها في المشرق والمغرب • وحركة الاصلاح والتجديد التي عرفت باسم (التنظيمات) في العقد الرابع من القرن الماضي ، تأثرت بها الولايات العربية بشكل متفاوت ولكن ملموس • فمن التنظيمات ماتم على يد الحكومة وعمالها بهدف ربط الولاية بالعاصمة ربطا قويا واخضاع الجماعات والهيئات لسلطان الحكومة المركزي بشكل مباشر • وتميزت في آخر مراحلها بتوسيع شقة الخلاف بين العرب والترك ، على نحو لم يألفه العرب قبل عصر التنظيمات •

ومن التنظيمات ماتم على يد الجماعات والهيئات نفسها ، وخاصة في شؤون التربية والتعليم والاستثمار •• فكان من العوامل الفعالة في تكوين الوعي القومي العربي •

لقد تأثرت الفكرة القومية العربية بالامرين كليهما ، ولكنها لم تتخذ شكلا

موحدا في مختلف مراكز الحياة العربية خلال القرن التاسع عشر • وانما اتخذت بداياتها مظاهر متباينة في وحيها ودوافعها وتطلعاتها • ففــي الجزيرة العربية ، اتخذت(الوهابية)شكل حركة اصلاح ديني سلفي يدعو الى التوحيد الكامل ، ونبذ الشرك في كل صوره • وقد تركت ــ كالحركات السلفية الاخرى مثل السنوسية في شمال افريقية والمهدية في السودان ــ آثارا بعيدة في الحياة العربية • وفي مصر اتخذت شكل التحرر من النفوذ المملوكي ــ العثماني ، وبناء دولة وطنية حديثة مع حرص على الاصلاح والتجديد الاجتماعي والاقتصادي والثقافي • وفي أقطار الهلال الخصيب (الشام والعراق) ظهرت بشكل نهضة ثقافية أدبية وفكرية استمدت أصولها من التراث العربي القديم ، ومن المآثر العلمية والتقنية التــي وجدت سبيلها الى الاذهان بفضل تعرض هذه المنطقة للتأثيرات الغربية • وقــد تطلعت أولا الى طلب الاصلاح والمساواة مع الترك ، ثم صمّمت بعد يأسها من الاستجابة لمطالبها على الانفصال نهائيا عن الدولة العثمانية ، واتجهت نحو انشاء الدولة العربية الموحدة قبل أن تتآمر عليها المطامع الاوربية •

إن هذه الامور الثلاثة كانت بمثابة (عوامل) أسهمت في بنــاء وتكوين صورة المشرق العربي المعاصر على ماهي عليه اليوم •

واذا كان العامل الثالث (القومية العربية) قد نما مستقلا بذاته ، ومتأثرا بالعاملين السابقين ، وبمقتضيات المرحلة التاريخية المعاصرة ، فان العاملين الاولين كانا تتمة لعاملين سابقين أسهما في تكوين العالم العربي الحديث ، منذ القــرن السادس عشر وحتى أواخر القرن الثامن عشر ، وهما حركة الكشوف الجغرافية الاستعمارية أو التطويق الاوربي للعالم العربي ، والحكم العثماني لهذا العــالم العربــي •

ولنبــدأ بزحف الاستعمار الاوربي الى المشرق العربــي وقــد استهــل بالحملة الفرنسية على مصر ، فبدأ بها تحول جذري في مشاريع التوسع الاوربي الموجهة نحو ولايات الدولة العثمانية • ذلك أنه قبل الحملــة ، كان الضغط الاوربي المباشر يقع على ولايات الدولة في البلقان ، أو على سواحل البحــار العربية الآسيوية[١] • ولنستذكر أن التطويق الاوربــي للعالم العربي ما بــين

---

(١) غربال ــ المصدر السابق ص ٨٨

(١٥٠٠ ــ ١٨٠٠) أنجز به الاوربيون الاحاطة بالعالم العربي العثماني في جزئيه الافريقي والآسيوي ، في أطرافه وعلى هامشـه ، فاذا حكموا جزءا كان عـلى السـاحل •

أما الآن فقد أخذ الاوربيون يهمون باختراق ذلك العالم وامتلاك أقصـر الطرق بين الشرق والغرب : فالتطويق اذن يتطور الى بسط نفوذ واحتلال فعلي في القلب • والامثلة حملة فرنسة على مصر (١٧٩٨) واحتلال فرنسة الجزائر وتونس (١٨٣٠،١٨٨١)واحتلال انكلترا مصر (١٨٨٢) ، ثم احتلال بقية الاقطار العربية بعد عام ١٩٠٠

فالتطويق الذي بدأ بتأسيس امبراطوريات آسيوية للدول الاستعمارية ولم يؤدّ الى اعتداء على حوزة العالم العربي في المرحلة الاولى ، تطور الى احتلال في المرحلة الثانية ، لتفاوت قوة العرب وقوة أوربة في العلم والحرب والاقتصاد • وأول أمثلته حملة فرنسة على مصر ، ويهمنا من نتائجها ظهور شخصية محمد علي ومحاولة بناء دولة مصر الحديثة ، وبناء دولة عربية موحدة انتظمت أقطار المشرق العربي • •

استهل الزحف الاستعماري الاوربي بالحملة الفرنسية على مصر (١٧٩٨ ــ ١٨٠١)[١] ، فأنهى عهد الركود والجمود والمحافظة ، وبـدأ عهد الحركة

---

(١) انظر أيضا للاستزادة المراجع الآتية :
الشيخ عبد الرحمن الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والاخبار الجـزآن الاول والثاني (طبعة القاهرة ١٣٢٢ هـ) •
محمد شفيق غربال : مصر عند مفترق الطرق (١٧٩٨ ــ ١٨٠١) مقالة فـي مجلة كلية الآداب في الجامعة المصرية ١٩٣٨ •
نقولا الترك : مذكرات نقولا الترك ــ نشر غاستون فيت (القاهرة ١٩٥٠)
محمد فؤاد شكري : الحملة الفرنسية على مصر وظهور محمد علي (القاهرة ١٩٤٨)
— Charles-Roux. : Les origines de l'Expedition d'Egypte. Paris 1910
— Hoskins : British routes to India. London 1928.
— Ghorbal-Ch. : The Beginning of the Egyptian question & the rise of Moh. Ali. London, 1928.
— Pajol-Le Comte : Kléber, Sa vie, sa Correspondance, Paris 1877.
— Rigault G. : Le Général Abdallah Menou et la dernière phase de l'Expedition d'Egypte (1799-1801). Paris 1911

والتطور والتغيير • والفترة الواقعة بين (١٧٨٩ ــ ١٨١٥) هــي فترة الثورة الفرنسية ونابليون ، وهي فترةحركــة الديبلوماسية الاوربيــة ، بمعنــى أن الحروب التي بدأت بين فرنسة ودول أوربة لم تقتصر على الميدان الاوربي ، بل اتسعت نحو ميادين ومناطق بعيدة ، بغية ضرب الخصــم في أهم مراكزه الاستراتيجية والتموينية بعد الفشل في غزو جزره •• والخصم هو انكلترة ، وخير طريقة لضربها هو هزيمتها في المستعمرات الشرقية والقضاء على تجارتها بتحويل التجارة الشرقية الى برزخ السويس والبحر المتوسط ، بدلا من طريق رأس الرجاء الصالح الذي تتحكم فيه • والسبيل الى ذلك تكوين امبراطورية فرنسية شرقية تكون مصر قاعدتها ، تعوض على فرنسة بعض ما فقدته مــن المستعمرات في صراعها العنيف مع انكلترة • ونظرية نابليون في امتلاك مصــر بالنسبة للدولة العثمانية هي أن يعلن أنه ينزل أرض مصر لا بقصــد الاعتداء على حقوق السلطان ، بل تأديبا للامراء والمماليك الذين يتمتعون بالقصور والجياد والنعم ، وهم أجلاف الاباظة والشركس والرقيق ، دون أن يكون لهم ســند من التاريخ وحجة من القرآن والحديث تتيح لهم الاستمتاع بمصر • والحق ان الدولة العثمانية كانت مستعدة لتصديق مزاعم نابليون بصدد تأديب المماليك المتردين انتقاما لصاحب السلطان الشرعي ، الى أن ثبت لها أنه يمكنها أن لاتصدق ذلك ولا تسلّم به ، وذلك بمعونة روسية التي وجدت في عمل فرنسة مقدمة لغزو الدولة العثمانية • وبريطانية التي بادرت لتحطيم الاسطول الفرنسي في أبي قير ، خشية أن يؤدي تزايد قوة فرنســة الثورة الى اختــلال التوازن الدولي في أوربة والاضرار بمصالح انكلترة وحلفائها •

لقد اعتبر احتلال نابليون لمصر مشروعا خطيرا لان فرنسة صديقة الدولة العثمانية التقليدية وحليفتها ، غزت ولاية من أهــم ولايات السلطان وحاولت اقتطاعها على وجه لم يسبق له مثيل من قبل • فلأول مرة يغزى العالم العربــي الاسلامي في عقر داره ، وقد كان النفوذ الاوربي قبله لايمس أقطار العروبة الا في الهامش وعلى الاطراف ، كما كــان الحال مع الإمارات والشياخات عــلى سواحل الجزيرة العربية وافريقية الشرقية • ولذلك فان حكومة الثورة الفرنسية

باحتلال مصر ، بلغت مبلغ الانقلاب في السياسة ، وسجلت بداية تغير خطير في علاقات العالم العربي العثماني بأوربة ، وقد اقتصر معظمها قبل ذلك على العلاقات التجارية ، أو علاقات التعاطف والتناصر بين بعض دول أوربة (فرنسة وروسية) وبين بعض الطوائف المسيحية من رعايا السلطان •

الحملة الفرنسية على مصر (١٧٩٨ ـ ١٨٠١) :

لاترجع أصول الحملة على مصر فقط الى الحرب الناشبة بين فرنسة الثورة وأعدائها ، والى التنافس الاستعماري بين فرنسة وبريطانية ، انما ترجع أيضا الى الرغبة في تأسيس امبراطورية فرنسية تضم حوض البحر المتوسط على النمط الروماني القديم ، والى التاريخ الداخلي للثورة الفرنسية وتطورها نحو القيصرية والامبريالية •

ومعلوم أنه بعد أن فقدت فرنسة الشطر الاكبر من مستعمراتها في صلح اوترخت (١٧١٣) وصلح باريس (١٧٦٣) ، انصرف الفرنسيون عن الاستعمار في الفترة التي سبقت الثورة الفرنسية ، بفضل أفكار روسو ومونتسكيو وڤولتير الذين انتقدوا حكمة النضال للحصول على مستعمرات ، واستخدام الرقيق الاسود فيها والاحتكار ، واقترحوا توفير الجهد والنفس والمال وتحويله لاستغلال موارد فرنسة الداخلية • ويبدو أن ضرورة الاحتفاظ بمراكز الاستعمار الفرنسي بالهند كانت ماثلة دائما في مخيلة الساسةالفرنسيين ، تحرزا من انهيار امبراطوريتهم الاستعمارية بضياع هذه المراكز من جهة ، وحرصا على فرصة الاقتصاص من منافسيهم القدامى ـ الانكليز ـ من جهة أخرى بطردهم من الهند • وفي أوائل التسعينات من القرن الثامن عشر تركزت أنظار فرنسة على الشرق عموما وعلى مصر خصوصا ، باعتبارها تشكل تعويضا لفقدان مستعمراتها الوشيك في جزر الهند الغربية • ومعلوم أن ثلاثة من الرحالة الفرنسيين أشاروا الى أهمية الاستحواذ على مصر وسهولة غزوها ، وهم البارون دي توت وساڤاري وڤولني • فقد ورد في رحلة فولني التي تعتبر مرجعا هاما لمعرفة أحوال مصر في أواخر القرن الثامن عشر ، أن مصر « لاقيمة حربية لها ، وليس فيها أية تحصينات ، وفنارها مهمل ، وحاميتها لاتحسن الرماية .

بالمدافع الرديئة المتوفرة لديها، وعساكرها من الانكشارية نقص عددهم من الخمسمائة الى النصف تقريبا »[1] ... بينما أشار دي توت وساڤاري الى تقهقر مصر العثمانية وحفز الهمم لامتلاكها . ولكن تاليران ، وزير الخارجية في حكومة الادارة ، كان له أهمية خاصة في ترجيح كفة غزو مصر . وقبل ان يستلم منصبه ألقى بحثا في المجمع العلمي الفرنسي (تموز ١٧٩٧)، بيّن فيه فوائد امتلاك المستعمرات في الشرق ، ثم قدم تقريرا الى الحكومة عرض فيه تاريخ العلاقات بين فرنسة ومصر منذ أقدم العصور (شباط ١٧٩٨)، وشرح نظام الحكم العثماني الضعيف هناك ، وبروز المماليك على المسرح السياسي ، وعدّد المغارم والمظالم التي تثقل كواهل الفرنسيين في مصر منذ ايام علي بك الكبير ، وحتى إمعان مراد بك وابراهيم بك في ارهاق الفرنسيين بسبب قيام الثورة الفرنسية ونفورهم منها ، بتحريض من النمسويين والانكليز . وعرض تاليران لمنتجات مصر وتجارتها وموقعها المتوسط ، وتحول تجارة الهند الى طريق السويس القصير المأمون ، وتهديم النفوذ البريطاني في الهند نتيجة اعادة احياء طريق البحر الاحمر . وختم تقريره بالتأكيد على سهولة غزو مصر ، ونفقاته المعتدلة بالقياس الى فوائده الجمّة. ويلاحظ أنه جمع بين فكرة فتح مصر ، وفكرة التدخل في الهند، باعتبار أن فتح مصر هو الخطوة الاولى نحو طرد الانكليز من الهند والقضاء على تجارتهم الشرقية ، ومن هنا بدأ الربط بين مصر والهند في التفكير السياسي البريطاني أيضا ، فكان لذلك ما بعده كما سنرى . اتخذت حكومة الادارة قرارا سريا باحتلال مصر ، وأسندت الى الجنرال نابليون بونابرت قيادة (جيش الشرق) في نيسان ١٧٩٨ ، وخرج بونابرت في ١٦ أيار من ميناء طولون ، وانضمت اليه بعض السفن من جنوى وكورسيكة فأصبح عدد أسطوله ٥٥ سفينة حربية و ٢٨٠ ناقلة تحمل (٣٦٨٢٦) جنديا بخيلهم ومعداتهم ومدافعهم . وظهر الاسطول أمام جزيرة مالطة وهي يومها مأهولة بفرسان القديس يوحنا الذين نزحوا اليها من رودس عقب هزائمهم في الحروب الصليبية ، وبعد أن سمح لهم سليمان القانوني بالانسحاب منها ، منحهم الامبراطور شارلكان جزيرة مالطة سنة ١٥٣٠م . وحين رفض البارون هومبش Hompesch النمساوي

Volney, C.F I. PP. 7-8, 135

رئيس الفرسان دخول جميع السفن الفرنسية الى الميناء ، اتهمه نابليون بأنه يمالىء أعداءه الانكليز ويمون سفنهم بما تحتاجه ، وأنزل جنوده بسرعة الى الجزيرة بحيث لم تستطع قلاع الجزيرة أن تصيبهم بأضرار تذكر ، وغادر هومبش الجزيرة بعد أن تعهد نابليون بتعويضه عن إمارته . ووضع نابليون دستورا جديدا للجزيرة ينظم شؤونها العسكرية والمدنية والدينية ، وانقص امتيازات الكنيسة ، وألغى الرق ، وأعتق ألفي أسير من المسلمين كانوا معدّين للبيع في أسواق النخاسة . واطلع تاليران السفير العثماني في باريس على مافعلته فرنسة بالفرسان أعداء الاسلام ، واعتبر ذلك دليل وفاء فرنسة للعثمانيين . ثم اتجهت الحملة صوب الاسكندرية بطريق ملتو للافلات من تعقب الاسطول البريطاني . وفي ٢٩ حزيران ظهر نابليون أمام الاسكندرية فأخبره القنصل الفرنسي فيها بأن ١٤ سفينة انكليزية بقيادة نلسون وصلت الاسكندرية قبل ثلاثة أيام ،وغادرتها الى مياه أزمير للبحث عن السفن الفرنسية . أسرع نابليون بانزال جنوده وعتادهم في مطلع تموز ، وفقد ١٥٠ رجلا أثناء اقتحام أسوار الميناء ، على يد الانكشارية وبعض العربان المدافعين عنها ، ثم سلك الطريق الصحراوي باتجاه القاهرة ، وقد أنهك الجوع والعطش والحرّ قوى الجنود خلال سبعة عشر يوما استلزمها سير الحملة ، فضلا عن مفاجأة العربان لهم وقتل المتخلفين منهم بسبب التعب والاعياء . وحدث الاشتباك الحاسم مع المماليك بقيادة مراد بك ، وقد انتشرت قواتهم (حوالي ٥٠ ألفا من المماليك ومن انضم اليهم من الانكشارية وغيرهم من العربان) من بشتيل وامبابة الى الاهرامات . واعتمد نابليون على الحركة السريعة لتفادي اصابات المدافع ، ولم تجد المماليك فروسيتهم نفعا برغم شجاعة مراد بك فانسحب الى الجيزة ، وغرق في النيل من حاول النجاة من جنوده . واضطرب حبل الامن في القاهرة بسبب الهزيمة ، وانتشر فيها السلب والنهب والاعتداء ، ورأى كبراء البلد وشيوخها أن التسليم هو سبيل الخروج من هذا المأزق ، ودخل الفرنسيون القاهرة في ٢٤ تموز ، وانسحبت فلول المماليك الى الصعيد ، كما انسحب ابراهيم بك الى سيناء . وزعم بونابرت ان خسائره من القتلى نحو العشرين أو الثلاثين ، والجرحى مائة وعشرين ، وقدر خسائر المماليك بنحو الالفين ، وطبيعي أن يقلل

من خسائره ويبالغ في خسائر عدوه • ووزع منشوره المشهور باللغة العربية ، وفيه أمّن الاهالي على أرواحهم وأعراضهم وأموالهم وعقائدهم الدينية وعاداتهم ، وشرع في تنظيم الادارة الاهلية فأوجد ديوان حكومة القاهرة ودواوين المديريات الى جانب الحاكم الفرنسي لمعاونته على استقرار البلاد • ولم تلبث أنباء كارثة أبي قير أن تناهت الى سمع نابليون ، ذلك ان نلسون تمكن من حصر السفن الفرنسية في خليج أبي قير بين سفنه ، وأصلاها نارا حامية نسفت سفينة القيادة الفرنسية ولم ينج سوى سفينتين ، وقتل قائد الاسطول (٢ آب) • وكانت نتائج المعركة حاسمة ، فقد عطّلت نهائيا مشروع ارسال الحملة المرتقبة الى الهند ، ثم قطعت الصلة بين مصر وفرنسة • فاضطر الفرنسيون الى الاعتماد على موارد مصر الداخلية ، وترتب على ذلك أن تحركت الثورة في القاهرة ، ونشبت الاضطرابات في الاقاليم ، وتقطعت خيوط التعاون الواهية بين الفاتحين وأهل البلاد •

وكان من نتائج هزيمة أبي قير أيضا أن انضم العثمانيون الى الانكليز والروس في التحالف ضد الفرنسيين ، (كانون الثاني ١٧٩٩) ، وشاركوا في الحملات التي حشدت لطرد الفرنسيين في مصر حتى أُجلوا عنها قبل صلح أميان في آذار ١٨٠٢ • كذلك فشلت سياسة بونابرت الاسلامية تماما ، وكان قد حرص فيها على اظهار احترامه للدين الاسلامي وشعائره ، والاهتمام بالاحتفالات الدينية وتعيين أمير للحج ، واجتذاب المصريين بأمنية النهوض بالقاهرة لتحتل مركزها اللائق في العالم الاسلامي بجانب مراكز الاسلام الرئيسية •

وكانت وسيلته الى ذلك نقد السلطان العثماني ، واتهامه باهمال المصلحة الاسلامية والتراث الاسلامي ، والتشهير بحلفاء السلطان الجدد ، وهم الروس الذين يعتقدون بآلهة ثلاثة ، على حين يدين الفرنسيون بإله واحد هو الذي أرسل بونابرت الى مصر لاقامة النظام والعدل فيها[1] • وتسطير رسائل المودة

---

(١) انظر منشور بونابرت الى اهالي مصر بتاريخ ١٨ المحرم ١٢١٣ هـ/٢ تموز ١٧٩٨ م في كتاب عبد الرحمن الجبرتي « عجائب الآثار في التراجم والاخبار » مطبعة بولاق ١٢٩٧ هـ • ج٣ ص ٤-٥.

والصداقة الى الحكام المسلمين المجاورين ، وبينها رسالة الى أحمد باشا الجزار والي عكا ، غرضها ازالة شكوكه في رغبة الفرنسيين الاستيلاء على القدس وتحطيم قوى الاسلام ، ولكن الجزار رفض استقبال رسول نابليون وهدده بالقتل اذا اقترب من أسوار عكا . ولم يرد الصدر الاعظم على رسالة نابليون ، وكذلك فعل والي دمشق عبد الله باشا العظم . وكتب نابليون الى حاكمي درنة وطرابلس في محاولة لانشاء صلات معهما ، وكتب الى سلطان مسقط يرجو مساعدته في توصيل الاخبار الى تبو صاحب في الهند[1] ، وأرسل الى هذا خطابا في كانون الثاني ١٧٩٩ يخبره بعزمه على طرد الانكليز من الهند . وكان قد استكتب أعضاء الديوان رسالة الى شريف مكة في أول ايلول ١٧٩٨ نوهوا فيها بجهود نابليون لتأمين طريق الحج وحضوره الاحتفالات والاعياد الدينية والوطنية . وكتب الى سلطان دارفور[1] عبد الرحمن الرشيد يستميله ويتعهد بتأمين القوافل المتجهة الى مصر للتجارة ، ويطلب منه ارسال ألفين من العبيد الاشداء . ولكن شيوخ الازهر وغالبية الشعب الساحقة كانوا غير مصدقين ادعاء نابليون الاسلام ، وكانوا يرون أنه وجنده كفرة .

وفشلت أيضا سياسة بونابرت العربية التي قامت على التمييز بين عرب وعثمانلية ومماليك . فالعرب عنده هم عامة الاهلين في الحواضر والارياف . والعثمانيلة هم الترك ومن يلحق بهم من الشركس ورجال الاوجاقات وأرباب التجارة والمناصب والمتصوفة وطلبة العلم المستقرين في مصر . والمماليك هم القوات الخاصة التي تتبع البكوات والامراء الذين تولوا حكم مصر قبل الحملة الفرنسية . وسياسة بونابرت العربية ، جعلت من المماليك وحدهم عدو بونابرت ، وعدو السلطان وممثليه في مصر ، وعدو أهلها العرب . فالمماليك الظالمون ، غصبوا حقوق السلطان ، وسلبوا النزلاء الفرنسيين ، واستأثروا بالاقاليم « الحسن الاحسن »

---

(١) قضي على تبو صاحب في معارك شباط ــ أيار ١٧٩٩ في الهند واقتسمت شركة الهند الشرقية أملاكه الواسعة مع أعدائه .

(٢) قامت في دارفور منذ بداية القرن السادس عشر مملكة تعاقب عليها سلسلة من السلاطين المسلمين الى حين سقوطها في عهد الخديوي اسماعيل ،ويسكنها كثير من القبائل العربية .

كما سماه في منشوره الشهير • لقد فشلت سياسة بونابرت العربية أيضا لان فعاله وفعال خليفته نسفت ادعاءاته ، وأثبتت أن سياسته الحقيقية قامت على استمالة العرب مرحليا حتى يتم له سحق المماليك • ولذا نشبت الثورات ضد الحكم الفرنسي ، وأولها ثورة القاهرة ، ومن أسبابها العداء الديني الكامن ضد ما يتظاهر به الفرنسيون زورا ومكرا ، وما كان يرد من أخبار الولاة المجاورين وعزمهم على القدوم الى مصر ، واستنهاض المصريين ضد المحتل الاجنبي • ومنها استهتار الجند الفرنسيين وشربهم للخمر علانية واخراجهم النساء والبنات المسلمات حاسرات الوجه في الطرقات ، ثم هدم الجوامع والمآذن وبركة الازبكية لاجل توسيع الطرق لمسير العربات ، وخلع بوابات الازقة ••

بيد أن السبب الرئيسي والمباشر هو سبب اقتصادي على مايذكر الجبري[1] • ذلك أن هزيمة أبي قير جعلت الفرنسيين أشبه بالاسرى في مصر ، فتغيرت سياستهم نحو المصريين ، وبدأوا يوطدون أقدامهم بإكمال الفتح من ناحية ، وبالاصلاح واستغلال البلاد من ناحية أخرى ، وهذا هو أصل كل المشاريع التي نفذها الفرنسيون من مجمع علمي الى دواوين للحكم أو اصلاح وتجديد : سياسة تمهيد الى الاستقرار أملاها اليأس من الاتصال بفرنسة ، ووقوف الانكليز في البحر بالمرصاد • وان اتجاه الجهود الفرنسية لانشاء مستعمرة جديدة في مصر ، كان يستند الى تنظيمات مالية واقتصادية ، تكفل إمداد الجيش بالمؤن والاموال للاحتفاظ بالبلاد ولمدافعة الاعداء عنها • وذلك عن طريق فرض الغرامات على المدن ، أو مصادرة أملاك المماليك وارغام نسائهم على دفع الغرامات في نظير السماح لهن بالبقاء في القاهرة والاحتفاظ بمقتنيات أزواجهن ، أو بالتشديد في جباية الميري والرسوم الاخرى التي تكفل تحصيل المال من الاهلين[2] • وفرضت الغرامة على تجار الاسكندرية ، وعلى سكان رشيد ودمياط ، وأعدم محمد كريم حاكم الاسكندرية لانه رفض أن يدفع ما

---

(١) الجبرتي : المصدر السابق ج٣ ص ٢٥–٢٦ حوادث يوم السبت (١٠ جمادى الاولى ١٢١٣ هـ) .

(٢) محمد فؤاد شكري « الحملة الفرنسية على مصر وظهور محمد علي » — القاهرة ١٩٤٨ ، ص١٧٧

فرض عليه • ووضعت ضريبة على المباني كالوكالات والحمامات ومعاصر الزيت وطواحين الغلال والقهاوي والبيوت والغرف كل بحسب درجتها ، والغاية هي الحصول على المال بكل وسيلة ، فلا عجب اذا تذمر المصريون واضطرمت نفوسهم بالثورة يوم ٢١ تشرين الاول ، وأخمدت الثورة في اليوم الثالث بكل قسوة • وجاء في تقرير نابليون ان خسائر الثوار تراوحت بين الالفين والالفين وخمسمائة ، أما خسائر الفرنسيين فبلغت مائتي قتيل[1] ، وعاقب المشايخ والعلماء الذين اشتركوا في الثورة بالاعدام والمصادرة ، وعطّل الديوان ، ثم شكله مجددا • ولكن التهديد بعقوبة الاعدام ، لم يخمد جذوة المقاومة الشعبية التي اشتدت وتفاقمت ضد الاحتلال الفرنسي ، وتبدد أمل نابليون بقيام أي تفاهم بينه وبين المصريين ، حين رفض مراد بك عرض نابليون بأن يحكم (من شلال أسوان الى مايلي جرجا شمالا بنصف فرسخ) بشرط التبعية للفرنسيين • وشاركت حواضر الوجه البحري في المقاومة ولاسيما في الشرقية والجيزة ودمنهور ودمياط والمنزلة • وفي الوجه القبلي تكبد الفرنسيون خسائر فادحة في الارواح حين هب الصعايدة لقتالهم في سوهاج وطنطا وسمنود وحرب وجهينة وبني عدي ••• ووجد نابليون نفسه في مركز دقيق بعد أن عجزت حكومة الادارة عن امداده بالمعونات ، وفشلت في اثبات (حسن نواياها) للباب العالي • واحتل الانكليز جزيرة بريم المتحكمة في مضيق باب المندب ، وعقدوا مع أمير عدن معاهدة تحالف وتجارة (١٧٩٩) ، فرسخت أقدامهم في البحر المتوسط والبحر الاحمر ، واطمأنوا الى سلامة طريق الهند ، وضيّقوا الخناق على الحملة الفرنسية بمصر ، ولذا رأى أن يبادر الاعداء بالهجوم بدل انتظار هجومهم عليه ، والتقدم الى الآستانة برا عن طريق سورية ، بقصد تدعيم موقفه في مصر ومنع الخطر الزاحف اليه من الشرق ، وارغام الباب العالي على تفهم موقف

---

(١) قصف الفرنسيون الجامع الازهر بالمدافع ، واستمر القصف من الظهيرة حتى الثامنة مساء ، فسقطت آلاف القنابل على الازهر وعلى الاحياء المجاورة له في شرقي القاهرة . وشهد المؤرخ الجبرتي الفظائع والجرائم الوحشية التي ارتكبها الفرنسيون ، ووصف دخولهم بخيولهم الى الجامع الازهر وتحطيم القناديل والخزائن ونهب المتاع والاواني ، وتمزيق الكتب والمصاحف . انظر الجبرتي ج ٣ ص ٢٦ •

باريس ، وحرمان السفن الانكليزية من التمون من موانيء سورية • وبعد سقوط العريش ، تقدم نابليون الى عكا عن طريق الرلمة ويافا ، وصمد الجزّار في عكا ثلاثة شهور ، بفضل مقاومته الباسلة ، ثم بفضل المساعدة التي بذلها له من البحر السير سيدني سميث قائد الاسطول الانكليزي في البحر المتوسط الشرقي • ولم تفلح مساعي نابليون ورسائله الى الامير بشير الثاني الشهابي حاكم جبل لبنان الذي كان يعرف آنذاك بجبل الدروز • والى ابن الشيخ ظاهر العمر شيخ نابلس ، لاستعدائهما ضد طغيان الجزار • وبرغم ان نابليون أحرز نصرا مبينا في موقعة جبل طابور (١٦ نيسان ١٧٩٩) فتح امامه الطريق الى دمشق، غير أنه خشي من عدوه المرابط في عكا في مؤخرة جيشه • حتى اذا اصيب نابليون بخسائر فادحة في جنوده وضباطه ، وبلغ منه اليأس مبلغه ، اعتزم رفع الحصار عن عكا ، والعودة الى مصر ، وزعم في رسالة الى الديوان في القاهرة بأن الجزار اصيب بجرح وتقهقر الى احدى القلاع عند شاطيء البحر، كما غادر أهالي عكا بلدهم بطريق البحر • وفي ١٧ أيار وجه نابليون نداء الى جنوده ذكّرهم فيه بانتصاراتهم المجيدة ، وأبلغهم بقرار العودة الى مصر[1] •

ويذهب المؤرخون في تفسير عودة نابليون الى مصر مذاهب شتى ، منهم من يرى أن مناعة أسوار عكا وقناعة بونابرت أنه لن يظفر بالجزار الذي بلغ منه الغيظ مبلغه لما سمع بأن نابليون أعدم ثلاثة آلاف أسير في يافا ، هازئاً بالقانون الدولي ، ومسجلا وصمة عار في جبينه • لانه مهما انتحلت الاعذار لهذا الفعل الوحشي ، فقد سلّم هؤلاء الاسرى أنفسهم ، ولا ينبغي بأي حال تناسي الوعود وتهديم قواعد الحرب المعمول بها • ومن المؤرخين من يعزو عودة نابليون الى فتك الطاعون بجيشه ونفاد ذخيرته ومؤنه • اما نابليون فذكر أنه عاد لمصر وفاءً لوعد قطعه على نفسه بالعودة اليها بعد أربعة شهور ، وتأديباً لبعض المفسدين من الغزّ والعربان الذين حركوا الفتن والشرور في بعض الاقاليم المصرية • ولكن نابليون لم يذكر اسبابا خاصة أملت

---

(١) شكري ، المصدر نفسه ص ٢٠٣–٢٠٦ •

عليه عودته ، وتتصل بأخبار وصلته من باريس عن الحالة السياسية في فرنسة ، ووضعها المهدد في أوربة • ومنها رسالة من حكومة الادارة مؤرخة في ٢١ أيار تشير الى ما تبذله النمسة وروسية وبريطانية من جهود للاطاحة بفرنسة ، وتقترح عليه الحضور وتوحيد القوى الفرنسية لدفع الخطر المحدق ، وتترك له البت في موضوع حملة مصر ، فاما ان ينقل جيوشها او قسما منها الى فرنسة للدفاع عن الوطن ، أو يترك جانبا منها بأمان هناك ، على أن يعهد بالقيادة الى من يراه مناسبا من أعوانه(١) •

وفي تموز وصلت حملة عثمانية الى أبي قير واحتلت القلعة ، ولكن نابليون انزل الهزيمة بها وأسر قائدها (٢٥ تموز) وأبعد الخطر العثماني لشهور قادمة ، وبذلك يمكنه أن يعود الى وطنه مزهوا بنصره الذي محا ظلال هزيمة اسطوله في أبي قير قرابة العام ، فضلا عن ان اضطراب أحوال فرنسة التي وصلته أنباؤها بطرق مختلفة ، ساعد على نضوج (الكمثرى) التي طالما حن الى اقتطافها ، بالعودة الى الوطن وانقاذه من محنته • ولم يستطع انتظار الجنرال (كليبر) الذي عينه خلفا له ، لابلاغه بعزمه على السفر ، وخشي من عودة السفن الانكليزية لمراقبة الشواطىء المصرية ، فقرر الرحيل في ٢٢ آب بعد أن قابل الجنرال (مونو) وسلمه تعليماته الى كليبر ، وركب البحر مع بعض قواده ووصل باريس في ١٣ تشرين الاول(٢) •

وفي تعليمات نابليون الى كليبر ، طلب منه ان يجعل مصر موضوع مساومة مع البا بالعالي لاخراجه من التحالف الدولي ضد فرنسة ، وفوضه بعقد الصلح معه في حالة انقطاع النجدات من الوطن ، حتىولو كان ثمن الصلح الجلاء عن مصر • وذكر نابليون في تعليماته أن السياسة الداخلية في مصر تقوم على صداقة المسيحيين ومنعهم من الاستخفاف بمواطنيهم حتى لايتعصب الاتراك ضد الفرنسيين ، وألح على ضرورة كسب ثقة المشايخ في القاهرة • ولكن ردالباب العالي على مبادرة كليبر في التفاوض ، كان أن لا مفاوضة إلا على أساس

(١) المصدر نفسه ص ٢٠٧،٢١٠ •
(٢) المصدر نفسه ص ٢١٥،٢١٧ •

الجلاء من مصر دون قيد أو شرط • وحاول كليبر اقناع سدني سميث بأن مركز الفرنسيين في مصر قوي ولا شأن له بما يجري في القارة الاوربية • وحين سقطت قلعة العريش (٣٠ كانون الاول) بسبب عصيان حاميتها الفرنسية التي سرت اليها عدوى العصيان من حاميات الاسكندرية ودمياط •• ووجد كليبر أنه يتحتم عليه مفاوضة الصدر الاعظم مباشرة على أساس الجلاء دون قيد أو شرط ، وشاركه معظم زملائه هذا الرأي ، بعد أن تبدد الامل في وصول النجدات من فرنسة ، وبات الاحتفاظ بمصر امرا مستحيلا • ووقع اتفاق العريش بين الجانبين العثماني والفرنسي (٢٤ كانون الثاني ١٨٠٠) بعد مفاوضات طويلة استهلها بونابرت وأكملها كليبر ، وساهم في نجاحها وتذليل صعابها السير سيدني سميث[1] قائد العمارة الانكليزية في مياه الشرق الادنى الذي كان يرى ان يخرج الفرنسيون من مصر دون اراقة الدماء ، وان من الخطأ الافتراض بأنهم سيقبلون التسليم كأسرى حرب ، وأن اخراج الفرنسيين تحت شعار السيادة العثمانية على مصر ، سيجعل بمقدور البحرية البريطانية ان تبقى في موانىء الاسكندرية ودمياط ورشيد • ونص اتفاق العريش على انسحاب الفرنسيين بسلاحهم وعتادهم الى الاسكندرية ورشيد وأبي قير حيث يتم نقلهم الى فرنسة على سفنهم او على السفن العثمانية ، كما نص على الهدنة بين الطرفين لثلاثة شهور • ولكن وزير الخارجية الانكليزية اللورد غرانفيل الذي كان راضيا عن مشاركة سدني بالمفاوضات ، خضع لرأي المعارضين لرأي سدني ، ولا سيما بعد أن برزت ظروف جديدة في أعقاب انتصار نلسن في أبي قير ، وتحطيم الاسطول

---

(١) كان الصدر الاعظم يوسف ضياء باشا يولي سدني سميث ثقة كبيرة نظرا لبلائه الحسن في الدفاع عن عكا ، وقد أطلعه على الاتصالات التي كانت جارية مع بونابرت وكليبر بشأن الجلاء عن مصر ، على اساس ان معاهدة التحالف العثمانية الانكليزية (٥ كانون الثاني ١٧٩٩) توجب عدم انفراد احد الحليفين دون الآخر على الصلح او الهدنة ، وعلى اساس انه يتعذر ترحيل الحملة الفرنسية دون موافقة انكلترة صاحبة السيطرة البحرية . ويلاحظ ان الانكليز لم يعلموا بالمفاوضات الجارية بين العثمانيين والفرنسيين إلا في أواخر تشرين الاول ١٧٩٩ ، كما لم يطلع (الريس افندي) وزير الخارجية العثمانية ، ممثل انكلترة في الاستانة إلا في ٣٠ من الشهر نفسه ، وذلك بمناسبة طلب جوازات المرور للحملة .

الفرنسي هناك ، وزوال مخاوف انكلترة من وجود الحملة الفرنسية في مصر ، على طريق الهند . وساد الاعتقاد بـأن (جيش الشرق) أصبح تحت رحمـة الانكليز ، وان رغبة الفرنسيين بالتفاوض هي بمثابة اعتراف بالهزيمـة ، وان مصاعب الحملة تتزايد يوما بعد يوم ، والخلاف بين قوادها على البقاء اوالجلاء يتفاقم ويسهم في ضعفها وتدهور معنوياتها ، وأن الرأي الصواب هـو معارضة اتفاق العريش ، والعمل على إبادة الفرنسيين في مصر بالوسائل العسكرية .ولذلك رفض غرانفيل منح جوازات المرور اللازمة لجلاء الفرنسيين ، وكانت الآستانـة قد ألحت بطلبها ، ونصح الآستانة باتباع الحل الحربي الذي لا بد ان يحطـم الفرنسيين تمامـا[1] .

وبازاء رفض انكلترة الموافقة على اتفاق العريش ، وتردد الصدر الاعظم في موقفه ، قرر كليبر تأجيل اخلاء القاهرة من الجنود وتسليمها للعثمانيين ، واعتبر نفسه في حالة حرب مع الدولة العثمانية وانكلترة . وأسفرت معركة هليو بوليس قرب القاهرة بين الصدر الاعظم يوسف ضيا باشا وكليبر ، عن انتصار الاخير (٢٠ آذار) . وبرغم محاولة ابراهيم بك اقناع زميله مراد بك بالانضمام الـى الصف العثماني قبيل المعركة ، فان مرادا رفض ذلك ، خشية أن يؤدي انتصار العثمانيين الى طرد المماليك من مصر . ووقع مراد مع كليبر اتفاق (٥ نيسان) بعد أن تعهد كليبر بقطع المفاوضة مـع العثمانيين وشن الحرب عليهم . ورحب كليبر بانضمام مـراد بك إذ وجد فيـه حليفا يمكنه ان يحكم مصر بعد رحيـل الفرنسيين ، ويقاوم استيلاء الانكليز عليها ، وكان مراد ومماليكه ومن انضم اليه من عرب مصر والجزيرة لشهور طويلة ينازعون امتلاك الفرنسيين للصعيد .

وسمع أهالي القاهرة صوت المدافع من معركة هليوبوليس ، فاشتدهياجهم، ونشبت ثورة القاهرة الثانية ، واشتد اوارها خاصة في الجزء الغربي من المدينة، ولا سيما في حي بولاق . وتفرغ كليبر لضرب الثورة ، بعـد أن نجح فـي ابعاد العثمانيين واستمالة المماليك ، واشتد القتال واظهر القاهريون درجة عاليـة

(١) شكري ، المصدر نفسه ص ٣٢٢ .

من البسالة والتصميم ، وشهد الجبرتي الفظائع المخزية والجرائم الوحشية التي ارتكبها الفرنسيون ، ووصفها بقوله : « هجموا على بولاق من ناحية البحر (النيل) .. وقاتل أهل بولاق جهدهم ورموا بأنفسهم في النيران حتى غلب الفرنسيين عليهم وحصروهم من كل جهة وقتلوا منهم بالحرق والقتل ويلوا بالنهب والسلب وملكوا بولاق وفعلوا بأهلها ما يشيب من هوله النواصي..»[1]. وقد ساعد امداد الحطب والمحروقات الذي أرسله مراد للفرنسيين في احداث الحرائق في المدينة وتسليمها . وفرض كليبر على القاهرة غرامة مقدارها ١٢ميلون فرنك مع ٢٠ ألف بندقية ومثلها طبنجة و ١٠ آلاف سيف ، واعتقل عددا من كبار علمائها رهائن لوفاء الغرامة . ولكن كليبر لم ينعم بنصره على المدينة الصامدة ، فقد كمن له في مقر قيادته شاب عربي من حلب كان يطلب العلم في الجامع الازهر ، وطعنه وقتله (١٤ حزيران ١٨٠٠) ، وكان الشاب قد استهول ما اقترفه كليبر وجنده من شرور وآثام ، فصمم على قتله والثأر لقومه[2] . وانتقلت قيادة الحملة الى الجنرال عبد الله جاك مونو Mencu حاكم القاهرة ومن أشد انصار البقاء في مصر ، وسرعان ما شجب اتفاق العريش لانه يتنافى وكرامة الجيش الفرنسي ، وقرر أن قبول الاتفاق أو رفضه منوط بحكومة باريس .

وتقرب بونابرت من قيصر روسية بول الاول ومن سليم الثالث ، لمواجهة مخططات السيطرة البريطانية ، ولكن جهود بونابرت مع القيصر أثمرت وتطورت من مجرد التفاهم على وسائل الحدّ من النفوذ البريطانية الى اتفاق سري على اقتسام اراضي الدولة العثمانية . وتم الاتفاق من حيث المبدأ على أن تنال فرنسة مصر وسورية وفلسطين ، وتنال النمسة الافلاخ وصربية والبوسنة والهرسك ، أما روسية فتحصل على البغدان وبلغارية والرومللي والآستانة . وتم التفاهم على أن تأخذ بروسية هانوفر ومونستر والبادربورن من الممتلكات البريطانية[3] . أما جهود بونابرت مع سليم الثالث ، فكانت نتيجتها ان وعد

---

(١) الجبرتي ، المصدر نفسه ج٣ ص ١٠١ .
(٢) انظر تفاصيل محاكمة الحلبي ، المصدر السابق ، ج٣ ص ١١٨–١٣٣ .
(٣) اميل خوري وعادل اسماعيل « السياسة الدولية في الشرق العربي » بيروت ١٩٥٩ ج١ ص ١٧٤ .

السلطان ان تنهج الدولة العثمانية سبيل السلم مع فرنسة ، ولكنه ظل شديد الحذر لعلمه بأن التقارب الفرنسي الروسي لايكون إلا على حساب الدولةالعثمانية، فلم يكن بدّ من عودة السلطان الى سياسة الصداقة مع بريطانية . وتدهورت علاقات بريطانية مع روسية حين رفضت الاولى تنفيذ وعدها بالانسحاب من مالطة واعادتها الى فرسان القديس يوحنا والى القيصر الروسي بوصفه رئيسهم المنتخب . وحرض بونابرت القيصر المعجب به على اغلاق موانىء البحر الاسود في وجه التجارة البريطانية ، واغراه بالتوسع في آسية وتهديد الهند وفارس والدولة العثمانية ، وابتهج بونابرت حين نفذ القيصر ذلك ، ولكن سرعان ما اختفت هذه السياسة حين اغتيل القيصر بول خنقا ليلة ٢٤ آذار ، وباشر خلفه اسكندر الاول سياسة معادية لفرنسة الثورة . ورحبت الآستانة ولندن بمساعي التقارب بينهما لمواجهة الروس والفرنسيين ، واتفق الطرفان على العمل المشترك لطرد الفرنسيين منمصر ، فنزلت في ٨ آذار ١٨٠١ حملة هندية في أبي قير ، وتغلبت على الحامية الفرنسية فيها ، ثم تقدم جيش عثماني عبر فلسطين وسيناء الى مصر ، ونزلت قوة هندية في ميناء القصير على البحر الاحمر ، وبعد ثلاثة عشر يوما هزم الجنرال مونو في معركة عنيفة مع الانكليز في الاسكندرية ، فانسحب منها . وفي غضون ذلك سقطت وزارة وليم بت المتصلب، وتشكلت حكومة ادنغتون المسالم ، فمال الى التفاهم مع فرنسة لتحقيق السلام . وادرك مونو ان مواصلة القتال ستقضي على بقية جيشه ، لا سيما بعد تسليم حامية القاهرة للقوات العثمانية الانكليزية المشتركة ، وتضييق الخناق على جيش مونو نفسه ، واجمع المجلس الحربي الذي عقده على طلب الهدنة ، ووضع اتفاق للجلاء عن مصر ، خاصة بعد أن استبد الحنين بالفرنسيين الى وطنهم ، وبعد أن تألبت دول اوربة مجددا ضد فرنسة ، وارغمتها على التخلي عن فتوحها في ايطالية وغيرها . وفي ٢ ايلول وقع مونو مع الجنرال هتشنسون الانكليزي اتفاقا ينص على تسليم المدافع والسفن الحربية والتجارية الفرنسية الراسية في الاسكندرية ، ووضع الطرفان مقدمات الصلح في مطلع تشرين الاول ، ثم وقع صلح أميان (٢٧ آذار ١٨٠٢) بين بريطانية وفرنسة واسبانية وهولندة ، بمعزل

عن الدولة العثمانية ، التي آلمها ذلك ، فعقدت صلحا منفردا مع فرنسة ،ووضعت معاهدة انهت الحرب بين الفريقين(٢٥ حزيران ١٨٠٢) ونصت بين أمور اخرى، على حق دخول السفن الفرنسية الى البحر الاسود ، وحمايتها من القرصنة ، وضمان حق كل فريق سلامة ممتلكات الفريق الآخر[١] . واضطر الانكليز لسحب قواتهم من مصر تحت ضغط السلطان سليم وإلحاح بونابرت ، وذلك في أواخر أيار ١٨٠٣ ، برغم المساعي الحثيثة التي بذلها السفير البريطاني الجين لدى الباب العالي ولدى المماليك في مصر لحملهم على القبول ببقاء القوات البريطانية في مصر لصد كل عدوان عليها . وابتهج أهل مصر عندما أخرج العثمانيون والانكليز جنود الحملةالفرنسية من بلادهم ، وسمي الجبرتي مؤلفه في حوادث الاحتلال الفرنسي وما سبقه « مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس » ،واعتقد أن المتأمل العاقل يرى في خروج الفرنسيين أعظم الاعتبار والكرامة لدين الاسلام، حيث سخر طائفة من أعدائه ، لدفع طائفة اخرى ، ومساعدة المسلمين عليهم ، « وذلك مصداق الحديث الشريف ... إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر ، فسبحان الله القادر الفعال »[٢] .

حكم الفرنسيون مصر مدة تزيد قليلا على ثلاث سنوات ، تخللتها محاولة لفتح بلاد الشام ، وضاقوا ذرعا بالحصار البحري الانكليزي اثناءها ، وأباد منهم الطاعون والاوبئة عددا كبيرا اضافة الى ما سقط منهم في الثورات والمعارك، للتغلب على الاخطار الداخلية والخارجية المحدقة بهم . وتضاءل شأن التجارة البحرية في أيامهم ، وقل ورود قوافل دارفور وسنار وفزان وبرقة .

صحيح ان المصريين في الريف والحواضر وخاصة في القاهرة اعتادوا قبل الحملة الفرنسية ما يصحب الانقلابات على الحكم من اضطراب الامن وشيوع العنف وفرض المغارم ، لانها كلها على نمط واحد . فاذا غلب علي بك على خصومه ، حكم البلاد كما حكموها . وإذا تغلب عليه ابو الذهب،سلك في الحكم

---

(١) المصدر السابق نفسه ، انظر نص المعاهدة ص ٢٦٨ـ٢٧٠ .
(٢) محمد شفيق غربال « محمد علي الكبير » القاهرة ١٩٤٤ ، ص ٢٥ .

نفس المسلك وهكذا • اما المصريون فلم يشاركوا في هذه الانقلابات ، الاطائفة منهم،تتألف من عمال الادارة المالية والاقباط ورؤساء العصبيات العربية والشيوخ من العلماء • فالاقباط بحكم الحاجة لاستخدامهم وخبرتهم ، يعملون للمنتصر كما عملوا للمهزوم • ورؤساء العصبيات المسلحه فد يرجحون كفه أمير على خصومه • والشيوخ العلماء بحكم مكانتهم بين الناس وتحلي بعضهم بالفضل والاعتدال ، يلبون دعوة الناس للتوسط لدى الامراء في رفع الحيف ودفع الظلم وإحلال الوئام محل الخصام ، كما يلبون دعوة الأمراء المتخاصمين الذين يحتكمون اليهم • أما الحكم الفرنسي فكان من نوع لم يعرفه المصريون ، حل محل حكم مراد بك وابراهيم بك ولم يكن مسلما ولا عثمانيا ، وانما كان حكما عسكريا شديدا عنيفا كرهه المصريون لانه فصل بلادهم عن السلطان خليفة المسلمين ، وجعلها تابعة لدولة فرنجية غربية ، يقترف عساكرها صنوف الفساد والرذيلة ، بينما يعمل قوادها على تحرير غير المسلمين من وطنيين وأجانب من قيود كانت تعتبر شرطا من شروط بقاء الاسلام • ومعلوم ان هذا التحرير كان يقتضيه حكم جمهوري شعاره المساواة والحرية الدينية ، فضلا عن أنه كان تلبية لحاجة الاحتلال الملحة لخبرة غير المسلمين بأحوال البلاد ، ودرايتهم بنظمها وعاداتها ، وهم الى ذلك كله موضع ثقة بفضل اتفاق المنافع[1] •

ترى ما الذي كان سيحدث لو خلص للفرنسيين حكم مصر ، واستقامت احوالها لهم ؟ لاول مرة تحكم دولة أجنبية شعبا من الامة العربية ، فكيف تحكمه وما هو موقف الاهلين من هذا الحكم ؟ حقيقة ، حكم الفرنجة الصليبيون مقاطعات من فلسطين والشام ، ولكن كان ذلك في القرون الوسطى • أما الحملة الفرنسية فحدثت في العصر الحديث ، وفي « عصر الثورة وحقوق الانسان » ، فما الذي يترتب على ذلك ؟ لا نحكم على فرنسة نظرا لانها لم تحكم مصر مدة كافية ، فضلا عن ان المدة التي استغرقها الحكم الفرنسي في مصر كانت حالة استثنائية ، لان الفرنسيون اثناءها كانوا مهددين بالاخطار الداخلية والخارجية • فالظروف غير مواتية ــ كما يمكنهم ان يدعوا ــ لاقامة حكم صالح • ولكن

---

(١) المصدر السابق نفسه ص ٢١ــ٢٣ •

يمكن رسم صورة للحكم الفرنسي في غير هذه الظروف من المشروعات التي ورد ذكرها في مذكرات بونابرت وكتابات علماء الحملة وسواهم ، ومن الطريقة التي جروا عليها فيما بعد ، في أقطار عربية أخرى كالجزائر وتونس ومراكش ... فان ذلك يساعد على رسم صورة لما ينتظر ان يكون عليه الحكم الفرنسي في مصر وقتذاك .

لاشك ان الفرنسيين كانوا سيتبعون سياسة تنمية اقتصادية مركزة لا لخير الاهلين ولكن للارتقاء بموارد البلاد عن طريق تنظيم الري وضبط مياه النيل ، وادخال حاصلات جديدة كالقصب والتبغ والقطن ، ووصل البحرين الاحمر والمتوسط ، والكشف عن منابع النيل ، وتأسيس امبراطورية نيلية ، وامتلاك ساحل البحر الاحمر وتحويل التجارة اليه واتساع النفوذ الفرنسي الى ماوراء سيناء من ناحية فلسطين والشام . هذه التنمية الاقتصادية ستدخل فوائدها جيوب الاستعمار وعملائه ، وذلك لان سكان مصر كانوا قلة (٢-٣ مليون نسمة) فيمكن استيطان ارض مصر عن طريق حث الفرنسيين على ذلك ، كما حدث في الجزائر فيما بعد .

وفي الميدان الصحي ، يوجه الحكم عنايته الى الصحة العامة بانشاء المشافي ومدارس الطب والمحاجر الصحية ، ليس فقط للحفاظ على سلامة الجيش الفرنسي من انتشار الامراض والاوبئة في صفوفه ، وانما ايضا لضمان القوى العاملة في الانتاج الزراعي الذي يغذي الخزينة المالية والمبادلات التجارية . ويصلح الادارات الحكومية ويطور نظام الضرائب والجباية ويكفل استقرار المزارع في أرضه بغية ضبط الاموال العامة واستتباب الامن ويعهد لحكام فرنسيين بادارة الاقاليم ، ويطبق المركزية الشديدة ، ويبقي على الدواوين التي أنشأها بونابرت اصلا ليس بغرض خلق النظام البرلماني ، وانما بقصد احاطة الاعيان بمشروعاته ونواياه ، تحرزا من الدس عليه وسوء فهمه . ويفتح مصر أمام الرساميل الفرنسية ونظم المعاملات التجارية الغربية ، وهذا يتطلب تنظيم القضاء على أسس غربية ، واعداد الاطر اللازمة لسد حاجة الادارة الى صغار الموظفين . أما في ميدان التنمية التربوية والثقافية ، فسيحاول الحكم الفرنسي ان يبقي

الشعب في مستوى ثقافي معين لا يرتفع عنه ، ولا يشجع الفكر الحر أو البحث العلمي ، لأنـه في النهاية سيؤدي الى الرغبة في الاستقلال ونبذ الاستعلال . وأهم من ذلك ستعمل فرنسة جهد الطاقة ، على منع طوائف مصر من السيرنحو الامتزاج والاتحاد في شعب واحد وأمـة واحدة ، لتبقى كل طائفـه مـن تلك الطوائف ذات وضع خاص ونظام دائم . فثمة معاملة خاصه للعلماء ، ومعاملـة للفلاحين ، ومثلها لاهل المدن ، ولشيوخ البدو .. كل" لـه امتيازاته وكل" لـه كيانه . وما عهد السياسة الفرنسية في سورية ولبنان ببعيد ، يـوم قسمت البلاد الى دويلات على اساس طائفي ، وطمعت في أن تعلـق الطوائف علـى فرنسة الآمال ، وترتبط بها بنوع من الولاء . فسياستها اذن ترمي الى هـدم القومية ، سـواء كانت في مصر ، أو في سورية ولبنان ، وافعالها تشهد لهـا فيما بعد بأنها تهدف الى سحق العروبة ماديا ومعنويا . هـذا بعض ما نتصوره عن خطط الحكم الفرنسي في مصر لو بقي فيها ، وهذا التصور لا يخلو مـن الفائدة التاريخية ، خصوصا عندمـا نوازن معالجة الحاكم الفرنسي لمسائل مصر الداخلية والخارجية ، ومعالجة الوالي العثماني محمد علي باشا لنفس هـذه المسائل(١) .

دولة محمد علي في مصر :

كانت الحملة الفرنسية بعيدة الاثـر في مستقبل مصر السياسي والاجتماعي ذلك انـه تهيأت الظروف لكي تنمو في نفوس أهالي مصر آمال جديدة في مدى العقود الاربعة التي تلت الحملة . وليس معنى ذلك أن المصريين تفهموا ماالحدثته الحملة من ضجة حول أفكار الحرية والمساواة . كلا . فالعصر لم يكن عصر نضج في الافكار يساعد على استيعاب مثل هـذه المبادىء الحديثة ، وانمـا تهيأت الظروف لنشوء الوطنية في مصر على نحو غير مألوف سابقا . والظروف أهمها كسر شوكة المماليك . فالاحتلال الفرنسي ـ من الناحية السياسية ـ على قصره ، قد أضعف امراء المماليك ، بحيث لم تقم لهم قائمة من بعد . فقد قتل الكثيرون من ابطالهم ، وظهروا بمظهر العاجز أمام الشعب والرأي العام ، بعد الهزائم التي حلت بهم ، فتزعزعت ثقة الناس في قوتهم ، ولم يكن باستطاعتهم

(١) غربال ، المصدر نفسه ، ص ١٨ـ٢٠

بعد رحيل الفرنسيين أن يستردوا السلطة في البلاد ، بل اصبحوا يشكلون قوة تحاول كغيرها ان تملك زمام الامر في مصر . وبعد اضعاف المماليك حاولت الدولة العثمانية ان تغتنم الفرصة لتجعل نفوذها حقيقيا في مصر كولاية عثمانية ، ولكن الدولة ، مع وجود هذه الفرصة ، لم تستطع تحقيق غرضها وذلك لسببين :

الاول أن عساكر الدولة من انكشارية وألبان ودالاتية واكراد ، كانوا على حال من الاختلال وسوء النظام بحيث لم يقووا على اسقاط بقايا المماليك ، وكانت فتنهم دائمة ورواتبهم متأخرة . والثاني أنه برغم جلاء الفرنسيين ، فقد بقيت في مصر جيوش انكليزية لم ترحل بعد . واعتمدت انكلترة في ابقائها اول الامر على محالفتها مع السلطان ، ثم على تكوين حزب موال لها من المماليك بزعامة محمد الالفي بك ، حتى اذا استتب الامر له بمساعدتها ، ترك لهم حماية السواحل المصرية . وهكذا حدث في مصر نوع من توازن القوى أفاد منه محمد علي الذي جاء الى مصر على رأس مائتين من الجنود الالبان ليشارك في طرد الفرنسيين منها ، ولم يلبث ان برز كأقوى قوة عسكرية منظمة في مصر ، واستقر له امرها سنة ١٨٠٥ .

وما ان انكسرت شوكة المماليك ، حتى تقدم المصريون لمشاركة الفرنسيين في الادارة من خلال الديوان الوطني، بعد ان كانوا يركنون الى الاتراك في شؤون حياتهم وادارتهم . وقد أوحت هذه المشاركة بشيء من الثقة للمصريين في لياقتهم بتحمل مسؤولياتهم والتعبير عن ارادتهم ، وبدأ يتكون لديهم ما يشبه الشعور بذاتيتهم وشخصيتهم الوطنية المستقلة عن المماليك وعن الاتراك . ولعل فترة السنوات الثلاث من الحكم الفرنسي في مصر ، قد قطعت ما كان يصل بين المصريين والاتراك على نحو ما ، وخاصة في اعقاب ثورة القاهرة الثانية التي أوذي فيها المصريون ايذاءا شديدا . ذلك ان الاتراك الذين دفعوا اهالي القاهرة الى الثورة ، لم يلبثوا أن تركوهم وحدهم في الميدان امام طغيان الفرنسيين وانتقامهم . وتحقق المصريون ايذاء شديدا . ذلك ان الاتراك الذين دفعوا أهالي القاهرة الى الثورة ، مفاسده ومساوئه ، وتلفتوا الى طائفة العلماء التي كانوا يلجأون اليها أيام

عسف الحكم الفرنسي ، فأولوها ثقتهم وسلموها زعامتهم ، وفي مقدمتها السيد عمر مكرم الذي استنفر الناس يوم نزل الفرنسيون ارض مصر ، وظاهر المماليك عليهم ، ونسي مع المصريين شرورهم ومفاسدهم لانهــم مسلمون كالمصريين • وأبى عمر مكرم ان يتعاون مع الفرنسيين ، بعــد ان سمي عضوا في الديوان الاول ، وآثــر الرحيل الى الشام • ولكن بونابرت اعاده الى القاهرة معززاحيث لزم منزله ، وطفق يرقب منه أمــر البلاد ، ويمعن النظر فيمن يصلح لحكمها ، لتستقيم احوالها وتخلص من جــور المماليك وعسفهم • وبرغم انــه تحمس لعودة العثمانيين ايام كليبر ، وشارك في ثورة القاهرة الثانية ، غير ان ذلــك لا ينهض دليلا على اخلاصه لهم ، وان كان يفضلهم علــى الفرنسيين لانهــم مسلمون • ولكن عمرا نفسه مع غالبية المصريين يومذاك ، كان جل ما يطلبونه ، هو رفع المظالم وخفض الضرائب وابعاد المماليك والالبان واستقرار الاحوال • وبما ان الحاكم المنشود لا بد ان يكون عثمانيا لارضاء لسلطان ، فقد اتجهت الانظار الــى محمد علي[1] ، الــذي كان مسلكه حكيما عادلا ، يضيق فيمــا يبــدو ، بعدوان الباشــا وجنوده الانكشارية علــى الشعب • وكــان يــرى ان الحكمة تقتضي ابتعاده عن منصب ولاية مصر آنذاك ، إذ كان من المتعذر أن يوفق بين مطالب الجنود الثائرين ، وبين تحقيق العــدل للاهالي المصريين • ولذا تريث حتى ينجلي المسرح السياسي عن تصفية جميع القوى المؤثرة • وكان عليه ، ابتداء ، ان يزحزح طاهر باشا قائد الجند الالبان ، فهو باشــا ، وبالتالي أحق من محمد علي بالولاية ، فعمل جهده حتى تولى طاهر باشا ولاية مصر ، وبذلك استخلص محمد علي لنفسه قيادة الجنود الالبان • ولكن لم تطل أيــام

(١) ولــد محمد علي في مدينة بحرية صغيرة في مكدونية تدعى (قــوَلة) عــام ١٧٦٩ ، وهو تــركي عثماني لايمت للالبانيين ولا لصقالبة مكدونية ويونانها بسبب ولا نسب . تــوفي أبــوه ابراهيم آغا ومحمد علــي ما زال صغيرا ، فكفله والي المدينة ، وبدأ يتعلم ركوب الخيل واستعمال السلاح . ثــم حين ترعرع شارك في التجريدات الحكومية ضد قطاع الطرق ، وبرز في المباغتة والمقدرة على القيادة . وتزوج بسيدة مــن قريبات الوالي حين بلــغ الثامنة عشرة ، وانجب منها خمسة من الابناء والبنات .

الباشا في الولاية ، اذ قتله جنوده الالبان الثائرون (أيار ١٨٠٣) لرفضه : يصرف المتأخر من رواتبهم • وتولى مكانه احمد باشا ، فلم ينعم بولايته اكثر من يوم وليلة ، اذ انتهز المماليك فرصة ثورة الالبان التي انتهت بمقتل طاهر باشا ، فهاجموا القاهرة بالاتفاق مع محمد علي ، وكان على رأسهم عثمان البرديسي وابراهيم بك • وعاون محمد علي على طرد الانكشارية من القاهرة ونادى المنادي بالامان « حسب ما رسم ابراهيم بك حاكم الولاية ، وافندينا محمد علي » • واضطر محمد علي مرحليا ان يمالىء المماليك ليتقي شرهم وليكيد لهم ، مع انهم كانوا عصاة في نظر الدولة العثمانية ، وكان عليه ان يلتزم الفطنة والدهاء في التعامل معهم • وادرك محمد علي انه لابد من الاعتماد على مكرم ومن معه من المصريين[1] ، لاسيما بعد أن انجلت فاتحة المعركة التي احتدمت بينه وبين المماليك ، عن خيانة البرديسي له ، وعبثه بيمين الاخلاص الذي اقسم عليه ، وبعد ان بادره الوالي الاخير خسرو باشا بالعداء •واخيرا بعدما أحس الغدر والخيانة من جنوده الالبان انفسهم اذ تهددوه بالثورة وتمردوا على اوامره مرات عديدة •

وحين تغلب البرديسي على منافسه ابراهيم بك وشرده في البلاد ، اصبح شبه حاكم على مصر ، وهنا خاض محمد علي المعركة الفاصلة ضد المماليك ، فانتصر فيها نصر مبينا • ذلك ان البرديسي اسرف كأسلافه ، في ارهاق الناس بالرسوم والضرائب فثارت جموع المصريين نساء ورجالا ، واتجهت نحو دار البرديسي وهي تردد « ايش تاخذ من تفليسي يابرديسي »[2] • وخشي الجنود الالبان ان تلتهم الثورة أرزاقهم ، فتحالفوا مع الاهالي ، واضطروا البرديسي ، ومعه امراء المماليك ، الى الفرار خارج القاهرة ، ومنذ ذلك الوقت لم يقيض للماليك مطلقا أن يدخلوا القاهرة كحكام • ولما حزموا امرهم من جديد وحاصروا القاهرة،استنجد واليها خورشيد باشا بالاهالي ، فرفضوا معونته،وفشل

---

(١) انظر الجبرتي ج٤ ص٣٢ للمزيد عن اتصال محمد علي بمكرم وتملقه له « حتى تم له الامر بعد المعاهدة والمعاقدة والايمان الكاذبة على سيره بالعدل واقامة الاحكام والشرائع والاقلاع عن المظالم ولا يفعل شيئا الا بمشورته ومشورة العلماء وانه متى خالف الشروط عزلوه » .

(٢) الجبرتي ج٤ ص٤٣

في استمالة الجنود الالبان وقائدهم محمد علي • ولما وصلت النجدات العثمانية الى خورشيد كان معظمها من اجلاف الجند الذين لا يردعهم شيء عن السلب والنهب ، فاشتد سخط الناس ، وانعقد عزمهم على الخلاص من الوالي التركي ، وبالمقابل سعى الوالي التركي لابعاد محمد علي عن مصر ، وضرب التحالف بينه وبين الاهالي ، واستصدر فرمانا من الدولة بتعيين محمد علي واليا على جدة ، مع لقب الباشوية • ولكن ما دام الرجل جديرا بحكم جدة ، فهو أولى بحكم مصر • وتصدر عمر مكرم للمناداة بمحمد علي واليا على مصر في احتفال شعبي جرى يوم ١٣ أيار ١٨٠٥ بينما كان خورشيد ما يزال معتصما بالقلعة •والتمس اهالي مصر من السلطان ان يقر الوالي الذي ارتضوه في منصبه ، فأرسل فرمانا يثبت محمد علي في ١٨ تموز ، بعد ان يئس من انتصار خورشيد في اعقاب ثورة المصريين عليه وحصاره في القلعة • وبانهيار النظام العثماني المملوكي ، بدأ بناء مصر الحديثة •

وأحس محمد علي بثقل وطأة الرقابة الشعبية عليه بعد أن اصبح حاكما يتعجل وجوه الاصلاح والتجديد ، وكان يعلم ان المصريين لن ينظروا الى الاصلاحات بنفس منظاره ، ولن يتوقفوا عن معارضته إن بدا لهم ما ينكرونه منها • وترقب محمد علي الوقت المناسب ليفهم صاحبه عمر مكرم بأن برنامج الباشا الاصلاحي يتطلب اسقاط رقابة عمر عنه • وقد سنحت المناسبة حين قدمت حملة الانكليزية بقيادة فريزر عام ١٨٠٧ لا لتحتل مصر ، بل لترغم السلطان على التخلي عن محالفة الامبراطور نابليون بونابرت • وتوافد المصريون من الجهات القريبة الى قرية الحماد ، حيث هزموا الانكليز ، ولم يلبث محمد علي أن ابلغ عمر مكرم بأنه واصحابه غير مكلفين بالدفاع عن البلاد[1] ، مادام يوجد فيها جيش قوي • وخاب أمل عمر مكرم من رد محمد علي ، لانه كان يرى نفسه من العلماء وحملة الشرع الذين يشرفون على السلطان ويردونه الى حدوده اذا حاول الحيد عنها ، أو يعزلونه عند الاقتضاء • أما محمد علي فكان الداهية الاريب الذي عرك ألوان السياسة وتقلب في أحوالها وحبائلها ، ولذا

(١) الجبرتي ، المصدر نفسه ج٤ ص٥١

كان جديرا بالغلبة على عمر مكرم العالم المسلم الذي لا قبل له بالسياسة ومساحكاتها وظروفها . وتم له ذلك حين أبعده الى دمياط[1] بعد اعتراضه على بعض اعمال محمد علي ، ولم يرض عمر عن محمد علي إلا بعد أن فتح الحجاز ، وحينئذ ارسل اليه يهنئه . ولم يلبث ان طلب الناس وساطته لرفع ضريبة ضجوا منها ، فنفاه محمد علي الى طنطا في نيسان ١٨٢٢ حيث مات بعد قليل .

والتفت محمد علي الى حل مشكلة المماليك الذين اكتسحوا الصعيد ،وبذلك وضعوا يدهم على موارد البلاد . وساعده الحظ حين مات زعيما المماليك عثمان بك البرديسي (١٨٠٦) ومحمد بك الالفي (١٨٠٧) . وبينما كان مشغولا بتجهيز الحملة ضد الوهابيين ، حنث شاهين بك زعيم مماليك الالفي بعهده لمحمد علي وتحالف مع ابراهيم بك ضده . فعاد الباشا مع ابنه طوسون من السويس ونجح في استمالة كثير من امراء المماليك ، وانهزم الباقون ، وتشتتوا في الصعيد . ولكن محمد علي أدرك خطرهم على مركزه بمصر ، فدبر لهم مكيدة القلعة في مطلع آذار ١٨١١ ، وكان قد دعاهم مع الاعيان للاحتفال بتقليد ابنه طوسون قيادة الحملة ضد الوهابيين في الجزيرة العربية . فحضروا الى القلعة ، وبينما كانوا يعبرون الطريق الى باب العزب ، اقفلت الابواب ، واطلقت النار عليهم من كل صوب ، فقتلوا جميعا الا اثنين ، كما أبيد عدد كبير منهم في القاهرة والاقاليم ، وأخذ محمد علي ابناءهم وادخلهم في خدمته واجرى الارزاق على نسائهم وزوجهن بضباط من جيشه واتباعه . وهربت طائفة من المماليك الى اقليم (دنقلة) جنوبي الشلال الثالث ، ونصبوا انفسهم فيه حكاما ، فتصدّت لهم القبائل المعروفة بالشيقية أو الشايقية . وتناقص عدد المماليك وجندوا العبيد السود ؛ ومات ابراهيم بك هناك في مطلع ١٨١٦ .

وكانت حملة محمد علي ضد الوهابيين ، واسترداد الحرمين الشريفين منهم ، فرصة لرفع شأنه في العالم الاسلامي . واهم من ذلك لتحقيق خطته في احياء العالم العثماني التي اعتزم تنفيذها منذ ايامه الاولى . فالعالم العثماني الذي ينتمي اليه محمد علي ، يتصل باوربة من ناحية ، وبالاقطار الاسلامية الاخرى من ناحية ثانية ، وتكمن سلامته في وحدته لا في تجزئته ،

---

(١) الجبرتي . المصدر نفسه ص ٩٨–٩٩ . تم ابعاده في جمادى الثانيه ١٢٢٤ هـ / ١٨٠٩ م .

وقونه مستمدة من اعتماده على قوة (الحديد والمال والعلم) ، ويسيطر على ممالك متنوعة السكان والموارد ، ويتصرف بأقصر الطرق البرية والبحرية بين الشرق الآسيوي والغرب الاوربي . ذهب محمد علي لمحاربة الوهابيين لانه يعمل على إحياء العالم العثماني . وفي سواحل البحار العربية والجزيرة العربية تركزت اعماله الاولى لاحياء القوة العثمانية ، ولكن بزعامته ، لا بزعامة السلطان في الآستانة . وكان مما يحز في نفس محمد علي أن الدولة العثمانية منذ أن عجزت عن مدافعة البرتغاليين ومن جاء بعدهم عن البحار العربية ، ومنذ أن تخلت عن سواحل اليمن في منتصف القرن السابع عشر ، لم تعد شؤون البحار تشغل بالها ـ فيما عدا الاهتمام بضبط احوال الحجاز ومراقبة سواحله . واكتفت الدولة العثمانية بأن يكون لها (قواعد) تباشر منها نوعا مبهما من حقوق السيادة . واولها ولاية جدة وتلحق بها ولاية (الحبش) . والمفهوم أن ولاية الحبش تمتد بشكل غير محدد على ما يعرف اليوم بسواحل السودان واريترية وجيبوتي ، وعلى ما وراء هذه السواحل من مناطق . وثانيها ولاية مصر التي تخرج منها الارزاق التي رصدها السلاطين على الحرمين ، والتي يطل منها الباب العالي على البحر الاحمر لمراقبة التحركات الاوربية فيه . وثالثها ولاية دمشق وتماثل في مهمتها ولاية مصر من حيث كونها مركز انطلاق الحج الشامي والحملات العسكرية لضبط احوال الحجاز عند الحاجة . ورابعها ولاية بغداد التي يراقب منها الباب العالي ما يجري في نجد وفي الخليج العربي وطريق الفرات الى حلب والبحر المتوسط ، ومزارات الشيعة ، وما يظهر من حركات الفرس والاوربيين . ولم تتحرك الاجواء الساكنة في البحار العربية الا حين بدأ الاوربيون يتوغلون في تلك البحار للمتاجرة فيها وانشاء الوكالات على سواحلها ، ومحاربة او مسالمة شيوخ العرب هناك وامرائهم . ولم يقنعوا بنشاطهم البحري ، ولا بترخيص الاستانة لهم بنقل بريدهم وما خف من متاجرهم من البصرة الى حلب والاسكندرية[1] ، وانما تفاوضوا مع امراء المماليك في القاهرة على فتح طريق البحر الاحمر ومصر لنقل البريد والمسافرين . ولم تلبث المنافسة القوية ان ظهرت حول استعمال الطريق وخاصة بين الانكليز والفرنسيين

(١) غربال المصدر السابق ، ص ١٢٠ــ١٢٢ .

والهولنديين • وانذر السلطان العثماني شريف مكة وامـــراء المماليك في القاهرة من عقابيل الاتصال والتوسط مع الاوربيين ، وذكرهم بالهند وما جرى فيها حين نزلها الاوربيون تجارا ثـم هيمنوا عليها وانذرهم بعواقب اقتراب غير المسلمين من سواحل الحجاز[1] • ثـم كان نـزول بونابرت وجنده في مصر ، وقـدوم حملات عسكرية بريطانية مـن الهند عبـر البحـر الاحمر للمشاركة في طـرد الفرنسيين • وعادت الحملات العسكرية البريطانية ، ولكن تنبهت الاذهان الـى خطورة الطريق البحري الذي سلكته ، حذر احتمالات المستقبل •

ثـم واجهت الاستانة تعاظم القـوة الوهابية ، وسيطرتها علـى الحرمين ، فأصدرت أوامرها الى بغـداد ودمشق لقمعها ، وتقاعس أو عجز ولاة بغـداد ودمشق ، وتولاه محمد علي ابتداء من عام ١٨١١ • فقد رأى أن الفرصة سانحة لاحياء العالم العثماني الذي أهمل بضعفه البحار العربية ، وهي اجـزاء اساسية منه ، برغم انها شرايين الحياة بين الشرق والغرب ، فلا اقل من أن تجري فيهـا الدماء مجددا • وخلف سواحلها في افريقية اجزاء اسلامية عربية متفرقة هامدة، لابد من دمجها في العالم العربي العثماني • وبعد هذا لاحاجة للتوسع في تفسير دوافع محمد علي ضد الوهابيين ، كـأن يقال انـه لـم يستطع عصيان اوامـر السلطان ، او انـه رغب في التخلص من شغب جنوده الالبان الذين كانـوا يعارضون اصلاح الجيش على النمط الغربي • حسبه انـه يقضي على الثائرين والمتمردين في نطاق مسعاه الدائب لاحياء عالمـه الذي ركز نظره عليه •

وحقق الباشا غرض السلطان ، واستولى ابنه ابراهيم على نجد ، ودخـل الدرعية قاعدة الحكم الوهابي (١٨١٨) ، واعقب ذلك فترة استقرار توقف فيها تقدم ابراهيم نحو الخليج العربي والجنوب العربـي (اليمن) لسببين : الاول هو انتظار تأليف قوات عسكرية نظامية كان العمل جاريا بها في مصر • والثاني هو استخدام محمد علي قواتـه غير النظامية في فتوح املتهـا سياسة البحـر البحر الاحمر ، واستهدفت المناطق الممتدة وراء (ولاية الحبش) وهي الاقاليـم السودانية • واختار محمد علي لفتح السودان طريق النيل الوعر مـن اسوان

---

(١) المصدر نفسه ص١٢٤ . انظر ص ٢٣ من الكتاب .

جنوبا ، لأنه قصد القضاء على بقايا الامـراء المماليك في دنقلـة وحلفا نهائيـا وتأمين حدود مصر الجنوبية .

وفتح السودان في نظر محمد علي ليس استعمارا ولا امتلاكا ، وانما هـو ضم جزء من البـلاد الاسلامية العربية ، تجاوره بـلاد الزنوج الوثنيين وبـلاد الحبش ، ومن سكانها مسلمون ، ومنهم نصارى او يهود . والقصد من ضـم هذا الجزء هو احياؤه باشراكه في الحياة الاسلامية العامة . وقد لاحظ رفاعـة على الاهلين (وقد سكن السودان منفيا في أيام عباس الاول) « قبولهم للتمدن الحقيقي لدقة أذهانهم فان اكثرهم قبائل عربية » . كما لاحظ « ان اشتغالهم بما ألفوه من العلوم الشرعية شغل رغبة واجتهاد ولهم مآثـر عظيمة في حسن التعلم والتعليم ... »[1] .

وقد عمل الباشا على ربـط امارات وممالك متفرقة بقطر عربـي اسلامي (السودان) ، وهيأ لـه مستقبلا ووجودا بين مناطق الاحباش والقبائل البدائية ومناطق الزحف الاوربي الذي أخذ يقترب من قلب القارة الافريقية ، ثـم أدمج هذا القطر الجديد بالعالم العربي الاسلامي الاكبر ، وبحياته الانسانية العامة .

ومن دوافع الفتح ايضا ، رغبة محمد علي في تجنيد السودانيين السود ، وتطلّعه للحصول على الذهب الذي سمع عن وجوده الوفير بطريقة مبالغ فيها ، وحرصه على احياء التجارة بين مصر والسودان ، بعـد ان قطعت سبلها اعمـال النهب والسلب والشقاوة التي كان يقوم بها الشائقية ، وقبائل العربان المنتشرة في انحاء السودان ، اضافة الى المنازعات والحروب الداخليةفي سنار والسودان الاوسط . ومنها حرص الباشا على سلامة مصر وبسط سيطرته علـى مجرى نهر النيل الذي يروي مصر والسودان . فبرغم انشغال الباشا بحرب الوهابيين في الحجاز ونجد ، كان يعد العدة لفتح السودان . فقد أوفد عام ١٨١٢ بعثة الى سلطان الفونج بادي السادس ، تطلب في الظاهر معاونته على طرد فلول المماليك في دنقلة التابعة له اسميا ، وفي الحقيقة كانت مهمتها الوقوف على احوال البلاد وما يتطلبه فتحها من قوات عسكرية . وادركت البعثة ما يعاني منـه السودان

---

(١) غربال ، المصدر نفسه ، ص ١٣٠ .

النيلي من ضعف حربي وتشتت سياسي[1] • وسنعرض لفتح السودان وتطور احداثه بعد قليل •

والحق ان محمد علي كان يرى أن تثبيت حكمه في مصر لايتحقق الا بانشاء جيش نظامي يدين له بالولاء • ولذا رغب في تجنيد ما لايقل عن ثلاثين أو أربعين ألفا من السودانين السود المعروفين بالقوة والشجاعة والطاعة • وقد شعر الباشا بالحاجة الماسة الى هيئة تدريب تنظم جيشه على الاسلوب الحديث ، ووجد في أوربة ضالته ، لان عددا كبيرا من الضباط ، وخاصة من الفرنسيين ، اصبحوا بلا عمل بعد سقوط نابليون بونابرت (١٨١٥) ، ومنهم الكولونيل (جوزيف انتلم سيف) وكان عسكريا مرموقا حضر معركة واترلو ، ودخل في خدمة محمد علي عام ١٨١٩ ، وعرف باسم سليمان باشا (١٧٨٨ــ١٨٦٠) • حضر الى مصر تاجرا ، وتعلم العربية ، ثم اعتنق الاسلام ، وعين مديرا لمدرسة المشاة في القاهرة (١٨٢٠) التي انتقي طلابها من افراد اسرة محمد علي وابناء موظفيه وبعض النابهين من المماليك • ثم نقلت المدرسة الى أسوان لقربها من السودان الذي ينتظر أن يكون مصدر المجندين السود للجيش الجديد • وفي البدء أخذ هؤلاء يتدفقون الى أسوان كلما تقدم جيش الفتح في بلادهم ، فأنشئت الثكنات لايوائهم ، واحيطوا بالعناية الطبية اللازمة • ومع ذلك فقد هاجمتهم الامراض، ولم يحتملوا مناخ مصر ، ومات الالوف منهم ، فانزعج الباشا وكانت الصعوبة بالنسبة له انه بحاجة الى جيش كبير ثابت ومضمون الولاء ، وبهذا الاعتبار لايمكنه الاستمرار في الاعتماد على المجندين السود وحدهم ، ولذا قرر الباشا حل مشكلة تكوين الجيش الوطني بالطريقة نفسها التي اتبعتها الثورة الفرنسية، أي بفرض التجنيد العام ، وهو أمر لم تعرفه مصر منذ قرابة العشرة قرون • ذلك أن أهل الحرب كانوا طوائف مأجورة من غير أهل البلاد الوطنيين ،وفي العصر المملوكي غلب العنصر المملوكي على اهل الحرب واستمر في العهدالعثماني ممثلا في أوجاق الشراكسة •

والواقع أن تكوين الجيش من المصريين كان حدثا خطيرا في تاريخ مصر كما سنرى ولكن لم يكن تجنيد المصريين سهلا ولا ميسورا ، بل كان سبيله

(١) Holt, P. M. A Modern History of the Sudan, London, 1965, P. 36

محفوفا بالمكاره والصعاب • وكان للارستقراطية التركية يد في مالقيه محمد علي من عنت ومشقة ، لانها رفضت تجنيد ابنائها ، وعارضت تجنيد الفلاحين ،لان ذلك في زعمها يحط من قدر الجندية • وان تسليح الفلاحين معناه تسليمهم الاداة لطرد (العثمانلي) • ولم يكترث الباشا بهذه المزاعم أما الفلاحون فقد تهيبوا تجنيدهم في الجيش،وكثيرا ماعمدوا الى الافلات من التجنيد بتشويه اجسامهم كقطع اصبع السبابة أو قلع العين • ورد محمد علي بتوقيع عقوبات صارمة بلغت حد الاعدام على الذين يمارسون هذا التشويه وعلى من يساعدهم عليه من النساء والرجال[1] •

وبعد نصف قرن ، ظهرت آثار تجنيد الفلاحين ، حين اتسعت الفجوة بين الجنود والضباط المصريين المتكلمين بالعربية ، وبين الضباط من الاصل(العثمانلي) أو الشركسي ، المتكلمين بالتركية • فان تعالي هؤلاء على نظرائهم المصريين ، أدى مع عوامل اخرى الى ثورة عرابي التي كانت اول مظاهر الوطنية المصرية[2] •

والواقع ان محمد علي لم يشجع عنصرا على آخر الا فيما يختص بالوظائف العسكرية القيادية ، فانه بقدر الامكان كان يقصرها على الترك والشركس ، لانه كان يخشى ترقية العرب (المصريين) الى رتبة اليوزباشي (النقيب) ، مع انها ليست من المراتب العليا • ولكن بعد ان اتسعت دولة محمد علي ، كتب ابنه ابراهيم اليه من حلب يشيد بشجاعة العرب من جنوده ، ويلتمس ترفيعهم الى هذه الرتبة ، فوافق محمد علي اذ « لم يعد في الامكان امداد الجيش بيوزباشية من غير العرب فكتب بناء على هذا للاشعار بأنه يلزم ترقية المتفوقين من العرب في القراءة والكتابة » • وهذا يعني انه كان يعقد امتحان في القراءة والكتابة ، ويرقى الجنود المصريون (العرب) بعد نجاحهم ليكونوا ضباطا (من تحت السلاح) أي دون دراسة في المدارس الحربية • ويتضح مما سبق ان ابراهيم كان ، عموما ، اكثر ميلا للعرب من ابيه ، بحكم انه جاء الى مصر شابا يافعا ،

(١) انظر محمد فؤاد شكري وعبد المقصود العناني وسيد محمد خليل « بناء دولة مصر محمد علي » القاهرة ١٩٤٨ ص ١٦٢ . وسنشير اليه فيما بعد باسم شكري وزميليه .

Holt, P. M. Egypt and the Fertile Crescent 1516 - 1922, London 1966, P. 189.

فتربى فيها وعاش بين اهلها العرب ، فتشبع بافكارهم ، في حين ان محمد علي عاش ومات تركيا •

وتتيجة العناية بالجيش ، ارتفع عدده من ٢٤ ألفا عام ١٨٢٤ الى ١٥٠ ألفا عام ١٨٣٩ بخلاف الفرق غير النظامية • وجرى تحسين صناعة الاسلحة النارية الخفيفة والمدافع في مصر وانشئت المدارس الحربية المختلفة مثل مدرسة البيادة أي المشاة ، ومدرسة السواري أي الفرسان ، ومدرسة الطوبجية أي المدفعية ، ومدرسة الرجال أي أركان الحرب ، ومدرسة البحرية في الاسكندرية • لقد أصبح الجيش في عهد محمد علي عنوان وحدة البلاد ، انتظم في صفوفه المسلم والقبطي على حد سواء ، وساهم ذلك في تطوير المشاعر الوطنية المصريةعلى نحو غير مسبوق • وثبت ان الجيش مدرسة قومية تنصهر في بوتقتها عناصر السكان المختلفة من فلاحين وابناء مدن وطوائف الحرفيين والتجار والفلاحين ، فيقوى فيهم شعور الانتماء الى وطن واحد ودولة واحدة ، لا الانتماء الى طوائف وعناصر معينة ، وهذا من اهم التطورات التي حدثت في مصر نتيجة ادخال الانظمة الحديثة في مستهل القرن التاسع عشر • ولا يقل عنه أهمية ، تحريك عوامل التغيير في المجتمع العربي أثناء هذا القرن ومابعده ، نتيجة تجنيد الفلاحين الذين رفع الجيش مستواهم الصحي والتعليمي والثقافي والحياتي بصفة عامة ، اذ كانت توجد مدارس ملحقة بالفرق العسكرية تعلمهم القراءة والكتابة ، اضافة الى المشافي العسكرية للعناية بعلاجهم •

صحيح ان العناية بالجيش سببت الارهاق للمجتمع وللاقتصاد في مصر ، نظرا لتضخم الجيش واستنزافه الجزء الاكبر من موارد البلاد ، وارهاق كاهل الفلاحين والاهلين عموما ، بمزيد من الضرائب الجديدة • ولكن انشاء الجيش وتطوير مؤسساته كان في الوقت نفسه دافعا للقيام باصلاحات كثيرة ، كانشاء المدارس والمشافي والمصانع الادارة الحكومية بشكل لم تعرفه مصر قبل القرن التاسع عشر ، فأين مصر محمد علي من مصر القرن الثامن عشر !

وبما ان سياسة محمد علي كانت تشمل مصر والعالم العثماني كله ،فقد

اتضحت له اهمية القوة البحرية وعرف ضرورتها سواء اكانت للحماية أم للعمل السياسي والتجاري • وكانت البحرية كذلك شرطا أساسيا لادخال الحضارة والعمران الى مصر ، ولاستغلال مواردها وتصدير منتجاتها ، وتدعيم صلاتها بالامم المتقدمة • وفي مسعاه الدائب لانشاء بحرية قوية ، انتقل محمد علي من مرحلة شراء السفن لاسطوله من البلدان الاجنبية ، الى التوصية على صنعها في ترسانات اوربة لحسابه الخاص ، واخيرا الى انشائها بأيد مصرية عربية في دار الصناعة بالاسكندرية • وبادىء الامر بنى اسطولا صغيرا في ترسانة بولاق على النيل بالقاهرة ، نقلت أجزاؤه الى ميناء السويس ، وهناك ركبت ، ثم أبحر الى سواحل الجزيرة العربية ، حاملا الجند والمؤن والذخائر الى الحملة التي توجهت لمحاربة الوهابيين • كما انشأ الباشا اسطولا آخر في البحر المتوسط لغرض اقتصادي ، در عليه ارباحا طائلة ، هو نقل الغلال المباعة للانكليز الى جزيرة مالطة (١٨١٠) •

وبعد الحروب النابليونية فتحت ميادين جديدة امام نشاط الباشا التجاري في مختلف الموانىء الاوربية • وحين تحطمت قطع اسطوله في معركة نافارينو (١٨٢٧) ، وكان قد أوصى على بنائها في الترسانات الفرنسية والايطالية ، صار جل اعتماده لبناء اسطوله على دار الصناعة بالاسكندرية • ولم يكد يمضي عامان على نافارينو حتى اصبح الاسطول يضم ٢٩ وحدة حربية ونحو ٩٩٢ مدفعا وحوالي ١٠ آلاف بحار ، يوجد منه في البحر المتوسط فقط ٥٩ مركبا حربيا و ٧٨٢ مدفعا•وكان الباشا يستورد الاخشاب اللازمة لاسطوله من آسية الصغرى؛ ولما ساءت علاقته بالسلطان ، اتجه نحو ايطالية وفرنسة وانكلترة ، واخيرا الى سوزية وكيليكية للاستيلاء على الثروة الخشبية فيهما ، وكان ذلك من عوامل حروب الشام • ولكن هذه البحرية التي بذل محمد علي من اجل بنائها الكثير من المال والجهد والوقت صدر الامر بزوالها في تسوية عام ١٨٤١ • وقد كان من ايامه المشهودة ان يرى كتل الخشب والحديد ، ولفات الحبال والقماش تتحول في دار الصناعة ، الى غلايين وفرقاطات ، تنزل في البحر كاملة العدد والعدة • أما الجيش فقد بقي وحدد حجمه ، الى أن صدر الامر بالغاء جيش

عرابي بعد الاحتلال (١٨٨٢) واعيد تكوين الجيش بفرق محدودة تحت قيـادة ضباط انكليز .

ونتيجة لعناية محمد علي بالجيش والاسطول،اضطر لوضع سياسة اقتصادية معينة ، يسيطر بمقتضاها على جميع موارد البلاد الاقتصادية ، عن طريق (نظام الاحتكار) ليستطيع الانفاق على قواته المسلحة وعلى حروبه وفتوحه .

سياسة محمد علي الاقتصادية :

يلخصها طلب محمد علي للمال ، فمن اجلـه سيطر علـى مصادر الاقتصاد التقليدية الثلاثة ــ الزراعة والصناعة والتجارة ــ والمال قوة من القوى الثلاث التي قامت دولته على اساسها ، الى جانب قوة (الحديد والعلم) ، وكان بحاجة ماسة اليه لسد مطالب الادارة وبناء الجيش والاسطول ، وتأسيس معاهد العلم ودور الصناعة .

ولشؤون الزراعـة ومايتصل بهـا مكانـة خاصة في الاقتصاد الاسلامي ، فالزراعة تؤمن القوت للناس ، والاموال المفروضة على ارض الزراعة ، تؤمن عطاءات الاجناد وارزاقهم . ولذا حرص الاقتصاد الاسلامي علـى ان يكـون للزراعة وارضها واهلها وضع ثابت جامد لايقبل التغيير ، ولايجوز التفكير فيما عدا ذلك ، خشية نقصان القوت اللازم لحياة الرعية ، كما لا يجوز التداول الحر في الارضين ، حذر نقصان الغلة وتأثـر ارزاق الجند بذلك . واستدعى ذلك خضوع الفلاحين لنظام أشبه بخضوع الجندي للقانـون العسكري . فالفـلاح والجندي سواء في نظر المصلحة العامة . وترتب على ذلك ، ان الزراعة جمدت في اطرها السابقة التي رسمها المجتمع منذ وقت طويل ، واطمأن الى سلامتها بالخبرة والواقع ، ونشأ التزام الاموال المفروضة على الارض الزراعية وتولـى الملتزمون جبايتها وجمعها . وفي العهد السابق للحملة الفرنسية علـى مصر ، تطرق الخلل والضعف الى هذا النظام الزراعي ، فاختل امر الضرائب ، ووضع الاقوياء ايديهم على ماستطاعوا من الارض ، وغصبوا الحقوق الاميرية للدولة واخرجوا مساحات واسعة من نطاق الضرائب لتكون (رزقا احباسية) . وقد

ساعد على ذلك أن قوة الاجناد والعساكر التي كانت تحول دون المساس بالنظام الزراعي ، قد تلاشت في وقت محمد علي • وعاين محمد علي غصب الامـوال الاميرية المرتبة على ارض الزراعة فأدخل تغيرات في نظام تملك الارض والزراعة وقرر الغاء التزام الاموال على الارض بعد التعويض على الملتزمين ، ومنحهم راتبا سنويا يعادل (فائض الالتزام) وهو المال الذي يبقى لهم بعد دفع مـال الالتزام الى السلطان • وبذلك استولى على جميع الاراضي بين عامي ١٨٠٨ و١٨١٤ ، التي كان يستحوذ المماليك على الجزء الاكبر منها ، وادى ذلك الى عودة الأرض في مصر الى الباشا ، واتصاله المباشر بالفلاحين • وكان قبل ذلك قد طلب من الملتزمين تقديم بيان بارباحهم الصافية ، فظنوا انه يريد زيادة الضريبة المقررة عليهـم ، فقللوا قيمتها ماامكن ، وحينئذ اعتمدها محمد علـي كأساس [illegible] الرواتب السنوية لهم • وقد افاد الباشا من ذلك لان هذه الرواتب كانت شخصية ، [illegible] للملتزم نفسه ،ولايمكن توريثها عند وفاته[1] • أما اراضي الوقف (الرزق الاحباسية) التي أوقفها اصحابها في الاصل للاغراض الدينيـة والخيرية ، فقد عزل محمد علي نظارها من العلماء والمشايخ ، وعين نفسه مكانهم وحدد لهم رواتب سنوية ، وفرض عليها الضرائب ، فنفروا منـه لانـه ساواهم بغيرهم وقضى على استغلالهم •

ولايلام الباشا إن لم ير في ذلك النفر من العلماء إلا (رجال اعمال) لا رجال علم • وقد شهد الجبرتي وهو الرجل الامين الدقيق الفهم والمنصف انهم « هجروا مذاكرة المسائل ومدارسة العلم الا بمقدار حفظ الناموس مع ترك العمل بالكلية وصار بيت أحدهم مثل بيت أحد الامراء الالوف الاقدمين واتخذوا الخدم والمقدمين والاعوان واجـروا الحبس والتعزير والضرب بالفلقة والكرابيج •• واستخدموا كتبة الاقباط وقطاع الجرائم في الارساليات للبلاد ••»[1] واشـار الى استغلالهم بقولـه : « ويأخـذون (أي المشايخ) الجعـالات والهدايـا من اصحابها ومن فلاحيهم تحت حمايتها ونظير صيانتها واغتروا بذلك واعتقدوا

---

(١) الجبرتي ، المصدر السابق ج٤ ص٦٨

دوامه وأكثروا من شراء الحصص من أصحابها المحتاجين بدون القيمة وافتتنوا بالدنيا .. »[1] ، وبذلك حد من نفوذهم وقضى على استقلالهم المالي .

وعاد كل ذلك على محمد علي بفوائد كبيرة ، أهمها زوال طبقة انصاف الملاك وهم الملتزمون الذين عطلوا بوجودهم ونفوذهم مشروعات محمد علي الزراعية الكبيرة ، وكذلك نقصت قيمة الرواتب المدفوعة الى الملتزمين تبعا لتناقص عددهم بسبب الوفاة . ثم ان الغاء الالتزام وامتلاك الارض ، لم يسبب ضررا لمجموع الشعب ، وانما لفئة محدودة مستغلة كان يمكن ان تتحدى سلطة الباشا ، ولايتجاوز عددها ستة آلاف شخص يتصرفون بمجموع الاملاك والاراضي في مصر كما يشاؤون .

ومعلوم ان الفلاح في مصر كان له حق الانتفاع من الارض التي يحوزها ، ويأخذ منها الغلة المعينة له مقابل زراعتها ، وله ان ينقل هذا الحق الى ورثته ان شاء بترخيص من الملتزم . وبعد الغاء الالتزام ، وزع محمد علي الارض على الفلاحين ، فنال كل فلاح ما بين ٣ـ٥ افدنة كحق انتفاع لا كحق ملكية ، فاذا تأخر عن سداد ضرائبها انتزعت منه واعطيت لغيره . وترك لمشايخ القرى مانسبته ٤٪ من مجموع ارض القرية ، وهو معفى من الضريبة ، وكان مقداره غالبا اربعة افدنة عن كل مائة فدان ، وذلك لقاء ماينفقه المشايخ على ضيافة موظفي الحكومة . وقد أبطل ذلك في عهد سعيد باشا (١٨٥٧) بسبب سوء تصرف مشايخ البلاد ، واستغلالهم الفلاحين في زراعة هذه الاراضي[2] . وعني محمد علي بحصر ومسح جميع الاراضي المزروعة والقابلة للزراعة في المديريات والاراضي المستخدمة في المنافع العامة ، كالترع والجسور والطرق والمدافن ، واستبعدت الاراضي البور ، وهي الاراضي التي اعطى منها الباشا نفسه واعضاء

---

(١) الجبرتي ج٤ نفس الصفحة

(٢) شكري وزميليه ص ٣٥ .

اسرته وكبـار المقربين والموظفين ، وسميت (الابعاديات) و (الجفالك)[1] . ونمكن محمد علي بفضل (عمليه الروك ـ المسح) من تنظيم ملكيه الارض وتوزيع الخراج ، وكان لذلك اكبر الاثر في ادخال زراعة محاصيل جديدة ، واستصلاح الاراضي ، وزيادة المساحة المزروعة . واستوجب ذلك العناية بالري كشق الترع وحفر القنوات وبناء السواقي واقامة الجسور وانشاء القناطر . وتعتبر ترعه المحمودية اول ترعة ذات شأن ، بناها سنة ١٨١٩ لتصل ثغر الاسكندرية بالنيل (فرع رشيد) ، بغيه تيسير الملاحة بين أقاليم مصر المختلفة وثغر الاسكندرية من ناحية . ومن ناحية اخرى سد احتياجات اهالي ذلك الثغر من الماء علـى نحـو كاف لانشاء البساتين وري الحقول والمزارع في الضواحي وعلـى ضفاف الترعة . وأقام محمد علي القناطر على الترعة المحمودية ، وعلى غيرها ، لضبط المياه وضمان حسن توزيعها . وأشهر هذه القناطر ، هي القناطر الخيرية التـي بدأ العمل بها عام ١٨٤٧ وانتهى عام ١٨٦١ . وقد انشئت لضبط مياه النيل باقامة سد عظيم دي عيون قرب تفرع الدلتا ، اذ ترتفع المياه في الترع على اثر حجز الماء في احـد الفرعين فتروي الاراضي بسهولـه ، وظهرت فوائدها في زيـادة المساحة المزروعة بمقدار الضعف[2] .

وفي الزراعة رتب محمد علي للفلاحين اجورا تؤخذ مـن محاصيل الارض

---

(١) الابعاديات هي الاراضي البور أو غير المزروعة التي استثنيت من دفع الضريبة فسميت (أباعد) والغرض من منحها استصلاح اكبـر مساحة ممكنة مـن الاراضي البور التي لايجوز التصرف ببيعها ، وانما يجـوز توارثها . امـا (الجفالك) جمع جفتلك فهي مقدار جسيم من الاراضي لاتعطى إلا لعائلـة الباشا . ومنح هذين النوعين كان مقيدا ، ولايعطي النظام الموضوع لهـا حق التصرف المطلق لمالكها . ولكن حين سئم اصحاب الابعاديات والجفالك الانفـاق المستمر عليهـا وتحمل تكاليف اصلاحها ، صدر امـر محمد علي (شباط ١٨٤٢) باعطائهم حق تملكها والتصرف بهـا بيعا وهبة ونحوها ، وهذه كانت اول ملكية فردية في مصر .

(٢) المصدر نفسه ص ٤٧ .

التي يزرعونها ، بمقدار يقارب السدس عادة ، وزودهم بالآلات والمواشي والماء للري • وكان مأمور الحكومة يحدد المساحة المخصصة لزراعة كل محصول ، حتى اذا نضج ، حددت الحكومة ثمنه ، واخذت منه مقدار الضريبة • صحيح ان محمد علي تمكن من تحسين طرق الزراعة ، وأدخل محاصيل جديدة كالقطن طويل التيلة واشجار التوت لتربية دودة الحرير والخشخاش •• وتوسع في زراعة النيلة والزيتون واهتم بزراعة النخيل والكتان والقنب اضافة الى الحبوب •• ونتيجة ذلك زاد دخل الحكومة اضعافا مضاعفة • ولكنه من ناحية اخرى ،ادخل نظام الاحتكار الزراعي ، الذي يسميه الجبرتي (التحجير)(١) ، وبموجبه يقتسم الباشا مع الفلاحين منتجاتهم الزراعية ويستأثر بالنصيب الاكبر منها • فهو يجبر الفلاحين على بيع محاصيلهم الى الحكومة بالاثمان التي تحددها • وتجمع الحكومة هذه المحاصيل في مخازنها (الشون جمع شونة) لتصديرها الى الخارج • فاذا احتاج الفلاح الى شيء منها لقوته اليومي ، اضطر لشرائه بالثمن المرتفع الذي تعينه الحكومة ، وربما تعذر عليه الحصول على غذائه في حين تمتليء به مخازن الحكومة • وعندما ساءت حال الفلاح ، ترك الباشا له اختيار المزروعات التي يريدها (حوالي عام ١٨٣١) ، كما ترك له الحبوب اللازمة لمعاشه ، كالذرة والشعير والفول والقمح ، بعد ان احتجز للحكومة قدرا معينا منها بسعر محدد • ويتصرف الفلاح بالباقي كما يشاء ، بتصريح من الحكومة ، وكانت النتيجة أن ارتفعت كميات القطن المصدرة من ٩٤٤ قنطارا عام ١٨٢١ الى ٣١٦ ألف قنطار عام ١٨٣٧ أي أنها تضاعفت ٣٣٥ مرة خلال ستة عشر عاما •

---

(١) ذكر الجبرتي في حوادث شهر ذي العقدة ١٢١٣ (٢٣ ايلول ـ ٢٢ تشرين الاول ١٨١٦ لمحات عن الاحتكار الزراعي (التحجير) فقال إن « منها الحجر على المزارع التي يزرعها الفلاحون في الاراضي التي يدفعون خراجها من الكتان والسمسم والعصفر والنيلة والقطن والقرطم ، واذا بدا صلاحه لايبيعون منه شيئا كعادتهم وانما يشتريه الباشا بالثمن الذي يفرضه على يد أمناء النواحي والكشاف ويحملونه الى المحل الذي يؤمرون بحمله اليه ويعطى لهم الثمن او يحسب لهم من اصل المال فاذا احتاجوا لشيء من ذلك اشتروه بالثمن الزائد المفروض وكذلك القمح والفول والشعير لايبيعون منه شيئا لغير طرف الباشا بالثمن المفروض والكيل الوافي » . الجبرتي ج٤ ص ٢٥١ .

حقيقة ، أبطل الباشا ربط أرزاق الجند بالارض ، ولكنه احتفظ بالسيطرة التامة عليها ، اذ ما زالت مصدر القوت للناس ، وما زالت ضرائبها أهم موارده المالية . اضافة الى أنها اصبحت في أيامه اهم مصدر لتغذية التجارة الخارجية بمنتجات التصدير ، وخاصة القطن الجديد . ولذلك كله ابقى الباشا قيود الفلاحة على أهلها .

وامتد الاحتكار الحكومي الى التجارة ، بحيث لم يجد التجار الاجانب من يتعاملون معه سوى الباشا ووكلائه الذين يبيعونهم منتجات البلاد من مخازن الحكومة وبالسعر الذي يحدده الباشا . ففي وقت انعدمت فيه بمصر الادوات اللازمة للمعاملات التجارية الكبرى ، كالمصارف والرساميل ووسائل النقل والتأمين وطرق تحديد الاسعار .. لم يكن بد من مباشرة الباشا شؤون التجارة الخارجية ، التي يستطيع بواسطتها توجيه الاستيراد نحو حاجاته الاساسية[1] ، وكان القطن أهم صادرات مصر ، ويليه القمح . وحقق الباشا مرابح طائلة من تجارة القمح مع انكلترة ، وخاصة في سنوات الحصار القاري الذي فرضه نابليون عليها لاجبارها على الصلح والتسليم . ومد الباشا نظام الاحتكار الى الاقطار التي امتلكها ، ففي السودان احتكرت الحكومة جميع محاصيل البلاد ، وفي سورية كان الحرير اهم ما احتكره محمد علي ، فتذمر الاهلون برغم انه كان يدفع ثمنا لا يقل عن ثمنه العادي في السوق . واحتج القناصل على احتكار الحرير ، وعلى فرض الضرائب المرتفعة على تجارة الاستيراد لحماية الصناعة المحلية . وفي الجزيرة العربية فرض الباشا ضريبة ١٠٪ من قيمة المتاجر المستوردة اليها . واعترضت الدول ، وفي مقدمتها انكلترة على تطبيق نظام الاحتكار وضغطت على الدولة العثمانية لابرام معاهدة (بلطة ليمان) في آب ١٨٣٨ التي منحت الرعايا الانكليز في الممالك العثمانية حق شراء المحاصيل الزراعية والصناعية

---

(١) تم تصدير الدفعة الاولى من القطن الجديد الى لانكشاير بواسطة بيت بريغز المستقر في مصر وانكلترة . وقد كلف هذا البيت ان يخصم على ثمن بيع القطن نفقات تعليم الشبان المصريين في انكلترة واجور اصلاح سفينة حربية مصرية هناك . انظر محمد شفيق غربال « محمد علي الكبير » المصدر السابق ، ص ١٠٨ .

المرغوبة ، وتعهد الباب العالي بابطال احتكار المحاصيل ومعاقبة المخالفين • ونال رعايا الدول الاجنبية نفس هذه المعاملة بموجب معاهدات مماثلة عقدتها الاستانة مع دولهم في تواريخ لاحقة ، وكان لها آثار عميقة على نظام الاحتكار في ممتلكات محمد علي ، ومهدت لالغائه في النهاية ، بعد ضغوط شديدة من انكلترة والنمسة وروسية •

والاهتمام بالتجارة ، أدى الى الاهتمام بوسائل النقل وطرق المواصلات ، لنقل المتاجر والمحاصيل من مراكز انتاجها الى مواطن تصريفها وتصديرها ، فأنشئت الطرق المعبدة وأصلح القديم منها ، كما تأسست شركة للملاحة في البحر المتوسط (١٨٤٥) ، واخرى للملاحة في النيل في العام التالي • وزاد اهتمام الانكليز باحياء الطريق البري من السويس الى الاسكندرية لنقل البريد والمسافرين ، باعتباره اقصر الطرق من الهند واليها • وتم اصلاح الطريق ، وحققت اغراضها بنجاح • ورفض محمد علي مشروعا انكليزيا لبناء سكة خديد على طريق السويس البري (١٨٤٥) خشية وقوع بلاده تحت النفوذ الاجنبي • كما رفض مشروعا فرنسيا لشق قناة في برزخ السوريس (١٨٤٧)، ما دام لا يستطيع الحصول على ضمان دولي يحول دون خطر التدخل في شؤون مصر •

وكانت ايرادات الحكومة في عهد محمد علي تتكون من الضرائب واهمها (الميري) أو (الخراج) وهي ضريبة الارض • وقد سهل نظام الاحتكار جبايتها باقتطاع ما يوازي قيمتها من اصل المحصول • وضريبة (الفرضة أو الفردة) على الذكور البالغين ، ومقدارها يتفاوت بحسب ثروة الشخص ونوع عمله • وتحصل الرسوم الجمركية من الموانىء الهامة ، وثمة موارد مالية اخرى يدرها احتكار الملح والسكر والبن والنيلة وخلافها • وقد بلغت ايرادات محمد علي من الضرائب المتنوعة والاحتكار اكثر من ثلاثة ملايين جنيه استرليني عام ١٨٣٧ مقابل خمسين الف جنيه حين استلم محمد علي الحكم (١٨٠٥) ، وذلك بحسب تقرير (دوهاميل) القنصل الروسي العام في مصر • ونمت الايرادات مع نمو مكانة مصر السياسية والعسكرية والاقتصادية ، ثم تناقصت عاما بعد عام منذ أزمة عام ١٨٤٠ وتخلي محمد علي عن جميع ممتلكاته ما عدا السودان•

(١) انظر نص تقرير Duhamel في شكري وزميليه ص ٢٩١–٣٦٠ .

ونالت الصناعة قسطا وافيا من اصلاحات الباشا المتعددة وايراداته الوفيرة وقدر (بورنغ) ما انفقه على إقامة المصانع وتجهيزها بالالات والمواد الاوليـة بما لا يقل عـن اثني عشر مليون جنيه استرليني[1] • وسياسته في الصناعة كانت ترمي الى تحقيق امرين : الاول سلامة الميزان التجاري وميله لصالح مصر حتى لاتذهب اموالها الى الموردين الاجانب • والثاني الاكتفاء الذاتي حتى تقوم البلاد بانتاج حاجتها من السلع دون استيراد شيء من الخارج • وأنشئت المصانع في مختلف انحاء القطر ، وكانت صناعة غزل القطن والكتان أهم الصناعات • وبرغم أن مصانع غـزل القطن اصيبت بخسارة كبيرة في سنيها الاولـى ، الا أن ادارتها انتظمت بعد فترة من الوقت ، وحققت بعض الفائدة • وكان ما انتجته كافيا لسد حاجات الاستهلاك المحلي والتصدير الـى الخارج • وكلفت مصانع سبك الحديد أموالا طائلة نظرا لاستيراد آلاتها مع الفحم والحديد من انكلترة • ويذكر تقرير (بوالكمت الفرنسي)[2] ان الانكليز استغلوا ثقة الباشا بهم وحاجته اليهم ، فباعوه الآلات القديمة او المستعملة او التي لم تكتمل اجزاؤها ، بأثمان باهظة • وقد اضيفت هذه التكاليف الجسيمة الى الاجور العالية المدفوعة الـى المدربين الاوربيين في مصانع الحديد ، والى نفقات البعوث التي اوفدت الـى الخارج للتمرس في اساليب الصناعة وفنونها • وتمكن محمد علي بفضل منشآته الصناعية ، ان يكسو جيشه ويسلحه ويبني اسطولا ضخما في الاسكندرية • وليس صحيحا أن هذه المنشآت قد صرفت الايدي العاملة عن الزراعة ، ووجه الحق ان أزمة الايدي العاملة التي وجدت في الريف واستمرت طوال عهد محمد علي ، لايرجع

---

(١) شغل الدكتور السيرجون بورنغ Bowring مناصب متعددة ، مـن نائب في مجلس العموم البريطاني الى قنصل في الصين ، فحاكم على هونغ كونغ وقدم الى مصر موفدا من حكومته عام ١٨٣٧ لوضع تقرير شامل عن أحوال مصر آنذاك وما ينتظر ان تكون عليه في المستقبل • ومنذ وصوله الى مصر جمـع المعلومات والاحصاءات عن أهل البلاد ومنتجاتها الزراعية والصناعية وإيراداتها ومصروفاتها وعرفها التجاري وتشريعها وأوضاع التربية والتعليم فيهـا ، وكل ما يؤثر في نمو موارد البـلاد بطريق مباشر أو غـير مباشر • وعاش بورنغ ثمانين عاما بين ١٧٩٢–١٨٧٢ • انظر نص تقريره القيم في شكري وزميليه المصدر نفسه ص ٣٧٧–٧٠٠ •

(٢) انظر نص تقريري De Boilecomte في شكري وزميليه ص ٢١٧–٢٣٦ و ٢٣٧–٢٤٨ •

سببها للصناعة الجديدة ، وانما يرجع سببها الى التجنيد العام • أما تولي الدولة المشاريع الصناعية بنفسها ، فتفسيره انه في ظروفها القائمة آنذاك ، إن لم تقم بها ، فلا يقوم بها احد[1] • وقد عمل محمد علي جاهدا على ان تصبح الاحتكارات الصناعية في مصر اساسا لنهضة صناعية وسياسية واقتصادية لم تعرفها البلاد من قبل •

هذا الى عناية محمد علي بالصحة العامة ومكافحة الامراض والاوبئة المستوطنة أو الطارئة • وحين مات الكثيرون من وباء الطاعون في الاسكندرية والقاهرة (١٨١٣) ، انشئت مراكز الحجر الصحي (كورنتيلة) في رشيد ودمياط والبرلس وشبرا والجيزة • وبذلت جهود كبيرة لمكافحة الكوليرا والرمد والجدري والزحار ، شارك فيها الاطباء الاجانب واشهرهم الطبيب الفرنسي كلوت بك • واقيمت المشافي وجهزت بالادوية واللوازم والكتب الطبية ، واوفدت البعوث الطبية الى الخارج ، وانشئت مدرسة الطب البشري في ابي زعبل قرب القاهرة وجعل مديرها كلوت بك ، (١٨٢٧) ، ثم نقلت الى المدرسة التجهيزية في القصر العيني (١٨٣٧) وكان اساتذتها من الاطباء الاجانب ، واختيرت الدفعات الاولى للمدرسة من تلاميذ الازهر •

التعليم والترجمة والنشر :

أما التعليم الذي قامت على اساسه النهضة العربية في القرن التاسع عشر بمصر ، فيرجع كثير من الفضل في نشره الى محمد علي ، فالجهد الكبير الذي صرفه في هذا السبيل ، يمكن تصوره من خلال حديث اجراه مع القنصل الروسي (دوهاميل) ، ومما ورد فيه أنه حين تسلم الحكم لم يكن في مصر اكثر من مائتين يعرفون القراءة والكتابة ، باستثناء الكتبة من القبط[2] • ونشر التعليم على الطريقة الحديثة بين (أبناء العرب) ، استهدف تنوير أذهان المصريين

---

(١) **محمد شفيق غربال ، المصدر السابق ، ص ١٠٧ •**

(٢) انظر في شكري وزميليه ، المصدر السابق ، ص٣٣٦ من تقرير دوهاميل سالف الذكر •

واعدادهم للسير في طريق المدنية الحديثة جنبا الى جنب مع أمم الغرب • لقد عني محمد علي بانشاء المدارس لتلبية احتياجات الجيش والادارة والبحرية والزراعة والصناعة والمنشآت العمرانية • وبرغم ان الباشا تعلم القراءة والكتابة في سن متأخر وعمره خمس واربعون سنة ؛ فقد عمل على رفع المستوى العلمي والثقافي في البلاد ، وانشاء المدارس وايفاد البعوث العلمية والفنية والصناعية الى اوربة ، وترجمة كتب العلوم والفنون وطبعها ونشرها • وبدأ بانشاء المدارس الحربية لتخريج الضباط ، وأول مدرسة أنشأها هي مدرسة القلعة لابناء المماليك، بعدمذبحة عام ١٨١١ • واسس (الدرسخانة الملكية) لسد حاجة دواوين الحكومة الى الموظفين و (مدرسة الادارة الملكية) لتخريج طائفة من الموظفين والمترجمين ، ومدرسة الطب البشري (١٨٢٧) برئاسة كلوت بك لاعداد ما يتطلبه الجيش الجديد من الاطباء ، ومدارس الطب البيطري ، والزراعة و (المهندسخانة) و (الالسن) وغيرها • ثم اتضح انه ينبغي تهيئة طلبة المدارس الحربية قبل التحاقهم بها ، فانشئت المدارس الابتدائية والتجهيزية ، وكانت الدولة تتكفل بمعيشة الطلبة وبجميع لوازمهم ، وتدفع لهم رواتب شهرية، وظلت هذه المدارس تابعة لديوان الجهادية الذي أنيطت به شؤون العساكر البرية وما يتصل بمصالحها وسائر امورها • وفي أوائل عام ١٨٣٦ قسمت المدارس الى ابتدائية وتجهيزية وخصوصية • فالمدارس الابتدائية تهيىء الطلبة للالتحاق بالمدارس التجهيزية التي تعد الطلبة للانتساب الى المدارس الخصوصية كمدارس الهندسة والمدفعية والفرسان والمشاة والطب البشري والطب البيطري ؛ والالسن (لتعليم الترجمة واللغات) • ثم فصلت المدارس عن ديوان الجهادية عام ١٨٣٧ وصارت تابعة لديوان المدارس . وبما أن المدارس كانت جزءا من نظام الجندية ، فاهتمام الباشا بها استمر ما بقيت حاجته للجيش قائمة • فلما هدأ نشاطه العسكري ، وخفضت تسوية ١٨٤١ عدد الجيش في مصر ؛ واضطرت ظروف الوضع الاقتصادي ضغط النفقات ، انعكس ذلك على المدارس ، فأنقص عددها ، وقلص عدد طلبتها • وظل المعلمون الاجانب ولا سيما من الطليان والفرنسيين ، يتولون التدريس في المدارس المصرية ، واضطر الباشا لاستخدام

طائفة من المترجمين لترجمة دروسهم ، الى ان عادت البعوث الدراسية تباعا من الخارج ، فكلف افرادها بالتعليم وشغل مختلف المناصب الحكومية .

ومعلوم أن محمد علي أرسل البعوث الى الخارج في شتى فروع المعارف العسكرية والمدنية ، وغادرت البعثة الاولى مصر الى ايطالية عام ١٨٠٩ والثانية عام ١٨١٣ . وفي عام ١٨٢٦ ارسلت بعثة كبيرة الى فرنسة ومنهم رفاعة رافع الطهطاوي الذي الحق بالبعثة اماما لها ، وتبعتها بعوث اخرى ما بين ١٨٢٨ـ ١٨٣٠ ، ومنها بعثة كبيرة للصناعات توزع طلبتها بين فرنسة وانكلترة والنمسة لدراسة الهندسة وبناء السفن والفنون البحرية . ولم تتوقف حركة ارسال البعوث بعد عام ١٨٤٠ ، فقد أوفدت اكبر بعثة الى فرنسة وعدد اعضائها سبعون طالبا ، لتعلم الفنون الحربية ، وهي ترمز الى الاتجاه السياسي الجديد الهادف الى المحافظة على الوضع الذي كفلته لمصر تسوية ١٨٤١ ، واستبقاء جيش كبير، برغم مخالفة ذلك للقيود المفروضة على مصر في تلك التسوية .

واضافة الى انشاء المدارس وايفاد البعوث ، عني محمد علي بالترجمة ، لنقل علوم الغرب وفنونه الى لغات يفهمها طلبة المدارس المصرية ، أي الى العربية والتركية . وأمر الباشا باختيار افضل الكتب وترجمتها ، وطرحها بين ايدي الطلبة والاساتذة ، والحرص على ان تكون لمؤلفين اجانب يدرسون طلبة المدارس المصرية ، أو لمؤلفين من كبار العلماء الغربيين ، في موضوعات الطب والهندسة والتاريخ والجغرافية والمنطق والقانون والعلوم . وبرغم أنه كان يوجد في كل مدرسة فئة من المدرسين تترجم الكتب الى العربية او التركية ، فان جهودها لم تكن كافية ، ولذا تقرر انشاء (مدرسة الالسن) في اواسط عام ١٨٣٥ ، وشمل منهاجها دراسة اللغة العربية والفرنسية والتركية والفارسية ، اضافة الى الانكليزية والايطالية ، وشيئا من الآداب والتاريخ والجغرافية والقانون . وتخرجت اولى دفعاتها عام ١٨٣٩ وعكف افرادها على ترجمة كتب التاريخ والادب باشراف رفاعة مدير المدرسة . وقد اعتمد محمد علي على عدد من المترجمين الشوام لترجمة المؤلفات في العلوم الطبية خاصة ، كما كلف اعضاء البعوث العائدة بترجمة مادرسوه من علوم وفنون ، ويلاحظ أن معظم الاهتمام تركز على ترجمة كتب الطب والرياضيات والفنون العسكرية والقوانين . وقام

رفاعة بدور متميز في حركة الترجمة ، اذ كان قد تعلم الفرنسية اثناء وجوده في باريس ، وقـرأ نخبة مـن كتب الرحلات والتاريخ والجغرافية والرياضيات والهندسة والفلسفة والاجتماع والقانون والآداب والفنون الحربيـة والمعادن ، واتصل بكبار المستشرقين امثال سلفستر دوساسي ، واستطاع قبـل تخرجه ان يترجم اثنتي عشرة رسالة في مختلف الفنون • ثـم عـاد الى مصر عام ١٨٣١ فعين مترجما في مدرسة الطب ثـم في مدرسة المدفعية (١٨٣٣) ، فمشرفا علـى مدرسة التاريخ والجغرافية ، فمديرا لمدرسة الالسن • وعمل في قلـم الترجمة الذي انشىء عام ١٨٤١ •

وكان لا بد من طبع الكتب المترجمة لطرحها بين أيـدي الطلبة ، فانشئت المطابع لهذا الغرض ، وكان معظم الكتب المترجمة يطبع في مطبعة بولاق التـي تأسست عام ١٨٢٠ وبدأت عملها عام ١٨٢٢ ، ثـم تبعتها مطابع اخرى ألحقت بمدارس الطب والمدفعيـة والفرسان والهندسة وبعض الدواوين ••• وبذلـك اسهمت الطباعة في نشر الثقافة الحديثة • وفي أواخر عام ١٨٢٨ انشئت الجريدة الرسمية المسماة (الوقائع المصرية) باللغتين العربية والتركية ، ثـم أعيد تنظيمها في مطلع عام ١٨٤٢ ، ووضعت تحت اشراف رفاعة ، الذي عهد اليه ايضابترجمة بعض ما يرد في الصحف الاجنبية من اخبار مصر والعالـم الخارجي ، وظـل كذلك حتى عهد عباس الاول عام ١٨٥٠ •

ومعنى هـذا ان الصحافة في مصر نشأت رسمية في البدء ، ثـم تجاوزت (الوقائع المصرية) نفسها ، مهمتها الاصلية التي اقتصرت علـى نشر قرارات الحكومة واخبارها ، الى فتح نوافذ جديدة أطـل منهـا المصريون على العالـم الخارجي • ومما يلفت النظر ان زعماء مثل محمد عبده وسعد زغلول ،ارتبطت حياتهم الاولى بمدرسة (الوقائع) في اواخر عصر اسماعيل ، فكأنهم تزودوا منها ثـم انطلقوا في آفـاق الحياة الرحيبة خارجها •

لقد كان لحركة التعليم والترجمة والنشر في عهد محمد علي ، أثـر ظاهر في تكوين جيل مـن المثقفين المستنيرين بمصر ، وفي توسيع آفـاق الاهلين ،

وتزويدهم في الحواضر والقرى بثقافة عربية اسلامية ، مضاف اليها اعداد فنـي وحرص على تعليم العلوم الحديثة باللغة العربية على نحو يصح معه أن يوصف بأنـه التعليم القومي الذي يتسم بروح الاعتدال وتغليب المنفعة على النظريات. وتقوم قواعده على اساس ثقافة القوم ، ووصل حاضر الامـة بغابرها ، لئـلا يبقى سطحيا لانفع فيه ولادوام لـه .

الادارة :

لم يكن محمد علي بالرجل المستبد والحاكم المطلق في علاقاته برجال حكومته، وأوامره تجمع النصح الى الترغيب والترهيب وضرب الامثال والاشارة الـى أن منفعة الرعية أو مجد الوطن متوقف على مانيط بعمال الحكومة أداؤه . والادارة في عهده تطورت لتواكب الظروف الجديدة ، فبعد مسح الاراضي (الروك) عام ١٨١٣ ، قسم مديريات مصر الى سبعة اقسام ، على كل منها مدير : اربعة في الوجه البحري ، وثلاثة في الوجه القبلي . وقسم المديريات الـى مراكز ، والمركز الى اقسام ، والقسم الى قرى . فالمأمور يرأس المركز ، والناظر يرأس القسم، والشيخ يرأس القرية . أما العاصمة والثغور الهامة كالقاهرة والاسكندرية ودمياط ورشيد والسويس ، فكان يحكم كلا منها حاكم او محافـظ . وكانت وظيفة المأمور مراقبة الزراعة وجمع الاموال والمحاصيل وانفار المجندين بالقرعة العسكرية . أما المدير فينفذ أوامر الباشا ويشرف على الري ويضبط اعمالـه . وطريقة محمد علي في الادارة انـه جعل لكل شأن من الشؤون العامة ديوانا ، وكان لايتخذ قرارا في مسألة ما إلا بعد ان يستمع لآراء المجلس المختص بها . صحيح انـه اشرف بنفسه على كـل اعمال الدولـة الانشائية لضمان تنفيذها وسرعة انجازها ، ولكنه الى جانب ذلك تطلع الى تدريب اهل البلاد من خلال هذه الدواوين والمجالس على شؤون الحكم والادارة ، حتى يكثر عـدد الاكفاء فيضطلعوا بأعباء الادارة وفروعها بأنفسهم . وأهم المجالس والدواوين هــو المجلس العالي الذي تأسس عام ١٨٢٤ ، وكان يسمى ايضا مجلس القلعة وديوان الخديوي ومجلس الشورى .. واختص ببحث جميع الامور الداخلية ما عـدا

المالية منها . والقصد من انشائه على حد قول الباشا نفسه : « لقد كان دأبنا ازاء كل أمر مما يتعلق بالمصالح المصرية .. أن نجتنب عند البت فيه الانفراد برأينا والاكتفاء بحكمنا .. » . واضيف الى اعضاء المجلس عالم للفصل في القضايا المتعلقة بالشرع ، وتاجران لمسائل المشتريات والتجارة ، وكاتبان للاعمال الحسابية ، وهؤلاء الستة ينتخبون سنويا . والى جانب المجلس العالي،أوجد محمد علي دواوين متعددة منها ديوان المدارس وديوان الجهادية ،وديوان الروزنامة أو الروزنامجة ، وهو قديم له مثيل في الآستانة من حيث انه مكلف بالاشراف اليومي على شؤون المال والالتزام وحفظ دفاتر الحسابات . وهناك ايضا ادارات متنوعة يشرف عليها (النظار) لكل من مصالح الدولة . وقد استوجب تطور الاوضاع المختلفة في دولة محمد علي ، اعادة تنظيم جهازها الاداري ، ولـذا صدر قانون (السياستنامة) في تموز ١٨٣٧ ، لتنظيم شؤون الدولة الداخلية وتوزيع الاختصاصات والمسؤوليات بين دواوينها السبعة التي كان كل منها بمثابة (وزارة) في مصطلحنا المعاصر . وكان على مدير كل ديوان ان يقدم للباشا تقريرا اسبوعيا عن احوال ديوانه وكشفا شهريا بحساباته وميزانية سنوية بايراده ومنصرفه.ويجتمع مدراء الدواوين في (مجلس شورى) خاص ،ويبحثون مايقدم اليهم ويرسلون للباشا خلاصة مايصلون اليه .

وبرغم وجود هذه الدواوين والمجالس ، فقد كان محمد علي مصدر السلطة العليا في البلاد ، وان سمح لرجاله بقدر محدود من حرية التصرف في التفاصيل الادارية ، وجعلهم مسؤولين امامه عن نجاح أو فشل الخطة عن طريق اشراكهم في وضعها . وطلب من مرؤوسيه الاعتراض على أمر اصدره إن وجدوه مضرا بالمصلحة ،وعبر عن امتنانه الزائد لذلك لان السكوت عليه«من أعظم الجرائم»[1].

لقد أخذ محمد علي عن النظم العثمانية الاولى ضرورة خلق (الصفوة) الفعالة الكفؤة ، وضرورة ربطها بولي الامر . و (الصفوة) هي (الارستقراطية المتكلمة بالتركية من اصحاب المناصب الحربية والادارية والفنية) وهي التي اوجدها محمد علي . حقيقة أنه اعتمد على ابنائه واقربائه وأصدقائه الخلص

---

(١) غربال ، المصدر السابق ، ص ٨٥ .

لتشغل المراكز الادارية الرئيسية في الدولة ، غير انه كان يختارهم ممن نالوا خبرة واسعة وتجربة نافعة . ولم تكن هذه (الصفوة) التي ائتمنها على قيادة بلده تركية الاصل ، بل كان لسانها تركيا إما بالطبع او بالاكتساب وكانت مكونة من شتى العناصر : من المماليك الشراكسة ومن العثمانيين في مصر واقاليمها السودانية أو من سبي المورة او اللاجئين منها . صحيح ان الباشا فتح مصر للغة الترك وادابهم وعاداتهم ، وانتشرت التركية في مصر باعتبارها لغة الحاكم ولغة (الصفوة) التي تشاركه اعباء الحكم ، الا أن تأثير ذلك في الثقافة المصرية كان ضئيلا . ومن ناحية اخرى ، لم يكن رجالها كلهم من المسلمين ، فمنهم من كان قبطيا او نصرانيا سوريا أو أرمنيا[1] .

كان محمد علي متدينا باعتدال ، وقد أباح لاهل الملل ولرعايا الدول في بلاده التمسك بعقائدهم وعوائدهم ضمن حدود الشرع الاسلامي . وفي نظر محمد علي أن التعصب لجنس على جنس ، يورث الحقد والبغضاء بين الناس[2] ، وان في خدمة الوطن متسعا للجميع . واذا كان الكثيرون من ابناء العرب في مصر لم يستطيعوا ولوج ابواب المناصب الرئيسية في الدولة بادىء الامر ، فان الامر سيتغير حين تتخرج طوائف المتعلمين والفنيين المصريين من معاهد الدولة ، بعد امتناع الآباء عن ارسال ابنائهم الى المدارس التي وجدوا فيها نوعا من التجنيد . وقد حرص الباشا على اقامة التوازن بين (العثمانلية) الذين كان يؤثرهم ويضطر لمسايرتهم ، وبين المصريين الذين كان يطمع في مساعدتهم ، اذ كان يخشى من معارضة (العثمانلية) الذين قد يحدوهم الجهل والعناد والتعصب ، أو الولاء للاستانة ، الى مقاومة مشاريعه وتعطيلها . وكان يأمل أن يعود افراد البعثة التي ارسلها الى فرنسة عام ١٨٢٦ لتأخذ مكانها بين (الصفوة) ، وكانت البعثة مؤلفة من ٤٥ شابا نصفهم تقريبا من المصريين ، و١٨

---

(١) من امثال بوغوص بك (الارمني) مدير الامور الخارجية والتجارية .

(٢) نقرأ في امر اصدره الى محافظ دمياط « بأنه علم بالاحتفالات التي قويل بها الآي حسين بك من الاهالي والقناصل وبما تفوه به علي آغا ناظر السلخانة وقوله في محفل الاستقبال ، صار الفلاحون العمي عساكر ، مهما كانوا لا يكونون مثل عساكرنا الترك . وعليه فاضربوه ١٠٠ نبوت على إليته وبنفي وإن عاد يصلب » . غربال ، المصدر السابق ص٨٩ .

من اصل عثماني[1] ، يضم بعض الارمن والاتراك والشراكسة •

مظاهر التحول والتغيير في عهد محمد علي :

سبقت دولة محمد علي في مصر الولايات العربية الاخرى في الاخذ بنظام الدولة الحديثة ، لان الاصلاح في مصر بدأ قبل أن يبدأ في الولايات العربية ، وحتى في مركز الدولة العثمانية نفسها ، ونجح اكثر منها في اقتباس النظم الحديثة وتطبيقها في الميادين العسكرية والادارية والاقتصادية والعلمية ، أي في الميادين التي سبقت فيها اوربة الغربية اقطار المشرق العربي بقرون •

ونحن نأخذ مصر كنموذج للولايات العربية الاخرى ، مع تسليمنا بأن لكل ولاية عربية ظروفها الداخلية والجغرافية التي تميز المجتمع فيها عن غيره في الولايات الاخرى ، وتؤثر بنسب متفاوتة على تطوره وعلى ظهور مؤثرات جديدة فيه • ففي مصر ، كما في الدولة العثمانية وولاياتها بعد قليل ، اتخذت الدولة الحديثة لنفسها صلاحيات واختصاصات ومسؤوليات لم تكن لها من قبل • وبعبارة اخرى ، تجاوزت الصلاحيات الاساسية التي تولتها في العصر العثماني الاول الى وظائف اخرى مست كيان المجتمع وحياة المواطن في الصميم • فنظمت القوة العسكرية تنظيما جديدا ، وتدخلت في الحياة الاقتصادية ، ونهضت بالاحوال العلمية والثقافية والصحية • والمشاهد انه كلما نمت الدولة وتقدم بها الزمن حتى العصر الحاضر ، اتسعت مهامها ووظائفها حتى شملت آفاقا لم يتصور احد من قبل انها مما يدخل في مسؤولياتها •

وسنعرض ايجازا لبعض العوامل المؤثرة على تطور المجتمع العربي في مصر ابان القرن التاسع عشر ، ونشير الى اهم مظاهر التحول والتغيير الذي جدت عليه ، وسنرى انها نفسها التي أثرت وظهرت على المجتمع العربي في بلاد الشام والعراق ، مع فروق البيئة الجغرافية والاجتماعية • ومن اهم هذه العوامل، التعليم ، من حيث ان ادخال نظمه الحديثة ومعاهده كان اساس تعديل البناء الاجتماعي والاقتصادي والثقافي ، ومن حيث إنه كان عاملا هاما من عوامل

---

(١) شكري رزميليه ، المصدر السابق ، ص٢٢ •

التحول والتغيير في مصر • ولايقل عن التعليم اهميـة ، انشاء الجيش الوطني الذي كان له نتائج خطيرة على حياة المجتمع • وديوان الجهادية الذي انشيء للعناية بشؤون الجيش ، هو نفسه الذي ربطت بـه المدارس الحديثة • وكان هذا امـرا طبيعيا في تلك الفترة ، لان المدارس بـدأت عسكرية أو ذات صفة عسكرية ، وقـد انشئت مدرسة الطب لتخريج اطبـاء للخدمة في الجيش ، ومدرسة المهندسخانة لتخريج المهندسين العسكريين ، اضافة الى المدارس الحربية الاخرى • واستمرت الصفة العسكرية في المدارس المدنية ، فكان الطلبة يرتدون زيا عسكريا موحدا ، ويمنح المتفوقون منهم رتبـا عسكرية ومكافآت ماليـة ، ويقيمون في المدرسة ليلا ونهارا كأنهم في ثكنة عسكرية • وقـد ألمحنا الـى أن تجنيد المصريين من اهل الريف والمدينة قد رفع مستواهم الصحي والتعليمي ، وان حملهم السلاح وتدريبهم على فنون الحرب ، وانتصارهم علـى العثمانيين ذوي التقاليد العسكرية ، والتزامهم النظام •• كان له نتائج اجتماعية واقتصادية وسياسية هامة على المجتمع المصري في الريف والمدينة • لقـد أزال التعليـم والجيش الحواجز التي كانت قائمة في المجتمع التقليدي القديم بـين الفلاحين ، وطوائف الحرف والتجارة • فبينما كان التنظيم الاجتماعي والاقتصادي قائمـا على توارث الحرف والوظائف عموما ، بحيث ينشأ ابن الفلاح فلاحا ، وابـن التاجر تاجرا ، وابن العالم عالما وابن الحداد حدادا ، اذا بـه يتحول ويتغير بفعل المدارس الحديثة والجيش ، فيتاح لابن الفلاح ان يترقى في مدارج الجيش أو وظائف الدولة ، وطبعا بعـد أن يتعلم في مدارس الدولـة ويتخرج منهـا. وهكذا بدأ المجتمع المصري يتحرك بعد سكون طويل ، واخذت تتكون فيـه طبقة من الموظفين صارت لها مكانة مرموقة في المجتمع ماديـا بفضل رواتبها المجزية ، وادبيا بفضل المهابة المستمدة من انتمائها للحكومة • وترتب على هـذا تطور علاقة الفرد بالدولة ، فبينما كانت سطحية الحكم العثماني تقتضي بـأن تكون صلة الفرد بالدولة عن طريق طائفته الحرفية او التجارية التـي لا يشعـر بالولاء الا لها ، حتى ضد عسف الحاكم وجبروته ، انقلب الموقف في ظـل الدولة الحديثة • لقد انحـل التنظيم التقليدي للجماعات والهيئات والحـرف ،

بانحلال طوائف الحرف والعلماء والمجاورين (طلبة الأزهر) وبزوال نظام الالتزام وبالقضاء على الزعامات الشعبية في الاحياء • ومقابل هذا تزايدت قوة الدولة العسكرية والامنية والاقتصادية ، وتنوعت اجهزتها بتوسع اختصاصاتها وتغلغل سلطاتها • واصبح الفرد في الجيش وفي التعليم وفي الضرائب وتسجيل الاراضي ، وميادين الصناعة والتجارة والزراعة ،يواجه الدولة في كل خطوة يخطوها • واقتربت الحكومة من النظام البيروقراطي وحرصت عليه ، وتألفت اجهزتها من الفنيين والخبراء والاداريين ، واخذ النظام الاداري ينعقد تدريجيا فأنشئت الدواوين للنظر في مختلف أمور الحكومة والمرافق •وترتب على هذا اعتقاد الناس بأن الحكومة قادرة على كل شيء ، وبأنها يجب ان تحقق للناس كل شيء • ولكن تنظيم الدولة لم يكن سليما بما يكفي لحماية الفرد ولتحقيق العدالة ؛ فقبل أن توضع نظم التجنيد في وقت متأخر ، كان من الطبيعي أن يقع عبء التجنيد على الذين لا يستطيعون الافلات منه بالنفوذ والقرابة من العمدة او شيخ البلد • وكذلك كان يمكن ان يتحول عبء الضرائب من الغني الى الفقير بواسطة الرشوة ، وكذا في اعمال السخرة وانشاء الطرق وحفر القنوات ومواجهة الفيضانات • وظلت الحكومة مدة طويلة غير قادرة على توفير الضمانات الكافية للناس ، اما لقصور انظمتها او لغلبة اصحاب النفوذ ،وانتشار الرشوة والفساد • وبذلك احس الفرد العادي ان الدولة تستغله ، وبأنه في كثير من الاحيان ، لايستطيع ان يسمع صوته أو يسترد حقوقه • ونتج عن ذلك ان الفرد صار ينظر الى الدولة وكأنها منفصلة عنه ، بحيث غدا مستعدا لاستغلالها ان وجد سبيلا لذلك • ومن هنا قلة الاحترام للاموال العامة •

أما في القضاء ، فكانت الضمانات اكثر توافرا ، نظرا لرسوخ احكام الشريعة الاسلامية في العالم العربي ، وطبعا لم يعد مألوفا ما يرد في الجبرتي كثيرا من القبض على الناس أو اعدامهم • ولكن الضمانات لم تكن كافية ، ولم تنشأ المحاكم الاهلية والمختلطة والتجارية الا في عهد اسماعيل •

بيد ان الناس كانوا يبحثون عن نوع آخر من الضمانات ، هو اشتراك الشعب في الحكم ومراقبة تصرف الحكومة لجعلها تتمشى مع مصلحة الشعب•

ولكن محمد علي كان له رأي آخر : لقد مضى عهد القوى الوطنية والزعامات الشعبية ذات النفوذ التي شهدها في بداية حكمه • لقد جاء نظـام محمد علـي الحربي والتعليمي والاداري والاقتصادي ليفكك التكتلات الشعبية القديمة ، وليحول دون تكتلها ضده • وكان آخر نماذجها السيد عمر مكرم صاحب الزعامة الشعبية والروحية ، وحجاج الخضري الذي قاد جموع الشعب في حركة ١٨٠٥ التي اوصلت محمد علي الى ولاية مصر • وجاء الفتك بحجاج ، ونفـي مكرم ايذانا بالعهد الجديد • ولم تحاول حكومة محمد علي إلا محاولة ضعيفه متردده ان تخلق تنظيما شعبيا جديدا • صحيح انه عندما بدأ محمد علي الحكم ، كانت الحكومة مركزة فيما يعرف بالديوان الخديوي الذي قام الى جانب الباشا في العصر العثماني الاول ، على شكل هيئة تعاونه في شؤون الحكم • ولكن هذا الديوان كان مجرد هيئة استشارية تساعد الحكومـة في نواح اداريـة لا تتصل بالنواحي السياسية • وانشئت المجالس الاخرى على غراره • ولم ينشأ مجلس شورى النواب ، كما كان يعرف آنذاك ، الا في عهد اسماعيل •

لقد كان للسياسات الاقتصادية الجديدة التي اتبعها محمد علي آثر ملحوظ في حركة التحول والتغيير التي شهدها المجتمع المصري في القرية والمدينة • في القرية حدث تطور كبير في علاقة الفلاح بالارض وبالحكومة • كما حدث تطور في الحياة الزراعية نفسها ، مـن حيث ادخـال محاصيل جديدة ساهمت في تغيير نمط حياة الفلاح •

قبل الغاء الالتزام في جباية الضرائب والاراضي والجمارك وسواها •• كانت طائفة الملتزمين توفر على الحكومة وقتا وجهدا ، ولكنها كانت تضيع عليها أموالا ، وتقيم عصبية حاجزة بين الناس والحكومة ، وتتحكم في احوال الناس والزراعة ، وتستخدم سطوتها للاثراء واستغلال الفلاحين في زراعة اراضيها • وكان لابـد ان تزيل حكومة محمد علي هذه الطبقة لان سياستها العامة كانت تقتضي بسط سيطرتها المباشرة على الناس في الريف والمدن ، ضمانا لسياستها في الهيمنة على موارد البلاد وفي تكوين الجيش وسوق التلاميذ الـى المدارس • أما النظـام الجديد ، فقد عين بدل الملتزمين جباة وموظفين برواتب ، وبذلك ضبط عمليـة

فرض الضرائب ومواعيدها ومقاديرها على نحو افضل من ذي قبل • وبالطبع لا يمكن ضمان دقة وسلامة الجهاز الاداري والمالي الذي ظل لمدة طويله مضطربا ومختلا بالفساد وبالرشوة •

حقيقة ان محمد علي وزع الاراضي على الفلاحين ، واقرهم فيها ووضع نوائح بضمانات حقوقهم ، ولائحة في الاربعينات ترخص لهم التنازل عن الارض ورهنها في مايقارب الملكية الفردية • ولكن الفلاح ، مع ذلك ، شعر بالارهاق ، وشكا من ان مجموع ماصار يدفعه قد تجاوز ماكان يدفعه في العهد السابق • ومن ناحية ثانيه لم يعد بمقدور عدد كبير من الفلاحين ان يتهربوا من الدفع كما اعتادوا أن يفعلوا بسبب فوضى العهد السابق • ومن ناحية ثالثه ، لم يترك العهد الجديد للفلاح الحرية في زراعة ما يشاء من المحاصيل ، وانما اخضعه لنظام زراعات جديدة ، بعد أن ثبت للحكومة انها مربحة تجاريا • وبينما كان المقصود من الزراعة قبل محمد علي ، تأمين معيشة الاهلين وكسوتهم ، وسد احتياجات الاستهلاك المحلي ، وتصدير بعض الفائض من القمح والارز والسكر الى الخارج ، اذا بالدولة تضع خطة تنمية زراعية ترمي الى استغلال الارض والفلاح لصالح رأسمالية الدوله ، وليس لرفاه الفلاح الذي زادت حالته سوءا ، لان اكثر الاعباء اقتصاديا وعسكريا كانت واقعة عليه • كذلك لم تتحسن حالته نتيجة انهاء سياسة الاحتكار ، واحلال سياسة اقتصادية حرة محلها في الزراعة والصناعة والتجارة في عهد خلفاء محمد علي ، لان الذي استفاد من هذه الحرية هي الرأسمالية الاوربية التي دخلت في وقت كانت فيه مصر خالية او تكاد من الرأسمالية الوطنية الخبيرة في العمليات الاقتصادية الواسعة •

وفي الصناعة ، أدخل محمد علي الآلة الى المعامل ، فتطورت احوالها ، ولم تعد الصناعة تتطلب تقاليد الحرف القديمة ومهارتها وخبرتها الخاصة ، وانما يكفي فيها التدريب • ولهذا بدأ نظام الطوائف الحرفية يتزعزع ، وكان اساس البناء الاقتصادي والاجتماعي في المدينة • ومع تطور وسائل المواصلات ، وتزايد عدد السكان في المدينة ، صارت المعامل والمصانع تضم مئات وألوف

العمال ، وفرضت الدولة رقابتها على الانتاج الصناعي بشكل فعال • ويلاحظ ان الرساميل الاوربية ابتعدت عن الميدان الصناعي في مصر ، حرصا منها على ابقاء مصر مستوردة من الخارج ، الى أن انتعشت الصناعة في الحرب العالميةالاولى لما انقطع اتصالها مع الخارج •

لقد أوجد تنظيم التعليم الحديث في دولة محمد علي ، ظروفا جديدة ترتب عليها انتشار الوعي الوطني والدستوري في البلاد • فالكتب والمؤلفات التي ترجمت او نشرت ايام محمد علي،لم تؤت ثمارها إلا في عهد اسماعيل •وكذلك انتشار الصحف ولا سيما في عهد خلفاء محمد علي ، أسهم ايضا في ترسيخ الاصول الفكرية للحركة الدستورية المقبلة ، وفي تكوين النظام الشوريالنيابي المرتقب •

واستلزم تطور القضاء وجود طائفة من المحامين الاحرار ، كما اوجد انتشار الطب الحديث ، الاطباء الاحرار غير الموظفين • والتطور الاقتصادي ، أظهر طوائف مختلفة من العاملين في ميادين التجارة والصناعة والمصارف والوساطة والتعليم في المدارس الحرة • وهذه كلها قوى جديدة استطاعت ان تنطلق وتعبر عن نفسها في الحركة القومية،بحكم انها مثقفة ومتحررة من السيطرة الحكومية المباشرة • وهذا تطور هام في المجتمع المصري ، نلاحظه خاصة منذ عهداسماعيل وما بعده •

محمد علي والدولة العربية :

بعد سقوط نابليون عام ١٨١٥ ، كانت الفترة بين ١٨١٥ ــ ١٨٣٠ أهم مافيها شيئان : الاول لايهمنا ،وهو ثورةاليونان والعملياتالحربية العثمانية هنالك لاخضاع اليونانيين ، واشترك فيها محمد علي ، وأعقبها تدخل من أوربة لتسوية المسألة اليونانية التي لم تسو الا بعد تحطيم الاسطولين التركي والمصري في نافارينو (١٨٢٧) ، وقيام الحرب الروسية العثمانية التي انتهت بمعاهدة خاسرة في ادرنة (١٨٢٩) ، ارغم فيها السلطان محمود الثاني على التسليم باستقلال المملكة اليونانية •

أما ما يهمنا في هذه الفترة فهو ما ترتب على اخضاع الحركة الوهابية في الجزيرة العربية وتحطيم الامارة السعودية الاولى عام ١٨١٨ على يد ابراهيم باشا • ثم يأتي مس جديد وعلاقة للعالم العربي مع أوروبة وذلك حين قامت فرنسة بانزال جيوشها في الجزائر ١٨٣٠ بقصد احتلالها ، وهذا يخرج عن نطاق بحثنا •

وبين احتلال فرنسة للجزائر واحتلالها لمصر تتكلم على محاولة محمد علي بناء دولة يمكن وصفها بأنها دولة عربية • وسنلاحظ أن هذا الوصف يعترض عليه باعتراضات لا يصح اهمالها ، وفي الوقت نفسه تبرر هذا الوصف اعتبارات هامة •

فمن الاعتراضات الموجهة الاعتراض الذي يتكرر كثيرا ، وهو أن محمد علي كان لا يفقه كلمة من اللغة العربية أو ان عربيته كانت ركيكة ، فكيف ينشىء دولة عربية وهو لا يتكلم الا" اللغة التركية بل ويتعصب لها ، وانه يزدري غير أبناء جنسه، أي يزدري العرب ، اذا صح هذا فكيف نعتبره منشئا لدولة عربية ؟ •

بل يقولون ، صحيح ان الاقطار الداخلة في نطاق دولته الناشئة كانت أقطارا عربية حقا ، عربية اللسان ، ولكن هذا لا يعني أنه تعمد احياء القوة العربية ومجد العرب المعروف بالتاريخ ، بل ان هذه الاقطار ضمها محمد علي الى مصر لاعتبارات الجوار الجغرافي والمصالح الحربية والاقتصادية التي تهدف الى تأمين مصر نفسها • وعلى ذلك فالدولة العربية المزعومة لمحمد علي لم تكن إلا مجرد فتوح ومطامع أسرة أو بيت مالك حاكم ، وان هذه الاقطار العربية لو كانت أرمنية أو تركية لكان ضمها اليه ، فليس اعتبار كونها عربية هو ما دعاه الى فتحها • وأصحاب هذا الرأي يذكرون ذلك عن محمد علي ويتجاوزون بالنسبة لابنه ابراهيم الذي كان في نظرهم متأثرا بالفكرة العربية •

ومما لا يمكن أن ينكره الانسان في مثل هذه البحوث وجوب التفريق بين شيئين : بين بواعث عمل ما ، وبين النتائج المترتبة على هذا العمل •

اذ يصح جدا أن نقوم بعمل معين ، تكون له بواعث ، ولدى اتمامنا له ، يصح

أن يؤدي وظيفة تؤدي الى أغراض لم تكن محسوبة في الباعث الاصلي . فلو سلمنا أن محمد علي كان لا يهمه فكرة عربية بالذات ، وان أعماله كانت تصدر عن رغبة في بناء مجد شخصه وأسرته ، أو أن الباعث الاول له هو الحصول على الموارد وعلى وسائل الثروة والقوة ، ولكن بدون شك لو دام هذا المشروع ولم يتهدم عام ١٨٤٠ لكانت الدولة العربية وجدت فعلا ... ، وهي نضم مصر والسودان واليمن ونجد والحجاز وديار الشام تحت حكم واحد . اليس هذا وحدة عربية بصرف النظر عن ان منشيء هذه الوحدة تركي اللسان ؟ هنا ، يجب النظر الى المسائل على هذا النحو دون النظر الى بواعث العمل ، اذ قد تبرز نتيجة العمل أمورا لم يكن المرء ينتظرها في بداية عمله .

وثمة ملاحظتان غير جوهريتين : أولاهما أنه في تلك المرحلة التاريخية ما كان ينتظر صدور القوة البناءة من شعوب أو من جماعات ، فلا بد لكل حركة في التاريخ من وجود قوة تدعمها . ومن المعلوم أن حركات الانشاء وخاصة الحركات الاتحادية والوحدوية برغم قوة الرأي العام ، لا بد لها من صاحب قوة يرعاها ، كما جرى في الوحدة الايطالية والاتحاد الالماني ، وفي تكوين الولايات المتحدة ، وفرنسة وانكلترة وكثير من الدول ، اذ لا يوجد شيء بدون موجد .

وثانيتهما أن صاحب القوة لا بد له أن يبني على أساس من رغبات الناس وميولهم ؛ فبسمارك مثلا لم ينجح في توحيد المانية الا لوجود الرغبة للوحدة في المانية ، وكما يقول ابن خلدون لا بد من وجود دعوة دينية او عصبية تجمع الناس حولها .

ولنبدأ بحث بناء هذه الدولة « العربية »(١) .

---

(١) انظر أيضا للاستزادة : كتاب يقظة العرب تأليف جورج انطونيوس بالانكليزية ، وترجم الى العربية مرتين . والنقد الذي يوجه الى انطونيوس في هذا الفصل بالذات انه من حيث التقدير العام للفكرة كان نظره متجها ــ دون قصد ــ الى ديار الشام ، مع أن مشروع الدولة العربية كان ينطوي على الجزيرة العربية والسودان فضلا عن مصر والشام . فلم تتسع نظرة انطونيوس الى هذا التحديد . وحتى بالنسبة للشام يتبع ←

ان السياسة المصرية لم تكن في بنائها للدولة « العربية » تتمشى مع السياسة

ربما تكون نظرته لبنانية لأن امثلته وتقديراته ومعرفته بالعوامل كانت مشتقة من لبنان خاصة .

وبناء الدولة عموما على النحو الذي تكونت فيه مدروس في كتاب الدكتور محمد صبري
Sabry, Mohammed : L'Empire Egyptien sous Moh. Ali et la question d'Orient, 1811-1849, Egypte, Arabie, Soudan, Crète, Syrie, Palestine Paris 1930

وهو دراسة على الوثائق قوية جدا فيما يخص الفصل الاخير من هذه الدولة ، واقل جودة في فصول البناء والادارة . واجود منها ما يتصل بالعوامل الدبلوماسية التي أدبت الى انهيار المشروع . بالنسبة لتاريخ البناء عموما هناك كتاب دودويل :

Dodwell, H. : The founder of Modern Egypt. Cambridge 1931.

وهو يتحدث عن مراحل الدولة وعن انتهائها وعن الكيفية التي اديرت بهاوحكمت اقسام تلك الدولة ، ولكن عموما ودون ان يفصل في مسألة او جزئية من الجزئيات . وللمؤلف محاولات ، بحكم انه انكليزي ، لتبرير مقاومة انكلترة للمشروع عام ١٨٤٠ تنحصر في ما يأتي : ان انكلترة على عكس ما يذهب اليه المصريون ، لا تكره ولا تعرقل نمو ورخاء مصر ، انما هي اعتقدت ـ سواء كان حقا أم لا ـ ان الدولة التي انشأها محمد علي على هذا النحو مضرة بمصالح الامبراطورية البريطانية .

ونعترض على دودويل لأنه اعتقد ان مصلحة مصر كانت في عدم الدخول في تلك الاعمال ، وانه كان اولى بمحمد علي ان يصرف موارده وجهوده في حكم مصر جيدا ، مع انه من الواضح أن مصر لو اقتصرت على ذلك لما نالت حتى استقلالها في النهاية . أما لو قال دودويل ان مصلحة انكلترة تكمن في ذلك فلا حرج عليه .

هذه هي المراجع العامة .

اما مراجع كل قسم من اقسام الدولة « العربية » على حدة فهي :

قسم السودان ، يمكن مراجعة كتاب الشاطر البصيلي : سودان وادي النيل .

وكتابي : هولت Holt ومكي شبيكة بالانكليزية عن تاريخ السودان الحديث . ؛ وكتاب دريو :

Driault, Edouard : La formation de l'empire de Moh. Aly de l'Arabie au Soudan (1814 - 1823) correspondances des consuls de France en Egypte Le Caire 1938.

وقسم الجزيرة العربية ، يتصل هذا التاريخ بتاريخ الوهابية في دورها وتاريخها الاول . وكتاب هوغارث جيد ومختصر بهذا الصدد :

Hogarth, David George : The penetration of Arabia. N.Y. 1904.

العثمانية في كل الاحوال • قد تتفق السياستان اذا اتفقت بينهما المصالح ، وكثيرا ما اتفقت ، وذلك حين استخدمت السياسة العثمانية القوة العسكرية المصرية الكبيرة لاخضاع الوهابيين وثوار اليونان • ولكن قد تنفرد السياسة المصرية بالعمل ، كما حدث عند فتح الاقاليم السودانية • ومن جهة ثالثة قد تتعارض السياستان المصرية والعثمانية ، فيؤدي ذلك الى تصادم القوتين كما حدث في حروب الشام •

وهو يتناول ارتياد الجزيرة بواسطة الرحالة الاوروبيين المختلفين وما افادته الجغرافية وما يتصل بها من تلك الرحلات ، وفيه قسم عن الحكم المصري في الجزيرة.

وكتاب فيلبي **Philby, S. J. Saudi Arabia. London 1955.**

وقد ترجم الى اللغة العربية حديثا .

وعيب الكتاب أنه تاريخ للسعوديين فقط ، يجري فيه مؤلفه على طريقة ذكر امير إثر أمير مع وصف أعماله الحربية ، ويخلو من تقدير عام للظروف المختلفة كما يخلو من بحث في غير الاجزاء التي مستها الدعوة الوهابية، والمؤلف لايرى حسنة الا لبيت سعود، واحسن ما فيه الجزء الخاص بالملك عبد العزيز ونهضته واحيائه للبيت السعودي .

وهنالك مبعوث انكليزي نزل في الخليج العربي وعبر الجزيرة متجها الى الحبر الاحمر واسمه « سادلير » وكتابه :

Sadelier, B. F. : The Diary of a Journey Across Arabia During the Year 1819, Bombay 1866.

وبالنسبة لقسم الشام فهنالك كتاب متوسط الحجم مبني على الروايات التي جمعها مؤلفه وهو سليمان بك عز الدين : ابراهيم باشا في سوريا (بيروت ١٩٢٩) .

وهنالك الوثائق الرسمية من محفوظات عابدين المتعلقة بادارة الشام في ١٠ سنين وقد حققها ونشرها الدكتور أسد رستم ويعتبر مؤرخ هذه الفترة ، وقدم مقالة الى المؤتمر الجغرافي عام ١٩٢٥ في القاهرة عن علاقات محمد علي بالسلطان محمود يشير فيها للاسباب الاقتصادية لضم الشام :

Rustum, Asad. J. : The Struggle of Moh. Ali Pasha with Sultan Mahmoud II and Some of its Geographical Aspects. Beirut 1926.

ومن منشورات الجمعية الجغرافية المصرية دراسة عن الدولة للدبلوماسي الفرنسي دي بوالكمت :

La Mission du Baron de Boislecomte : L'Egypte et la Syrie en 1833, Le Caire 1923.

نبدأ بحث بناء الدولة « العربية » بالحديث عن ضم الجزيرة الى مصر لا لانه كان الاول من حيث الترتيب الزمني فقط ، بل لان ضم الجزيرة كان حجر الزاوية في البناء كله ، ومن هنا كانت أهمية البدء بـه • ولكن كيف تكون الجزيرة حجر الزاوية في البناء ونحن نعلم أن امتلاكها لا يقدم كثيرا أو قليلا من الناحيةالاقتصادية؟ فمن المعلوم أن خيراتها محدودة ولا تقصد الا" لاغراض معنوية أو استراتيجية •

تنبه محمد علي لأهمية الجزيرة العربية قبل تكليفه بفتحها ، وذلك تحت تأثير غرضين مختلفين :

١ ـ مصر سواء كانت مقرا لدولة اسلامية مستقلة (كالايوبية والمملوكية••) أو كانت جزءا من دولة اسلامية عامة كالخلافة العباسية أو السلطنة العثمانية ••• كان لها مع سورية مهمة خاصة في الحجاز • اذ كان يترتب على مصر تموين جزء كبير من الحجاز وعليها أن تقوم بأعمال البر الموجهة لفقراء الحرمين من قبل سلطنتها، ومن قبل السلطنة العامة ، فضلا عن أن مصر بالذات كانت طريق الحجاج المسلمين وخاصة المغاربة • ونعلم أن سورية كانت تقوم بالدور نفسه • لأن مدخل الحجاز للقادم من آسية هو طريق دمشق والاردن ، اذن فاهتمام كل وال في مصر والشام كان منصرفا لقافلة الحج وتأمينها •

٢ ـ والغرض الثاني أن محمد علي قبل أن يكلف بحرب الوهابيين ، اتجه نظره الى مسألة مهمة تتصل بالبحر الاحمر ، ذلك أن هذا البحر كان في الماضي طريقا عالميا نحو الهند والشرق الاقصى • حقا ان الطريق هان أمره بعد نجاح أوروبة باستخدام طرق المحيطات ، انما بدأت قبل محمد علي محاولات أوروبية لبعثالطريق تجاريا من جديد • ونجد أن محمد علي نفسه يكتب الى شركة الهند الشرقية عام ١٨١٠ لبعث المواصلات مع الهند عن طريق البحر الاحمر وخليج السويس ، ونجده يدخل في مشاركات مع التجار العاملين مع بلاد العرب ومع الهند • اذن كان في نيّته أن يعمل على احياء طريق البحر الاحمر ، حتى لو لم تكن هنالك حركة وهابيةمتمردة على السلطان •

وتحت تأثير هذين الفرضين يهتم محمد علي في السنوات الاولى من حكمه بالتفكير في البحر الاحمر ، ثم وصلته أوامر السلطنة بحرب الوهابيين خاصة في الحجاز ، وذلك بعد عجز باشا بغداد عن مدافعتهم ، وبعد عجز باشا دمشق عن صد غاراتهم على الاراضي الشامية •

وقد حرص السلطان على أن يخمد ثورة الوهابيين لان بقاء بلاد الجزيرة العربية والحجاز خاصة بيد السلطان كان أمرا لا محيص عنه ، حتى تتم « شكليات » خلافته على المسلمين وحمايته للحرمين الشريفين ، وحتى لا يهون أمره على رعاياه المسلمين •

ولا يهمنا تفصيل حوادث الحرب مع الوهابيين ، ويمكن ايجازها بأن محمد علي بعد أن تخلص من المماليك في مذبحة القلعة عام ١٨١١ ، اتفق مع الشريف غالب في ينبع على التعاون لقهر الوهابيين • وكان أهالي الحجاز ساخطين على هؤلاء لتشددهم في اكراه الناس على اعتناق مبادئهم • ونزلت الحملة المصرية الاولى في ينبع عام ١٨١٢ بقيادة طوسون بن محمد علي ، فانتصرت أولا عند بدر ، ثم عاد الوهابيون فأوقعوا بها • وتقهقرت الحملة الى ينبع بخسائر فادحة في المال والرجال• ونهض محمد علي بنفسه ونجح في استرداد المدينة ثم سقطت بيده مكة فالطائف • وحج محمد علي ، ثم اضطر للعودة الى القاهرة ، لحدوث فتنة برئاسة أحد مماليكه بسبب اصلاح الجيش ، ثم أرسل ابنه الاكبر ابراهيم فاسترد الحجاز ونجح في احتلال الدرعية وتدميرها عام ١٨١٨ وأخذ عبد الله أمير الوهابيين أسيرا وبعث به الى القاهرة فالاستانة حيث أعدم فيها •

واستتبع فتح بلاد العرب نتائج سياسية هامة ، فقد أعاد للسلطنة العثمانية هيبتها في قلوب المسلمين • وعاد الحجيج الى ما كان عليه بعد انقطاعه عن الديار المقدسة ، وانهالت على محمد علي آيات الثناء والاعجاب من كافة أنحاء العالم الاسلامي ، ونظرا لاستقامة ابراهيم وسيره في الفتح سيرا كريما فقد انحاز لجانبه شريف الحجاز وكان مستعدا للخطبة باسمه على منابر الحجاز •

ومنذ عام ١٨١٩ أصبح الحجاز تحت الحكم المصري الذي شرع يتوسع في اتجاهين : اتجاه نجد ، واتجاه اليمن • وتنفيذ هذا التوسع في الاتجاهين لم يتم بصورة منتظمة متوالية ، بل كان يتم على دفعات يشتد في بعض الاحيان ويتضاءل أحيانا أخرى ، بحسب ظروف حكومة محمد علي الاخرى • وعلى العموم فان محاولة الاتساع في نجد واليمن كلفت محمد علي عناء وجهدا ومالا ، وكانت النتيجة أقل بكثير من التكاليف الباهظة في الرجال والمال ، بحيث انه يمكن أن نقول انه اذا حذفنا الحجاز فالحكم المصري في نجد واليمن لا يزيد عن كونه نفوذا في بعض الاحيان • ولكن كانت له نتيجة مهمة جدا ، لأنه حمل الحكومة البريطانية على أن تضع قدمها في عدن ، ثم تتدخل في مشيخات الخليج بعد تسرب المصريين الى الجزيرة كرد فعل على تدخلهم في محاولة لاحياء نفوذهم في البحر الاحمر • وقد ردت انكلترة على ذلك بتأسيس نقاط استناد لها في عدن والخليج اعتبارا من سنة ١٨٣٩ •

فتح الغزو المصري أعين الاوروبيين الى بلاد الجزيرة العربية ، وكانت انكلترة ترقب تقدم القوى المصرية بحذر وخشية ،لأن هذه القوة العربية الجديدة أمست تتحكم في طريقي الهند : طريق البحر الاحمر ، وطريق البر الى الخليج ، خاصة وان محمد علي لم يقنع بالنفوذ الاسمي في هذه النواحي ، بل بدأ يفكر جديا في المساهمة بتجارة الهند • فعيّن وكلاء له في بومباي ، وأخذ يصدر الى الهند البضائع الاوروبية • ثم فكر في انزال أسطول تجاري في مياه الخليج ليسهم في هذه التجارة، وليقضي على رجال البحر الوهابيين • بل ان الرجل أصدر أمرا يحرم على السفن الآتية من بومباي أن تصعد في البحر الاحمر شمالي جدة ، فزادت مخاوف الانكليز من الخطر الجديد الذي يهدد طريق الهند • وكان اعتمادهم في البحر الاحمر على موانىء السودان واليمن ، فلما وضع محمد علي يده على هذين القطرين ، شعر الانكليز بالخطر ، وسعوا لاستخلاص التجارة منه جهرا ، وهرعوا للحصول على امتيازات تجارية في اليمن • وبعد أن ضربوا (مخا) بالمدافع نال الانكليز ــ فيما نالوا ــ تخفيضا على المكوس التي كان يدفعها تجارهم فأصبحت مساوية لما يدفعه الفرنسيون وذلك في مطلع ١٨٢١ •

على أن انكلترة لم تتظاهر بعدائها للباشا ، لا سيما وقد سرها ما أنزله محمد علي بالقواسم رجال البحر الوهابيين الذين كانوا يأخذون طريق البحر على السفن الانكليزية وعلى متاجر شركة الهند ويلحقون بها أكبر الضرر . وسنرى أن الاسطول البريطاني بقيادة « كير » انتهز هذه الفرصة وعبأ حملة تأديبية اثر استيلاء القواسم على بعض سفن الشركة ونهبها ، واستولى على مركزهم في رأس الخيمة .

٣ ـ هذا عن الجزيرة العربية . أما عن فتح الاقاليم السودانية فنعتقد أن سياسة مصر في محاولة احياء البحر الاحمر غير كافية لفهم توسع محمد علي في حوض النيل الجنوبي . نعم ان سياسة البحر الاحمر هي مفتاح ضروري لفتح السودان ولكنه ليس المفتاح الوحيد . وذلك أن محمدا عليا بدأ يملك في السودان ثغوره البحرية ، أي أنه ملك الباب قبل الدار ، فابراهيم لما نجح في استرداد الحرمين وقلد باشوية جدة ومشيخة الحرم ، قلد معها باشوية الحبش وفيها ثغرا السودان (مصوع وسواكن) التي كان يديرها تجار باسم والي جدة . ومن يملك الباب (الثغرين) لا بد وأن ينظر الى الداخل السوداني ، فيتحقق هنا ما قلناه من أن البحر الاحمر مفتاح لفهم التوسع في جنوب حوض النيل ، ويساعد على تبرير مباشرتنا الحديث عن الجزيرة العربية التي يستتبعها السودان وفتحه .

ثمة أسباب أخرى للفتح : أهمها أن الجنوب في بلاد النوبة نفسها وما يليها جنوبا في سلطنة سنّار ، كان يعاني ارتباكا شديدا . لأن النوبة فقدت وجود سلطة سياسية تحفظ الامن فيها ، وكذا سلطنة سنار العاجزة عن ربط مختلف القبائل التي جمعتها يوما في حكومة منظمة . اذن الارتباك يغري بالتدخل فيما وراء حدود مصر لسببين :

أولهما : ان الارتباك ما وراء الحدود يؤدي الى اضطراب في بلد الانسان وقد يهدد الامن والاستقرار .

ثانيهما : إن عدم الاستقرار يغري الانسان بالطمع في ما يملكه الغير .

يتأكد هذا حين نذكر أن المماليك الهاربين بعد مذبحة القلعة انتهزوا فرصة الارتباك في دنقلة لمحاولة انشاء ملك مملوكي جديد بشراء مماليك سود وتسليحهم، والمماليك بحكم تفوقهم الحربي على القبائل السودانية أصبحوا قوة يحسب لها حساب في دنقلة وتحركت أحلامهم بالعودة الى مصر • وهذا يؤكد ضرورة تدخل محمد علي للقضاء على المماليك نهائيا ولاعادة الاستقرار والامن الى بلاد سنار والنوبة •

ومن أسباب فتح السودان أيضا أنه وسيلة لتنمية تجارة محمد علي وخاصة لانصراف تفكيره الى انشاء جيشه من عبيد السودان الذين كانوا يعجبونه في الحرب والطاعة ، وذلك بعد أن ضاق بجنوده الالبان الذين عادوا الى شغبهم القديم بعد عودتهم من حرب الوهابيين ، فرأى أن يبعث بهم الى فتح مجاهل السودان وأطمعهم بثرواته •

ولنسرع الى القول بأن محمدا عليا لم يكن يفضل السوداني على المصري في الحرب لأنه قد لمس اخلاص المصريين وثباتهم في الحرب واحتمال وطأتها • كذلك لم يكن يفضل أن ينشغل المصريون في الزراعة فحسب ، لأنه سيجند منهم الكثيرين فيما بعد ، وربما كان تعليل رغبته في تجنيد السودانيين أنه سلك مسلك الحكام المسلمين جميعا من قبله ، في الاعتماد على الاجانب والحذر من تجنيد أهل البلاد خشية انقلابهم عليه • والممالك الاسلامية لم تكن تفكر دائما بانشاء جيش وطني من أهل البلاد لئلا تحرم البلاد من الزراعة والصناعة • وكانت ترى أن الجندية هي حرفة أقوام معينين مختصين بوظائفها • اذ أن الفكرة الاقطاعية لم تثبت جدواها في جيش الاقطاعيين واخلاصه للملك ، اللهم الا" في حالة الثورات التي يتناول فيها المواطن السلاح • وعلى ذلك فقد بدأت دولة محمد علي بالحصول على السودانيين ليتكون منهم جيش منقطع للحرب ذي مرتبات حكومية • ومن جهة أخرى فان الرجل لم يكن يفارقه شعوره بأنه غريب عن البلاد وانه (امتلكها بالسيف) فكان يشعر بأنه محتاج لقوة حوله تطمئنه ازاء تغير نفوس المصريين عليه ، وخاصة بعد الارهاق المالي الذي أخذهم به في أعقاب حرب الوهابيين كما سنرى بعد قليل •

ولكن الاثر المهم لفتح السودان هو أن هذه الاقاليم السودانية قد انضمت للعالم العربي سياسيا بعد أن كان ارتباطها دينيا وثقافيا ، كما أن وحدة الاقطار جنوبي مصر قد تكونت الآن من جهة أخرى بموجب الفتح المصري وصار لها ادارة واحدة وعاصمة واحدة ، اذ لا نسمع عن اتحاد جنوب وادي النيل بشماله الا" في عهد سحيق يتصل بالفراعنة . وعلى ذلك فقد وضع محمد علي الاطار لوحدة الوادي من الشمال الى الجنوب . وغضب الانكليز لهذا ، كما غضب بعض السودانيين الذين أشاروا الى اختلاف الشمال والجنوب . وفاتهم أن اعتراضهم على الاتحاد مع مصر يجب أن ينهض حجة لارتباط زنوج جنوب السودان وشماله من عرب . فالامة تتكون من أقوام ثم تتماسك بأحداث التاريخ وتحدّي الغزوات الاجنبية . وما حدث منذ أمد قريب من جمع أقاليم السودان بعضها مع بعض ، ثم محاولة ربطها بمصر ، انما حدث على أساس ذلك الفتح سنة ١٨٢٠ .

وبفتح السودان بدأت الحضارة الحديثة تطرق بابه وتتوغل في أقاليمه،وبدىء باستكشاف مجاهله ومنابع نيله ، وتم تنظيم البلاد وتحديدها وتقسيمها الى سبع مديريات بعد أن كانت فضاء غير محدود ولا معروف ، وغدت ذات كيان سياسي ونظام اداري وحكم ، نقلها من الفوضى التي تردّت فيها بعد اضمحلال سلاطين الفونج والغور ، وعاصمة هي الخرطوم التي كانت قرية مغمورة ثم أصبحت عامرة بالمباني وبمزارع التين والعنب . وأمسى واجب الحكم المصري في القاهرة تمكين الصلة بين مصر والسودان ، انطباقا مع ما يحتمه الجوار الجغرافي واتفاق المصالح والاشتراك في نهر النيل . ومن جهة ثانية فقد تنبهت المطامع الاوروبية للسودان ، وأوجس الانكليز خيفة من امتداد سلطان مصر على شواطىء البحر الاحمر كلها شرقا وغربا أي على طريق الهند . فمضوا يعملون على مناوءة سلطان محمد علي منذ ذلك الحين بهمة لا تفتر ، ومضوا يحولون فيما بعد دون زحف المؤثرات العربية والاسلامية الى الجنوب حيث تقطن القبائل الزنجية ، في مسعى عنيد للفصل بين شمال السودان وجنوبه .

٣ ــ القسم الثالث من فتوح محمد علي هو القسم المهم المتصل بديار الشام

وهو الذي لفت الانظار أكثر من غيره • وهـو مهم في حد ذاته من حيث موقعه لا في السلطنة العثمانية وحدها وانما أيضا في المواصلات البرية والبحرية العالمية التي تخترق الشرق العربي • وهو مهم أيضا لأن تدخل محمد علي فيه وجلاءه عنه ، ارتبط بأزمات دبلوماسية أوروبية فتحول البت في شروط الارتباط بين مصر وسورية من مسألة عثمانية الى مسألة علاقات أوروبية هددت في وقت ما بالتحول من أزمة وتوتر الى حرب مكشوفة ، بل واستعملت القوة في حل تلك الازمة على الوجه الذي سنشرحه بعد قليل •

والتدخل في سورية من جهة محمد علي يرتبط بالعلاقة بينه وبين الدولة العثمانية • كيف نفهم هذه العلاقة ؟•

من المعلوم أن الدولة قبل عصر التنظيمات كانت تسلّم قهرا عنها بقيام أسرات حاكمة تتوارث الحكم في بعض مناطق السلطنة ، وتكتفي منها الدولة بالتبعية والاعتراف بالسيادة ، والامثلة على ذلك عديدة ، ويهمنا أن الدولة كانت تغضي عن ذلك أحيانا ، ولكن ليس عن رضى وارتياح بل مجاراة للظروف ، وان شئت عن ضعف حربي ، ولكن الدولة لا تكتفي بالتسليم السلبي والاغضاء ، بل كانت تعمل الى حد ما على تقويض ما أغضت عنه من الامارات الممتازة ، فتنتهز أول فرصة في شقاق بيت الامارة لاقامة لطالب آخر ، وسنرى كيف أن الدولة منذ أيام السلطان محمود الثاني بدأت تعدل عن خطة التسليم السلبي السابق ، وأخذت تعمل جديا للقضاء على هذا النوع من الامتيازات للولايات، في محاولة لربطها بالعاصمةمباشرة• وعهد السلطان محمود هو عهد التنظيمات ، لا يتسع الوقت فيه للمحافظة والتقليد ، بل لإلغاء الامتيازات وحقوق الامارات والطوائف وتحويل الجميع الى رعايا يخضعون للسلطان ، وازالة الفوارق لجعل الانسجام تاما في السلطنة • فالسلطان لم يكن يريد لمحمد علي أن يتمتع بما امتلكه (فعلا لا قانونا) من سلطانه على مصر، ولو أتيحت له الفرصة لقضى عليه وأحل محله باشا عثمانيا بالمعنى المألوف ، ومحمد علي يعلم ذلك تماما • حقيقة قد يقال للسلطان ولمَ تفعل ذلك وأنت تنتفع بمصر على وجه أفضل من سالف الايام ، اذ قبيل محمد علي لم يكن أصحاب مصر يرسلون

للدولة شيئا الا" بالقوة المسلحة ، فما نفع الدولـة اذن من القضاء غليـه ؟ ثم أن محمدا عليا أخضع الوهابية وأعاد الخطبة للسلطان ونشر هيبته في العالم الاسلامي ، أليس في هذا نفع ، بالاضافة الى توسيع حدود الدولـة بفتوحه هو ؟ ثم اخمـاده للثورة اليونانية أولا ، لولا تدخـل أوروبة مما لا حيلة لمحمد علي فيه ، اذ تحطمت أساطيله مع أساطيل السلطان في ميـاه نافارينو ، أليس كل ذلك ملائما للدولـة ؟ هذا الكلام يقال لغير السلطان محمود الذي صمم على أن يكون السيـد المطلق في الدولة . اذن لماذا تحرك محمد علي .؟

يبدو أنه سعى عمليا لتحقيق استقلال مصر بضمانات معينة . والضمانات هي الاطمئنان على مركزه وتوريث ما امتلكه الى أعقابه ، واعتراف الدول الاوروبيـة بمركز مصر الخاص ، واتساع رقعة ادارته لتشمل الاقطار النيلية والحجاز وسواحل البحر الاحمر العربية والافريقية وبلاد الشام . وفي رأيه أن مد" حكمه الى هـذه الاقطار وتوحيدها على أساس ما بينها من وشائج الانتماء العربي وصلات الموقـع الجغرافي والتكامـل الاقتصادي ، سوف يضمن له القـوة الاقتصادية والسلامـة العسكرية تجاه السلطان اذا هم" هذا بالاعتداء عليه. والحق أنه لم يثبت أنالسلطان حاول القضاء على حقوق محمد علي قبل أزمة الشام ، أو أن الدولة العثمانية سعت لحدوث هذا الخلاف معه ، أو لاثارة أعدائه عليه ، مهما كانت نياتها في المستقبل . كل هذا صحيح ، ولكن ما نعلمه من سياسة السلطان محمود الثاني يجعلنا لا نبر"ئه اذا سنحت له الفرصة ، فهو لا يتأخر عن استغلالها . فهو يعمل دائما على تقويض نفوذ الولاة من نوع محمد علي ، فقد جعل من طرابلس الغرب ولاية عثمانية عادية بعد أن حطم نفوذ الاسرة القرامنلية التي كانت تتوارث الحكم فيها (١٨٣٥) ونجح في الوقت نفسه تقريبا بانهاء غصب الباشوات المماليك لولاية بغـداد (١٨٣١) ، فأصبحت هذه ولاية عثمانية عادية ..

أما عن ارتباط محمد علي بالدولة العثمانية فقد وجد أن الحفاظ عليه يكسبه ضمانات وفوائد . من هذه فوائد سلبية ، فهو بعدم انفصاله يتجنب اثارة الاهلين

وهم اذ ذاك مرتبطون بسلطان الخلافة المعنوي في اسلامبول • كما أن محاولة الانفصال تؤدي الى اثارة أزمة أوروبية كبيرة ، والى عرقلة تحقق أمانيه بموافقة الدول الاوروبية[1] • وقد تحقق محمد علي أنه بحصوله على ما يصبو اليه داخل الدولة يصبح المتحكم في توجيهها وسياستها ، وحينئذ سيعمل على تجديد قوتها واحياء عظمتها ، على حد قوله[1] • ولكنه لم يكن له محيص عن عداء الدولة والصدام معها ، فقد خرج الى حرب اليونان على أمل الفوز بولايات الشام ، كوعد الدولة له ، ولما رفض السلطان لم يبق مفر من اللجوء الى القوة لتحقيق أمله • ومضى يعمل على اكتساب مكانة سامية بين أصحاب العصبيات في الشام ، فتودد لبشير الثاني الشهابي أمير جبل لبنان ، ولبعض زعماء ووجهاء نابلس وطرابلس • كذلك تشفع لدى الآستانة لاعادة عبد الله باشا الجزار الى ولاية صيدا بعد عزله عنها ، فعفت عنه وأبقته في ولايته • ولكن هذا الوالي الطموح خشي على سلطته من اتساع نفوذ محمد علي ، فلم يراع جانبه ، ولم يكترث لغضبه، وآوى المهاجرين المصريين الفارين من مظالم محمد علي وطمعه • وصادر متاجر المصريين بحجة أنها تخص تجارا من نابلس ، وساعد قوافل التجارة على تهريب المتاجر الى مصر ، ورفض ارسال الاخشاب اللازمة لبناء الاسطول المصري ، وامتنع عن وفاء دينه لمحمد علي يوم كان لاجئا بمصر • وكان محمد علي يرى نفسه جديرا بحكم الشام الذي كان بحالة سيئة ، من حيث فقدان الامن وجشع الباشوات والولاة وتنافر الطوائف • ومحمد علي كان يوده الاستيلاء على الشام منذ زمن نظرا لحاجة أسطوله الى أخشاب لبنان ، وصلاحية أسواق الشام لمتاجره ، فضلا عما تتمتع به الشام من مزايا اقتصادية أهمها وجود الفحم والنحاس والحديد بها ، وغناها بالحرير ومنسوجاته وبزيت الزيتون ومنتجاته مما تحتاجه مصر •

أما بلاد الشام ــ الجنوبية ــ فلسطين ــ فلا مناص من امتلاكها لضرب أعدائه الذين يهددونه ويكيدون له • ولا شك أنه فكر جديا في الناحية الاقتصادية ولعله رأى أن القطرين يتممان بعضهما اقتصاديا •

---

(١) غربال المصدر نفسه ص ٩٣

وبدء النزاع المباشر لم يكن مع الدولة العثمانية بل كان مع باشا عكا عبد الله باشــا من أجل التجاء فلاحــين فارين مــن الجندية اليــه ، ولما طالبه محمد علي باعادتهم أجابه أنهم رعايا السلطان يبقون حيث يشاؤون • وتدخلت الدولة العثمانية آنئــذ لرد محمد علي الى مصر ، لا دفاعــا عن الباشــا الجزار ، وذلك حــين غزا محمد علي عكا ، فأعلــن السلطان تأييده لواليها ، وتقــدمت جيونسه لمساعدتــه وأصبح محمد علي خارجا على السلطنة ، وتحولت الحرب الى صراع بين محمد علي والسلطان • ولا داعي للدخول في تفصيلات الحرب ، فالمهم انتصار محمد علي ، وتغلبه على الحواضر الشامية الرئيسية ، واحتــلاله عكا بعد حصار طويل (آذار ١٨٣٢) ، واستسلام الجزار وأسره الى مصر ، ثم مغادرتها الى الآستانة مع كامــل كنوزه • وتقدمت الجيوش المصرية في أرض الشام بسرعة فائقة فاستولت على بيت المقدس وطرابلس وبيروت ، ودخل ابراهيم دمشق بلا مقاومة وهزم العثمانيين هزيمة منكرة عند حمص• ثم اندفع الى حلب وقابل حسين باشا قائد الجيوش العثمانية ووالي مصر بدلا من محمد علي ، عند مضيق بيلان فكسره شر كسرة • ثم دخل انطاكية في أول آب ١٨٣٢ ، وأطل على جبال طوروس • وهنا عرض محمد علي الصــلح على السلطان ، ولما رفض هذا ، تابع الباشا الثائر تقدمه في آسية الصغرى واحتل اقليم أضنة ، وسحق الجيش العثماني عند قونيــة في تشرين الثاني وأسر قائده ، وفتــح طريق الآستانة أمامه بعد أن دمر الجيش العثماني في كوتاهية وهدد بروسة عــلى مشارف الآستانــة •

وهنا حاولت الدول الاوروبية وضع حد للنزاع القائم ، ولكن التدخل كان في الواقع تدخلا أوروبيا وتدخلا روسيا ؛ فالتدخل الاوروبي من طرف انكلترةوفرنسة وهو تدخل دبلوماسي فاتر الى حــد ما ، وذلك لأن الغرب كان مشغولا بمشكلات في أوروبة الغربية صرف جهده لحلها[1] ، وقــد اكتفى بالضغط على الطرفين لتسوية

---

(١) لنذكر أنه في عام ١٨٣٠ اجتاحت أوروبة ثورات أهمها بالنسبة لفرضنا ثورة ١٨٣٠ في فرنسة التي اسقطت البوربون واقامت فرع اورلئان ، وتولى لويس فيليب عرشا لم يستتب امره تماما . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فالمقاطعات البلجيكية

ما بينهما بشكل ما . أما روسية فقد تدخلت لأنها لم تكتف بأن تعرض على السلطان تأييدها التام بل أرسلت بأذن السلطان قوات بحرية من البحر الاسود تقدر بمئتي الف جندي رابطت بجوار الآستانة . فكان هذا حافزا لزيادة الضغط الاوروبي على الطرفين ، فقبل محمد علي أن يسوي ما بينه وبين السلطان في اتفاق كوتاهية (أيار ١٨٣٣) وبموجبه أضيفت ولايات الشام لادارة محمد علي شخصيا طوال حياته ، كما أعطيت درجة محصل ولاية أضنة لابنه ابراهيم ، على أن تؤدي هذه الولايات ما يستحق عليها للخزانة السلطانية . (المحصل بنفس رتبة الوالي ويختص بالامور المالية) .

وبدأت الادارة المصرية في الشام [1] بموجب هذا الاتفاق . على أنه ينبغي أن نتدبر جيدا ظروف هذا الاتحاد بين سورية ومصر ، يجب أن نتدبرها جيدا لأنها لا تمثل في الحقيقة ما كان يمكن أن تكون عليه الحال في ظروف عادية ، لأن اتفاق كوتاهية لم يحل شيئا من جوهر الخلاف بين محمد علي والسلطان ، بل بدأ به ما نسميه بالحرب الباردة غير السافرة . فكلاهما مصمم على أن ينقض ما التزم به في أول فرصة . وعلى ذلك بقي عبء التسليح قائما يثقل كاهل الطرفين : الجيوش قائمة ويزداد تسليحها وخاصة من جانب السلطنة فقد استدعت ضباطا بروسيين لتنظيم جيوشها استعدادا للمعركة القادمة : وعهد بالاصلاح الى الضابط مولتكه . وكان عبء التسليح أشد على محمد علي منه على السلطنة لأن تكاليفه المالية زادت بعد أن اضطرت الادارة المالية المصرية لأن تكون متسرعة ، وهذا يفسر ما قلناه من أن الظروف جعلت الاتحاد بين مصر وسورية يظهر بمظهر كان يصح جدا ألا يظهر به في ظروف عادية ، وهذا ما جعل الادارة تتسرع بجمع السلاح من الاهالي حتى تأمن الاعداء في الداخل ، وهذا ما جعلها تجمع جنودا للتجنيد مما لم يألفه

ثارت على اتحادها مع هولندة فبدأت مشكلة بلجيكا الكبيرة ، ودول أوروبة أحبت التدخل لتأييد ملك هولندة ، طالما ان مؤتمر فيينة نص على هذا الاتحاد بين البلدين . فضلا عن ان الثورة اعتبرت خروجا على سلطة ملك شرعي ، فكان هنالك خطر انقسام أوروبي من جرائها ، وكان يهم فرنسة وانكلترة أن لا تتدخل أوروبة الشرقية ، وانكلترة تحرص على عدم ضم بلجيكة الى فرنسة .

(١) انظر حولها محمد كرد علي : « الحكومة المصرية في الشام » القاهرة ١٣٤٣ هـ .

الاهلون حتى ذلك الحين ، ولنذكر أن سكان مصر يومـذاك كانوا لا يتجاوزون الثلاثة ملايين ، وكان لها جيوش موزعة في أمكنة متعددة من البلاد •

أما الدول الاوروبية فان بعضها لم يرض عن الموقف السياسي الجديد الـذي نجم عن اتفاقية كوتاهية : روسية خشيت أن تصلح الدولة العثمانية من شأنها وتقف في وجه المطامع الروسية • وانكلترة خشيت من عواقب ما حدث بعد اتفاقية كوتاهية وقبل عـودة الروس الى بلادهم ، وذلك حين وقعت روسية معاهدة دفاعية مهمـة (خنكار اسكلهسي ٦ تموز ١٨٣٣) مع الدولة العثمانية • والحق ان روسية سارعت لعرض مساعدتها على السلطان وايقاف الزحف المصري ، وفي الوقت نفسه أوعزت الى محمد علي بوجوب التوقف • وطلب السلطان معونة انكلترة العسكرية قبـل أن يوافق على العرض الروسي ، ولكن انكلترة كانت مشغولـة بمشكلة بلجيكة واستقلالها عن هولندة ، وكانت ترقب الموقف الاوروبي بحذر، فلم تسعف السلطان، وكذلك فعلت النمسة وفرنسـة • وهنا رحب السلطان محمود بالعون العسكري الروسي ، ودفع ثمن ذلك توقيعه لمعاهـدة التحالف الدفاعي في خنكار اسكلهسي ، التي نظرت انكلترة وفرنسة اليها بمنظار قاتم ، خشية أن يؤدي تنفيذها الحرفي الى أن تصبح الدولة العثمانية ذيلا لروسية •

وسارع محمد علي لارسال مذكرة الى الدول في مطلع ايلول ١٨٣٤ ندد فيها بالخطر الروسي وتهديده للسلطان وطلب مـن الدول أن تعترف باستقلاله مقابـل اشتراكه في مقاومة نفوذ روسية في المنطقة ، ولكن انكلترة رفضت بشدة ، اذ وقع طريق الهند البري بيد محمد علي في الوقت الذي كان وجود محمد علي في الشام يعوق مساعي انكلترة في الاستيلاء على العراق والجزيرة ، ويهدد الملاحة النهريـة التي أخـذ الخبراء الانكليز يقومون في العراق باختباراتها في مياه الفرات (بعثـة تشسني) ، كما أمسى شرقي البحر المتوسط تحت رحمة روسية •

ونظرت بريطانية بمرارة الى خطط روسية في المضائق والى دعم فرنسة لمحمد علي • وردا على سياسة التحدي الثنائي لمواصلاتها الامبراطورية فقد اتخذت بصدد

الشؤون الشرقية سياسة ظلت سارية لأكثر من ٤٠ عاما ، وتقوم على تدويل المسألة الشرقية بجعل الدول الاوروبية مسؤولة عن الحفاظ على سلامة السلطنة وضمان استقلالها السياسي • ولم يكن بمقدور بريطانية أن تصبر على هذ االحال الذي أعقب خنكار أسكلهسي والذي من شأنه أن يمكن الروس من الهند • والمعاهدة في حقيقتها معاهدة حماية أعطت الروس مركزا استثنائيا رغم ارادة السلطان الذي أمسى يتمسك بشعبان • وفي نظر انكلترة كان المسؤول الوحيد عن المعاهدة هو محمد علي وأطماعه ، فاذا أمكن ارجاعه الى جحره ، وتقليم أظافره ، فلا يعود لأذاه معنى ، وتصبح تركية في مأمن من الاعتماد على روسية • ومحمد علي علاقاته حسنة مع الفرنسيين ، وهذه العلاقات لا تروق لانكلترة وخاصة بعد أن نزلت فرنسة في الجزائر ، وامتلك الروس البحر الاسود وتوغلوا في آسية الوسطى وهددوا البحر المتوسط الشرقي • أما فرنسة فكانت موافقة على العموم على نقض ما حدث في خنكار اسكلهسي ولكنها قد لا تذهب الى حدود ما ذهبت اليه انكلترة بالنسبة لحصر قوة محمد علي ؛ فالى جانب رغبتها في اضعاف النفوذ الروسي ، لم تكن مستعدة للضغط على محمد علي كما ترى انكلترة ، ولكنها لا تستطيع الاستغناء عن انكلترة في تلك الظروف وخاصة بالنسبة لشؤون غربي أوروبة ، فهي تهدد وتعارض ، ولكن في النهاية تسلّم وتترك محمداً علياً لوحده• وفي الوقت نفسه تعمل فرنسة على تشجيع محمد علي لا لأنها ترى في ذلك انتصارا للحضارة ونشرا للعمران والثقافة ، بقدر ما كانت ترى في ذلك سبيلا للنكاية بالانكليز •

أما النمسة فهي الى جانب حرصها على بقاء الحالة الراهنة ، أصدرت على لسان مترنيخ تصريحا بأن بلاده لا توافق أبدا على وصول محمد علي الى القسطنطينية ، ولكن اذا لم يكن بد من مساعدة السلطان ، فالنمسة لا تسمح لروسية أبدا أن تنفرد بحماية حقوق السلطان العثماني ، وبذلك نجحت انكلترة في ضرب روسية بالنمسة•

هذا هو مجمل الموقف الدولي بصدد المسألة السورية ، ولا شك أن العامل الاقتصادي التجاري كان له أهمية في تحديد الموقف ، فانكلترة كان لها في أراضي السلطنة تجارة رائجة رابحة لا ينافسها منافس يذكر • وزاد في أهميتها افتقار بلدان

السلطنة الى وسائل التنمية ومشاريع الصناعة والانتاج ، وخشيت انكلترة أن يؤدي انعطاف الفرنسيين نحو محمد علي، الى توجيه ضربةفرنسية قاصمةللتجارةالانكليزية في المشرق العربي ، لا سيما بعد أن شرع محمد علي يستغني عن البضائع الانكليزية وينافسها بمنتجات مصانعه لا في مصر والمشرق العربي فحسب ، بل في الهند حيث عيّن وكلاء تجاريين له في بومباي لتصدير البضائع الى الهنـد كما ذكرنا ، وذلك حين أقام المصانع والمعامل ، واستغنى عن البضائع المستوردة ، وزاد الرسوم على الصادر والوارد في البلاد التابعة له ، من ذلك مثلا أن مصدّر القطن ارتفع رسم التصدير على قطنه من ٣ الى ١٢ بالمائة ، والى مثل هذه النسبة ارتفع رسم الوارد عن السلع الانكليزية •

وعلى هذا بدأ عملاء انكلترة ووكلاؤها يعملون جهدهم في كل مكان من ديار الشام على مناوءة الادارة المصرية في محاولة لا لتقويض أركانها فحسب، بل لتقويض سلطان محمد علي الاقتصادي القائم على الاحتكارات الحكومية • فمنذ الحروب النابوليونية كانت انكلترة تحتل المكانة الاولى في التجارة الخارجية للدولة العثمانية التي أصبحت أحسن زباين انكلترة (الثالثة في المرتبة عام ١٨٥٠) وظلت كذلك لقرن من الزمان • ونجح بالمرستون في قبض ثمن تحديه لمحمد علي حين جدد السلطان امتيازات الانكليز في ممتلكاته ومنها مصر نفسها ، وذلك في اتفاق (بلطة ليمان) التجاري الذي أبرم بين الدولة العثمانية وبريطانية في آب ١٨٣٨ • ولا حاجة الى القول بأن السلطان كان مدفوعا بموافقته على شروط المعاهدة برغبته الشديدة في اخضاع محمد علي الثائر بمعونة بريطانية • وقد وقع السلطان مثل هذه المعاهدة مع كل من فرنسة وهولندة فيما بعد ، وأدى الى تدمير احتكارات محمد علي فور تسوية (١٨٤١)[1] • ونصت المعاهدة على أن الاحتكارات ممنوعة ، وان التجار الاجانب لا يدفعون الا الرسوم الجمركية المبينة في المعاهدة ، كما نصت على جواز

---

(١) انظر : H. Temperley : England & the Near East.
Sir C. Webster : The Foreign policy of Palmerston 1830-41 Vol. 2.
F. E. Baily : British policy & the Turkish Reform Movement.

تعامل التجار مع الاهلين مباشرة ، اي اتباع سياسة حرية التجارة في أراضي الدولة العثمانيه[1] • وعمد القناصل الانكليز الى حماية بعض رعايا السلطان من هذه الرسوم الجمركية بغية تقليص واردات مصر المالية لتعجز عن تمويل جيوشها وادارتها • فالمعاهدة كانت بمثابة حرب اقتصادية ، تضاف الى الحرب الباردة التي شرع يشنها الدعاة الانكليز وعملاؤهم في تحريض الطوائف المختلفة الناقمة ، على الثورة ضد الادارة المصرية • وفي الوقت نفسه محاولة اقناع روسية بالتخلي عن مركزها في الدولة بموجب خنكار اسكلهسي لتماشي الدول المشتركة معها على قدم المساواة •

في تلك الاثناء كان الاستياء عاما بين طوائف الشام لاسباب متباينة :

منها أن الولايات الشامية التي جمعت في ادارة واحدة وسد أمرها الى ابراهيم، هذه الولايات قد لا يكون حكمها شاقا في الاحوال العادية ، ولكن في ظروف التحريض والدس يصبح حكمها من أشق المسائل وأصعبها ، فأية خطة تتبعها ان أرضت بعض الطوائف أغضبت الاخرى • سياسة التسامح الديني مثلا ترضي دون شك الاقليات غير الاسلامية وترضي البعثات الدينية التبشيرية ـ التي أعيدت لها فرص التعليم في لبنان آنذاك ـ ونال الحجاج المسيحيون واليهود معاملة سمحة في بيت المقدس • لا شك أن حكومة محمد علي تمتدح على كل ذلك ••• ولكن في ظروف الحرب الباردة يساء تأويله ، ويصوّر للعامة على أن الحكم الجديد المصري حكم معاد للاسلام ، وعلى الاقل يهدد ما كان للكثرة الاسلامية من مقام أسمى وأعلى ويفسر على أنه مقدمة لحكومة لا دينية ، أو على الاقل لحكومة مذلة للاسلام والمسلمين • وكذلك جمع السلاح من الاهلين ، يصوّر أيضا بأنه تعرض بعض الطوائف للخطر بعد تجريدها من السلاح الذي اعتادت أن تعتمد عليه لحماية

---

(١) منع أمير الساحل سليمان باشا الفرنساوي شحن كمية من الحرير ، واحتج القنصل الانكليزي بفرمان حرية التجارة ، وأجاب سليمان انه لم يتلق أمرا من محمد علي بتنفيذ الفرمان وحينئذ توجه القنصل الى الساحل وعمل بنفسه على شحن الحرير من الميناء .

نفسها .. والتجنيد يصوّر على أنه انتقاص لحقوق الرعايا الذين لم يعتادوا على حمل السلاح مكرهين .

حقا ان حكومة محمد علي قامت باصلاحات في البلاد العربية وسعت الى ارضاء الاهالي بتخفيف الضرائب عنهم ، غير أن ذلك لم يدم طويلا ، فلم يلبث الأهلون أن رزحوا تحت وطأة أعباء فادحة نفّرتهم من الحكم المصري ، ومن هذه الاعباء احتكار الحرير ، وأخذ ضريبة الرؤوس من الرجال كافة على اختلاف مذاهبهم ، وترتب على هذا قيام الثورات المتعددة ضد الحكم المصري . وكان للدسائس التركية والانكليزية أثر كبير في تحريك تلك الثورات ومدّها بالسلاح في فلسطين وجبال العلويين وطرابلس وعكار وجبيل ثم حوران . والثورات الدرزية (١٨٣٧) خاصة أرهقت دون شك الادارة المصرية وأرغمتها على القيام بأعمال مؤسفة كاقتلاع الاشجار المثمرة ، وتسميم الآبار لارغام الثوار على الاعتصام بجهات نائية .. ولما شعرت الدولة العثمانية ان اضطراب الاحوال قد ضايق المصريين، وأرهق قواهم ، حشدت قواتها واستأنف السلطان الحرب من جديد ضد محمد علي لاسترداد أملاكه ، وبتحريض من السفير الانكليزي ستراتفورد دي رد كليف وغيره من الوكلاء الانكليز اقتنع السلطان أن انكلترة وأسطولها معه ، وأنه مقدم على حرب مضمونة النتائج، لأنه حتى في حال الهزيمة ، فانه سيكون في حماية الانكليز والروس . ووقعت معركة « نزب » الفاصلة (حزيران ١٨٣٩) . وحلت الهزائم الفادحة للمرة الثانية بجيوشه ، وتوفي السلطان محمود قبل أن تصله أنباء النكبة .

وصعد عبد المجيد عرش السلطنة واستلم خسرو باشا الصدارة العظمى، وكان على عداء مع فوزي باشا قائد الاسطول العثماني الذي بادر لتسليم أسطوله الى محمد علي، ولكن الانتصارات المصرية لم تنفع في شيء برغم أن الدولة أمست مهددة والسلطان شاب يافع . ذلك أن انكلترة نجحت في تدويل المسألة السورية وأقنعت روسية بأن لا تنفصل لوحدها عن الدول وتستفيد من هذا الظرف ، ورضيت روسية لأنها تأكدت ان معاهدة خنكار اسكلهسي لا فائدة ترجى منها أمام حذر انكلترة وانتباهها . وحينئذ لم تعبأ انكلترة بمعارضة فرنسة . وأرسلت انكلترة وروسية

وفرنسة وبروسية مذكرة مشتركة في حزيران ١٨٣٩ الى الباب العالي تطلب فيها : « ألا " يتم صلح أو يبرم اتفاق مع محمد علي ما لم توافق عليه الدول » • ثم شرعت انكلترة في اتخاذ ما يلزم لافساد خطط محمد علي • ولما رأت من فرنسة ميلا لتأييد بعض أهداف محمد علي في الاستمرار بحكم الشام[1] ، عملت على عزلها وسعت الى عقد اتفاق مع روسية وبروسية والنمسة[2] في جانب وتركية في جانب آخر ، وتم ذلك في لندن (١٥ تموز ١٨٤٠)•واستقر الرأي في هذا الاتفاق على أن يعرض السلطان على محمد علي حكومة مصر وراثية وولاية عكا طول حياته ، وأن يكون لولاة مصر حقوق في ادارة البلاد تحت سيادة الدولة العثمانية ، وان محمدا عليا اذا لم يقبل هذه الشروط في عشرة أيام تنقص من حقوقه حكومة عكا ، فاذا تأخر عشرة أيام أخرى ولم يقبل فان للسلطان الحق في اتخاذ ما تشير به عليه مصالحه الخاصة ونصائح الحلفاء ، كما نص الاتفاق على تعهد هذه الدول بمساعدة السلطان فعلا في اخضاع محمد علي • ورفض محمد علي الشروط ، بتحريض من فرنسة التي وعدته بالمساعدة الفعالة ، وأعلنت للدول أنها لا توافق على استعمال القوة في قهر محمد علي • وبدأت معركة دبلوماسية في لندن وباريس • ولبث محمد علي ينتظر نتيجة هذه المعركة ، ولكن الدول لم تنتظر ونزل الاميرال البريطاني (نابيير) بقوة حليفة عند بيروت ، وحرك عملاؤه شمال الشام وأمدوا ثوار جونية بالسلاح والمال ، وتشبث محمد علي برفض مذكرة الدول ولكنه خشي أن يقطع الاسطول الانكليزي خط الرجعة على جيشه ، فأمر ابنه ابراهيم بالتراجع الى مصر • وفي الوقت الذي كان ابراهيم يطارد الثوار ويشتت شملهم ، قطع الاسطول الانكليزي الصلات البحرية بين مصر وسورية ، واحتل (نابيير) بيروت وصيدا

---

(١) رات انكلترة أن جعل صحراء سيناء حدا فاصلا بين محمد علي والسلطان هو اسلم حل للأزمة ، ولكن فرنسة الحت على منح سورية لمحمد علي ، وباسم محمد علي رفضت اقتراحا قدمته النمسة بتقسيم سورية بينه وبين السلطان بحيث يصل الى حدود باشوية دمشق وطرابلس بعد ضم عكا اليه .

(٢) اقنعت انكلترة النمسة بأن اتساع نفوذ روسية في تركية خطر على كيانها ، فلا بد من القضاء على سبب ذلك النفوذ وهو محمد علي ، وأفهمت بروسية بأن القضاء عليه اضعاف لفرنسة واحباط لمساعيها .

وسقطت عكا بيده (تشرين الثاني ١٨٤٠) ثم يافا • وسلم الامير بشير حليف محمد علي نفسه الى الحلفاء في صيدا • وبعد أن تأكد لمحمد علي أن فرنسة التي كان يعتمد على مؤازرتها لم تستطع مساعدته في الوقت الحاسم ، اذ سقطت وزارة (تيير) وخلفتها وزارة (غيزو) المعتدلة ، واستبدلت التواضع بالغلو • وتحت وطأة استياء الاهلين والغزو الحليف ، انهارت المقاومة المصرية في الشام ••• وارتدت نحو مصر برا ، وحوصرت السواحل المصرية• وهنا ابتدأ شيء من الاعتدال يسود الموقف، وبادرت فرنسة للاشتراك مع الدول في تقرير مصير محمد علي • فتقرر ألا يعزل عن مصر وأن يعطى حكمها اليه وراثيا في أسرته ، مقابل اعادة الاسطول العثماني والتنازل عن كل تفكير بسورية •• و (نابيير) هو صاحب هذا الضمان الذي وافق عليه بالمرستون برغم معارضة تركية • وقد تم أخيرا وضع فرمان تولية محمد علي وفيه تحديد للعلاقات بينه وبين السلطان • وهكذا أعطي حكم مصر الوراثي الى محمد علي بقيود تضمنها فرمانات سلطانية (حزيران ١٨٤١) ، وأهمها أن الحكم وان كان وراثيا ففي كل مرة يكون تقليده بفرمان جديد• ولا يجب أن تزيد القوات البرية عن (١٨) الف جندي ، وعدم جواز امتلاك مصر للبوارج المسلحة ، وأن تؤدي مصر الجزية (الويركو) الى الباب العالي ، وأن تسري فيها القوانين العثمانية ، ولا يباح لها عقد معاهدات تجارية ••• بل ولا يكون لمصر أن تحكم بالاعدام الا بموافقة السلطنة • وكذا الرتب العسكرية والمدنية يمنحها السلطان • وعلى هذا النحو قلمت أظافر مصر •

وتسوية (١٨٤١) مهمة جدا بالنسبة لمصر ، لأنها جعلتها في المدة التالية في مركز لا تحسد عليه من حيث محاولة اكتساب صديق من هنا وهناك ، ومن حيث تعرضها لتدخل عثماني ، وخاصة في عهد عباس الاول[1] •

وما يهمنا هو تلك الناحية العربية في المشروع الذي شرحنا بعض وجوهه ،

---

(١) دبت الشيخوخة في أوصال محمد علي وكان يمشي نحو الثمانين ، ولما كان ابنه ابراهيم يشكو مرضا عضالا توفي على اثره (١٨٤٨) ، فقد عهد محمد علي بادارة مصر الى عباس بن طوسون ، ولم يلبث محمد علي أن توفي في آب ١٨٤٩ .

لأن مصر انسحبت من كل مكان بعد ١٨٤٠ ، من كريت وسورية وبلاد الجزيرة العربية فيما عدا السودان .

انهار مشروع الدولة العربية هذا ، فما هو التغيير الذي أحدثته الادارة المصرية الموحدة في أقطار هذه الدولة ، وخاصة من ناحية تحقيق فكرتين :

١ ــ تحقيق الوحدة الاقتصادية .

٢ ــ تحقيق الفكرة القومية العربية .

اذا بحثنا تفاصيل التاريخ الاداري في حقبة ٢٠ سنة بالنسبة للسودان والجزيرة العربية وأقل من ١٠ سنين بالنسبة لسورية ، فاننا لا نستطيع القول إنه حدثت أفعال موجهة متعمدة ، لبناء وحدة اقتصادية بالمعنى المفهوم القائم على سياسة موحدة ذات أغراض محددة . ويجب الاعتراف بأن مثل سياسة التوحيد الاقتصادي ربما كانت من ناحية سابقة لأوانها ، وربما كانت من ناحية أخرى غير محققة الا بين مصر وسورية . فأقاليم الدولة كانت متفاوتة اقتصاديا كل التفاوت ، واقتصادياتها كانت بدائية ، وخاصة في الجزيرة والسودان حيث تقوم على الرعي وعلى الزراعة والتجارة المحدودة في نوعها ، والملائمة لحاجات الناس عهدئذ . ولكن الحالة تختلف بالنسبة لمصر وسورية ، بسبب وجود جهد اقتصادي قديم في الزراعة والصناعة ، بحيث يمكن بناء سياسة توجيه اقتصادي على أساسه .

ولكن السياسة التي جرى تطبيقها بالنسبة لارتباط سورية بحكومة محمدعلي، كانت سياسة قصيرة النظر أفضت الى السخط والاضطراب . قصيرة النظر لأنها نظرت الى الحاجة الملحة والمنفعة القريبة لجمع المال ، ولم تزد على ذلك الغرض أغراضا من شأنها أن تثمر في المستقبل كما هو الحال في مصر ، حيث كان يصاحب غرض جمع المال أعراض أخرى آتت ثمارها على مر الزمن . من ذلك أنها أوجدت في مصر سياسة الاحتكارات الحكومية في بعض أصناف التجارة والصناعةوالزراعة. ولكن صحب سياسة الاحتكارات سياسة تنمية الموارد ، كايجاد تنظيم للري زاد

مساحة السطح المزروع • وبعد أن كانت الزراعة تهدف الى تأمين احتياجات الشعب من الغذاء والكساء ، اذا بها تنتج ما يلبي احتياجات التجارة الخارجية كالقطن • فسياسة الاحتكارات برغم استهدافها الحصول على المال بسرعة ، انما صحبها سياسة تنمية اقتصادية شكّل تاريخ مصر تشكيلا جديدا ، تطورت الصناعة المنزلية بموجبه تطورا نقلها الى المصانع •

أما في سورية فحصل الاحتكار دون أن تصحبه أعمال انمائية انشائية كمصر• قد يقال ان الاحتكارات ما كانت جديدة لا على مصر ولا على سورية ، اذ كثيرا ما عمدت الحكومات الى احتكار أصناف معينة ، ولكن لم يحدث أن أصبح الاحتكار سياسة عامة يجري تطبيقها في الاقطار السورية التي لم تخضع لادارة واحدة قبل ذلك العهد • فلا عجب ان اصطدمت الادارة المصرية بمشاكل ومصالح في الشام لم يسبق لها أن اصطدمت بها في مصر •.

لقد غضب الاهالي من التجنيد الاجباري ، وهو من مقومات القومية الحديثة ، وكان معمولا به في مصر قبل عشرين عاما ، دون أن يثور الناس ضده ، الا على شكل حركات متفرقة في الريف وبمقياس ضيق يختلف عما بلغه في الشام • لأن الشوام لم يعتادوه حتى ذلك الوقت ، نظرا لأن الحكومة كانت تستأجر طوائف الاجناد من أهل الحرب المنقطعين للجندية عند الحاجة ؛ وأما الفلاح وغيره من أصحاب الحرف والاهالي فلا دخل لهم بالجيش •

والحق أن الادارة المصرية في مصر والشام قد سارت على خطط محققة لفكرة القومية ولفكرة المواطن الحديثة من حيث الحقوق والواجبات ، وحاولت أن تدير البلاد الشامية على أساس أنها قطر واحد يسكنه شعب واحد، فمن هذه الناحية كانت السياسة المصرية سياسة موحدة لا مفرقة ، وسياسة تحقيق لفكرة عربية سورية • ولكن للاسف اصطدمت الادارة في الشام على وجه لم تصطدم به في مصر ، لما بين الطوائف والعناصر من فروق وخلافات • ومن هنا اتهمت الادارة المصرية بانحيازها الى الطوائف المسيحية وتقريبها لهم بالامتيازات • والواقع أنها ما انحازت ، وانما أحبت أن تزيل المزايا والفروق ، فأغضبت الطوائف ذات الامتياز السابق •

ولا شك في أن تنفيذ الفكرة قد تم في وقت كان خلاله مشروع الدولة العربية مهددا لا بمقاومة الدولة العثمانية فحسب ، وانما بمقاومة بريطانية خاصة ، وقد جرى كل ذلك في ظروف سيئة جدا من الدس والتحريض • وكانت مأساة الحكم المصري في مصر وسورية أن صاحبه لم يؤمن بالحركة الشعبية التي أوصلته الى الحكم الا بوصفها نقطة وثوب الى مطامعه • ومن هنا فالمغامرات الفردية عرقلت حركة الوطنية المصرية ، فحلت بها النكسة ، وفتح الباب على مصراعيه أمام قوى السيطرة العالمية •

أما بالنسبة للسودان فقد أحدث الفتح المصري تغييرا أساسيا في أحواله ، فقد هدم السلطات المحلية القائمة فيه ، من مشيخات وعصبيات ، وأوجد ارتباطات جغرافية وادارية ما كانت موجودة من قبل ، فنقل السودان من مجموعة شعوب وقبائل لا وحدة بينها إلا اسم السودان ، الى قطر له حدود مميزة وادارة واحدة وعاصمة واحدة ، فوجدت فيه الظروف التي تكفل استمرار ارتباط السودان بمصر والعالم العربي على وجه غير مسبوق •

وبالنسبة للجزيرة العربية لم يستطع الحكم المصري في الواقع أن يحدث تحويلا أو تغييرا في شيء ما ، بل كان كسابقه العثماني شيئا سطحيا لا يمس أوضاع الجزيرة وتطورها التاريخي ، ولذا ظل جوهرها العربي على ما كان عليه سواء في أقاليم الحياة العربية الداخلية أو مناطق الخليج العربي التي تجمع بين البيئة البحرية وبين البيئة العربية في الداخل •

ومعلوم أن مصر تدخلت في شؤون الجزيرة العربية بعد نجاح الحركة الوهابية في مد نفوذها السياسي الى الحجاز وعسير والخليج ومشارف الشام ، ونجحت مصر في تدمير الدولة السعودية التي اعتنقت المبادىء الوهابية ، ولكن هل حلت الادارة المصرية محلها في كل مكان ؟ كلا • فقد انسحب ابراهيم بعد تدمير الدرعية • وقبل انسحاب المصريين قام أحد أمراء البيت السعودي وهو تركي بن عبدالله ونشر سلطانه في نجد والاحساء وساحل الخليج • وحاولت الادارة المصرية في الحجاز سنة ١٨٣٨

أن تبعث نفوذها في نجد باقامة أمير آخر من البيت السعودي هو خالد بـن سعود أخو عبد الله الذي أعدم ، مكان فيصل بن تركي الذي تولى الحكم بعد اغتيال أبيه، ولكن المحاولة لم تستمر لأن مصر انسحبت من الجزيرة كلها سنة ١٨٤٠ .

وانصرف اهتمام الادارة المصرية الى عسير واليمن (شاطىء البحر الاحمر) ، ولكن نجاحها هناك كان محدودا جدا ، واقتصر نفوذها على الحجاز ، وحتى هنـا فانه لم يكن مباشرا ، إذ بعثت قوة الاشراف من جديد بفرع آخر منهم، وعندالحاجة تعزل شريف مكة وتعين آخر مكانـه . وهكذا فالحكم المصري لم يغير شيئـا من الحياة العربية التقليدية هناك ، ولا مهّد السبيل لبناء جديـد ، وبقي ما كان على حاله ، ولم يتسع الوقت لتجربة من نوع جديد .

أما بالنسبة لسورية ، فالارتباط بمصر في هذه المدة القصيرة ، وعلى الرغم من ظروف الحرب البـاردة التي مرت عليه ، لم يخل من تأثير على المستقبل ، ولم يخل من الدلالة على احتمالات التقدم في المستقبل ، فبعث دون شك الفكرة العربيـة ، وخصوصا لما تجرّد هذا الحكم من سمات الطائفية الدينيـة الموروثة ، فانه أثبت امكان تطوير قومية عربية منفصلة عن الطائفيـة المذهبية . وقوّى كذلك عنـاصر الارتباط بين جماهير الشعب في سورية ومصر ، فانفتحت أمام السوريين واللبنانيين أبواب الهجرة الى مصر ، بعد زوال الارتباط نفسه ، وأبواب العمل في كل نواحي الحياة في مصر : التجارة والادارة والتعليم والحركة الادبيـة والصحف والمطابـع والتمثيل وما اليه ... اضافة الى الارتباطات القديمة كالدراسة في الأزهر ، وتعاطي بعض الشوام التجارة في مصر .

الحركة الوهابية والدولة العربية الموحدة في الجزيرة العربية :

والحركة الثانية التي هزت قبضة الدولة العثمانية على ولاياتها العربية في آسية هي الحركة الوهابيـة التي ظهرت دولتهـا واتسعت قبل ظهور دولة محمـد علي واتساعها ، ولكنها استمرت بعدها . فبينما انطوت مصر على نفسها بعد انسحـاب محمد علي من الشام والجزيرة ، واتجهت جنوبا نحو سودان وادي النيل ولا سيما بعد الاحتلال الانكليزي (١٨٨٢) ، دون أن تبدر منها التفاتـة نحو قضايا آسية العربية الا في منتصف القرن الحالي ، اذا بالدولة السعودية تبعث من جديد مرتين ،

في منتصف القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ، وتظل عاملا ناشطا في سياسة شرقي الجزيرة والخليج ، تسعى لمد خططها الى اماراته وشياخاته لجمعها تحت راية التوحيد ، دون أن تغامر بمواجهة مكشوفة مع خطط الاستعمار في منطقة الخليج التي تعمل في اتجاه معارض •

وأهمية دولة الموحدين (الوهابيين) ترجع الى أنها وحدت أقاليم الجزيرة • فنحن لا نعرف أن الجزيرة اتحدت قبل الاسلام على النحو الذي اتحدت به تحت راية البيت السعودي ؛ وحتى بعد الاسلام لم تحتفظ الجزيرة بوحدة سياسية بل انقسمت الى أقسام مختلفة • وترجع أهميتها أيضا الى أنها تمثل نوعا من الدول فريدا في بابه ، اذ نقل الى القرن العشرين قواعد اسلامية قديمة في الحكم •

وترجع كذلك الى أن تأثيراتها تجاوزت حدود الجزيرة العربية • تجاوزتها الى الهند اذ وصلت اليها عن طريق السيد أحمد[1] الذي حج الى مكة سنة ١٨٢٢ وأعجب بالمذهب الوهابي وعاد مبشرا بتعاليمه • وتجاوزتها الى برقة حيث قام الزعيم الديني السيد محمد بن علي السنوسي بنفس الشيء لدى عودته من الحج الى برقة ، وهناك أسس الطريقة السنوسية ، وأقام دولة على أساس ديني سلفي، وكانت دعوته الى الاجتهاد أكبر العوامل الفعالة في تاريخ برقة الحديث • وأخيرا ، فقد أثرت الوهابية على حركة الاصلاح الديني في مصر ، من خلال الشيخ محمد عبده الذي نادى بوجوب العودة الى أصول الدين ، وفتح باب الاجتهاد في عصر تجمد فيه الدين بالتقليد والتقبل الاعمى لكل ما وصل عن السلف • فكان من دواعي احياء الحركة السلفية الاصلاحية التي وقفت في وجه الحكام ، وذكرتهم في جرأة بواجباتهم تجاه الشعب ، وانتقدت ضعاف العقول من علماء الدين الراغبين عن التفكير والانفتاح ، وحثت الخطى نحو الاصلاح الشامل •

ومراحل تاريخ البيت السعودي تستهل بداياتها بمرحلة التأسيس ، وهي مقرونة بقيام الدعوة الوهابية •

---

(١) هو الزعيم الهندي السيد احمد بن عرفان البريلوي (١٧٨٦ — ١٨٣١) ينتهي نسبه الى الحسين بن علي . وقد حج واعتنق الوهابية ونشرها في اقليم البنجاب وإنشا دولة وهابية امتد سلطانها حتى شمال الهند واثار المتاعب لبريطانية فقاومته واتباعه الى ان اخضعتهم •

بدأت الحركة الوهابية في منتصف القرن الثامن عشر على شكل انبعاث ديني يهدف الى نبذ البدع والخرافات التي تفشت بين العرب المسلمين ، والعودة الى جوهر الدين الاسلامي وأساسه ، فهي من هذا القبيل تعتبر ثورة على النظام الديني للدولة العثمانية ، ما دامت هذه الدولة ترعى الحركات والطرق الصوفية وتوليها مكانة حسنة • وعلى الرغم من تأثر الحركة بالعامل القومي الذي نما في محيط الجزيرة العربي ، فانها أظهر الحركات السلفية الاسلامية من حيث قيامها على أساس ديني • ومنشئها كان مصلحا صادقا أثارت تعاليمه بعثا دينيا يمثل معارضة قوية للحكم العثماني الذي لم يستطع — في نظره — أن يحافظ على ممتلكات الدولة الاسلامية بسبب اختلال أموره ودخول البدع والضلالات في عقيدته الدينية ، على نحو أطمع الكفار في هذه الممتلكات ، ولذا توجب الدعوة الى تنقية هذه العقيدة مما علق بها على مر العصور ، وضم الاقاليم العربية الاسلامية تحت راية التوحيد • ومحمد بن عبد الوهاب ، هو عالم من علماء نجد ، تنقل في بعض الحواضر الاسلامية ودرس الفقه حتى تملكته رغبة قوية في الاصلاح ، فدعا الى نبذ زيارة القبور والتبرك بالاشجار والاستغاثة بالاولياء والصالحين ، والتوسل بهم لقضاء الحاجات وتفريج الكروب ، وغير ذلك مما رآه مخالفا لتعاليم الاسلام • وقد اختار اقليم نجد لأنه بعيد عن متناول الدولة العثمانية التي كانت لا تنظر بارتياح الى أي اصلاح أو تغيير ، وتعتبره خطرا يهدد كيانها وأوضاعها الجامدة المحافظة • ولم يطمح الرجل في أن يجد دعما بين صفوف القائمين بأمر (الاسلام الرسمي) في الحواضر الاسلامية ، نظرا لأنهم يرغبون في الحفاظ على مراكزهم وأرزاقهم ، وانما مال بآرائه ومبادئه الى البيئة الطبيعية المواتية لها ، وهي البيئة الصحراوية ذات الموارد الشحيحة والمعيشة المتقشفة • ولما انقسم الناس بازاء دعوته بسبب تشدده وتطرفه في فهم التوحيد الذي دعا اليه الاسلام ، رأى أن يربط نفسه بحاكم مدينة الدرعية الامير محمد بن سعود ، فيكسب حركته السمات السياسية والعسكرية ، ويحول مبادىء دعوته المستمدة من مبادىء ابن تيميّة الى برنامج سياسي ، على اعتبار ان النظريات لا تنتصر بمدى قوتها ، وانما بما يؤيدها من القوى السياسية والعسكرية • وبينما كانت الدعوة ترسخ قدمها في

موطنها نجد بفضل حماس الامير لها واندفاعه في نشر مبادئها بالقوة بين القبائل ، وفي التغلب على معارضيها ومناوئيها ، كان علماء الدين في الحواضر العثمانية الذين تحولوا بمرور الزمن الى موظفين رسميين جامدين ، يشوهون مبادئها ويصدون الناس عن قبولها ، ويحرضون السلطان ورجاله على ضربها ، بوصفها حركة انفصالية تبغي الانتقاض على الدولة ، وتتهم جميع الطوائف الاسلامية الحضرية بالكفر والمروق من الدين لاستسلامها الى حياة الدعة والترف •

وقبل بروز قوة الدرعية على مسرح السياسة النجدية حوالي سنة ١٧٤٥ كانت أوضاع نجد تعاني من التفكك والانقسام بسبب استقلال كل أمير أو شيخ بالمدينة أو البلدة أو القبيلة التي يحكمها • ولكن الحماس الذي صحب ظهور الدعوة الوهابية واقامة دولتها الموحدة في نجد ، دفع الوهابيين في الستينات من القرن الثامن عشر الى تدعيم مركزهم على أساس توحيد نجد وضرب خصومهم فيها أولا ، ثم الالتفات الى صد غارات أعدائهم بني خالد[1] في الاحساء الذين كانوا قد سيطروا عليها ، وطردوا الباشوات العثمانيين منها (١٦٧٠) • ثم بدأوا يشنون من واحاتها الغارات على نجد (١٧٤٥ — ١٧٦٥) ، حتى أن الدرعية نفسها تعرضت لهجومهم (١٧٦٤) في الوقت الذي كانت تصد فيه هجوم شيخ مدينة الرياض •

وحين توفي الامير محمد بن سعود (١٧٦٥) خلفه ابنه عبد العزيز (١٧٦٥ — ١٨٠٣) وفي عهده تم تأسيس الدولة السعودية الاولى ، فامتد روافها الى جميع بلاد نجد بما فيها مدينة الرياض (١٧٧٣) ، ولكن قوتها لم تكن كافية بعد لمباشرة الهجوم على خصومها الاقوياء في الاحساء ، برغم أنها غدت دولة مرهوبة في الجزيرة العربية • وفي مطلع التسعينات تحول الوهابيون الى مرحلة الهجوم ، وشددوا

---

(١) كان حكم بني خالد نافذا في رقعة واسعة تمتد بين وسط الجزيرة العربية من ناحية وبين قطر جنوبا والبصرة شمالا . وقد وقف شيخ بني خالد موقفا معاديا من الدعوة الوهابية ، حين طلب من شيخ بلدة العيينة بنجد أن يمنع محمد بن عبد الوهاب من نشر دعوته ، والا فسوف يمنع عن شيخ العيينة ربع نخله في الاحساء. وأفلح التهديد ، واضطر محمد بن عبد الوهاب الى مغادرة العيينة الى الدرعية ، وجر ذلك الى عداء مستمر بين الوهابيين وبني خالد .

هجماتهم خاصة ما بين ١٧٩٢ ـ ١٧٩٥ على بني خالد ، تحدوهم دوافع مختلفة ، منها دافع ديني يهدف الى القضاء على خصوم الوهابية ومعارضيها ، ولا سيما الشيعة الذين ينتشرون في اقليم الاحساء مع الخوارج الاباضية . ودافع اقتصادي يهدف الى الاستحواذ على واحات الاقليم الخصبة التي كان لبعض النجديين فيها مزارع وبساتين ، ومياهه الوفيرة التي تقصدها القبائل . فضلا عن مدن الاقاليم المزدهرة وموانئه الهامة مثل القطيف والعقير التي ترد منها الى نجد متاجر السكر والقهوة والبهارات الآتية من الهند واليمن ، والتي تروج فيها التجارة وصيد اللؤلؤ . وهذا يساعد الدولة الناشئة على سد نفقات حروبها ، ويمهد لها السبيل لضم بقية مناطق الخليج الى سلطانها . ودافع سياسي يهدف الى تأديب بعض القبائل النجدية التي فرت الى الاحساء حيث لقيت الدعم والتأييد من بني خالد ، وفيهم كثير من الشيعة . ونجح الوهابيون في القضاء على بني خالد (١٧٩٥) ، واستطاعوا أن يخرجوا من داخل الجزيرة الى أطرافها الشرقية ، ويهددوا مركز السلطان العثماني كخليفة على المسلمين ، وذلك حين باشروا غاراتهم على أراضي العراق ومراعي قبائله غربي الفرات في الضفير [1] والمنتفق والشامية ، مزعزعين ولاء عشائره السياسي وعائدين بالمغانم . ولقد عاين أولو الأمر في الآستانة الخطر الجديد الذي بات يهدد الحجاج في طريقهم الى الحج ، ويهدد سلطان الخلافة المعنوي في مدائن العراق وبواديه حيث أخذ يتسرب اليها دعاة وهابيون ، يخطبون على المنابر لنشر دعوتهم ، وانتقاد الخليفة وولاته ورجال الدين لديه .

ولذا صدرت أوامر السلطان الى ولاته في العراق بالتعرض للوهابيين ومطاردتهم والقضاء عليهم في عقر دارهم . وهكذا حمل التوسع الوهابي في طياته أسباب القضاء على الدولة السعودية الاولى .

والحق ان الوهابيين تطلعوا الى العراق لضرب القبائل النجدية والاحسائية

---

(١) الضفير أو الظفير قبائل نجدية الاصل هاجرت الى العراق واستقرت بجوار البصرة . والمنتفق قبائل نجدية ايضا استوطنت بعد هجرتها الى العراق الاراضي الواقعة ما بين بغداد والبصرة .

التي فرت من وجههم ولجأت الى مناطق غربي الفرات حيث لقيت العون والتأييد من القبائل العراقية الضاربة هناك • هذه القبائل التي اعتادت أن تساند بني خالد والمدن النجدية ضد الوهابيين قبل ذلك ، فضلا عن أن الوهابيين كانوا يعتبرون البلاد التي لا تعتنق مبادئهم ديار حرب ، ويرون في المذهب الشيعي خروجا على تعاليم الدين • فالغارات الوهابية على العراق اذن تحقق الغرض السياسي ، والغرض الديني ، بالاضافة الى ما تعد به من الغنائم والثروات ، وخاصة من العتبات الشيعية المقدسة •

قام الوهابيون بالاغارة على جنوبي العراق (١٧٩٥) وهددوا مدينة البصرة التي كان العثمانيون يحرصون على استتباب الأمن في نواحيها ، بسبب مركزها التجاري الممتاز • ففيها أسست الشركات الاوروبية وكالاتها التجارية ، وأي اختلال للأمن فيها يؤدي الى تعطيل التجارة في سائر مدن العراق شمالا وجنوبا ، كما يؤدي الى عرقلة قوافل التجارة ما بين نجد وشرقي الجزيرة العربية والبصرة وبغداد وبلاد الشام أيضا •

ولبى سليمان باشا دعوة السلطان العثماني مكرها ، لأن الخطر الوهابي لم يكن قد تجسم في ذهنه بعد ، ولأن الباشا نفسه ، وهو من أسرة المماليك ، كان في دور الشيخوخة • رأى أن يعهد الى عرب العراق بالتصدي للوهابيين ، وطلب من ثويني أمير عشائر المنتفق أن يقوم بذلك • وتقدم ثويني في الاحساء (١٧٩٦) وانضم اليه أرتال من الكويت والبحرين والزبير ؛ ولكن ثويني قتل على يد عبد زنجي بتدبير من الوهابيين ، فتفرق جيشه الذي كان تواقا للعودة بسبب كثرة المشاق وقلة الماء • ومضى أكثر من سنة قبل أن يهب باشا بغداد وقد أغاظه اندحار قبائله ، لتجهيز حملة ثانية بقيادة كخياه الجديد (نائبه) علي باشا (١٧٩٨) مؤلفة من قوات انكشارية ومأجورة وعشائرية ، تزيد على عشرة آلاف مقاتل مزودين بالمدفعية يساعدهم عتوب البحرين والكويت بالعون البري • وقد نفدت قوة الحملة ومؤونتها قبل أن تحقق غرضها ، فضج الجيش بالشكوى ونادى الكثيرون بضرورة الرجوع • وزاد في يأس قائد الحملة ، استبسال الحاميات السعودية في الدفاع عن

معاقلهـا ، فاضطر الى قبول الهدنــة والصلح ، ولكن الاتصالات بين الطرفين لم تسفر عن نتيجة . وبعد سنة هاجم الوهابيون حجاج الخزاعل الشيعة قرب نجـد ، كما هاجموا الحجاج الايرانيين في الموضع نفسه ، وعاد الوهابيون لمهاجمة أطراف العراق . وكان أشد ما قاموا به هو انقضاضهم على المزارات الشيعية التي رأوا فيها تجسيدا للوثنية ، فقد ظهر سعود بن عبد العزيز أمام كربلاء ، ودخلها وهدم قبـة ضريح الحسين ، واستولت قواته على ما فيه من الهبات النفيسة والتحف الثمينــة ، وأعملت القتل والنهب في الاهالي ، ثم خرجت مسرعة قبل أن تصطدم مـع قوات باشا بغداد . وكان لهذا العمل الدموي الشائن أسوأ الاثر في الاوساط الاسلامية العثمانية والايرانية على حد سواء . فقد استشاط السلطان العثماني غضبا ، واستفز حمية الكيخيا علي باشا الذي خلف سليمان باشا المتوفى (١٨٠١) ليتجهز مجـددا في حملة ضد الوهابيين . ولكن الباشا الجديد قد انخلع قلبـه اثر فشله السابق ، فلم يجسر على دخول اقليم نجد ، وانما ظل يتجول في حدود جبل شمر،وعاد أدراجه دون أن يشتبك مع الوهابيين . وتابع هؤلاء هجماتهم سنة بعد أخرى ، فداهمـوا الزبير وسووا جميع قبابها ومشاهدها بالارض ، كما داهموا البصرة . وأعقب ذلك نزوح العشائر العراقية النازلة في مناطق الغزو الوهابي ، واتجاهها الى أرض الجزيرة العراقية شمالا ، حاملة معها عناصر الاضطراب . وبذلك أضيف مصدر ازعاج جديد الى متاعب والي بغداد الذي كان يقاسي من تفاقم نفوذ الوكالة السياسية الانكليزية في بغداد ، وتزايد امتيازاتها في العراق ، خاصة بعد نزول الحملة الفرنسية في مصر ، وتردد الانباء عن استعدادها لغزو الهند ، كما كان يقاسي من الخطر الفارسي الذي كان يؤيد ثورات العشائر العربية والكردية الراغبة في التخلص من السيطرة العثمانية . وظـل التهديـد الوهابي مسيطرا على جنـوبي العراق ، حتى زال بقدوم الحملة المصريـة .

والتفتت الدولة العثمانية الى ولاتها في الشام بعد فشل باشوات بغداد في قهر الوهابيين ، ولاسيما بعد أن تكررت حركات هؤلاء وغزواتهم لجنوبي الشام،فهددت ولاية دمشق تهديدا مباشرا ، وأوشكت أن تعطل قافلة الحج الشامي الى الديـار المقدسة في الحجاز . ولم يكن الشام أحسن حالا مـن العراق بسبب ما كان يمزقه

من صراع طوائف الاجناد السلطانية (القابيقول) ، والانكشارية المحلية (اليرلية) • وحين لم ينهض والي دمشق عبـد الله باشا العظم بالرد على تحـدي الوهابيين حين منعوه وقافلة الحج التي يتصرف بامارتها ، مـن الوصـول الى الديار المقدسـة (١٨٠٦) ، صدر أمر عزله من الدولة واحلال يوسف كنج باشا محله ، مع التشديد عليه بوجوب ضمان فتح طريق الحجاز وتنكيل (الخارجي) ، يقصد (الوهابي) • ولكن الوالي الجديد لم يقم بعمل يذكر طوال السنوات الثـلاث التي مضت على ولايته ، بل انصرف الى اكتناز الاموال لنفسه ومماطلة السلطان • وفي غضون ذلك هجمت بعض عشائر الوهابيين على حوران ربما سعيا وراء المكاسب والغنائم بسبب القحط في الجزيرة العربيـة أو لجس النبض ، ثم عادت أدراجها • وصـدر فرمان السلطان بعزل يوسف كنج باشا عن ولايته دمشق وتوجيهها الى سليمان باشا والي صيدا ، مع توصيته بأن يتصل مع والي مصر محمـد علي باشا ، لتنسيق جهودهما ضد الوهابيين بقصد القضاء عليهم •

ولكن دعوة الوهابيين الموحديـن عامة المسلمين للانضواء تحت لواء الدولـة العربية السعودية ، لم تلق الرواج والانتشار في العراق والشام ، بسبب نفور الاهالي سنّة وشيعة ، من فعال القسوة والعنف التي صحبت مساعي الوهابيين لنشرمبادئهم، ودمغت غزواتهم على البوادي والحواضر غربي الفرات وجنوبي الشام • فضلا عن ان منعهم قوافل الحج من دخول الاراضي الحجازيـة ، أثار عليهم حفيظة العـالم الاسلامي ، وأسهم في عدم اكتسابهم أنصارا يذكرون فيه آنذاك•وقد دفع عبدالعزيز ابن محمد بن سعود حياته ثمنـا لحادث كربلاء الـذي ترك أثرا عميقـا في نفوس الشيعة وذلك حين أقدم أفغاني شيعي مقيم في بغداد ، على طعن عبد العزيز أثنـاء

---

(١) اصبح تعبير (قابي قول) يطلق على الجند الانكشاري سواء كان أصله من الرقيق او من الاحرار . اما تعبير (يرليه) فاصبح يطلق على الجند الانكشاري عندما دخل صفوفه كثير من السكان المحليين ، بعد اهمال الدنشرمة والغائها ، وصار هؤلاء الجند يعرفونه باسم (يرليه) وهي من (ير) التركية بمعنى محل ، وذلك بعد ان غلب الطابع المحلي على الفرق الانكشارية في بعض الولايات ، وخاصة ولاية دمشق ، وتزاوج افرادها مع السكان المحليين ، وعملوا واولادهم في حرف الصناعة والتجارة .

الصلاة في الدرعية ، فقضى عليه ، وخلفه ابنه سعود الذي كان قد بدأ حملة على الحجاز قبل وفاة أبيه .

وكان الاشراف يتمتعون بنفوذ قوي في الحجاز ، وقد تعاقب منهم على شرافة مكة ثلاث أسر منذ الحكم السعودي الذي أنهى الشرافة ؛ فقد استقل آل بركات بالحكم قرابة القرن ، ثم نافسهم آل زيد وآل عون ، وظل المنصب يتناقله واحد من هؤلاء وواحد من أولئك حتى الفتح المصري . وكانت الدولة العثمانية تقتسم دخل مواسم الحج مع الاشراف ، فزادت ثروة هؤلاء وبسطوا سلطانهم على الحجاز بأكمله وظلوا أقوياء برغم صراعهم المستمر على منصب الشرافة ، وقاموا بعدد من الغزوات على نجد وتوابعها ، وتدخلوا في شؤونها ، ثم توقفت غزواتهم بسبب انقسامهم ؛ ثم بظهور قوة آل سعود . وعلى الرغم من اهتمام الدولة العثمانية ببسط نفوذها على الحجاز والحرمين الشريفين ، فانها منذ أواخر القرن الثامن عشر قد تركت السلطة كلها للشريف غالب بن مساعد أمير مكة (١٧٨٨ — ١٨١٤) ، الذي اتسع سلطانه حتى أصبح الحاكم المطلق في الحجاز . ولكن الانشقاق لم يلبث أن طرأ على صف الاشراف ، وخرج على طاعتهم كثير من القبائل التي كان يعتمد عليها الشريف في جعل حكمه نافذا في أطراف الحجاز ، وذلك بسبب شحه وسوء تصرفه معها ، وبسبب تهالكه على جمع المال ، واقتناء الاراضي والقصور ، واحتكار أنواع كثيرة من التجارة لنفسه ، وارهاق الاهلين بالضرائب المتنوعة .

وقد حدث ذلك الانشقاق بعدما باشر السعوديون الضغط على الاشراف في الحجاز ، وبعدما كان من تقدم سعود لفتح (تربة) وما أعقبه من اتفاق سعود والشريف غالب على الصلح . وبقي الشريف غالب في منصبه بعد أن تظاهر باعتناق المبادىء الوهابية ، ورضي بأن يكون تابعا للسعوديين ، منفذا لسياستهم في حكم الحجاز وفقا للمذهب الوهابي (١٨٠٣) . وتقدم السعوديون شمالا فاستولوا على المدينة المنورة ، ونهبوا ما في الحجرة النبوية من الكنوز القيمة . وتفاقم الامر الى درجة خطيرة حين صدر أمر الدرعية الى الشريف غالب بمنع دخول قوافل الحج المصري والشامي والعراقي الى الديار الحجازية ، ليس بسبب ما يصحبها من مظاهر

وعادات تتنافى مع المبادىء السلفية فحسب ، وانما أيضا بسبب الحاميات العسكرية التي ترافقها ، والتي خشي السعوديون عواقب الاصطدام بها • وهذا المنع يعتبرأكبر التحديات السعودية للدولة العثمانية ، حامية الحرمين وصاحبة السلطان الشرعي في بلديهما • وزاد في تدهـور الحال ، قيام سعود بطرد القاضيين التركيين مـن مكة والمدينة ، واعلانه في موسم حج ذلك العام (١٨٠٦) أنه لم يعد للسلطان العثمـاني سليم الثالث أية سلطة على الحرمين ، لان الدولـة السعودية العربية ضمتهمـا الى ممتلكانها • وقد ترتب على ذلك بمجموعه أن الدولـة العثمانية لم يعد في طوقهـا ما تصبر عليـه ، فتضاعف اهتمامها بالقضاء على الوهابيين قضاء مبرما ، وبعد فشل ولاة العراق والشام في التصدي لهم بنجاح ، كان لا بد أن تكلف الدولة والي مصر بهـذه المهمة الخطيرة •

ومنذ أن استولت الدولة السعودية على الحجاز ، تطلعت الى اليمن لضمها الى املاكها لكيلا يبقى في الجزيرة قوة سوى القوة السعودية ، فتبعث مجددا وحـدة الجزيرة العربية الاسلامية الاولى• وقد استغل السعوديون تردي الاحوال السياسية في اليمن ، وضعف الائمة الزيود ، بسبب الصراع على السلطة بينهم وبين مشايـخ القبائل اليمنية ، وتفكك وحدة البلاد ، بسبب استمرار الحروب المحلية التيأضعفت نفوذ الأئمة المستقلين عن الدولة العثمانية منذ عام ١٦٣٥ • فضلا عن النزاع الظاهر والمستتر بين الزيود الشيعة في المرتفعات ، والشوافع السنة في تهامة والسواحل • بل وحتى تنافس أبناء الامام علي المنصور على ولاية العهـد • وأدرك السعوديون مغزى اعتناق كثير من رؤساء ومشايخ اقاليم عسير المتد بين الحجاز واليمن للمبادىء الوهابية ، وكان هؤلاء قد عاونوا السعوديين في فتـح الحجاز • وحين تعهد أحـد زعماء عسير بنشر العقيدة الوهابية في عسير ،وبالتوسع جنوبا عبر الاراضي اليمنية، باسم السعوديين ، قلده أمير الدرعية عبد العزيز امارة عسير (١٨٠٠) وأمده بحملة تسانده في الغزو المرتقب لليمن •

وفضلا عن تفكك الوضع السياسي اليمني ، وجد الوهابيون أن لهم أنصـارا بين علماء الدين في اليمن ، ممن استنكروا ما ران علـى نظام الإمامة مـن تخلف

وجمود ، وتطلعوا بالأمل الى من يمـد لهم يد العون في معارضتهـم للامامة ، وفي مسعاهم الحثيث للاصلاح ، ولو مـن خارج اليمن • وهنا وجد السعوديون ما يبرر تدخلهم في الشؤون اليمنية ، مدعمين بقبائل أمير عسير • ولم يلبث هذا أن توغـل عبر الحدود اليمنية الشمالية فاستولىعلى منطقة (أبو عريش) في بلاد تهامة(١٨٠٤) وأغار على ميناءي لحية والحديدة • وأحس الامام بالخطر حين امتد النفوذالسعودي الى مدن الحديدة وزبيد وبيت الفقيه ، فنهض واستعاد الحديدة لأهميتها الحيويـة للعاصمة صنعاء ، ثم أرسل يطلب المعونـة من السلطان العثماني ومـن والي مصر محمد علي ، ضد السعوديين • وبالفعل فقد وجه محمد علي قواته بعد فتح الحجاز (١٨١٣) نحو عسير ثم الى اليمن ، وأعاد الى الإمام أملاكه (١٨١٩) •

الخليج العربي بين الحركة الوهابية والمطامع البريطانية(١) :

لقد كان للوجود السعودي في اقليم الاحساء بقواه البريـة والبحرية ، وتطلعه لضم دويلات الخليج الى ممتلكاتـه ، عواقب سياسية خطـيرة أثرت على أوضاع الخليج وتفاعلت مع القوى الاخرى من بريطانية وايرانية وعثمانية • وبما أن معرفة

---

(١) انظر أيضا للمزيد من معرفة تاريخ منطقة الخليج العربي :
د. صلاح العقاد : التيارات السياسية في الخليج العربي ــ القاهرة ١٩٦٥ .
د. محمود علي الداود : الخليج العربي والعلاقات الدولية (١٨٩٠ ــ ١٩١٤) القاهرة ١٩٦١ .
د. جمال زكريا قاسم : الخليج العربي ــ القاهرة ١٩٧٣ .
حافظ وهبة : جزيرة العرب في القرن العشرين ــ القاهرة ١٩٣٥ .
عثمان بن عبد الله بن بشر : عنوان المجد في تاريخ نجد جزآن ــ القاهرة ١٣٤٩ هـ
عبد العزيز الرشيد : تاريخ الكويت ، جزآن ــ بغداد ١٩٢٦ .
Aitchison, G. U. A Collection of Treaties Engagements & Sanads, Calcutta 1933.

Hoskins, H. L. British Routes to India, N. Y. 1928.
Lorimer : Gazetteer of the Persian Gulf, I, Calcutta, 1915.
Wilson, A. T. The Persian Gulf, Oxford 1954.
Kelly, J. B. : Eastern Arabian Frontiers, London 1964.

الماضي أساس لفهم الحاضر ، فلا بد أن يسفر بحث أصول الاحداث التاريخية لمنطقة الخليج عن حقيقة أوضاعها السياسية الراهنة ، وعن أسباب اختلاف هذه الاوضاع في دويلات الخليج العربي عن مثيلاتها في بقية أقطار المشرق العربي ، وهذا بحدّ ذاته ذو أهمية في معرفة أسباب اختلاف أوضاع العرب السياسية وتعدد دولهم القائمة .

إن مساعي الوهابيين لمد نفوذهم الى منطقة الخليج قد تعاصر مع أحداث الغزو الفرنسي لمصر الذي سجل بداية انطلاق حركة الاستعمار باتجاه المنطقة العربية مشرقا ومغربا . ومن هنا كان تركيزنا على عامل هام من العوامل المشكلة للعروبة في العصر الحديث ، وهو التطويق الاوروبي الاستعماري للعالم العربي ، وقد نشط مجددا ابتداء من مطلع القرن التاسع عشر ، وتمثل في منطقة الخليج بمسارعةبريطانية ليس فقط الى احتواء خطط الوهابيين ثم خطط محمد علي التوحيدية ، انما أيضا الى العمل على ابقاء الحالة الراهنة بين دويلات الخليج ، وتكريس التجزئة والعداوة فيما بينها ، وربط كل منها بعجلة السياسة البريطانية ، لحماية طريق الهند الميسور الذي يتجه من الهند الى الخليج فالعراق فالشام ، وهو الطريق الجديد الذي اضطر الانكليز لسلوكه بعد أن أقفل الفرنسيون طريق البحر الاحمر ومصر ، وبعد أن أخذ محمد علي يستغلّ هذا الطريق لحسابه ويرقب الانكليز فيه . فلنعرض لأحداث هذه الحقبة ، بعد تمهيد قصير يوضح أصول الاستعمار الاوروبي والبريطاني في الخليج :

كان البرتغاليون أول دولة أوروبية نهضت بحركة الكشف والاستعمار ، وكان لها أهداف اقتصادية ودينية واضحة لا في الخليج العربي فحسب ، وانما أيضا في الهند وجنوب شرق آسية . وصل البرتغاليون الى الهند في مطلع القرن السادس عشر ، واستهدف نائب ملك البرتغال هناك افونسو البوكرك خنق الملاحة العربية واقفال طرق مواصلاتها البحرية وذلك بالاستيلاء على نقطتين ذواتي أهمية استراتيجية حيوية : هما جزيرة سقطرى الواقعة عند مداخل خليج عدن ، وجزيرة هرمز المتحكمة في مداخل الخليج العربي .

وقد لقي الاسطول البرتغالي المتجه الى هرمز مقاومة عربية بحرية عنيفة في مياه خليج عمان ، حين تصدى له الشيخ سيف الدين حاكم الجزيرة بأسطوله الصغير الشجاع في معركة حامية اضطرت البرتغاليين الى قبولهم ببقاء الشيخ في منصبه والاعتراف بحكمه للجزيرة ، مقابل قبوله الحماية البرتغالية • ولولا تهديد الشاه اسماعيل الصفوي وضغطه لما ارتضى الشيخ العربي هذا الموقف • وقد حاول الصفويون عقد حلف مع البرتغاليين للتعاون العسكري والاقتصادي بينهما، ولتزويد الصفويين بسفن حربية للاغارة على البحرين والقطيف • وثارت نفوس عرب الخليج ضد البرتغاليين الذين لجأوا الى اجراءات عنيفة غادرة لجمع الضرائب وارهاق الناس بالتعصب الكاثوليكي الشديد• وحين تعاون أهالي هرمز والبحرين وصحار ومسقط مع شيخ هرمز لدحر الاسطول البرتغالي ، سيرت حكومة الهند البرتغالية سفنها لتشديد الحصار على هرمز ، مما اضطر شيخها الى اشعال النار بالمدينة واحراقها والانسحاب الى جزيرة قشم • ودخل البرتغاليون المدينة العربية الباسلة وقد أتت النار على أسواقها التي تعتبر أغنى أسواق العالم بمنتجات الشرق من التوابل والمجوهرات والمنسوجات الحريرية ، وأهم مركز عالمي لتجارة اللؤلؤ • ولم تسفر جهود العثمانيين البحرية لطرد البرتغاليين من البحار العربية والهندية عن أي نتيجة ايجابية • بلى لقد نجح العثمانيون في الاستيلاء على مسقط وقلعتها البرتغالية ، ولكنهم فشلوا في حكم المدينة بسبب تردّي سمعتهم في الموانىء العربية التي ينزلون فيها • كذلك فشلوا في غزو جزر البحرين (١٥٥٥) نتيجة تحالف نائب شيخ هرمز والبرتغاليين والصفويين •

وانسحب العثمانيون من مياه الخليج وتركوا البرتغاليين يسودونه وينشرون ألويتهم فيه ، ويجعلون من جزيرة هرمز أهم قاعدة للتجارة بين الشرق والغرب ، واكتفى العثمانيون بالاحتفاظ بميناء البصرة للوقوف في وجه الغزو البرتغالي لأراضي الدولة العثمانية ، كذلك أرضاهم أن يعلن أهالي القطيف في الاحساء قبولهم بالسيادة العثمانية • وبعد أن احتل الاستعمار البرتغالي مركز الصدارة في تجارة الخليج ، طرأ عليه ضعف تدريجي نتيجة انضمام دولة البرتغال الى اسبانية (١٥٨٠) ولم تسترجع استقلالها إلا سنة (١٦٤٠) • وفي غضون ذلك برزت هولندة بعد أن

تحررت من السيطرة الاسبانية ، واتجه نشاطها الاستعماري التجاري نحو جزر الهند الشرقية (١٥٩٥) ، ثم وجهت انكلترة أنظارها أيضا الى الشرق ، وخاصة بعد سحق الاسطول الاسباني في معركة الأرامادا الشهيرة (١٥٨٨) ، وتأسيس ما يعرف بشركة الهند الشرقية الانكليزية ، وانصراف الحكومة الانكليزية الى رعاية الاحتكارات الاقتصادية في آسية والمساهمة فيها ، والاعتماد على الشركات في ترسيخ أسس نفوذها الاستعماري في المشرق العربي وجنوب شرقي آسية[1] . وقد استعان الشاه الصفوي عباس الاول بسفن شركة الهند الشرقية الانكليزية لطرد البرتغاليين من جزيرة هرمز مقابل تقسيم الغنائم وعائدات المكوس بين الطرفين واعفاء التجارة الانكليزية في هرمز من المكوس ، وبقاء قلعة هرمز تحت سيطرة الانكليز والصفويين مشاركة . وانسحب البرتغاليون الى مسقط التي غدت القاعدة الرئيسية للبرتغاليين في الخليج ، وتقدم الهولنديون للافادة من سقوط هرمز والعمل لحسابهم بتأسيس وكالة تجارية لهم في بندر عباس . وقد تحالفوا مع الانكليز البروتستانت لاسقاط النفوذ البرتغالي الكاثوليكي في مياه الخليج . ولكن الصراع لم يلبث أن استحر بينهم وبين شركة الهند الشرقية الانكليزية ، حول الامتيازات والاحتكارات التجارية هناك ، وانتهى بغلبة الانكليز .

وقد أدى فشل الجهود البرتغالية عسكريا ودبلوماسيا الى تردي مركز البرتغاليين في الخليج والشرق ، لا سيما بعد أن تغلب العرب في عمان على مشكلة التفكك السياسي التي أتاحت للبرتغاليين الاحتفاظ بحامياتهم . وكان العامل الديني هو أساس الوحدة آنذاك ، وكذا ارتبط قيام أسرة اليعاربة في عمان باحياء نظام الامامة على يد مؤسسها ناصر بن مرشد اليعربي (١٦٢٤) . وخلفه ابن عمه سلطان

---

(١) كان الاستعمار البريطاني يتبع نظاما خاصا يمنح شركات خاصلة حق الاحتكار التجاري في منطقة محددة ، وسرعان ما يتطور هذا الاحتكار الى تدخل سياسي ثم الى الغاء الحكومات المحلية وابدالها بحكومات تابعة للشركة تلتزم بمصالح بريطانية . وعلى هذا النحو تأسست شركة الهند الشرقية سنة ١٦٠٠ ، وصارت منذ سنة ١٧٦٥ تهيمن على ادارة مناطق واسعة في الهند . وقد الغي هذا النظام سنة ١٨٥٧ وحلت محل الشركة ادارة حكومية انكليزية رسمية ، واعلنت ملكة انكلترة امبراطورة على الهند .

ابن سيف فأحرز نصرا حاسما على البرتغاليين ، حين استولى على قلعتهم الحصينة في مسقط (١٦٥٤) وطاردهم في الهند وشرقي افريقية • واستحوذ ابنه سيف (١٦٩٢ ــ ١٧١١) على ممباسة التي تعتبر أهم حواضر افريقية الشرقية البرتغالية ، ووجّه عناية خاصة الى الاسطول ، فقدر عدد سفنه الكبيرة بثمان وعشرين يحمل بعضها ثمانين مدفعا • وخلفه بعد وفاته سلطان بن سيف الثاني (١٧١١) فلم يعش طويلا ، واصطرعت الاسرة من بعده على الحكم، وزاد الأمر خطورة انقسام العمانيين أنفسهم الى كتلتين قبليتين : غافرية من العرب العدنانيين وأصلهم من نجد ، ومعظمهم على المذهب السني ، ثم السلفي بعد ظهور الوهابية • وهناوية من العرب القحطانيين ويسودهم المذهب الاباضي • وبعد أن كثر القتلى من زعماء الطرفين المتنازعين ، التف أهل عمان مجددا حول سيف بن سلطان الثاني وبايعوه بالامامة • وحين ظهر له منافس أرسل يطلب معونة نادر شاه حاكم فارس الطموح • ولما عاين سيف ما ارتكبه الفرس من فظائع في مدن عمان الداخل وخاصة في نزوى ، تصافى مع منافسه ، وبدت وحدة عمان وشيكة وتحريرها قريبا، لولا ظهور منافس آخر يدّعي الامامة لنفسه ، فارتكب سيف غلطته الثانية واستنجد بالفرس مجددا ، على أساس أن يضموا منطقة صحار التي استعصى حكمها عليه ، ويعاونوه على استرجاع السلطة والامامة • ولكن الفرس نكثوا بعهدهم واستولوا على مسقط ، ولم يلبث أن مات سيف ، وقتل منافسه في حرب ضد الفرس • وسنحت الفرصة لحاكم صحار أحمد بن سعيد لإجلاء الفرس والوصول الى الامامة وتأسيس أسرة البوسعيد (١٧٤١) التي ما زالت تحكم الى اليوم •

ومنذ قيام حكم البوسعيد ، انفصل القسم الشمالي من ساحل عمان عن تبعية مسقط ، وظهرت فيه قوى قبلية بحرية مثل بنوياس وبوعلي والقواسم • ولكن عمان عوضت عن ذلك بمد حكمها الى جزيرة زنجبار في مواجهة ساحل افريقية الشرقي (١٧٨٤) ، كما امتد في عهد سلطان أحمد (١٧٩٢ ــ ١٨٠٤) الى جزيرتي هرمز وقشم المواجهتين لساحل عمان ، والى مينائي شهبار وغوادور على ساحل مكران الفارسي •

على أن هدم النفوذ البرتغالي في البحار العربية والشرقية على أيدي المنافسين الهولنديين والانكليز والفرنسيين ، ثم قيام المنافسة بين هؤلاء ، أدى الى نوع من الجمع بين الطريق البحري الطويل ، والطرق البرية التي تخترق الولايات العربية العثمانية ، مما أعاد الى تلك الطرق شيئا من أهميتها القديمة . وقد ساد هذا الموضع في القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر الى أوائل القرن التاسع عشر، عندما دخلت علاقات العرب مع الغرب في طور جديد ، هو طور الانتقال من التطويق والاحاطة الى الاحتلال ، من الهامش والأطراف الى القلب . وكان ضعف البحرية العثمانية منذ أواخر القرن السادس عشر هو المسؤول عن عجز الدولة العثمانية عن بسط سلطانها على المنطقة العربية في الخليج ، فأخذ الاستعمار يتطرق اليها ويرسخ قواعده فيها . وسبّب ذلك تزعزع أركان الوحدة التي أوجدها الفتح العثماني بعد تفكك الدولة العباسية .

لقد اتجهت السياسة الانكليزية التي تشرف عليها حكومة بومباي الى الخليج العربي لا لنقل البريد بين الهند وبريطانية فحسب ، وانما أيضا لأن الدولة العثمانية كانت تحظر على السفن الاوروبية الملاحة صعداً في مياه البحر الاحمر ما بين مخا والسويس ، حماية للديار المقدسة الاسلامية من تجرّم الاساطيل المسيحية . وأهم من ذلك لأن ولاة بغداد ، وهم أسرة شبه مستقلة من المماليك منذ سنة (١٧٠٤) كانوا يلتزمون بنظام الامتيازات الممنوح للاوروبيين (فالانكليزي مثلا يدفع ٣٪ على الواردات بينما يدفع العثماني ٧ ٪) الأمر الذي ساعد على نشاط حركة التجارة الانكليزية واتساعها بين الهند والعراق . وبعد توقيع معاهدة باريس (١٧٦٣)(١) التي أنهت حرب السنوات السبع بين انكلترة وفرنسة بانتصار انكلترة ورسوخ

(١) دامت الحرب من سنة ١٧٥٦ ـ ١٧٦٣ واسفرت عن نتائج خطيرة في ميدان المستعمرات اذ تنازلت فرنسة لانكلترة في معاهدة باريس عن جميع ممتلكاتها في شبه القارة الهندية ، ووزعت شركة الهند الشرقية ممتلكاتها على الحكومات الرئيسية الثلاث التي اقامتها في الهند وهي : حكومة البنغال وحكومة مدراس وحكومة بومباي ، تمتد صلاحية كل منها بحسب موقعها الجغرافي ، وبذلك يقع الخليج العربي ضمن دائرة حكومة بومباي .

قدمها في الهند ، التفتت حكومة بومبـــاي لفتح أسواق دول الخليج أمـــام التجارة الانكليزيـــة •

وفي منطقة الخليج لم يكن يوجد من القوى المؤثرة في سياسته سوى دولتين هما فارس وسلطنة عمان • أما فارس فكانت أحوالهـــا متغيرة تفتقـــد الاستقرار لا سيما في القرنين السابع عشر والثامن عشر ؛ فقد تعرضت للغزو الأفغاني ثم للغزو الروسي ، فلم يتح لهـــا أي فرصة لجعـــل حكمها نافذا في سياسة الخليج • وكـــان افتقارها المزمن الى أسطول قوي ينعكس على عجزها في تعاملها حتى مع من يفترض أنهم رعاياها من عرب الساحل الفارسي من الخليج كعرب الهولة والمطاريش • وقـــد أتيح لفارس أن تلتفت الى الخليج بعد سنة (١٧٣٦) عندما سيطر نادر شـــاه على فارس ، واعتنى بالاسطول الفارسي الذي كان قوام بحارته من الهنود والبرتغاليين • ويبدو أن سلطان مسقط وإمام عمان قد تبادل احتلال جزر البحرين في مطلع القرن الثامن عشر هو وعرب الهولة ، وقد تم احتلال عرب مسقط للبحرين في عهـــد الامام سلطان بن سيف الثاني (١٧١٨) • ولكن عرب الهولة استطاعـــوا أن يجلوا عرب مسقط عن البحرين • وفي سنـــة (١٧٣٦) شـــاركوا في حملة وجهها نادر شـــاه لاحتلال البحرين مع عرب بوشهر من المطاريش • وأدرك نادر شاه أن حكم البحرين لن يستتب إلا بتولية حاكم عربي عليها ، فعين الشيخ غيث ثم الشيخ نصر آل مذكور من عرب المطاريش حكاما على البحرين • وظلت كلمة هؤلاء نافذة في البحرين حتى سنة ١٧٨٢ حين استخلصت قبائل العتوب العربية السيادة على البحرين من الفرس ، أو بلغة أدق من الذين كانوا يحكمونها باسم شاه فارس ، وهم عرب المطاريش الذين كانت لهم السيطرة أيضا على بوشهر ، مركز تجمع الاسطول الفارسي وعلى المناطـــق المجاورة لها ، والذين لم يكن لشاه فارس عليهم سوى نفوذ اسمي فحسب •

أما سلطنة عمان[١] فتذكر المصادر أنها بدأت مساعيها للسيطرة على الخليـــج ما بين (١٦٩٤ ــ ١٦٩٦) • وقد تزايد نفوذها في العام التالي ، حتى أن الوكيـــل

---

(١) للمزيد من التفاصيل عن عمـــان انظر د. محمود علي الـــداو السياسي الحديث لقضية عمان » ، القاهرة ١٩٦٤ .

الانكليزي في بندر عباس (جمبرون) كتب في تقريره يقول : « ان الخطر المسقطي في طريق الهند لا يعـدله إلا الخطر الجزائري في البحر المتوسط »[1] • ولم يكن بمقدور الانكليز أو الفرس أن يفرضوا سلطانهـم على مسقط التي قـدرت قوة أسطولها في آخر القرن الثامن عشر بخمسمائة سفينة متوسطة حمولة كل منها ما بين ٢٥٠ ــ ١٠٠٠ طن ، بالاضافة الى ثلاث سفن حربية يملكها السلطان نفسه ، ومائة سفينة أخرى يملكها أهالي صور ثاني مدينة بحرية في عمان • وقـد بلغ مـن قوة هذا الاسطول أن عمان حاولت طوال القرن الثامن عشر أن تفرض أتاوات ورسوم مرور على السفن العابرة مضيق هرمز • كما مدت سيطرتها على جزء كبير من ساحل افريقيـة الشرقي •

وفي النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، ظهرت قوى عربية أخرى على سواحل الخليـج ، وأهم هـذه القوى هي قبائـل العتب التي أخـذت تحل بالتدريـج محل بني خالد على سواحل اقليم الاحساء ، ثم استقرت في ميناء الكويت الذي أخذ اسمه من (كوت) بمعنى حصن ، كان بنـاه شيخ بني خالـد حيث حكم العتوب بزعامة فرعهم من آل الصباح •

وكان زعيمهم صباح قد اختير وفق الطريقة العشائرية لتصريف شؤون المدينة التي اعتاد أهلوها الابحار جنوبا في الخليج والغـوص على اللؤلؤ • واستقر فرع آخر من العتوب من آل خليفة في موضع الزبارة ، وأقنعوا أبناء عمهم آل الصبـاح والجلاهمة بأنها تقع في منطقة غنية بمصائد اللؤلؤ ــ ولكن آل خليفة لم يشركـوا معهم أحدا من العتوب في تلك الثروة • أما الجلاهمـة وهم العنصر البحري بـين العتوب فرأوا أن يبحروا الى الزبارة حيث لقوا القبـول الحسن ، ثم ما لبثـوا أن شعروا أن أبناء عمومتهم آل خليفة يستأثرون بالمـال وحدهم ، فغادروا الزبـارة محنقين ، وفي نيتهم الانتقام من آل خليفة • واستمر الصراع الدامي بين الطرفـين ، وحدث المصاف ، وانتهى بالقضاء على الجلاهمة ومقتل شيخهم •

---

(١) انظر د. احمد مصطفى ابو حاكمة « محاضرات في تاريخ شـرقي الجزيرة العربية في العصور الحديثة » ، القاهرة ١٩٦٨ ، حاشية ص٥٦

وبرع آل خليفة في صيد اللؤلؤ وتضاعفت مكاسبهم ، فتحولوا من جماعة عشائرية الى جماعة رأسمالية ، تفوقت بالثروة والنفوذ حتى على شيوخ بني مذكور حكام بوشهر وحكام جزر البحرين الذين كانوا يعترفون بسلطان شاه الفرس عليهم اعترافا اسميا • وتفاقم النزاع بين آل مذكور وآل خليفة ، وانتهى باستيلاء هؤلاء على البحرين (١٧٨٢) كما ذكرنا • وأحس العتوب في الكويت والزبارة والبحرين بالخطر بعد احتلال الوهابيين للاحساء ، وغضب هؤلاء من استضافة عتوب الكويت في ديارهم اللاجئين أعداء الوهابيين • وكان لا بد أن يتعرض العتوب لهجمات الدرعية ما داموا يقيمون شعائر الدين بطريقة لا ترضي الوهابيين • ولا سيما في البحرين حيث يقيم جماعة من الرافضة أي الشيعة ، وما دامت ثروة البحرين الاقتصادية من الزراعة واللؤلؤ تسيل لعاب الطامعين • تعرضت الكويت للهجمات الوهابية في عهد شيخها عبد الله بن صباح الذي خلف أباه سنة ١٧٧٦ ، وامتد حكمه حتى سنة ١٨١٣ ، وسلمت الكويت من أخطارها ، بفضل حنكته السياسية وعلاقاته الودية مع شركة الهند الشرقية التي شاركت في صد الهجمات لارتباط مصالحها بالكويت • وبفضل انشغال الوهابيين في رد هجمات شريف مكة ، وهجمات العثمانيين ممثلين بشخص أمير المنتفق (١٧٩٦) ثم بشخص كيخيا بغداد علي باشا (١٧٩٨) • ولكن الزبارة لم تنج من قبضة الوهابيين ، فقد شددوا الحصار عليها الى أن اضطر أهلها لمغادرتها والهجرة الى جزر البحرين المقابلة لهم • وحين دخل الوهابيون المدينة وجدوها مهجورة خاوية ، وبذلك دخلت شبه جزيرة قطر تحت سيطرتهم •

على أن الفرصة ما لبثت أن واتت الوهابيين للسيطرة على البحرين ، وذلك حين نجح سلطان مسقط في احتلالها (١٨٠٠) ، وأخذ عددا من العتوب الى مسقط كرهائن ، بينما فرّ آخرون عائدين الى الزبارة حيث طلبوا معونة الوهابيين ، فسارع هؤلاء بتقديمها ، ورجع العتوب الى البحرين ومعهم النفوذ الوهابي (١٨٠١) • وأصبحت البحرين منذ ذلك الحين هدفا لأطماع القوى السياسية المؤثرة في منطقة الخليج ، سواء كانت صادرة عن دول كفارس في عهد الأسرة القاجارية التي بدأ حكمها في التسعينات من القرن الثامن عشر ، أو مسقط أو الدرعية ، أم كانت صادرة عن قوى قبلية مثل رحمة بن جابر المشهور زعيم الجلاهمة الذي عاون آل خليفة في

فتح البحرين ، ولكنه لم ينل مكافأة على صنيعه ، فلجأ الى قطع طريق البحر على سفنهم •

ولم تسلم مسقط وعمان من الغزو الوهابي ؛ ففي عهد سعود بن عبدالعزيزالذي حكم ما بين ١٨٠٣ ــ ١٨١٥ احتل الوهابيون واحات البريمي الواقعة شمال غرب مسقط . واتخذوها قاعدة ثابتة لهم ، تنطلق منها جيوشهم الى عمان وساحلها الذي يمتد شمالا من رأس امسندم حتى قطر • وجعلوا منها مركزا لبسط سيطرتهم الادارية والمعنوية على قبائل المنطقة ، وأصابوا في هذا المجال نجاحا مؤكدا • وكانوا يكتفون بابقاء الزعماء والرؤساء السابقين ما داموا موالين لهم ، يدفعون الزكاة ، وجزءا من غنائم الحروب ، ويصرفون شؤونهم المحلية • وعلى هذا النحو ارتبطت قبائل القواسم القوية[1] التي تسكن ساحل عمان بدائرة الولاء السعودي (١٨٠٢) ، وكان لهذا الارتباط أثر بعيد في تطور أحداث الخليج ، في حين رفض الاباضيون في عمان الداخل التعاليم الوهابية ، واعتبروا بعضها انحرافا عن جوهر الدين الاسلامي •

وفي نهاية القرن الثامن عشر كانت بعض القبائل العربية التي تحتل المنطقة الساحلية الواقعة بين مسقط وقطر على طول ثلاثمائة كيلومتر ، تمارس مغامرات بحرية بقصد الاستيلاء على السفن التجارية المارة بمياه الخليج ، سواء كانت تابعة لمسقط أو للبحرين • وكان هذا النوع من النشاط البحري معروفا في ذلك الوقت كوسيلة شرعية من وسائل العلاقات بين الدول التجارية غير المتعارفة • وقد أطلق الانكليز على هذه المغامرات اسم (القرصنة) ، وبعد القضاء على نابليون ، حملوا مؤتمر فيينة (١٨١٥) على اقرار بند بمكافحة القرصنة في جميع بحار العالم • وأطلق الانكليز كذلك على ساحل عمان هذا اسم ساحل القرصنة ثم ساحل الهدنة ثم ساحل المشيخات السبع •

---

(١) ينسب القواسم أو الجواسم الى الشيخ قاسم جد الشيخ راشد بن مطر شيخ قبيلة القواسم المشهور الذي كان مقره مدينة راس الخيمة . انظر خريطة امارات الخليج العربي في ملاحق الكتاب .

وكما أن الغزو والنزاع العشائري كان القاعدة في داخل شبه الجزيرة العربية ، كذلك كان الحال في الخليج ؛ تدهم كل قبيلة سفن القبائل الاخرى حفاظا على حياتها وبقائها • ومن الخطأ الاعتقاد بأن قبائل ساحل عمان كانت تصرف كل جهودها في هذا السبيل ، فانها كانت تتوفر على ممارسة الغوص على اللؤلؤ ، ونقل المتاجر على سفنها من افريقية الشرقية والهند • ويبدو ان القواسم الذين اشتد أزرهم بانتمائهم الى الدولة السعودية بعد انفصال الساحل عن مسقط ، صاروا يميلون الى التعرض لسفن التجار العمانيين الخاضعين لاسرة البوسعيد • واتسع نطاق عملياتهم ، فلم يجدوا حرجا في التعرض لسفن شركة الهند الشرقية ، حتى لا تحتكر وحدها تجارة الخليج • وقد ثبت ان ممثلي الشركة كانوا يتذمرون من منافسة التجار العرب لهم ، لذلك استغلت هذه الفرصة لتضرب النشاط التجاري العربي ، تارة باسم مكافحة (القرصنة) ، وتارة باسم مكافحة الرقيق ، ووجدت الشركة في حكام دويلات الخليج حلفاء طبيعيين ، تنطبق مصالحهم مع مصالحها ، للوقوف ضد سيطرة الوهابيين وحلفائهم القواسم •

وقد قدر أحد ضباط الاسطول البريطاني في الهند عدد سفن القواسم بثلاث وستين من الحجم الكبير ، ونمانمائة من الحجم الصغير ، كان بمقدورها أن تهاجم سفن السيد سعيد بن سلطان حاكم مسقط الذي حكم ما بين ١٨٠٦ — ١٨٥٦ ، ونصل غزواتها حتى سواحل الهند ، وقد تمكنت من بسط سيطرتها على أرجاء الخليج بساحليه العربي والفارسي • وقد اعترف اتشيسون وكيل الوزارة لحكومة الهند في الخارجية البريطانية ، بشدة مراسهم ونجاح مقاصدهم ، بقوله : « •• كانت السفن البريطانية إما تؤسر أو تجبر على الفرار طلبا للنجاة ••[١] » •

ولم تكن حكومة بومباي ترغب في صدام سافر مع الوهابيين ، رغم أنها سبق أن ساعدت في صد هجومهم على البحرين • ولكن حين توثقت العرى بين الوهابيين والقواسم ، تظرت بروح العداء الى هذه القوة العربية المتعاظمة برا وبحرا ، ومضت تتآمر عليها ، واستغلت عداء والي بغداد علي باشا للوهابيين للتوسط بينه وبين

---

(١) G. U. Aitchison - Collection of Treaties, Vol. X I, P. 198.

حاكم مسقط سلطان بن أحمد . ولكن هذا لقي مصرعه على يد القواسم وهو في طريق عودته من بغداد ، وأعقب ذلك وصول بدر بن سيف حليف الوهابيين الى كرسي الحكم في مسقط لبعض الوقت (١٨٠٥ ــ ١٨٠٦) فبدد احتمالات التحالف، ودفع بالانكليز نحو وضع خطة التدخل على أساس التحالف مع سلطان مسقط الجديد السيد سعيد بن سلطان الذي تولى الحكم في تموز ١٨٠٦ . وكان هذا قد مال الى سياسة الاستعانة بفرنسة أولا لأن حكومة بومباي رفضت التورط في المنازعات الداخلية في شبه الجزيرة العربية ، كما رفضت أن تمد حمايتها الى سلطنة مسقط تلبية لطلبه خشية تعرض السلطنة لهجمات السفن الفرنسية ، الامر الذي دعاه الى استئناف المفاوضة مع فرنسة أواخر سنة ١٨٠٧ وأوائل ١٨٠٨ . ولكن تطور الاحداث أكد له التفوق البريطاني في المحيط الهندي . وفي الوقت نفسه نجح الانكليز في ابرام تحالف مع فارس ، ولذلك اطمأنوا الى وجود حلفاء لهم بين القوى المحلية في الخليج(١) .

انجهت الحملة البحرية الانكليزية من بومباي الى مسقط في تشرين الاول ١٨٠٩ ، وتألفت من ثلاث سفن حربية ، وثلاث سفن أخرى مساندة، تحمل التجهيزات وبعد وقفة قصيرة في مسقط انضم السيد سعيد الى الحملة التي شنت هجماتها على مراكز القواسم ، ونزلت في مركز عملياتهم الرئيسي (رأس الخيمه) ليوم واحد ، وأصابت منشآته بضرر بالغ ، وعاد بحارة الحملة يحملون معهم ما نهبوه وسلبوه ، ويقدر بثروة كبرى باعتراف المؤرخ الانكليزي الرسمي للخليج (لوريمر) . وهكذا لم يكن ثمة فارق يذكر بينهم وبين القواسم ، الذين « يهددون » حرية الملاحة في المياه العربية والهندية .

وتوقف النشاط البحري للقواسم نحو ثلاث سنوات ، ليس فقط نتيجة للحملة الانكليزية المسقطية ، وانما أيضا نتيجة الجفوة التي ظهرت بين القواسم وسعود اثر استدعائه لزعيمهم سلطان بن صقر ، وتعيين ممثل للدرعية مكانه في ساعل عمان. ويبدو أن كلا من الدرعية وبومباي لم تكن راغبة في مواجهة مسلحة بينهما آنذاك .

(١) العقاد : التيارات السياسية .. ص ١٠١

ثم عاد القواسم الى (حياة الجهاد) كما كانوا يعتقدون ، أو (حياة القرصنة) كما كان يسميها أعداؤهم الانكليز ، والدويلات التجارية مثل عمان والبحرين ، في وقت زحت فيه الدولة السعودية تحت وطأة الحملة المصرية (١٨١١ ــ ١٨١٨) التي بعث بها محمد علي تلبية لطلب الآستانة • تعرض القواسم لسفن الدويلات العربية المحلية (١٨١٣) ثم وسعوا نشاطهم ليشمل السفن الانكليزية في المحيط الهندي ، وهاجموا سفينة انكليزية على بعد ستين ميلا من بومباي (١٨١٨) •

ومن الغريب أن تشهد هذه الفترة الدقيقة ، تفكك الاتحاد القبلي الكبير الذي وصل الى ذروة القوة بزعامة القواسم ، الى مشيخات صغيرة تمتد على سواحل عمان • ويبدو أن ذلك تم نتيجة التدخل السعودي الذي كان آنذاك حريصا على ألا يدخل في صراع مع الانكليز بسبب مهاجمة القواسم لسفنهم ، كما كان حريصا على ابعاد الدعم البريطاني لسلطان مسقط عدو الوهابيين • وحين هرب زعيم القواسم سلطان بن صقر من الدرعية ، والتحق بموطنه، لم يكن بمقدوره أن يستعيد زعامة الاتحاد القبلي ، ولذلك حصر نشاطه في الشارقة ، بينما استقلت فروع أخرى من القواسم في موانىء رأس الخيمة وأم القيوين والعجمان •• مكونة مشيخات جديدة على ساحل عمان •

ومن المؤكد أن هذا الصراع الداخلي بين القوى العربية في منطقة الخليج ، قد انعكس تأثيره السلبي بالتفكك والضعف على الجبهة العربية المناوئة لخطط الاستعمار البريطاني ، لا سيما بعد أن تفاهم ممثل الدرعية مع المقيم البريطاني في الخليج على أساس تسوية الخلافات بين القوى البحرية العربية وحكومة بومباي عن طريق المفاوضات (١٨١٥ ــ ١٨١٦) ، بشرط أن يرد القواسم ما غنموه ، وان يتعهدوا باحترام السفن البريطانية ، ولكن القواسم رفضوا الشرط الاول •

ووجدت حكومة بومباي البريطانية أن الفرصة مواتية لتوجيه ضربة قاصمة لنشاط القواسم ، بعد سقوط الدرعية ، وانهيار الدولة السعودية الاولى ، وذلك قبل أن يحل محمد علي محل الوهابيين في توحيد منطقة الخليج والحاقها بدولته التي تشكل خطرا جديدا على مصالح بريطانية وحليفها سلطان مسقط • ولذا بدأت توطد

نفوذها السياسي في سواحل الخليج ، للوقوف في وجه أي قوة جديدة تطل عليه •

رأت أن تحدد أهداف سياستها الجديدة في الخليج على أساس التدخل العسكري والسياسي ، بحسب المبادىء الثلاثة التالية (نيسان ١٨١٩) :

١ ـ احترام الاوضاع السياسية الداخلية في الخليج ، فلا تتدخل السلطات البريطانية لصالح أحد من الرؤساء الا بناء على طلبه ، وحينئذ تؤيد صاحب الحق المشروع •

٢ ـ عدم تشجيع السلطات البريطانية في الهند للاتراك العثمانيين على مد سيطرتهم الى منطقة الخليج ، بعد أن استولت الجيوش المصرية على نجد ، وجميع المناطق التابعة للوهابيين •

٣ ـ وضع أسس لضمان حرية الملاحة في الخليج ، وحق تفتيش السفن بالاتفاق مع القبائل العربية[1] ••

ظلت هذه المبادىء توجه السياسة البريطانية في الخليج لفترة طويلة ، واقترنت بالتنفيذ العملي حين سيرت حكومة بومباي في ٣ تشرين الثاني ١٨١٩ حملة كبيرة من ست سفن حربية تساندها سفن صغيرة ، تحمل ثلاثة آلاف بحار أكثرهم من الاوروبيين ، بقيادة الجنرال وليام غرانت كير ، وذلك ردا على الضربة القاسية التي أنزلها القواسم بالسفن البريطانية ، وغنموا منها الكثير في شتاء ١٨١٨ • وظهرت سفن الحملة أمام رأس الخيمة ، وظلت تقصف الميناء طوال ستة أيام حتى سقط بيد الغزاة ، بعد أن أظهر القواسم بسالة مشهودة في الدفاع عنه ، برغم عدم تكافؤ القوى ، وتبعته الموانىء الاخرى • وقد شاركت فرق سلطان مسقط في مهاجمة القواسم من الخلف[2] • وبعد أن صمد القواسم شهرين كاملين ، اضطر كبيرهم لتوقيع (معاهدة الصلح العامة) في مطلع سنة ١٨٢٠ ، وانضم شيوخ ساحل عمان وأميرا جزر البحرين الى هذه المعاهدة التي تسجل بداية ظهور النفوذالبريطاني

---

(١) العقاد : المصدر نفسه ، ص ١٠٨

(٢) Sanger, W. The Arabian Peninsula, N. Y. 1954 P. 172.

في الخليج ، واستمراره في تأييد نفسه طوال القرن التاسع عشر والنصف الاول من القرن العشريـــن •

فقد جعلت بريطانية من نفسها حكما في شـــؤون المنطقة ، تكرس استقـــلال الاطراف المتعاهدة سياسيـــا ، وتؤيد انفصـــال شيوخ وزعماء القـــوى البحريـــة العربية بعضهم عـــن بعض ، مستبدلة ذلك بالعلاقات القبلية الدمويـــة السابقة • واتسمت المعاهدة بفقدان عنصر التكافؤ بين الفريقين ليس فقط لاملائها من الغالب على المغلوب ، وانما أيضا لابرامها مع أشخاص أو شيوخ لا يحوزون تفويض غالبية قومهم ، وذلك من أجل اكساب الوجـــود الاستعماري صفة شرعية ، واخضـــاع المناوئين له ، وتجريدهم من أسلحتهم واخضاعهم لبريطانية • ونذكر فيما يلي بنود المعاهـــدة :

المادة ١ ـــ تمتنع الاطراف المتعاقدة عن جميع أعمال السلب والقرصنة في البر والبحر بصفة دائمـــة •

المادة ٢ : كل عمل من أعمال السلب أو القرصنة الذي يرتكب بصفة فرديـــة يعتبر ضارا بالانسانية ما دامت لا توجد أي حرب رسمية بين الحكومات •

المادة ٣ : تلتزم السفن التابعة للعرب الاصدقاء (بحكم هذا النص) برفع علم أبيض في وسطه مربع أحمر يكون رمزا لجنسيتها ، وشارة السلم فيما بين الشيوخ من جهة ، وفيما بينهم وبين البريطانيين مـــن جهة أخرى ، ولا يجوز لهـــا استعمال شعـــار آخر •

المادة ٤ : تسوي القبائل المسالمة علاقاتها الداخلية فيما بينها •

المادة ٥ : يجب على السفن العربية من الآن فصاعدا أن تكون مزودة بتصريح من رئيس المنطقة التابعة لها يسجل فيه اسم المالك وحجم السفينة وأسماء البحارة ، ويعين ميناء الخروج وميناء الوصول • واذا قابلت احدى هذه السفن سفينة بريطانية وطلبت منها اظهار سجلاتها وجب عليها تنفيذ هذا الطلب •

المادة ٦ : اذا رغب رؤساء العرب في ارسال ممثل عنهم بهـذه السجلات الى المقيم العام البريطاني في الخليج لتوقيعها ، جاز لهم ذلك تسهيلا لدخولهم الموانىء البريطانية ولعمليـات التفتيش ، ويشترط عرض السجـلات على المقيم البريطاني سنويـا •

المادة ٧ : اذا لم تكف قبيلة مـن القبائل عن القرصنـة ، وجب على القبائل الاخرى أن تجتمع للتفاوض في عمـل مشترك ضدها ، ويمكن اشتراك الحكومـة البريطانية في التسوية النهائية بعد توقيع العقوبة على القبيلة المذنبة •

المادة ٨ : ان قتل الاسرى بعد تسليم أسلحتهم يعتبر عملا من أعمال القرصنة ، ولا يمكن اعتباره عملا من أعمال الحرب المشروعة ، فاذا ارتكبت احدى القبائل هذه الجريمة اعتبر ذلك خرقا لمعاهدة الصلح ، ويجب على القبائل الاخرى محاربتهـا بالاشتراك مع بريطانية ولا يكف القتال الا بعد تسليم المذنبين •

المادة ٩ : ان خطف الرقيق من الساحل الشرقي لافريقية ونقلهم بعد ذلك فوق المراكب التجارية يعتبر عملا من أعمال القرصنة ، ويجب على العرب الكف عن ذلك •

المادة ١٠ : تستطيع السفن العربية التي تحمـل العلم الخاص بها الدخول الى الموانىء البريطانية ، وكذلك موانىء حلفاء بريطانية ، والتجارة فيها بكل حريـة ؛ واذا هوجمت احدى هذه السفن فان الحكومة البريطانية تنظر في ذلك •

المادة ١١ : تعتبر جميع شروط هـذه المعاهدة عامـة ، فيجوز لمـن شاء من الرؤساء العرب البحريين ، الدخول فيها بنفس الطريقة التي تعاقد بها الموقعون •

باشرت بريطانية أعمال الدورية لمراقبة شؤون الملاحة في الخليج بواسطة ست سفن خصصتها لهذه الغاية • كما كلفت المقيم البريطاني العام في بوشهر بـأن يخبر الرؤساء العرب البحريين ، أثناء زيارته للمنطقة ، بأن بريطانيـة تلتزم الحياد التـام بازاء ما يشجر بينهـم • وكلف كذلك بأن يستطلع مـا اذا كان هؤلاء الرؤسـاء يخضعون لسيادة دولة من الدول المجاورة كفارس ، أو عمان ، أو السعوديـة التي انبعثت قوتهـا مجددا •

وقد كتب المقيم العام البريطاني (ماك لويد) تقريره بعد قيامه بالزيارة المطلوبة (١٨٢٣) ، واقترح فيه حظر المنازعات البحرية بين الرؤساء العرب تحت ضمان بريطانية • وقد وجد هذا الاقتراح سبيله الى التحقيق بعد اثنتي عشرة سنة تقريبا ، أي سنة ١٨٣٥ ، لان بريطانية فضلت أن تصدر المبادرة في طلبه من الشيوخ العرب لكي لا تثير غضبهم • وفي غضون هذه الفترة تمسكت بأهداب الصبر ، ريثما تثبت أحداث المستقبل القريب ضرورة (الهدنة الدائمة) وجدواها بالنسبة لجميع مشايخ ساحل عمان المتصالح • فبريطانية تعلم جيدا أن فقر بلادهم التي لا تصدر شيئا الى الخارج — باستثناء اللؤلؤ — سيضطرهم الى معاودة غزو بعضهم لبعض ، بعد أن أصبحت التجارة ونقلها من الخليج واليه بيد بريطانية وحدها • وحسب بريطانية أن تنتظر مطمئنة حتى يلتمس منها الرؤساء العرب البحريون أن تتوسط لتجعل اتفاق الهدنة اتفاقا دائما لا موقتا ، وأن تأخذ على عاتقها ضمانه ، وذلك بعد أن يعاينوا الضرر الفادح الذي لا بد أن يلحق بهم نتيجة منازعاتهم واشتباكهم • فاتفاقيات ١٨٢٠ كانت تحظر هجوم العرب على السفن البريطانية ، ولم تقصد منع هجمات الرؤساء العرب بعضهم على بعض • وصح ما توقعته بريطانية ، ذلك أن الفترة التي مرت ما بين ١٨٢٠ و ١٨٣٣ شهدت تنافسا شديدا بين مشيخة الشارقة التي تدعي أنها وريثة دولة القواسم (الغافرية) ، وبين مشيخة أبو ظبي التي تتزعم قبيلة بني ياس (الهناوية) ويعترف لها المناصير أيضا بالولاء • فالشارقة في مسعاها لبعث دولة القواسم حاولت مد سيطرتها على واحة البريمي (١٨٢٦) فاصطدمت بسلطان مسقط السيد سعيد وبحلفائه من أبو ظبي •

وضغطت بريطانية على ممثل الشارقة للانسحاب من البريمي ، تلبية لطلب سلطان مسقط • وحين حاول هذا أن يستولي على البحرين (١٨٢٨) استنجد بحلفائه بني ياس ، فتقاعسوا • وكذلك حاول الفرس غزو البحرين فطلبوا من شيخ الشارقة أن يزودهم ببعض السفن ، فوافق الشيخ ، لأن الشعور القومي لم يكن واضحا آنذاك ، ولكن بريطانية عارضت ضم البحرين لفارس •

واضطربت شؤون الملاحة في الساحل المتصالح لمدة سنتين بسبب لجوء بني ياس

الى (القرصنة) ، على أثر اضطراب الوضع الداخلي في أبو ظبي بسبب اغتيال شيخها وتنازع أخويه على الحكم • وفرضت الوساطة العربية غرامة على مشيخة أبو ظبي ، ولكن رفضت قبيلة بوفلاسة أن تدفع حصتها من الغرامة ، وانسحبت الى دبي التابعة لها ، وباشرت تأسيس مشيخة جديدة فيها • واشتركت مع الشارقة بمحاربة أبو ظبي ومحاصرتها قرابة السنة ونصف السنة (١٨٣٣ ـ ١٨٣٤) ، فتعطلت أعمال الغوص على اللؤلؤ الذي يعتمد عليه السكان في معيشتهم ، ولحقت الخسائر الفادحة بأكبر قبيلتين في الساحل المتصالح وهما القواسم وبنو ياس ، وتدهورت أحوالهم المادية • وحينذاك اجتمع المشايخ عند المقيم البريطاني وتعهدوا بالحفاظ على السلام فيما بينهم أثناء موسم الغوص بين شهري تشرين الثاني وأيار • وقد طبّق نظام الهدنة للمرة الاولى في نهاية سنة ١٨٣٥ ، وجدد مفعوله سنة أخرى • وفي السنة التالية بادر حاكم الشارقة باقتراح جعل الهدنة على مدار السنة كلها لا في موسم الغوص فقط فوافق الجميع ، وظلوا يجددون تعهداتهم سنويا بالاتفاق مع المقيم البريطاني حتى سنة ١٨٤٢ • ولكن بريطانية رأت أن ترسيخ نفوذها وتنسيق سياستها حول الجزيرة العربية يقتضي منها جعل اتفاقية الهدنة اتفاقية دائمة ، لا سيما بعد أن تهدد نفوذ بريطانية بفعل مساعي محمد علي لاجتذاب امارات وشياخات الخليج للتحالف معه (١٨٣٩) ، وقد أوشك محمد علي أن يحقق غرضه لولا صلابة الموقف البريطاني الذي أحس بالخطر ، فسارع لاملاء ارادته ، وفرض نفوذه كما سنرى بعد قليل •

ذلك أن ادارة محمد علي في الاحساء ونجد وتوابعها ، كانت منذ مطلع العشرينات تتمثل تارة بالاحتلال الفعلي ، وتارة باستلام الجزية • وقد تمتع الحكم المصري عموما بسمعة طيبة ، وخاصة في جبل شمر والقصيم والاحساء • غير أن عودة ابراهيم باشا لمباشرة مهام جديدة في مصر وخارجها ، أدى الى اختلال الامور وعسف عساكره من الالبان والاتراك بالاهلين ، فانتشر الاضطراب واصطدمت القبائل مع الحامية المصرية في الرياض (١٨٢٢) عاصمة نجد الجديدة بعد تهديم الدرعية • ولقد أشرنا الى قيام تركي بن عبد الله وإحيائه تدريجيا للبيت السعودي ، بتأسيس الدولة السعودية الثانية (١٨٢٤) ، ثم اغتياله وصعود ابنه فيصل الى كرسي الامارة

في الرياض (١٨٣٤) • ونبذ فيصل شكليات الولاء لمحمد علي ، فقطع الجزية التي كان أبوه يدفعها للقاهرة[1] ، فغضب محمد علي ، وزاد في غضبه اعتقاده بأن حركة تمرد القبائل في عسير ، تستمد التأييد من نجد ، فتعرقل اخضاع عسير ، وتحول دون تقدم محمد علي الى اليمن التي بدأ يتطلع للاستحواذ عليها ، طمعا برسوم الجمارك الوفيرة في ثغورها ، وبمرابح زراعة البن واحتكار تجارته في أراضيها • صمم محمد علي على اخضاع فيصل وتولية أمير سعودي آخر مكانه ، وكلف بذلك خورشيد باشا أكفأ رجال محمد علي في الجزيرة • ونجح خورشيد في دحر فيصل وأرسله الى القاهرة (كانون الاول ١٨٣٨) ، وعين بدلا عنه خالد بن سعود الذي كان منفيا بمصر لثماني عشرة سنة خلت ، مع بعض أمراء البيت السعودي • ولم تنته مهمة خورشيد عند هذا الحد ، فقد كان لديه مهمة أخرى في منطقة الخليج ، تتلخص بالاتصال مع الامارات والشياخات العربية هناك ، في محاولة لاجتذابها الى صف محمد علي ، ولكنه اصطدم بمعارضة بريطانية شديدة •

وطبيعي أن تنزعج بريطانية من ظهور قوة محمد علي في منطقة الخليج مجددا ، بعد أن تعاظمت قوته واقترب من الآستانة نفسها ، وسيطر على معظم أقطار المشرق العربي ، وهدد بذلك خطوط الملاحة البريطانية التجارية الجديدة التي تصل الهند بأوروبة لا في البحر الاحمر فقط ، وانما أيضا في الخليج العربي•وها هي ذي الفرصة تسنح لمحمد علي حين يتمرد عليه أحد قواده (تركجه بيلمز) ، ويفر مع فرقته من الحجاز الى اليمن ، فيرسل وراءه حملة لتعقيبه ، فتحتل الساحل اليمني ، ثم تتقدم نحو داخل البر اليمني مستغلة ثورة قامت ضد الامام في تعز ، فيهرع اليها مشايخ البلاد والاهالي مرحبين بالحكم المصري (آب ١٨٣٧) • ألا يشكل الاحتلال المصري لليمن ، تهديدا خطيرا لخطط بريطانية الرامية منذ مطلع القرن الثامن عشر الى الاستحواذ على عدن والجنوب العربي لمنع خروج الفرنسيين بمصر من البحر الاحمر الى المحيط الهندي ؟•

Dickson, H. R. P. : Kuwait & her Neighbours, London 1956, P. 128.

ومحمد علي لا يريد اثارة مخاوف بريطانية ، فقد كان يبذل قصارى جهده لاقناعها بأنه لا يرغب في المساس بمصالحها في الجزيرة العربية والبحر الاحمر • واعتقد محمد علي أنه تمكن من تبديد مخاوف عدوته اللدودة ، بدليل انها أرسلت اليه خطابا بتوقيع الحاكم البريطاني في بومباي ، جاء فيه : « ان الحكومة البريطانية في الهند ترغب في تدعيم الصداقة والشعور الطيب بينها وبين الحكومة المصرية ، وأن يزداد التبادل التجاري بين البلدين، بما يعود بالفائدة على رعايا الحكومتين»[1]• وطلب الحاكم البريطاني أيضا من محمد علي السماح للانكليز باقامة محطة للفحم في جزيرة قمران الواقعة تحت حكمه تجاه البر اليمني ، لتزويد سفنهم بالوقود • فوافق محمد علي فورا ، وزاد اطمئنانه حين تلقى رسالة شكر من وزير الخارجية البريطانية ، ورأى فيها اعترافا رسميا بسيادته على الجزيرة والبر اليمني • بيد أن هذا « التفاهم » سرعان ما تلاشى ، لان بريطانية كانت تتخوف من إقدام محمد علي على احتلال عدن وموانىء الجنوب العربي ، فلفتت نظره الى خطورة مثل هذا العمل، ونفى محمد علي ذلك مؤكدا حسن نواياه ، غير أن بالمرستون وزير الخارجية كان يشك في صدق تأكيداته ، وبدأ يرقب حركات القوات المصرية سواء في اليمن بقيادة ابراهيم باشا يكن ، أو على ساحل الخليج بقيادة خورشيد باشا • وخشي من قيام محمد علي بغزو العراق[2] ، فأرسل يحذره من مغبة أي خطوة يتخذها لمد سلطانه على الخليج أو بغداد ، ويهدده بالتدخل العسكري •

وحين استقر الحكم المصري في تعز ، وأوشك امام اليمن أن يعترف بسيادة محمد علي ، ويفتح أبواب صنعاء لقواته بشروط مرضية ، بادرت بريطانية لاحتلال ميناء عدن في ١٩ كانون الثاني ١٨٣٩ بعد قصفها بمدافع الاسطول البريطاني ، مستغلة حادثة جنوح سفينة ، تحمل العلم الانكليزي ، بقرب ساحل عدن حيث تعرضت للنهب •

---

(١) انظر د. عبد الحميد البطريق « من تاريخ اليمن الحديث » ، القاهرة١٩٦٩، ص ٨٣ ــ ٨٤ (نقلا عن الوثائق البريطانية) .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٨٧ .

تذرعت بريطانيـة بهـذا الحادث لاحتلال عدن ، ثم الانطلاق منهـا لتوسيع نفوذهـا في الجنوب العربي ، وذلك في نطـاق مسعاها الدائب لإبعاد أي نفـوذ آخر عن سواحل الجزيرة العربية. وكان لا بد لبريطانية من احتلال عدن سواء برضى سلطان لحج الذي يحكم عـدن ، أو عنوة . وأنهى القائـد الانكليزي في عدن الى قائد القوات المصرية في اليمن نبأ الاحتلال الانكليزي لعدن ، وذلك بقصد تحذيره من التقدم نحو الجنوب ، ومواجهته بالأمر الواقع ، تمهيدا للقضاء على مشروعات محمد علي وآماله ، ثم ارغامه على الانسحاب لا من اليمن فحسب ، بل من الجزيرة كلها . وبدأ الاحتلال البريطاني من عدن يثير المتاعب أمام الحكم المصري في اليمن ، بتحريض مشايخ القبائل على عدم دفع الزكاة ، واستمالتهم بالخلع والهداياوالاموال، حتى تراجع القوات المصرية عن اليمن والجزيرة (١٨٤٠) .

وسارعت بريطانية لصوغ حلقة أخرى من خلقات ترسيخ نفوذها حول سواحل الجزيرة العربية ، فأبرمت معاهدة في نيسان ١٨٤٣ مع أمراء وشيوخ ساحل عمـان مدتها عشر سنـوات ، تنص على تحريم أي نشاط بحري مسلح تحت طائلة فرض العقوبة من جانب المقيم البريطاني العام في الخليج ، والتزم بهـا مشايخ القواسم (رأس الخيمة) وبنوياس (أبو ظبي) ، وبوفلاسة (دبي) وأم القيوين ، وعجمان . وكذلك نصت معاهدة ١٨٤٣ على أنه « في نهاية السنوات العشر ، يتعهـد الرؤساء العرب ببذل كل ما بوسعهم لمد هذه الهدنة أو جعلها دائمة ؛ فاذا لم يتفقوا فيما بينهم احتكموا الى المقيم العام ليجدد هذا العقد » .

وما زالت بريطانية تستخدم سلاح الترغيب والترهيب لدفع المشايخ الى عقـد اتفاقية السلام الدائمة ، لتقوى قبضتها على نواحيهم ، وتضمن اشرافا أقوى عـلى شؤونهم ، حتى استجاب هـؤلاء ووقعوا معاهدة السلام الـدائم في أيار ١٨٥٣ ، وهي الوثيقة التي نظمت أسس علاقات بريطانية بساحل عمان حتى قرب أيامنا هذه. وتعهد المشايخ فيها عن أنفسهم وعن حلفائهم باحترام الاتفاقيات الواردة في معاهدة ١٨٤٣ بصفة دائمة ، بالاضافة الى عبارة وردت في المادة الثالثة تقول : « اننا نوافق على أن تكون المحافظة على السـلام تحت اشراف بريطانية ، وهي التي تعمل عـلى

تنفيذ احترامه ، والله يشهد أنها خير ضامن لذلك »[1] وقد وقع حاكم الهنــد العام المعاهدة • وهكذا تحقق لبريطانية فصل منطقة ساحل عمان عــن العالم الخارجي ، خشية اتصالها بدولة كبرى تنازع السيطرة البحرية البريطانيــة • ولوحظ أن ذلك تم تدريجيا ، كما لوحظ أنه كلما كانت رقعة المشيخة أصغر ، كلمــا كانت مسارعتها نحو الحماية البريطانية أشد ، ومن هنا كانت منطقة ساحل عمان أول من لقي هــذا المصير ، خاصة وان مشايخها أدركوا أن ارتباطهم ببريطانية يضمن بقاءهم رؤســاء وحدات سياسية منفصلة • ويصدّ عنهم أطماع الدول المجاورة الكبرى التي تتربص بهم ، كالدولة السعودية الثانيــة التي سيطرت مجــددا على الاحساء والبريمي • وكان بمستطاعها في عهد فيصل بن تركي أن تمد نفوذها نحو ساحل عمان ، لــولا احتماء المشايخ بمعاهداتهم التي ربطتهم ببريطانية ، فرادى ومجتمعين • وكان فيصل قد فر من سجنه بالقاهرة (١٨٤٣) ، وعــاد الى الرياض ليحكم حتى سنة ١٨٦٦ • وتبلغ الدولة السعودية الثانية في عهده أوج القوة والاتساع • فقــد امتد سلطانها ما بين أطراف الحجاز وعسير والقصيم والاحساء والبريمي • ودانت لها كذلك امارة جبل شمر حيث كان يحكم آل الرشيد في حائل ، محسوبين على فيصل الذي نصب زعيمهم عبد الله بن علي حاكما عليها (١٨٣٥) • ولكن هــذا لم يلبث ، بتشجيع من أمير مكة الشريف محمد بن عون ، أن يعلن استقلاله (١٨٤٦) • وبعــد وفاته ، يتولى ابنــه الحكم مكانه ، ويسارع الى تقديم فروض الطاعة الى فيصل (١٨٤٧)• وتمر الدولة السعودية بدور ضعف شديــد اثر وفاة فيصل ، وتنازع أبنائــه على الحكم ، بينما تأخــذ امارة آل الرشيد بأسباب القــوة ، وتتطلع الى العثمانيين في العراق لمعونتها • وتسنح الفرص لهؤلاء كي يتدخلوا في شؤون الدولة السعودية ، بعد أن استنجد بهم أحد الاميرين السعوديين المتنافسين ، وسنرى أنهم يسارعــون الى تلبيته ، بقصد القضاء على الامارة الوهابية نهائيا ، ولا سيما بعد ظهور حركــة الاصلاح والتجديد في الدولة العثمانية ، وأخذها ببناء الدولة الحديثة ، وضمــان ربط الولايات بالعاصمة مباشرة •

---

(1) Aitehisen, op. cit., II, PP. 66-67.

مصر من تسوية ١٨٤١ الى الاحتلال الانكليزي (١٨٨٢) :

اتفقت انكلترة وروسية والنمسة وبروسية والدولة العثمانية على ابرام معاهدة لندن (تموز ١٨٤٠) لتسوية المسألة المصرية بين محمد علي والسلطان العثماني عبد المجيد . والحل الذي تضمنته المعاهدة هو ما نص عليه فرمان ١٣ شباط ١٨٤١ ، وبموجبه أعطي محمد علي وأسرته الحكم الوراثي في مصر ، بشرط أن تبقى مصر ولاية عثمانية . والحكم الوراثي كان على أساس الوراثة المباشرة للأكبر (الأرشد) من الذكور ، وهو منحة من السلطان مقيدة بشروط دفع الجزية والانفاق على الحرمين ، وسك النقود ، وعدد الجيش والخدمة العسكرية والتعيين في الرتب العسكرية . ونص الفرمان كذلك على تطبيق أحكام منشور كلخانة وسائر القوانين المعمول بها ، والتي سيجري العمل بها مستقبلا في ممالك السلطنة ، وجميع العهود والاتفاقات المعقودة بين الباب العالي والدول الاخرى . واختص الفرمانان المؤرخان في أيار وحزيران ١٨٤١ بترتيب الوراثة على نحو يجعلها محصورة في الأكبر (الأرشد) فالأكبر من ذرية محمد علي، على أن يصدر التقليد بالولاية دائما من الباب العالي . وبالنسبة للسودان ، نص فرمان شباط ١٨٤١ على تقليد محمد علي « ولاية النوبيا والدارفور وكردفان وسنار وجميع توابعها وملحقاتها الخارجة عن حدود مصر » ولكن بغير حق الارث أي لمدى الحياة فقط .

ويتضح من تسوية ١٨٤٠ – ١٨٤١ أن الدول الاوروبية نجحت في حل المسألة المصرية على النحو الذي يلائم مصالحها ، أي بابقاء مصر جزءاً من السلطنة ، وفتح أبوابها أمام التدخل الاجنبي . ويلاحظ أن بين ما طلب من مصر تطبيقه من العهود والاتفاقات المبرمة بين الباب العالي والدول ، نظام الامتيازات الاجنبية السارية المفعول في السلطنة ، وبفضلها تغلغل النفوذ الاجنبي فيها وفي ممالكها بشتى صوره وأشكاله . وسرعان ما تدفق سيل الاجانب من الاوروبيين طلبا للثروة ، ومعظمهم مغامرون انتهازيون أفاقون ، لاستغلال موارد البلاد وغصب حقوق أهلها ، بمساعدة قناصل دولهم ، بعد أن حال محمد علي دون

ذلك ، واستطاع في حياته أن يجنّب مصر شرورهم وويلاتهم . وهذه الشروط سرى مفعولها أيضا على السودان ، باعتباره من ممالك السلطنة ، وتوافد التجار الاجانب على أقطاره لجمع العاج ثم لجلب الرقيق ، ولم يكونوا كذلك من خيار القوم ، فاتسع نفوذهم بفضل الامتيازات والقناصل ، وضعفت سلطة الحكومة ما بين ١٨٤٠ ـ ١٨٦٠ ، وعمت الفوضى مجددا في السودان .

عاد محمد علي في أواخر أيامه الى الاسكندرية ، من رحلة زار فيها الآستانة (تموز ١٨٤٦) وعرج على بلدته قولة ، ونظرا لتدهور صحته ، تقلّد ابنه ابراهيم الولاية في تموز ١٨٤٨ ، ولكن المنية عاجلته في تشرين الثاني من نفس العام . فاستلم عباس الاول ابن طوسون الولاية (١٨٤٨ ـ ١٨٥٤) ، ولم يلبث محمد علي أن توفي في ٢ آب ١٨٤٩ .

عباس باشا :

تخوّف عباس من تزايد النفوذ الفرنسي الذي بدا بوضوح في أواخر سنوات محمد علي ، وبالمقابل عملت فرنسة بمعاونة عمه محمد سعيد للكيد له والتربص به لدى الباب العالي ، واتهامه بالاسراف والاستبداد والعجز . ووجدت الآستانة الفرصة المنتظرة لالغاء فرمانات ١٨٤١ واعادة مصر ولاية عادية ، وذلك عن طريق مطالبة عباس بتطبيق التنظيمات العثمانية في مصر . ورفض عباس على أساس أن تطبيقها يخل بممارسة سلطاته الداخلية ويجعله في مستوى الولاة العاديين . وهذا يناقض فرمانات ١٨٤١ التي منحته الولاية بموافقة الدول الاوروبية المعنية . والحق أن الاصرار على تطبيق التنظيمات في مصر ، كان معناه الغاء الباشوية الوراثية واستقلالها الداخلي . ولذا فلم يكن لعباس مناص من الاستعانة بانكلترة عدوة فرنسة ومنافستها على النفوذ في مصر ، برغم كراهيته للاجانب وخشيته من كل نفوذ أجنبي . ولكن بما أنه سبق أن رفض منذ نهاية عام ١٨٤٨ انشاء سكة حديدية للانكليز بين السويس والاسكندرية ، لتسهيل تجارتهم ونقل بريدهم مع الهند عبر الطريق البري المصري ، فقد سلّم بانشاء السكة المذكورة ، مقابل

تدخل انكلترة لصالحه لدى الآستانة • وتم ذلك بالفعل في آذار ١٨٥١ ، وفي أواخر العام نفسه ، زال الخطر عن الباشوية المصرية ، نتيجة سياسة التفاهم مع انكلترة التي اتبعتها فرنسة في عهد نابليون الثالث ، وامتد تأثيرها على تأييد انكلترة لعباس في الآستانة • وصدر فرمان الباب العالي بالموافقة على انشاء السكة الحديدية بشرط أن تبنيها الباشوية بنفسها ، ولا تستخدم السخرة فيها ولا تفرض ضرائب جديدة أو تعقد قروضا أجنبية بسببها • وأنشئت السكة الحديدية بين الاسكندرية والقاهرة عام ١٨٥٦ ، ثم بين القاهرة والسويس •

ولكن عباس باشا عاوده التوجس من تزايد النفوذ الانكليزي في مصر ، فلجأ الى تحسين علاقاته مع الآستانة ، وسارع لمعونتها حين أعلنت الحرب على روسية في حرب القرم (١٨٥٣) ، فأرسل اليها القوات البرية والبحرية والذخائر والاموال ، مدفوعا بالخوف من أخطار انهيار السلطنة وتقاسم الدول أملاكها ، واحتلال الانكليز لمصر نفسها • وبذلك استطاع عباس أن يتجاوز فترة الأزمات بسلام ، ويوصل مصر الى خلفائه دون مساس بامتيازاتها المكتسبة • ولكن عباس كان من المدرسة القديمة ، ويعتبر أكثر تركية من أبيه • وقد قلّت أهمية الجيش في عهده برغم اصطدامه مع الدولة العثمانية في أزمة التنظيمات ، وسرح الالوف من جنوده ، وأوقف العمل في بناء القناطر الخيرية ، واستند الى كبار الملاك من (العثمانلي) ، وألغى المدارس الحديثة ، واكتفى بمدرسة واحدة لا يدخلها الا نخبة مختارة من الاتراك • ومنع الترقية عن المصريين ، ولهذا تعتبر حركة عباس من هذه الناحية ردة وتقهقرا •

وتوفي عباس فجأة بقصره في بنها (١٣ تموز ١٨٥٤) اثر نوبة من الصرع أصيب به في سنواته الاخيرة •

سعيد باشا :

وخلفه عمه محمد سعيد باشا (١٨٥٤ ــ ١٨٦٣) ، بحكم نظام الوراثة • فالتزم نفس سياسة سلفه من حيث متابعة دعم السلطنة في حرب القرم ، حذر ضياع

الباشوية المصرية عند سقوط السلطنة ، اضافة الى اعتمـاده على مساعدة فرنسـة التي ساندته ضد عباس ، لقاء ثمن يماثل ما قدمه عباس لانكلترة ، وهو منح امتياز حفر قناة السويس ، الى صـديقه الفرنسي فرديناند دو لسبس (١٨٥٤) ، وبعـد ذلك بفترة ، ارسال (أورطـة) سودانيـة الى المكسيك ، تتحمل جوها الحـار ، وتخفف من خسارة الفرنسيين في حربهم لتأسيس امبراطورية تحت نفوذهم[١] ٠

وبخلاف عباس باشا ، كان سعيد متساهلا سخيا مع الاجانب ، في غير موضع للسخاء ، فقد أذعن لإلحاح دو لسّبس بشأن منحه امتياز شق القناة ، وصدّقـه حين زعم أن ذلك لن يكلفه الا التوقيع على العقـد ، لأن الشركة ستكون دوليـة تتكفل بكل النفقات واللـوازم ٠ على أن سعيـدا كان يرى أيضا أن بناء القنـاة سيجعله تحت ضمانة الدول ، ويجعـل مصر خالصة له ولذريته ، وان الاستقـلال عن السلطنـة سيحول دون وقوع مصر بيد أحدى الدول الطامعة في امتـلاكها ، وان فرنسة ستقف الى جانبه ضد نوايا السلطنة وتؤيد استقلاله عنها ، فضـلا عن أن القناة ، ستعود على مصر بتنمية ثروتها ومواردها ٠

ولكن المشروع لقي معارضـة انكلترة واستيـاء السلطنـة التي خشيت أن يؤدي الى خلق مستعمرة فرنسية على ضفتي القناة ، تهدد السيادة العثمانية عـلى مصر ٠ بيد أن الاعتماد على انكلترة وفرنسة كان ينطوي على خطر تغلغل النفـوذ الاجنبي والقنصلي الى مصر والسودان معا ٠ صحيح أنه لم يظهر أثر لهـذا النفوذ خلال عهد عباس باشا الذي منع قـدوم الاجانب الى مصر ، وطرد المئـات منهم ، وقد كانوا يلقون تشجيع محمد علي ، ويعملون في المعامـل والمصانع والادارات ٠ ولكن انقلب هذا الوضع في عهـد سعيد باشا ، وعاد التدخل الاجنبي في شـؤون البلاد ، نتيجة تسويـة ١٨٤٠ ــ ١٨٤١ التي وضعت مصر وملحقاتها تحت الوصاية

---

(١) محمد فؤاد شكري « مصر والسودان » الطبعة الثالثـة ، القاهرة ١٩٦٣ ، ص ٤٦ . أراد نابليون الثالث تأسيس امبراطورية فرنسيـة في المكسيك على انقاض الحكومة الوطنية هناك . وشاركت الاورطة السودانية (٤٥٣ جنديا) في هذه الحرب ما بين (١٨٦٣ ــ ١٨٦٧) .

الدولية • وحين عاين سعيد سوء تدابيرهم وخبث مقاصدهم في استغلال الامتيازات، حاول عبثا أن يحدّ من نفوذ قناصلهم ومحاكمهم القنصليـة التي كانت دائما تحكم لصالح رعاياها في دعاوى التعويض الاحتيالي المقامة ضد الحكومة ، بل وتشاركهم في تلفيق الدعاوى وتحديد التعويضـات • وعرف من هؤلاء القنصـل الامريكي والبلجيكي واتحـاد الهانسا (جزء مـن المانيا الشماليـة) واليونـاني والفرنسي والنمساوي • وكان ضعف سعيد في دحض ادعاءات الاجانب الجشعين بالتعويضات سببا مبدئيا في تأزم الاحوال المالية في مصر ، يضاف اليه شغفه بالجيش ومنشآتـه المكلفة ، وشراؤه القصور والاراضي الواسعة ، وتأخرت رواتب الموظفـين المدنيين والعسكريين لمدة عام أو أكثر ، واضطر سعيد لعقـد قرض في باريس بقيمـة ٢٨ مليون فرنك (تموز ١٨٦٠) ، تبعه عقد آخر في لندن (آذار ١٨٦٢) بمبلغ قيمته الاسمية ٣ر٣ مليون جنيه ، وقيمته الحقيقية ٤ر٢ مليون جنيه • وحين توفي سعيد ، كانت ديون مصر تقدّر بسبعة ملايين وأربعمائة الف جنيه استرليني ، ولكن الشعب برغم ذلك تمتع في نهاية عهده بالبحبوحة والوفرة الغامرة ، بعكس ما سيكون عليه حاله في عهد خلفه اسماعيل •

الخديوي اسماعيل (١٨٦٣ ــ ١٨٧٩) :

تولى اسماعيل بن ابراهيم بن محمـد علي مسند الباشوية المصريـة في دور يعتبر من أهم أدوار تاريـخ مصر في القرن التاسع عشر • ففي هـذا الدور الذي حكم فيـه اسماعيل استكملت مصر استقلالها الداخلي ، بعـد أن رفضت الدول المشتركـة في تسوية ١٨٤٠ ــ ١٨٤١ أن تنـال مصر استقلالها الكامل وتنفصـل عـن السلطنة ، وتجلى ذلك في تغيـير نظام الوراثة ؛ فقـد نص فرمان أيار ١٨٦٧ الموجّه من السلطان العثماني الى اسماعيل ، على أن تنتقل ولاية مصر وملحقاتهـا الى أكبر أولاده الذكور بطريق الوراثة بـدلا من القانون العثماني الـذي يقضي

(١) كانت زيارة اسماعيل الاولي للآستانة عام ١٨٦٣ بمناسبة تقليده ولاية مصر ، وقد ردّ السلطان عبد العزيز بزيارة مصر في العام نفسه ، وسار اسماعيل في ركابه .

بأن تكون الوراثة للأكبر (الأرشد) في الأسرة • وبعد حوالي عشرة أيام صدر فرمان آخر بانشاء (الخديوية المصرية) ، ومنح اسماعيل لقب (خديوي) وهي كلمة فارسية معناها الملك والوزير والسيِّد ، وذلك على أثر زيارته للآستانة وبذل الاموال والهدايا السخية لأولي الامر هناك ، وتلبيته طلب السلطان بارسال فرق عسكرية مصرية الى كريت لاخماد الثورة فيها • ووسع الفرمان حقوق مصر في ادارة شؤونها الداخلية ، ورخَّص لها أن تعقد مع وكلاء الدول الاجنبية وثائق خصوصية تتعلق بالجمارك وأجور الضبطية للرعايا الاجانب (بوليس الاجانب) ، والترانزيت وادارة البريد • وبرغم أن لقب (الخديوية) لم يحمل أية حقوق استقلالية لمصر عن السلطنة ، الا أن تغيير نظام الوراثة قد أعطى (الخديوي) امتيازا لا ينكر على ولاة وباشوات السلطنة العاديين • وعلى ذلك ، نظر اسماعيل الى لقب (الخديوي) على نحو مخالف لنظر الآستانة ؛ ومن هنا نشأ التناقض في السنوات القليلة التالية بين الباب العالي الذي يصرّ على عدم المساس بالحقوق السلطانية ، وبين اسماعيل الذي تطلع الى تحقيق استقلاله التام عن السلطنة • وتزايد التوتر بينهما مع اقتراب موعد افتتاح قناة السويس ، وقيام اسماعيل بجولة في اوربة لدعوة الملوك والرؤساء لحضور حفل الافتتاح ، تجاهل خلالها حدود تبعيته للسلطان ، فتضايق الباب العالي من مسلكه المستقل وعقد القروض الاجنبية ، ومن تعاظم حجم قواته العسكرية البرية والبحرية • ولكن سرعان ما التزم الخديوي حدوده ، بعد أن أفهمته فرنسة وانكلترة أثناء جولته الاوربية ، بأنهما لا تؤيدان نزاعه مع السلطان لأنه يلحق الضرر به وبأسرته • فانكلترة صارت تنظر الى مصر نظرة جديدة تستدعي بقاءها تابعة للسلطنة ، خاصة بعد شق قناة السويس (١٨٦٩) وبروز أهمية مصر كطريق للمواصلات السريعة بين انكلترة والهند ، وكونها مفتاح السيطرة في البحر المتوسط ، ومدخل التوسع الاستعماري الجديد في افريقية • الامر الذي جعل الاستيلاء على مصر ، حجر الزاوية في السياسة الانكليزية وقتذاك • ولتحقيق ذلك لم يكن بدّ من تثبيت نفوذ الباب العالي على مصر ، وإحكام قيود الوصاية الدولية عليها ، ثم

استغلال الأزمة المالية المتفاقمة للتدخل سياسيا في شؤونها ، وأخيرا بتمسك بريطانية بالفرصة لاحتلال مصر عسكريا •

وكانت نتيجة استياء الباب العالي أن أرسل الى الخديوي فرمانا مهينا (أيار ١٨٦٩) يحظر عليه عقد قروض جديدة بعد القروض الخمسة التي عقدها ما بين ١٨٦٤ ــ ١٨٦٨ وبلغت قيمتها الاسمية ٢٦ مليون جنيه والحقيقية ١٩ مليون جنيه ، كما يمنعه من بناء السفن الحربية الا بعد ترخيص من السلطان ، وتوجب عليه عرض ميزانية مصر العامة على الباب العالي ليعرف وجوه الدخل والصرف ، ومعنى هذا الاشراف على شؤون مصر المالية • ثم انفرجت الأزمة بعد وفاة عالي باشا الصدر الاعظم المتشدد (١٨٧١) ، وسفر الخديوي الى الآستانة ، واقناعها عن طريق الذهب والهدايا ، وخاصة للصدر الاعظم محمود نديم باشا • وصدر فرمان ايلول ١٨٧٢ الذي خوّل (الحكومة المصرية) الحق في عقد القروض الاجنبية ، وتبعه فرمان شامل صدر في حزيران ١٨٧٣ ، لتثبيت جميع الحقوق والمزايا والامتيازات السابقة الممنوحة لمصر وحكامها ، بحيث أصبح لها الحق في عقد القروض الخارجية وسن القوانين التي تفي بحاجة البلاد ، رأسا بدون استئذان السلطان ، وبشرط عدم الاخلال بمعاهدات السلطنة مع الدول • ومقابل ذلك زادت مصر الجزية التي تدفعها للسلطنة الى الضعف تقريبا • وبذلك لم يبق للسلطان الا سيادة اسمية لا تتعدى سك العملة باسمه ، والخطبة له على المنابر ، ودفع الخراج للآستانة ، وتمثيل مصر في الخارج بواسطة السفراء العثمانيين • وظل فرمانْ ١٨٧٣ بمثابة قانون مصر الاساسي حتى عام ١٩٢٣ حين تنازلت السلطنة عن حقوق سيادتها على مصر في معاهدة لوزان •

على أن النجاح الذي أصابه اسماعيل في ابعاد النفوذ العثماني عن مصر ، ترتب عليه آثار مباشرة ، تمثلت في تفاقم النفوذ الاجنبي في مصر ، وزيادة تدخل الدول في شؤونها ، كما سنرى بعد قليل في عرضنا للأزمة المالية • ولكن التوفيق لم يحالفه حين التفت بعد ذلك الى حل مشكلتين خطيرتين هما الحدّ من مساوىء النفوذ والقضاء القنصلي الناجم عن الامتيازات الاجنبية ، ومعالجة مشكلة المواصلات المائية العالمية الناتجة عنْ فتح قناة السويس •

برزت خطورة الامتيازات الاجنبية بعد أن رجح ميزان القوى لصالح الدول الاوربيــة ، وظهرت مساوئها بوضوح حــين تكاثر عــدد الوافدين الاوربيين الى أقطار الشرق العربي لمباشرة أنواع من النشاط المحظور عليهم قبيــل القرن التاسع عشر • فقــد استغل الاوربيون ضعف السلطنة لتفسير الامتيازات حسب مطامعهم وأهوائهم لإلحاق الاجحاف والغبن بالرعايا الوطنيين ، ولحماية اقتصادياتهم وتوطيد قوتهم في البلاد[1] • وقــد تدفق الاجانب على مصر في أيام محمد علي على نحــو غير مسبوق ، فكان منهم الموظفون والتجــار والمعلمون والصحفيون واللاجئون ، وأصحاب المصانع والمصارف والمدارس والمشافي وملاّك الاراضي والعمــارات •• وأصبح لهم شأن في مصر لم تعرفه من قبل ، ولم ير الباشا في وجودهــم مشكلة ، اذ اعتقد أن سطوته الشخصية تغني عن وضع اتفاقات دولية جديدة تنطبق عــلى القرن التاسع عشر لا على القرن السادس عشر ، كما أن نظام الاحتكار الــذي سار عليــه طوال عهده تقريبــا ، كان قيدا شديدا للنشاط الاجنبي في مصــر • ولكن تساهل خليفتيه سعيــد واسماعيل مــع الاجانب ، شجعهم على التــدفق الى مصر واستيطانها لمدد طويلة ، حتى تجاوز عــددهم السبعين ألفا عام ١٨٧٨ مقابل ثلاثــة آلاف عــام ١٨٣٦ • فقد عرّف عن سعيــد انقيــاده في غير تبصّر لأي مشــروع يطرحونه عليــه ، وأثر عنــه استسلامه لقناصلهم واعترافــه لهم بمــا ليس مــن حقوقهم • كما أدت مجاملــة اسماعيــل للقناصل ، طمعا في دعم دولهم لــه ، الى تجاوزهم على سيادة الحكومة ، وإغداقهــم الحماية حتى على الرعايــا الوطنيين ، وانتزاع اختصاصات جديدة لمحاكمهم القنصلية ، كسلطة الفصل في القضايــا التي يرفعها الاجانب على الوطنيين ، بــل وعلى الحكومــة المصرية ، واصــدار أحكام محابية لرعاياها • وكان لا بد أن يتعــذر تحقيق العدالــة والمساواة في بلد كمصر يضم سبع عشرة محكمة قنصليــة ، وتتمتع بامتيازات دولها من حيث عــدم مثول رعاياها أمام المحاكم الوطنية ، وعدم خضوعهم لتفتيش منازلهم مــن قبل السلطات المحليــة • وحين اعتزم اسماعيــل الحدّ من مساوىء النفــوذ القنصلي ، تبنّى

(١) انظر ص ١٢ ــ ١٣ من الكتاب .

مشروع وزيره الأرمني نوبار باشا ، القاضي بضرورة الغاء المحاكم القنصلية ، وابدالها بمحاكم مختلطة تفصل في القضايا المتعلقة بالاجانب ويشترك فيها قضاة مصريون وأجانب • وأرسلت مذكرة بهذا المعنى الى الدول السبع عشرة عام ١٨٦٧، ولكن فرنسة التي تعتبر نفسها الراعي التقليدي للامتيازات ، رفضتها كليّة • وتعثرت المفاوضات وطال أمدها الى أن قبلتها الدول عام ١٨٧٣ ، وتبعتها فرنسة في العام التالي ، نظرا لتزعزع مكانتها بعد هزيمتها في حرب السبعين • وأدى افتتاح المحاكم المختلطة عام ١٨٧٦ الى تنظيم القضاء القنصلي ، ولكن بما أن الفلاحين المصريين لا يعرفون القوانين الجديدة النافذة في تلك المحاكم ، ولا يلمون بلغاتها الاجنبية الثلاث ، فقد أصبحوا فريسة للابتزاز على أيدي المرابين الاجانب • بل ان الخديوي وأسرته تعرضوا لأحكامها في القضايا المتصلة بالرعايا الاجانب ، وذلك حين أصدرت ضده أحكاما جائرة لصالح الدائنين الاجانب ، عندما ارتبكت أحواله المالية •

شهد النصف الاول من القرن التاسع عشر تعاظم أهمية مصر ، كطريق حيوي للمواصلات بين الشرق واوربة ، وبشكل أخص بين الهند وبريطانية ، فقد اتضح أن الرحلة بين لندن وبومباي تستغرق شهرا واحدا ، بينما عن طريق الرجاء الصالح تستغرق ثلاثة شهور ، وثبت أن الطريق المصري عبر البحر الاحمر أنجع من بديله الطريق البري عبر سورية الشمالية ونهر الفرات والخليج العربي • وحين منح سعيد امتياز حفر قناة السويس الى دولسبس في ١٥ تشرين الثاني ١٨٥٤ ، شعرت الحكومة البريطانية المسيطرة على معظم المواصلات العالمية ، بأن المشروع يهدد الطريق البري المصري ، فعملت على محاربته في الآستانة التي لم يكن بدّ من الحصول على مصادقتها • وحين أقرت لجنة دولية من الخبراء في مطلع ١٨٥٦ امكانية وصل البحرين ، وسلامة المشروع من النواحي العملية والفنية ، أصدر سعيد امتيازا مفصّلا الى دولسبس ، وافق فيه على قانون الشركة ، وأهم ما ورد فيه تعهد الباشا عن نفسه وعن خلفائه بأن تكون القناة حرة لعبور جميع سفن العالم التجارية ، بشرط دفع الضريبة المفروضة ومراعاة القوانين ، وأن يسري الامتياز لمدة ٩٩ عاما من افتتاحها ، وبعدها تؤول ملكية القناة الى الحكومة

المصرية . وأن يتعهد سعيد بتقديم أربعة أخماس الايـدي العاملة اللازمـة لحفر القناة ، وأن يكون لشركة القناة الحق في حفر ترعة للمياه العذبـة من النيـل الى موقع القناة ، مع حق امتلاك الاراضي اللازمة على ضفتي القنـاة ، وحق استـيراد ما يلزم الشركة مـن أدوات وآلات دون رسـوم جمركيـة . وحدّد للحكومـة المصريـة نسبة ١٥ ٪ من صـافي الارباح الناتجة عـن رسوم المرور ، والمقـدّرة بعشرة فرنكات عـن كل مسافر وكـل طن شحن (زيدت هـذه الرسوم أربعـة فرنكات عـام ١٨٧٤) . وأعلن دولسبس قيـام الشركـة البحرية الدولية لقنـاة السويس برأسمال قدره مائتا مليون فرنك موزعة على أربعمائة الف سهم ، اشترت منهـا فرنسة (٢٠٧١١١) سهما أي ما يعادل ٥٢ ٪ من الاسهم ، واشترى سعيـد باشا ٦٤ الف سهـم اضافة الى ١١٢ ألف سهـم ، هي ما تبقى من الاسهم بعـد توزيعها ، سجلها دولسبس على اسم الباشا ليكسب الشركة مركزا سياسيـا وماليا أكبر من حقيقتها ، واضطر الباشا لعقد قرضين خارجيين عام ١٨٦٠ و ١٨٦٢ ليدفـع ثمن الاسهم (٨٨ مليون فرنك) وكان ذلك فاتحة الأزمـة المالية . أي أن الباشـا سدّد قرابة نصف رأسمال الشركة (٤٤ ٪) ، اضافة الى تعهـده بامدادها بالميـاه العذبة ومقالع الحجارة ، وأهم مـن ذلك ، بالايدي العاملة المصريـة التي لا تقـل عن عشرين الف رجل يوميا ، والتي كانت تحتمل شروط العمل الشاقة وتعـاني من الحمّى وقساوة المناخ والجوع . فضلا عـن حق الشركة في انتزاع ملكية الاراضي التي تحتاجها على ضفتي القناة لاستغلالها واقامة المباني عليها . فاذا أضفنـا الى هذا أن المتعهـدين والمقاولين استولوا على أجور العمـال المتفق عليها ، والمحـددة بقرش واحد للعامل يوميا كأجرة وبـدل طعام ، أدركنا أن القناة في واقـع الامر ، انما قامت على أعمال (السخرة) والعمل الجبري المجاني المصري .

انزعج سعيد باشا من تصرفات دولسبس ، ورفض الاعتراف بمشروعية عملـه والسماح بمباشرة الحفر ، فلم يكترث دولسبس ، بل أعلن في ٢٥ نيسـان ١٨٥٩ بدء العمـل في شق القناة . وانتقلت المعركـة الدبلوماسية الى الآستانة لتحتـدم بين فرنسة المؤيدة للمشروع ، وانكلترة المعادية له . وضغطت انكلترة على السلطان كي يمتنـع عن اقرار قانـون امتياز الشركـة . ولم يلبث البـاب العالي أن أعلن

أن منـح الامتياز لم يكن من صلاحيـة باشا مصر ، وطالب بالغائه ، فظهرت أزمة هـددت بتعطيل المشروع • ولكن سعيدا مات في كانون الثاني ١٨٦٣ ، وخلفـه اسماعيـل الذي لم يكن يعارض المشروع ، وانمـا كان يستنكر شروط الامتيـاز السخية والتنازلات التي منحت الى دولسبس ، ولا سيما في موضوع ترعة الميـاه العذبـة ، وموضوع تزويد الشركة بالايدي العاملة المصرية التي تحتاجها عمليات الحفر والبناء والتي من شأنهـا أن تؤثر على الاقتصاد الزراعي في مصر ، وتحرمه من نتاج عمل الالوف من الفلاحـين[1] • واقترح اسماعيل استرداد امتيـاز حفر ترعـة المياه العذبة ، مع جميع الاراضي الواقعة على ضفتي القناة ، وبرهن عـلى حسن نواياه بشراء الاسهم التي فرضها دولسبس على سعيد باشا • ولكن الأزمـة لم تجد حـلا سريعا ، وتدهورت أحوال الشركة ، وتوقفت عن العمل • فأحـال دولسبس النزاع بـين اسماعيل والشركـة الى التحكيم ، واختير نابليون الثالث ليفصل في النزاع ، فصدر حكمه بعد فترة من الوقت ، وكان بالغ التّحيز والقسوة• فمقابل تلبية طلب الخديـوي اسماعيل ، تحريم أعمـال السخرة في شق القنـاة ، واسترجاع الاراضي الصحراوية التي كانت الشركة قد حصلت عليها دون مقابـل ، على جانبي القناة ، فرض الحكم « غير المتحيّز » على الخـديوي أن يدفع غرامـة قدرها ٨٤ مليون فرنك (٣٦ر٣ مليون جنيه) الى الشركة • وبعـد دفع الغرامة ، تحسنت مالية الشركة ، فتابعت العمل ، واستخدمت الآلات والروافـع المخترعـة حديثـا بدل العمل اليـدوي • ومارست فرنسة الضغط عـلى السلطان فأرسـل فرمان الموافقة على شق القنـاة (آذار ١٨٦٦) ، وكان قد مضى سبع سنوات على مباشرة العمل فيها ، مع بعض البطء الناجم عـن المصاعب السياسية التي صادفتها الشركة • ثم تقدم العمل بسرعة بفضـل الحفارات الميكانيكية الحديثة • وحـدّد يوم ١٧ تشرين الثاني ١٨٦٩ موعدا لافتتاح القنـاة ، باحتفال فخم قصـد منه أن يظهر الخديوي كواحد من أعظم ملوك العالم في أعين مدعويه من المـلوك والامراء الاوروبيـين •

---

(١) Holt, op. cit., P. 200

وكان على اسماعيل أن يعقد قروضا جديدة ، وبشروط مجحفة ، ليدفع الغرامة التي فرضها عليه نابليون الثالث ، وليسدّد نفقات الاحتفال بالقناة ، وقد تجاوزت المليون جنيه ، وسوى ذلك من وجوه الانفاق المختلفة • وكان طموحا لإيصال مصر الى مصاف الدول الاوربية الراقية • ونتيجة اعجابه بالحضارة الاوربية وتوقه للسير على نهجها ، تولد عنده شعور بالعظمة ونزوع لتقليد ما هو غربي • ولقد أورثه هذا نزوعا الى الاستبداد والاسراف ، فكبّل مصر بقيود الديون والتبعية ، وأصاب شعبها بالعوز والفاقة • وكان اسماعيل في البدء مقتصدا لا يهتم الا بأراضيه ومزارعه الواسعة التي جنى أرباحا طائلة من زراعتها بالقطن ، وخاصة في فترة انحباس تصدير القطن الامريكي الى انكلترة والاسواق الاوربية بسبب الحرب الاهلية الامريكية (١٨٦١ ــ ١٨٦٥) ، وتضاعف سعر القنطار من القطن المصري أربع مرات تقريبا ، كما تضاعفت الكميات المصدرة منه بنفس المقدار ، فوصلت الى مليون قنطار • وسارع الفلاحون والملاّك والتجار لزراعة القطن والافادة من مرابحه المجزية • وساد البلاد فترة من اليسر والرخاء لم تلبث أن انصرمت ، مع نهاية الحرب الاهلية الامريكية عام ١٨٦٥ ، وعودة القطن الامريكي الى أسواق التصدير • وترتب على ذلك هبوط سعر القطن المصري هبوطا شديدا ، ظهرت آثاره في تردّي أحوال الفلاحين واضطرارهم لمواجهة الخيار الصعب : الاستدانة من المرابين وكبار الملاّك ومشايخ البلد لسداد الضرائب وفوائد الديون • أو بيع أرضهم وهجرها لفداحة ضرائبها • واستفاد شيوخ البلد من الأزمة المالية القائمة ، لإقراض الفلاحين أو شراء أراضيهم ، فانتقلت مساحات واسعة من الارض الى أيديهم • وساهم ذلك مع اجراءات القرعة العسكرية وأعمال السخرة في زيادة الهجرة من الريف وافقاره •

ولتلافي الخطر الذي يهدد اقتصاد البلاد والمتمثل في انهاك الارض الزراعية بزراعة غلة واحدة هي القطن ، سارع الخديوي الى زراعة قصب السكر ، فعوّض بها خسائره من القطن جزئيا • ولكن مصانع السكر التي أقامها لم تحقق نجاحا يذكر ، بسبب سوء الادارة والاختلاس والتبديد والمنافسة في أسواق التصدير • ويبدو أن أرباح المشاريع لم تكف لتحسين وضع اسماعيل المالي ،

فتشدّد في جمع الضرائب المقررة على الارض الزراعيــة ، وعلى الاملاك والرؤوس وما اليهــا ، ولكن مواردها عجزت عــن الوفاء بديونه للاجانب ، أو سد حاجـات الدولة اليوميــة . فلجأ الى القروض الداخلية من أهالي البلاد ، وأصدر عام ١٨٧١ قانون المقابلة ، ويقضي بأن يدفع الاهالي الضرائب المربوطـة على أطيانهم سلفـا ، ولمدة ست سنوات ، في نظير اعفائهــم على الدوام مــن نصف الضريبة المطلوبـة ، وبشرط عدم زيـادة هـذه الضرائب المنتقص منهـا ، أو مطالبتهم بالمساهمــة في في قروض أخرى الا بموافقة مجلس شورى النواب الذي تأسس منذ عام ١٨٦٦ .

وأقبـل كثير من الملاّك على دفع (المقابلة) الذي كان اختياريا في البـدء . ثم أصبح اجباريا ، وقدّر مجموع ما جمعه قانون المقابلة بمبلغ ١٥ مليون جنيــه . ولا شك أن دفع (المقابلة) ألحق ضررا بالغا بالمالية المصرية ، لأن الحكومة بموجبه تضحي سنويا بنصف ضريبة الاراضي وتقرب من مليوني جنيه سنويا . وممـا يجب ذكره أن (المجلس الخاص) الذي كان الخديوي يدعوه للتداول في شؤون الدولة ، ويتألف مــن النظار (الوزراء) والباشوات ، أرفق بمشروع (المقابلة) تقريرا في آب ١٩٧١ ، جاء فيــه : « غير أن الوصول الى اكتشاف الـدواء يستلزم معرفـة الداء . فأين هو الداء ؟ ان الـداء في سعر الفوائد المرتفـع التي تدفعها حكومـة سموّكم ، والتي تبلغ وحدها أكثر من نصف الايرادات العمومية»[1]، أي أن ارتفاع الفائدة التي أصر عليها الدائنون الاجانب ، كان السبب الاساسي في الارتباك المالي الراهــن . وابتدع وزير المالية اسماعيل صديـق المعروف بالمفتش ، قرضا أهليـا آخر يعرف بقرض الروزنامة (١٨٧٤) ، ويقضي بأن يــودع الاهالي أموالهــم في مصلحة (الروزنامة)[2] بربح مقداره ٩ ٪ . ولكن هـذا القرض لم يلق النجاح المرتقب ، وكل ما جمعه لا يتجاوز ١ر٨ مليون جنيــه استولت عليهـا الحكومة ، ولم تلتزم بدفـع أرباحها بانتظام . وانكشف مدى العجز المالي الـذي عانت منه

---

(١) شكري ، المصدر نفسه ص ١٤٣ .

(٢) الروزنامة مصلحة حكومية يودع فيها الاهلون أموالهم بشكل امانات تتصرف فيها الحكومة مقابل دفع معاشات للمستحقين .

المالية ، حين وضعت يدها على خزائن الدولة ، وعلى الاموال المودعة في خزائن الاوقاف للأغراض الدينية والخيرية •

وفي عام ١٨٧٣ عقد الخديوي مع بيت اوبنهايم [1] المالي القرض المعروف بالقرض المشؤوم ، وقدره ٣٢ مليون جنيه ، بفائدة ٧ ٪ ، وذلك بحجة دفع جزء من ديون مصر • فكان هذا القرض وبالا على الحكومة ، اذ لم يصلها منه فعلا ، الا ٢٠٫٧٤٠٫٠٧٧ جنيها ، أي بنقص ٣٧ ٪ من قيمته الاسمية ، بسبب تكاليف القرض من نفقات وخصم وسمسرة ، وبسبب هبوط قيمة السندات المالية التي دفعت ضمن القرض ، بحيث لم تتسلم الخزانة المصرية من القرض نقدا الا ١١ مليون جنيه • في حين التزمت مصر بسداده من ايرادات السكك الحديدية وجزء من الضرائب ، وعوائد الملح ••

لقد هبطت قيمة السندات المصرية في أعقاب اعلان الباب العالي (٤ تشرين الاول ١٨٧٥) بأن نصف الفائدة المستحقة على الدين العثماني العام وقسائم (كوبونات)[2] استهلاكها ستدفع نقدا لمدة خمسة أعوام اعتبارا من مطلع عام ١٨٧٦ • وان النصف الثاني سيستلمه الدائنون على شكل سندات على الخزانة العثمانية بفائدة ٥ ٪ • وكان معنى هذا افلاس الحكومة العثمانية • ولما كانت مصر مرتبطة بالسلطنة ، فقد استبد القلق بدائني مصر ، خشية أن يقتدي اسماعيل بالسلطان عبد العزيز ويعلن افلاسه • فتزعزعت الثقة بالخديوي ، وهبطت أسعار السندات المصرية ، وتدهورت الحالة المالية الى أدنى درجة ، وامتنعت المصارف عن تسليف الخديوي ، فاضطر الى مفاوضة مصرف فرنسي لاصدار سندات على المالية بضمان أسهم الحكومة في قناة السويس ، وعددها حوالي ١٧٦ ألف سهم • وحذر لورد دربي Derby وزير الخارجية الانكليزية من تورط فرنسة في القناة التي

---

(١) هيرمن اوبنهايم بروسي الاصل يحمل الرعوية الانكليزية ، ويملك مصارف في باريس والاسكندرية ، وعلى صلة وثيقة بالبيوت المالية في لندن .

(٢) الكوبون قسيمة مرفقة بكل سهم أو سند ، تقدم عند موعد دفع الارباح والفوائد وتنفصل للاحتفاظ بها بعد دفعها .

تفوق المصالح الانكليزية فيها مصالح الدول الاخرى ، وفي أقل من أسبوع تمكن دزرائيلي رئيس الوزارة وزعيم المحافظين من شراء الاسهم ، بعد أن حصل على ثمنها من بنك روتشيلد ، ووافق البرلمان على هذه الصفقة التي تمت أثناء العطلة البرلمانية ، وقبض الخديوي ثمنها ٣ر٩٦٧ر٥٨٣ جنيها ساعدت على تأجيل الانهيار المالي مؤقتا .

حاول الخديوي اصلاح وضع البلاد المالي ، فطلب من انكلترة مساعدته لفحص المالية المصرية ، بارسال اثنين من الموظفين يشرف أحدهما على الايرادات والثاني على المصروفات . ولكن انكلترة بدلا منهما أرسلت بعثة كاملة برياسة كيف Cave عضو البرلمان وعضو مجلس الملك الخاص ، لاجراء تحقيق دقيق عن حالة مصر المالية ! وجاء في تقريرها المنشور في نيسان ١٨٧٦ أن جشع الممولين الاجانب تسبب في ارباك المالية ، اضافة الى الاسراف في انفاق مبالغ باهظة للاسراع في اقتباس الحضارة الغربية . وان التكاليف الحقيقية لكل قرض مصري لم تقل عن ١٢ ٪ سنويا ، ومنها ما بلغت ٩ر٢٦ ٪ ، وأن هذا الجشع ظهر في جميع الديون . وفي نيسان ١٨٧٦ أوقف الخديوي دفع أقساط الديون موقتا ، فانتشر الذعر في الاوساط المالية الاوربية ، ورفع المولون والمرابون عقيرتهم بالتهديد والوعيد ، فسعى الخديوي لتهدئة الخواطر بتوحيد ديون الحكومة في دين موحّد قدره ٩١ مليون جنيه يسدد في ٦٥ عاما بفائدة ٧ ٪ ، وبانشاء (صندوق الدين العمومي) من مندوبي الدول الدائنة ، ومهمته استلام ايرادات الجمارك والسكك الحديدية ودخل أكبر مديريات القطر ، ضمانة لتسديد أقساط الدين .

وشكا الدائنون الذين تضرروا من توحيد الديون وجاءت بعثة تشلهم مؤلفة من كوشن Goschen الانكليزي وجوبير Joubert الفرنسي ، وطلبا من الخديوي فصل بعض القروض عن الدين الموحد ، لتؤلف بمفردها دينا ممتازا ، يكون دخل السكك الحديدية وميناء الاسكندرية ضامنا لسداده ، كما طلب فرض الرقابة الثنائية (الانكليزية الفرنسية) على المالية ، مع الابقاء على صندوق الدين ، وتشبثا بأن يكون سعر الفائدة ٧ ٪ وليس ٥ ٪ كما اقترح الخديوي . وبذلك

اشتـد ضغط الحكومة على الفلاحـين ، وبخاصة في موعد دفع أقساط الديون ، للحصـول على الضرائب الفادحة في سنـة انخفضت فيها مياه النيـل ، وهلكت المحاصيل بفعل برد الشتاء القارص ، وتكبدت البلاد خلالها نفقـات اضافية نتيجة اشتراك القوات المصرية مع السلطنة في الحرب ضد روسية (١٨٧٧ ــ ١٨٧٨)[1] •

وظهرت الأزمـة مجـددا حين أثارت الجاليـات الاجنبيـة ، وخاصـة في الاسكندرية ضجة كبيرة لظنهم بأن الخـديوي يخدعهم بادعاء العجز عن الـدفع ، بينما تملك مصر والخديوي ما يكفي لسداد الدين المطلوب • وتحت وطأة الضغط الفرنسي الانكليزي الذي وصل حد التهديد بالقضاء على الخديوية نفسها ، رضخ الخديوي ، ووافق على تشكيل لجنة تحقيق دوليـة في مطلع عام ١٨٧٨ • وضمت اللجنة مندوبي الدول في صندوق الديـن ، ومعنى هـذا أن الدائنين هم الـذين تولوا التحقيق مع خصمهم الخديوي ، وكان بينهم من لا يحفظ الودّ له • وأثارت اللجنة غضب المصريين حين أظهرت سلطتها على الادارة الوطنية ، وأصرت عـلى استجواب من تشاء مـن الموظفين في الثغور والاقاليم ، وبينهـم شريف باشا وزير الحقانية (العدليـة) والخارجية الذي رفض المثول أمام اللجنة • وعنـدما أصرت اللجنة على استجوابه ، في محاولة سافرة لإحراج الخديوي ، قدّم شريف استقالته • وأشار تقرير اللجنة الى كثرة نفقات الخـديوي الشخصية ، ووجوب الفصل بـين أمواله وأموال الحكومة • كما أشـار الى فساد ذمم المتعهدين الاجانب وجشـع المرابين والممولين • وأوصت بأن يتنازل الخـديوي وأسرته عن أملاكهم في نظـير رواتب سنوية معقولة ، وأن يتنازل أيضا عن سلطته الشخصية المطلقـة الى وزارة مسؤولة • وأغفلت اللجنة أية اشـارة الى فائدة الدين المرتفعة ، والضرر الفـادح الذي يلحـق بمصر واقتصادها نتيجة وجـود أكثر من مائـة ألف أوربيْ مقيم في مصر ، يعملون في التهريب والنهب والتجاوز ، مستفيدين من حماية الامتيـازات ،

---

(١) ارسلت الخديوية المصرية الى البلقان (١٨٧٦) تسعة آلاف جندي لمساعدة السلطان في اخماد ثورة البوسنة والهرسك ، ثم ارسلت حملة اضافيـة تضم ٦ ــ ٧ آلاف جندي علي سفن تركية ، في حزيران ١٨٧٧ لمساعدة السلطان في حربه ضد روسية.

وهم بالمقابل لا يؤدون للخزانة قرشا واحدا • كذلك لم يتضمن تقرير اللجنة اشارة الى تدفق الموظفين الاوربيين ذوي الرواتب الضخمة الذين زاد عددهم على الثمانمائة •

أذعن الخديوي لتوصيات اللجنة ، وتخلى عن جزء كبير من أملاكه ، ثم جاءت الخطوة التالية حين اتفقت انكلترة وفرنسة على تشكيل وزارة مختلطة في مصر ، يدخلها وزيران اوربيان ، أحدهما انكليزي للمالية ، والثاني فرنسي للاشغال العامة • وهذه الوزارة تحل محل الرقابة الثنائية ، وتقوم على أساس أن تقييد سلطة الخديوي شرط أساسي لكل اصلاح مالي • وأوعزت الدولتان الى الخديوي باستدعاء نوبار برقيا من أوربة ، وتكليفه برياسة الوزارة ، نظرا لميوله الاوربية واتجاهاته المطمئنة[1] • واحتفظ نوبار بوزارتي الخارجية والحقانية ، وتولى شريف وزارة الحربية ، وعلي مبارك وزارة المعارف والاوقاف • وعين ريڤرس ولسون للمالية ودي بلينير الفرنسي للاشغال • ولكن حكم البلاد كان بيد ديكتاتورية ثلاثية مؤلفة من نوبار وولسون ودي بلينير ، واتضح أن الوزارة الجديدة لجأت الى نفس أساليب الحكومات الماضية لمعالجة الأزمة المالية ، حين بدأت عملها بعقد قرض من بيت روتشيلد في لندن (آخر تشرين الاول ١٨٧٨) بشروط مجحفة ، وبقيمة اسمية بلغت ٨ر٥ مليون جنيه انكليزي ، وقيمة حقيقية ٦ر٢٩٧ مليون جنيه انكليزي بغرض سداد الديون • ولذا لم تدفع منه الزواتب المتأخرة للموظفين والضباط ولا أنفقت منه على المرافق العامة • وبدلا من ذلك اشتدت في جمع الضرائب وطردت عددا كبيرا من الموظفين المصريين لتستخدم مكانهم موظفين أجانب برواتب كبيرة وكفاية ضئيلة • وزادت حدة التذمر ، وشجع الخديوي حركة الاستياء العامة ضد (الوزارة الاوربية) •

ولكن تجربة الوزارة المختلطة كانت محكومة بالفشل مقدما ، لأن العنصر الوطني لم يعكس مشاعر السكان ونوازعهم الوطنية وميولهم الدينية بنحو كاف • ولأن

---

(١) انظر عن سياسة نوبار ، د. احمد عبد الرحيم مصطفى « مصر والمسألة المصرية » القاهرة ١٩٦٥ ، ص ٤٧ — ٤٨ و ٦٥ .

الوزارة لكي تفرض سلطتها على مرؤوسيها ، لا بد أن تتعاون مع الخديوي الذي لا يزال يتمتع بنفوذ قوي على الموظفين الوطنيين ، وبيده نجاح التجربة أو فشلها • وما فعله نوبـار وولسون كان بعكس هـذا الاتجاه تماما ، اذ بذلا ما بوسعهما لتجريد الخديوي مـن سلطاته بسبب كرههما الشخصي لـه • هـذا الى أن نوبار الذي لا يتقن العربية ، لم يكتسب ثقـة المصريين ومحبتهـم ، فقد رأوا أنـه أداة انكليزية لفرض الحماية على البـلاد ، وأنه أرمني مسيحي عيّنه الاجانب في منصبه وساندوه ، وأنـه أثرى على حساب الشعب بفضـل الرأسماليين الاوربيين • أمـا الفلاحون فقد رأوا في نوبار منشيء المحاكم المختلطـة التي أسلمتهم الى جشـع المرابين اليونانيين • فاذا أضفنا الى ذلك أن ولسون ودي بلينير كانـا يجهلان تماما لغـة البلاد وعاداتها وتقاليـدها ، تأكدنـا من صحـة ما ذكره فارمان القنصـل الامريكي العام في مصر آنذاك : ان الوزارة الاوربية كانت تحكم البلاد كما لـو كانت تحكم احدى مقاطعات الهند[١] •

والحق أن (الوزارة الاوربية) تألفت في وقت عانت فيه المالية من الافلاس ، لدرجـة أن معظم الضباط لم تصرف رواتبهم منذ عشرين شهرا ، وان الفلاحـين في الاقاليم باعـوا محاصيلهم مقدما بأقل مـن نصف القيمة أو بربع القيمة ليـدفعوا الضرائب تفاديا لقسوة جباتها ، فزاد بؤس الشعب ، وقدّر أن عشرة آلاف ماتـوا جوعـا في الوجه القبلي (الصعيد) بسبب الفقر الناتج عن فداحـة الضرائب[٢] • فلا عجب اذا جاءت الوفود تشكو الى الخديوي قسوة الحكومة في جمع الضرائب وارهاق الناس ، واذا نشطت الحركة الوطنية ضد التدخل الاجنبي ، وأخذ العلماء والاعيان يجتمعون في منزل السيد البكري نقيب الاشـراف ، ويتهمون الـوزارة بالخيانة وممالأة الاوربيين •

ثم جاءت الضربة التي أطاحت بوزارة نوبار حين تجمّع حوالي٢٦٠٠ من الضباط

---

(١) مصطفى ، المصدر نفسه ص ٧١ •
(٢) المصدر السابق ، ص ٧٣ نقلا عن :
Farman, Egypt and its Betrayal N.Y. 1908 P. 248.

المسرحين الذين طلب اليهم تسليم أسلحتهم في القاهرة ، وقاموا بمظاهرة الى مبنى رياسة الوزارة ووزارة المالية في ١٨ شباط ١٨٧٩ ، وانضم اليهم أعضاء من مجلس شورى النواب وجمهور من الشعب . فلما حضر نوبار به هاجمه الضباط وأهانوه ، كما هاجموا ولسون ، واقتيد الرجلان الى وزارة وحوصروا فيها الى أن تدخل الخديوي بناء على طلب القنصل الانكليزي ، من تفريق المظاهرة . وفي اليوم نفسه أعلن اسماعيل بحضور أعضاء القنصلية أنه لن يكون مسؤولا عن النظام العام الا اذا تمتع بسلطته البلاد . ثم طالب باستقالة نوبار واتهمه بسلب سلطته وزعزعة مركزه . وحين نوبار استقالته في اليوم التالي قال اسماعيل : « أستطيع أن أحكم البلا الاستعانة بأي جندي ، ولكن وزارة الاجانب الذين يختلفون في دينهم عن ا. لن يمكنها حكم البلاد الا بالقوة المسلحة »[1] .

اعتبرت فرنسة وانكلترة ما حدث تحديا لنفوذهما في مصر ، ولكيا الخديوي مجلس الوزراء ، اتفقت الدولتان أن يرأسه ولي العهد الامير توفيق ، وأن يكون للوزيرين الانكليزي والفرنسي حق (الڤيتو) على م مجلس الوزراء . وفي آذار تشكلت وزارة توفيق ، وواصل الوزيران الاو تحديهما للخديوي بحجة عرقلته سير الجهاز الحكومي . ولكن (الڤيتو) للوزيرين الكلمة العليا في شؤون البلاد ، وسلب مجلس شورى النو حقوقه . ولذا زاد تقارب الخديوي والمجلس ، وتقدم النواب والعلماء و الاسلام وبطريرك الاقباط وحاخام اليهود في ٢ نيسان بلائحة وطنية يطالب بتأليف وزارة مصرية بحتة ، واقرار مبدأ مسؤولية الوزارة أمام المجلس ، الديون دون الحاجة لاشهار افلاس البلاد . ودعا اسماعيل قناصل الدول اليهم أن في البلاد موجة عامة من الغضب والاستياء ، وان البلاد ليست افلاس ، بل هي قادرة على الوفاء بكل التزاماتها المالية ، وان الامير توفيق

---

(١) المصدر نفسه ص ٧٦ ، نقلا عن فارمان ص ٢٤٠ .

استقالة وزارته استجابة للرأي العام الـذي يطالب بوزارة وطنية مسؤولـة • وان الوزارة يجب أن تشكل من عناصر وطنية خالصـة • واضطر الوزيران الاجنبيـان للاستقالة كما استقالت لجنة التحقيق ، وأعلنت في تقريرها أن مصر في حالة افلاس منذ عام ١٨٧٦ ، وبنـاء على ذلك يجب خفض أرباح الديون •

وبرغم أن الحكومة الانكليزية آنذاك كانت تلتزم بقاعدة عدم التدخل رسميا لحماية الاشخاص الذين اختاروا أن يضعوا رساميلهـم في مشروعات أجنبيـة اذ عليهم أن يقبلوا نتائج مخاطراتهم من مغانم ومغارم ، فانها في حالـة مصر ، نقضت هـذه القاعدة بتدخلها السافر ، وانضمت الى فرنسة في توجيه تهديد الى الخديوي لاعادة الوزيرين الاوربيين ، ولكن الخـديوي أجاب ان الرأي العام المصري لـن يسمح بدخول الاجانب في الوزارة • وقـدم شريف الى مجلس شورى النـواب مسودة لائحة أساسية (دستور) في ١٧ أيار تضمنت مبـدأ فصل السلطة التشريعية عن السلطة التنفيذية ، وان شعب مصر والسودان هو مصدر السيادة والسلطة •

وفي غضون ذلك أقنـع ولسون بيت روتشيلد بأن أموالـه مهددة بانشـاء الحكومة الدستورية في مصر ، فاستخدم بيت روتشيلـد كل نفوذه للضغط عـلى حكومات باريس ولندن وبرلين من أجل التدخل سريعا • ولما اتضـح لفرنسة أن انكلترة غير معنية بعزل الخـديوي ، حثت بسمارك على التدخل لصيانـة مصالح أصحاب الديون الالمان ، ورحب بسمارك بهذه الفرصة التي أتاحت له أن يجعـل لالمانيـة مكانة في شؤون الشـرق ، فاضطرت انكلترة للانضمام الى الدولتـين ، ومطالبـة الباب العالي بعزل الخديـوي • ورأى الباب العـالي أن الظرف مناسب ليؤكـد سيادته على مصر مجـددا ، ، فأرسل في ٢٦ حزيران برقيتـين الى مصر ، الاولى موجهة الى اسماعيل (خديوي مصر سابقا) بعزله ، والثانية الى محمد توفيق باشا بتوليته (السدة الخديوية) • وفي ٢٨ حزيران غادر اسماعيـل الاسكندريـة الى نابولي ، وبقي في المنفى حتى توفي بالآستانة في آذار ١٨٩٥ • وشهدت مصر بعـد اسماعيل فترة محفوفة بالمخاطر ، وبما أن فرنسة وانكلترة اشتركتـا في خلع حاكم البلاد الذي قاوم نفوذهما في مصر ، فقد كان من الصعب أن ينجو الخديوي الجديد من تدخل الدولتين المتربصتين بمصر على الرغم من تنازعهما •

واسماعيل برغم أخطائه الفاحشة التي أوصلت البلاد الى الهاوية ، قد تجاوب في نهاية الامر مع المشاعر الوطنية ، وانحاز الى الصف الوطني ، واستغل حركة ١٨٧٩ لمقاومة التدخل الاجنبي والتصدي له .

وبعد ، إن نظرة تحليلية انتقادية على عهد اسماعيل ، تظهر بجلاء أن الرجل كان يتمتع بكثير من المزايا ، من حيث تطلعه الى استقلال بلده ، ومن حيث شغفه بالتعمير وحبه للتجديد . فخطة التعمير أسهمت حقا في عملية التحوّل والتغيير التي بدأت أيام جدّه محمد علي .

لقد شيد حديقة الازبكية على الطراز الحديث ، وأقام خلفها دار الاوبرا الجميلة ، وتمثالا لوالده ابراهيم وهو على صهوة جواده ، كما بنى قصر عابدين ليكون مقره الرسمي ، وقصر الجزيرة حيث أقام كبار ضيوفه أثناء افتتاح القناة . وشيّد ترع النيل والجسور ومصانع السكر وميناء الاسكندرية ومعامل المياه فيها ، وحمامات حلوان المعدنية ، وأصلح ميناء السويس ، ونصب المنائر على سواحل مصر ، واشترى ادارة البريد من صاحبها الايطالي وجعلها تابعة للدولة ، ومدّ السكك الحديدية من القاهرة الى كل من اسيوط والسويس ، وأسس شركة ملاحية كبرى باسم (شركة البوستة الخديوية) عام ١٨٧٣ . وكانت تملك ٢٥ باخرة حديثة للسفر والشحن بين موانىء البحر المتوسط والبحر الاحمر . ومددت خطوط التلغراف وتطورت صناعة النسيج والسفن والاسلحة وصب الحديد وحلج القطن وسواها . ولكن الصناعات النسيجية والمعدنية لم تستطع منافسة الصناعات الاجنبية الموازية ، لأن معاهدة بلطة ليمان (١٨٣٨) حرمت المنتجات الصناعية في مختلف ولايات السلطنة من الحماية الجمركية .

وصدر قانون ١٨٦٨ الذي أسس النظام التعليمي للدولة ، وشهد عهد اسماعيل تجديدا جذريا في فتح مدارس البنات ، والمدرسة الاولى أنشأتها زوجة الخديوي عام ١٨٧٣[1] . كما شهد عهده تأسيس مجموعة من المؤسسات العلمية

(1) Holt, op. cit., P. 205

والجمعيا تعلى النمط الاوربي منها المكتبة الخديوية (١٨٧٠) وعلي مبارك (١٨٢٤ ــ ١٨٩٣) كان له فضل جمعها من مكتبات الجوامع ومن مصادر أخرى . وتأسيس المتحف المصري (١٨٦٣) سجل تطور علم الفرعونيات ، وأول الجمعيات العلمية هو (المعهد المصري) الذي أنشيء عام ١٨٦٩ وقبله أنشئت (جمعية المعارف) ١٨٦٨ وجعلت مهمتها نشر المخطوطات العربية ، ونتيجة لتوسع امبراطورية اسماعيل الافريقية تأسست الجمعية الجغرافية الخديوية (١٨٧٥) للبحث الجغرافي وخاصة للكشف الافريقي . وأصبحت (الوقائع المصرية) يومية في عهد اسماعيل ، وظهر عدد من الصحف على يد أشخاص ، مثل الجوائب لأحمد فارس الشدياق ونشرت في استانبول ووصلت الى مصر وغيرها من ولايات السلطنة . وتزايدت أهمية الصحافة المصرية في عهد اسماعيل حين هرب صحفيون من أصل لبناني من بلاد الشام العثمانية الى مصر ، حيث وجدوا جوا أرحب في ظل الخديوية ، ومنهم سليم وبشارة تقلا اللذان أصدرا (الاهرام) عام ١٨٧٦ فأصبحت أكبر صحيفة عربية.

ولكن اسماعيل كان على غرار أبطال المآسي اليونانية القديمة ، الذين ذكرهم أرسطو في كتابه (فن الشعر) بقوله : « ان كل واحد منهم على الرغم من بطولته كان يعاني من هذا الشرخ الخلقي الذي يودي به الى الفناء » . وكذلك كان اسماعيل . فالشرخ المأساوي الذي كان مصابا به هو الاسراف وسوء التدبير والتقدير . وكانت هذه الخليقة لديه هي التي أوردت مصر موارد الهلاك ، وسببت الفقر المدقع الذي ران على البلاد . وقد استعمل اسماعيل الحكام على البلاد والقرى من الاتراك والشراكسة ، فلم يتبعوا الا سياسة الشدة . وهو نفسه استكثر من الاموال والاملاك ، وتعسف زبانيته في جباية الضرائب من الفلاحين الذين كانوا يستدينون لدفعها ، فتذهب أموالهم الى الدائنين والمرابين أولا بأول. هذا الى تسخيره الاهالي في مزارعه الخاصة الواسعة . وحين استدان المبالغ الباهظة من مصارف أوربة ، سمح لنفسه أن يتصرف بالبلاد كما لو كان يملكها[1].

(١) انظر : Lady Duff Gordon - Letters from Egypt (1862-1869)
Enlarged Centenary Edition, London 1969.

ومشهورة مقابلة ابنه توفيق مع عرابي يوم عابدين وقوله له : « لستم إلا عبيد إحساننا » وكان ردّ عرابي حاسما : « لسنا عبيدا ولن نورث بعد اليوم » • وكلمة توفيق تكشف عن الفكرة التي هيأت لاسماعيل وخلفائه ألاّ يحسبوا للشعب حسابا • وردّ عرابي كان البداية التي أطاحت بأسرة محمد علي •

ومجلس شورى النواب الذي أنشأه اسماعيل ، وان كان مظهرا من مظاهر تشبّهه بأوربة ، الا أن اسماعيل لم يقصد منه مجرد التقليد ، وانما أراد أن يوجد الى جانبه هيئة يسبغ عليها صفة نيابية شعبية لتعاونه في الخروج من المآزق والأزمات المستعصيه التي تورط فيها • فأراد أن يجمع المجلس المذكور لمساعدته في تقرير ضرائب جديدة ، وفي الوقت نفسه يقنع أوربة بأنه آخذ بسياسة الاصلاح الدستوري • والمجلس كان مظهرا لا حقيقة ، بدليل أن أعضاءه كانوا يختارون بانتخاب أقرب الى التعيين • وبرغم أنه كان بين غالبية أعضائه الاعيان ، عدد من الصحفيين والادباء ، الا أن تمثيل الطبقة المثقفة كان محدودا • كما كانت اختصاصات المجلس استشارية ، فللحكومة أن تأخذ برأي المجلس أو لا تأخذ ، واسم المجلس يدل عليه • وقد كان بمقدور اسماعيل أن ينشىء نظاما نيابيا سليما بفضل الظروف الجديدة التي كانت تمر بها البلاد ، مثل اتساع التعليم وما ترتب عليه من انتشار الوعي الوطني وظهور الصحف المتنوعة الحرة التي يشرف عليها محررون مثقفون ، وتزايد الاتصال بأوربة وجرائدها ، وسفر المصريين الى الخارج ، والموجات الفكرية التي كانت تحدثها أحوال البلاد الداخلية ، واضطراب أوضاع الدولة العثمانية وحروبها ومشكلاتها مع أوربة ••• ولكن اسماعيل لم يفكر في ذلك •

إن جهود اسماعيل للتقرب من أوربة ، كيما تصبح مصر قطعة من أوربة كما قال في بعض أحاديثه ، كانت باهظة التكاليف • وكانت المدخل الذي دلف منه الاستعمار الاوربي لاحتلال مصر • ولا يمكن تجاهل تبذير اسماعيل ؛ فحاجته الملحة للمال كانت تدفعه لا لطلب القروض من أوربة فحسب ، وانما أيضا لاستنزاف المال من الشعب الفقير • ولا يشفع له قطعا أنه كان يرمي الى (فرنجة) مصر وتحويلها الى بلد أوربي •

وحين ابتليت مصر ما بين ١٨٦٣ و ١٨٦٩ بقلة الانتاج وغلاء تكاليف الحياة ، هبط مستوى أهالي الريف الى مستوى الكفاف وما دونـه ، وزاد سوء الحـال انتشار الطاعون البقري والاوبئة بين الفلاحين ، وانخفاض النيل • وفي ظل ما سمي بالاقتصاد « الحر » بيعت محاصيل الفلاحين بيع سماح ، ووقعوا في حبائل المرابين واضطروا للاستدانة ، ولم يكن لديهم فكرة عن الاقتصاد والادخار ، وموازنـة بين الدخل والخرج • وتفاقم الخطب حين أحاط اسماعيل نفسه بطائفة طفيلية مـن الاغنياء الاوربيين أو المتفرنجين أو المتمصّرين أو المصريين، فسلكوا مسلك الخديوي في ارهاق الشعب والاستئثار بخيرات البلاد •

ترى هل كان لزاما أن تتقرب مصر الى الغرب الاوربي هذا التقرب المكلف ؟ وماذا كان الثمن الذي دفعته لقاء (التفرنج) الذي كان سمة عهد اسماعيل ؟ لقـد مهّد سعيد للكارثة المالية ، ثم في عهد اسماعيل ، اجتاحت مصر موجة أوربية فدمرت الاقتصاد المصري ، وانتهت بالاحتلال البريطاني في عهد توفيق •

الخديوي توفيق (١٨٧٩ ـ ١٨٩٢) :

تفاءل المصريون بتوفيق باشا لصفات الاستقامة والاقتصاد والورع التي تحلّى بها وحبّبته الى الناس ، وخاصة بانضمامه الى المعارضة واتصاله بالسيد جمال الدين الافغاني وانتصاره للمبادىء الحرة • ولكن حين تولى مسند الخديوية ، أصغى الى ممثلي انكلترة وفرنسة في مصر ، ورفض الموافقة على مشروع الدستور الـذي قدّمه شريف باشا ، لأن الحكومة الدستورية لا تتفق مع الحكم الثنائي وغضبـه لحق مجلس النواب في الاشراف على مالية البلاد ، فضلا عن أن التعامل مع حاكم مطواع كتوفيق مفضّل على التعامل مع غيره ، ولا سيما في موضوع المالية الـذي يعتبره الاوربيون من اختصاصهم وحدهم •

وقبـل أن تنفرد الدولتان بشؤون مصر لترسيخ نفوذهما فيها ، ألغى البـاب العالي الفرمان الشامل لعام ١٨٧٣ • وبعد دراسة متأنّية شارك فيها سفيرا انكلترة وفرنسة في الآستانـة ، صدر الفرمان الجديـد في ٣ آب ١٨٧٩ ، وتضمن سيـادة

السلطان على مصر وجمع الضرائب باسمه وتحديد عدد الجيش بثمانية عشر ألفا ، وعدم عقد قروض جديدة الا لتحسين احوال البلاد المالية ، وبشرط موافقة الدائنين • ومن حيث المبدأ كان توفيق ضد اعادة المراقبة الثنائية على مالية البلاد، اذ لم يعد لها مبر ر • لكن الدولتين أبلغتاه بتعيين إڤلين بيرنغ Evelin Baring الانكليزي (اللورد كرومر فيما بعد الذي سيهيمن على مصر لمدة ربع قرن) ، ودي بلينير De Blignières الفرنسي ، بصفتهما مراقبين ، مع سلطات تفتيش واسعة ، وعضوية استشارية في مجلس الوزراء ، وأهم من ذلك ، عدم جواز فصلهما دون موافقة حكومتيهما • وعاد نفوذ الدولتين أقوى مما كان ، فقد خرجت المراقبة من اطارها (المالي) الى الاطار (السياسي) ، وأصبحت مصر عرضة لفرض (الحماية) الانكلو فرنسية على مقدراتها • ومنذ ذلك الحين ، استهلت في مصر فترة هيمن فيها المراقبان على شؤون مصر ، وأمليا ارادتهما على الخديوي ، وسلّمت حكومة رياض بذلك مرغمة ، فشنت الصحافة حملة مركزة على اعادة المراقبة الثنائية بشكلها الجديد ، ودافع رياض عن اضطلاعه بالحكم في ظل المراقبة بأن هدفه هو انقاذ مصر من ويلاتها وتسديد الديون ، لتتخلص من النفوذ الاجنبي في أسرع وقت ممكن[١] •

وفي أواخر آذار ١٨٨٠ تشكلت لجنة تصفية الديون من مندوبين اثنين لكل من انكلترة وفرنسة ، ومندوب واحد لكل من المانية والنمسة وايطاليا ومصر • وقد لوحظ أن أعضاء هذه اللجنة كانوا تقريبا هم الذين اشتركوا في التحقيق والمراقبة أواخر أيام اسماعيل وسط موجة من النقد الشديد الذي وجهه المصريون اليهم • وبدأت اللجنة عملها في جوّ معارضة مصرية وحملة صحفية عنيفة ضد فرض ضريبة اضافية على الاراضي العشورية ، وضد الرواتب الضخمة التي كان يتقاضاها الموظفون الاوربيون • ونشر قانون (التصفية) في ١٩ تموز وأصبح

---

(١) مصطفى ، المصدر السابق ص ١٢٢ ، نقلا عن :

Blunt, Secret History, P. 128.

قانون البلاد المالي ، وتضمن توحيد كل الديون وتخفيض فائدتها من ٧ ٪ الى ٤ أو ٥ ٪ • ونص على ميزانيتين : واحدة للحكومة ، والثانية لصندوق الدين • ويبلغ مجموع ما خصص للادارة الحكومية ٤٢ ٪ من ايرادات البلاد • أما صندوق الدين فقد خصص له أكثر من ٥٧ ٪ من موارد مصر المالية تسدده لمدة ٦١ عاما ، ويشمل الديون وفوائدها للاجانب ، والخراج للسلطنة • وبلغ مجموع الديون الاجنبية ½ ٧٨ مليون جنيه من أصل ٩٥ مليون جنيه ، هي مجموع ديون مصر ، والباقي ديون مستحقة للمصريين • ولكن هؤلاء لم يعاملوا معاملة الاجانب في سداد ديونهم • ذلك أن القانون ألغى قرض (المقابلة) وقدره ١٥ مليون جنيه ، وقرض الروزنامة • ونص على تعويض دافعي (المقابلة) في مدى خمسين عاما • وهكذا استغلت الهيمنة الاجنبية بلدا ضعيفا ، عاجزا وحده عن مقاومة ضغطها ، لتستأثر بموارد البلاد المالية ، وتحرم آهلها من متطلبات حياتهم في البناء والتطور والعيش الكريم • عاين المصريون ذلك بالحسرة ، وتحققوا بأن الخديوي ووزراءه قد فرطوا في مصالح البلاد ، ولذا عزموا على مواجهة هذا الوضع المزري بنضال وطني لا هوادة فيه •

الثورة العرابية والاحتلال الانكليزي :

في فترة السنتين تقريبا التى تولى فيها رياض رياسة الوزارة ، تعاون مع المراقبين الانكليزي والفرنسي ، وأذعن لتوجيهاتهما ، على استياء ظاهر من المعارضة الوطنية • ومع ذلك فقد تحققت فيهما بعض الاصلاحات ، كإلغاء السخرة وحوالي ثلاثين ضريبة فرضت في عهد اسماعيل • ولكن شدة حكام الاقاليم حجبت اصلاحات رياض ، فقد ساقوا الكثيرين الى السجن ونفوا غيرهم الى أقاصي السودان دون محاكمة • كما تعرض هو لموجة السخط العام ، ولتحدي الاعيان والملاك ، بسبب خصومته السابقة مع مجلس النواب ، وخضوعه للغرب، والغائه دين (المقابلة) الذي دفع عددا من كبار الملاك الى صف الساخطين عليه من الباشوات • أما طرد السيد جمال الدين الافغاني فقد تم قبل شهر من اضطلاعه بالحكم • ومعلوم أن السيد الافغاني حضر الى مصر عام ١٨٧١ وخصصت

له الحكومة راتبا منتظما • وكان توفيــق يحفظ الودّ للسيد ولتلميذه محمد عبده، ومنّاهما بوعود الاصلاح ساعــة يتولى مسند الخديويــة • وقد أسهم الافغــاني وتلاميذه في نشر النهضة الوطنية من خلال دروسهم ومقالاتهم الصحفية بتشجيــع من اسماعيل نفسه • وساير توفيق الظروف المحيطة به ، فأصبح حاكما مطلقا ، ولم يلبث أن طرد الافغاني في ٢٤ آب ١٨٧٩ من البلاد ، وفصل محمد عبده مــن خدمة الحكومة وراقب نشاطه ، وقمــع نشاط الصحف التي هاجمت خضوعــه ورياض للسيطرة الاجنبيــة ، وصــادر صحيفتي (مصر) و (التجارة) لأديب اسحــاق وسواهما • وتصاعدت المشاعر الوطنيــة المعادية لحكومة الخــديوي ، وتسارعت الخطى نحو الثورة عليها بسبب استسلامها للنفوذ الاجنبي • وظهر في أواخر عام ١٨٧٩ (الحزب الوطني) في مدينة حلوان وأشهر نفسه في نشر برنامجه لانقاذ مصر • وبرغم أنه لا توجــد معلومات قاطعة عن أصل هــذا الحزب وعلاقتــه بالضباط (الفلاحين) وبالطبقة العليا والباشوات ، الا أنه يبدو مؤكدا أنه تكوّن في أواخر عهد اسماعيل حين شارك في نشاطه باشوات مقربون من اسماعيل مثل شريف وراغب وشاهين وعمر لطفي • وفي عهــد توفيق ضمّ الحزب الى جانب الضباط المستائين وحليفهم محمود سامي البارودي ، نفرا من مــلاّك الاراضي الذين تضرروا مــن الغــاء دين (المقابله) مثل سليمان أباظة ومحمد سلطان •

وطبيعي أن يتحــرك الجيش لردع التدخــل الاجنبي وغلّ يد الحكومــة الاستبداديــة ، ليس لأن ضباط الجيش المصري هم أكثر الجماعات قبولا للافكار السياسية الجديدة ، والنظام النيابي ، وانما لأنهم ، بحكم ظروف اجتماعهم ونظامهم، تهيأت لهم فرص العمل المشترك على تحقيق هذه الافكار الجديدة أكثر من غيرهم • خاصة وقد عمّت صفوفهم مشاعر الاستياء بسبب تسريح حوالي ١٣٠٠ من الضباط الوطنيين ، في حين لم يسرح أحــد ينتمي الى (الصفوة) التركيــة الشركسية التي تستأثر بمناصب القيــادة في الجيش • كما أغاظهم خفض عــدد الجيش اقتصــادا بالنفقات ، والغبن الــذي اشتمل عليــه نظام الترقية الــذي أقره وزير الحربيــة الشركسي عثمان رفقي ، وكان مــن شأنه ابقاء أغلب الضباط المصريين في المراتب الدنيــا ، وترقيــة الضباط الاتراك والشراكسة الى المراتب العليا • وما أن تفشّى

السخط في الجيش ، حتى قام الضابط أحمد عرابي وزميلاه عبد العال حلمي وعلي فهمي (وقد سمّى كل منهم نفسه بالمصري) بالمطالبة برفع هذا الغبن واصلاح نظام الجيش • وقدموا عريضة الى رياض تطالب بفصل عثمان رفقي • واعتبر الخديوي ذلك تطاولا على سلطاته ، فقرر محاكمتهم • وحين قبض عليهم في أول شباط ١٨٨١ أفرج الجيش عنهم ، وخرجوا على رأس مظاهرة كبرى من الجنود والضباط ، وقصدوا قصر عابدين ، وطلبوا عزل رفقي ، وأصروا على البقاء في أماكنهم حتى يجاب طلبهم • واضطر الخديوي للقبول ، وعزل رفقي ، وعين محمود سامي البارودي الذي حاز ثقة الضباط برغم أصله الشركسي • وكانت هذه ثاني حركة ينجح فيها الجيش بعد حركة ١٨٧٩ ، غير أن نتائجها كانت أعظم خطرا من نتائج الحركة الاولى • فبينما ساند اسماعيل حركة ١٨٧٩ الوطنية ، استسلم توفيق لتوجيه الاجانب في مسألة داخلية بحتة ، وصمم على ضرب الثوار بعد فترة تظاهر فيها بالصفح والمصالحة(١) • وبالمقابل ظهر عرابي بفصاحته وجرأته واخلاصه بمظهر الوطني المدافع عن قضية عادلة ، وصارت حركته الناجحة موضع اعجاب جماهير الشعب ، واكتسب ولاء الجيش الذي تتكون غالبيته من الفلاحين ، مثل عرابي ، وتوثقت العلاقة بينه وبين أكثر الزعماء الوطنيين آنذاك ، وانضم اليهم كبار الموظفين الذين آلمهم أن يتقاضى الاجانب رواتب ضخمة • وتزايد السخط على الاوربيين ، وعلى انكلترة خاصة ، بعد اقدام فرنسة على احتلال تونس (نيسان ١٨٨١) وأدرك المصريون كم تتناقض السياسة الاوربية مع المبادىء الاخلاقية ، وكم تبتعد عن قيم الحق والعدالة والسلام • وتضاعف شعورهم بالحاجة الى جيش قوي يكون سياجا للوطن ضد الاطماع الاجنبية المتربصة ، وضد أدواتها المتربعين على كراسي الحكم •

واتفق عرابي مع زعماء الحزب الوطني على أن يقوم الجيش بمظاهرة يوم ٩ ايلول ، تأييدا لمطالب الأمة الثلاثة :

١ ــ اسقاط الوزارة الحالية المستبدة •

---

(١) انظر موقف الخديوي وموقف خصومه الضباط في د. محمد صفوت « الاحتلال الانكليزي لمصر » ، القاهرة ١٩٥٢ ص ٢٤ ــ ٢٥ •

٢ ــ ابلاغ عدد الجيش الى الحد المعين في الفرمانات السلطانية (١٨) الفا .
٣ ــ تشكيل مجلس نواب على النسق الاوربي .

وفي اليوم المحدد حاصر أربعة آلاف ضابط وجندي قصر الخديوي ، مدعومين بمدفعية الميدان والذخيرة ، وعلى رأسهم عرابي الذي قدم للخديوي مطالب الأمة الثلاثة ، وقال ان الجيش يريد تحقيق هذه المطالب ، ولن يبرح المكان حتى يحظى بها . وقبل الخديوي باسقاط الوزارة قبل تفرّق المظاهرة ، ووعد باجابة الطلبين الآخرين . وتشكلت وزارة شريف باشا المعروف بأنه وطني معتدل، منافح عن الحركة النيابية الدستورية ، ومن طبقة الباشوات القدامى ، وأمر الخديوي بانتخاب النواب في ١٤ تشرين الاول حسب قانون ١٨٦٦[١] . وأعد شريف دستورا (لائحةأساسية) يكون للنواب فيهحقسن ّ القوانين وفرض الضرائب، وتكون الوزارة مسؤولة أمام المجلس . ولكن الدستور لم يتضمن حق النواب في مناقشة الميزانية ، اذ خشي شريف أن يتعرض النواب الى مسائل حساسة تثير حفيظة انكلترة وفرنسة ، كمسألة الديون وقانون التصفية والمراقبة الثنائية .

وكانت وزارة شريف قبل ذلك قد أصدرت في أواخر ايلول ١٨٨١ القوانين العسكرية لاصلاح نظام الجيش ، والخاصة بالترقية والاستيداع ، فقوبلت بالارتياح . وكان شريف يتخوف من سيطرة الجيش التي تعاظمت بعد مظاهرة ٩ ايلول ، فقرر أن ينقل أحمد عرابي وعبد العال حلمي خارج القاهرة مع وحداتهما العسكرية ، واعتقد أنه متى صفا الجو من التدخل العسكري ، يطرح مشروع الدستور على مجلس النواب الذي لا بدّ أن يصبح مركز الزعامة الوطنية بدل الجيش ، وحينئذ يمكن للحكومة أن تعتمد على مؤازرة النواب في اقرار مشاريع الاصلاح الحكومي ، مع مراعاة علاقة مصر بالاجانب فيما يختص بالديون .

ولكن عرابي لم يغادر القاهرة الى مديرية الشرقية كضابط عادي ، وانما كزعيم وطني كبير طاف شوارع القاهرة ، واستقبل في المحطة بمظاهرة كبرى خطب فيها عبد الله النديم خطيب الثورة العرابية وآخرون . ووقف الباب العالي

(١) يتم الانتخاب كما يلي : يتولى العمد والمشايخ اختيار واحد أو اثنين عن كل مديرية ، وينتخب ثلاثة عن القاهرة واثنين عن الاسكندرية وواحد عن دمياط .

على أحداث مصر ، وتزعزع حكومة الخديوي ، فرغب في التدخل في شؤون مصر ، واعادتها الى التبعية المباشرة للدولة • وكان عرابي قد سعى لاستمالة الباب العالي الى تأييد الحركة الوطنية لتأكيد شرعيتها ، وشرح مطالب الوطنيين وشكا من تدخل المراقبين والأجانب في مصر ، فقرر الباب العالي ارسال بعثة صغيرة يرأسها نظامي باشا لتقصّي اسباب العصيان العسكري ، ولدعم التفاهم مع الثوار العرابيين ، وكسب عرابي الى جانب الدعاية لحركةالجامعة الاسلامية وخاصة في شماليافريقية • وحين احتجت الدولتان على نشاط البعثة التي وصلت مصر في ١٠ تشرين الاول ، اضطرت بعد عشرة أيام تقريبا لمغادرة البلاد ، على أثر قيام البوارج الانكليزية والفرنسية بمظاهرة بحرية أمام الاسكندرية •

وخاب ظن شريف في مجلس النواب حين عرض مشروع الدستور على المجلس في ٣ كانون الثاني ١٨٨٢ ، فاعترض النواب على حرمان المجلس من حقه في مناقشة الميزانية ، وتجلى تضامنهم الكامل لمناهضة أطماع الدولتين حين أصرّ النواب على أن يكون لهم الحق في مناقشة الميزانية ، على أن لا يتعرضوا للجزء المخصص من الايرادات لسداد الدين العام • واستاءت الدولتان من جلسة المجلس ، وأرسلتا بعد أربعة أيام مذكرة مشتركة ، كانت سببا في تهييج الخواطر وتطور الاحداث تطورا خطيرا سريعا • فقد أكدت المذكرة مؤازرة الدولتين للخديوي في وجه الصعوبات المحيطة به ، ودعته لقلب الحكومة وحلّ المجلس واعادة السلطة الاستبدادية القديمة ، كما عكست عزم الدولتين على التدخل في شؤون مصر • وقد اعتبر الوطنيون والعسكريون بأن المذكرة تعني أيضا أن السلطان لم يعد له في مصر كلمة مسموعة أو سيادة مشروعة ، في وقت نشطت فيه الدعاية للجامعة الاسلامية ولخليفة المسلمين ، صاحب السيادة الشرعية على مصر• وبما أن الخديوي بقبوله المذكرة مع الشكر قد أصبح آلة يحركها الانكليز والفرنسيون ، فقد توقع الوطنيون والعسكريون أن يزحف الاحتلال الاجنبي الى مصر عاجلا أو آجلا ، ولذا لم يكن بدّ ، في نظرهم ، من التعلّق بالسلطنة العثمانية ، لأنها الضمان الباقي لانقاذ البلاد من عواصف التدخل الاجنبي •

رفض النواب سياسة الاعتـدال التي كان ينتهجها شريف ، ويحاول اقناعهـم بها ، بعد أن كشفت المـذكرة عن نوايا الدولتين تجـاه مصر والحركة الوطنيـة ؛ وانهارت مكانة الخديوي في نظرهم ، وسرعان ما توثقت العلاقه بين مجلس النواب والجيش والوطنيين وأصبح عرابي هو المدافع عن حقوق الأمة ، وزعيما للحركـة الوطنية وشعارها (مصر للمصريين) •

وأسفرت معارضـة المجلس لمشروع الدستور عـن سقوط حكومـة شريف واستقالة رئيسها في ٢ شباط ، وتألفت وزارة محمود سامي البارودي التي شغـل عرابي فيها وزارة الحربية والبحرية • وكان تأليفها باقتراح العسكريين والنـواب ، ولذا جاء تحديـا للمراقبة الثنائية وخطط التدخل الأجنبي • ثم تطورت الاحـداث في مصر باتجاه ايجاد ذريعة تدعو للتدخل الذي أنذرت به المذكرة المشتركة • وظهرت هـذه الذريعة في حدثين اثنين : الأول حـين أقرّ مجلس النواب الدستور بعـد تنقيحه ، ليشمل مبدأ المسؤولية الوزارية ، وحـق المجلس في تقرير الميزانية غـير المخصصة لسداد الدين العام ، واحترام الاتفاقات الدوليـة ، وصدر الدسـتـور في ٧ شباط • والثاني حـين وقع الصدام بين الخـديوي والعرابيين : ذلك أن وزارة البارودي التي سميت (وزارة الثورة) ، عملت عـلى ارضاء العسكريين بزيـادة رواتبهم وترقيـة عدد كبير من الضباط الوطنيين ، وأحـالت عديدا مـن الضباط الشراكسـة والاتراك الى الاستيـداع ، فتـذمّر هـؤلاء ؛ ويبـدو أنهم دبروا مؤامرة لاغتيال عرابي وكبـار ضباطه ، فعلمت بها السلطات واعتقلت ٤٨ منهـم وبينهم عثمان رفقي • وحكم على أربعين منهم بالتجريد من الرتبة والنفي المؤبـد الى السودان • وبنصيحة ممثلي الدولتين ، رفض توفيق التصديـق على الحكم ، وقرر تعديله والاقتصار على نفي الضباط خـارج مصر • فتوترت العـلاقات بـين العرابيين والخديوي ، وراجت أنبـاء عن تصميم العرابيين على خلع توفيق ، وانشاء جمهورية تضم اليها سورية والحجـاز في اتحاد فيدرالي • وحـين اشتد الخلاف بين الطرفين ، تقرر تحكيم مجلس النواب • ولكن اجتماع المجلس ، وما شـاع عن التهديـد بخلع الخديوي ، وتوعـد الاوربيين والاجانب ، أوجد أساس العمـل المشترك بين الدولتين للتدخـل في مصر • وظهر ذلك بارسال اسطول بحري مؤلف

مـن ست بوارج فرنسية ومثلها انكليزيـة الى ميـاه الاسكندرية (١٩ أيـار) للحيلولة دون تدخـل السلطنة العثمانيـة • وطالب قنصـلا الدولتين في مـذكرة لحكومة البارودي (٢٥ أيار) ، بابعـاد عرابي عن مصر موقتا وارسـال علي فهمي وعبد العال فهمي الى قراهم داخـل القطر ، واستقالة الوزارة الحاليـة • رفضت وزارة البارودي المـذكره لأنها تمثل خرقا للفرمانات والمعاهـدات الدوليـة التي تحدّد وضع مصر الخاص • ولكن توفيق خالف وزارته بسبب عدائه لها ، وقبـل المذكرة مع مطالب الدولتين ، فاستقالت وزارة البارودي في اليوم التالي ، واتهمت الخديوي بالموافقة على التدخل الاجنبي ، ومخالفة الفرمانات السلطانية •

وفي ٢٧ أيار احتج ضباط وجنـود حاميات القـاهرة والاسكندرية لـدى الخديوي على استقالـة عرابي ، وأعلنوا رفضهـم لمذكرة ٢٥ أيار ، كمـا أعلنوا خضوعهم للسلطان واعترافهم بسلطته عليهـم • وحينذاك طلب توفيـق من الباب العالي ايفـاد بعثة تفحص الموقف في مصر • وفي اليوم التـالي ، التمس النـواب والاعيـان والتجـار وممثلو الطوائف الدينية من الخديوي اعادة عرابي الى وزارة الحربيـة ، فوافق على ذلك ، خلافـا لنصيحـة قنصلي انكلترة وفرنسة • وبذلك فشلت مذكرة ٢٥ أيار فشلا ذريعا ، وأعلن عرابي أمام قناصـل الدول الاخرى أنه مستعـد لحماية أرواح سكان مصر وأملاكهم ، بغض النظر عن أجناسهم وأديانهم• وبما أن فرنسـة كانت تعارض التدخـل العثماني ، خشيـة أن يـؤدي الى خلع توفيق ، ونصب عرابي أو غيره حاكمـا ، وتحوّل مصر الى مجرد ولاية عثمانيـة ، فقد اقترحت دعـوة مؤتمر دولي ليبحث المسألة المصريـة ، ويحول دون تدخـل السلطان • أمـا انكلترة فقد رأت أن حساسيـة الموقف المصري ستـدفع المؤتمر للموافقـة على ضرورة التدخـل لقمع الثورة المصريـة • وبذلك يخفّ اعتراض الـدول على انفراد انكلترة بالتـدخل عند وقوعـه • أما الباب العـالي فرفض المشاركة في المؤتمر لأنه وحده المسؤول عن التدخل لاعادة الأمـن والنظام في مصر، ولأنه مستعد للقيـام بهذه المهمة • وكان حريصـا على الاعلان عن استعداداتـه البحرية والحربية لاقناع الدولتين بسحب بوارجهما من مياه الاسكندرية ، وافهـام أوربة بتصميم السلطان على ممارسة حقوق سيادته •

ولمواجهة الدول بأمر واقع ، سارع الباب العالي لارسال بعثة يرأسها المشير درويش باشا ، وتضم أحمد أسعد أفندي سادن الحرمين وعددا من العلماء • وكانت مهمة البعثة ، مساندة الخديوي ، واقرار الأمن والنظام في مصر ، وحلّ مجلس النواب • ونصح درويش بتوثيق صلاته مع قناصل النمسة والمانية وايطالية ، ومحاولة تأليبهم على قنصلي انكلترة وفرنسة •

وتحقق درويش من المساندة الواسعة التي يحظى بها عرابي ، ليس من الزعماء الدينيين ومشايخ وطلبة الازهر فحسب ، وانما أيضا من النواب الذين رفضوا حلّ المجلس ، أو استقالة عرابي وزملائه • وحاول درويش ، خلافا لرأي أحمد أسعد أفندي ، أن يقمع الثورة العرابية بالتهديد والوعيد منذ وصوله في ٧ حزيران وحتى قصف الاسكندرية في ١١ منه •

واستعد عرابي للدفاع عن مصالح البلاد ، وسط الشائعات المقلقة عن تفاقم عداء المصريين للاجانب ، واحتمال نشوب حوادث العنف بينهم في أية لحظة • واستمرار نزوح الاجانب ، ونصح القناصل من تبقى منهم بالتسلح ، وخاصة في الاسكندرية حيث يكثر عددهم • وفي ١١ حزيران ، وقع التشاؤم ، حين شهدت الاسكندرية أحداثا دامية ، سببها شجار عادي بين مصري ومالطي ، استعملت فيه اللكمات والمدى ، وأسفر عن مقتل المصري ، ثم تطور الى مذبحة شملت المدينة وقتل فيها عدد كبير من المصريين والاوربيين[١] • ويتعذر تحديد المسؤولين عن هذه المذبحة ، ولكن يمكن اتهام الذين لهم مصلحة في التخلص من عرابي بأي ثمن ، وعلى رأسهم الخديوي ودرويش باشا • وعلى أثر ذلك انتشر الذعر في مصر ، وتزايد نزوح الاوربيين والاقباط والارمن وأعيان الاتراك المسلمين ، وتغيّر مسلك درويش ، فحاول تحسين علاقاته مع عرابي والحزب الوطني ، ونصح بتعزيز حامية الاسكندرية وذلك بعد أن استلم تعليمات السلطان الذي وصلته رسائل من تونس وطرابلس ، تدعوه لمساندة عرابي ، باعتباره النصير الضروري

(١) بلغ عدد القتلى بحسب الرواية الشائعة ٥٠ اوربيا و ١٤٠ مصريا وثمة تقديرات أخرى •

للحركة الاسلامية[1] • وشعر السلطان أنه يجدر به التوصل الى تسوية مع عرابي ، بدل اخضاعه ، وتعريض الرعايا المسلمين في مصر لمطامع انكلترة وفرنسة ، وتسلّط الموظفين الاوربيين والدائنين الجشعين ، واسترسالهم في استنزاف خيرات مصر واستغلال جهود أبنائها •

وتطلب الموقف الدقيق أن يعقد اجتماع في قصر الخديوي بالقاهرة (١٢ حزيران) للنظر فيما يجب عمله ، حضره درويش وأسعد وشريف وعرابي وقناصل الدول الست في مصر ، واتفق فيه على أن يشترك الخديوي ودرويش في ضمان الأمن العام ، وتعهد عرابي بإطاعة كل أوامر الخديوي بهذا الصدد ، كما تعهد درويش بأن يشترك مع عرابي في تحمّل مسؤولية تنفيذ أوامر الخديوي • وكلف راغب باشا بتأليف الوزارة في ١٨ حزيران بعد أن بقيت البلاد بلا وزارة مسؤولة منذ استقالة وزارة البارودي • وأعلن راغب أن حكومته ستحكم البلاد حكما دستوريا مستوحى من المبادىء الوطنية ، واحتفظ عرابي بوزارة الحربية •

وانعقد المؤتمر الدولي في الآستانة يوم ٢٣ حزيران بحضور الدول الست (انكلترة وفرنسة وايطالية والمانية والنمسة وروسية) وقاطعه الباب العالي، على أساس أن المؤتمر يبحث مسألة مصر ، وهي مسألة تخصّه وحده • واتخذ المؤتمر قرارا تعهدت فيه كل دولة من الدول الست بأنها لن تسعى لتحقيق مكسب خاص فيما تقرره بشأن المسألة المصرية ، وأنها تمتنع عن العمل المنفرد أثناء انعقاد المؤتمر • ولكن السفير الانكليزي دفرين عارض الامتناع عن العمل المنفرد ، واقترح مع السفير الفرنسي دي نواي[2] أن يضاف الى القرار عبارة (إلا للضرورة القصوى) ، وعدلت أخيرا الى (حالة طارئة) ، فكانت هذه الاضافة ثغرة تسللت منها انكلترة لاحتلال مصر •

وفي ١٥ تموز دعا المؤتمر الدولي الباب العالي الى التدخل العسكري في مصر بقصد (القضاء على الفئة العسكرية ووضع الخديوي في موقف يمكّنه من

---

(١) انظر مصطفى ، المصدر السابق ص ٢٣٠ •
(٢) انظر مواقف مندوبي الدول الست في المؤتمر ولا سيما المندوب الفرنسي De Noilles والانكليزي Duffrin في صفوت ص ٥٠ — ٥٦ •

اعادة بناء حكومة عادية) . ولكن انكلترة كانت تعلم أن السلطان كان حريصا جدا على أن لا يرغمه المؤتمر على ارسال قوات الى مصر لئلا يظهر أمام العالم الاسلامي كما لو كان ينفذ أوامر أوربة ، فيستثير بذلك كره المسلمين وسخطهم . ودلت القرائن على أن انكلترة كانت تواقة للتعجيل بالحرب ، بعد أن أعلنت فرنسة أنها لن تتدخل في مصر عسكريا . وكان سيمور قائد الاسطول الانكليزي المرابط في مياه الاسكندرية قد أبلغ حكومته عن تحصين القلاع على ساحل الاسكندرية وتعزيز دفاعاتها . وبعد شهر (٣ تموز) تلقى تعليمات بأنه اذا لم يوقف العمل في تحصين القلاع المذكورة ، فهو مخوّل بهدمها واسكات مدافعها . ولكن الموقف لم يكن من الخطورة بحيث يسوغ توجيه الانذار الانكليزي . فقد ذكر قنصل فرنسة في مصر (دي ڤورج Devorges) : « أن الموقف في حدّ ذاته لا يبدو لي مقلقا ، لولا ممثلي انكلترة الذين يميلون الى تعقيد الموقف »[١]. وأبلغت الحكومة الفرنسية بالتعليمات الانكليزية الى سيمور ، لترسل مثلها الى قنصلها في الاسكندرية ، فرفض فريسينيه أن يحذو حذو انكلترة لأنه ملتزم بقرار الامتناع عن العمل الفردي ، ولأنه يعتبر أن هذا التدخل عمل هجومي عدائي لا عمل دفاعي ، ومن شأنه تعريض الرعايا الفرنسيين للاخطار . وأخيرا لأن حكومته لا تدخل في حرب لا يصادق عليها مجلس النواب[٢]. وأُرسلت تعليمات الى قائد الاسطول الفرنسي في الاسكندرية بأن عليه أن يغادر مياه الاسكندرية ويرسو قرب بور سعيد ، اذا أصرّ سيمور على الانذار النهائي لضرب الاسكندرية . وبذلك أضاع فريسينيه بسبب سياسته المترددة جهود قرن كامل بذلتها أمته في سبيل منع انكلترة من الاستحواذ على مصر . في حين تذرعت انكلترة بثورة عرابي وتهديد مسند الخديوية للانفراد باحتلال مصر وتأمين طرق مواصلاتها البحرية مع الهند عبر قناة السويس . وفي ١٠ تموز اعتقد سيمور أن التحصينات قد استؤنفت ، وان المدافع نصبت في بعض القلاع ، فأخطر القناصل المقيمين في الاسكندرية في اليوم التالي ، بأنه سوف يبدأ القصف بعد ٢٤ ساعة اذا لم تسلم

(١) المصدر نفسه ، ص ٢٤٠ ، وانظر ايضا شكري ، المصدر السابق ص ٢٣٧ — ٢٣٨ .

(٢) صفوت ، المصدر السابق ص ٥٨ .

اليه القلاع القائمة على ساحل الاسكندرية • وانعقد مجلس استثنائي لمناقشة الانذار ، وحضره الخديوي وعرابي وراغب باشا ودرويش باشا ، وتقرر رفض الانذار في صيغة التمسك بالحق والدفاع عن الشرف[1] •

وبدأ صباح ١١ تموز قصف قلاع الاسكندرية من الاسطول الانكليزي الذي تزايد عدد بوارجه حتى بلغ الاربع عشرة • وبعد ١٥ طلقة ، ردّت القلاع المصرية باطلاق مدافعها ، واستمر ذلك حتى السادسة مساءً • وبدأ الجيش المصري بالانسحاب الى كفر الدوار ــ دمنهور ، بينما اندلعت النيران في مدينة الاسكندرية، وسادت فيها الفوضى ، ونهبت متاجرها بعد نزوح الاهالي منها ، ولم تفلح جهود عرابي لتهدئة الاحوال • وفي ١٥ آب وصل الاسكندرية غارنت ولسلي Wolseley قائد قوات الغزو الانكليزي ، وأعلن بدء العمل لدعم سلطة الخديوي ولسحق «العصيان العسكري » • وكان الخديوي قد سافر الى الاسكندرية ومعه درويش باشا ليكون في مأمن مما قد يحدث في القاهرة ، وظل قابعا في قصره تحت حماية الاسطول الانكليزي الذي نزل عدد من جنوده الى البرّ ، وشارك بعضهم في حراسة الخديوي بناء على طلبه ، مع أنه قبل ذلك أرسل يحث المصريين على مقاومة الاسطول الانكليزي واعلان الحرب في سائر البلاد ، واتضح بذلك موقف الخديوي المعادي للثورة الوطنية ، والمؤيد للاحتلال الإنكليزي •

ويبدو بكل جلاء أن ضرب الاسكندرية كان اجراءً لا مبرّر له ، وانما قصد منه تعقيد الأزمة والتمهيد للتدخل العسكري •.لقد تجاهلت انكلترة المؤتمر الدولي الذي كان لا يزال منعقدا وخرقت قرار الامتناع عن التدخل الفردي ،

---

(١) جاء في الرد : « نحن هنا ، وفي بلادنا ، ومن حقنا بل ومن واجبنا أن نصونها ضد كل عدو يبادئنا بالعدوان • • ان مصر المحافظة على حقوقها وعلى شرفها لا تستطيع ان تسلم اي مدفع او اية قلعة مهما تكن إلا اذا اضطرتها الحرب ، ان مصر لتحتج على ارسالكم انذار اليوم وتلقي مسؤولية تعدّي الاسطول وضرب الاسكندرية ونتائجه المباشرة وغير المباشرة على رأس الدولة التي تجرؤ في وسط هذا السلام الشامل على قذف القنبلة الاولى ضد الاسكندرية ، تلك المدينة المسالمة ، مستهترة بحقوق الامم وقوانين الحرب » .

لأن ما فعلتـه لم يكن مسوغـا بحالـة (ضرورة قصوى) أو (حالة طارئـة) • فالتحصينات المصرية لم تدعم فجأة ، ولم تشكل خطرا على الاسطول الانكليزي ، ولم يقم دليل على اعتزام المصريين سدّ مداخل ميناء الاسكندرية • هـذا الى أن أحدا لم يخوّل انكلترة حق القضاء على الثورة المصرية ، فلا السلطان ولا الدول ولا الخديوي طلبوا منها ذلك[1] •

وفي ٢٣ تموز عزل الخديوي عرابي مـن وزارة الحربية ، وحمّله مسؤولية ضرب الاسكندريـة واخلائها وقطع ما يصل بينها وبين حواضر القطر والاستمرار في الاستعدادات الحربية ، في حين آكد حسن نوايا الانكليز ، وحذر المصريين من الانضمام الى عرابي • ولكن عرابي تلقى دعما شعبيـا ضخما حين انعقـد المجلس الوطني في القاهرة ، وضم أربعمائة من أبرز الشخصيات الرسمية والزعماء الدينيين المسلمين والمسيحيين واليهود ، بينهم شيخ الاسلام ، وقاضي القضاة والمفتي وعـدد من النواب والمـديرين والتجـار ، وقرر تأييد موقف عرابي ، وتعيينه قائـدا عاما للجيش وعدم اطاعة أوامر الخديوي ووزرائه •

وسارعت الحكومة لتقرن العمـل العسكري بالتفاوض مـع الباب العـالي ، والظهور بمظهر المتعاون مع السلطنة ، بقصد اقناع عرابي بالتسليم ، والتخفيف مـن حدة الشعور المعادي لها في العـالم الاسلامي والهند ، وبقصد كسب الـوقت في مؤتمر الآستانة ريثما تلحق جيوشها الهزيمة بعرابي • وشعر السلطان عبد الحميـد بحرج موقفه ازاء الثورة العرابية ، بعد أن حذّره العلماء وأنصار حركة الجامعـة الاسلامية من مغبّة تعاونه مع انكلترة ضد عرابي ، وخاصة بعد أن تلقى رد مشايخ الأزهر الذين كان قد عبّر لهم عن رغبتـه في امتناع المصريين عـن ارسال العـون الى عرابي[2] ، وتضمن ردّهم المطالبة بخلع توفيق ، وبأن المصريين لن يلقوا السلاح الا اذا انسحب الانكليز من الاسكندرية والاراضي المحتلة الاخرى ، وان المسألـة لا تتعلق بشخص عرابي بقدر ما تتعلق بخلاص مصر •

---

(١) انظر اعتبارات التدخل الانكليزي في مصطفى ، المصدر نفسه ص٢٥٠-٢٥٣.

(٢) المصدر نفسه ص ٢٨٧ • شعر السلطان بحرج موقفه ازاء مصر وخاصة حين تلقى تحذيرات من العلماء وانصار الجامعة الاسلامية بأن تعاونه مع انكلترة سيغضب المصريين والسوريين والعرب وقد يؤدي الى حصول عرابي على فتوى بخلعه .

ولكن عبد الحميد كان مترددا ، يخشى أن يمتد مفعول الحركة الثورية الدستورية من مصر الى ولاياته الاخرى ، كما يخشى اغتصاب الانكليز ، ولذا فقد اتفق معهم على مشاركة القوات العثمانية في قمع الثورة العرابية ، وأمر حكومته بأن تنشر باسمها بيانا في ٦ ايلول باعلان عصيان عرابي ، الذي كان يتلقى دعم وتأييد السلطان حتى وقت قريب • ووزع الانكليز البيان على نطاق واسع في مصر والبلدان الاسلامية • وقوبل البيان بالاستنكار في الآستانة ومصر على الصعيد الشعبي ، وكان له أثر سيىء في نفوس الكثيرين ، اذ كان عرابي يعلن أنه انما يدافع عن حقوق السلطان في مصر • كما قوبلت أنباء مشاركة القوات العثمانية في قمع الثورة الوطنية بتخوف الخديوي الذي صرح بأن ذلك معناه انهيار سلطته في مصر • اضافة الى ان موقف الخديوي العدائي من عرابي أحدث تصدعا في صفوف المقاومة المصرية • أما الانكليز فتجنبوا طريق كفر الدوار ـ دمنهور الحصين المعروف بالطريق الغربي ، وتواردت بوارجهم مع سفن النقل الى الاسماعيلية منذ أواسط آب ١٨٨٢ ، خلافا للتأكيد الذي أعطاه دولسبس الى عرابي ، بأن الانكليز لن يعبثوا بحياد القناة ، وانه لن يسمح لهم بالنزول في منطقة القناة • فانتقل عرابي وجنده الى موقع التل الكبير لاقامة خط دفاعي • ولم تستمر الحرب طويلا بين المصريين والانكليز ؛ فقد خاض المصريون معركة القصاصين التي تعتبر أشد ما دار في الحرب وأوشكوا فيها على النصر ، ثم تقهقروا بعد جرح قائد الموقع • وليلة ١٣ ايلول تقدم الانكليز نحو المواقع المصرية وفاجأوها في التل الكبير ، وحسمت المعركة لصالحهم[١] ، وأبلغت انكلترة الآستانة بأنه لم يبق حاجة لمشاركة القوات العثمانية •

واستمر الانكليز بعد ذلك في تقدمهم نحو القاهرة ، ودخلوها دون مقاومة (١٤ ايلول) وسلّم عرابي وأصحابه للمحتلين حين تبين له أن أعضاء المجلس العرفي لا يريدون أن يحل بالقاهرة ما حلّ بالاسكندرية ، ولم تكن قد سقطت

(١) جاء في تقدير للخسائر المصرية في معركة التل الكبير ان القتلى بلغوا ٢٥٠٠ والاسرى مثلهم .

في أيديهم الا الاسكندرية ومنطقة القنـاة • وكانت مقاومة الاحتلال ممكنـة لأن أحسن فرق الجيش المصري ما زالت سليمة في الشمال •

ووصـل الخديوي بعد عشرة أيام واستقبـله الانكليز في القاهرة استقبـالا عسكريا • وفي ٣ كانون الاول صدر الحكم باعدام عرابي والبارودي وعبد العال حلمي وغيرهم مـن الضباط الوطنيين ، ثم استبـدل بالسجن المؤبـد والنفي الى سيلان بعد أن جردوا من رتبهم وصودرت أملاكهم ، ونفي الكثيرون من الوطنيين المدنيين ، ومن أبرزهم الشيخ محمد عبده الذي انضم للثورة الوطنيـة ، وكان من أكبر الرؤوس المفكرة المؤازرة لها •

السودان من الفتح المصري الى الحكم الثنائي :

تمهيد : حين فتح العرب المسلمـون مصر بقيادة عمرو بـن العاص ، وصلت جيوشهم الى أسوان • وكان في النوبة ، وراء الشلال الأول ، مملكتان مسيحيتان ، الشمالية منهما تدعى المقرة وعاصمتها دنقلة العجوز • والثانية تدعى علوة وعاصمتها سوبا على النيـل الازرق الى الجنوب قليلا من الخرطوم • أما في الشرق فتقيـم قبائل البجّة ، وتمتـد منازلها في الصحراء ما بين النيـل والبحر الاحمر • وقـد حاصر والي مصر عبد الله بن أبي سرح العاصمة دنقلة (دنقلا) عام ٦٥٢ م ورماهـا بالمنجنيق ، وانتهى الامر بصلح نظم علاقات التعايش والتجارة بين الدولتين للقرون الستة التالية ، ونص على أن يدفع النوبيون أتاوة سنوية ثلاثمائة وستين رأسا مـن العبيد الى حاكم أسـوان المسلم ، كما نص على أن يسمح للمسلمين باجتياز بـلاد النوبة غير مقيمين فيها • وللنوبيين مثل ذلك في مصر • وتعهـد النوبيون أيضـا بالمحافظة على مسجد بنـاه المسلمون في دنقلة ، والعناية به ، وفتحه أمام المصلين • وسعت الدول الاسلامية في مصر لتأمين حدودها الجنوبية وطريق التجارة الحيوي بين مصر والسودان ، الـذي قد يحرم مصر في حـال قطعه أو تحويله من أربـاح طائلة ، ومـن هنا حرص الدولة الاسلاميـة على استتباب الامـن على الطرق التي يسلكها التجـار والقوافل مـن السودان الى مصر ، ومـن ذلك قيـام المسلمين

بغزو بلاد البجّة الذين اعتدوا على المسلمين ، وعقد صلح تعهد البجّة فيه عام ٧٣٥ م بأن يدفعوا ثلاثمائة من الابل الصغيرة ، وبأن لا يقتلوا مسلما أو ذميّا ، ويسمح للبجة بالمرور في مصر غير مقيمين • حتى اذا أخلّ النوبيون والبجّة بعهودهم ، واعتدوا على الحدود المصرية ، وجهت الحملات التأديبية ضدهم ، وكان يرافقها عدد متزايد من العرب ، بقي بعضهم في بلاد النوبة والبجّة ، وألفوا البيئة الطبيعية والاجتماعية التي لا تكاد تختلف عن بيئة القبائل العربية من حيث طراز المعيشة وانتجاع الكلأ والمرعى وحياة التنقل والترحال ، ومما اجتذبهم أيضا وجود الذهب والزمرّد في الصحراء الشرقية[1] • وبدأت الهجرة العربية تصبح ذات خطر على منطقة الشلال الاول منذ عهد الدولة الطولونية ، حين قاد العمري حملة كبيرة على النوبة ، عمادها قبائل عربية من ربيعة وجهينة (٩٦٩ م) ثم توغل جنوبا نحو السودان الاوسط • وفي عهد الدولة الفاطمية تزايدت حشود العرب في منطقة أسوان ، وفي الصحراء الممتدة حتى البحر الاحمر • واعتنق الكثير من النوبيين الاسلام مع تمسكهم بلغتهم ، وبالمقابل تعلم العرب لغة النوبة وتوغلوا في الاراضي السودانية حتى اقليم مملكة علوة لغرض التجارة ، حتى أصبح لهم رباط في عاصمتها سوبا يقيم فيه جماعة من المسلمين • وارتبط العرب برباط المصاهرة والزواج مع النوبيين ومع البجّة الذين اعتنق كثير منهم الدين الاسلامي • وكافأت الدولة الفاطمية أميراً من ربيعة بلقب كنز الدولة لأنه عاون في مطاردة ثائر عليها ، وتسمّت قبيلة باسمه وصارت لها سيادة في النوبة السفلى حيث قامت أول دولة عربية اسلامية بزعامة كنز الدولة • وهذا ماجعل صلاح الدين الايوبي مؤسس الدولة الايوبية يتهم بني كنز بموالاة الشيعة ، فوجه اليهم جيوشه ، وتغلب عليهم ، فاضطروا للجلاء عن مركز امارتهم في أسوان ، والرحيل الى بلاد النوبة حيث اندمجوا مع العنصر النوبي[2] •

---

(١) انظر Holt, op. cit., P. 17

(٢) انظر حول علاقات الطولونيين والفاطميين والايوبيين بالنوبة والسودان : مكي شبيكة « مملكة الفونج الاسلامية » مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية القاهرة ١٩٦٤ ص ١٠ — ١٣ .

وبرغم التفاعـل والاختلاط الذي تم بين العرب والسكان الاصليين ، ورحيل النوبيين الى مصر حيث عملـوا في الجيش ، و فيمجالات أخرى ، وعـودة بعضهم الى موطنـه متأثرا بالحضارة العربية الاسلاميـة ، فان مملكة النوبة في دنقلة لـم تخضع خضوعا نهائيا . فقد أغار النوبيون في عهد المماليك على ثغر عيذاب عـلى البحر الاحمر ، وعلى أسـوان ، ودمروا ونهبوا وأسروا ، فتصـدى لهم السلطان المملوكي الظاهر بيبرس (١٢٦٠ — ١٢٧٧ م) واضطر ملك المقرة داود الى التقهقر جنوبا ، ثم عـاد لتلحق به هزيمة ثانية . ونصب المماليك شكندة ابن أخته نائبـا عن السلطان المملوكي في حكم مملكة المقرة ، مقابل تعهده بدفع الجزية ، وارسال نصف واردات المملكة الى مصر ، ومنع الاعراب من الاستقرار في بلاد النوبـة . ويلاحظ في هـذه الشروط أن المماليـك لم يشترطوا دخول الملك أو رعايـاه في الاسلام ، ولكنهـم اشترطوا عليـه أن يمنع استقرار العرب في المملكة خشيـة أن يصبح تجمعهم هنـاك مصدر خطر على الدولة المملوكيـة في مصر . وهذا يفسّر جزئيـا نزوح القبائل العربيـة عـن النوبة الى السودان ، واستقرارها في مملكة علوة بالسودان الاوسط ، حيث انتشرت فيها اللغة العربية ، وتراجعت أمامها اللغات الاصليـة ، في حـين بقيت اللغات الاصلية في كثير مـن أجزاء دولـة المقرة الى أيامنـا هـذه .

وكان يحدث أحيانـا أن يتمرد بعض الملـوك في المقرة على هـذه الشروط ، فتزحف الحملات المملوكيـة لاخضاعهـم .. الى أن كان الربع الاول مـن القرن الرابع عشر حـين تربع على عرش المقرة في دنقلة ، شخص مـن أسرة كنز الدولة ، وكان مسلما ، فأصبحت المقرة رسميا دولة اسلامية ، واطمأن المماليك من ناحيتها ، ورفعوا الجزيـة عنها ، وأوقفوا حملاتهم ضدها . ولكن النزعات القبلية والاقليمية لم تلبث أن عصفت بالحكم المركزي فيها ، فاستقلت مناطقها علـى أساس قبلي أو اقليمي . وحـين قامت دولة الفونج في أوائل القرن السادس عشر ، ووسعت رقعة أملاكهـا الى الشمـال ، لم يكن يوجـد في دنقـلة دولـة موحدة ، بـل ممالك صغـيرة مستقلة .

وكـان العرب قد توافدوا على مملكة علوة ذات الرقعـة الواسعة والامطار الغزيرة ، حيث عملوا هنـاك في التجارة أو رعي المواشي والابل في الباديـة ، ولم يعترضهم السكان الاصليون • ولكن بانهيـار دولـة المقرة في الشمـال ، وهنت صلات علوة الدينية مع كنيسة الاسكندرية ، ولم يلبث العرب أن هيمنوا على علوة سياسيا ولغويـا واندمج سكانها في القبائل العربيـة • ومـن أواخر القرن الرابع عشر الى أوائل القرن السادس عشر لا تسعفنا المصادر بالمعلومات الموثوقة عن تطور الاحداث ، حتى ظهر تجمّع سياسي جديد عـام ٩١٠ هـ/١٥٠٤ م بزعامة عمـارة دونقس الـذي ينتمي الى جماعة تسمى الفونج ، وأسس دولة اسلامية عاصمتهـا سنار ، عاصر قيامهـا نهاية عهد المماليك في مصر ، واستحواذ السلطان العثمـاني سليم عليها[١] • وحـين ضمت دولة الفونج اقليم علوة ، كان قد مضى على الغزو السلمي العربي نحو ثمانية قرون ، أي أن السودان قـد تعرب وأسلم بعنصريـه العربي والنـوبي •

ومن أسرة (العبدلاب) يختـار ملك سنار زعيما يسمى (المانجل) مـن بين ذرية مؤسس أسرة العبدلاب الشيخ عبد الله جماع ، ليكون وكيـلا للملك عـلى المنطقة الشماليـة من المملكة التي تمتد من اريجي شمـالا حتى الحدود المصرية • والمانجل بدوره ينصب مشايخ القبائل والمناطـق التي تقع تحت نفوذه • ومـا بقي مـن أقاليم يقع تحت حكم الفونج مباشـرة • ولكن السلطة المركزية للفونـج في سنـار[٢] ، ولوكلائهم العبدلاب في قري أولا والحلفاية أخيرا ، لم تحافظ عـلى قوتهـا في كل الاوقات • اذ اندلعت الحروب بين الفونج والعبدلاب حينا ، وثارت المشيخات ضدهما تطلب الاستقلال حينا آخر ، كمـا حدث حين استقلت قبائـل الشايقيـة عنهمـا •

---

(١) انظر عن قيام دولة الفونج ، شبيكة المصدر السابق نفسه ص ٢١ ــ ٢٦ .

(٢) وصفت سنار بأنها أكبر مدينة بعد القاهرة ، وكان يبلغ عدد سكانها في أوائل القرن الثـامن عشـر نحـو ١٠٠ الف نسمـة تقريبا ، والحريـة فيها مكفولـة لكل الاجنـاس والاديـان .

وفي عهد ملك الفونج بادي الرابع المعروف بأبي شلوخ الذي تولى العرش عام ١٧٢٠ واستمر حكمه ٣٨ عاما ، غزا امبراطور الحبشة أياسو الثاني اقليم سنار على رأس جيش كبير خرج من غندار عام ١٧٤٤ ، فأحرق القرى وقتل الرجال وصادر الماشية ، ولكن الجنود الاحباش حوصروا في مثلث يقع بين نهري النيل الازرق والدندر ، وهزموا شر هزيمة ، ثم تقهقروا فارين الى بلادهم • ومنذئذ لم يتعرض السودان لغزو حبشي بمثل هذه الخطورة[١] •

واتجه الملك نفسه لغزو اقليم كردفان ، ولكنه هزم ، فتولى قيادة الجيش الشيخ محمد أبو لكيلك ، وانتصر على حكام كردفان وضمّها لأملاك سنار ، وكان ذلك نهاية السيطرة الفعلية لملوك الفونج • فقد تذرع الكبراء بمظالم الملك وانتقدوا تصرفاته ، واتفقوا على تولية ابنه مكانه ، وبذلك لم تعد السلطة بيد ملوك الفونج ، وانما بيد ابو لكيلك ومن بعده في أبنائه وأبناء اخوانه من قبيلة الهمج • وحين وصلت حملة اسماعيل بن محمد علي الى السودان (١٨٢٠) كانت الحروب الداخلية تمزق مملكة سنار ، والنزاع على السلطة يشتت شمل قبائلها[٢] •

وفي دارفور قامت مملكة في نفس الوقت تقريبا الذي قامت فيه دولة الفونج في سنار ، وتعاقب على حكمها طائفة من السلاطين على أساس اسلامي ، وكانت عاصمتها الفاشر ، ويسكن دارفور البقّارة ، وهم من القبائل العربية ، وقد سمّوا كذلك لارتباطهم بقطعان البقر ، ومنهم الرزيقات والتعايشة والكبابيش • والى الجنوب من كردفان تقع جبال النوبة ، وتعتصم فيها قبائل افريقية تعرف باسم النوبة ، وهم غير النوبة أو النوبيين الذين عرفناهم في الشمال • ولم يعرف جنوبي السودان في هذه الحقبة العروبة والاسلام الا في الاطراف • وكانت الاقاليم السودانية زمن فتح محمد علي للسودان ١٨٢٠ ـ ١٨٢١ تتكون في مملكة سنار

(١) انظر تفاصيل الغزو الحبشي في شبيكة ، المصدر السابق ص ٨٢ ـ ٨٥ •
(٢) انظر تفاصيل تغلب الهمج على ملك الفونج في سنار ، المصدر السابق ص ٨٦ ـ ٩١ •

من دويلات صغيرة عمادها القبيلة الواحدة • وزعيـم القبيلة يحتل مركزه بفضـل مواهبـه الشخصية في القيـادة والحرب والكرم والتواضـع • والحكومة قليـلة النفقات والضرائب ، والمجتمع تغلب عليه المسـاواة ، فلا تسود طبقة على طبقـة • وعقيدته الاسلامية تميل به نحو التصوف وتبجيـل الصلحاء والاعتقاد بكرامات الاوليـاء ورجال الدين مع قليل مـن العلم •

أما المبادلات التجارية ، فقد اشتهرت بهـا الاقاليم السودانية منذ العصـور الغابرة ، مع مصر والخارج • ومعلوم أن القوافل التي كانت تحمل المتاجر السودانية كانت تسلك ثلاثة طرق الى مصر : فهنـاك طريق بربر الى كرسكو بين الشـلالين الاول والثاني • وطريق من دارفور الى آسيوط ، وطريق من دنقلة الى الواحـات يتصل بالطريق الثاني • وتحمل المتاجر من السودان العاج والرقيق والصمغ وريش النعـام ، وتعود اليـه حاملة العطور والصابون والمنسوجات والبهارات والادوات الحديدية • ويعتبر ميـنـاء سواكن منفذ السودان الوحيد الى البحر الاحمر ، وهو يتصل بالنيـل عند بربر أوشندي • والجمل هو وسيلة النقل والسفر •

وبعد ، فقـد كان لدخول القبائل العربية الى الاقاليم السودانية ، وخاصـة من الشمال والشرق ، أثر بعيـد في تعريبها وفي ادخال الاسلام الى ربوعها • وقد تلقى شرقي افريقية منذ العصور السابقة للاسلام والتالية له ، موجات بشرية مـن الجزيرة العربية ، وخاصة من حضرموت وعمان ، استقرت في موزمبيق وزنجبـار وممباسة ودنقلة وسنار •• وغلبت علـى العناصر الزنجية والحامية هنـاك • وفي حين انحسر ظل العروبة والاسلام عـن الاندلس ، كانت القبائل العربيـة تتقدم في مجاهـل افريقيـة ووادي النيـل حتى تكاثرت أعدادهـا وتعاظمت سيطرتهـا ، فأسست دولا اسلاميـة ذات طابع عربي في اللغة والثقافة ، امتزج مع تراث محلي من العادات والتقاليـد وأساليب المعيشـة ، نتيجـة التأثر بالمنـاخ ، والتفاعـل والتزاوج مع السكان الاصليين ، وأسهم كل ذلك في تكويـن السودان الحـديث بوجهيه العربي الاسلامي والافريقي ، وكان هذا حاله عشية وصول طلائـع الفتح المصري أيـام محمد علي •

بدأ فتح السودان بحملة قادها اسماعيل بن محمد علي باتجاه مملكة سنّار في تموز ١٨٢٠ ، وقوامها أربعة آلاف جندي على أرجح التقديرات ، ومؤلفة من الاتراك والالبان والمغاربة والبدو . وحين وصل (دنقلة) لم يقاومه المماليك ، واستسلم له بعضهم ، وهرب الباقون الى صاحب شندي نمر . ولكنه لقي مقاومة عنيفة من قبائل الشايقية ، الى أن هزمهم في ٤ تشرين الثاني في معركة جرت قرب كورتي (قرطة) وذلك بفضل تفوقه في السلاح الناري . ودخل الشايقية ضمن جيش اسماعيل تحت امرة رؤسائهم كجنود غير نظاميين . واستسلم زعيما قبيلة الجعليين[1] الملك نمر صاحب (شندي) ، والملك مساعد صاحب (المتمّة)، وتبّثتا في مركزيهما ، كما استسلم زعيم (العبدلاب) الشيخ ناصر واد الأمين . وقدّم بادي السادس آخر ملوك الفونج فروض الطاعة والولاء لاسماعيل في (واد مدني)، واعترف بسيادة الدولة العثمانية (١٢ حزيران ١٨٢٢) . وفي اليوم التالي دخل اسماعيل (سنار) ثم استأنف زحفه جنوبا ، حيث تقبّل تسليم حسن ملك اقليم فازوغلي الذي يحتوي على الذهب . وكان محمد علي قد أرسل ابنه ابراهيم لمعاونة اسماعيل في احضار العبيد الصالحين للجندية ، واتفق الاخوان أن يتقدم اسماعيل الى أعالي النيل الازرق ، وابراهيم الى بلاد الزنوج الوثنيين من قبائل الدّنكة ، ولكن مرض ابراهيم دعاه الى العودة الى مصر .

وفي غضون ذلك كانت الادارة التركية ـ المصرية التي أقامها اسماعيل في اقليم سنار ، قد أثقلت كاهل الاهلين بالضرائب ، ولا سيما الذين يملكون العبيد والماشية ، واشتدت الادارة في جمع الاموال فظهرت بوادر الثورة هناك ، وعاد اسماعيل بسرعة الى سنار ، وخفّف من وطأة الاعباء المالية على الاهلين ، ثم نقل مراكزه الى (واد مدني) لأنها أفضل من الناحية الصحية ، ووصل الى (شندي)

---

(١) تذكر بعض الروايات عن تسمية (الجعليين) ان رئيسهم عندما يفد عليه جماعة يودون الانضمام اليه لحمايتهم يقول لهم : « جعلناكم منا » . انظر للمزيد عن مملكة الجعليين مكي شبيكة « مملكة الفونج الاسلامية » ص ٤٠ ـ ٤٢ .

في الشمال فاجتمـع بزعيمي الجعليين نمر ومساعـد ، وكان منـذ البداية يشك في ولائهما . وطلب منهما دفـع ضريبة باهظة مـن المال والعبيـد ، وكان يمكن دفع الضرائب بالعبيـد الذكور الاقويـاء بدل النقود التي لم تكن متـوفرة بكثرة في السودان وقتذاك[1] ، وردّ نمر بأن الجعليين عاجزون عـن تقديم ما طلبه ، فغضب اسماعيل وضربه بغليونه الطويل على وجهـه ، وأجاب نمر على الاهانـة بأن وضع رجاله حزم الذرة الجافة حول معسكر اسماعيل ، باعتبارها علف دواب الضيوف ، وأحرق المعسكر ليلا ، فقضى على اسماعيـل وحاشيته في تشريـن الاول ١٨٢٢ . واضطربت البلاد بالثورة من شندي شمالا الى واد مدني جنوبا ، واستلم محمـد سعيد افندي ، كخيا اسماعيل ونائبه ، دفـة الامور في واد مـدني ، كما تحصّن محّو بك في بربر ضد الثوار . وثار العبدلاب بزعامة واد عجيب ناصر، وفي الجزيرة تزعم التمرد اثنان من الهمج بقيادة مملكة الفونج ، همـا حسن داود رجب وأرباب ضيف الله ، أما الجعليون فكان يرأسهم نمر ومساعده . ولم يكن لـدى محو أو سعيد ما يكفي من القوات لقمع عموم الثورة . صحيح أن محو صمـد في بربر ، وسعيد قام بعمليات محلية في ضاحية واد مـدني ، ولكن اخماد الثـورة وضرب تجمعاتها ، كان من عمل محمد بك خسرو (الدفتردار) صهر محمـد علي ، الـذي قـاد حملة ثانية لفتح كردفان ودارفور ، مؤلفة من ثلاثة أو أربعة آلاف جنـدي مع بطارية مدافع ، وغادرت مصر في نيسان ١٨٢١ ، ثم اصطدمت في آب مع حاكـم شمال كردفان المقدوم مسلم عند بارا ، وفتكت مدافع الدفتردار بفرسـان دارفور وقبائل كردفان ، وقتـل المقدوم نفسه ، ودخـل الدفتردار (الأبيّض) العاصمة ، ثم سارع لضرب الثوار والانتقـام لمصرع اسماعيـل . ووجد أن نمر ومساعـد يحاصران محو بك في بربر ، ولكن اولادهما وعـددا كبيرا من الاتباع كانـوا في (المتمة) . وبوشرت مفاوضات مع الدفتردار لاعـلان عفو عام ، ولكن محاولـة فاشلة لقتله ، أثارت غضبه ، فشن حمـلات انتقامية شديـدة على الثوار وتعقّبهم وحرّر بربر ، وهزم الجعليين وأسر الكثير منهم ، وهرب نمر ومساعد من وجهـه

---

(١) Holt, op. cit., P. 43

الى مرتفعات الحبشة ، ملجأ المتمردين والعصاة وأحرق الدفتردار مدينـة شندي ، ثم ثبت سلطة الحكومـة على الاقاليم ، وشغل بالبحث عـن الذهب والحديـد ، ودراسة موارد البلاد الطبيعية ، وارسال العبيد الى معسكر أسوان ، لتدريبهـم على الاساليب العسكرية الحديثة[1] •

وانتهت فترة الدفتردار عام ١٨٢٤ ، فعـاد الى القاهرة ، وخلفـه عثمان بك الشركسي قائدا عاما على السودان ، وعيّن نائب له في واد مدني بدل سعيد افندي الـذي عاد مع مقتنيات اسماعيل الى القاهرة • وحضر مع الحكمدار الجديد خمس كتائب (أورط) مشاة من الجهادية النظامية الذين جنّدوا من عبيـد السودان ، ودربوا في معسكر أسـوان • وبرغم ان مشـروع تجنيد العبيـد السودانيين لم ينجح إلا جزئيـا ، فقد ماتوا بالمئات لأن مناخ مصر لم يناسبهم ، ولكن المجنـدين منهم قاموا بدور الحاميات العسكرية في أقاليم السودان ، وكانوا ، مع الفرسـان غير النظاميين من الشايقية ، عمـاد الحكم التركي ــ المصري ، ومصـدر قوته[2] • وعثمان بك مملوك متقدم في السن ، لا يقل ّ عن الدفتردار قسوة وبطشا ، فقمـع الثورة وجمع الضرائب ، وشهدت فترتـه التي لم تزد على بضعـة شهور ، تفشى وبـاء الجدري وحدوث الجفاف والمجاعـة ، وفرار الفلاحين مـن أراضيهم تحت وطأة الضرائب الباهظة ، فلحق الخراب بالارض ، وقل ّ الانتاج وأرتفعت الاثمان • وأعجب عثمـان بك بموقع الخرطوم عنـد التقاء النيلـين ، وقرر أن يكون مركز الحكومة هناك بدل واد مدني ، وبنى ثكنة للجيش في الموقع المذكور •

ولما توفي في أيـار ١٨٢٦ حل ّ محـله محّو بك حاكـم بربر ، لفترة قصيرة تميزت باتباع سياسة مصالحة مـع السودانيين ، فخفض الضرائب وأبطل تعـدي الجنود على الفلاحين ، ودعا جمعية استشارية من الاهالي لاقتراح الوسائل الكفيلة باستتباب النظـام ، واعادة ألوف اللاجئين خلال الثورة الى ديارهم وأراضيهـم

---

(١) محمد فؤاد شكري « الحكم المصري في السودان » القاهرة ١٩٤٧ ، ص ٢٥.
(٢) Holt, op. cit., P. 46

من منطقة القضارف النائية ومرتفعات الحبشــة ، وكان خير معاونيه في تحقيق ذلك الشيخ عبــد القادر ود الزين ، مستشاره الســوداني للشؤون المحليــة ، وفي فترة محو بك ، زادت أهميــة الخرطوم باعتبارهــا مقر اقامتــه • وتولى بعــده علي خورشيد باشــا زمام الامــور في حزيران ، وكان قــد خدم تحت قيــادة ابراهيم باشا ضــد اليونان ، فتابــع سياسة سلفــه ووطد أركــان الاستقرار والعمران في السودان ، واهتم بتبديــد ذكريات الحوادث المؤلمة التي اقترنت بانتقام الدفتردار لمقتل اسماعيل • وعني كسلفه في اقناع المهاجرين بالعودة الى أراضيهم المهجورة ، فعادوا بالالوف الى ديارهم في النيل الازرق • ويعتبر خورشيــد المنشىء الحقيقي للخرطوم ، فقد وسع الجامع القديم فيها ليتناسب مع تزايــد سكانها ، وبنى ادارات الحكومــة وثكنات الجيش ، وشجع العمران بتوزيع مواد البناء والاخشاب عــلى الاهالي ، وما زالت تنمو وتتسع حتى صارت أعظم المراكز الادارية والتجاريــة في السودان ، وبلغ عدد سكانها عام ١٨٣٤ حوالي ١٥ ألف نسمة •

وأكثر خورشيد مــن سواقي الري ، فبلغ عددها ما بين أربعة وخمسة آلاف ، وأسهمت في توسيع رقعــة المنطقة الزراعيــة ، وتنويع محاصيلها الوفيرة ، كمــا أدخل زراعة النيــلة وقصب السكر والفواكــه ، وألغى الكثير من مظاهر تجــارة الرقيق ، بعد ضغط القناصــل على محمــد علي • وعني بتشجيع التجارة وحمايــة القوافل والطرق التجارية ، لنشر الامن فيها ، وتطمين الرحالة وهم يرتادون ربــوع السودان آمنين مــن التعصب والسلب والنهب[1] ، وضرب على أيدي الموظفين الذيــن عسفوا بالاهلين ، وقدمهم للمحاكمة ، وصادر أمــلاك من أدين منهــم ، وكان مسلكه قدوة للموظفين الآخرين ، فاستقام مسلكهم خوفــا مــن سطوته ، وعم الرفــاه وامتد العمران ، وأنشئت ترسانة على النيل لصنع السفن ، وانتظمت المواصلات ، واستثمرت الموارد الطبيعية ، ورسمت خطة للتعليــم ، ونظم القضاء ، وتمتع خورشيد ، نتيجــة هذه السياسة الاصلاحيــة ، بمحبة وولاء أهل البلاد •

---

(١) انظر ما ذكره الرحالة والمكتشفون والعلماء ورجال الاعمال الاجانب ، عــن الامن والتسامح والعمران الذي ساد السودان في عهد خورشيد ، في شكري ، المرجع السابق ، ص ٢٧ ــ ٣٣ •

ورأى محمد علي أن يتوجه بنفسه الى اقليم فازوغلي بالسودان ، ليشرف على حقيقة ما يقال عن الذهب هناك ، لعله يخفف من ضائقته المالية بعد احتلال الشام • وأقام في فازوغلي مدة من الزمن تأكد خلالها أن ما فيها من الذهب القليل ، لا يستحق عناء استخراجه • واستغل الفرصة ليشرح سياسته الاصلاحية للمشايخ والعلماء الذين حضروا لمقابلته فذكر لهم بأنه أخذ على عاتقه ادخال أساليب الحضارة والعمران الى بلادهم التي كان يعيش أهلها عيشة بدائية هي دور الطفولة الذي يمر به كل الشعوب • وقال : « ولكن عناية المولى جل شأنه تبعث الى كل أمة مصلحا يسير بها قدما في طريق الرقي والحضارة ، ولقد كان من حظي أن يقع علي الاختيار لأداء هذا الواجب النبيل نحوكم »[1] •

وفي عام ١٨٣٥ ، برزت مقدرة خورشيد وحنكته كإداري ، حين طلب منه محمد علي تجنيد أحرار السودانيين في الجيش ، لسد الحاجة الماسة الى الجند في الشام ، وقوبلت هذه الدعوة بالتوجس والتبرم ، وأوشكت أن تدفع السودانيين الى الهجرة مجددا • وهنا تخلى خورشيد عن المشروع ، وقرر أن يساهم كل اقليم بنصيب من الرقيق لتجنيدهم في الجيش ، وبذلك اكتسب امتنان الاهلين •

أما على الصعيد العسكري ، فكان خورشيد أقل توفيقا ، فلم يظفر من غزوة ضد الدنكة عام ١٨٢٧ إلا بخمسمائة عبد ، وقاومه الدنكة بالسهام والرماح، وهزموا فرسانه ، ولكنه بعد ذلك اندفع حتى سوباط ، وعاد منها الى الرصيرص • وبعد ثلاث سنوات ، نظم حملة نهرية ضد الشلوك الذين هاجموها بالسهام ، ولكن المدفعية شتتتهم ؛ ثم عادوا واستخلصوا الأسرى والغنائم ، واضطرت الحملة للانسحاب مع ٢٠٠ عبد فقط • والحملة الثالثة ، كانت ضد قبائل الهدندوة في منطقة التاكة شرقي السودان • وبعد اجتياز نهر عطبرة ، هوجمت الحملة في الادغال ،واضطر خورشيد للعودة الى الخرطوم • وسمع خورشيد باتفاق عقده الاحباش مع بعض القبائل للتغلغل في السودان • فاستنجد بمصر ، ووصل المدد

---

(١) المصدر السابق ، ص ٣٣ •

العسكري بقيادة أحمد باشا بو ودان الذي غزا أرض الحبشة ، فنجح أولا ، ثم واجهه جيش كبير ، وأرسل خورشيد مددا لم يتعاون قائده مع بو ودان ، فهزمت القوات التركية المصرية (١٨٣٧) • وخشي خورشيد أن تضم الحبشة المناطق الحدودية حول القلابات لتستقبل فيها مجددا اللاجئين السودانيين • ولكن حين وصل القلابات ، أنذرته الحكومة البريطانية من مغبة غزوه للحبشة[١] •

تمتع خورشيد بتقدير محمد علي ، الذي منحه الباشوية ، عام ١٨٣٥ ، ثم عيّنه حكمدارا أي حاكما عاما على السودان ، الى أن استدعي الى القاهرة عام ١٩٣٨ ، ونصب بدله أحمد باشا بو ودان ، وكان من مماليك محمد علي الشراكسة ، وممن حاربوا مع ابراهيم باشا في الشام • ويعتبر عهده استمرارا لعهد خورشيد في نشر العدل والاستقرار ، وأهم ما قام به ، هو فتح اقليم التاكة ، حيث قاومه الهدندوة ، ولكنهم هزموا أمام أسلحته النارية ، وطلبوا الصلح ، وأظهر زعيمهم محمد دين خضوعه ، فأخذه بو ودان والزعماء الآخرين كرهائن • وأقام الحكمدار ، معسكره في المكان الذي عرف فيما بعد باسم مدينة (كسلا) ، وجعلها مركزا لمديرية السودان الشرقي في التاكة ، وانطلاقا من كسلا ، امتد السودان المصري نحو البحر الاحمر ، فتزايدت أهمية الثغرين العثمانيين مصوع وسواكن ، اللذين عهد بهما السلطان عبد المجيد الى محمد علي (١٨٤٦) لمدة ثلاث سنوات ، مقابل ايجار سنوي • ولم يتمّ ضم الثغرين الى السودان إلا في عهد الخديوي اسماعيل (١٨٦٥)[٢] •

ومما يجدر ذكره أنه فتح في هذه الآونة ، طريق النيل الابيض الى الجنوب السوداني ، على يد البحّار العثماني سليم قبودان ، الذي غادر الخرطوم على رأس ثلاث تجريدات (١٨٣٩ ــ ١٨٤٢) ووصل الى غندكرو قرب جوبا الحالية[٣] •

---

(١) Holt, op. cit., p. 54.

(٢) Ibid.

(٣) انظر تفاصيلها في شكري « مصر والسيادة على السودان » القاهرة ١٩٤٧ •

وقد ترتب على ذلك تدفق تجار العاج والرقيق الى منطقة النيل الابيض وبحر الغزال ، وسترى أهمية ذلك بعد قليل •

وقام بو ودان برغم فترته القصيرة ، بكثير من المشاريع الزراعية ، فتوسع في زراعة قصب السكر ، وعني بتنظيم المالية ، وضبط أمور الحكم والادارة ، ومات فجأة في الخرطوم (تشرين الاول ١٨٤٣) • وقيل ان زوجته ابنة محمد علي ، قد وضعت له السم بإيعاز من أبيها ، خشية انتزاع السودان من مصر ، وضمّها الى السلطان عبد المجيد • وبرغم تنصّل محمد علي من هذه التهمة ، فقد تخوّف من تركيز السلطة بيد حكمدار واحد ، فالغى منصب الحكمدار ، وعيّن أحمد باشا المنكلي كمنظم لتوزيع الجيش على المديريات ، ورسم الحدود ، وجعل الادارة في السودان لا مركزية ، بحيث يستقل كل اقليم اداريا بشؤونه ، ويرأسه حاكم بلقب باشا ، مرتبط بالقاهرة مباشرة • ولكن بعد ثلاث سنوات من الخلافات بين المنكلي مدير الخرطوم ، وبين مدراء الاقاليم ، عاد محمد علي الى المركزية ، ونصب المنكلي حكمدارا على السودان ، فبقي في منصبه حتى عام ١٨٤٥ • ولعل محمد علي فضّل تعيين حاكم عام مطيع ، بعيد عن المطامع الشخصية ، يطمئن الى ولائه المطلق ، فعيّن في نهاية العام نفسه ، خالد خسرو باشا مكانه ، وكان من النوع الذي يستأذن سيده اذا أراد أن يطلق لحيته ، ولذلك بقي في منصبه حتى بداية عهد عباس الاول[1] •

وفي عهد عباس الاول ظهرت الارساليات التبشيرية ، وظهر التجار الاجانب في السودان ، وتأسست القنصليات في الخرطوم ، وحاول الحكمدار عبد اللطيف باشا (١٨٤٩) تطبيق اجراءات التجارة النافذة عليهم ، من حيث تحديد أسعار المحاصيل ومعاقبة المخالفين • وتبرم التجار الاجانب من ابعادهم عن تجارة العاج الهامة ، وطالبوا بتطبيق مبدأ حرية التجارة النافذ في ممالك السلطنة العثمانية • وحين نجحت مساعيهم ، واستدعى عباس الحكمدار المذكور الى القاهرة في بداية

---

(١) انظر مكي شبيكة « مختصر تاريخ السودان الحديث » ، القاهرة ١٩٦٣ ص ٢٤ •

عـام ١٨٥٣ ، انهارت آخر عقبة أمام تغلغل التجار الاجانب والمبشرين في جنـوب السـودان ، حيث تبين لهم أن مرابـح تجـارة الرقيق أوفر مـن تجارة العـاج وريش النعـام •

وشهد عهد عباس (١٨٤٩ — ١٨٥٤) وعهد محمد سعيد (١٨٥٤ — ١٨٦٢) أحد عشر حكمدارا في الخرطوم ، تفاوتت مددهم وأحكامهم ، ولكنهم استطاعـوا عموما صدّ غارات الدنكة ، وتمكنوا من اخضاع السود في جبل تقلي بكردفان ، وقبائل البشارين في السودان الشرقي ، اضافة الى ردع الاحباش ونشر ألوية الامن •

وقـد احتل السودان مكانة ظاهرة من تفكير سعيـد وعنايته ، فقد استهـل عهده بالغاء الجمارك بين مصر والسودان ، فتوثقت علائق القطرين • واعتزم القيام برحلة الى السودان ، لإزالة أسباب شكوى الاهلين من عسف موظفي الحكومة في الخرطوم والمـديريات ، وفحص ادارة السودان فحصـا دقيقا بعـد أن مضى على انضمامه الى الادارة المصرية حوالي ٣٨ عاما • هـذا من ناحية • ومن ناحية أخرى ، تأمين الحدود الشرقية للسودان مـن ناحية الحبشة ، والحدود الغربية مـن ناحية دارفور • ذلك انه تولى حكم الحبشة (١٨٥٥) الامبراطور تيودور كاسا وكان ذا أطمـاع كبيرة في السودان ، وقد حصل على المدافع والبنادق لعسكره من الانكليز في عـدن[1] ، وكانوا يحرّضونه على غزو الحدود الشرقية للسودان • أمـا دارفور فقد دعا سعيد ، سلطانها محمد الحسين ، لزيارة الخرطـوم في مطلع عام ١٨٥٧ ، ولكن السلطان تخوّف من نوايا سعيد ، فلم يلبّ الدعوة ، ولكنه أرسل سفـارة ودّ وصداقـة الى القاهرة بعد عودة سعيد اليهـا • كما بعث برسالـة ودية الى تيودور كاسـا •

وقـد عاين سعيد أحوال السودان السيئـة ؛ فالحكمدار هو القائد العـام للجنود النظاميين وغـير النظاميين (الباشبوزق) • وهـؤلاء الاخيرون مكلفون

---

(١) من كتاب قنصل النمسة في الاسكندرية الى حكومته بتاريخ ١٩ تشرين الثاني ١٨٥٦ . نقلا عن شكري « مصر والسودان » ص ٧٥ .

بالمحافظة على الامن والنظام ، وحماية الحدود وجمع الضرائب • وبهـذه الصفة ، أرهقوا الاهلين بأنواع المظالم ، وأورثوهم العوز والفاقة • واضطر الاهلون للهجرة مـن أراضيهم التي آقفرت ولحق بها الخراب ، فتضاءل الانتاج في السودان ، وبات اصلاح الجهاز الاداري ضرورة ملحّة • ولتحقيق ذلك ، طرد سعيد في الخرطـوم كبـار الموظفين كي يعين مكانهم أكبر عـدد من السودانيين ، وألغى المركزيـة في الجهاز الحكومي ، وأنشأ اللامركزية بدلا منها • وخفض عدد المديريات من ست[1] الى خمس ، وأصبح المدير مسؤولا أمام حكومة القاهرة مباشرة • كما خفض سعيد الضرائب بقصد تثبيت الاستقرار ، وانعاش الاقتصاد ، وتشجيع الاهالي على العودة الى الارض التي هجروهـا ، وأصدر أربعـة مراسيم تضمنت القواعـد الادارية والمالية الجديـدة التي أسفرت عنها رحلته ، وأهمها : يشارك مشايخ وأعيان البلاد في تقرير الضرائب وتحصيلها والفصـل في المنازعات والقضايا المحلية • واضافـة الى ذلك أدخل سعيد اصلاحات أخرى لتنشيط التجـارة وبناء الطرق وتعبيـدها ، لربط أقاليم السودان بعضها ببعض من ناحية ، وبالقاهرة من ناحية أخرى • ولعـل أهم هـذه الاصلاحات كان الغاء الرقيق وإبطال تجارته ، لا كتدبير انساني فحسب، وانما للقضاء على سيطرة تجـار الرقيـق ، واسترجاع نفوذ الحكومـة في المناطق الشاسعة التي خضعت لسلطانهم • ذلك أنـه لقرون خلت ، كانت المنطقة الشمالية على طول بحر العرب جنوبي دارفور ، هي الحـدود الفاصلة بين قبائل البقـّـارة العرب ، وقبائل الدنكة وغيرهم من القبائل غير العربية ، وهي في الوقت نفسه منطقة جلب العبيد ، على يد التجار الجلاّبة القادمين من الشمال ، والمعروفين بالبحارة ـ لأنهم جاؤوا من البحر (نهر النيل) •

ولا شك أن فتح النيل الابيض للملاحة والتجارة بعـد نجاح تجريدات سليم قبودان ، شجـّع على تدفق الاجانب الى السـودان في عهد سعيد ، وكانوا مثـل اخوانهم في مصر لا يهتمـون إلا بالحصول على الثروة بأية وسيلة ، فأقبـلوا على صيد الفيلة ، وجمع العاج من الاهالي السود مقابل الماشية • ولما قلّ العاج صاروا

(١) هي الخرطوم وسنار ومعها فازوغلي ، وكردفان ، ودنقلة ، وبربر ، والتاكة.

يصيدون العبيد لاستخدامهم كحمالين وخـدم ، ثم يشحنونهـم في مراكب تحمل أعلام الدول التي ينتمون اليها ، بحماية قناصلهم في الخرطوم[1] • ونمت تجـارة الرقيق وامتدت على الطريق البري شمال بحر الغزال ، وتضاعف حجمها ست مرات عما كانت عليه حين كانت تسلك طريق النهر •

وفي نهاية عهد سعيد أصبحت مناطق واسعة مسرحا لنشاط النخاسين والتجار ، وتقع جنوبي دارفور ، وفي كردفان ، وعلى جانبي النيل الابيض حتى غنـدكرو في الجنوب ، وقـد نظم تجار الرقيق قوات مسلحة تابعة لهم كان نصفها مـن الفرق الزنجيـة المعروفة باسم (البازنكر) •

وتململ الرأي العام العالمي بسبب تفاقم تجارة الرقيق ، وحاول سعيد منـذ استلامه الحكم (١٨٥٤) ايقافها ، فمنع ادخال العبيد الى مصر من جنوب السودان، وأغلق سوق الرقيق في الخرطوم ، وأصبحت قرية (كاكا) في منطقة قبائل الشلوك هي السوق الرئيسي للعبيـد في النيل الابيض • وحاول سعيد السيطرة على النهر المذكور باقامة محطات عسكرية على طوله لمراقبة الملاحة في أجزائه العليا ، وللبحث عن العبيد في القوارب المارة فيه • ولكن المشروع لم يحقـق نجاحا يذكر[2] ، لأن هذه المناطق الواسعة النائية كانت عمليا خارجة عن سلطان حكومة الخرطوم ، نتيجة تغلغل النفوذ الاجنبي فيها ، ونشاط تجار الرقيق الاوربيين الـذين سادوا النيـل الابيض حتى نهاية عهد سعيد •

ولكن اللامركزية التي قصد منها حلّ مشاكـل السودان ، وجعل المديريـن مسؤولين أمام حكومة القاهرة ، ووقف طغيـان الموظفين في المديريـات والاقاليم ، والحدّ من عسفهم بالاهلين ، قد ألحقت الضرر بالسودان ، لأن باشوية مصر كانت مشغولة عن شؤون السودان بمشكلات عديدة وخطيرة ، اضافة الى أنهـا أضرت

---

(١) انظر اسمـاء اشهر تجار الرقيق الاوربيـين والعرب ، شـكري ، المرجـع السابق ، ص ٨٥ ـ ٨٦ •

(٢) Holt op. cit., pp. 62-63

بالجهود العسكرية الرامية لاستتباب الأمن والنظام • وانتهى الأمر بالغاء اللامركزية، واعادة وظيفة الحكمدارية مع سلطاتها المركزية القديمة في أيار ١٨٦٢ ، وعيّن سعيد موسى حمدي باشا في منصب الحكمدار بالخرطوم •

وتابع اسماعيل (١٨٦٣ — ١٨٨١) سياسة (السودنة) ، فشغل السودانيون الوظائف الهامة ، وصار منهم المديرون ونظّار الاقسام والمعاونون •• وأنشئت المجالس المحلية في المديريات للفصل في قضايا الاهلين ، وأشرك شيوخ القبائل مع الاهلين في تحمّل مسؤوليات الحكم • وظهر الاهتمام بالتعليم والزراعة والتجارة، واستمرت مكافحة الرق والنخاسة • ولكن لم تنفّذ اجراءات المكافحة التي تقضي باعادة توطين الرقيق المصادرين على حساب التجار الجلاّبة ، وانما جلب العبيد الى الخرطوم • وفي غياب التدابير التي تضمن مستقبلهم ، اضطرت الادارة السودانية لتجنيد الكثير منهم بدافع انساني في الظاهر • واكتسب موسى حمدي باشا ثناء السودانيين ، بفضل اصلاحاته ، وظل في منصبه حتى مات في الخرطوم (١٨٦٥) • وخلفه جعفر صادق باشا ، لستة شهور ، اضطره المرض بعدها للعودة الى مصر ، فتولى جعفر مظهر باشا الحكمدارية لست سنوات تقريبا ، وقد عني بعمران الخرطوم ، وعرف بحبه للعلم والادب ، وسعيه لتنوير أذهان السودانيين • وخلفه اسماعيل أيوب باشا (١٨٧٣ — ١٨٧٧) فخطا خطوات واسعة في تطبيق سياسة (السودنة) • وربط أقاليم السودان بخطوط البرق (التلغراف) كما ربطها بمصر ، وباشر مدّ السكة الحديدية بين وادي حلفا والخرطوم ، وشهد عهده نهضة تعليمية •

ووضع الخديوي اسماعيل نصب عينيه تحقيق هدفين متلازمين ، وهما توطيد دعائم الادارة المركزية في المناطق النائية والقضاء على النخاسة • وكان من مقتضيات محاربة النخاسة والقضاء على الرق في مواطنه الاصلية ، شنّ حرب حقيقية ضد تجار الرقيق وقواتهم المسلحة ، لاستخلاص المناطق الشاسعة منهم • الامر الذي استتبع التوسع المصري في الجنوب ، بضم مديرية خط الاستواء ، وفي الشرق والجنوب بضم بوغوص وهرر وتاغورة وزيلع وبربرة • وفي الغرب بضم دارفور •

وتسبب هـذا التوسع في السودان الشرقي الى حرب بين مصر والحبشة (١٨٧٦)، وأدى الى عقد معاهدة الغاء الرقيق مـع انكلترة (آب ١٨٧٧) ، ثم بعـد حوالي الشهر ، توقيع المعاهدة المصرية الانكليزية بخصوص ساحل الصـومال[١] . ولكن التشدّد في محاربة تجارة الرقيق ، ورغبـة مصر في الغائها نهائيا في فترة محـددة بضغط من انكلترة ، سجّل فصلا جديدا في تصاعد الأزمة الداخلية في السودان ، وأفضى في النهاية الى الثورة المهدية . وفيما يلي شيء من التفصيل :

باشر اسماعيل مكافحـة تجارة الرقيق ، فأنشأ قـوة بوليس نهري (١٨٦٤) لاعتراض قوافل تجار الرقيـق أثناء عودتهم من الجنوب . ولكن هذه الاجراءات لم تفلح ، بسبب الرشاوى التي بذلها التجار للدوريات ، وتفادي محطات المراقبة . وأهم من ذلك ، لان مصادر الرقيق ومناطقه ، لا تزال خارجة عن سيطرة الحكومة المركزية في الخرطوم . ولذا جهزت الحكومة حملتين احداهما بقيادة محمد الهلالي (أو البلالي) للسيطرة على اقليم بحر الغزال المأهول بكبار تجار الرقيق . والثانية بقيادة المكتشف الانكليزي السير صموئيل بيكر ، للقضاء على النخاسة في النيـل الاعلى ، بتوطيد سلطة الحكومة في غندكرو وامتـلاك الاقاليم الواقعة جنوبهـا ، لأنها موطن الرقيق ومستقر زرائب التجار المسلحة ، اضافـة الى فتح سبل هـذه المناطق أمام التجارة المشروعة ، واعادة الامن الى ربوعها .

كان الهلالي تابعا في الاصل لسلطان دارفور الذي بقيت سلطنتـه خارج نطاق الحكم التركي ـ المصري ، ولم تكن تابعة للسيادة العثمانية . ثم نشب خلاف بـين السلطان والهلالي ، فلجأ هـذا الى حكمدار السودان جعفر مظهر باشا الذي سانده بموافقة الخديوي ، وعيّنه مـديرا على اقليم بحر الغزال ، ورأى فيه أداة يمـدّ بواسطتها نفوذ الخرطوم على كامل الاقليم . ولكن الهلالي واجـه خصما قويا في شخص الزبير بن رحمة الجميعاني ، كبير تجار الجزء الغربي للاقليم المذكور ، كمـا

---

(١) شكري ، مصر والسـودان ، ص ٩٠ . و « الحكم المصري في السـودان » ص ١٧٢ .

واجه خصومة تجار الاقليم الذين رفضوا قبولــه مديرا على بحر الغزال • وشنّ الهلالي هجومه على الزرائب والتجار ، وسارع الزبير لمعونة زملائه التجار ، فقتل الهلالي في المعركة ، وتوطــد نفوذ الزبير في بحر الغزال • وأدرك الزبير أنه لا قبــل له بحملات الحكومــة ، فأظهر الخضوع والطاعــة للخديوي اسماعيــل ، وأعلن استعــداده للسفر الى القاهرة • ولكن الظروف اضطرتــه لتاديب عربان قبيــلة الرزيقات جنوب دارفور (١٨٧٣) بسبب تعدّيهم على قوافل بحر الغزال • فانتصر عليهم ولجأ زعماؤهم الى سلطان دارفور الــذي رفض تسليمهم بدعوى أنهم مــن رعاياه • وكافأت الحكومة الزبير بتعيينه مــديرا على بحر الغزال • وحــين حاولت قبائل الغور استرجاع اقليــم الرزيقات ، خاض الزبــير معركة حاسمة عند قريــة (منواشي) ضد جيش يقوده السلطان ابراهيم بــن الحسين ، أسفرت عن انتصار الزبير ومصرع السلطان (تشرين الاول ١٨٧٤) • ودخل الزبير عاصمتــه الفاشر ، وبعد ثلاثة أيام دخلها الحكمدار ، وحرّر جميع العبيد الموجودين فيها • ولم يلبث أن اختلف الزبير مع الحكمدار ، وارتحل الى القاهرة ليعرض أمره على الخديوي ، فاحتجز فيها ومنح الباشوية ، ولم يسمح له بالرجوع الى السودان •

أما بيكر فقد أقلعت سفنه من الخرطوم جنوبا عبر النيل الابيض ، ولكنه لم يستطع أن يحقق غرض الحملة في القضاء على تجارة الرقيق لأن التجار نجحــوا في اثارة القبائل ضد الحمــلة ، فاضطر بيكر للحصول على تموينه بالقوة مــن قبيلة باري • وتقــدم حتى وصل الى مازندري على بحيرة ألبرت ، ولكن ملك أونيورو ازورّ منه بعد الترحيب به ، وقطع عنه المؤن ، فغادر بيكر المنطقة الاستوائية بعــد أن أنشأ ثلاث محطات مسلحة في غنــدكرو وفويرة وفاتيكو ، للسهر على الامــن ومراقبة النخاسين ، فضلا عن مدينة التوفيقية التي أسسها علــى بعد أربعة أميــال من مصب السوباط في النيــل الابيض • ولكنه لم يستطع فتح النهر للملاحة النهرية الى البحيرات الاستوائية ، ولا وضع سفينة بخارية في بحيرة ألبرت[1] •

---

(١) شكري ، الحكم المصري في السودان ، ص ١٧٦ .

وتعبيرا عن صدق عزيمة الخديوي اسماعيل في القضاء على النخاسة ، وقع اختياره على انكليزي آخر ، هو الكولونيل تشارلز جورج غردون ، لمتابعة مهمة بيكر ، فتمكن خلال ثلاث سنوات قضاها في المنطقة الاستوائية أن يقيم حكومة في العاصمة الاقليمية (لادو) شمال غرب غندكرو (١٨٧٤) ، ويحقق بعض الكشوف الجغرافية ، ويفتح بحيرة ألبرت للملاحة ، وينشىء عددا من المحطات المسلحة التي ساعدت على ضرب النخاسين هناك ، كما سعى لمصالحة القبائل التي استاءت من اجراءات بيكر القمعية .

ويمكن إجمال ما اقتضته مكافحة الرق من التوسع والفتح المصري في السودان الشرقي ، وعلى طول ساحل البحر الاحمر الغربي حتى مضيق باب المندب ، وعلى بلاد الصومال حتى نهر جوبا[1] ، وفقا للتسلسل الزمني التالي : بدأ تحقيق ذلك منذ عام ١٨٧٠ حين توجه اسطول مصري الى مياه بلهار وبربرة ، وهما ميناءا سلطنة أو إمارة هرر ، ومنذ أن عيّن حاكم مصري على جميع الشاطىء الافريقي من السويس الى رأس غردافوي . وفي عام ١٨٧٢ استولى السويسري منزنغر Munzinger حاكم مصوّع على اقليم بوغوص (أو سنهيت) بين التاكة ومصوّع ؛ لأنه يتعذر القضاء على النخاسة في تلك الجهات دون اخضاع اقليم بوغوص الذي استخدمه الاحباش لارسال حملات صيد الرق ، وسلب محاصيل الاهلين ومواشيهم ، وبث الاضطراب والفوضى . وفي العام التالي عين منزنغر حاكما للسودان الشرقي ، فشملت سلطته سواكن في الشمال ، وراحيتا (رهيطة) في الجنوب ، وكيرن ، وكسلا ، في الشرق . وكلف بمكافحة النخاسة في هذه الارجاء . وفي عام ١٨٧٥ حصلت الخديوية المصرية على ميناء زيلع مقابل مبلغ سنوي يدفع للخزينة السلطانية ، وكانت من قبل قد ضمّت مصوع وسواكن اليها ، وبذلك أصبح ساحل البحر الاحمر الافريقي كله تحت السيادة المصرية . وفي العام نفسه ، انطلقت حملة من زيلع الى هرر ، وهي أهم مواطن الرقيق ، بقيادة محمد رؤوف

---

(١) شكري ، مصر والسودان ، ص ١٢٥ .

باشا الذي اجتاز اقليم العيسى بين الحبشة والاملاك المصرية عند تاغورة في الجنوب • وانتصر في معركتين على قبائل الغالا ، ثم دخل هرر ، وبدأ القضاء على تجارة الرقيق • وباشرت حملة مصرية السيطرة على الساحل الممتد من رأس غردافوي جنوبا الى مصب نهر جوبا ، بقيادة الاسكتلندي ماكيلوب McKillop ، ولكنها اضطرت للانسحاب من قسمايو بعد احتجاج سلطان زنجبار من آل البوسعيد على خرق حقوقه ، بتحريض الانكليز • ولكن الفتوح في السودان الشرقي أسفرت عن تطويق الحبشة ، واثارة أحقادها ، لأن الاحباش كان لهم ادعاءات في اقليم بوغوص وساحل البحر الاحمر • وحين تكررت غاراتهم على الحدود المصرية السودانية ، جهز اسماعيل ضدهم حملتين الاولى بقيادة السويدي أرندوب Arendup ، والثانية بقيادة السويسري منزنغر ، فقتل منزنغر غيلة في تشرين الثاني ١٨٧٥ ، وبعده بيومين هزم أرندوب في معركة (غشندت) • وتوجهت حملة مصرية جديدة ضد الاحباش بقيادة راتب باشا ، ونشبت الحرب المصرية الحبشية التي انتهت بخسارة جسيمة للطرفين • وبعد موقعة (قثرع) طلب ملك الحبشة يوحنا الرابع الصلح ، فعقدت الهدنة ، وانسحب الاحباش الى عدوة ، والمصريون الى مصوع • ولم يتم الاتفاق على تسوية العلاقات بينهما ، حتى ما بعد الثورة المهدية ، وانسحاب الحاميات المصرية من السودان • فقد نصّت معاهدة عدوة (١٨٨٤) على تسهيل الحبشة الانسحاب المصري من شرقي السودان الى مصوع عبر أراضيها ، مقابل استحواذها على اقليم بوغوص •

كذلك ارتبط بهذا التوسع والفتح المصري ، تدخل الحكومة الانكليزية للضغط على مصر ، كيما تبذل قصارى جهدها ، للقضاء على الرق والنخاسة • والحق أن مصر لم تقصّر في ذلك ، لأن التوسع أو الفتح لم يكن غرضا مقصودا لذاته ، وانما كان باعثه محاربة تجارة الرقيق في عقر دارها • فقد وضعت الخديوية منذ عام ١٨٦٥ رقابة صارمة على نشاط التجار في النيل الابيض ، وحظرت تصدير الاسلحة والبارود الى السودان لئلا يستخدمه التجار ضد الحكومة • وقد لازم تنفيذ هذا البرنامج ، فتح الاقاليم سالفة الذكر ، واغلاق منافذ تصدير الرقيق عبر موانىء البحر الاحمر سواكن ورهيطة ومصوع وتاغورة وزيلع وبلهار وبربرة •

وبما أن تجارة العاج كانت تخفي وراءها تجارة الرقيق ، فقد أعلن غردون عام ١٨٧٤ احتكار الحكومة لتجارة العاج ، كما أوجب على من يذهب الى مديرية خط الاستواء ، أن يحمل (تذكرة) خاصة من حكمدار السودان ومن مأموريه في غندكرو أو سواها . ولكن هذا القرار أصاب تجارة الرقيق بضربة قاصمة ، وكان من عوامل الثورة المهدية . ذلك أنه ترتب على التشدد في طلب (التذكرة) من جميع التجار ، أن تعطلت الملاحة في النهر الذي أغلق في وجه التجارة المشروعة ، فتضررت تجارة السودان بوجه عام ، وتململ التجار جميعا من تدابير الحكومة ، وراحوا يعملون على مقاومتها .

ومنذ عام ١٨٧٣ ثقلت وطأة الضغط الانكليزي على اسماعيل ، لتوقيع معاهدة تقيد اسماعيل ، وتلزمه بضرورة ابطال تجارة الرقيق من السودان وملحقاته بحلول عام ١٨٨٠ . اضطر الخديوي لتوقيع المعاهدة في آب ١٨٧٧ التي أجمع المعاصرون على أنه كان يتعذر تنفيذها[1] . فالرق في السودان الفه الناس منذ أقدم العصور ، وأصبح جزءا هاما في حياتهم الاقتصادية والاجتماعية . فالزراعة وسقي الماشية ورعيها ، يقوم بمعظمه الرقيق . اضافة الى أن أهل السودان يؤمنون بأن الرق أمر أقرّه العرف وأجازته التقاليد ، وان تجارته مشروعة كالعاج . ويرتبطون بالجلابين والنخاسين بصلات القرابة . والقبائل الجنوبية نفسها تتعاون مع التجار لتحارب أعداءها من القبائل الاخرى لاسترقاقهم . والسودان بلاد مترامية يصعب فرض رقابة فعالة على طرقها . ولذلك كانت سياسة الالغاء العنيفة ، والاعتماد على السيف والنار لتنفيذها ، أمرا بعيدا عن الحكمة ، وأفضل منها سياسة (التقييد) التي تضمن زوال الرق والنخاسة بازالة أسبابها وابطال الحاجة الى الرقيق والقضاء على النخاسين .

وقد اضطرت مصر الى اتخاذ اجراءات قمعية قاسية للوفاء بالتزاماتها ، واختير غردون لهذه المهمة الشاقة . وكان اسماعيل قد عينه في منصب حكمدار السودان

---

(١) شكري ، مصر والسودان ، ص ١٣٥ .

(شبـاط ١٨٧٧) فكان أول اوربي مسيحي يشغل هـذا المنصب • وكان يرى في البداية أن الزمن وحده كفيـل بتصفية هـذه التجارة الشائنـة ، اذا أمكن حظر امتلاك الرقيق بعد تاريخ محدّد • وحين أصرّت انكلترة على تنفيذ (الالغاء) بدل (التقييد) ، واستخـدام القوة القاهرة ، صـدع غردون ، فوقعت عليـه ، وعلى انكلترة قبله ، مسؤولية الاحداث الدامية التي فجرت الثورة المهدية •

ونشط غردون في مصادرة أموال النخاسين واعتقالهم ، وبلغ من حماسه أنـه تشكك في نزاهـة جميع الموظفين المصريين في حكمداريـة السودان ، واتهمهـم بالاتجار بالرقيق ، والتواطؤ من النخاسـين على افساد مشاريعه ، فعمـد الى طرد طائفة كبيرة منهم في تموز ١٨٧٨ ، وأبدلهم بأربعة عشر موظفا أوربيا[١] ، وقليـل من السودانيين ، وكان عدد من المطرودين ، للمفارقة ، قد نالوا الرتب والنياشين بناء على توصية من غردون نفسه قبل وقت قصير[٢] • والادهى من ذلك أن غردون لم يحقق في أمر المطرودين ، بل اعتمد على صحة ما نقله عنهم أعداؤهم ومنافسوهم من وشايات وتهم باطلة ، الامر الذي هزّ الثقة بالحكومة ، وأضعف مكانتها في نفوس الاهلين • فضلا عن أنه منح ثقته لعدد من الموظفين السودانيين الفاسدين ، فسلكوا مسلكا نفّر منه القلوب وحرك كوامن الحقد عليه ، فعظم تذمر الناس من الحكومة، واشتد كرههم لها • ويبدو أن غردون كان مسيحيا متعصبا ولغته العربيـة ركيكة ، وكان لا يثق بمرؤوسيه المصريين ، كما كان يضعف ادارته ، اعتماده على طائفة مـن السودانيين والاوربيين غير المجربين وغير اللائقين بعملهم •

وشن الحكام والمفتشـون الاوربيون حربا شعـواء على تجارة الرقيـق ؛ والاهلون الذين هم أقارب النخاسين ، ولا تخلو بيوتهم من الاماء والعبيد ، سهل

---

(١) ومنهم الالماني شنتزر لمديرية خط الاستواء ، والايطالي جسي على مديريـة كردفان ، والنمساوي سلاتين Slatin لمديرية دارفور ، والانكليزي لبتون Lupton لمديرية بحر الغزال ، والالماني غيفلر لمكافحة النخاسة وسواهم •

(٢) Holt, op. cit., P. 71.

عليهم الاعتقاد بأن هذه الحرب الدائرة التي يقودها المدراء المسيحيون ضـدهم ، انما هي حرب دينية قائمة على التعصب الديني[1] .

وكان مـن أثر هـذه السياسة الصارمة ، أن لجأ النخاسـون الى أوكارهم القديمة في بحر الغزال ودارفور وكردفان ، وأشعلوا فيها الثورات . وعمل غوردن بالتنسيق مع اثنين من مرؤوسيه الايطاليـين : جيسي Gessi في بحر الغزال ، حيث قضي على سليمان الزبير ، ابن الزبير باشا (آذار ١٨٧٩)وميساداغليا Messadaglia في دارفور ، حيث قضي على هارون ، قريب سلطان دارفور السابق . وهزم غردون صباحي في كردفان ، وهو أحد قواد الزبير السابقين . وأعقب ذلك هدوء ظاهري ، ولكن بقي الجنوب الغربي معاديا للادارة الحكومية . ولقطع تموين سليمان الزبير ، فوض غردون ، زعماء البقّارة ، بسلب التجار الجلابة في مناطقهم ، فلجـأ الناجون وأقارب التجار الى الابيّض وحواضر كردفان ودارفور ، وقد سقطت عنهم حمايـة الحكم المصري فجـأة[2] . وكان يتعـذر إحكام تدابير الرقابة الفعالـة في مناطق الاضطراب ، الا بوجود الحكومة القوية في الخرطوم . ولكن في الظروف الحرجة التي كانت تمر بها الخديوية المصرية ، لم يكن ذلك ممكنا . ففي الوقت الذي كانت تقمع فيها ثورات النخاسين ، وتضطرب البـلاد بالتذمر والفوضى بسبب مبالغـة الموظفين الاوربيـين في سياسة (الالغـاء) التي زلزلت كيان البـلاد الاقتصادي والاجتماعي ، تدخلت الدول لتخلع اسماعيل في حزيران ١٨٧٩ وتنصب ابنه محمـد توفيق مكانه . ولم يبق غردون طويـلا في الحكمدارية بعد عزل صديقه وسنـده الخديوي ، فاستقال عام ١٨٨٠ وخلفه محمد رؤوف باشا .

وظهر ردّ الفعل في السودان ، بانتعاش تجارة الرقيق في بحر الغزال ودارفور ، وبدأت مراكب الجلابين في النيل الابيض تحمل الرقيق وتفرغ شحناتها عند فاشودة التي كانت محطة لمراقبة السفن وتفتيشها ، وسرت العدوى الى الموظفين والمـدراء

---

(١) انظر المزيد من التفاصيل حول هذه النقطة في شكري ، المصدر السابق ، ص ٢١٨ نقلا عن ميخائيل شاروبيم « الكافي في تاريخ مصر القديم والحديث» ج ٤ ص ٣٧٩ .

(٢) Holt, op. cit., p. 72.

السودانيين الذين عيّنهم غردون ، فباشروا تجارة الرقيق دون وجل • وبذل رؤوف باشا كل ما بوسعه لتنفيذ معاهدة الرقيق ، منذ حضوره الى الخرطوم في حزيران ١٨٨٠ ، وبنفس الشدة والصرامة التي اتبعها سلفه ، وارتكب نفس خطأه ، من حيث الاستعانة بالموظفين الاجانب في محاربة النخاسة ، فانتقل التذمر الى سواد الشعب ، وتوحدت كلمة الاهلين وتجار الرقيق ، على اسقاط الحكم المصري في السودان ، وطرد الاجانب • ومما زاد في موجة السخط أن الحكومة لم تخفف عن الاهلين عبء الضرائب ، ولا رفعت عنهم قسوة جباتها (الباشبوزق) ، برغم مالحق بهم من خسارة ، نتيجة تحرر الرقيق الذي يملكونه ، ونتيجة احتكار الحكومة كل أسباب التجارة كوسيلة من وسائل محاربة الرق • وكذلك عمت الشكوى من انهيار العدل في المحاكم ، واستهتار غردون ورجاله بالتقاليد الاسلامية[1] • وصار نشوب ثورة جديدة أمرا وشيكا ، لا سيما اذا استغل زعيمها مشاعر الغضب والاستياء ، وحوّلها الى ثورة تنتظم سواد الشعب ولا تقتصر على تجار الرقيق كالثورات السابقة • ولم تلبث الثورة أن قامت في جزيرة آبا التي تقع على النيل الابيض ، بزعامة فقيه زاهد اسمه محمد أحمد بن عبد الله •

الثورة المهدية والدولة المهدية في السودان :

ولد محمد أحمد عام ١٨٤١ في جزيرة لبب جنوب دنقلة لأب يحترف صناعة السفن ، ومال منذ صباه الى العلم والتفقه في الدين ، فحفظ القرآن وتلقى بعض العلوم الدينية ، وعُرف بالزهد والورع ، ورأى بعد أن درس الفقه والشريعة أن يلتحق بالطريقة السمانية الصوفية ، ويرتقي في مراتبها الروحية ، ولذا غادر الخرطوم ورحل الى جزيرة آبا على النيل الابيض ، التي تبعد ١٥٠ ميلا جنوب الخرطوم ، حيث بنى مسجدا للصلاة وخلوة للتدريس ، فكثر أتباعه ، وصارت المراكب المتجهة الى فاشودة ، تقف في الجزيرة ، ويتبرك به ركابها ، وقصده عبد الله التعايشي من البقارة ، وأصبح من أتباعه •

(١) انظر امثلة عن كل ذلك في شكري ، الحكم المصري في السودان ، ص٢٢٧ــ٢٢٩ .

ومعلوم أن الجو الديني في السودان كان مهيأً لقبول فكرة المهدي المنتظر ، والسودانيون بفضل تدينهم العميق كانوا يلتحقون بالطرق الصوفية ويعظمون الاولياء والصالحين ويحتفلون بكراماتهم . وقام محمد أحمد بجولة في كردفان ، وجبال تقلي ، وعند رجوعه وجه رسائل الى رجال الدين يدعوهم فيها لنصرة الدين وتأييد المهدية التي اختصه الله بها . وحين سمع به الحكمدار رؤوف باشا أرسل حوالي المائتين من الجنود للقبض عليه ، فانهزموا ، وقتل معظمهم في واقعة آبا (آب ١٨٨١) على يد الانصار . ومنذ أن كتب محمد أحمد في تلك الليلة على راياته الخمس عبارة (محمد المهدي خليفة رسول الله) أصبح يعرف باسم محمد المهدي . وقرر المهدي مغادرة الجزيرة الى جبال النوبة في كردفان ليكون بعيدا عن متناول الحكومة ، فاستقر في جبل (قدير) وتوافد عليه الاتباع المريدون ، ودعا المهدي أتباعه الى الجهاد في سبيل الله وسماهم بالانصار ، وذاع صيته ، بينما حاول الحكمدار رؤوف باشا التهوين من شأنه والتقليل من أهميته ، وهزم المهدي قوة أخرى في نهاية عام ١٨٨١ قادها مدير فاشودة وتقدر بحوالي ١٥٠٠ جندي ، وانتشر خبر انتصاره في أرجاء السودان ، فقصده الالوف للانضمام اليه ، ومما ساعد المهدي أن العرابيين لم يولوا أحداث الثورة المهدية عناية كافية ، وعزوا انتصاراتها الى تقصير رؤوف باشا فاستدعوه وعينوا مكانه عبد القادر حلمي باشا ، فوصل الخرطوم في أيار ١٨٨٢ . وفي غضون ذلك وافقت حكومة القاهرة على تسيير حملة جديدة قوامها ستة آلاف جندي لمطاردة المهدي في جبل قدير ، ولكن المهدي أنزل بها هزيمة ساحقة وقتل الشلالي قائد الحملة . وترددت أصداء هذا النصر في أنحاء البلاد ، فآمن المتشككون أنه المهدي المنتظر الذي ينتظره المسلمون لاحياء الكتاب والسنة ، والذي أيد مهديته بانتصارات مؤزرة على جنود الحكومة بأسلحتها النارية الفتاكة ، بينما أنصاره يحاربون بالسيف والحربة والفأس والعصا .

ومهما قيل في دوافع الثورة وأسباب انتصارها فلا بدّ من القول ان انتصارات المهديين تعزى أساسا الى العامل الروحي الذي كان يدفعهم الى عدم المبالاة بالموت والتسابق لنيل الشهادة والفوز بنعيم الآخرة . وبدهي ان المهدي اعتمد على اذكاء الشعور الديني لتأليب الاهلين ضد الحكومة ، بدعوى أنها فقدت

طاعة محكوميها لانها على حد" قول المهدي : « استخدمت أولئك الاجانب والدخلاء وولـّتهم أمور العباد فحكـّموا سيوفهم في رقابهم وأتوا ما أتوه من الظلم وقتـل النفوس وهتك الاعراض •• »[١] •

وبعد ابادة حملة الشلالي ، توقفت العمليات الحربية بسبب موسم الامطـار ، وشن كل من الحكمدار والمهدي حربا دعائية ضد الآخر ؛ فالاول استكتب العلماء في تكذيب دعوى المهدية ، وضرورة طاعة ولي الأمر • والثاني أكد أنه جاء لتطهـير الفساد واقامة العدل والدين • وبعد أن تدفقت الوفود على المهدي مـن مديريات كردفان ودارفور والجزيرة لتنتظم في صفوف الانصار ، انتقل المهدي مـن الدفاع الى الهجوم • وتوجه بنفسه مع حشد كبير من قواته الى الأبيـّض عاصمة كردفان (ايلول ١٨٨٢) وشددوا الحصار عليها • وطلب عبد القادر حلمي المدد العسكري لفك الحصار عن الأبيـّض وعن بارة شمالها • ولم يسع الحكومة المصرية ، بترخيص من انكلترة ، إلا أن تجمع فلول جيش عرابي الذي سرح بعد الاحتلال ، وتبعث بهم الى السودان ، بقيادة ضابط مصري لأن الثورة المهدية ترتكز على أساس ديني • ولكن عهد برئاسة أركان الحملة الى الانكليزي هيكس الـذي كان ضابطـا في الجيش الهندي • واتضح منذ اللحظة الاولى أن الجنـود المصريين لم يكونـوا متحمسين للسفر ؛ فالانكليز يحتاون بلادهم ، والآن يطلب منهـم محاربة المهدي وأتباعـه المسلمين في السودان • وراود أذهانهم أن القصد من ارسالهم هو الخلاص منهم ، ولذا وضع بعضهم في السـلاسل وبعث بهم الى السـويس لتنقلهم البـواخر الى سواكـن[٢] •

أما في كردفان ، فقد تدهورت أحوال حاميتي الأبيـّض وبارة ، وقطع الانصار الطريق على قوة قادمة لنجـدتهما في تشرين الاول ، ودخـل الشتاء ، واستسلمت

---

(١) انظر مآخذ المهدي على الحكومة في نعوم شقير : « تاريخ السودان الحديث وجغرافيتـه » ج ٣ ص ١٥٨ ، ١٦٢ ، ٢٢٠ ، ٢٣٦ ، ٢٥٠ ، ٢٦١ ، ٢٨٤ ، ٣٤٥ ، ٣٨٣ الخ ... نقلا عن شكري ـ الحكم المصري .. ص ٢٣٤ ـ ٢٣٥ .
(٢) شبيكة ، المصدر السابق ، ص ٤٨ .

حامية بارة ، وأقسمت على الـولاء للمهدي ، وتبعتها بعـد أيام حاميـة الأبيّض (١٩ كانون الثاني ١٨٨٣) وهكذا استهـل عام ١٨٨٣ ، الـذي يعتبر عام النصر لقوات المهدي ، بالاستحواذ على أهم مدينتين في كردفان . وبينما تمكن عبد القادر حلمي من صدّ هجمات الانصار في النيـل الابيض والنيل الازرق ، ورفع حصارهم عن سنار ، وحصّن الخرطوم ، استدعي الى القاهرة في شباط ١٨٨٣ ، لأنه كـان في الوزارة العرابية قبيل مجيئه الى الخرطوم .

وتجمعت قوات الحملة المصرية في الخرطوم ، وبلغ عددها اثني عشر الفا[١] ، ومعها الحكمدار الجديد علاء الدين باشا ، وبعد نزاع هيكس مع زعماء الحملة ، عيّن قائدا لها . وفي أواخر ايلول ١٨٨٣ فارقت النيل وبلدة الدويم الواقعـة عليه ، وكلما تقدمت زادت مشاكل المياه ، وظهر الانصار أمامها أفرادا وجماعات ، يطلقون النار ويختفون ، والاهالي غربي الـدويم يغادرون محلاتهم ويحرقـون ما بقي ، وتفاقم الخلاف بين ضباط الحملة ، وانهارت الروح المعنوية للجنـود . وانضم الى قوات المهدي ، الجهادية السّود الذين سلموا في حامية الابيّض ، وأرهقوا تقـدم الحملة بنيرانهم . وجرت المعركة في غابة شيكان (٥ تشرين الثاني ١٨٨٣) فأبيدت الحملة عن بكرة أبيها ، وقتل هيكس وعلاء الدين باشا ، وعلى أثر ذلك استسلمت دارفور ، وكان يحكمها النمساوي سلاتين ، في أواخر عام ١٨٨٣ ، وأرسلت قـوة من الانصار الى بحر الغزال ، واستسلم مديرها الانكليزي لبتون في نيسان ١٨٨٤. واستطاع مبعوث المهدي ، عثمان دقنه ، بعـد تحالفه مـع الشيخ المتصوف طاهر المجذوب ، أن يشكل جيشا قبليا ، يقطع طريق المواصـلات الحيوي بـين سواكن وبربر ، ويحتل سنكات وطوكر في شباط من العام نفسه ، وامتنعت عليه سواكن ، وبذلك تعذر عن طريقها ارسال الامدادات الى داخل السودان .

والحق أنه كان لهزيمة شيكان تأثير حاسم على موقف الحكومة الانكليزية في السودان ، هذا الموقف الذي تغيّر منذ ١٠ كانون الاول بسبب هزائم القـوات

(٣) وفي تقدير آخر عشرة آلاف ، انظر شكري .. مصر والسودان ، ص ٢٩٠ .

المصرية على يد عثمان دقنه في السودان الشرقي ، حتى باتت سواكن نفسها مهددة بالسقوط • واتخذت الحكومة الانكليزية من هـذه الهزائم ، اضافة الى هزيمـة هيكس ، ذريعة لمطالبة الحكومة المصرية بالجلاء عن السـودان ، وباشرت الضغط عليها لتتخلى عـن البلاد الواقعة جنوب وادي حلفا • وقابل السير افلين بارينـغ القنصل الانكليزي ، والحاكم الفعلي في مصر ، الخديوي توفيق ، وأبلغه تعليمات حكومته بهذا الشأن • وبينمـا وافق توفيق على اخـلاء السودان من الموظفـين والحاميات العسكرية المصريـة ، رفض شريف باشا رئيس الوزراء هـذا الطلب ، باعتبار أن مصر لا يحق لها التنازل عن أملاكهـا في السودان بموجب فرمـان آب ١٨٧٩ ، وان مصر بتخلّيها عن السودان تسهم في ذيوع صيت المهدي الذي سيغدو السلطان الاوحد على كل أقاليم السـودان ، وستنضم اليه القبائـل التي ما زالت موالية لمصر كالعبابدة والبشارية ، وان مصر بسبب حرمانها من الحدود الطبيعية ، ستتعرض لاقتحام العدو لها من كل جانب ، « ولذلك فليس في وسع حكومة سمو الخديوي أن تتخذ قرارا بالتخلي عن أرض تعتبر ضرورية لسلامة مصر بل ولحياتها ذاتها » • وبما أن للثورة المهدية طابعا دينيا ، فالحكومة المصرية ترى الحلّ الامثل في تدخل القوات العثمانية • والباب العالي لن يمانع في تقديم هذه المعونـة لمصر ، لأنه تلقى معونتها في القرم وكريت والصرب والبلغار ، ولأنه يدرك « أن الحاجـة ملحة لهذه المعونة لمنع امتداد الثورة الى طرابلس الغرب وبـلاد العرب »[1] • وفي مذكرة لاحقة ، قال شريف ان حكومته ستطلب من الدولة العثمانية ارسال عشـرة آلاف جندي • واذا رفضت تعيد اليها السودان الشرقي والموانىء الواقعة على البحر الاحمر • وتتولى القوات المصرية الـدفاع عن وادي النيل الممتـد من الخرطوم الى الشمـال •

وأجابت الحكومة البريطانية في ٤ كانـون الثاني ١٨٨٤ ببرقيتين ، تقـول في الاولى انها لا تمانع في ارسال الجنود العثمانيين الى سواكن شرط أن يدفع الباب

---

(١) انظر نص المذكرة الشفويـة التي بعث بها شريف باشا الى بارينـغ بتاريـخ ٢٢ كانون الاول ١٨٨٣ ، في شكري ، مصر والسودان ، ص ٣٠٤ ــ ٣٠٦ .

العالي نفقاتهم ، كما توافق على اقتراح ارجـاع شواطىء البحر الاحمر والسودان الشرقي الى الباب العالي في حالة امتناعه عن ارسال الجنود • أما فيما يتعلق بتمسك مصر بوادي النيل من الخرطوم الى الشمال ، فذكرت الحكومة البريطانية أنه ليس في قدرة مصر الدفاع عن الخرطوم ، ولـذا فهي تطلب سحب القوات المصرية مـن الخرطوم ومن داخل السودان •

وفي البرقية الثانية ، تهـدد البريطانيـة بتغيير الوزارة المصريـة التي ترفض نصيحة الحكومة البريطانية ،وتستبدل بها وزارة تقبل العمل بنصيحتها وتنفذ سياسة الانسحاب من الخرطوم ومن داخل السودان(١) •

وقدم شريف باشا في ٧ كانون الثاني ١٨٨٤ استقالـة وزارته ، وورد فيهـا : « ان الاسباب التي حملت النظار على الاستعفاء هي أن حكومة مصر ترى أنه مـن الممكن المحافظة على أملاكها السودانية التي بيدها الآن بواسطة ١٠ آلاف جندي ، وان التخلي عـن السودان مضر بمصلحة مصر سياسيا وتجاريا •• وان حكومـة مصر لا تقبل مطلقا برقيـة اللورد غرانفيـل وزير الخارجيـة البريطانيـة القائلة بوجوب قبول كل نصيحة انكليزية بدون تردد ما دام جيش الاحتلال موجـودا في مصر • وان كل ناظر (وزير) لا يكون مشربه انكليزيا لا يلزم وجوده في النظارة ، فهذا مناقض لنص الدكريتو (المرسوم) الخديوي الصادر في ٢٨ آب ١٨٧٨ القائل بأن النظارة مسؤولة أمام الخديوي ليس إلا ، وبناء عليه لا تستطيع النظارة الحالية قبول ما تطلبه انكلترة »(٢) • وقال شريف كلمته المشهورة : « اذا تركنا السودان ، فالسودان لا يتركنا »(٣) • وعرض توفيق تأليف الوزارة على رياض باشا ، فاعتذر وقال له : « انني اود لو كنت ناظرا في نظارة شريف باشا حتى يكون لي شيء مـن فخر موقفه المشرف » • وخشي بارينغ ألا يقبل أحد من المصريين تأليف الـوزارة ،

---

(١) انظر نص البرقية الثانية الحرفي ، في شكري ، المرجع السابق نفسه ، ص٣٠٩ •
(٢) انظر نص كتاب الاستقالة الكامل ، شكري ، المصدر نفسه ، ص٣١٠ و٣١١ •
(٣) انظر عبد الرحمن الرافعي : مصر والسودان في أوائل الاحتلال .. القاهرة ١٩٤٢ ، ص ١٢٤ ــ ١٢٥ •

فهدد بأنه سيتولى بنفسه زمام الحكومة ، فاضطرب الخـديوي ، وقبل بسياسـة التخلي عن السودان بأسره ، كما رضي نوبار باشا بتشكيل الوزارة على أسـاس الجلاء عن السودان ، ومعنى ذلك ضياع نصف الدولة المصرية ، مع جهود الآلاف من المصريين الذين ضحّوا في سبيله • واقتضت هـذه السياسة سحب الحاميـات المصرية من الخرطوم ومن جميع أنحاء السودان ، واتخاذ ما يلزم لاختيار الطريـق المناسب للانسحاب ، وتأمين المواصلات وتوفير المؤن والحراسة للمنسحبين •

وهكذا تذرعت الحكومة الانكليزية بانتصار المهديـين في شيكان والسودان الشرقي ، لتغيّر موقفها من مصر والسودان ؛ فبعد أن أعلنت مرارا أمام البرلمـان أن احتلالها لمصر موقت ، ورفضت استخـدام جنود بريطانيـين أو هنود لمعاونـة المصريين على الاحتفاظ بالخرطوم والاقاليـم الاخرى ، اذا بهـا تدّعي بأن مصر عاجزة عن الصمود في وجه قوات المهدي ، وان عليها أن تجلو عن السودان • وكان واضحا أن شريف باشا وسواد المصريين رأوا أن المطالبة بالجلاء عن السودان انمـا هو فخ نصبه الانكليز لإطالة أمد احتلالهم لمصر • ولا بدّ أن الحكومة الانكليزية شعرت بالارتياح لأن انتصار الثورة المهدية أعطاها ذريعة للبقاء في مصر ، عن طريق الادعاء بأن مصر ، بمواردها وقواتها الخاصة ، سوف تعجز تماما ، ليس فقط عـن الاحتفاظ بالخرطوم والاقاليم الاخرى ، التي لا تزال بحوزتها ـــ ناهيك عن استرجاع الاقاليم السودانية التي سيطر عليها المهدي ـــ وانما أيضا عن مدافعة القوات المهدية عـن حدود مصر الجنوبية • ولذا فليس بدّ مـن بقاء وزيادة القوات البريطانية في مصر للقيام بهذه المهمة ، وبعد ذلك ، ستوجد الظروف المناسبـة التي تتيـح لهـا اعادة فتح السودان ، وملء الفراغ الناتج عن دحر الثورة المهـدية ، مع المحافظة على المظاهر التي تقتضيها مشاركة مصر في استعادة السودان •

عهد الى الجنرال غردون بتنفيذ سياسة جلاء مصر عن السودان ، وعيّنـه الخديوي حاكما عاما ، وزوّده بكتابين يتحدث أولهما عن استعادة الحكومة القوية المنظمة في السودان ، ويعلن الثاني سياسة الجلاء عن السودان واخلائه من الجنود والموظفين المصريين • وارتكب غردون عـدة أخطاء جسيمة كانت مـن عوامل فشله،

فقد استهان بقوة الثورة ، وفهم الموقف على غير حقيقته • وأوهم نفسه أنه سوف يقضي عليها ويعيد الهدوء والسلام الى السودان في خلال شهر واحد • ومن ناحية آخرى ، رأى أن الثورة ليست دينية في أساسها ، وانما مناهضة للنظام التركي ــ المصري ، وان المهدي ليس إلا أداة بيد مالكي الرقيق في الأبيّض عاصمة كردفان • ومن أخطائه الناجمة عن سوء التقدير ، أنه عقد آمالا عظيمة على نتائج حملة بيكر التي توجهت من مصر بحرا الى السودان الشرقي لتشتيت قوى عثمان دقنه ، ورأى أن نجاحها سوف يعرقل ارسال قوات المهدي الى منطقة النيل أي الى الخرطوم ، وسوف يوهن حماس المهدي نفسه • ولكن بيكر هزم في ٤ شباط ١٨٨٤ ، ووصلت أخبار هزيمته الى غردون ، وهو في بربر ، فأراد أن يمحو أثرها ، بجملة اجراءات تقر به من الاهلين • ولذا أعلن على الملأ انفصال السودان عن مصر ، وتعيين موظفين سودانيين في المناصب الهامة • وتشكيل قوات عسكرية محلية ، والاعفاء من الاموال الاميرية المتأخرة ، وتخفيف الضرائب الى النصف[1] •

ولكن أخطر أخطائه ، كان حين جمع مدير بربر وأعيانها ، وأبلغهم بأن الخديوي ترك السودان لأهله ، وأن مهمته تنحصر في ارجاع العساكر الى مصر • وكان ينبغي على غردون الامتناع عن كشف ذلك • فمن الثابت أن المهدي وقف على قرار الحكومة المصرية بالجلاء عن السودان ، وجعل حدودها عند وادي حلفا ، ولذا دعا جميع المترددين للانضمام اليه ، وبيّن لهم عدم جدوى الولاء لحكومة تتهيأ لسحب حامياتها من البلاد ومغادرتها بسرعة ؛ ولذا توجهوا اليه مع كل الذين تخوّفوا من غضب المهديين بعد انسحاب الحكومة ، وانضووا تحت لوائه •

ويبدو أن قصد غردون من نشر رغبة الحكومة في الجلاء عن السودان ، هو أن يحفز همة السودانيين لتنظيم حكومتهم وتسهيل انسحاب المصريين من داخل

(١) شكري ، المصدر السابق ، ص ٣٢٥ ــ ٣٢٦ .

السودان . ولكن السودانيين لم يروا هذا القصد . وخطأ آخر ارتكبه غردون في بربر أيضا ، هو ابطال الاوامر الصادرة بالغاء الرقيق ، اذ رأى أن من العبث التمسك بالغاء النخاسة في وقت تقرر فيه الجلاء عن السودان ، وفاته أن ذلك الاعلان كان بمثابة تأكيد على عزم الحكومة الجلاء عن السودان ، هذا الى أنه زاد ثقة تجار الرقيق بأنفسهم ، ومعلوم أن الكثيرين منهم كانوا يساندون ثورة المهدي[1] .

وكان غردون عند وصوله الى كورسكو ، قد وجّه كتابا معنونا باسم محمد أحمد (المهدي) يعرض عليه أن يعترف به سلطانا على كردفان ومعه كسوة التشريفة، وطلب انهاء الحرب القائمة . وقد رفض المهدي عرض غردون ، وردّ كسوة التشريفة ، وبدلا منها ، عرض على غردون أن يعتنق الاسلام ، وأرسل اليه جبة الانصار ليلبسها . فغضب غردون ، وتحقق أن التسوية السلمية مستحيلة ، وطلب من حكومته تعيين الزبير باشا المحجوز في القاهرة ، ليعاونه في الحكومة التي اعتزم تأسيسها . كما اقترح ارسال الفرق الهندية الى السودان « لسحق المهدي » ، وأوهم أهالي الخرطوم أن القوات البريطانية ستصل الخرطوم خلال بضعة أيام . ورفضت الحكومة البريطانية طلبه ، لان الزبير من كبار تجار الرقيق وعودته تساعد على تنشيط هذه التجارة[2] ، والأهم من ذلك لخشيتها أن ينجح الزبير في اخماد الثورة المهدية ويسترجع الحكم المصري الى السودان ، وبالتالي يبطل الدعاوى البريطانية المطروحة للبقاء في مصر . ولم يمض على غردون في الخرطوم سوى اسبوع واحد حتى اتضح له كل شيء ؛ فالمهدي أهمل عرضه ، وحين بعث بردّه كان الحصار قد بدأ فعلا على الخرطوم ، وبدأ أنصار المهدي في الجزيرة وشرقيها ، يناوشون حامية العاصمة . ولم يتسلم غردون ردّ حكومته بشأن تعيين الزبير باشا ، لأن خط البرق (التلغراف) كان قد قطع حوالي ١٢ آذار ١٨٨٤، فلبث ينتظر بلهفة قدوم المساعدة العسكرية التي طلبها ، قبل سقوط المدينة بيد

(١) المصدر نفسه ، ص ٣٢٦ – ٣٢٩ .
(٢) الرافعي ، المصدر نفسه ، ص ١٣٥ .

المهدي . ولكن هجوم الانصـار على الخرطوم تقرر أن يتم في ٢٦ كانون الثـاني ١٨٨٥ ، قبيـل وصول حملة الانقاذ الانكليزية بقيادة ولسلي الذي حارب المصريين في التـل الكبير ، والتي كان المهـدي يرصد تقدمها بعناية . وحين فرّ الى معسكر المهدي ضابط حامية من الخرطوم ، وأخبر المهدي بوجود ثغرة في الخنـدق المحفور للدفـاع عن المدينة ، أُعطيت أوامر الهجوم فجرا ، فسقطت الخرطوم في أيـدي الانصار ، وقتل غردون[1] . وكـان سقوطها مؤذنـا ببدء السيطرة المهدية عـلى السـودان بأكملـه .

بنى المهـدي تعاليمه الدينيـة ومذهبه في التجديد على دعامتين هما : بساطة الديـن والعمل بمقتضاه . وكان يتمسك بالكتـاب والسنة ، ولا يحتفل باختلاف المذاهب وتعدد النحـل ، ولا يلقي بالا الى أكـداس المتون والشـروح والفروع والتفاصيـل والخلافات التي رأى أنها تحجب الهدايـة وتورث البلبلة . فالاسلام هـو دين الفطرة الانسانية ، وفهمـه ميسور للمسلم العـادي ، ولـذا أبطـل المـذاهب الاربعـة .

عكف المهـدي على الـدرس والتحصيـل والتصوف ، وخاطب النـاس في منشوراته وأحاديثـه على قـدر عقولهم ، ورأى كيف تردّت حـال المسلمـين في السودان ، وسمع الكثـير عن تأخرهم في البلدان الاسلامية الاخرى ؛ فالشريعـة معطلة ، والحكومة والقضاء ، يقومان على العرف والعـادة والقوانـين الوضعية . ويغلب على الحكام التساهـل في تطبيق أوامر الدين ونواهيه ، فضلا عـن البدع والضلالات والشوائب والخرافات التي علقت بالدين ، وسيطرت على سواد الامة ، وأبعدتهم عن جوهره الأول وعمـوده الاصلي . ولـذا عمد المهدي الى تجديـد الدين بمحاربة السحر والشعوذة ، واقامـة حدود الشريعة وترسيـخ قيم التقشف والزهـد في نفوس أنصاره ، وهـذا ما جعلهم يتسابقون الى الموت بنفوس راضية للفوز بالشهـادة .

---

(١) انظر تفاصيل الحصار ، والرسائل المتبادلة بين المهدي وغردون ، في شبيكة ، المصدر السابق ، ص ٥٩ — ٦٨ .

وكان يلبس وأتباعه جبة مرقعة كلبس الدراويش . وهذا ما دعا بعض الكتاب لتسمية أتباعه بهذا الاسم . ومنع النساء من لبس الحلي الفضية والذهبية ، ويسّر الزواج بخفض المهور وتكاليف الافراح وحرّم الرقص والغناء .

وبدأ في وضع كتاب يحتوي العبادات والاحكام الشرعية والمعاملات ، ليكون مرجعا لأنصاره ، ولكن المنية عاجلته في ٢٢ حزيران ١٨٨٥ قبل أن يفرغ منه ، وخلفه ساعده الايمن عبد الله التعايشي ، ولم يكن مثله في الدين والزهد والتصوف ، وانما كان رجل الادارة والجيش ، وهو فضلا عن ذلك لا يجمع في شخصه ـ كالمهدي ـ الزعامتين الزمنية والدينية ، ولذا صار ضروريا لاستمرار الدولة المهدية ، ولنجاح خلافته ، أن يؤسس نظاما حكوميا لمواجهة مشكلات الحكم والادارة والحرب .

تسلم الخليفة عبد الله التعايشي زمام الدولة المهدية ، وكانت انكلترة تأمل أن تسود الفوضى صفوف المهديين بعد وفاة المهدي الفجائية . وفي ٥ تموز ١٨٨٥ تم جلاء المصريين عن دنقلة نهائيا ، ووضعت قوات في وادي حلفا وأسوان لحماية حدود مصر الجنوبية . وحاول الانصار غزو مصر ، ولكنهم هزموا في نهاية عام ١٨٨٥ وتوقفت محاولاتهم عند هذا الحد لانشغالهم بمشكلات أخرى . وكان سقوط الخرطوم ، وانسحاب حملة الانقاذ ايذانا بضياع الاملاك المصرية في السودان بالجلاء عنها ، إما لتقع بيد الدولة المهدية ، أو لتستولي عليها الدول الاوربية في سباقها الاستعماري لامتلاك افريقية وللتوغل في أطراف السودان والسيطرة على منابع النيل وروافده الاستوائية . ففقدت مصر أملاكها في بحر الغزال وسنار ودارفور وخط الاستواء وفي السودان الشرقي ، وساحل البحر الاحمر والصومال وهرر[1] . وبرغم أن المهديين استولوا على بحر الغزال وسنار ودانت لهم دارفور ومديرية خط الاستواء واحتلوا السودان الشرقي ـ كسلا والقضارف ، فقد اضطروا الى الجلاء عن بعض هذه الاقاليم بعد سنوات قليلة .

(١) انظر تفاصيلها في شكري ، المصدر السابق ، ص ٣٦٠ ـ ٣٧٠ .

فأخلوا بحر الغزال (١٨٨٦) ودارفور . واحتل الاحباش بوغوص (١٨٨٥) بموجب معاهدة مع مصر ، وهرر (١٨٨٧) . واقتسم الانكليز والفرنسيون والايطاليون بلاد الصومال فيما بينهم ، وتوغل الانكليز في اوغندة ، والفرنسيون والبلجيكيون في بحر الغزال ، حتى وصلوا أعالي النيل في السنوات التالية .

ويبدو أن الحماس الديني أخذ يفتر لدى الذين ناصروا الثورة مدفوعين بتأثير شخصية المهدي الجذابة ، وبرؤى الفتوحات التي كانوا يمنّون أنفسهم بها . وبعد وفاته ، أطاعوا خليفته عبد الله لا عن عقيدة به وانما انقيادا لحكمه ، فهم ينصرونه أو يخذلونه بقدر ما تمنحه لهم الادارة الجديدة ، أو تحبسه عنهم من أسباب الرزق والسلطان ، وبقدر ما تنصبهم في وظائفها أو تعزلهم عنها .

وكان المهدي قد جعل (الخلافة) من نصيب أربعة من الخلفاء ، جعل مراتبهم كمراتب الخلفاء الراشدين الاربعة ، وسمّاهم في حياته ، وأولهم الخليفة عبد الله التعايشي ، والثاني علي ود حلو ، والثالث خصّصه للسيد محمد المهدي السنوسي في واحة الجغبوب ، وظل كرسيه شاغرا لأن السنوسي رفض عرض المهدي ، والرابع هو محمد الشريف ابن عم المهدي .

ولكن الخليفة عبد الله جرّد زميليه تدريجيا من السلطة ومن الاتباع لأنه خشي على مركزه منهما ، وأدمج جيشيهما في جيش أخيه يعقوب الذي عهد اليه بتصريف شؤون الدولة العسكرية والمالية والادارية . واستبدل بقواد الجيوش وحكام الاقاليم ، آخرين من أقربائه وأتباعه الموثوقين ، وأنشأ حرسا خاصا عرف باسم الملازمين ، بلغ عددهم تسعة آلاف ، وجعل ابنه عثمان آمرا عليهم ورشحه للملك بعده . واقتضت هذه السياسة أن يولي الخليفة في مناصب القيادة والادارة رجالا من التعايشة ، وأن يجعل اعتماده على أولاد البلد أو أهل الغرب ، وأغلبهم من قبائل البقارة الذين هم أهله وعشيرته ، للاعتداد بقوتهم ضد منافسة أولاد العرب أو أهل النيل .

ولم يلبث أن تذمر الاشراف ، وهم أقارب المهدي وأتباعه من أولاد العرب ،

لإبعادهم عن شؤون الحكم والادارة ، وشكوا من استئثار أولاد البلد بالجاه والنفوذ ، وهم في رأيهم ، دونهم دراية وكفاية(١) •

ويبدو أن الاشراف التفوا حول الخليفة محمد الشريف ، وتآمروا على خلع عبد الله في تشرين الثاني ١٨٩١ ، وحضر آتباعهم سرا الى أم درمان ، ولكن انكشف أمرهم ، ووقعت المناوشات وسط المدينة بين الفريقين ، ثم جرت المصالحة • ولكن الخليفة انتقم من رؤسائهم بالقتل فيما بعد ، وكان ذلك بداية الانشقاق في الصفوف المهدية •

وكان الخليفة قد دعا عددا وفيرا من البقارة من دارفور وكردفان الى أم درمان عام ١٨٨٧ ، لمساندته ضد زعماء القبائل المتمردة عليه ، وفي مقدمتهم شيخ الرزيقات مادبو الذي قبض عليه وأعدم (١٨٨٧) • وقضت حملة أخرى في العام نفسه على مقاومة الكبابيش الذين عاشوا في الصحراء من شمال كردفان حتى دنقلة ، ولم يتقبلوا المهدية ، وأعدم زعيمهم الشيخ صالح الذي اتصل بالحكومة المصرية بغية التعاون معها للعودة الى السودان • وفي دارفور لم تنقطع الثورات من أمراء البيت المالك السابق ؛ فقد ثار في نهاية عام ١٨٨٧ الامير يوسف لاسترداد ملك آبائه ، ولكن عثمان آدم قائد الخليفة في الغرب تمكن منه وقتله • وكانت ثورة أبو جميزة أخطر ثورة داخلية واجهت الخليفة الذي هزمت قواته وارتدت الى الفاشر عاصمة دارفور ، ولكن قائد الثورة مات بالجدري ، وواصل أخوه أساغة الزحف ، ولكنه هزم (١٨٨٩) •

وبرغم الصدوع الداخلية في الدولة المهدية ونشوب الثورات ضدها ، لم يتقاعس الخليفة عبد الله عن تنفيذ ما كان يسعى اليه المهدي في حياته ، وهو نشر الدعوة المهدية في العالم الاسلامي وبقية البلدان ، وهذا كسب بحدّ ذاته نظرا لما قد تناله الدولة المهدية من اعتراف الدول بها • وكان المهدي قد كتب الى عدد من سلاطين أعالي النيل ، والى السيد السنوسي والى أهل مصر والخديوي

---

(٢) انظر شبيكة ، المصدر السابق ، ص ٨١ •

توفيـق ، يدعوهم الى الايمان بمهديّته ، كما دعا يوحنـا ملك الحبشة لاعتنـاق الاسـلام • وبادر الخليفة أيضا بارسـال الكتب الى هؤلاء ، يخبرهم بخلافتـه ويدعوهم الى المهدية والجهاد • وكتب الى قبائل الحجاز ، وسمّى عاملا عليهم من قبله ، والى أهل المدينـة المنورة ، وقبيلة قريش ، وأهل نجـد وسواهم •• والى السلطان عبد الحميد والملكة ڤيكتوريا ، وكان يذيع خبر هـذه الكتب لترفع ذكره وتزيد سلطانه[1] •

وعلى خلاف النجاح الذي حققه الخليفـة على صعيد السياسة الداخليـة ، فقد واجهته في السياسة الخارجية طائفة من المشاكل عجز عن حلّها وأدت في النهاية الى انهيـار دولته • لقـد اعتقد الخليفة أن كسب الحروب والمعـارك يزيد مـن سمعتـه وهيبته في الداخـل والخارج معا ، فتستمر قوية عزيزة الجانب ، وهـو ما حفزه على الدخـول في حروب مع الحبشة ومـع مصر ، دون أن يقـدّر قوة خصومه ، أو ما يترتب على هزيمتـه • على الجبهة الحبشية ، استمرت مناوشـات الحدود بين الطرفين ، ثم تطورت الى هجوم شنّه الاحباش في مطلع عام ١٨٨٧ على (القلابات) ذات الاهميـة الاستراتيجية ، فأحرقوهـا وقتلوا عاملها • فاستدعى الخليفـة من الغرب أحسن قـواده حمدان أبو عنجـة ، وبعث به الى القـلابات على رأس جيش كبير فوصلها في كانون الاول ، وتوغل في الحبشة ، وهزم الاحباش على بعـد ثلاثين ميلا شمال غندار (ڤندر) ، وفي أوائل العام ١٨٨٩ زحف عـلى ڤنـدر نفسها فغنم منها وأحرقها وعـاد الى القلابات • وخرج ثانيـة بعد أربعـة شهور ، ولم يتعرض له أحد ، فعاد أدراجـه • وعرض امبراطور الحبشة يوحنـا الصلح على الخليفة ، لأن قواه قد أنهكت مـن جهة ، ولأن الطليان منذ احتلالهم مصوع في شباط ١٨٨٥ قـد هـددوا الحبشة بحروب مستمرة ، من جهة ثانية[2] • ولكن الخليفـة اشترط لقبول الصلح اعتناق الامبراطور للاسلام • وفي غضـون

---

(١) انظر حول ذلك ، شكري ، المصدر نفسه ص ٣٨٠ ـ ٣٨١ • وانظر أيضـا مقاطع من كتب الخليفة الى أهل مصر والى الخديوي توفيق والى السلطان عبد الحميد ـ شبيكة ص ٨٤ ـ ٨٥ •

(٢) انظر فحوى كتاب الامبراطور الى الخليفة عبد الله ، شبيكة ص ٨٩ ـ ٩٠ •

ذلك مرض أبو عنجة ومات ، ليخلفه الزاكي طمل الذي ألحق بالاحباش هزيمة بالغة في واقعة القلابات (آذار ١٨٨٩) وجرح الامبراطور فيها جرحا مميتا ، فشاعت الفوضى في صفوف الاحباش ، وطاردهم الانصار وهزموهم ثانية في موقعة عطبرة ، حيث عثروا على الامبراطور القتيل ، واستولوا على غنائم ضخمة ، بينها تاج الامبراطور . وبهذا النصر وصل الخليفة أوج سلطانه السياسي والعسكري ، وامتدت حكومته في أقطار السودان باستثناء مديرية خط الاستواء التي كان يحكمها أمين باشا باسم مصر ، ولم يستطع الخروج منها إلا في أوائل عام ١٨٨٩ برفقة حملة الرحالة ستانلي الانكليزي ، وسواكن التي بقيت في حوزة الانكليز .

زها الخليفة بهذا النصر ، واعتزم أن يتبعه بغزو مصر الذي اضطر لتأجيله بسبب مشكلاته الكثيرة ، وعين عبد الرحمن النجومي قائدا للحملة التي تجمعت حشودها في دنقلة ، فشن عددا من الغارات على النقاط المصرية حول حلفا ، ولكنه انهزم شمالها ، ثم وصلته الامدادات فتابع الزحف برغم نفاد المؤن والاغذية لديه ، وانهيار الروح المعنوية بين جنوده[1] . وفي ٣ آب ١٨٨٩ خاض سردار (قائدعام) الجيش المصري غرانفيل معركة طوشكي ، ومعه طائفة من القواد الانكليز مثل كتشنر وونغت ، وانهزم الانصار ، وتقهقروا الى الجنوب على مسافة ١٣٠ ميلا جنوب وادي حلفا .

وفي السودان الشرقي ، استمرت المناوشات بين عثمان دقنة وحاكم سواكن كتشنر . وحين عقد الايطاليون معاهدة اوتشيالي (١٨٨٩) وأعلنوا انشاء مستعمرة ارترية في العام التالي ، تخوفت الحكومة البريطانية من هجوم الايطاليين على النيل الاعلى والسودان ، اضافة الى أن سيطرة الانصار على السودان الشرقي بما فيه طوكر والقلابات قد أسفر عن تنشيط تجارة الرقيق في البحر الاحمر . وقام حاكم مصوع الجديد هولد سميث بهجوم ناجح على عثمان دقنة ، فاستولى

---

(١) انظر أسباب انهيار قوة جيش النجومي في كتابه الموجه للخليفة ــ شبيكة ص ٨٧ .

على طوكر ، وتراجع دقنة الى عطبرة ، وكانت هذه أول هزيمة تلحق بالانصار على ساحل البحر الاحمر • وفي كانون الاول ١٨٩٣ هزم الايطاليون حملة مهدية في ارترية في معركة أغوردات ، ومهدوا بذلك لسقوط كسلا في أيديهم (تموز ١٨٩٤) بموافقة الانكليز • وقبل أن نتابع الحديث عن معركة عدوة التي هزم فيها الايطاليون هزيمة ساحقة (١ آذار ١٨٩٦) وما ترتب عليها من عزم الانكليز على استعادة السودان والقضاء على الدولة المهدية ، ومواجهة الفرنسيين في فاشودة ، يحسن بنا أن نجمل تطور العلاقات بين الدول الاوربية المتسابقة لاستعمار افريقية عامة وأعالي النيل خاصة ، ونتابع تأثيرها على استقلال السودان ومستقبله •

كان من الحقائق الدولية في العقدين الاخيرين من القرن الماضي ، ما تولد من الجفوة بين فرنسة وانكلترة نتيجة انفراد انكلترة باحتلال مصر ، واستغلال بسمارك هذا ليحول دون تقارب التحالف الفرنسي الروسي المعادي له بانكلترة ، وذلك عن طريق تأييد الاحتلال الانكليزي لمصر • هذا التأييد الذي كانت تصطدم به فرنسة كلما أثارت الصعوبات أمام الاحتلال الانكليزي ، أو طالبت بانهائه • ومقابل ذلك ، حملت المانية الانكليز على التسليم بمشاريعها الاستعمارية في افريقية • وفيما يتصل بالسودان وأعالي النيل ، فقد همّت ايطالية وفرنسة وانكلترة اضافة الى الحبشة ، بالاستيلاء عليها ، واكتساب المزيد من الاراضي والثروة في أعقاب انتصار الثورة المهدية وفشل غردون ونهايته واخلاء السودان عام ١٨٨٥ ، واعتبرت أن أقاليم السودان مثلك مباح لا صاحب له Res Nullius لولا معارضة انكلترة التي كانت تود الاستئثار بها حين تسنح الفرصة المناسبة ، وضمّها الى امبراطوريتها الافريقية التي تطلعت لانشائها بين البحر المتوسط ورأس الرجاء الصالح • وقد عملت انكلترة جاهدة للحيلولة دون وقوع الاقاليم السودانية في يد دولة اوربية تهدد الاحتلال الانكليزي في مصر ، وتتحكم في مياه النيل وتلحق الضرر بمصالح الاستعمار البريطاني نفسه في افريقية الشرقية والوسطى • ونجح الانكليز في منع توغل فرنسة وايطالية والحبشة في أعالي النيل من ناحية البحر الاحمر بفضل تساهلهم مع ايطالية للاستقرار في مصوع

وتأسيس مستعمرة إرترية ، والسماح باحتلالها الموقت لمنطقة كسلا حتى نهر عطبره ، بغيــة تأمين مراكزها في ارتريــة ، وذلك على أســاس ان ايطاليــة دولة لا تخشى انكلترة بأسهــا ، وأنهــا تقف حائلا دون توغــل الفرنسيين غربا مــن الصومال الفرنسي [١] • ونجحت انكلترة في اقناع ايطالية بنظرية أن السودان ما زال جزءاً من الدوله العثمانيــة في العرف الــدولي ، وتابعــا لمصر • أما في ساحل افريقيــة الشرقي ، فقد تفاهمت انكلترة مع المانية (١٨٨٦ و ١٨٨٩)[٢] على رسم حــدود مناطق النفوذ التابعة لهما على حساب سلطنة زنجبــار ، فاحتفظت انكلترة بأعــالي النيــل حتى الحدود المصرية ، وتم ابعاد النفوذ الالماني عن أعالي النيــل (١٨٩٠)، بعــد أن تنازلت المانية عن كل ادعاء لها في اوغندة ـــ القاعدة الاستراتيجية الهامــة للامتداد نحو حوض النيــل • وفي الغرب اتخذت انكلترة احتياطات لحماية أعالي النيــل والسودان ، فسمحت للممتلكات الالمانيــة في الكامرون أن تمتــد شمالا حتى بحيرة تشاد ، وشرقا حتى حدود الكونغو البلجيكي[٣] ، والغرض هو قطــع الطريق على الفرنسيين للوصول الى حوض النيل • ولكن الاتفاق الذي وقعتــه فرنسة مع الملك ليوبولد الثاني البلجيكي (١٨٩٤) عدّل الحدود لصالح فرنســة بين أملاكها في افريقيــة الاستوائية وأملاكــه في الكونغــو ، وأخليت المراكز التي كانت تعوق تقــدم الفرنسيين الى مشــارف بحر الغزال عــن طريق الكونغو[٤] • ولمعارضة مشروع وصل القاهرة برأس الرجاء الصالح في خط متصــل عبر الاراضي

---

(١) حصلت فرنسة على المنطقة الواقعة على خليج تاغورة مــن سلطان المنطقــة ومشايخها عن طريق البيع (١٨٦٢) أو التنازل (١٨٨٤) ، واسست محطة عند راس جيبوتي ، ورسمت الحدود الفاصلة بين المنطقتين الانكليزية والفرنسية في الصومال ، باتفاق سري بين الدولتين (شباط ١٨٨٨) . ومنذ عام ١٨٩٦ صارت المنطقةالفرنسية تعرف باسم الصومال الفرنسي وعاصمتها جيبوتي .

(٢) لمزيد من التفاصيل عن تطور السيطرة الالمانية هناك ، انظر شكري ، المصدر السابق ، ص ٤٠٤ ـــ ٤١٠ .

(٣) امتد النفوذ البلجيكي في حوض نهر الكونغو ، ووافق مؤتمر برلين (١٨٨٤) الذي نظر في تقسيم مناطق النفوذ بين الدول الاستعمارية في افريقية .. على انشاء (ولاية الكونغو الحرة) تحت سيادة ليوبولد الثاني ملك بلجيكة .

(٤) شكري ـــ مصر والسيادة على السودان ، ص ٦٤ .

البريطانية ، ظهر مشروع وصل ساحل المحيط الاطلسي بساحل البحر الاحمر ، في خط من المراكز الفرنسية • وقد شبّه ذلك بقطع الكمثرى الافريقية بالعرض قبل أن تقطعها انكلترة بالطول • واستوجب ذلك ربط الممتلكات الفرنسية في شرقي افريقية وغربها ، عن طريق أعالي النيل • وأمرت الحكومة الفرنسية في تشرين الثاني ١٨٩٥ بارسال حملة الى فاشودة بقيادة الضابط مارشان • وكانت هزيمة الايطاليين — أصدقاء انكلترة ، أمام الاحباش — حلفاء فرنسة ، في معركة عدوة (١ آذار ١٨٩٦) نذيرا بتحطّم السد الذي أقامته انكلترة في وجه الفرنسيين للحيلولة دون وصولهم الى أعالي النيل من ناحية الشرق • واستنجدت ايطالية بانكلترة ليقوم الجيش المصري بمناورة عسكرية من سواكن أو من حلفا ليجذب أنظار الخليفة بعيدا عن كسلا ، وليمنع اتحاد دولتين افريقيتين (الحبشة والسودان) من القضاء على نفوذ دولة اوربية (ايطالية) •

حتى قبيل معركة عدوة ، كان اللورد سولسبري رئيس الوزارة البريطانية ، يتمسك بفضيلة التريث فيما يتصل بالدولة المهدية في السودان • وقد كتب الى افلين بارينغ الذي صار منذ ١٨٩٢ اللورد كرومر ، في شباط ١٨٩٦ : (إن لعبة الانتظار هي أفضل سياسة مع الخليفة) • ولكن هزيمة ايطالية في عدوة ، نسفت « لعبة الانتظار » ، فقد تزايد ضغط الخليفة على كسلا ، وانهيار مقاومتها يعني حتما المزيد من القوة للمهديين بين قبائل المنطقة ، ومتابعة الضغط على سواكن ، وتزايد مكانة الخليفة وجيوشه على الحدود الشمالية مع مصر • وقرر سولسبري التدخل السريع ، ليس فقط لمعونة الايطاليين في كسلا واظهار بادرة ايجابية تجاه المانية حليفة ايطالية ، ومنع المهديين من تحقيق أي نجاح هناك ، وانما أيضا لتثبيت النفوذ البريطاني باتجاه النيل جنوبا •

قام كتشنر قائد الجيش المصري باسترجاع السودان على مرحلتين : في المرحلة الاولى أنشأ خطا حديديا على طول نهر النيل لتسهيل خطوط مواصلاته • وقبل وصوله الى دنقلة تفشى وباء الكوليرا في جيشه ، ومات منه الكثيرون ، ثم دخل دنقلة بعد أن أخلاها قائد الحامية المهدية دون مقاومة (ايلول ١٨٩٦) • ثم

اتضح أن استعادة الخرطوم ومتابعة الزحف في السودان ، مما يفوق الامكانيات المالية والعسكرية للحكومة المصرية ، ولذا توقف الهجوم وتأجل القضاء على الدولة المهدية • ولكن الحكومة البريطانية عدلت موقفها في أقل من ثلاثة شهور ، بسبب تأكدها من نشاط الفرنسيين في أعالي النيل من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، بسبب تحوّل القوات المهدية من الدفاع الى الهجوم وتصميمها على استرجاع بربر ، متشجعة بموقف الجمود الذي وقفه الجيش المصري بعد احتلال بربر[1] • وحين اقتنع كرومر أن الموقف الدفاعي لن يجدي ، قرر سولسبري في أواخر كانون الثاني ١٨٩٨ تخويل كتشنر الزحف على الخرطوم •

وفي نيسان ١٨٩٨ ، نشب قتال شديد انتصر فيه كتشنر على القوة المهدية في موقعة عطبرة التي فتحت الطريق الى أم درمان • وحينذاك عزم الخليفة على البقاء في أم درمان والدفاع عنها ، ودعا الكثير من جند حامياته في الاقاليم لتعزيز قوته ، وبنى القلاع على شاطىء المدينة لمقاومة السفن الحربية ، وتجمع لديه نحو ستين ألفا جلّهم من الجهادية السود وقبائل البقارة • وفي مطلع ايلول تحركت قوات الخليفة مسافة ستة أميال شمال أم درمان ، وعسكرت في ضاحية كرري • وخشي كتشنر الذي عسكر مقابله ، أن يهاجمه الخليفة ليلا فيكسب المعركة بالسلاح الابيض ، ويفقد كتشنر تفوق أسلحته المتقدمة الحديثة • ولذا أشاع جواسيسه في معسكر الخليفة أن كتشنر سوف يهاجمهم ليلا ليتخذوا موقف الدفاع • وفجر اليوم التالي أمر الخليفة جيشه بالهجوم ، فتصدى له جيش كتشنر بالمدافع البعيدة المدى وبالرشاشات ، وهو سلاح يستخدم لاول مرة ، وانتصر كتشنر ولكن بصعوبة[2] • وسقط من جيش الخليفة ما يزيد على العشرة آلاف قتيل بينهم يعقوب أخو الخليفة[3] • وسجلت معركة كرري نهاية الدولة المهدية في السودان ،

---

(١) باحتلال بربر (آب ١٨٩٧) انسحب المهديون من تلال البحر الاحمر ، وتركت قوة مصرية من سواكن في أواخر عام ١٨٩٧ ، واستلمت كسلا من الايطاليين حسب الاتفاق السابق معهم •

(٢) Holt, op. cit., P. 106.

(٣) انظر تفاصيل معركتي عطبرة وكرري ، د. يونان لبيب رزق «السودان في عهد الحكم الثنائي الاول » (١٨٩٩ — ١٩٢٤) ، مطبوعات معهد البحوث والدراسات العربية بالقاهرة ١٩٧٦ ، ص ٢٢ — ٢٨ •

وكانت مثلا للفارق الكبير بين الجيوش الحديثة ذات المواصلات المنظمة والامدادات القويـة متمثلة بالجيش المصري ـ البريطاني • وبين جيش الخليفة الـذي تعوزه الاسلحة الحديثة والتدريب الجيـد ووسائل المواصلات الناجعـة ، ولا يكاد يمتاز إلا بروح عالية من الحماس الديني • ودخـل كتشنر أم درمان ، وأباحها لجنـده ثلاثة أيام ، وأمر بهدم حلقة المهدي[1] ، بينمـا توجه الخليفة مع بقايا جيشه غربـا الى كردفان لمواصلة النضال ، وأسرع كتشنر الى الجنوب ، حيث وصـل فاشودة على النيل الابيض (٢١ ايلول ١٨٩٨) مع ألف وثمانمائة جندي من الجيش المصري ومائة جندي بريطاني وقوة من المدفعية ، حيث وجـد أن الضابط الفرنسي مارشان قـد سبقه فعلا الى احتلالها منذ ١٠ تموز ، مصحوبا بستة ضباط أوربيين ونحـو مائة وعشرين جنديا سنغاليا ، ورفع العلم الفرنسي على أنقاض القلعة المصرية هناك • وكانت فرنسة قبـل ذلك قد اتفقت مع ليوبولد ملك بلجيكة على تجهيز حملتـين في الكونغو لمساعدة مارشان ضد هجوم محتمل عليه من المهديين ، كما تم الاتفـاق سرا مع الحبشة على ارسال حملة حبشية لملاقاة حملة فرنسية قادمة من الغرب عنـد النيل الابيض[2] ، ولكن تعذر وصول هذه الحملات بسبب بـدء سقوط الامطار ووجود المستنقعات والنهيرات الكثيرة التي حالت دون تقدمها •

وأصر كتشنر في مقابلة صاخبـة مع مارشان ، على أن فاشودة من الامـلاك المصرية ، وأنه ملزم باحتلالها باسم الخديوي وطلب اخلاءها فورا ، وأجاب مارشان انه ينتظر تعليمات حكومته بهذا الشأن • وغادر كتشنر فاشودة بعد أن رفع العلم المصري على البلدة ، وترك حامية فيها ، وحظر وصول الاسلحـة والامدادات الى

---

(١) شكري ـ مصر والسيـادة على السودان ص ٦٥ • والدراسـات العربيـة بالقاهرة ١٩٧٦ ص ٢٢ ـ ٢٨ •

(٢) وقع منليك الثاني نجاشي الحبشة مع لاغارد La garde حاكم الصـومال الفرنسي معاهدة سرية (٢٠ آذار ١٨٩٧) لتقاسم السيطرة في حوض النيـل الابيض ، تعهدت فرنسة بموجبها بدعم النجاشي في السيطرة على الضفة اليمنى من النيل الابيض ورفع العلم الحبشي عليها ، مقابل دعم النجاشي لمعتمدي فرنسة للسيطرة على الضفة اليسرى ، ورفع العلم الفرنسي عليها . انظر الشاطر بصيلي عبـد الجليل : « معالم تاريخ سودان وادي النيـل » القاهرة ١٩٥٥ ص ٢٣٠ ـ ٢٣١ •

مارشان ، وأقام نقطة عند ملتقى نهر السوباط بالنيل الابيض للحيلولة دون اتصال الحملة الفرنسية بالاحباش • وتوترت العلاقات بين الدولتين ، ووصلت الى حافة الحرب ، ولكن فرنسة مالت أخيرا للتفاهم وتراجعت ، بعد أن اتضح لها أن حليفتها روسية غير مستعدة لخوض الحرب من أجل فاشودة ، وان خطر المانية على حدود الشرقية يحتم عليها تفادي الحرب مع انكلترة • وبرغم أن فرنسة تذرعت بنظرية مفادها أن السودان ، بعد أن أخلاه المصريون ، صار أرضا لا يملكها أحد أو ملكا مباحا Res Nullius ولكن وجهة النظر البريطانية والمصرية هي التي انتصرت ؛ فالانكليز أكدوا حق مصر في السيادة على السودان قبل الثورة المهدية وأثناءها ، وقرنوه مع الحق الناجم عن قهر المهدية وفتح السودان مرة ثانية ، مع أنهم حين تقاسموا مناطق النفوذ في افريقية مع الدول الاستعمارية ، وقبل اعتزامهم استرجاع السودان ، أخذوا بنظرية (الملك المباح) التي تذرعت بها فرنسة[1] •

ويعكس حادث فاشودة خطورة المرحلة التي مرت بها العلاقات بين الدولتين، وهي استمرار للخلافات المريرة بينهما على الاستعمار في افريقية وأعالي النيل ، وعلى المسألة المصرية • وكشفت نتائج الحادث لفرنسة أنها لا تستطيع الاعتماد على تحالفها مع روسية ، ولا مناوءة انكلترة صاحبة السيطرة على البحار ، ولا محالفة المانية بسبب الالزاس واللورين • وفي حين أكد اذعان فرنسة في

---

(١) جدير بالملاحظة أن السياسة الفرنسية عامي ١٨٩٤ و ١٨٩٥ رفضت هذه النظرية ، وأكدت أن حقوق الخديوي والسلطان العثماني في السيادة على السودان مازالت قائمة برغم الجلاء عنه . ولكن لم تلبث السياسة الفرنسية أن تغيرت بعد عام ١٨٩٥ حين توغل الانكليز في اوغندة وأينورو ، وعقدوا معاهدات مع ليوبولد البلجيكي لتأجير حاجز لادو ، ومع الطليان لاحتلال كسلا الخ ... ودل ذلك على أن انكلترة ، تارة تعتبر السودان (ملكا مباحا) وتارة تتمسك بحقوق سيادة مصر والباب العالي عليه ، لتخدم مصالحها في كلا الحالين ، ولتعطل مصالح منافستها فرنسة . ولذا قررت فرنسة أن يكون لها نصيب في اقتسام الاملاك التي أخلاها المصريون في السودان، وأمرت مارشان أن يتقدم الى فاشودة . انظر تفاصيل استحواذ الدول الاستعمارية على أملاك مصر في بحر الغزال وخط الاستواء وارترية وكسلا في شكري ، مصر والسودان ، ص ٤٠٤ ــ ٤٢٥ .

فاشودة حقوق مصر في السيادة على السودان ، الا أنه بالمقابل كان صدمة قاسية منيت بها الحركة الوطنية المصرية ، لأنه دلّ بوضوح على أن فرنسة لا تنوي معارضة انكلترة في احتلال مصر ، كما دل على رغبة انكلترة في دوام احتلال مصر والسودان • وكان الوفاق الودي الذي وقعته فرنسة وانكلترة عام ١٩٠٤ مصداق ذلك ، فقد اتفقت الدولتان على اطلاق يد فرنسة في مراكش نظير اطلاق يد انكلترة في مصر • ومراعاة لخاطر فرنسة ، شطبت انكلترة اسم فاشودة من خارطة السودان فأصبح كدوك بدل فاشودة •

أما الخليفة عبد الله الذي رحل الى الغرب مع بقايا جيشه ، فقد حاولت فرقة من جيش كتشنر اللحاق بهم ، وفشلت واقتصر نشاط الخليفة على مديرية كردفان ، لأن علي دينار أحد أمراء الاسرة المالكة في دارفور ، فرّ من معتقله بأم درمان ، واسترجع عرش آبائه وأجداده هناك • ووصل الخليفة الى قدير • دار الهجرة الاولى للمهدية ، ثم اتجه شمالا لمهاجمة أم درمان فاصطدم بحملة ونغت باشا في أم دويكر قرب منهل جديد غير بعيد عن جزيرة آبا[1] ، فجر يوم ٢٤ تشرين الثاني ١٨٩٩ ، حيث وقف الانصار وقفتهم الاخيرة ، ولكنهم انهزموا ؛ ولم يشأ الخليفة أن يقع في ذلّ الاسر ، فافترش فروته ، وجلس عليها وحوله كبار أصحابه ، فقضوا جميعا برصاص الجيش الفاتح ، وبموت الخليفة ، سلّم بقية أتباعه ، وسقطت الأبيّض ، آخر معاقل المهدية • وقبل أن نطوي صفحة الدولة المهدية في السودان لا بدّ أن نعرض لحكم الخليفة عبد الله بكلمة موجزة •

سجّل سقوط الخرطوم (١٨٨٥) بداية مرحلة انفردت بها المهدية بالسلطان في معظم آقاليم السودان • وبعد وفاة المهدي محمد أحمد ، لم يستطع الخليفة عبد الله أن يجمع في شخصه الزعامتين الدينية والزمنية كما فعل المهدي ، وانما ورث نظام المهدية الذي يدعو الانصار الى أن ينبذوا حطام الدنيا ويجاهدوا لإعلاء شأن المهدية ورفع رايتها والتضحية في سبيلها • ولم يتنكب الخليفة ،

---

(١) Holt, op. cit., P. 115

بادىء الامر ، عن طريق المهدية ، بل قام بأمر الجهاد وفقا لتعاليمها ، ولكنه في أواسط حكمه ، جرد زميلية الخليفتين علي ود حلو ومحمد الشريف من منصبيهما وقوتيهما إمعانا في تركيز السلطة في شخصه • كذلك اعتمد على أولاد البلد من التعايشة والبقّارة فشكلوا غالبية الطبقة الحاكمة ، مع أنه كان يضيق بعصيانهم وتخلّفهم • ونتيجة ايثاره لأقربائه واسناد المناصب الهامة في الجيش لهم ، تمردت عليه قبائل النيل التي أصبحت في وضع ثانوي ، مع أنها القبائل التي ينتمي اليها المهدي نفسه • ولحماية نظامه المركزي، استدعى أفواجا كبيرة من البقّارة من دارفور وكردفان الى العاصمة أم درمان لمساندته ضد خصومه ، ولتكوين معظم جهازه الحربي • وبرغم تغلبه على مناوئيه ، إلا أن الصراع القبلي بدأ يسهم في اضعاف الدولة المهدية ، ويثير ضدها مقاومة سرية لحكم الخليفة عند البعض ، وموقفا سلبيا عند البعض الآخر • وحتى في السنوات الاخيرة من حكم الخليفة ، أجرى زعيم الجعليين في دنقلة اتصالات مع السلطات الانكليزية والمصرية، بغية اعادة الحكم المصري الى السودان ، ولكن الانكليز آنذاك كانوا يرون أن الوقت لم يحن بعد لاسترجاع السودان •

ولعل المشاكل الجسيمة التي واجهت الخليفة في الداخل والخارج ، كانت مسوغا يدعوه لبناء سيطرته المطلقة والمحافظة عليها ، وخاصة لمنع شمال السودان من الوقوع في الفوضى والاضطراب بعد موت المهدي • ولكن انصراف الخليفة لمواجهة الخطر الداخلي بالقضاء على خصومه واخماد ثوراتهم ، استنفد قواه وموارده ، فعجز عن مواجهة الخطر الخارجي ، واضطره الى اخلاء رقعة من بلاده في مديرية خط الاستواء وبحر الغزال ودارفور • كما أن حروبه مع الحبشة قد أضعفته في السودان الشرقي ، فلم يستطع الاستيلاء على سواكن نظرا لتشتيت قوى رؤساء جيشه هناك • وكان عجزه عن المحافظة على أطراف دولته المترامية ، قد أطمع به الدول الاستعمارية فتسابقت ، كما رأينا ، للاقتطاع منها ، دون أن يتاح له فرصة الدفاع عنها أو استردادها لانشغاله في صد الاخطار الخارجية الاخرى ، ولا سيما في الشمال مع مصر •

لقد واجه الخليفة صعوبات جمة في توطيد أركان حكمه ، وكان مما أضعف سيطرته على أقاليم السودان ، بدائية وسائل النقل والمواصلات ، اضافة الى ضعف موارده الناجم عن فقر البلاد في الثروة النباتية والحيوانية والمعدنية وافتقاره الى هيئة مدربة من الموظفين الاكفاء .

ولتلبية الحاجة الماسة الى الجند ، اضطر الخليفة الى انتزاع الفلاحين من الحقول والاراضي ، وحين اقترن ذلك بانحباس المطر ، حدثت المجاعة في السودان غير مرة ، في أعوام ١٨٨٤ و ١٨٨٨ و ١٨٩٠ ، ومات فيها الالوف ، أما حاجة الدولة الى المال ، فكانت تلبيها بيوت المال التي تتلقى الزكاة الشرعية والعشور وسواها . وقد اختص كل بيت مال بالانفاق على جهاز من أجهزة الدولة وهيئاتها[1]. وسكّت النقود في مصنع خاص ، وشيدت الترسانات لبناء السفن ، واستخدم بعض الاسرى الاوربيين كخبراء في الصناعة الحربية وفي الجيش مثل سلاتين ، فقاموا بأعمال تخريبية أسفرت عن تدمير أدوات المعامل وعرقلة اصلاح السفن أو محاولة ترميمها دون اتقان . أما في ميدان القضاء ، فقد ألغى الخليفة التنظيمات القضائية السابقة الموروثة عن العهد التركي ــ المصري ، وأمر القضاة بالحكم وفق الشرع الاسلامي . أما تجارة الرقيق ، فقد اتخذت الدولة المهدية بعض التدابير للحدّ منها ، ومنعت تجارة الذكور من العبيد حتى في حالة أسرهم في الحرب .

لقد استطاع الخليفة عبد الله أن يحكم السودان مدة ثلاث عشرة سنة(١٨٨٥ــ ١٨٩٨) نجح خلالها في اقامة جهاز حكومي يؤدي الخدمة المطلوبة منه ؛ ولكن

---

(١) يذكر شبيكة ص ٩١ ــ ٩٢ أن بيت المال العام كان يستمد دخله من أم درمان وقراها وفائض بيوت مال الاقاليم ، ويصرف منه على موظفي بيت المال وعلى آل المهدي والخلفاء وتجهيز الجيوش . وبيت مال الملازّمية ، ورتبت له أموال الجزيرة ومعظمها من الذرة ويصرف منه على حرس الخليفة الخاص . وبيت مال ورشة الحربية ودخله من أموال سواقي الخرطوم وجنائنها وثمن العاج الوارد من خط الاستواء وبحر الغزال، ويصرف منه على صنع الذخيرة والاسلحة . وبيت مال الخمس ودخله من ايرادات المراكب وارباح ريش النعام والعاج وثلث أرباح الصمغ وعشور المستورد من الخارج ، وتؤخذ منه مصاريف الخليفة وصحبه .

الاضطرابات والأخطار الخارجية المتواصلة ، استنفدت قواه وجعلته أسير ظروف لم تكن كلها من صنعه وحده ، وكانت الشدة التي لازمت تأسيس سيطرته المطلقة ، قد انتهت أخيرا بسقوطه أمام حملة كتشنر المتفوقة في تسليحها وتنظيمها ومواصلاتها •

الحكم الثنائي :

أما مستقبل السودان ، فقد تقرر في اتفاقية الحكم الثنائي التي أكرهت مصر على توقيعها مع انكلترة (١٩ كانون الثاني ١٨٩٩) ، وهي الاتفاقية التي التي جعلت ادارة السودان من الوجهة الاسمية ادارة ثنائية تشترك فيها كل من مصر وانكلترة • أما في الحقيقة ، فان الحاكم العام ومجلس مستشاريه وحكام المديريات ومفتشي النواحي ، كانوا من ضباط الجيش البريطاني ، واقتصر دور مصر في الحكم على سدّ العجز السنوي في ميزانية السودان •

والحق ان رفع كتشنر للعلمين المصري والانكليزي على خرائب سراي الحكمدار في الخرطوم ، كان أول اشارة الى نوع الحكم المنتظر في السودان ، ومن المعلوم أن عملية تقدم الجيش المصري نحو دنقلة كانت باسم الخديوي ولاسترجاع أملاكه ، وقد رفع العلم المصري وحده في دنقلة وفي بربر وفي كسلا • ولكن سولسبري أبلغ كرومر بأنه وفقا لكتاب تلقته لندن من السلطان العثماني ، يخشى أن يثير السلطان موضوع السودان بما له من السيادة على الخديوي بتحريض الفرنسيين ، ولذا أمر كرومر برفع العلمين في الخرطوم حين يحتلها ، وفي بقية أنحاء السودان ، وهو بمثابة اعلان بأن الفتح تم على يد الحكومتين وبقواتهما المشتركة • ولكن كرومر كان يرى أنه ما دامت لبريطانية السلطة الفعلية في مصر ، وبالتالي في السودان ، فلا محل لتلك المسوغات القانونية • وفي نظره أن بريطانية يمكنها السيطرة على السودان دون حاجة لضمّه الى امبراطوريتها • ففي مصر ليس لانكلترة مركز قانوني : السيادة تركية ، والعلم تركي والنقد المتداول تركي ، والحكومة الشرعية هي حكومة الخديوي الذي يعين بفرمان من السلطان العثماني ،

ومع ذلك فالسلطة الحقيقية في يد كرومر وأعوانه من المستشارين الانكليز ، يؤيده جيش الاحتلال[1] • ولم يلبث كرومر أن أدرك الحكمة من رفع العلمين ، فوضع بمعاونة المستشار القضائي الانكليزي للحكومة المصرية (١٠ تشرين الثاني ١٨٩٨) مشروع اتفاقية ثنائية يتولى الانكليز بموجبها (الحكم) والمصريون (الدفع) ، وبعث به الى لندن لاقراره •

ويتضح منه أنه قام على أساس النظرة البريطانية الى السودان في اطار استعمار افريقية والمشاريع المتعلقة به ، وضمان سلامة أملاكها الاستوائية ، وتأمين وضعها في مصر بفضل تحكمها بمنابع النيل ، والحفاظ على طريق الهند بالسيطرة على الساحل الغربي للبحر الاحمر التابع لمصر والسودان •

وعلى الرغم من أن الجيش المصري والخزينة المصرية تحملا العبء الأكبر في استرجاع السودان ، فقد تطلع كرومر الى ضم السودان للامبراطورية البريطانية، لولا ما يثيره هذا الضم من اعتراضات الدول الاوربية ، ولا سيما من فرنسة التي لم تكن ذكريات فاشوده المؤلمة قد بارحت مخيلتها بعد • هذا الى أن ادارة السودان تتطلب أموالا طائلة لا تنوي بريطانية المساهمة فيها ، وانما تريد أن تتحمل مصر كل النفقات المدنية والعسكرية في السودان • ولم يجد كرومر ما يسوغ اشتراك بريطانية في حكم السودان ، الا ترديد النغمة القائلة بأن نظام الحكم المصري ومفاسده التي أدت الى الثورة المهدية ، ستعود مرة أخرى ، اذا عادت مصر الى حكم السودان منفردة • ولذا فليس بد من ان تكون بريطانية صاحبة السلطة العليا هناك ، ولا يتحقق ذلك الا باستبعاد السيادة العثمانية عن السودان، تفاديا للمشكلات التي قد تثيرها ضد السيطرة الانكليزية الشاملة على شؤون السودان ، ودفعا لازدواج التبعية القائم في مصر ، والموزع بين التبعية القانونية للسلطان العثماني ، والتبعية الفعلية للاحتلال الانكليزي • واستبعدت أيضا الامتيازات الاجنبية والمحاكم المختلطة ، لئلا تبرز المقارنة بين التنظيمات البسيطة

---

(١) انظر شبيكة ، المصدر نفسه ، ص ١٠٦ .

التي يكتفي بها السودانيون ، والتنظيمات الادارية والقضائية المعقدة التي يقتضيها وجود الاوربيين بالسودان ، ومطالبتهم بأن يكون لهم في السودان ما لهم في مصر من الحقوق والامتيازات ، مع ما يترتب عليها وعلى ما يتبعها من سيطرتهم التجارية والمالية على البلد من عرافيل التدخل الاجنبي[1] .

على هذه الاسس وضعت نصوص الاتفاقية في قالب يكفل السيطرة الانكليزية الكاملة ، وأكدت مقدمة الاتفاقية اشتراك انكلترة في ادارة السودان بالاستناد الى « حق الفتح » . ونصت المواد التالية على حدود السودان ـ جميع الاراضي الكائنة جنوبي خط عرض ٢٢° شمال خط الاستواء[2] ، وعلى رفع العلمين في جميع أنحاء السودان ، وابعاد سلطة المحاكم المختلطة عن السودان ، وخضوعه للاحكام العرفية لفترة غير محددة ، ومنع ادخال الرقيق الى السودان أو تصديره منه . ولكن أهم مادة في الاتفاقية هي تفويض الحاكم العام الرياسة العليا العسكرية والمدنية في السودان . وبريطانية هي التي ترشح الحاكم العام ، ومصر هي التي تعيّنه ، ولا يعزل الا بموافقة الدولتين ، ومعنى هذا أن الحاكم سيكون انكليزيا، لأن الترشيح بيد بريطانية ، ومصر تصدر مراسيم التعيين فقط ، وليس ثمة فقرة تشير الى ما يحدث لو امتنعت مصر عن التعيين .

وبرغم أن الخديوي عباس حلمي اعتبر أنه لا يجوز للحكومة المصرية عقد اتفاقية كهذه ، لأن فيها اعتداء على السيادة العثمانية ، فقد وافق مجلس الوزراء المصري عليها ، ووقعها وزير الخارجية بطرس غالي باشا ، واللورد كرومر . وقوبلت الاتفاقية في مصر بعاصفة شديدة من الاستنكار على الصعيدين الصحفي والحزبي، وخاصة بعد أن طالبت انكلترة الحكومة المصرية بسداد مبلغ ٢١٥ ألف جنيه

---

(١) انظر تفاصيل مشروع كرومر للحكم الثنائي في شكري ، المصدر السابق ، ص ٤٩٧ ـ ٥١٢ .

(٢) انظر الوقائع والاتفاقات التي عينت بموجبها الحدود الشرقية والجنوبية والغربية للسودان في : يونان لبيب رزق ، ص ٩٦ ـ ١٣١ .

كانت انكلترة أنفقته على الجنود الانكليز في واقعتي عطبرة وكرري ، وهـو المبلغ الذي زعمت انكلترة أنها من أجل اتفاقه ، قـد أصبحت شريكة مصر في السودان . وهاجمت جريدة (اللواء) الاتفاقية بعنف بقلم مصطفى كامل بمناسبة مرور عـام على توقيعها[1] ، وظل الحزب الوطني يعارض الاتفاقية كل عام في ذكرى توقيعها ، وانتقدها محمد فريد في رسالة الى بطرس غالي باشا ــ وقد أصبح رئيسا للوزراء ــ باعتبارها مخالفة للفرمانات السلطانية والمعاهـدات الدولية[2] ، وقد بلغت حـدة المشاعر المصرية درجة أدت الى اغتيال بطرس غالي فيما بعد .

عيّن كتشنر حاكما عاما للسودان في مطلع عـام ١٨٩٩ مع احتفاظه بوظيفـة (سردار) الجيش المصري الـذي يتولى حماية السودان ، ويرابط في البلاد مـع قوة انكليزية رمزية تحتفظ بسلاح الجيش وذخيرته . ومع أن الحاكم العـام كان يتمتع بسلطات مطلقـة ، غير أن وزارة الخارجية البريطانية ظلت السلطة الحقيقية التي تحكم السودان من خلال المعتمـد البريطاني في القاهرة . فهو المرجع الـذي يتلقى منـه الحاكم العام التعليمات والاوامر ، كذلك كان استقلال الحاكم العـام في الامور المالية محدودا ، اذ كان عليـه أن يعود بشأنها الى وزارة المالية المصرية ، ما دامت تقدم للسودان اعانة سنوية لسدّ العجز السنوي في ميزانيته .

وقد قسم السودان الى عشر مديريات ، ثم الى أربع عشرة بعد عام ١٩٠٢ ، وانقسمت كل مديريـة الى نواح يـدير كلا منهـا مفتش ، وكل ناحية الى مراكز يتولى أمور كل منها مأمور . وشغل الضباط الانكليز جميـع المناصب الرئيسيـة

---

(١) انظر شبيكة ص ١٠٧ نقلا عن جريدة اللواء (٢٠ يناير ١٩٠٠) وجاء فيها : « ان يوم توقيعها كان اليوم المشؤوم الذي اعلنت فيه الحكومة الخديوية للأمة المصرية وللعالم أن السودان صـار مستعمرة انكليزية بالفعـل وان المشاق الهائلـة والاتعاب الجسيمة والاموال الباهظة والدماء الطاهرة التي صرفت في سبيل استرداده قدمت هدية من مصر للدولة البريطانية . فما اعظمك يامصر كرماً وما أكبرك بلاءً وهمّاً » .

(٢) انظر نقد الاتفاقية الثنائية من النواحي القانونية والسياسية مع دفع حـق انكلترة في ادارة السودان في شكري ص ٥٢٩ ــ ٥٣٨ .

في الادارة المركزية وفي المديريات بالاقاليم • وكان المديرون يشرفون مباشـرة على القضاء والتعليم والصحة والزراعة في مديرياتهم ، ولا يتم شيء الا برأيهم ، فمثـلا منع مدير دنقلة الانكليزي ، التعليم الابتدائي في مديريته خلال حكمه الطويل[1] • وشغل الضباط الانكليز أيضا مناصب المفتشين الذين تولى الضباط المصريون تحت اشرافهم ادارة المراكز كمامورين (مامير) ، بحيث كان المفتش في المركز هو السلطة الحكومية المتعددة الصلاحيـات : فهو القاضي ورئيس الشرطة ومـدير الاراضي والمشرف على الزراعة والصحه والتعليم •• وكان المآمير عادة من المصريين ، وأحيانا مـن السودانيين • والى جانب وظيفة (المأمور) ، شغل المصريون وظائف صغـيرة مماثلة ، كمدرسين في المدارس الابتدائية ، وكتبة في المصالح الحكوميـة • وحتى هؤلاء الكتبة ، كان يراعى في اختيارهم أن يكونوا من الأقباط ، لخلق التناقضات المذهبية بين أبناء وادي النيـل[2] • وكانت الخزينـة المصرية تدفع رواتب الضباط الانكليز باعتبارهم ضباطا في الجيش المصري ، كمـا تتحمـل نفقات الدفاع عـن السودان • وحين كلّف كتشنر بالتوجه الى جنـوب افريقية لمحاربة البـوير ، مع عدد من الضباط الانكليز في الجيش المصري ، عيّن مكانه السير ريدجنالد ونغت أواخر عام ١٨٩٩ • وبعـد شهر من تعيينه ، ظهرت المعارضة المصرية لاتفاقية الحكم الثنائي ، باعتبـار أنها أمليت من قوي على ضعيف ، وانتقلت عدواها الى صفوف ضباط الجيش المصري في السـودان ، وخاصة بعـد أن سرت شائعـة بأن الفرق (الأورط) السودانية ، سترسل لدعم الانكليز في حرب البوير • وهاجمت الأورطة ١٤ مخزن السـلاح في أم درمان ونهبت كـل الذخيرة ، وفقـد الضباط الانكليز السيطرة على الجنـود • ثم توسط بعض كبـار الضباط ، وانتهى الامر بمعاقبـة عـدد من ضباط الاورطـة • وحين سحب الضباط الانكليز من وظائفهم كمفتشين ، للالتحاق بحرب البوير ، عيّن ونغت بدلهم مفتشين مدنيين من الانكليز • وطبيعي أن تعمل حكومة الخرطوم على قطع كل ما يصل بين مصر والسودان ، وهي تعـلم

---

(١) شبيكة ، المصدر نفسه ص ١١٦ .

(٢) انظر رزق ، المصدر نفسه ص ٩٠ .

أن السلطات المصريـة لا تملك الاعتراض على أي تشريع يصـدره الحاكم العام • ولكن برغم ضيق السلطات الانكليزية بالمصريين في السودان ، من ضباط ومعلمين وموظفين •• فان الوشائج اللغوية والدينيـة في مصر والسودان ، كانت تعمـل في اتجاه نوع مـن الوحدة الوطنية ، ظهرت جلية في أعقاب الحرب العالمية الاولى •

وعلى صعيد اقرار الامن والنظام ، خشيت حكومة السودان من قيام ثورات ترتكز على أسـاس ديني ، فقمعت حركـة قادها مـدع للمهدية في جبـال تقلي بكردفان (١٩٠٣) وقبضت عليه وأعدمتـه ، وفي العام التالي زعم ثائر أنـه النبي عيسى في ضواحي سنجة ، وظهر آخر في الغضارف (١٩٠٧) واعتقل الرجلان قبـل استفحال حركتهما • ولكن أخطر الثورات قام بها عبد القادر ودّ حبّوبة في اقليم الحلاويين ، وكان من أنصار المهدي ، ولم يعترف قط بالحكومة الدخيلة ، وأخمدت حركته وأعدم ، بعد أن سقط عدد من ضباط وجنود الحكومة[1] •

وكان دخول الدولة العثمانية الحرب العالمية الاولى الى جانب المانية (١٩١٤) وما أعقبه من خلع الخديوي عباس حلمي الثاني ، واعلان الحماية البريطانية علـى مصر ، نذيرا لحكومة السودان مما قد ينجم عن دعوة الجهاد التي أعلنها السلطان العثماني ، ضد الفرنسيين والانكليز أعداء الاسلام ، والتي رددت نغمتها الدعايـة الالمانية والتركيـة • وسارع ونغت للاجتماع في الخرطوم بأعيان البلاد وزعمـاء العشائر والاقاليم ورجال الدين ، وشرح لهـم مآثر الحكومة الحالية ومناصرتهـا للاسلام ودعاهم للولاء لها ، وتجاوبت معه أقاليم السودان ، باستثناء دارفور التي كان يحكمها السلطان على دينار الـذي تأثر بنشاط البعثة الالمانية التركيـة التي وصلت الى برقة لتنظم مع السيد أحمد الشريف السنوسي ثورة تشمل المستعمرات التابعة لفرنسة وبريطانية في افريقية الوسطى • وتسلم علي دينار رسالـة من أنور باشا (شباط ١٩١٥) بهذا المعنى ، فجهر بالثـورة ضد حكومة الخرطوم ، ودعـا قبائل دارفور وكردفان للانضمام اليه ، وتحصن في الجبال وحاصرته حملة كبـيرة مؤلفة من حوالي ثلاثة آلاف جندي من المشاة والمدفعية ، الى أن قتل في معركةجرت

---

(١) Holt, op. cit., P 115

في ٦ تشرين الثاني ١٩١٦ ، وبذلك مدت السيطرة الحكومية الى دارفور بعد ثمانية عشر عاما من معركة كرري .

وعلى الصعيد الداخلي ، ثبتت الادارة الجديدة ثلاثة أنواع من الضرائب على الاراضي وقطعان الماشية وعوائد النخيل[١] وصدر قانون العقوبات السوداني ، وقانون الاجراءات الجنائية (١٨٩٩) وهما مأخوذان في أصولهما من نظيريهما في الهند ، مع ادخال بعض عناصر القانون العسكري المصري . كما صدر القانون المدني (١٩٠٠) وقانون المحاكم الشرعية السودانية (١٩٠٢) على المذهب الحنفي أسوة بمصر .

وقد استهدف التعليم تكوين طبقة من الصناع المهرة ، ونشر التعليم الابتدائي ، وتدريب طبقة من السودانيين تتولى الوظائف الصغيرة . وكان كتشنر قد باشر حملة تبرعات في انكلترة لانشاء مؤسسة تعليمية تخلّد ذكرى غردون . وتأسست كلية غردون في الخرطوم ، وضمت مدرسة صناعية ومعهدا للمعلمين ، ومدرسة ابتدائية وثانوية مهنية[٢] .

وفي ميدان المواصلات ، مدّ خط حديدي يصل بين حلفا شمالا والحلفاية على النيل الازرق في مواجهة الخرطوم ، جنوبا . ومدّ خط حديدي آخر من الخرطوم الى واد مدني (١٩٠٩) ثم الى سنار وغربا الى الأبيّض (١٩١٠) . وحين برز مشروع مدّ خط حديدي بين بور سودان على البحر الاحمر وعطبرة على النيل ، اعتذرت بريطانية عن تقديم قرض لسدّ مصاريفه ، وحلّت المشكلة بالاقتراض من مصر[٣] .

ولحماية الزراعة المصرية ، درس المهندسون الانكليز نهر النيل وروافده ، واقترحوا مشاريع الري اللازمة للتوسع الزراعي في مصر والسودان ، ومنها اقامة سد عند سنار في الجزيرة ، بوشر به فعلا عام ١٩١٤ ، ولكن العمل به توقف تماماً بسبب الحرب .

(١) انظر تفاصيلها في رزق ، المصدر نفسه ص ١٨٠ — ١٨٢ .

(٢) انظر عن السياسة التعليمية ومراحل التعليم وانواعه وتعليم الارساليات التبشيرية في السودان ، رزق ، المصدر نفسه ص ٢٩٨ — ٣١٦ . وأيضا Holt, op. cit., PP. 121-122.

(٣) انظر حول المواصلات ، رزق ، المصدر نفسه ص ١٨٢ — ١٨٨ .

الفصل الثاني

٢ ـ المشرق العربي بين التنظيمات الاصلاحية العثمانية والمطامع الاستعمارية الاوربية

تمهيد : راى رجال السلطنة ان عليهم ان يقتبسوا شيئا من نظم اوربة العسكرية كبداية استهلال . ولم يتناول الاصلاح النظم الادارية والمالية والقضائية الا بعد مرور مدة طويلة تفوق على ثمانية عقود[1] . فالدولة العثمانية عسكرية بالدرجة الاولى ، وفساد أمورها بدأ بفساد جيشها فاصلاحها ينبغي أن يبدأ باصلاح الجيش. هذا الى أن تفوق أوربة في الشؤون العسكرية كان يبدو للعيان بآثاره المادية المباشرة ، لأن مدفعيتها كانت تصيب جيوش العثمانيين بخسارة فادحة من مسافة شاسعة لا تصل اليها نيران الاسلحة العثمانية . على حين لم يكن تفوق النظم الاوربية في الشؤون الاخرى يبدو بمثل هذا الوضوح .

ودخلت محاولات الاصلاح العسكري طور التنفيذ في عهد السلطان سليم الثالث (١٧٨٩ ـ ١٨٠٧) الذي لم يصف له الجو للمضي في الاصلاح : قاومه الجند القديم وطلبة المعاهد الدينية . وان الحركة الجريئة الحاسمة التي قام بها محمود الثاني في قضائه التام على الانكشارية (١٨٢٦) قضت على آخر عوائق الاصلاح العسكري . وفي عهده تم وضع أساس الدولة الحديثة التي تكفل أداء واجبات لم يكن للرعية عهد بها من قبل . أما اصلاحات النظم الادارية فقد بدىء بها في عهد السلطان عبد المجيد (١٨٣٩ ـ ١٨٦١) وتمت هذه الاصلاحات في مرحلتين أساسيتين :

١) المرحلة الاولى عرفت باسم (التنظيمات) واستغرقت عهدي عبد المجيد

---

(١) ساطع الحصري : البلاد العربية والدولة العثمانية ص ٧٤ ـ ٧٥ .

وعبد العزيز (١٨٣٩ ــ ١٨٧٦) ، وعرفت بهذا الاسم لأنها امتازت بـ « تنظيـم » أمور الدولة الحديثة عـلى أسس جديـدة في جميـع الميادين الادارية والماليـة والقضائية والتعليمية •

٢) المرحلة الثانية عرفت باسم (المشروطية) بدأت في عهد السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦ ــ ١٩٠٩) ، وعرفت بهذا الاسم لأنها استهدفت القضاء على حكم السلطان عبد الحميد المطلق ، وجعل حكم السلطان « مشروطا » بمراعاة القيـود المقررة في القانون الاساسي • أي الدستـور • والمشروطية أولى وثانيـة ؛ الاولى أعلنت سنة ١٨٧٦ ، ولكن القانون الاساسي عطل قبل مضي سنتين على نشره ، ولم يصدر الامر باعادة تنفيذه الا في المشروطية الثانيـة التي بدأت سنة ١٩٠٨ بثـورة أنصار جمعية الاتحاد والترقي وانقلابهم على السلطان ، واستمرت حتى قيام الحركة الكمالية واعلان الجمهورية التركية •

الدور الاول ــ ويقابل الفترة الزمنية لحكم السلطانين سليم الثالث ومحمود الثاني:

يعتبر السلطان سليم الثالث (١٧٨٩ ــ ١٨٠٧) من أهم السلاطين المصلحين ، ودوره في حركـة الاصلاح والتجديد ذو أهمية خاصة • وقـد سبق جلوسه على العرش الحرب الروسية العثمانية (١٧٦٨ ــ ١٧٧٤) التي انتهت بهزيمة العثمانيين • وقد حاول السلطان مصطفى الثالث (١٧٥٧ ــ ١٧٧٤) أن يغري النمسة وبروسية بمساعدته ضد الروس ، ولكن ظروف أوربة الداخلية حالت دون تدخـل الدولتين في الحرب الى جانبه ، واضطر خلفه السلطان عبد الحميد الاول (١٧٧٤ ــ ١٧٨٩) مكرها لعقـد الصلح مع القيصرة كاترين الثانيـة ، وتوقيع معاهدة كجك قينارجي (تموز ١٧٧٤) وبموجبها اعترف باستقلال شبه جزيرة القرم وبساربيا وكوبان عن الدولة العثمانية ، وبحرية الملاحة للروس في البحر الاسود ، وضمان سلامة الحجاج الروس الى بيت المقدس ، وحـق القيصرة كاتريـن الثانية بحمايـة الارثوذكس وكنائسهم في الدولـة العثمانية ، وبـذلك أصبحت روسية ضمـن الدول الاكثر رعاية في السلطنة ، وتمتعت بما لهذه الدول من امتيازات تجاريـة ودور قنصلية في مختلف مدن السلطنة •

ومعلوم أن روسية منذ عهد بطرس الأكبر كانت تسعى جاهدة للوصول الى البحر المتوسط في محاولة لانشاء نقطة ارتكاز لها فيه ، وبث بذور التمرد والثورة في شعوبه الخاضعة للسلطنة • وأثناء الحرب الروسية العثمانية أرسلت كاترين الثانية (١٧٦٩) اسطولين كبيرين لمحاربة العثمانيين واحتلال جزر الارخبيل واشعال نار الفتنة في مصر وسورية واليونان • واغتنم علي بك الكبير الذي استأثر بحكم مصر والحجاز مع حليفه الشيخ ظاهر العمر الذي سيطر على عكا وفلسطين ، فرصة قدوم الاسطول الروسي ، فتمردا على الدولة وحصلا على مساعدة الاسطول الروسي في قصف بيروت (١٧٧٢) • وقد تعمد الروس صياغة معاهدة كجك قينارجي بأسلوب قابل للتأويل بقصد تقديم طلبات أخرى الى السلطان ، والتذرع بها لاعلان الحرب عليه متى شاؤوا • فروسية كان يهمها طرد العثمانيين من البلقان وتخليص أهله وهم على مذهبها من الحكم العثماني ، كما يهمها أن تصل البحر المتوسط عن طريق ضم البلقان الى ممالكها ، وتسترد القسطنطينية وتحيي روما الثالثة • ولكنها تفضّل الانفراد في الحفاظ على الدولة العثمانية تحت حمايتها أو ــ بعبارة أصح ــ تحت قدميها ، لذلك بدأت منذ توقيع معاهدة كجك قينارجي تتدخل في أمور المسيحيين الارثوذكس في السلطنة من أرمن وروم وعرب وأقباط ، وخاضت في منتصف القرن التاسع عشر حرب القرم من أجل تثبيت نفوذها في السلطنة •

هذا شاغل هام من شواغل السلطنة في العقود الاخيرة من القرن الثامن عشر ، يضاف اليه شواغل أخرى أقل منه شأنا على الصعيد العثماني الداخلي • ذلك أنه برغم الاطاحة بعلي بك ، فقد ظلت أمور الشام ومصر تضطرب فيما تلا من عهد مراد وابراهيم المملوكي حتى قدوم الحملة الفرنسية • كما عانى الحكم العثماني في ولايات السلطنة من الضعف والانحطاط ؛ فبينما كانت شؤون بغداد والبصرة بيد حكم مملوكي وراثي يتولاه الامير الاقوى منذ منتصف القرن الثامن عشر ، كانت الموصل بيد آل الجليلي ، وحكم آل العظم نافذا في الشام باستثناء ما يعرف اليوم بفلسطين حيث برز لمنافستهم الشيخ ظاهر العمر حتى عام ١٧٧٥ ومن بعده أحمد باشا الجزارّ حتى عام ١٨٠٤ • وسيطر الوهابيون في الجزيرة

العربية ، وتأسست عصبيات قبلية في مناطق شرقي الجزيرة والخليج العربي • أما في طرابلس الغرب فقد ساد نفوذ الاسرة القرمانلية ما بين ١٧١١ و ١٨٣٦ ، كما سيطرت الاسرة الحسينية في تونس وحكمت منذ ١٧٠٥ حتى قرب أيامنا • وقد شهد السلطان سليم الثالث الثورة الفرنسية التي تمخضت عن بداية تغيير خطير في علاقات العالم العربي العثماني بالعالم الغربي ، ولا سيما عندما أصبح للقائد نابليون بونابرت صوت في سياسة بلاده ، وقاد حملة لاحتلال مصر ، مفتاح الحرمين وانسان عين السلطان •

هذه صورة موجزة للدولة العثمانية حين تولى مقدراتها السلطان سليم الثالث، فماذا فعل لانقاذ الدولة من أوضاعها المتردية ؟

أحسّ رجال الدولة بضرورة الاصلاح بعد أن قطعت الدول الغربية شوطا واسعا في ميادين النهضة الشاملة ، واكتسبت قوة كبيرة في شتى ميادين الحياة الحديثة • فلا عجب اذا عمل رجال الاصلاح العثمانيون على الاقتداء بالغرب واقتباس نظمه التي أورثته تلك القوة • وقد رأى رجال الاصلاح أن عليهم — بادىء ذي بدء — أن يقتبسوا شيئا من نظم الغرب العسكرية التي أثبتت جدواها • ومنذ أن ضمت روسية شبه جزيرة القرم المأهولة بالتتار المسلمين الى أملاكها (١٧٨٣) باشرت الدولة برنامجا اصلاحيا بتشجيع من فرنسة التي تخوفت من تهديد الروس لمصالحها في حوض البحر المتوسط الشرقي • وفي خريف عام ١٧٩١ طلب السلطان سليم موافاته بآراء نخبة من الزعماء المدنيين والعسكريين والدينيين (عددهم ٢٢) بصدد ضعف السلطنة ، ومقترحاتهم لاصلاحها • ووافق الجميع على ضرورة البدء بالاصلاح العسكري ، ولكنهم اختلفوا على الطريقة التي تحقق الاصلاح المنشود[1] • وبما أنه كان يتعذر عمليا أن يعود سليم الى سنن أسلافه بجمع الجيش الدائم من الارقاء ، أو الزام الاقطاعيين بتقديم الجند الاقطاعي من الفرسان (السباهية) ، لأن الاقطاعات لم تعد تمنح لأداء الخدمة

Lewis, B. Emergence of Modern Turkey, London 1965, P. 57. (1)

العسكرية وانما للتعبير عن الحظوة والرضا • ولـذلك أنشأ سليم جيشا جديـدا ينضم اليه من يشاء من الانكشارية أو من المحترفين ، وأخضعه لنظم الحرب الحديثة من حيث التدريب والتعليم • واستقدم لهـذا الغرض عـددا من الضباط الخبراء من أوربة وخاصة من فرنسة • وأنشأ سليم ثكنة خاصة للجيش الجديد وصندوقا خاصا لتوفير نفقاته ، وزاد الاقتناع بالجيش الجديد بعد أن أثبت جدواه بالدفـاع عن قلعة عكا ضـد نابليون واسترداده المواقـع التي اضطر الجيش الاعتيـادي لاخلائها(١) • وعني بالمدارس العسكرية والبحريـة التي اعتمد فيها على المعونـة الفرنسية • وبرغم انقطاع التعاون بين الجانبين أثناء الحملة الفرنسيـة على مصر ، فقد استعيد عـام ١٨٠٦ بفضل جهود السفير الفرنسي سيبستياني وتكونت طبقـة من الضباط الشبان في الجيش والبحرية ، يعرف أفرادهـا عموما مظاهر الحضـارة الغربية مـن خلال دراستهم باللغة الفرنسية ، ومطالعاتهم واتصالاتهم الشخصيـة بالمدربين الفرنسيين(٢) •

وكان سليم يرجو أن تجد الدولة في جيشه الجديد أداة الحكم القوي الفعال ليس فقط للقضاء على العصبيات المسلحة وأصحاب الحقوق المكتسبة شبه المستقلين داخـل حدوده ، ولكن لردع مطامع الدول الاجنبية المتربصة خارج حدوده أيضا •

كمـا كان يرجو أن يتاح له اصـلاح النظام المالي والضريبي • فقـد أثقلت الدولة كاهل الاهلين بالضرائب في القرنين السابع عشر والثامن عشر لمواجهة نفقاتها الاداريـة والعسكرية المتزايدة ، وخاصة بعـد ضعف الجيش الانكشاري الـذي فسد أفراده وكثرت فتنه ، وتطلب امداده في الحروب بقوات مساعـدة « اليمق »

---

(١) ساطع الحصري ، المصدر نفسه ، ص ٧٨ •

(٢) Lewis, op. cit., P. 59.

ذات تكاليف باهظة . وقد حال عجز الادارة الحكومية واختلالها دون قيامها بتقدير الضرائب وجمعها على نحو عادل وسليم ، فتولى الملتزمون ذلك العمل نيابة عن الحكومة ، ولكنهم أرهقوا الاهالي والمزارعين بجشعهم ومغالاتهم في جمع ما يجاوز المبالغ المستحقة من مناطق التزامهم ، وبذلك أسهموا في اضعاف سلطة الدولة التي اعتمدت عليهم لتلبية احتياجاتها المتصاعدة للمال ، وخاصة لاخماد الثورات في البلقان التي كانت تشجعها روسية والنمسة . وقد استمر هذا الوضع السيء حتى عهد السلطان سليم الثالث الذي لم يصف له الجو للمضي في الاصلاح ، فترك الاهتمام بهذا الموضوع وغيره الى السلاطين الذين خلفوه،ولاسيما محمود وعبد المجيد .

على أن السلطان سليماً والملاحظين الاوربيين تبينوا حقيقتين هامتين :

الاولى أن حركة التجديد والتحديث لا تقتصر على ما بدأت به حركة الاصلاح من انشاء النظام الجديد ، وانما تتجاوزه لتستدعي اصلاحا ثانيا وثالثا .. من ايجاد مدارس للضباط ونظام تعليمي للفنون العسكرية ، والهندسة والطب .. وكما حدث في مصر محمد علي ، يستوجب ذلك ايضا صناعات جديدة تلبي احتياجات الجيش وتوفّر لوازمه من كساء وتسليح ..

والثانية أن انشاء (النظام الجديد) بجانب الجيش القديم زاد مخاوف الانكشارية من الاصلاحات ، وأدركوا أن بقاء هذا النظام الجديد يهدد مصالحهم ، وأن توسيعه سيؤدي أخيرا الى ادماجهم فيه . ولذا أخذوا يدسّون على النظام الجديد ويشيعون عنه الاكاذيب ، وقد آزرتهم في ذلك طوائف من رجال الدين وبعض الساسة الرجعيين والوصوليين . وتحققت مخاوفهم حين أمر سليم عام ١٨٠٥ ، مدفوعا بحاجته الملحّة الى الجند ، بالتجنيد العام في النظام الجديد ، بدلا من التجنيد الطوعي المعمول به آنذاك ، وطبق التجنيد على الانكشارية وعلى الاهلين ، وهنا وصل سخط الانكشارية والعلماء المتزمتين الى الأوج ، وأعلنوا العصيان في الروملي وجرى أول اختبار للقوة حين أرسلت فرق من النظام الجديد لقمع المتمردين ، ولكنها هزمت أمامهم ، فاشتد ساعد مناوئي الاصلاح في العاصمة ،

وطلبوا من السلطان وقف الاصلاحات وطرد المستشارين من حوله ، فاضطر لتلبية مطالبهم تفاديا لثورة عامة ، وعيّن آغا الانكشارية صدرا أعظم • وبذلك تأجل انفجار الأزمة موقتا حتى أيار عام ١٨٠٧ ، حين اتخذت المقاومة للاصلاح شكلا عنيفا ، بعد أن رفض المجندون المساعدون (اليمق) ارتداء الملابس الاوربية ، وزحفوا نحو العاصمة وقتلوا عددا من مؤيدي الاصلاح ، وحوصر قصر السلطان ، وطلب منه أن يأمر بالغاء النظام الجديد ، واعدام جماعة من رواد الاصلاح ، واضطر السلطان أن يسايرهم ولكنه لم يسلم مع ذلك من جورهم ، فخلعوه وأجلسوا ابن عمه باسم مصطفى الرابع على أريكة السلطنة • وتولت الفئة الرجعية زمام الامور الفعلية ، وبدا كما لو أن حركة الاصلاح قد تلاشت ، ولكن غرسة الاصلاح كانت قوية ، وحين تقدم من مدينة روسجق أنصار النظام الجديد الى العاصمة وعلى رأسهم مصطفى باشا الملقب بـ(العلمدار) لاعادة سليم الى الحكم ، كان السلطان مصطفى قد أمر بقتله ، فخلعوا هذا الاخير ونصبوا أخاه محمودا الثاني سلطانا في صيف عام ١٨٠٨ ، وكان في السادسة عشر من عمره • ولكن بعد فترة قصيرة ثارت القوى الرجعية ثانية وقتلت العلمدار وأصحابه ، وقضت على النظام الجديد ، فعادت الفوضى الى الجيش وأصيب بالهزائم ضد الثورات في الداخل ، والدول الاجنبية في الخارج •

ولد محمود الثاني في تموز ١٧٨٥ لأبيه السلطان عبد الحميد الاول الذي بدأت محاولات اصلاح الجيش في عهد سلفه مصطفى الثالث (١٧٥٧ — ١٧٧٤) ، وفي عهده (١٧٧٤ — ١٧٨٩) ، ويبدو أن الافكار الاصلاحية لابن عمه السلطان سليم الثالث كان لها تأثير عميق عليه ، وخاصة في السنة الاخيرة التي انقضت بين خلع سليم وموته • والواقع أن السلطان محمود لم يستطع متابعة الاصلاح العسكري الا بعد ثمانية عشر عاما كانت حافلة بالاحداث • فقد خاض حربا انتهت بهزيمته ضد روسية التي فرضت عليه معاهدة بوخارست (أيار ١٨١٢) ، وفيها منح الاستقلال الذاتي لرومانية وصربية • ولكن صربية استمرت في ثورتها ما بين (١٨١٥ — ١٨١٧) فحققت المزيد من الاستقلال • ونشبت الثورة اليونانية في المورة (١٨٢١) ؛ ولبى محمد علي باشا في مصر نداء السلطان محمود لمساعدته

في اخماد الثورة اليونانية (١٨٢٤) ، ولكن الدول الاوربية تدخلت لمساعدة اليونانيين ، وحطمت الاسطولين العثماني والمصري في معركة ناڤارينو البحرية (١٨٢٧) ، وأشهرت روسية حربا على السلطان ، أسفرت عن هزيمته وتوقيع معاهدة ادرنة (١٨٢٩) ، واضطر بعد ذلك للاعتراف باستقلال اليونان (١٨٣٠) • وكان تابعه محمد علي باشا قد انفرد بحكم مصر وشرع في اصلاح البلاد على الطريقة الاوربية ، وعمل على توفير أسباب القوة العسكرية والاقتصادية والعلمية لها ، وقد يشار على السياق الى تشابه خطط التجديد لدى السلطان محمود ومحمد علي ، ولا حاجة للافاضة في ذلك ، فظروف محمود أشد صعوبة ، ومشكلاته أكثر تعقيدا • والتحديات التي واجهته كان يمكن أن تثبط عزيمته ، ولكنها بدلا من ذلك ، حفزته على منافسة محمد علي في الاصلاح والتجديد ، وتشديد قبضته على جميع ولايات السلطنة ، والقضاء على أشكال الاستقلال والنفوذ الاسري الموروث في السلطنة • ويبدو أن نزعته المركزية ورغبته في خلق الدولة الحديثة القوية قد استبدت به خاصة بعد نهاية حربه مع روسية (١٨١٢) ، اذ صمّم على أن تكون كلمته هي العليا ليس فقط في العاصمة ، وانما أيضا في الولايات ، ورأى انه بغير ذلك لا يتحقق أي تقدم حقيقي نحو الاصلاح • وباستثناء مصر واليونان ، نجح محمود في تقويض ادعاءات أصحاب العصبيات المسلحة ، وأصحاب الحقوق المكتسبة في كل مكان • فقد أطاح بالاسرة القرامنلية في ولاية طرابلس الغرب (١٨٣٥) فأصبحت ولاية عادية ، ووضع نهاية لغصب الباشوات المماليك لولاية بغداد ، وعزل آخرهم داود باشا (١٨٣١) ، وجعل بغداد ولاية عادية يسري عليها من الانظمة ما يسري على غيرها من الولايات ، واعترف بايات الاسرة الحسينية في تونس بسيادة السلطان العثماني الاسمية عليهم • كما قضى على الزعماء الاقطاعيين في الاناضول الذين يسمّون (أمراء الوادي Derebeys) ولا يعترفون بسلطة الباب العالي ، ويتمتعون باستقلال محلي ، ويعتمد كل منهم على فلاحيه المسلحين[1] • وبقي عليه أن يصفي حسابه مع الانكشارية ، تماما كما فعل محمد علي

(١) عاش امراء الوادي مستقلين في الاناضول منذ بداية القرن الثامن عشر ، وقد بدأ ظهورهم كضباط او وكلاء للسلطان ، ثم اصبحوا مزارعين اقطاعيين ،

بالمماليك ، ففي أواخر أيار ١٨٢٦ أصـدر محمود خطا شريفا بتأسيس ما أسمـاه (الفرق الجديدة) ، مع الابقاء على الفرق الانكشارية ، على أن تقـدم كل كتيبة تعسكر في العاصمة ١٥٠ رجلا للقوة الجديـدة التي أعلن أن مدربيهـا لن يكونوا من المسيحيين أو الاجانب ، بل من الضباط المسلمين المطلعين على الاساليب الحربية الحديثة[1] • وبرغم أن محموداً حصل على موافقة العلمـاء ، وتحاشى الاشارة الى (النظام الجديد) لئلا يبعث شجون الماضي مجـددا ، فقد ظلت الثقة مفقـودة بين السلطان والانكشارية • وبعـد مضي عشرة أيام على تدشين (الفرق الجديدة) ، تمرد الانكشارية لآخر مرة ، وقلبوا قدور الحساء علامة العصيان ، واجتمعت الفرق (الأورط جمع أورطة) الانكشارية الخمس في (إيت ميدان) وقـد اعتزمت تكرار مذبحة ١٨٠٧ • ولكن معظم الناس كانـوا ضدهم هـذه المرة ، اذ عمّ الاعتقـاد بضرورة التخلص من الفوضى في الجيش وجوب اصلاحـه اصلاحا جذريـا ، بعد أن تمـادى الانكشارية في مقاومـة الاصلاح العسـكري ، واستمردوا في البغي والفساد • وكان السلطان محمود برغم ظروف الثورة اليونانية قد استعد لمنازلتهم وحصل على فتوى شرعيـة تجيز التخلص منهـم ، وأحضر قائـده قرەحسين الى القصر السلطاني مع الجند والمدافـع ، واستعان محمود بالمدافع والاهـالي فتغلب عليهم وقتل منهم مقتلة عظيمة ، وشتت شمل الباقين ، وزالت الانكشارية نهائيـا • وأطلق المصلحون على هـذا الحدث التاريخي اسم (الواقعة الخيرية) تعبيرا عـن التفاؤل بهـا ، لأن الدولة بعد ذلك غـذت السير في طريق الاصلاح العسكري ، وتخلصت مـن المساوىء المرتبطة بالانكشاريـة • وفي نفس اليوم الذي ألغى فيـه السلطان فرق الانكشارية ، أعلن تشكيل (العساكر المنصورة المحمدية) بدلا منها ، وهي الفرق الجديدة التي أنشأها وأمر بالانخراط في صفوفها ، وخصّص لإعدادها وتدريبهـا الكثير من الموارد المالية •

وشكلوا أسراً محلية متوائقة ، بالولاء والتقليد . وكانت التزاماتهم الماليـة والعسكرية تجاه الباب العالي منظمة ومحددة جيـدا ، ثم تطورت الى نظام للامراء والفلاحـين ، ولكن ارتباط الطرفين الوثيق كان له تأثير نافع لهما معا .Lewis, P. 38

(١) Lewis, op. cit., P. 78 ، وانظر أيضا :

Findley, Carter V. «Bureaucratic Reform in the Ottoman Empire The Sublime Porte 1789-1922, Princeton New Jersey 1980, PP. 116-117.

وأصدرت الدولة العثمانية القوانين اللازمة لتنظيم الخدمة في الجيش الجديد وتحديد مراحلها وتعيين شروط الاعفاء منها ، وأقامت المصانع العسكرية المتنوعة لتزويد الجيش بالاوازم والذخائر ، وافتتحت المدارس العسكرية لتخريج الضباط في مختلف صنوف الأسلحة : المشاة والبحرية والخيالة والمدفعية • وقد استعانت الدولة في بادىء الامر بجماعات من الخبراء والمدربين الاوربيين من جنسيات مختلفة ، ثم بعد البحث والاختبار ، اعتمدت النظم الالمانية في الشؤون الحربية العامه ، والنظم الانكليزية في الشؤون البحرية(١) • وأول الضباط الالمان الذين عملوا في خدمة الدولة مدة طويلة كان الملازم الاول فون مولتكه الذي وصل الآستانة بزيارة خاصة في نهاية عام ١٨٣٥ ، ولقي القبول من السلطان محمود فعيّنه مستشاره لشؤون تنظيم الجيش الجديد • وكان مولتكه طليعة سلسلة طويلة من الضباط الالمان سهرت على تنظيم الجيش العثماني وتدريبه وفق أحدث الاساليب الالمانية ، حتى قبيل الحرب العالمية الأولى •

ومنذ أواخر القرن الثامن عشر تركزت عناية الدولة على المدارس العسكرية لتلبية حاجة الجيش الماسة الى الضباط ، فأنشئت مدرسة الفنون البحرية (١٧٧٣) ومدرسة للهندسة العسكرية (١٧٩٣) ، وقد بعث السلطان محمود النشاط فيهما مجددا ، كما أرسل أربعة طلبة الى باريس (١٨٢٧) أسوة بمحمد علي في مصر ، ليكون هؤلاء بداية البعوث الطلابية العسكرية الى أوربة • وثمة ملاحظة هامة وهي أن فوائد الاصلاح العسكري لم تنحصر في شؤون الجيش والدفاع فحسب ، وانما امتدت الى شؤون التعليم والثقافة عموما •

فجميع العلوم العصرية عرفتها الدولة العثمانية عن طريق المدارس العسكرية المتصلة بالجيش ، ولذا فأول المدارس الحديثة كانت قد أنشئت لغايات عسكرية بحتة • وأولى المؤلفات في العلوم الرياضية والطبيعية ، وحتى في التاريخ والجغرافية ، كانت قد وضعت في المدارس العسكرية ، كما أن انشاء هذه المدارس

---

(١) الحصري ، المصدر نفسه ، ص ٨٢ .

العسكرية سبق انشاء المدارس المدنية (الملكية) بمدة طويلة لا تقل عن نصف قرن[1] .

ولكن تعليم الطب الحديث لم يبدأ الا في المدرسة الطبية العسكرية التي أنشئت لتخريج الاطباء والجراحين والصيادلة الذين يحتاجهم الجيش العثماني . ويلاحظ أن هذه (الطبية العسكرية) تأسست سنة ١٨٢٧ ، بعد أقل من شهر من افتتاح محمد علي كلية الطب في مستشفى أبي زعبل بالقاهرة ، وكانت لغتها الفرنسية . أما الاطباء المدنيون فكانوا يتلقون تعليمهم في مؤسسات تقليدية ، مثل القسم الطبي في المدرسة السليمانية بالآستانة ، حيث اعتمدت مواد الدراسة والتدريب أساسا على تواليف جالينوس وابن سينا . وتأخر انشاء المدرسة الطبية الملكية (المدنية) حتى نهاية القرن التاسع عشر ، ولكنها ظلت أدنى مستوى من (الطبية العسكرية) من حيث المباني والتجهيزات ومن حيث العمل والانتاج ، الى أن توحدت المدرستان العسكرية والملكية بعد الانقلاب الدستوري على عبد الحميد (١٩٠٨) . وما بين ١٨٣١ و ١٨٣٤ أنشئت مدرستان عاليتان لأغراض عسكرية ، وهما مكتب الموسيقى الهمايوني ، ومكتب العلوم الحربية ، وهذه الاخيرة أنشئت على مثال مدرسة سان سير الفرنسية الشهيرة ، ولغة المدرستين كانت الفرنسية . ويبدو أن رجال الاصلاح شعروا بأن مستوى الطلبة في المدارس العسكرية العالية منخفض ، فأنشأوا مدارس اعدادية عسكرية لتحضير الطلبة لدخول المدارس العسكرية الاختصاصية ، كما أنشأوا مدارس رشدية عسكرية لتهيئة الطلبة لدخول المدارس الاعدادية العسكرية . ولم تنحصر هذه المدارس في العاصمة فقط ، وانما وجدت أيضا في الولايات التي اعتبرت مراكز تحشد الجيش النظامي[2] . وبرغم أن المدارس العسكرية العالية تأسست في عاصمة السلطنة ، فان أبناء الولايات

---

(١) الحصري ، المصدر نفسه ، ص ٨٣ .

(٢) قسمت السلطنة العثمانية من الوجهة العسكرية الى سبع دوائر كبيرة ، في كل منها جيش كامل من المشاة والخيالة والمدفعية . وكان مركز الجيش الاول في الآستانة ، والثاني في أدرنة ، والثالث في مناستر ، والرابع في ارزنجان ، والخامس في دمشق الشام ، والسادس في بغداد ، والسابع في اليمن .

لم يحرموا من دخولها ، لأنها كانت داخلية ومجانيـة تتكفل الدولة بنفقات طلابهـا وتتولى نقلهم من مراكز الولايات الى العاصمة • وينطبق ذلك أيضا على المدارس الاعدادية العسكرية • وفكّر السلطان محمود في انشاء مدارس ابتدائية وثانوية للأغراض المدنية ، وخطط لانشاء مدارس رشدية ملكية (مدنية) ، وافتتح عـددا منها عام ١٨٣٨ ولكن يبدو أن نجاحه كان محدودا في هذا الصدد • وتغلبت الدولة على مشكلة توفير المعلمين للمدارس الحديثة بتعيين أساتذة أوربيين ، وبارسـال البعوث الدراسيـة الى الخارج كمـا رأينا ، وهذه المدارس كـان وحيها غربيـا وأفكارها علمانية وكذلك أهدافها ، ولذا لقيت معارضة من العلماء (رجال الدين)•

واقتضت ضرورات الاتصال الدبلومـاسي والعسكري والثقافي مع اوربـة ، توفير من يجيدون اللغات الاوربيـة ، ولا سيما الفرنسيـة والايطالية ، وترجمـة المؤلفات الاوربيـة في ميادين الطب والعلوم ، وسدّ حاجـة المدارس العسكريـة العاليـة وسواها الى المترجمين مـن التبعة العثمانية • وكانت المشكلة أن عـدد الذين يتقنون اللغات الاوربية من هؤلاء كان محدودا جدا • وأصبحت الحاجة ماسة لمعرفة هذه اللغـات بعد أن أنشئت وزارة الخارجيـة برياسة (الريس أفنـدي) وأرسل السلطان سفراءه الى عـدد من العواصم الاوربية • وقد اضطرت الدولـة الى توجيه وظيفة ترجمان الباب العالي المرموقـة الى مسلم يتحدث التركية ، بدل اليوناني الذي كان يشغلها والذي أعـدم بعد أن اكتشف أنه يفشي أسرار الدولـة الى أعدائها إبان الثورة اليونانية (١٨٢١)[١] • ومعلوم أن رعايا السلطان اليونانيين من حيّ الفنار بالآستانة كانوا يتولون مهام هذه الوظيفـة للقرون الثلاثة الماضية ، وصاحبها كان له نفوذ كبير على شؤون الدولة الخارجيـة ، لأنه يطلع على جميـع محادثات الدولة ومراسلاتها ، ويشارك في صياغة بنود المعاهدات بين الدولة ودول أوربة • هذا الى أن تحديث الادارة الحكومية وما يتفرع عنها كان يستلزم تدريب طائفة من الشبان والموظفين المدنيين على إجـادة اللغات الاجنبية ، وترجمة الدروس في المدارس العالية الى التركيـة ، ولذلك أنشئت مكاتب للترجمة في جميع الادارات

---

(١) انظر حول ذلك Findley, op. cit., PP. 132-133.

الحكومية في العاصمة ، أما ترجمة المؤلفات الأوربية الادبية ، فلم تظهر الا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر[1] .

وفي مجال اصلاح الادارة الحكومية ، أصدر محمود مرسوما يقضي بالغاء مكتب المصادرة الذي كان مكلفا بمصادرة أموال كبار الموظفين في حياتهم أو بعد موتهم ، وهي عادة قديمة لجأت اليها الدولة في بعض الاحيان لسد عجز الخزانة المالية .

وفي عام ١٨٣١ ، وبقصد توفير المجندين والأموال للجيش الجديد ، قامت الدولة بأول عملية احصاء ومسح ، لضبط تجنيد الذكور في الجيش ، وتسجيل ملكيات الاراضي ، لتوزيع ضرائبها . وقد سبقت الاشارة الى أن سياسة تحويل المقاطعات[2] من نوع (تيمار وزعامت وخاص) الى أملاك دولة ، واعطاء حق جمع ضرائبها الى الملتزمين ، كان اصلاحا أجراه سليم الثالث لتلبية حاجته الماسة الى المال من أجل بناء (النظام الجديد) . وجاء محمود الثاني فأكمل عمل سلفه ، وألغى المقاطعات الباقية ، واحتفظ بأفضل الفرسان المرتبطين بها ، ووزعهم

---

(١) P. M. Holt, Egypt & the Fertile Crescent 1516 - 1522, London 1960, P. 170

(٢) كانت الدولة بعد فتح ممالكها تحصي القرى الموجودة فيها وتقسمها الى مقاطعات صغيرة أو كبيرة ، فتمنح الصغيرة الى الجنود المحاربين ، وتمنح الكبيرة الى القواد والامراء بعد تخصيص طائفة منها الى السلطان . ويلاحظ أن منح المقاطعة الى شخص ما ، لا يعني تمليكه القرى والاراضي التي تتألف منها المقاطعة ، وانما يعني تفويضه حق جباية سائر الضرائب المترتبة عليها . وتبقى الاراضي والمزارع والقرى بتصرف مالكيها ، على أن يدفعوا الضرائب المفروضة عليها الى صاحب المقاطعة أو من يوكله لتسلمها . ومقابل ذلك يتعهد أصحاب المقاطعات أن يكونوا دائما على أهبة الاستعداد للحرب مع السلطان ، وذلك بتجهيز عدد من الخيالة والفرسان المحاربين بكل ما يحتاجونه من اسلحة وخيول بنسبة فارس واحد عن كل خمسة آلاف آقجة (عملة فضية عثمانية) من موارد المقاطعة .

وقسمت المقاطعات الى ثلاثة أنواع حسب دخلها ومواردها ، التيمار وهي المقاطعة الصغيرة التي يقل دخلها عن ٢٠ الف آقجة ، والزعامت وهي المقاطعة المتوسطة التي يتراوح موردها بين ٢٠ الف و ١٠٠ الف آقجة . والخاص ، وهي المقاطعة الكبيرة التي يزيد دخلها على ١٠٠ الف آقجة . (انظر الحصري ، المصدر نفسه ، ص ٢٩) .

على فيالق الفرسان الحديثة ، وأحال الباقين على المعاش[1] • وبهذا الاصلاح أمكن تصفية بقايا المقاطعات المذكورة وتحويلها الى أملاك دولة وتفويض الملتزمين بجمع ضرائبها دون أية التزامات عسكرية •

والحق أنه منذ بداية القرن السابع عشر ، ظهر أن نظام المقاطعات آخذ بالانحطاط ؛ فقد زادت الفوضى والعدم النظام في صفوف الفرسان المحاربين المرتبطين بالمقاطعات الممنوحة ، بعد أن آثروا الاشتغال في الارض على الالتحاق بالحرب ، وبعد أن أصبح أصحاب المقاطعات ملاّكا فعليين لما بيدهم ، يتوارثونه ويتصرفون فيه ، دون أن يقدموا مقابله ما يترتب عليهم من الفرسان المحاربين • ولذلك استعاضت الدولة عن الفرسان المحاربين بفرق المتطوعة ذوي الرواتب الذين زادت أهميتهم في القرن الثامن عشر ، وحوّلت الكثير من المقاطعات في الارياف الى أملاك سلطانية أو الى عهدة الامراء ، وفوضت الملتزمين بجمع ضرائبها• ومعلوم أن انحطاط طبقة الفرسان المحاربين ، ولجوء الدولة الى (الالتزام) لجباية الضرائب بدل صاحب المقاطعة ، كان بين الاسباب المعروفة لانحطاط أحوال الدولة •

وقد اتضح أنه في بداية القرن التاسع عشر ، لم تكن المقاطعات قد زالت كلها ، ولا طبقة الفرسان المحاربين قد اختفت بأكملها ؛ فثمة أراض واسعة ، وخاصة في الاناضول ، كانت لا تزال تصنّف باعتبارها (تيمارات) ، اضافة الى أن الكثيرين من جنود الدولة النظاميين أو الانكشارية ، ما زالوا يتقاضون مخصصاتهم من المقاطعة بدل خزانة الدولة أو علاوة عليها • فقرر سليم الثالث ان تستولي الدولة على كل اقطاع يموت عنه صاحبه ، ورصد موارد المقاطعات المستردة لتمويل (النظام الجديد) •

وتابع السلطان محمود سياسته المركزية الرامية الى اخضاع مراكز القوى في السلطنة ، فأنشأ مديرية الاوقاف (أصبحت وزارة فيما بعد) وجعلها مسؤولة

---

(١) Lewis, op. cit., PP. 90-91

عن الاشراف على موارد الاملاك الوقفية في حواضر السلطنة ، من عقارات وبساتين وكروم .. بدل متولي الاوقاف ونظّارها من قضاة ومفتين ينتمون الى طبقة العلماء . ومعلوم أن موقف العلماء من الاصلاح والتجديد لم يكن واضحا ، ففي وقت ما اتحدت جهودهم مع طلبة المعاهد الدينية والانكشارية لمقاومة الاصلاح العسكري ، ولكن يلاحظ أن كبار العلماء تمسكوا بموقف الحذر ، فلم يجهروا بمناوءة الاصلاح ، بل كانوا مستعدين عموما للتعاون مع السلاطين والتسليم بما يرسمونه ضمن حدود الشرع . كذلك اعتزم محمود وضع حد للفوضى في ادارة الاوقاف ، وخاصة بعد أن ظهر فيها سوء الاستعمال والفساد ، وبعد أن لجأ كثير من الملاّك الى تحويل أملاكهم الى وقف ذري أو أهلي تحرّزا من مصادرته وضمانا لانتقال الثروة الى الورثة . وأصبح موظفو مديرية الاوقاف مسؤولين أمام الدولة عن موارد الاوقاف وعن انفاقها في الوجوه والاغراض التي حدّدها الواقفون ، ومقابل ذلك يتقاضون رواتبهم من الدولة . لقد نجح محمود حقيقة في اضعاف طبقة العلماء التي كانت تستمد قوتها من استقلالها المالي ، ولكنه من ناحية أخرى ، أسكت صوت المعارضة الذي كان يرتفع ضد الظلم والقهر والاستغلال ، وذلك بعد أن قضى على القوة المادية المتمثلة بالانكشارية التي كان بمقدورها أن تتحدى سلطانه . كذلك فان اشراف الحكومة على موارد الاوقاف ، ترك كثيرا من المباني الدينية والوقفية عرضة للخراب ، نظرا لافتقارها الى المال اللازم لصيانتها والحفاظ عليها[1] .

وفي نطاق مساعي السلطان لتثبيت سياسته المركزية والتعريف بمقاصده على نحو أفضل ، أنشأ الجريدة الرسمية العثمانية (تقويم الوقائع) وصدر أول أعدادها عام ١٨٣١ ، واقتصرت على نشر التعيينات الرسمية ومقتطفات من المحاكمات القضائية ووصف حضور السلطان المناسبات الرسمية وما يصحبها من أبهة وفخامة . وكانت تصدر بالتركية ويقرؤها موظفو الدولة . وبدأت أنباء السياسة السلطانية تشيع في حواضر الدولة حين افتتح رسميا أول طريق للبريد

---

ibid., P. 92. (1)

(١٨٣٤) في آسيـة الصغرى والرومللي ، وثم وصـل مراكز السلطنـة الرئيسية بالخدمة البريدية • وبنيت طرق جديدة ، وأقيم نظام للحجر الصحي بين السلطنـة وأوربة فسهَّل السفر والانتقال بينهما ، ونشرت أنظمة الجوازات والسفر ، وأدخل البرق (التلغراف) عام ١٨٥٥ ، والسكك الحديـدية (١٨٦٦) لأول مرة ، وكـل ذلك ساهم في تقوية السلطة المركزية للدولة •

وفي مجـال تنظيم الادارة الحكوميـة ، أجرى السلطان تغييرات هامـة في بنية أجهزة الحكومة وموظفيها ، بحيث اكتسب هؤلاء التسمية الاصطلاحية والمظهر الخارجي لنظرائهم الاوربيـين ، وخاصة بعـد أن دعي الصدر الاعظم والـوزراء لارتداء الملابس الرسمية ، وجهزت دوائر الدولة بالمكاتب والموظفـين ذوي الملابس الافرنجية ، ولكن هـذا التغيير الظاهري لم يكن كافيـا لاعطاء الانطباع عن ادارة حديثة فعَّالة • كذلك أصبح السرعسكر وموظفوه يشكلون نواة لوزارة الحربيـة التي أنشئت لضبط سلطة الحكومة المركزية على القوات المسلحة ، ومنـع اللجوء الى العصيان الذي طالما أعلنـه الانكشارية ضد السلاطـين في الماضي • كـذلك تأسست وزارة المالية (١٨٣٥) وعين الـدفتردار وزيرا لها ، كمـا أصبح للمفتي الاكبر مقرّ رسمي ، يجتمع فيه مع المفتين ، وهـؤلاء برغم استقـلال مؤسساتهم وقراراتهم ، الا أنهم عرضة للصرف مـن الوظيفة • وفي العـام نفسه ، أنشئت في نفس مبنى الباب العالي ـ قصر الصدر الاعظم ـ وظيفة الكيخيا لرياسة الشؤون المدنيـة ، والريس أفندي لرياسـة وزارة الخارجيـة • وفي العام التـالي أنشيء (مجلس دار الشـورى العسكري) وفي عـام ١٨٣٨ تشـكل (مجلس الاحكام العدليـة) ، ولعب المجلسان دورا هاما في تخطيط الاصلاحات وتنفيذها في الفترة اللاحقـة مباشرة ، كما تشكلت لجان للزراعة والتجارة والصناعة والاشغال العامة ، واعتقد السلطان محمود أنه جدّد بذلك بنية الدولة القديمة وخاصة حين استبـدل الجيل الجديد من الموظفين المتعلمين بأسلافهم القدامى في دوائر الباب العالي[١] •

---

(١) Lewis, op. cit., PP. 95-97

الدور الثاني ـ ويقابل الفترة الزمنية لحكم السلطانين عبدالمجيد(١٨٣٩ـ١٨٦١) وعبد العزيز (١٨٦١ ـ ١٨٧٦) : وبرز فيه تنظيم الدولة الحديثة ومحاولة انشاء النظام النيابي الدستوري • وقبل أن نعرض لاصلاحات هذا الدور ، نوجز أهم أحداثه بحسب تسلسلها الزمني • كانت التسوية الاوربية للمسألة السورية القائمة بين السلطان وواليه الثائر محمد علي (١٨٤١) تقضي بتقليص حجم مصر واضعاف قوتها وتكبيلها بقيود السيادة العثمانية والامتيازات الاجنبية على نحو يربك شؤونها وينهي استقلالها الداخلي الذي حققته منذ مطلع القرن التاسع عشر • وفي بداية عهد السلطان عبد المجيد صدر منشور الكلخانة (تشرين الثاني ١٨٣٩) وذلك امتنانا منه لموقف الدول الاوربية التي ساعدته وحمت عرشه حين أحدق به الخطر • وقرىء المنشور في حفل كبير في قصر الكلخانة ، ويضمن أرواح الرعية وأعراضهم وأموالهم ، ويقضي باصدار قوانين جديدة لتثبيت التكاليف المالية وتحديد مدة الخدمة العسكرية ، وسنعود الى تحليل المنشور بعد قليل •

كذلك نذكر الاضطراب الطائفي الذي نشب بعد رحيل الادارة المصرية عن بلاد الشام (١٨٤٠) ، ومسارعة الدول الاوربية وخاصة فرنسة وانكلترة لمشاركة الدولة العثمانية في ترتيب أمور جبل لبنان ، ومبادرة السلطان العثماني لتدعيم حقوق سيادته التقليدية على الجبل ، مستفيدا من الاضطراب المذكور ، ومستندا الى سياسة (التنظيمات الجديدة) التي أخذت بالحلول النصفية ، وذلك حين أقرت اشتراك أهالي الجبل الموارنة والدروز في نوع من الادارة الثنائية ، وقسمت الجبل الى قائمقاميتين مارونية في الشمال ودرزية في الجنوب، تحتوي كل منهما على مناطق مختلطة • ونشير الى فشل هذه الحلول وما نجم عنها من توسيع شقة الخلاف بين الطائفتين في (المناطق المختلطة) ، ومن فتن دموية طائفية • وفي (المناطق المتجانسة) من منازعات جديدة اجتماعية بين الفلاحين والاقطاعيين كان يغذيها في الشمال الاكليروس الماروني الطموح للسيطرة الزمنية• ولعبت الايدي الاجنبية تحرك الضغائن وتثير النعرات وتغذي الحذر والتوجس ، فبدأت المرحلة الثالثة من مراحل تطور الجبل ، بعد مرحلة الامارة الشهابية

(حتى ١٨٤٠) ومرحلة الفوضى والفتن (١٨٤٠ ــ ١٨٦٠) ، لتبدأ الحرب الاهلية المؤسفة (١٨٦٠) التي أعقبهـا تدخل دولي واحتلال فرنسي تبعه احتـدام الصراع السياسي بين الدول للحيلولة دون تفرد فرنسة بمعالجة الأزمة ، وانتهى بعد جـدل طويل بتسوية (١٨٦١) قبـل بها الباب العـالي مكرها ، وتنص عـلى أن يحكم الجبـل متصرف مسيحي عثماني بموجب نظـام اداري خاص يوضع تحت رقابـة دولية ، وتشكيل متصرفية جبل لبنان الممتازة المرتبطة رأسا بعاصمة الدولة[١] .

ونذكر أيضا حرب القرم التي أثارتها أيضا أزمـة أوربية بـدأت باضطراب طائفي بين الرهبان اللاتين والرهبان الارثوذكس في القـدس . ومنشأ الاضطراب خلاف على رعايـة بعض المقامات والآثار الدينية في القدس . وانتصرت فرنسـة للاتين ، وروسية للارثوذكس . ومعلوم أن روسية كانت مستاءة مـن نظام شكيب أفندي (١٨٤٥) الـذي قسم الجبل الى قائمقاميتين مارونية ودرزية وأبى انشاء قائمقامية للروم الارثوذكس تكون قاعدة لسياسة روسية في الشرق أسوة بانكلترة وفرنسة . واستغل القيصر نيقولا الاول الخلاف المذهبي بين الرهبـان ، وطلب في ربيع ١٨٥٠ أن تكون روسية حامية الارثوذكس في جميع ممالك السلطنة ، ولكن انكلترة وفرنسة وقفتا ضـده ، لأن طلب الاعتراف لروسية بحمايـة الارثوذكس حماية تامة مطلقة غير مقيدة بشرط ، يضع الدولـة العثمانية تحت رحمـة الروس . ويبلغ عـدد الارثوذكس في السلطنة اثني عشر مليونا ، أما اللاتين الذين تحميهـم فرنسة فلا يزيدون عن بضع مئات ، وهم ليسوا مـن رعايا السلطان بل من رعايـا الدول الاوربية ، ومقيمون موقتا في الاماكن المقدسة ومعظمهم رهبان في الاديرة[٢] . وتسرّع القيصر ، وقرر أن يضع أوربة أمام الامر الواقع بعمل عسكري خاطف[٣] وأخطأ القيصر في تقديره لمواقف الدول ، ودهش حين أعلنت بريطانية وفرنسة عليه

---

(١) لمزيد من التفاصيل انظر كتاب المؤلف « أزمة الحكم في لبنان » دمشق ١٩٦٦ .

(٢) خوري واسماعيل ، المصدر السابق نفسه ، ج ٣ ص ١١٣ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٢٦ .

الحرب (آذار ١٨٥٤) وخذلته النمسة ، ووقفت بروسية على الحياد • أما الدول الاخرى وغالبية شعوبها من الكاثوليك فعارضت القيصر ، لأن الخلاف بينه وبين الباب العالي سببه عدم تفريط السلطان بحقوق اللاتين الكاثوليك في الاماكن المقدسة • فضلا عما يكنّه الرأي العام في انكلترة وفرنسة من كراهية لروسية معقل الحكم المطلق ، وما يعتقده بعض المطلعين الغربيين على الشؤون العثمانية من أن حكومة السلطان يمكنها أن تحقق لرعاياها السلامة والخير لو أتيح لها بعض الطمأنينة والاستقرار على حدودها الشمالية مع روسية المتربصة بها • ومصداق هذا أن الحلفاء بعد انتصارهم عقدوا مؤتمر الصلح في باريس (١٨٥٦) حيث رفعوا الدولة العثمانية الى مصاف الدول الكبرى ، وأدخلوها ضمن الهيئة الاوربية لكي لا يعتدي عليها الروس ويزدروا بها • هذا الى تجريد روسية من أدوات الاعتداء على الدولة ، باعلان الحلفاء حياد البحر الاسود ، وحرمان روسية من أن يكون لها في مياهه وعلى سواحله قوات بحرية أو قواعد حربية •

وأرادت الدول المتحالفة أن تطمئن الى أن الروس لن يعودوا الى التدخل في شؤون الدولة ويبسطوا عليها حماية دينية أو غير دينية ، فتعهدوا بأن لا تتدخل دولة بين السلطان ورعاياه • وفي الوقت نفسه أخذوا المواثيق على السلطان أن ينفذ من جانبه ما وعد من المساواة بين رعاياه دون تفريق بين الاديان والمذاهب والاجناس ، فوعدهم السلطان عبد المجيد ، وأصدر منشوره المشهور باسم خط شريف همايون ، وهو يبني دستور الدولة على أساس طائفي وسنعود اليه بعد قليل •

ومن أحداث هذا الدور أيضا ، اتحاد مقاطعتي الدانوب الافلاخ والبغدان في رومانية (١٨٥٩) ، ومنح الخديوي سعيد امتياز حفر قناة السويس الى فرنسة ، ومتابعة هذه الفتح والاستعمار في أرض الجزائر ، وتفاقم الارتباك المالي في تونس على نحو ما حدث في مصر والدولة العثمانية ، وتورط أمراء الاسرة الحسينية في مشاريع أوقعتهم وبلادهم في شراك أوربية سيكون لها أثرها المباشر على احتلال فرنسة لتونس وبسط الحماية عليها (١٨٨١) •

ونعرض فيما يلي لأبرز الاصلاحات في هذا الدور :

مات السلطان محمود تاركا لابنه الشاب عبد المجيد دولة ذات سلطة مركزية نافذة على ولاياتها ٠ ولم يكن يؤرقه سوى صراعه الخطير الدائر مع واليه محمد علي باشا ٠ ومات محمود قبل أن تصله نتائج معركة نزب (حزيران ١٨٣٩) التي أسفرت عن نصر حاسم لمحمد علي ٠ وبرغم الظروف السيئة التي اجتازتها الدولة بعد هزيمة نزب ، ومتابعة فرنسة احتلال الجزائر ، واصل عبد المجيد سياسة والده في اصلاح أحوال الدولة والظهور أمام الدول الاوربية وخاصة بريطانية ، بمظهر السلطان المستنير الذي يحرص على مصلحة جميع رعاياه أياً كانت مللهم وأجناسهم ، وأن السلطان لا يقل عن واليه في مصر رغبة في الاصلاح والتجديد ٠ وارضاء الدول الاوربية التي زاد تدخلها لدى الباب العالي لاصلاح شؤون رعايا السلطان المسيحيين ، لا يقلل من أهمية الدافع القوي للاصلاح الذي شعر به رجال الدولة لانقاذها من الانهيار المحتوم ، والذي تجسّد في الاصلاحات المتنوعة التي تمت قبل صدور منشور كلخانة ٠

لقد رأى بعض السياسيين العثمانيين ــ ممن أقاموا في العواصم الاوربية وقتا ما سفراء لبلدهم ــ أن السبيل الوحيد لبقاء السلطنة العثمانية ، هو اعادة تنظيمها على نسق الدول الغربية ، لمواجهة أوربة التي اتجهت نحو التوسع الامبريالي ، وبذلك ظهرت الحركة الاصلاحية المتأثرة بالغرب ، والمسماة (التنظيمات) ٠

لقد بدأ عهد (التنظيمات) ويقصد بها الاصلاحات التي أدخلت على أدوات الحكم والادارة في مختلف فروعها ، فأرست قواعد تنظيم الدولة على المبادىء الاوربية ، وكانت ثورة خطيرة من حيث أنها كفلت لأول مرة في تاريخ السلطنة المساواة أمام القانون بين المسلمين وغير المسلمين ٠ واستهلت بالمنشور السلطاني المعروف بخط شريف كلخانة الذي أعلنه أبو التنظيمات مصطفى رشيد باشا في ٣ تشرين الثاني عام ١٨٣٩ بعد هزيمة نزب بأربعة شهور ، وقرأ نصه من كلخانة (قاعة الورد) بحضور السلطان وكبار رجال

الدولـة والسفراء الاجـانب ، وسجلت بـه الدولـة تطورا جريئـا اذ اعترفت بأن النظم الموروثة لم تعـد ميزانا صالحا للحكم ، ولا بدّ من الأخذ بنظم أوربـة ولو تعارض بعضها مع الشرائع والسنن . ووعد فيه السلطان بتنفيذ برنامج شامل للاصلاحات ، وضمن فيه للرعية « أمنية الروح والعرض والمال » .

والحق أنه كان في أحوال الدولة ما يسوّغ اصدار هـذا المنشور ؛ ذلك أن اعدام الاشخاص كان يجري أحيانا من غير محاكمة بأمر من الحكام ، وكذا مصادرة الامـوال ، ولم تسلم الاعراض من تعدي أوغاد الجند والانكشارية[1] . استهلت ديباجـة المنشور بأنه في مبدأ الأمر ، حـين سارت الامور وفـق أحكام القرآن وشرائع المملكة ، سعدت الرعيـة . ولكن في المائة والخمسين سنة الاخيرة لم تلق الشرائع ما يجب لها فأصاب الدولـة الضعف والفقر . لقد أقرّ المنشـور المساواة التامـة بين جميع رعايا السلطان على اختلاف مللهم أمام القانون في دفع الضرائب ، وفي أداء الخدمة العسكرية . وقضى باصدار قوانين جديدة لتثبيت التكاليف المالية، ووضع قواعـد عادلة للخـدمة العسكريـة وأمر بتحسين طرق جبايـة الامـوال ومراعاة أحكام الشرع في توزيعها . وألغى نظام (الالتزام) والملتزمين الـذي كان السبب الرئيسي في كثير مـن الآفات الاجتماعية ؛ اذ كان للملتزمين بعض السيطرة على التغييرات القانونية في جزء كبـير من أراضـي السلطنة . وندّد بالرشـوة « لأنهـا أعظم سبب لخراب الملك وممقوتة شرعا » . ووعـد بالانتظام في دفـع الرواتب ، واصلاح القضاء عن طريـق التشريع . وأعلـن أن المنشور السلطـاني سيوضع في خزانة الآثار النبوية ، والسلطان سيقسم على العمل بأحكامه بحضـور العلماء وكبـار رجال الدولة الذين سيقسمون أيضا على التقيّد به ، ومـن يحنث بيمينه يلق عقابا . وطلب مـن الصدر الاعظم تعميم مضمونه على جميع الولايات ، وابلاغـه لسفراء الدول الاجنبية بغية توطيد الثقة بالدولة .

وبعـد بضعة شهور بوشر في تنفيذ ما تضمنه المنشور من مبادىء وتوضيحات،

---

(١) الحصري ، المصدر نفسه ، ص ٨٨ .

فأعيد تنظيم مجلس الاحكام العدلية الذي أنشأه السلطان محمود قبل سنتين ، وجرى توسيعه باضافة أعضاء جدد اليه لضمان قيامه بمهام المراقبة والاشراف وسن القوانين اللازمة لاصلاح أجهزة الدولة وتجديدها على أساس اقتباس النظم الأوربية ، ومن غير مساس بالاحكام الشرعية • ويلاحظ أنه حين كانت تنشأ مشكلة يشتبه أنها تتعارض مع الشرع (مثل قبول شهادة غير المسلمين على الاقل في المحلات التي لا يوجد فيها سكان مسلمون) ، كان رجال الدولة يتوصلون الى طريقة عملية لمعالجتها ، باصدار أمر سلطاني بشأنها « لأن الاوامر السلطانية المبنية على المصلحة العامة تكون مطاعة وواجبة التنفيذ »[1] • واستنادا الى هذا التأويل ، صدر الكثير من القوانين التنظيمية كقوانين العقوبات ، وأصول المرافعات المدنية والجزائية ، وقانون التجارة ، وقانون الاراضي وأمثالها •• واذا كان التشريع القضائي قد أثار حفيظة المشرعين المسلمين ، فانهم انزعجوا بدرجة أكبر من انشاء محكمة في وزارة التجارة للفصل في القضايا التجارية ، ومن إعداد قانون تجاري جديد على النمط الفرنسي ، بايحاء من رشيد باشا ، ويتعلق هذا القانون بمسائل الشراكة والافلاس وما اليها ، واعتبروا انه غضّ من شأن الشريعة وطالبوا بالغائه ، واتهموا رشيد باشا بمخالفة الشرع ، فاضطر السلطان لطرده[2] •

انتكست حركة الاصلاح موقتا باحتجاب رشيد باشا عن المسرح السياسي في مطلع عام ١٨٤١[3] ، فألغي النظام الجديد للولايات والضرائب ، وعاد الحكام العسكريون والملتزمون لجباية الضرائب (١٨٤٢) ، كما عادت الدولة الى نظام الالتزام • ولكن عجلة الاصلاح العسكري لم تتوقف ، فقد جرى تنظيم الجيش بحيث قسم الى خمسة جيوش ترابط في مراكز بعض الولايات ، وصدر قانون التجنيد فحددت مدة خدمة الجندي النظامي بخمس سنوات ، تتبعها سبع سنوات خدمة في الرديف (الاحتياط) ، وأخذ بأسلوب القرعة في التجنيد ، (ايلول ١٨٤٣) ، ونظمت مسائل التدريب والامداد والتسليح على

---

(١) الحصري ، المصدر السابق ، ص ٩٢ •
(٢) Lewis, op. cit., PP. 107-8.
(٣) Findley, op. cit., P. 153

الطريقة الاوربية . وبما أن كل ذلك كان يعتمد على توفير الأموال اللازمة ، فقد اهتم رجال الاصلاح بالنواحي المالية وفقا لمنشور كلخانة .

ولكن اصلاح النواحي المالية واجه مشكلة عصيّة هي عجز الخزانة المالية المزمن ، وعدم استقرار قيمة العملة العثمانية . وكانت المشكلة المالية تتصاعد حدّتها حين تضطر الدولة للانفاق على حرب تفرض عليها وخاصة من جانب روسية ، أو لاخماد ثورة في البلقان ترعاها روسية أو النمسة . هذا الى أن لجوء بعض السلاطين الى خلط العملة العثمانية الذهبية والفضية بمعدن رخيص ، لسدّ عجز الخزانة ، كان له آثار سيئة على انخفاض قيمة العملة وارتفاع نسبة التضخم . فبينما كان الجنيه الاسترليني (مثلا) يعادل ٢٣ قرشا عثمانيا عام ١٨١٤ اذا به يعادل ١٠٤ قروش عثمانية عام ١٨٣٩ . وانعكست آثار هذا التضخم بشكل واضح على تجارة الدولة ، وعلى مستوى الحياة فيها ، وعلى نزاهة واستقامة موظفيها ذوي الرواتب . ولكن الدولة اتخذت بعض التدابير لحماية العملة مثل سحب العملة المعدنية القديمة واصدار عملة معدنية جديدة هي الليرة الذهبية التي تعادل ١٠٠ قرش . ونعمت الدولة باستقرار نقدي قصير الاجل ، لأن متطلبات الانفاق على حرب القرم ضد روسية اضطرت الدولة الى التعاقد مع بنك بريطاني على أول قروضها الكبيرة (١٨٥٤)(١) بمبلغ ٥٥ مليون فرنك (٣ر٢ مليون جنيه استرليني) ، وقدّر لسياسة الاقتراض أن تستمر حتى عام ١٨٧٥ . وقد شجعت بريطانية وفرنسة سياسة التنظيمات لأنها تجعل الدولة العثمانية قادرة على مواجهة الضغوط الروسية ، فضلا عن أن هذه السياسة الاصلاحية لم تمس الامتيازات السابقة لبريطانية وفرنسة ، بل بالعكس ، فتحت أبواب السلطنة على مصراعيها أمام مناشط الدولتين الاقتصادية والسياسية والتبشيرية . ويلاحظ أن الرأسمال الاجنبي بدأ يتغلغل في السلطنة مع ادخال النظم الاوربية ومع القروض الاجنبية، ليسيطر بفضل نظام الامتيازات على صادرات الدولة ووارداتها ، وعلى البنوك والسكك الحديدية والمرافق الحيوية الاخرى كمصادر الطاقة والمياه والتعدين

---

(١) Ibid., P. 162

وسواها . وفي عـام ١٨٧٩ كانت الدولة مفلسة تماما ، وأبلغت الدول أنها عاجزة عـن وفاء أي دين عليها ، وانه يتعذر عليها سداد حتى نصف مدفوعات الفوائـد للدائنين ، وضغطت الدول الاوربية الدائنة على السلطان فأصدر (مرسوم محرّم) في أواخر عام ١٨٨١ ، الذي أنشأ ادارة الدين العثماني العام ، وأوكل اليها تحصيـل ايرادات حكومية معينة كاحتكار الملح والتبغ ورسوم الطوابع والمشروبات ومصائد السمك والحرير وبعض موارد الولايات المالية ، وبذلك قطعت مرحلة نهب واستعباد الدولة العثمانية وممالكها شوطا بعيدا ، الأمر الذي يسوغ القول بأن سياسة الدول الاوربية نحو الدولة العثمانية قد ساهمت في مرحلة الانحطاط والجمود التي عاشتها الدولة . بل يمكن القول ان هـذه الدولة فقدت الكثير من حرية التصرف والحركة في بلادها ، وان الدول الاوربية خلقت أوضاعا عثمانيـة مواتية للمصالح الاوربية ، وتولّت حماية تلك الاوضاع حتى قرب أيامنا هذه[١] .

وبدأت مرحلة جديدة في الاصلاح مع عودة رشيد باشا الى المسرح السياسي عـام ١٨٤٥ ، وزيرا للخارجية ، وفي العام التالي صدراً أعظم ، وهو منصب شغله ثلاث مرات ما بين ١٨٥٤ ــ ١٨٥٨ . وأصدر السلطان منشورا قال فيه انه باستثناء الاصلاح العسكري الذي هو راض عنه ، فان جميع المقترحات الاخرى الراميـة لتحقيق مصلحة رعيته قـد أساء وزراؤه فهمها وتطبيقهـا ، والسبب الرئيسي لذلك هـو جهل الشعب عموما ، ولـذا يجب معالجة هذا الجهل بانشاء المدارس الجيدة في جميع انحاء الدولة لنشر المعرفة المفيدة التي بواسطتها يمكن ادخال التحسينـات التي جرّبت في وزارة الحربيـة الى فروع الحكومة الاخرى[٢] . ولهـذا الغرض تشكلت لجنة من سبعة أشخاص عرفوا بطول باعهم في العلوم القضائية والعسكرية والمدنيـة ، وذلك للنظر في أحوال المدارس القائمة وفي انشاء مدارس جـديدة . وأوصى تقرير اللجنة بانشـاء جامعة حكومية ، وعـدد من المـدارس الابتدائيـة والثانوية ، ومجلس دائم للتعليم . أما الجامعـة فقد بوشر في بنائها ، ولكن العمل

---

(١) غربال ، المصدر نفسه ، ص ٨٢ .
(٢) Findley, op. cit., P. 153 & Lewis, op. cit., P. 110.

فيه لم يكتمل • وكانت حركة بناء المدارس الرشدية بطيئة حتى أن عددها في منتصف القرن ، بلغ ست مدارس ضمّت ٨٧٠ طالبا ، وهي نتيجة مخيّبة للآمال اذا قورنت بالبرنامج الطموح الموضوع لها • وظهر مجلس التعليم العام ، وتحول الى نظارة للمعارف عام ١٨٤٧[1] ، وأوكل اليها الاشراف على المدارس الجديدة وعلى مدرسيها ومناهجها الحديثة • وبذلك أصبح الطريق ممهدا أمام نظام تعليمي علماني • وفي عام ١٨٥٠ نشر رشيد باشا القانون التجاري الذي كان سبب سقوطه عام ١٨٤١ • وبعد سنتين عزل رشيد باشا من الصدارة العظمى ، والغي نظامه الجديد في ادارة الولايات ، وبدا أن عجلة الاصلاح قد توقفت ، ولكن تلميذيه عالي باشا (١٨١٥ — ١٨٧١) ومحمد فؤاد باشا (١٨١٥ — ١٨٦٩)[2] قادا حركة الاصلاح منذ عام ١٨٥٤ وللسنوات الخمس عشرة التالية • ويلاحظ أن الاصلاحات لم تتوقف أثناء حرب القرم (١٨٥٤ — ١٨٥٦) ؛ فقد أعيد تنظيم مجلس الاحكام العدلية ، وصدر أمر سلطاني برفع الجزية عن غير المسلمين (أيار ١٨٥٥) ومنحهم امتياز حمل السلاح ، أي جعل الخدمة العسكرية مفتوحة أمامهم •

بعد أن تغلبت الدولة العثمانية وحلفاؤها على روسية في حرب القرم ، اتخذ السلطان عبد المجيد خطوات ايجابية على طريق الاصلاح ولخير رعاياه ، فأعلن في ١١ جمادى الآخرة ١٢٧٢ هـ/١٨ شباط ١٨٥٦ ، عهده المشهور باسم خط شريف همايون ، وأكثر ما ورد في هذا المنشور يتعلق بحقوق الطوائف غير الاسلامية ومصالحها ، ويعتبر تأييدا للوعود والمبادىء التي نص عليها منشور كلخانة ، ولكن بشكل أكثر تحديدا ووضوحا ، وأضاف مبدأ هاما هو « معاملة جميع تبعة الدولة

---

(١) Lewis, ibid, PP. 111-112.

(٢) يبدو أن عالي باشا وفؤاد باشا ، مثل مصطفى رشيد باشا ، تقدما بنجاح نحو شغل المناصب الرفيعة في الدولة بفضل معرفتهما اللغة الاجنبية ، والنخبة الجديدة التي تولت مقدرات السلطنة لم تخرج من صفوف الجيش ولا من بين العلماء ، بل من مكاتب الترجمة ومن السفارات العثمانية . وفي عالم تسوده أوربة بنزعاتها العدوانية والتوسعية ، تتجه مراكز الثقة والقرار حتما نحو أولئك الذين يعرفون شيئا عن أوربة ولغاتها وأحوالها . Lewis, P. 116

معاملة متساوية » ، مهما كانت أديانهم ومذاهبهم ، وأبقى الحقوق والامتيازات الممنوحة لرؤساء الملل غير المسلمة . وطلب الى هذه الملل أن تفحص أوضاعها ثم تتقدم بمقترحات الاصلاح التي تتفق « ودرجة التمدن في العصر الحاضر » . وسجل المنشور أن المناصب مفتوحة لكل من يستحقها بصرف النظر عن معتقده الديني ، وكذلك معاهد التعليم العسكرية والمدنية . كما سمح للطوائف أن تنشىء معاهد تعليم العلوم والفنون والصناعات ، وكفل حرية هذه المعاهد التعليمية الطائفية، على أن يكون لمجلس التعليم الاعلى المختلط. التكوين اشراف على اختيار الطوائف لمدرسي تلك المدارس ، وعلى أن تتفق في المنهج مع مدارس الدولة . ونصّ الدستور على انشاء محاكم مختلطة للفصل في المنازعات بين المسلمين وغير المسلمين، ووعد بأن القوانين الخاصة الناظمة لها ستصدر قريبا . وحدد طريقة التقاضي بين المسلمين والاوربيين ، وأمر باصلاح السجون ووضع نظاما للشرطة وحرّم التعذيب وأوصى بتكوين مجالس بلدية ومجالس للولايات ، ومنع الموظفين أن يشتركوا في التزام الضرائب المحظور في منشور كلخانة ، وأكد حق الدولة في تجنيد غير المسلمين ، مع اعطائهم فرصة دفع البدل العسكري ، كما نص على وضع ميزانية مفصلة للدولة ومعاقبة الرشوة والاختلاس ، وتشجيع انشاء البنوك واصلاح النقد لتوفير رؤوس اموال تستخدم في تنمية الزراعة والصناعة ، والاهتمام بالاشغال العامة كانشاء الطرق والترع وتيسير سبل المواصلات ، وازالة كل ما يعوق التقدم الاقتصادي ، واعطاء الاجانب حق تملك الاراضي وفق شروط معينة ، وختم بالقول ان تحقيق هذه الاغراض يكون عن طريق الانتفاع بعلوم اوربة وفنونها ورؤوس أموالها ، وبعبارة المنشور « النظر في الاسباب المؤدية لاستفادة العلوم والمعارف الاجنبية ووضعها على التعاقب في موضع الاجراء »[1] .

ويلاحظ أن المنشور اتجه نحو (الطائفية) حين أعلن ابقاء السلطات الممنوحة لرؤساء الملل على أن تنظم بقوانين جديدة . والقوانين التي صدرت لهذا الغرض جعلت لكل طائفة دينية مجلسا جسمانيا ومجلسا روحيا ، وحددت

---

(١) انظر نص المنشور في (الدستور) الترجمة العربية ، مجلد ١ ص ٥ ــ ١٠ .

سلطات كل من المجلسين المذكورين ، وتركت جميع القضايا المتعلقة بالاحوال الشخصية لأبناء الطائفة الى هؤلاء الرؤساء وتلك المجالس ، وكذلك كل ما يتصل بأوقاف الاديرة والكنائس ، وشؤون المدارس والمؤسسات الخيرية التابعة للطائفة(١) .

ولا بدّ أن نشير الى أن ظروف التنظيمات كانت صعبة ولم يصف الجو لتنفيذ جميع ما ورد في قوانينها التنظيمية . ويبدو واضحا أن الذين أصدروا المنشور الهمايوني وقبله منشور كلخانة ، كانوا مؤمنين بهما ، وأن ما أصاب وعود المنشورين من قصور التنفيذ لا يرجع لعدم الايمان بهما ، بل هو يرجع الى أن الصعوبات كانت فوق طاقة رجال الاصلاح ، وهي صعوبات داخلية نشير الى بعضها .

فمن الصعوبات الداخلية غلبة الجهل بين أوساط الناس عدا نفر قليل جدا ، وندرة المتعلمين الذين يتفهمون دواعي الاصلاح ويؤمنون بجدواه لانقاذ الدولة ، وتمسك العناصر المحافظة بالانظمة السابقة وعدم اطلاعها على عواقب استمرار التمييز في المعاملة بين المسلمين (التبعة) وغير المسلمين (الرعايا) في عصر الثورات القومية والشعبية وما ينجم عنه من ثورات الرعايا ومداخلات الاوربيين ومطالباتهم . هذا الى افتقار الدولة الى المال اللازم للاصلاح والتنظيم ، والى الخبراء الماليين والاقتصاديين لتفادي الاخطاء المالية التي اربكت الدولة ، كانخفاض قيمة العملة ، وتفاقم التضخم ، واصدار عملة ورقية دون تغطيتها حسب الاصول . اضافة الى فساد ذمم الموظفين وقبولهم الرشاوى ، وميلهم الى اختلاس أموال الدولة (ورشيد باشا نفسه أدين بهذه التهمة) ، واسراف بعض السلاطين ، وعدم اندفاعهم في السير بالاصلاح الى غايته المرجوة (كما سنرى في عهد عبد العزيز مثلا) .

ومن الصعوبات الخارجية ، وهي الأهم ، أن الدول الاوربية لم تمحض النصح للدولة بنيّة خالصة ، فبينما كانت روسية تطالب بوضع نظام مفرط في

(١) الحصري ، المصدر نفسه ، ص ٩٠ .

اللامركزية ، وتزرع العراقيل في وجه الدولة ، وتحارب المصلحين صراحة ، وتعمل على افساد ما بينهم وبين السلطان ، كانت كل من فرنسة وبريطانية تشجع الباب العالي على توحيد مختلف طوائف السكان ، وتدّعي الحماية على طوائف منهم تحركهم بين آونة وأخرى ، مما قلّل هيبة الدولة وشلّ يدها ، وجعلها بين نارين : نار الرقابة من الدول ، ونار الصلف من رعية تعتزّ على راعيها بحماية أوربية . وأصبح الوزراء المصلحون في حيرة من أمرهم ؛ فالملامة واقعة عليهم سواء باشروا الاصلاح أو تراجعوا عنه . وماذا يبقى للسلطان إزاء تذمر الناس واتهامهم اياه بمبايعة غير المسلمين على تاجه وشعبه ؟

ومن ناحية أخرى تمتع الاجانب (المستأمنون) في الدولة بنفوذ قوي بفضل الحريات والمزايا التي منحتهم اياها الامتيازات ، وعملت الدول على استغلال هذا الوضع لتتدخل في شؤون الدولة من خلال تقوية مزاعم حمايتها لرعايا السلطان . وقد ظهر التناقض بين سياسة التنظيمات الرامية الى بسط سلطة الدولة المركزية على ولاياتها ، وبين الحركات الانفصالية لغير المسلمين التي كانت تغذيها وتحرّض عليها الدول الاوربية ، بحيث كان تنفيذ التنظيمات يتم في جو من الاضطراب الناتج عن الفتن التي نشبت في كريت والبوسنة والهرسك ولبنان وبلغارية ... ولقد شكا الصدر الاعظم عالي باشا ممثل الدولة في مؤتمر باريس من تنكّر الدول الاوربية الموقعة على معاهدة باريس (١٨٥٦) للعهد الذي قطعته بالحفاظ على سلامة الدولة وعدم التدخل في شؤونها الداخلية ، ولا سيما بالعلاقة بين السلطان ورعاياه غير المسلمين ، فقال في تقريره : « ان معاهدة باريس جعلت سلامة الممالك العثمانية تحت كفالة خمس دول وكان من شروطها ان هذه الدول لا تتدخل منفردة أو مجتمعة في علاقة السلطان مع رعاياه فحصل بهذه الشروط تأمين على الدولة من الخارج وتيسير لعلاقة السلطان برعيته النصارى فكان المأمول مراعاة هذا التأمين وتلك الشروط وان الباب العالي يكون قادرا على ادارة مصالحه بوجه مرضي ، غير أن أصول هذه السياسة لم تلبث أن تغيرت تغيرا حيّر الناس جميعا فان علاقة هذه الدول اعتراها التكدير فلم يعد بوسع الباب العالي

أن يعتمد على تأمينها »[1] .

ويبدو أن انشغال الدولة بالثورات البلقانية التي تدعمها الدول الاوربية وخاصة روسية ، قد صرف الدولة عن التركيز على مشاريع الاصلاح الى التفكير في الدفاع عن ولاياتها . وقد عبَّر الصدر الاعظم عالي باشا عن ضيق الدولة بهذا الشاغل المكلف بقوله : « .. فصار الباب العالي مع وجود هذه الارتباكات والاخطار مضطرا الى أن يستخدم في (المجهود) العسكري رجالا لا غنى لعيالهم ولإحياء الارض عنهم ، فاستغرق الاستعداد للدفاع جميع مواردنا . وما عندنا مال لاصلاح الحال ولا وقت لتنظيم الاحكام ... وحيث أن أعداءنا أقسموا جهدهم ليبددن السلطنة والمسلمين فلا بدّ والحالة هذه من تحمّل خسائر عظيمة فلنبادرن اليها حالة كوننا متمسكين بأصول حكومتنا »[2] .

ولم ينقطع تدخل الدول الاوربية في شؤون الدولة ، ففي عام ١٨٥٩ طلبت هذه الدول في مذكرة مشتركة ابلاغها عن سير الامور في الولايات العثمانية الاوربية ، وشكت من ضآلة التقدم في تطبيق وعود المنشور الهمايوني . وضاق بعض الترك ذرعا بذلك ، ورأوا في (التنظيمات) خطرا على كيان الدولة . ولكن رجال الاصلاح تابعوا سيرهم وسط هذه الصعاب ، لأن ذلك أدعى الى تحسين أحوال الناس وحفظ حقوقهم .

أما القوانين والمراسيم الجديدة التي صدرت لتنفيذ ما ورد في المنشور الهمايوني الجديد (١٨٥٦) ، فقد صدرت بعد حرب القرم بشكل مجموعة من القوانين التنظيمية ، وأهمها قانون الاراضي (١٨٥٨) الذي هدف الى تطوير الريف في الدولة ليكون على مثال الريف الاوربي ، يعج بالازدهار الزراعي

---

(١) انظر عبد العزيز عوض « الادارة العثمانية في ولاية سورية ١٨٦٤ – ١٩١٤ » القاهرة ١٩٦٩ ص ٣٠ نقلا عن (كنز الرغائب في منتخبات الجوائب) . طالع نص التقرير في الجزء السادس ص ١٣٨ – ١٤٢ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٣٧ ، نقلا عن كنز الرغائب ، ج ٦ ، ص ١٤١ .

والكثافة السكانية • ولتحقيق ذلك ينبغي اصلاح نظام ملكية الاراضي ، والغاء العلاقات الزراعية القديمة ، بالتخلص نهائيا من بقايا نظام الالتزام ، وتحسين حال الفلاح بتمكينه من التصرف بقطعة من الارض في مقابل مال زهيد ، والعيش من خيراتها • ولكن النتائج المرتقبة لم تتحقق لأن القانون أسيء تطبيقه ولم ينفذ عمليا الا بشكل محدود • فقد حصل الوجهاء وأصحاب النفوذ ، على مساحات واسعة من الاراضي بطرق الرشوة والتحايل ، بينما كان الفلاح فقيرا عاجزا عن دفع قيمة تصرفه بالارض • واكتسب الملتزم بماله وخبرته ، حرية التصرف بملكية الاراضي وحاز وثائقها الرسمية من الدولة •

وهكذا ظهر تغيير ليس في صالح الفلاحين ، بل في صالح فئة دخيلة أصبحت المستفيدة الرئيسية من القانون ، لأنها بامتلاكها وثائق (الطابو)[1] أصبحت أشبه بالمالك الحقيقي للارض الاميرية • وبقي الفلاحون في هذه الملكيات المدعمة مستأجرين يدفعون الايجار نسبة معينة من المحصول ، أو عمالا زراعيين فحسب • لدى كبار الملاك من الملتزمين السابقين وشيوخ العشائر والوجهاء الموسرين • ولعل الوضع الجديد الناتج عن القانون ، أصبح أسوأ من ذي قبل بالنسبة للفلاحين • ذلك لأنه أنقص حقوقهم ، ولأن أي اصلاح اجتماعي جديد لصالح هذا العدد الضخم من الفلاحين غدا أصعب من السابق ، ما دامت الدولة دعمت الارض في أيدي مالكيها الاقدمين • وعليه فان رجال الاصلاح كانوا غير متبصرين بعواقب تصرفهم حين أصدروا بطريقة آلية قوانين اصلاح الارض ، مستلهمين النظم الغربية فقط ، ودونما ادراك للوضع القائم ونتائجه المحتملة • وورثت الدول العربية التي ظهرت الى حيز الوجود بعد نهاية العهد العثماني ، مشكلات عسيرة خاصة بالارض ، وتوجب عليها أن تقوم باصلاحات حقيقية لصالح الفلاحين •

وفي ٢٠ حزيران ١٨٦١ مات السلطان عبد المجيد وخلفه أخوه عبد العزيز

---

(١) هو الرسم الحكومي الذي يستوفى مقابل حق التصرف بالارض ، على أساس أن الدولة هي المالك الحقيقي للارض .

(١٨٦١ ــ ١٨٧٦) ، وكان بين الرجلين فروق واضحة ، فالاول كان ميالا للاصلاح والتقدم ، أما الثاني فكان متقلبا عنيدا لم يلبث أن اختلف مع رجال الاصلاح وتدخل في أعمالهم • ومع ذلك فقد اتسم عهده بالتنظيم الداخلي للدولة ــ بفضل جهود فؤاد وعالي زعيمي الاصلاح في هذه المرحلة • وبالمقابل تميز عهده بفقدان الدولة أكثر ولاياتها الاوربية ، وبالافلاس المالي • وأخيرا شهد عهد عبد العزيز معارضة الاحرار للحكم الاستبدادي ، وقد سبقها ظهور تيار أدبي جديد ، يستمد وحيه وأفكاره من الغرب ، ونشاط صحفي انتقادي يدعو الى الاهتمام بتقييد سلطة الحكومة ــ أو على الاقل مراقبتها ومحاسبتها ــ بانشاء النظام النيابي الدستوري •

ويبدو أن النظام المركزي الذي اعتمده السلاطين لادارة ممالك الدولة ، منذ محمود الثاني وحتى عبد العزيز ، اقترن بحكم تعسفي نجم عنه مفاسد جديدة لم تعرفها ولايات الدولة من قبل ، برغم تحديث الادارة الحكومية على الطريقة الغربية • وأصبح من الضروري بعد حرب القرم أن تولي الدولة عنايتها لاصلاح أحوال ولاياتها ولا سيما في البلقان • وقد ركّز وزير الخارجية فؤاد باشا خاصة على الادارة الفاسدة التي تشكو منها ولايات الدولة ، وذلك في مذكراته عن حوادث الستين المؤسفة في سورية • وكانت المعضلة التي واجهت الدولة هي العثور على العدد الكافي في الموظفين الاكفاء ، من أجل تولي مسؤوليات الحكم والادارة في ممالك الدولة الواسعة التي تضم عددا من الاجناس والمذاهب ، وذلك بعد أن ثبت أن الكثير من الموظفين قد أساؤوا استعمال سلطاتهم الحكومية • وساد الاعتقاد بأن الحل يكمن في تقليص صلاحياتهم وتقوية اشراف الحكومة المركزية ، ولكن اتضح أن هذه الاتجاه سيلحق الضرر المعنوي والمادي بمكانة وسلطة موظفي الولايات • وفي دولة كالدولة العثمانية لا بدّ أن يؤدي هذا الضعف الى سقوط ادارة الولايات في مزالق خطيرة • وظلت مشكلة اصلاح الولايات تلحّ على تفكير فؤاد باشا ومعاونيه ، فأرسل المفتشون الى الولايات ، وكان بينهم جودت باشا المؤرخ المشرع ، وأحمد توفيق باشا العالم السياسي ،

وتشكلت لجنة برياسة جودت باشا لتفحص تقارير التفتيش وتضع توصياتها ومقترحاتها .

وفي غضون ذلك كان مدحت باشا ، وهو من أكفأ الحكام الاداريين في الدولة ، قد عهد اليه بولاية نيش في البلقان فأقر فيها النظام والامن ، وبنى الطرق والترع ، وأنشأ طريقا للعربات لنقل البريد والسائحين ، وفتح مدرسة الاصلاحخانة للايتام . وقد صرف مدحت اهتمامه لتحقيق خمسة مبادىء : ١ ــ المساواة بين رعايا السلطان ، ٢ ــ تركيز القوة الادارية والقضائية بيد رجال الحكومة ، ٣ ــ ايجاد الموظف الأمين الذي يلائم بين مصالح الحكومة ومصالح الرعية ، ٤ ــ اشراك الاهالي مع الادارات المختلفة في اصلاح امور البلاد ، ٥ ــ سد الثغرات التي تنفذ منها الدول الاجنبية للتدخل في أمور الولايات .

لقد انطلق مدحت من هذه المبادىء خلال مدة ولايته في ولاية نيش ، فحقق نجاحا ملحوظا . وحين عهدت اليه الدولة بولاية أخرى في البلقان لقي مدحت نفس النجاح . وحينذاك تدارس عالي وفؤاد مع مدحت امكانية استخدام اصلاحاته كأساس لاصلاح أحوال ولايات الدولة عامة ، واتفقوا على أن تتشكل ولاية الطونة من ضم الولايات البلقانية الثلاث : سيلستريا وودين ونيش، ويتولاها مدحت ، ويباشر فيها تطبيق قانون الولايات الذي شارك في وضعه ، قبل تعميم القانون في ولايات الدولة . لقد تم اختيار ولاية الطونة (الدانوب) لاسباب سياسة واضحة ، وأثبت مدحت أنه يمكن تطبيق قانون الولايات الجديد على نحو جيد وفعال ، لو توفر حسن النية ومضاء العزيمة لدى الوالي . وفي خلال سنتين ، استعاد مدحت النظام والامن ، وحدّد الضريبة المفروضة على كل شخص ، وقدم التسهيلات الائتمانية الزراعية للفلاحين بواسطة البنوك الزراعية التي أسسها ، لتخليصهم من جشع المرابين ، وأقام التعاونيات الزراعية ، وأنشأ الطرق والجسور والترع ، مع خط ملاحي تجاري في نهر الطونة ، وعمل على نجاح المشاريع الصناعية ، وفتح المدارس والملاجىء للبنين والبنات ، وعني بالمشافي والسجون . وبما أن الولاية كانت عرضة للتهديد الروسي المباشر ، فقد

اعتمد على المتطوعة لصد أي هجوم من ناحية روسية ، وبث نقاط الحراسة على طول الحدود ، وأسس جريدة لاطلاع الاهالي على ما يدور في الولاية من أعمال ، وزاد دخل الولاية من ٢٦ الف كيس الى ٣٠٠ ألف كيس[1] .

وبعد هذه التجربة الناجحة لقانون الولايات ، أصدره فؤاد باشا عام ١٨٦٤ وقد أصبح صدرا أعظم للمرة الثانية . وقصد من قانون الولايات تنظيم عملية اشتراك الاهالي في ادارة أمور البلاد بالتعاون مع السلطات الحاكمة والهيئات الادارية المختلفة . كذلك استهدف القانون المذكور ربط الادارات الفرعية في الولاية بمقر الوالي ، وربط الولايات كلها ربطا منظما بالحكومة المركزية في العاصمة . وتناول القانون التقسيمات الادارية والموظفين ، والمجالس الادارية ، والسلطات القضائية . والفكرة التي يعكسها هي أن تدمج ولايات الدولة في ولايات أوسع ، ويتولى ادارتها نخبة من الرجال المقتدرين المجرّبين الذين لا يشترط اتصالهم بالعاصمة الا بصدد المسائل البالغة الاهمية . وبذلك أصبح عدد ولايات الدولة سبعة وعشرين يحكم كلاً منها وال بسلطات واسعة . وقسّمت الولاية الى صناجق (متصرفيات) وهذه الى أقضية وهذه الى نواح وقرى . وأقيم في مراكز الولاية والسنجق والقضاء مجلس اداري يعاون في الادارة المحلية . فالمجلس الاداري في الولاية (مثلا) مؤلف من الوالي ومفتش الحكام الشرعيين (القاضي) ومأمور المالية (الدفتردار) ومعاون الوالي (الكتخدا سابقا) ، مع أربعة من ممثلي الاهالي ، اثنان عن المسلمين واثنان عن المسيحيين . وكان هؤلاء الممثلون ينتخبون بعملية تصويت معقدة . أما السلطات القضائية فتقوم على أساس الفصل بين السلطات التنفيذية والسلطات القضائية . ولا يلتزم الوالي بتنفيذ قرارات المجلس الاداري في الولاية ، الا بعد أن تعرض على الحكومة المركزية في العاصمة وتقرّها . وقد حظّر على أعضاء المجلس المذكور التدخل في المسائل القضائية ، وحددت لهم رواتب كافية لكي تحول دون اتباع

---

(١) انظر د. عبد العزيز نوار « تاريخ العراق الحديث » القاهرة ١٩٦٨ (٣٥٣ — ٣٥٤) .

وايضا : Lewis, op. cit., PP. 381, 384, 453.

مصالحهم الشخصية • وتنقسم ادارة الولاية الى شؤون مدنية ومالية وأمنية وسياسية وقضائية ، وعلى رأس كل منها مدير يتولاها تحت إمرة الوالي ، باستثناء الشؤون المالية التي يرتبط مديرها بوزارة المالية مباشرة • واضافة الى المجالس الادارية في الولاية ، تنعقد الجمعية العامة للولاية مرة كل سنة ، وهي مؤلفة من أربعة مندوبين عن كل سنجق • وقد اجتمعت هذه الجمعيات لعدة سنوات قبل أن يحلّها السلطان عبد الحميد الثاني ، مع غيرها من أدوات الحكم الدستوري[١]•

وفي عام ١٨٦٨ استدعي مدحت باشا الى الآستانة من ولاية الطونة ، نتيجة لضغوط أجنبية مختلفة فيما يبدو ، وعين في ١٨٦٩ لولاية بغداد حيث كرر فيها منجزاته واصلاحاته ، فأدخل النظام والتقدم الى الولاية مع كثير من المآثر المحمودة ، حتى تم نقله منها عام ١٨٧٢ ، كما نجح في نشر نفوذ الدولة في شرقي الجزيرة العربية والخليج العربي • وتباينت الآراء في أسباب تعيين مدحت لولاية بغداد ، فمنها أن عالي باشا خشي من تزايد شعبية مدحت في العاصمة فأبعده الى بغداد • ومنها أن فؤاد باشا أرسله الى بغداد نظرا لمهارته الفائقة في التعامل مع الاجانب ، وخاصة الانكليز الذين كانوا يسيطرون على شياخات وامارات الخليج العربي ، وكان لهم في أنهار العراق مصالح يخشى أن تتطور الى مطامع سياسية تهدد سلامة العراق[٢] •

وفي ضوء النجاح الذي حققه مدحت في تطبيق قانون الولايات ، أدخلت الحكومة العثمانية عليه بعض التعديلات التشريعية المرغوبة • وفي عام ١٨٧١ صدر القانون المعدّل باسم (قانون ادارة الولايات العمومية) ، وقد توسع في بيان وتحديد مسؤوليات واختصاصات موظفي الولاية من الوالي في الولاية حتى المختار في القرية • ونصّ على قيام الوالي بجولة تفتيشية تستغرق ثلاثة شهور في السنة ، لمراقبة سير العمل في الادارات التابعة له ، وعلى حظر تصرفه في اموال الولاية خارج الميزانية المخصصة لها ، والعمل على تقدم التربية والتعليم والزراعة والصناعة ،

---

(١) Lewis, op. cit., P. 382.

(٢) انظر نوار ، المصدر السابق نفسه ، ص ٣٥٥ .

وانشاء الطرق والمعابر ، والعناية بالصحة العامة ، واستصلاح الاراضي والمحافظة على الثروة الحراجية ... وصلاحيات المديرين الذين يعملون تحت اشرافه كمدير المعارف ومدير الزراعة والتجارة ، ومدير الدفتر الخاقاني[1] ومأمور الاملاك والنفوس[2] ومدير الاوقاف ومدير النافعة[3] ... وقد بقي قانون الولايات نافذا حتى ما بعد نهاية السلطنة العثمانية .

ويبدو أن قانون الولايات الذي وضع على نسق مثيله الفرنسي ، قد اتجه نحو المركزية ، وافترض ان جميع ولايات الدولة متماثلة متجانسة . وقد انتقد جودت باشا هذين المبدأين اللذين انطلقت الدولة منهما في قانون الولايات (المركزية والمماثلة) ، وقال ان الولايات تختلف فيما بينها اختلافا بيّنا في ظروفها الجغرافية وعوائد أهلها ومذاهبهم ، فلا يمكن معاملتهم بطريقة واحدة . وقال ان الاصلاح الاداري ينبغي أن يأخذ بعين الاعتبار الاحوال المحلية والخلفية التاريخية . وان الدولة العثمانية التقليدية لم تكن دولة مركزية . وحين حاول رجال التنظيمات ادخال الادارة المركزية ظهرت أمامهم صعوبات خطيرة ، ومنذئذ كانوا موزعين بين الحكم المركزي والحكم اللامركزي ، والنتيجة كانت انتشار الفوضى والارتباك . وقال جودت باشا ان الضرورة كانت تقضي بأن يتقرر مبدأ الحكم أولا ، ومن ثم تحدد واجبات ومسؤوليات موظفي الفئات الثلاث : الادارية والقضائية والعسكرية ، ودفع رواتب مناسبة ومنتظمة لهم لضمان اقبال أفضل المؤهلين على خدمة الدولة بأمانة وكفاية وتجرد[4] .

كما لاحظ مدحت باشا الاضرار الناجمة عن المركزية المفرطة حين تولى

---

(١) مسؤول عن تطبيق القوانين والانظمة المتعلقة بالاملاك والاراضي والتصرف بها وتملكها .

(٢) مسؤول عن القيود والسجلات المحلية للاملاك والاراضي وايراداتها السنوية والاموال المترتبة عليها ، وانتقالها وفراغها ومواليد النفوس ووفياتها وتذاكر المرور وجوازات السفر .

(٣) مسؤول عن الطرق والجسور والمعابر ، ويساعده مهندسون في الاشراف على بناء الطرق وترميمها . (انظر عوض ، المصدر نفسه ص ٨٤ – ٨٦) .

(٤) Lewis, op. cit., PP. 382-3.

ولاية الطونة وبغداد ودمشق ، وشرح هـذه الاضرار في تقاريره الى رجال الدولة في الآستانـة ، وطالب بالتخلـي عـن النظام المركزي الى النظـام اللامركزي • ولكن الدولة تمسكت بالنظام المركزي ، المقتبس عـن النظم الفرنسية خاصـة ، وتشددت في تطبيقـه ، ولا سيمـا بعـد أن برز عاملان جديـدان : ١ ـ تحسن وسائل الاتصـال ، وادخال التـلغراف (البرق) الى الدولة أثنـاء حرب القرم ، والتوسع السريـع في بناء الطر ق البريـة والسكك الحديدية في الـدولة منذ عام ١٨٦٢ فصاعدا ، ٢ ـ فقـدان الدولة عددا من ولاياتهـا البلقانية ذات الغالبيـة المسيحيـة ، الامر الـذي جعلها أكثر تماثلا وتجانسـا ، وأقرب الى تبني نظـام اقليمي وطني تندمج فيـه عناصر الدولة بسهولة أكبر من ذي قبـل • وسنرى أن أخـذ الدولة بالادارة المركزية المفرطـة قد ألحق بالولايات العربية ضررا بالغـا ، وان قضية المركزية واللامركزية ستكون مدار خلاف شديـد بين العرب والاتراك الطورانيين الذين تولوا الحكم بعد السلطان عبد الحميد ، في العهـد الدستوري العثماني وحتى نشوب الحرب العالمية الاولى •

ولم تكف الدول الاوربية عـن التدخل في شؤون الدولة العثمانيـة ، ففي شباط ١٨٦٧ قدمت فرنسة مدعومة من انكلترة والنمسة مذكرة الى الباب العـالي تحثـه فيها على اتباع سياسة أنشط في الاصلاح ، مـع مقترحات مفصلة • رفض السلطان المـذكرة ، ثم أذعـن لضغط الاحداث • وصلتـه دعوة لزيارة معرض باريس الدولي في العام نفسه ، فلبى الدعوة ، وأتيحت له زيارة أوربة حيث استقبل في بلاط باريس ولندن وڤينا ، واجتمع كذلك بملك بروسية • وفي غضون السنوات الثلاث التالية ، أصدر عالي وفؤاد قوانين اصلاحية جديدة تناولت النظم العدليـة والتعليمية • ففي نيسان ١٨٦٨ أعيـد تنظيم مجلس القضاء الاعلى ، ويعرف كذلك بمجلس التنظيمـات ، بحيث انقسمت جهوده الى ادارية وقضائيـة ، أي مجلس الدولة (شوراي دولت) وظل باقيا على صورته حتى عام ١٩١٨ ، ومحكمة عليـا (ديوان أحكام عدلية)[١] •

---

(١) Young G. Corps de Droit Ottoman, Oxford 1905, Vol. I, P. 153.

ونتيجة للمساعي الفرنسية افتتحت مدرسة غلطة العثمانية السلطانية ، في حي غلطة سراي بالآستانة ، وهو من أرقى أحياء العاصمة وفيه العديد من المباني الفخمة والمنشآت الاجنبيـة ، وتقيم فيه غالبية مـن السكان الاجانب • وفي المدرسة يتلقى الطلبة المسلمون والمسيحيون تعليمهـم جنبا الى جنب باللغـة الفرنسية • ويعتبر افتتاح المدرسة أول خطوة نحو الغاء التعليم الطائفي والاخـذ بالتعليم الحديث • وكان تأثير مدرسة غلطة ملموسا على النهضـة التي شهدتها الدولة في العهديـن السلطاني والجمهوري على حد سواء • فقـد تولى خريجوها المناصب الاداريـة والدبلوماسية الهامـة التي تطلبت ثقافـة غربية ومقدرة على التعامل مع الاجهزة الادارية الاوربية •

واستمر اصـلاح القضاء في عهد عبد العزيز ، وقـد دعي أحمد جودت باشا (١٨٢٢ ــ ١٨٩٥) المـؤرخ والمشـرع الشهير ، وناظر ديوان الاحكام العدليـة لوضع قانون مدني جديد للدولة يقضي على الفوضى القائمة ، فعمل بدأب مع لجنـة مختارة من العلماء والفقهاء ، على سن قانون مدني يستنـد الى الشريعة الاسلامية، وتنظيم الاحكام الشرعية المتعلقة بالمعاملات وجمعها في (المجلة) ، واستغرق العمل فيـه سبع سنوات ، ويعتبر أهم انجاز تشريعي في القرن التاسع عشر • وصـدرت (المجلة) في ستة عشر كتابا[١] تضم ١٨٥١ مادة ، ما بين ١٨٦٩ ــ ١٩٧٦ ، واعتبرت مرجعا للقضاة الذن لم يدرسوا الشريعة الاسلاميـة ، وظل يعمل به حتى ألغتـه الجمهوريـة التركيـة عام ١٩٢٦

وقـد شغل جودت باشا منصب وزير العدل ، بحكم منصبـه كناظر لديوان الاحكام العدلية منذ عام ١٨٦٨ • ويعود اليه الفضل في انشاء مجموعة جديدة مـن

---

(١) تضمنت مقدمة (المجلة) بيانا بالقواعـد الفقهية . أما الكتب الستة عشـر فتناولت الموضوعات والمسائل التالية : ١ ــ بيان المصطلحات الفقهية المتعلقة بالبيع ، ٢ ــ الاجارات ، ٣ ــ الكفالة ، ٤ ــ الحوالة ، ٥ ــ الرهن ، ٦ ــ الامانات، ٧ ــ الهبة، ٨ ــ الغصب والاتلاف ، ٩ ــ الحجر والاكراه والشفعة ، ١٠ ــ الشركات، ١١ــ الوكالة، ١٢ ــ الصلح والابراء ، ١٣ ــ الاقرار ، ١٤ ــ الدعوى ، ١٥ ــ البيّنات والتحليف ، ١٦ ــ القضـاء .

المحاكم النظامية ، مع نشر قانون باختصاصاتها (نيسان ١٨٦٩) التي تشمل النظر في جميع القضايا ، ما عدا الاوقاف والتركات والاحوال الشخصية ، فقد ظلت من اختصاص المحاكم الشرعية • وأنشأ جودت في مبنى وزارة العدل دورات درسية قصيرة في القانون للقضاة ، كما أقام محاكم الاستئناف في ديوان الاحكام العدلية • وقبل أن يتولى هذه المناصب ، أسهم في وضع قانون الجزاء ، وقانون الاراضي لعام ١٨٥٨[١] ، وسيكون في عصر السلطان عبد الحميد من أقرب مستشاريه ، وخاصة في تنفيذ سياسته (الاسلامية) •

بيد أن حركة الاصلاح أصيبت بنكسة خطيرة ، حين توفي فؤاد باشا عام ١٨٦٩ ، وعالي باشا عام ١٨٧١ ، وفقدت الدولة أكبر مصلحين في هذه المرحلة • ولم يلبث السلطان عبد العزيز أن أسند الصدارة العظمى الى محمود نديم باشا المعروف بمبادئه الرجعية ، فأبعد أكثر موظفي العهد السابق وأبدلهم بأنصاره • وضغط على الاحرار ، وعزل مدحت باشا من رياسة مجلس شورى الدولة الذي كانت مهمته وضع القوانين والاشراف على تنفيذها ، وخطا بذلك خطوة هامة نحو فصل السلطتين التنفيذية والتشريعية ، والاخذ بالنظام الدستوري • ولم تلبث أن سيطرت على الدولة نزعة تناهض اقتباس نظم الغرب ، وتؤيد اعتبار عبد العزيز خليفة المسلمين ووريث الخلفاء الاوّلين لا مجرد سلطان عثماني فحسب • ولقيت هذه النزعة دعما قويا ، وخاصة في وقت بدأت فيه الدول الاوربية الاستعمارية تحتل ديار الاسلام في افريقية وآسية • وبالمقابل ، نشطت حركة المعارضة العثمانية في المنفى ، وبدأت تظهر كتاباتها الادبية كلمات مثل (وطن) و (دستور) و (برلمان) • وسرعان ما حملت هذه البداية الادبية معاني سياسية ، عبّرت عنها مجلة (حرية ــ حرّيت) التي أنشئت في لندن عام ١٨٦٤ ، ودعت الى التخلص من الحكم الاستبدادي للسلطان ، وابداله بنظام دستوري •

والحق ان تفاقم العجز المالي للدولة ، وتولّي عبد العزيز المستبد بدل

---

(١) Young, op. cit., I, P. 187.

عبد المجيد المستنير ، وتعاظم المساوىء البيروقراطيــة في الحكومة المركزية ٠٠ كل ذلك أوصل الدولة الى مرحلة جديدة ، تجاوزت موضوع قبول التنظيمات المقتبسة من الغرب أو رفضها ، الى موضـــوع آخر ، هـــو كيف يمكن الحدّ مـــن السلطة الفردية الاستبدادية • وقـــد استهلت المرحلة الجديدة المقالات الادبيـــة والصحف السياسية التي كان يتولى نشرهـــا وتوزيعها أنصار الحرية والدستور مـــن زعماء العثمانية الفتاة الذين كانوا ، الى جانب عملهم السياسي ، رواد حركة الادب العثماني الجديد ، مثل ابراهيم شناسي ، وضيا باشا ونامق كمال ، والـــذين اضطروا للفرار الى أوربة ، خوفا من بطش السلطان عبد العزيز ، عنـــدما هاجموا سياسة البـــذخ والتبذير التي كان ينتهجهـــا ، ورسموا الهـــوة التي تسير نحوها الدولـــة بخطى حثيثة • ومـــن أوربة ، ولا سيما من لندن وباريس ، بدأوا وزمـــلاؤهم الاحرار يعملون على تهريب منشـــورات جمعية الفتـــاة الى العاصمة ، والمدن العثمانيـــة الرئيسية ، بواسطة دوائر البريد الاجنبية التابعة لسفارات الدول وقنصلياتهـــا ، وكانت غير خاضعة لمراقبة الدول بفضل الامتيازات الاجنبية المعروفة • أما توزيـــع هذه المطبوعات داخل الدولة ، فكانت تتولاه التشكيلات السرية للجمعية المذكورة•

ومن ناحيـــة أخرى ، أدرك نفر مـــن أحرار الترك خاصة ، أهمية انتصـــار (مبدأ القوميات الاوربية) في بناء الامم وتوجيه السياســـات ، فرأوا أن تقويـــة الدولة وتحديثها لا يكون الا باصلاحها على أساس قومي ضيّق ، لا على أساس عثماني جامـــع ، وذلك بالرجوع الى الاصـــول الوثنية القديمـــة للعنصر التركي ، والتخلي عن الروابط الدينية الاسلامية • وبالتالي اعتبار أن عناصر الدولة الاخرى غير التركية ، شركاء لا يتكافأون مع الترك الطـــورانيين • وسيظهر هـــذا الموقف الداعي الى القومية التركيـــة والسياسة الطورانية بوضوح لدى بعض زعماء جمعية تركيا الفتاة التي أنشئت سرا في الآستانة عام ١٨٨٩ ، والتي سيصبح اسمها جمعية (جمعية الاتحاد والترقي العثمانية) التي نجحت في الثورة على السلطان عبدالحميد (١٩٠٨) • وسيكون لهذا الموقف تأثير سيىء جدا على العلاقات التركية ــ العربية في العهد الدستوري وما بعده حتى نشوب الثورة العربية •

وبرغم أن عبد العزيز عين مدحت باشا صدرا أعظم عـام ١٨٧٣ ، على أمـل أن يعالج المشكلة الماليـة ويلبي نهم السلطان الى المال ، ولكن مدحت بدلا مـن ذلك فحَصَ مصاريف الدولة التي استشرى فيها الفساد والرشوة ، وراجع نفقات القصْر التي اثقلت كاهل الميزانية بسبب اسراف السلطان ورحلاته ومباذله • ولـذا لم يستمر مدحت في منصبه سوى شهرين ونصف الشهر ، لأنه لم يقبل أن يكون أداة بيـد السلطان المستبد • وطبيعي أن تنقسم الحكومـة بين مؤيد لمدحت مـن العناصر المستنيرة المتحررة ، ومعارض من العناصر الرجعية بزعامـة محمود نديم باشـا الصدر الاعظم السابق ، وبديهي أن ينحاز عبد العزيز الى هـؤلاء ، فيعزل مدحت من الصدارة ويعينه واليا على سلانيك •

وفي أواسط السبعينـات تدهورت أحوال الخزانة نتيجة المدفوعات الضخمة على تحديث الجيش والاسطول ، ونتيجة اسراف عبد العزيز الذي أدى الى سلسلة جديـدة من القروض الاجنبية سنويا • وفي ٦ تشرين الاول ١٨٧٥ حدث الانهيـار المالي المنتظر ، حين أعلن الصـدر الاعظم محمود نديم أنه لن يدفـع سوى نصف فوائد الديون الاجنبية ، فتضرر مركز الدولة وتزعزعت الثقة بها في أوربة• وفي غمرة الأزمـات الخانقة التي كانت تمر بها الدولة آنذاك ، فقد تعذّر عليها حتى الحفاظ على هـذه النسبة • وفي العام التالي (١٨٧٦) لم تسدّد المدفوعات أو أجّلت • ولم تلبث الدولة أن أعلنت افلاسها ، وتبع ذلك صـدور (مرسوم محرم) في ٢٠ كانون الاول ١٨٨١ بانشاء ادارة الدين العثماني العام التي يشرف عليها الـدائنون الاجانب[1] ، وكلّف بتأمـين سداد الديـن العثماني الذي بـلغ مائتي مليـون جنيـه استرليني ، من ريع بعض موارد الدولـة المخصصة لهذه الغايـة ، وبذلك وجدت الى جانب خزانة الدولة ، خزانة ثانيـة مستقلة تسيطر على جزء كبير مـن الدخل الوطني • وفي عـام ١٩١١ بلغ عـدد موظفي ادارة الديـن العثماني ٨٩٣١ موظفا مقابل ٥٤٧٢ موظفا في وزارة المالية السلطانية[2] •

---

(١) Findley, p. cit., P. 281.

(٢) Lewis, op. cit., P. 447 . انظر ص ٢٥٤ مـن الكتاب ، وانظر أيضـا ارنست رامزور « تركية الفتاة وثورة ١٩٠٨ » ترجمة د. صالح أحمد العلي ، بيروت ١٩٦٠ ، ص ٤٢ .

وأضيف الى هذه الكارثة المالية ، نشوب الاضطرابات القومية في ولايات الدولة البلقانية ، وقد استهلت بالثورة في اقليم الهرسك (تموز ١٨٧٥) • فبعد ادارة حسنة عموما دامت حتى ١٨٦٩ ، قاسى اقليما البوسنة والهرسك من شرور ومساوىء الحكام العثمانيين • وحدث شغب عادي في قرية بالهرسك سرعان ما تحول الى وثرة نتيجة تشدد جباة الضرائب في تحصيل الاموال ، برغم رداءة المواسم الزراعية ، وساهمت روسية في تحريك عوامل النقمة هناك • ولم تلبث أن امتدت الثورة الى البوسنة والى بلغارية حيث قتل الثوار مائة وخمسين من العثمانيين المسلمين • وسارعت الدولة الى تأديب البلغار بشدة متناهية ، وأعلنت صربية والجبل الاسود الحرب على الدولة في نفس الوقت الذي خُلع فيه السلطان عبد العزيز (نهاية أيار ١٨٧٦) ونُصب مكانه مراد الخامس ابن عبد المجيد •

لقد كانت جهود رجال التنظيمات تصطدم دائما بعقبات كثيرة لايمكن تخطّيها ، وأهمها عدم قدرتهم على تفهم التطورات الاقتصادية التي كانت تسود الغرب الاوربي آنذاك ، وترتب على هذا أن سياساتهم الاقتصادية كانت غير مجدية ، ومواردهم المالية غير كافية لنجاح ادارة حكومية فعالة مركزية • وكان لمعاهدة بلطة ليمان (١٨٣٨) التي أبرمتها الدولة مع بريطانية مكافأة لها لوقوفها الى جانبها ضد محمد علي ، آثار مدمرة على الاقتصاد العثماني • اذ فتحت الاسواق العثمانية في السلطنة أمام أوربة الصناعية ، فقضت على ما تبقى من الصناعات العثمانية ، وخفضت رسوم الاستيراد والتصدير ، وألغت الاحتكارات وضمنت للتجار الانكليز أفضل حقوق التجار المحليين • وحذت الدول الاوربية حذو هذه المعاهدة ، فنال رعاياها نفس الامتيازات السابقة الذكر[1] ، ولم تستطع السلطنة معالجة ذلك حتى سقوطها •

هذا الى نزوات السلاطين واستبدادهم ، اضافة الى فساد من يحيطون بهم من رجال الحاشية السلطانية • وتحقق رجال الاصلاح وعلى رأسهم مدحت باشا أن هذه العقبات التي توشك أن توقع بالدولة كارثة محققة ، لا يمكن معالجتها

---

(1) Findley op. cit., P. 162.

الا باصدار (قانــون أساسي) أي دستور ، يتفهـم السلطان أن سلطتــه ليست (مطلقة) بل (مشروطة) بقيــود يحددها الدستــور • وشعر مدحت والاحرار بوجوب عزل عبد العزيز قبل أن تنهار الدولة تلقائيا أو تقتسمها الدول الاوربيـة الطامعة بها • وآمن ايمانا راسخا بأنه لن ينقذ الدولـة سوى اصـلاح دستوري جذري ينفّذه سلطان يقبل شروط الاحرار •

وقـد انتشرت مظاهر السخط والنقمة ضد استبداد السلطان وعجزه بـين طلبـة المعاهد الدينية في الآستانة (السفطة) فخرجوا بمظاهرات حاشـدة ضلع في تنظيمها مدحت وصحبـه • وذكر السفـير البريطـاني هنري ايليوت في تقرير تاريخه ٢٥ أيار ١٨٧٦ « ان كلمة (الدستور) كانت على كل لسان ، وقـد وزعت نصوص من القرآن تظهر للمؤمــن بأن شكل الحكومة التي يؤيدها القرآن هـو الشكل الديمقراطي ، وان السلطة المطلقة التي يمارسها السلطان هي انتهاك لحقوق الناس ولا يقرها الشـرع الإلهي ، وأن النصـوص والسنن تثبت بأن الطاعة غـير واجبة لحاكم يهمل مصالح الدولة •• »[1] وطالب المتظاهرون بعزل الصدر الاعظم محمود نديم باشا ، والمفتي الاكبر وسواهم • وأذعن عبـد العزيز للضغط ، فعزل الصدر الأعظم والمفتي وعيّن بديلين عنهما ، وأصبح مدحت رئيسا لمجلس الدولة • ولكن الثقة بين السلطان وزرائه الجدد كانت معدومة ، ولم يتأخر وقــوع المصاف بين الطرفين • ففي ٣٠ أيار أعدّ مدحت وصحبه للأمر عدته السياسية والعسكرية ، وحصلوا على فتوى من المفتي الاكبر بخلع السلطان عبـد العزيز لعجزه وفسـاده واسرافه ، وأعلنوا خلع عبد العزيز ونصب الامير مراد بن عبد المجيـد باسم مراد الخامس مكانه • وبما أن السلطان الجديد كان حائزا ثقـة الاحرار ومتعاطفا مـع أنصار العثمانية الفتاة منذ عدة سنوات ، فقد ثبت جميع الوزراء المعارضين للسلطان السابـق في مناصبهم وعين عـددا من أعضاء العثمانية الفتـاة في مناصب بالقصر السلطاني ، منهم نامق كمال • ولكن رضى الاحرار عن السلطان مراد لم يدم طويلا ؛ فقد اتضح لهم أنه مصاب باضطراب عقلي نتيجة الاقامة الجبرية التي فرضها عليـه

---

(1) Lewis, op. cit., PP. 157-158.

عبد العزيز ، لعلمه المسبق باتصالاته السرية مع الاحرار في المنفى . كما أن تشجيعه على ادمان الخمر كان له تأثير مدمّر على أعصابه وصحته . وأكمل انهياره العصبي انتحار عبد العزيز في قصره بعد بضعة أيام من خلعه بقطع عروق رسغيه بمقص[1] ، ومقتل بعض الوزراء أثناء اجتماعهم ، بعد اطلاق النار عليهم من قبل ضابط مـوال لعبد العزيز ، وقد ترك هـذا الحادث شعورا بالخوف لـدى مراد ، فامتنع عـن حضور أي حفل عـام . وبعد التشاور مع أطباء عثمانيين وأجانب ، أعلن أن حالة السلطان غير قابلة للشفاء . وكان لا بدّ من تنصيب سلطان جديد بـدل مراد ، في ظروف الحرب الخارجية والأزمة الداخليـة ، وكان الوريث هو شقيق مراد الاصغر عبـد الحميـد .

الدور الثالث ـ ونقرنه بالسلطان عبد الحميد (١٨٧٦ ـ ١٩٠٩) :

وافق عبد الحميد على مشروع الدستور الذي حمله اليه مدحت في ٢٧ آب ١٨٧٦ ، والذي اقترح الوزراء اعلانه كشرط للقبـول به سلطانـا . وفي نهاية آب خلع مراد ونصب مكانه عبد الحميـد الثاني . وفي غضون ذلك كانت أوضـاع الدولة في البلقان تزداد سوءا ، ويزداد اقتراب روسية من حافة الحرب مع الدولة . ولم تجد الدولة بدّاً من توقيع الهدنة في البلقان ، والقبول بانعقاد مؤتمر السفراء في الآستانة لاقرار وتحديد الاصلاحات المطلوبة من الدولة . وأراد عبد الحميـد أن يرضي الذين أوصلوه الى السلطنة ، فعيّن مدحت باشا صـدراً أعظم في توقيت ينطبق مع افتتاح مؤتمر السفراء ، وعهد اليـه بتهيئة القانون الاساسي (الدستور) . وبعد بضعة أيام فاجأ عبد الحميد المؤتمر باعلان الدستور (٢٣ كانون الاول ١٨٧٦) وسط مظاهر الاحتفالات الفخمة في محاولة منه لاقناع أعضاء المؤتمر بأن السلطنة قادرة على اصلاح نفسها دون تدخل خارجي[1] ، وقـد نصّ على فصل السلطات الاساسية في الدولة ، وضمن الحريات العامـة والزامية التعليم الابتـدائي ، وعلى سلطة تنفيذية يرأسهـا السلطان ، وتعاونه وزارة مسؤولـة أمام مجلس النـواب

---

(١) Findley,op.cit., P. 225

(المبعوثان) • وعلى سلطة تشريعية مؤلفة من مجلسي المبعوثان والاعيان • وسلطة قضائية تتولاها محاكم مستقلة متنوعة • وقد دلّ نشر الدستور على مدى رسوخ مفاهيم المساواة وحقوق الفرد وحكم القانون في أذهان الساسة العثمانيين آنذاك •

وانفض مؤتمر السفراء في ٢٠ كانون الثاني ١٨٧٧ ، بعد أن تبين لاعضائه أن اجتماعهم لم يعد مجديا بعد نشر الدستور • وفي ٥ شباط طرد السلطان مدحت باشا ، وطلب منه مغادرة البلاد • وفي بيان للدول الاوربية برّر السلطان تصرّفه بمضمون المادة (١١٣) من الدستور التي تبيح له طرد ونفي الذين يثبت التحقيق أنهم يهددون أمن البلاد[1] • وكانت الظروف الداخلية ملائمة لمسلك السلطان من حيث امتعاض الرجعيين من برنامج مدحت الاصلاحي ، واعتراض الاحرار وأعضاء العثمانية الفتاة على تدابيره واجراءاته • وهذه نقطة تستحق التوضيح :

وجّه الاحرار من العثمانية الفتاة انتقاداتهم ضد السلاطين ورجال التنظيمات ، ونشرت صحف الآستانة في أوائل الستينات مجمل هذه الانتقادات والمآخذ ، في حين تناولتها الصحف الصادرة في المنفى بصراحة وتفصيل • ونظرا لأهميتها في فهم الاحداث اللاحقة سنشير الى مجملها • كان أنصار العثمانية الفتاة يعلمون تماما أن الاصلاحات المتعاقبة ، أحدثت كثيرا من التغييرات الحقيقية في الدولة • ولكن برغم اخلاصهم للتقدم والاصلاح ، فقد رأوا أن في هذه التغيرات بعض ما يكرهونه ، وخاصة الحكم الفردي المطلق • ففي نظرهم لم تفعل مناشير الاصلاح شيئا لحماية الناس من عسف الحكام • لقد انتقدوا مدحت بشدة واتهموه بأنه اصلاحي مثل مصطفى رشيد وعالي وفؤاد ، همّه منصرف الى تحديث الادارة في الدولة على الاسلوب الغربي ، ولكن دون تعاطف مع الاماني والافكار الحرة الوطنية • ويذهب أعضاء العثمانية الفتاة ، ولا سيما نامق كمال وضيا باشا ، الى أبعد من ذلك ، فيقولون ان التنظيمات قضت على حقوق الناس التي كانوا يتمتعون بها في ظل الحكم الاسلامي القديم ، ولم تعطهم شيئا من مزايا الحكم

---

(١) Findley, ibid., P. 226

الغربي المقتبس من أوربة ، الذي أُدخل تحت الضغط والنصح الاجنبي • وبالمقابل فتح هـذا الحكم الغربي البلاد على مصراعيها أمام النفوذ والتدخل الاجنبي من كل نوع • وحين أعطي الاجانب حق امتلاك الاراضي في الدولة ، اكتسبوا السيطرة على جميع مرافق الحياة الاقتصادية والعامة • وتحت الشعار المضلّل لحرية التجارة ، خُنقت الصناعة العثمانية ، وتُركت البلاد في أيدي المصدرين الاوربيين ، وأضاف رجال التنظيمات الاستغلال الاجنبي الى الاستبداد الداخلي، وكان الانهيار الاقتصادي النتيجة الحتمية لهذه السياسات ، وخاصة عقد القروض الاجنبية التي أدت الى افلاس الدولة كليّا •

ولكن ما هو علاج كل هذه المساوىء ؟ العلاج في نظر زعماء العثمانية الفتاة ، هو الحكم الدستوري النيابي القائم على أساس اسلامي • وهـذا لا يعني رفض الاقتباس عن الغرب ، وانما العودة الى روح الاسلام الاول الذي يعترف بسيادة الشعب ، وبمبدأ الشورى في الحكم • ويمكن تحقيق ذلك بانشاء جهاز دستوري مكوّن من مجلس نيابي ومحكمة عليا على المثال الاوربي ، بعد تعديله وتكييفه بما يلبّي احتياجات المسلمين •

ويمكن الردّ على المآخذ والانتقادات التي طرحها زعماء العثمانية الفتاة ضد رجال التنظيمات وضد مدحت باشا ، بأن جميع رجال الاصلاح والدستور لم يكونوا أقل من منتقديهم اخلاصا للاسلام ، أو أقل اهتماما بالدفاع عن سلامة الدولة ، أو أقل اندفاعا على دروب الاصلاح والدستور ، لاعتقادهم الجازم بأن أحوال الدولة لا تنهض ولا تستقيم الا بتحقيقهما معا • لقد مضى على حركة الاصلاح والتجديد قرن من الزمان ، مع دخول عام ١٨٧٦ ، وأصبح لها تقاليد راسخة ، ودوافع محدّدة ، ومنجزات قيّمة • واذا كانت القضية الدستورية أحدث عهدا بكثير من قضية الاصلاح ، الا أنها أنتجت وأفرزت آدابا عقائدية مؤثّرة ، واكتسبت دعما ثابتا داخل صفوف النخبة العثمانية الحاكمة • وحين تحدث مدحت باشا الى السفير البريطاني في الآستانة هنري ايليوت عام ١٨٧٥ ، عن حاجة الدولة الى حكومة مسؤولة وشعبية ، فقد كان يأمل دون شك في اجتذاب

السفير بالانعطاف نحو تأييد الدولة العثمانية ، ولكنه في الوقت نفسه كان ينقل ويترجم الجدل الدائر والافكار الشائعة في مطبوعات ومقالات رجال العثمانية الفتاة خلال العقد السابق • وحين أكد مدحت باشا في مقال نشرته مجلة (القرن التاسع عشر) « أن مبدأ الحكومة في الاسلام يستند الى قواعد ديمقراطية أساسا ، كما أن سيادة الشعب معترف بها » فانه كان ينقل جدلا تحفل به كتابات نامق كمال وضيا باشا ، وقد أصبح موضوع ايمان لا يتزعزع عند الاحرار ورجال التنظيمات على حدّ سواء •

وبعد ، فان رجال العثمانية الفتاة ، برغم ما كان يعتور أفكارهم أحيانا من السطحية ومزالق التشابيه ، كانوا أبعد نظرا ، من الاتراك الآخرين في زمانهم ، وأعمق فهما لمشاكل التغيير في المجتمع العثماني من بعض رجال التنظيمات • وكثير من الافكار الجديدة العامة لديهم ، وجدت التعبير عنها في كتاباتهم ، بحيث كان نفوذهم على فكر الاجيال القادمة وعملها كبيرا جدا[1] • وبدت مثلهم العليا في الحرية الدستورية في ظل الشريعة ، وشيكة التحقيق عام ١٨٧٦ ، فالدستور الجديد وعد بجميع هذه الحقوق والحريات • ولكن حلّ المجلس النيابي ، وتعليق الدستور ، والاستبداد الذي تلاه ، كان يمثل النهاية بالنسبة لرجال العثمانية الفتاة • لقد انتهى عهد التنظيمات ، وأُسكت الاحرار الذين كانوا ينتقدونه ، ازاء الحكم الفردي المطلق للسلطان • وتشتت رجال العثمانية الفتاة ؛ فمنهم من عانوا من النفي والسجن والموت ، ومنهم من قبلوا وظائف الحكومة حفاظا على الحياة ، بعد أن أصبحت قضية (الحكم المطلق) في عهد السلطان عبد الحميد ، هي القضية الاساسية ، وضاعت أسباب الاصلاح والحرية •

وجرت انتخابات عامة في الدولة (٩ آذار ١٨٧٧) واجتمع مجلس المبعوثان وعدد أعضائه مائة وعشرون مبعوثا ، لأن النائب يعتبر مبعوثا عن دائرته الانتخابية • كما اجتمع مجلس الاعيان (الشيوخ) وعدد أعضائه خمسة وعشرون عضوا معيّنين من الموظفين • واشترك أهالي الولايات العربية في الانتخابات ،

---

(1) Lewis, op. cit., P. 170

وقــام بعض النواب العرب بدور هام خــلال مذاكرات المجلس ومناقشاتــه التي استغرقت خمسة شهــور • ولا أدل على الرغبــة في الاصــلاح التي سيطرت على اجتماعات المجلس من وصف أورده مراسل معاصر لصحيفة الديلي نيــوز اللندنية ، ومما جاء فيه : « ••• وحينما اجتمع نواب القدس وبغداد ، وأرضروم وسلانيك اتضح لهم أن الادارة فاسدة في كل البــلاد ، وجلسوا يناقشون بشرف ظلاماتهــم والتغيرات المطلوبة لضمان علاجها • وكان بين النواب العديد من الرجال الاكفــاء والمفكرين الذين لم تتوفر لديهم تقاليد الحكومــة البرلمانية ، وبعض خطبهم كانت عادية ، وغالبا ما كانوا يهاجمون هذا الباشا لتعسفه أو قبضه الرشوة ورفضه تنفيذ ما هو حق " الا اذا قبض المال مقابله • وفي البدء لم يحدث أي هجوم على السلطان، مع أن كثيرا من وزرائه كانوا متهمين بالمخالفات الموصوفــة وبالفساد ••• وقــد أظهرت مناقشات النواب أن الحكومة في طــول البلاد وعرضها تتطلب الاصــلاح الجذري • وفي غضــون ذلك ، اتخذت الاتهامات بالفساد التي وجهها النواب الى الوزراء شكلا أكثر خطورة وتحديدا • وعارض الوزراء المتهمون المطالبة بمثولهم أمام المجلس للردّ على الاتهامات الموجهة ضدهم • وتبرم السلطان بهذه المطالبة ، واتخذت الخصومة بين المجلس والباشوات شكلا حادا تنبأ معه مختلف المراسلين بأنه خــلال وقت قصير ، لا بــد أن يقلب المجلس حكم الباشــوات ، أو يتخلص الباشوات من المجلس »[1] •

ولكن عبد الحميد هــو الذي تخلص مــن المجلس الــذي لم يعمّر طويلا ؛ فبعد مرور نحو سنتين على اعلان الدستور ، وقبل أن يتم مجلس المبعوثــان دورة انعقاده الثانية التي بدأت في ١٣ كانون الاول ١٨٧٧ ، وعشية مطالبة المجلس بمثول ثلاثة وزراء أمامــه للدفاع عن أنفسهم ضد اتهامات محددة موجهة اليهم (١٣ شباط ١٨٧٨) ، حلّ المجلس ، ولم يحدد موعد لاجراء انتخابات جديدة وفقا للمادة (٧) من الدستور ، وبذلك أسدل الستار على المشروطية الاولى[2] •

---

(1) Sir Edwin Pears, Abdul-Hamid, PP. 49-51, Quoted by Lewis PP. 164-5.

(٢) انظر حول ذلك : Findley, op. cit., PP. 225-227.

أمر عبد الحميد بفضّ اجتماعات المجلس ، وأعـاد المبعوثين الى مناطقهم وولاياتهم ، بعد أن أبعد ونفى البارزيـن منهم ، ولم يدع المجلس بعـد ذلك الى الانعقاد ، وظل الدستور معلقا ، والحياة النيابية معطلة طوال مدة تزيد على ثلاثين عاما ، حتى عام ١٩٠٨ • وقد قدمت الحرب بين روسية والدولة العثمانية عذرا الى السلطان لتأجيل المجلس والحياة الدستورية الى أجـل غير محدّد • ومعلوم أنه بعد أن انفض مؤتمر السفراء في الآستانة اثر اعلان الدستور (كانون الاول ١٨٧٦)، اغتاظ قيصر روسية اسكندر الثاني ، وصمم على أن يستغل أزمات الدولة الخارجية والماليـة ، فيتحرر من بنود معاهدة باريس (١٨٥٦) ويثأر لهزيمـة حرب القرم ، فأعلن الحرب على الدولة (٢٤ نيسان ١٨٧٧) متحالفا مع أمير رومانية • ووقفت انكلترة على الحيـاد بعد أن تلقت وعدا بأن الجيوش الروسية لن تحتـل المضائق التركية ولا قناة السويس ولا شواطىء الخليج العربي • وبرغم الدفاع العثمـاني المستميت ، فقد اقترب الروس من ضواحي الآستانة ، ووقع السلطان مع روسيـة معاهدة آيا ستفانو التي أوشكت أن تنهي الوجـود العثماني تقريبا في البلقـان ، ولكنها لم تنفـذ قط اذ أثارت بنودها نقمة الـدول الاوربية ولا سيمـا النمسة وبريطانية ، لأنها تضمن تفوق الشعوب السلافية في البلقان وتزايد نفوذ روسيـة هنـاك وهيمنتها على تركية التي لم تعد حدودها محصنـة في أوربة • ورضخت روسية للأمر الواقع وقبلت بمعاهدة برلين (حزيران ١٨٧٨)[١] التي مدّت في عمر الحكم العثماني في البلقان • والحق أن مؤتمر برلين زاد الصعوبات القائمة وخلق صعوبات جديدة • فبينما أوجدت معاهدة آياستفانو بلغاريـة الكبرى ، أرجعت

---

(١) تضمنت معاهدة برلين ما يلي : ١ ـ الموافقة على استقلال رومانية وصربية والجبل الاسود . ٢ ـ ارجاع مكدونية الى تركية . ٣ ـ فصل الروملّلي الشرقي من بلغارية وتعيين وال مسيحي عليه ، وجعل بلغارية الاصلية امارة ذات استقلال داخلي ترتبط مع السلطان بجزية سنوية وتختار حاكمها بموافقتـه . ٤ ـ تكليف النمسة بادارة اقليمي البوسنة والهرسك موقتا باسم السلطان . ٥ ـ تنال روسية من رومانية جزءاً من بسارابية ، وتتنازل تركية لروسية عن قارص وميناء باطـوم في ارمينية . ٦ ـ تبقى معاهدة باريس (١٨٥٦) نافذة المفعول فيما يتعلق بدوليـة المضائق والدانوب واحترام سلامة الدولة العثمانية . واخيرا نصحت الدول السلطان بالتنازل عن تسالية وابيروس الى اليونان ، والتعهد باجراء اصلاحات في ارمينية وكريت .

معاهدة برلين بلغارية الى امارة ذات استقلال داخلي ، وأعادت مكدونية الى السلطنة ، وظلت مشكلتها قائمة حتى ١٩١٣ • واشراف النمسة على ادارة البوسنة والهرسك أثار ضدها عداء الصرب • وجعل النمسة دولة بلقانية تواقة للوصول الى سلانيك وبحر إيجة ، أنشب الصراع المباشر بينها وبين روسية ، وأسفر عن حرب ١٩١٤ • وأخيرا حطمت معاهدة برلين حلف الاباطرة الثلاثة (روسية ، النمسة المانية) ؛ فالروس اتهموا بسمارك بدعم مصالح النمسة ضد مصالح روسية• وعداء روسية دفع بسمارك الى التحالف الوثيق مع النمسة ، وبقي هذا التحالف أبرز ما يميّز السياسة الالمانية حتى ١٩١٨ • وأبقت معاهدة برلين على المادة الورادة في معاهدة باريس والمتعلقة بوجوب تمسك الدول المتعاهدة بمبدأ المحافظة على تمامية أراضي الدولة العثمانية •

وقبل انعقاد مؤتمر برلين تنازل السلطان عن جزيرة قبرص لبريطانية ، مقابل تأييدها له في المؤتمر ، واستخدام قبرص للدفاع عن ولايات الدولة في آسية ضد المطامع الروسية • واحتجت فرنسة على هذا التنازل بحجة أنه يجعل بريطانية في مركز استراتيجي يتيح لها أن تبسط نفوذها بسهولة على سورية ومصر • وسارعت بريطانيا لارضائها ، فاقترحت عليها سرا احتلال تونس ، كذلك فعلت المانية لصرف أنظار فرنسة عن الثأر لهزيمة حرب السبعين ونتائجها • ومعلوم أن فرنسة تذرعت باضطراب الامن على حدود الجزائر الشرقية فاحتلت تونس وفرضت على الباي معاهدة الباردو (١٢ آذار ١٨٨١) ، واكتفى السلطان عبد الحميد بارسال برقية احتجاج الى حكومة باريس ، وابلاغ السفراء في الآستانة بأنه لا يزال صاحب السيادة الشرعية على تونس • غير أن فرنسة استرضته بثمن بخس ، ولكن شديد المساس بكرامتها وكرامته معا ، حين ساومته على تسليم مدحت باشا ، وكان قد عاد الى وطنه بضغط بريطاني على السلطان (١٨٨١) ، ولكنه أحسّ بالخطر يتهدد حياته ، فاعتصم بالقنصلية الفرنسية في ازمير (أوائل آذار ١٨٨١) • وكان الثمن هو عدم اثارة الدولة مسألة اعتداء فرنسة على تونس في المحافل الدولية • وأثارة المعارضة للموضوع كان أمرا غير وارد ، ما دامت التغيرات التي شهدتها السلطنة ما بين ١٨٢٦ ــ ١٨٧٦ قد جعلت من السلطان حاكما مطلقا لا معقب لكلماته

أكثر من أسلافه السلاطين . وما دام الدستور نفسه قد خوّله من الامتيازات والصلاحيات ما يحول دون ظهور أي معارضة فعالة في الداخل[1] .

الاصلاح في عصر السلطان عبد الحميد :

لقد امتازت السنوات الاولى من حكم عبد الحميد بانجاز واكمال ما بدأه أسلافه السلاطين الاكثر شهرة منه في ميدان الاصلاح والتجديد ، بحيث يمكن القول ان حركة الاصلاح حققت تقدما كبيرا في عهده وأنتجت أينع ثمراتها في المجالات القانونية والادارية والتعليمية . وكان أبرز رجال الاصلاح في هذا العصر محمد سعيد باشا (١٨٣٨ ــ ١٩١٤) الذي تولى الصدارة العظمى مرارا ولمدة طويلة ، وأحمد جودت باشا ، وهما يوصفان بأنهما مناصران للاصلاح والتشريع تحت الهيمنة المستبدة المستنيرة للسلطان عبد الحميد[1] . لقد انطلق سعيد باشا من مقولة مفادها أن تقدم الدولة لا يتحقق الا بالمعرفة والاستقامة ، اللتين كانتا يوما من أبرز معالم الدولة قبل انحطاطها . ولذا فالحاجة ماسة لتحقيقهما مجددا ، بالعمل على نشر أسباب التعليم ، وتوطيد أركان العدل . لقد اعتبر العصر الحميدي أن اصلاح التعليم هو أساس كل اصلاح في الدولة ؛ ولذا حقق التعليم العالي قفزة طيبة ، تمثلت بزيادة عدد المدارس والمعاهد العليا (المكاتب) وعدد طلبتها بشكل ملحوظ . فقد أعيد تنظيم مكتب (الملكيّة) عام ١٨٧٧ وجرى توسيعه، واضافة المقررات الحديثة الى مناهجه . ومنحت تسهيلات هامة للطلبة الداخليين القادمين من الولايات فارتفع عدد خرّيجيه من ٣٣ طالبا عام ١٨٦١ الى ٣٩٥ طالبا عام ١٨٨٥ منهم ٢٩٥ داخليا . وكانت (الملكية) هي المؤسسة الاولى للتعليم العالي، وظلت مركزا فكريا هاما ، وموئلا للافكار الحرة المعادية للاستبداد . وأنشىء أيضا ما لا يقل عن ١٨ مكتبا حديثا لمختلف الصنائع والعلوم والفنون كالمالية والحقوق (حقوق مكتبي) والفنون الجميلة والتجارة والهندسة المدنية والبيطرة ، والشرطة والجمارك والطب .. أما الجامعة التي صادفت عقبات عديدة في

---

(1) Holt, op. cit., P. 172.

الماضي ، فلم تفتح أبوابها فعليا وبشكل مستمر الا في آب ١٩٠٠ باسم (دار الفنون) ، وعرفت فيما بعد باسم (جامعة استامبول) • ولتزويد الجامعة بالطلبة المؤهلين أنشئت المدارس الرشدية (الابتدائية) في مراكز الولايات ــ وعددها تسع وعشرون ، وفي مراكز المتصرفيات الست المرتبطة رأسا بالعاصمة ، كما زيدت معاهد المعلمين التي تأسس أولها عام ١٨٤٨ • وأفتتحت المدارس السلطانية أيضا ، فأنشئت واحدة في دمشق وأخرى في حلب[1] • وافتتحت مدارس عسكرية في دمشق وبغداد وأدرنة وارزنجان ومناستير • ولكن الزامية التعليم الابتدائي التي نص عليها نظام المعارف (١٨٦٩) لم تحقق جميع خططها بسبب تردّي الاوضاع المالية في الدولة •

والاصلاح الثاني هو الاصلاح التشريعي القانوني الذي امتازت به السنوات القليلة الاولى من حكم عبد الحميد ، وكان تكملة منطقية لجهود رجال التنظيمات • ويتألف من مجموعة أربعة قوانين نشرت في أيار وحزيران ١٨٧٩ ــ اثنان منها يتعلقان بتنظيم المحاكم • واثنان بالاجراءات المدنية القانونية • وقد أعيد تنظيم وزارة العدل بحيث صارت تشرف على جميع المحاكم غير الشرعية (تجارية ونظامية ومختلطة) • وفي الوقت نفسه صدر قانونان آخران بشأن المسائل الاجرائية وتنفيذ الاحكام • لقد استهدف هذا الاصلاح ، فيما يبدو ، الحدّ من الامتيازات القضائية المعترف بها في الامتيازات الاجنبية • ولكن السفراء الاجانب لم يعترفوا بقانون تنفيذ الاحكام ولا بمجموع الاجراءات المدنية ، ومن ثم لم يطبقا في المحاكم المختلطة[2] • وقد حلّت لجنة (المجلّة) عام ١٨٨٨ ، ولم يتابع العمل في فروع القانون الاخرى حتى ثورة ١٩٠٨ •

وتابعت الدولة في الستينات من القرن التاسع عشر اهتمامها باصلاح أحوال النقل والمواصلات ، وكان النقل البري يتم على الجمال والدواب عبر طرق غير

---

(١) انظر Young, op. cit., I PP. 166, 168,171

(٢) Findley P. 225. وانظر عن تطور الادارة البيروقراطية في عهد عبد الحميد ، المصدر نفسه : Findley,op. cit., PP. 239-268

معبدة • وقـد صدر عام ١٨٦٣ قانون لانشاء الطرق وإعمارها والمحافظة عليهـا • وبذلت الدولة جهدها لاصلاح نظا مالطرق والمباني ، واعادة تنظيم شوارع المـدن وتوسيعهـا لتماشي متطلبات المرحلة المعاصـرة • وأولت اهتمامهـا لمـد" السكك الحديدية في البر التركي أولا ، فمنحت أول امتيـاز لمد" خط ازمير ـ ايديـن الى شركة انكليزية عام ١٨٥٦ • كذلك لمد" السكك الحديـدية التي تربطها بأوربـة ولا سيما بالنمسة • وشهد حكم عبد العزيز نشاطا ملموسا في منح الامتيازات الى الشركات الاجنبية لمد" السكك الحديدية • وصـدر عام ١٨٦٧ نظام مخصوص لبنائها وصيانتها في مختلف أرجاء الدولة • وحين تحولت انكلترة عن مبدأ المحافظة على سلامـة الدولة العثمانية الى اقتطاع ما يمكن اقتطاعه من أراضيهـا (قبرص ومصر) ، تطلعت الدولة الى المانية والنمسة سياسيـا واقتصاديا ، ونالت المانيـة امتيازات مد السكك الحديدية في البر التركي بعد أن كانت تحتكرهـا انكلترة ، ونالت فرنسة امتيازات مماثلة في بلاد الشام • وبينما كان طول السكك الحديدية في مطلع عهد عبد الحميـد لا يتجاوز بضع مئات مـن الاميال ، أصبح طولهـا في غضون عشر سنوات ، بضعة آلاف من الاميـال • وبعد أن كانت الدولة تتصـل بأوربة بواسطة المواصلات البحرية البطيئة وغير المباشرة ، اذا بها تتصل بعواصـم أوربة بشكل منظم ومباشر ، منذ أن غادر ڤينـا أول قطار في طريقه الى الآستانـة (آب ١٨٨٨) • وتزايدت أهميـة هذا الخط الحديدي بعد ادخال القطار الدولي المعروف باسم قطار الشرق السريع • والخط الحديدي الهام الآخر هو سكة حديد الحجاز الذي يصل دمشق بالمدينة المنورة ، وقد بدأ العمل به سنة ١٩٠١ ، وغطت ثلث نفقاته تبرعات المسلمين في العالم ، وقد استخدمه السلطان عبد الحميدفي الاعلان والدعاية لسياسته الاسلاميـة •

وظهر نظام البريد في الدولة عام ١٨٦٩ ، وكـان يتم نقله بواسطة العربـات والسكك الحديدية ، وقـد سبقت الاشارة الى أهمية دوائر البريـد الاجنبية في الدولة • أما نظـام البرق (التلغراف) فقـد صدر قبـل البريد بعشر سنـوات (١٨٥٩) نظرا لأهميته وارتباطه بأغراض الـدفاع والامن الداخلي • وقـد مد" الحلفاء الانكليز والفرنسيون أول الاسلاك البرقية في الدولة أثنـاء حرب القرم ،

ومن الطريف أن تكون أول برقية مرسلة الى الآستانة وأوربة ، تحمل نبأ سقوط مدينة سيباستبول الروسية بيد الحلفاء (ايلول ١٨٥٥) • وفي نهاية حرب القرم منح الفرنسيون امتياز انشاء شبكة خطوط ومحطات برقية في معظم أجزاء الدولة • وفي مطلع عهد عبد الحميد ، كانت الشبكة جاهزة للعمل • وفي الثمانينات ربطت مصلحة البرق بوزارة البريد والبرق ، وكانت وسيلة فعالة بيد السلطان والحكومة المركزية للوقوف بسرعة على ما يجري في الولايات ومعالجة الازمات بدون تأخير • أما الهاتف فلم يستخدم في الدولة الا مع بداية القرن العشرين •

ومن ناحية أخرى ، أحرزت الصحف في العصر الحميدي بعض التقدم ، على الرغم من الرقابة التي فرضت عليها منذ أيام السلطان عبد العزيز ، وطالت كل مادة مطبوعة تقريبا • حتى اذا تولى عبد الحميد السلطنة ، سمح بادىء الامر ، بقدر من حرية النشر والتعليق ، ولكنه سرعان ما فرض رقابة صارمة على الصحف ، وصلت حد" الهوس والسخف ، وذلك نتيجة خوفه الشديد على عرشه وحياته ، فلا تنشر كلمة واحدة الا بموافقة رقيب المطبوعات (المكتوبجي) • وقد حظر (مثلا) ذكر كلمة (الاغتيال) مطلقا ، وأبدله بالاشارة اليه بأنه (موت طبيعي نتيجة المرض)[١] • ومع ذلك فقد كان للصحافة في العصر الحميدي دور هام في تحديث الدولة وتنوير القراء الذين تزايد عددهم يوما فيوم • أما الدوريات والكتب فكانت تصدرها المطابع بأعداد متزايدة ، وتلبّي نهم الطبقة المثقفة الجديدة للقراءة والمطالعة • وقد تضاعف تقريبا عدد المطابع في العاصمة ، فبلغ المائة مطبعة عام ١٩٠٨ ، وصدر عنها ألوف الكتب المنشورة في مختلف الموضوعات العلمية والادبية والقانونية واللغوية والدينية • وبرزت في هذا العصر جريدة (ترجمان الحقيقة) لمحررها أحمد مدحت ، وكان ذا موهبة أدبية تشوبها علاقته الواشجة بالعهد الحميدي ، كما نشطت صحيفتان أخريان هما (إقدام) و (الصباح) • أما الصحف الاخرى فقد عطلتها السلطات •

---

(١) لمزيد من الامثلة ، راجع الحصري ، المصدر السابق ، ص ١٠٠ ــ ١٠١ •

الحركة الدستورية العثمانيــة :

بعــد أن تمزق شمل جمعية الفتاة العثمانيــة على يد السلطان عبد الحميــد، كان لا بدّ أن تتحول الى حركة سرية . وقد بعث نشاطها مجددا عــام ١٨٨٩ حتّين ألّف جماعــة من طلبة (الطبية العسكرية) جمعية سرية ثورية تهــدف الى محاربة استبداد السلطان واعادة الحياة الدستورية الى البلاد . وقــد نظمت الجمعية على نسق جمعيــة الكاربوناري الايطالية وانتشرت حركتهــا الى المدارس العسكريــة العالمية ، على اعتبار أن طلبتهــا أكثر عرضة للمؤثرات الفكرية الغربية من غيرهم ، وأشــد اتصالا بما كانت تتمخض عنه أوربــة من منجزات وثورات ، وذلك بفضل التعليم اليومي الذي يتلقونــه من مدربيهم الاوربيــين ، وفرص الايفاد المتاحــة لهم الى أوربة . وفي الذكرى المئويــة للثورة الفرنسيــة ، أقيم في باريس معرض دولي كبــير احتفالا بالامجاد القومية ، وكان لــه أصداء قوية في نفوس الاحرار ، ومنهــم أحمد رضا مدير معارف بروسة الذي سمح له بزيارة المعرض ، فقرر أن يبقى في باريس للعمــل في سبيل حرية بلاده . وأصدر في أواخر عام ١٨٩٥ جريدة (المشــورة) بالتعاون مع جماعــة من الشبان الموجوديــن في باريس . ثم جرى اتصــال بين الجمعية السرية بالآستانة وبين جماعة أحمد رضا ، وتقرر أن تندمــج الجماعتــان في (جمعيــة الاتحاد والترقي العثمانيــة) ، وطالب منهاج الجمعيــة بالاصلاحات لجميــع ولايات السلطنة ، لا لمصلحــة قومية واحدة ، بل لمصلحــة العثمانيين كافة ، سواء كانوا يهودا أو نصارى أو مسلمين[1] .

وفي عــام ١٨٩٦ كشفت السلطات العثمانيــة مؤامرة تقضي بخلع السلطــان عبــد الحميد ونصب مراد الخامس المخلوع مكانه ، وفي حــال عجزه عــن تولي مسؤولياتــه ، يعين رشاد أخو عبــد الحميد . وتم نفي المشتركــين بالمؤامرة الى أجزاء نائيــة من السلطنة . ورغم هذه النكسة ، تابعت جمعية الاتحــاد والترقي نموهــا ، وكان أحــد كبار زعمائها مراد بك قــد رحل الى القاهرة بعــد اعتقال

---

(١) رامزور ، المصدر السابق ، ص ٥٧ .

أصدقائه ، وهنـاك أصدر جريدة (ميزان) ، ثم رحـل الى أوربة وأصبح رئيسا لفرع الجمعية في جنيف التي انتقل اليها المركز الرئيسي للجمعية عام ١٨٩٧ • ولكن أحـد عملاء السلطان أقنعه باستعداد السلطان للقيام ببعض الاصلاحات ، فعـاد الى الآستانة حيث عيّن عضوا في مجلس الدولة • وأسفرت هذه الضربة غير المتوقعة عـن تجميد نشاط الجمعية بضع سنوات ، بيـد أن أحمد رضا وزملاءه في باريس استمروا يدافعون عـن الحرية والدستور ، ولم يصدقوا وعود السلطان • وبينمـا كانت المظاهر توحي في أواخر عام ١٨٩٩ بأن السلطان نجح في القضاء على خصومه الدستوريين ، دبّت الحيـاة مجددا في جمعيـة الاتحاد والترقي بانضمـام صهر السلطان (زوج أختـه) الداماد محمـود باشا ، وولديـه البرنس صباح الديـن والبرنس لطف الله ، الى صفوف الجمعية ، بعد فرارهم من الآستانة الى باريس[1] • وكان محمود باشا مثقفا ذا أفكار حرة ، وقد شغـل منصب وزير العدلية لثمانيـة شهور ، وكان يلح على السلطان لاعادة دستور ١٨٧٦ عبثا • ومنـذ وصوله الى باريس شن أعنف حملاته ضد السلطان نفسه ، واتهمه بأنه أحاط نفسه بالموظفـين الجهلة والكذابين والفاسدين[2] •

وشهد عـام ١٩٠٦ تطورا هاما في الحركة الدستورية ، حين انتقلت تنظيماتها الثورية الى صفوف الضباط داخـل السلطنة • ويبدو أن أول بوادرهـا ظهرت على شكل جمعيـة سرية تدعى (الحريـة) ضمّت بعض ضباط الجيش الخامس المرابط في ولاية سوريـة (دمشق) وكان بينهم مصطفى كمـال ، وتأسست فروع لها في يافا والقدس • وسرعان ما تقرر نقل نشاط الجمعية الى سلانيـك التي توفر للحركـة رقابة أقل وحرية أوسع ، وهنـاك اتخذت جمعية الاتحاد والترقي شكلها العسكري النهائي[3] ، ونمت فعالياتها بفضل الاتصال مع المحافل الماسونية العاملة فيهـا[4] • والحـق أن الجمعية وجدت مجـالا واسعا للعمل في مكدونيـة التي

---

(١) انظر تفاصيل ذلك كله في المصدر السابق ، ص ٨٣ ــ ٨٨ .
(٢) طالع رسالة الداماد الى عبد الحميد في رامزور ص ٨٦ ــ ٨٨ .
(٣) المصدر نفسه ص ١١٨ .
(٤) الحصري ، نشوء الفكرة القومية ، المصـدر السابق ، ص ١٤٢ . وايضـا « البلاد العربية والدولة العثمانية » ، ص ١٠٧ .

كانت تسمى (الولايات الثلاث) المؤلفة من ولايات مناستر وقوصوة وسلانيك ، والتي كانت مسرحا للمشاكل والقلاقل الدائمة والدسائس الدولية • فالعصابات البلغارية والصربية واليونانية تتقاتل فيها ، ومكائد الدول الكبرى تتصادم فيها على نحو اضطر السلطان عبد الحميد في مطلع القرن الحالي ، الى الموافقة على وضعها تحت المراقبة الدولية الخماسية من جانب انكلترة وفرنسة وروسية والنمسة وايطالية • وكانت المراقبة تشمل شؤون الامن والمالية ، بحيث يكون في مركز كل ولاية هيئة مراقبة تشرف على أعمال مراقبي الاقضية ، ويكون في سلانيك هيئة عليا للمراقبة الدولية مع مفتش عثماني بسلطات تنفيذية هامة[1] • ولمجابهة أعمال العصابات البلقانية ، اضطرت السلطنة الى حشد قوات عسكرية كبيرة في مكدونية ، كما قضت أعمال المراقبة الدولية بارسال الموظفين العثمانيين النابهين النشيطين أو المغضوب عليهم اليها • وفي هذه الظروف غير العادية ، وجد الاحرار والدستوريون في مكدونية مجالا رحيبا ، وحين أرسل السلطان أعوانه للتحري عن نشاط هؤلاء ، خشيت جمعية الاتحاد والترقي من انكشاف تنظيماتها ، رأت ضرورة العمل قبل أن يتحرك السلطان لضربها وتصفيتها • وفي ٧ تموز ١٩٠٨ أخذت وحدات الجيش الثالث العامل في مكدونية تتتابع معلنة المطالبة بالمشروطية (الدستور) • وانهال على الآستانة صباح يوم ١٠ تموز ، سيل من البرقيات الصادرة عن جميع الوحدات الادارية في مكدونية تطلب اعلان المشروطية ، وتلتها برقيات فورية تعلن أن البلاد أخذت تحتفل باعلان المشروطية وتطلق المدافع ابتهاجا بالعهد الجديد • وازاء هذا الانفجار السلمي المفاجىء ، رضخ عبد الحميد للامر الواقع ، وأصدر أمره باعادة الدستور وباجراء الانتخابات • وكان للانقلاب الدستوري فعل السحر في مكدونية ، فقد سحبت الدول الخمس موظفي المراقبة الدولية ، وحلت العصابات البلقانية نفسها وأعلن زعماؤها الولاء للعهد الجديد ، عهد المشروطية الثانية •

---

(١) الحصري ، « البلاد العربية والدولة العثمانية » ، ص ١٠٧ .

سياسة عبد الحميد العربية والاسلامية :

جلس عبـد الحميد الثاني على كرسي السلطنة وسط اضطرابات هزّت أركان الدولة ، واختلفت بين الحرب الوشيكة مع روسية ، وافلاس الخزانة الماليـة بسبب وفـاء الدين العام ، وتفاقم الشكوى من وطأة الحكومة المركزية في جميع الولايات، ولا سيما بعد هزيمة الدولة أمام روسية ، وما تبعها من مفاوضات مهينة أسفرت عن وضع جزء من الموارد العثمانية تحت الاشراف الاجنبي بغرض استعادة الثقة المالية بالدولة • وفي هـذه الظروف القاسيـة ، تزايد الاهتمـام بالولايات العربيـة ، لا للتعويض بها عـن فقدان صربية ورومانية ثم تونس ومصر ، ولكن لمحاولة دمجها في النظام العثماني ، عـن طريق اكتساب ولاء أبنائها العرب على نحو أكثر فعالية ، مـن أجل ايجاد الدولة القويـة الموحدة التي تنتظـم الترك والعرب على أساس اجتماعي اسلامي يضمـن بقاء الدولة وصمودها تجـاه المطامع الاوربية • عـلى أن يقترن ذلك بجهود تبذلها الحكومة المركزية لتحسين مستويات الادارة والامن ، وتوفير العدل وتأمين المواصلات في الولايات العربية •

والحق أن الازمـة كانت تلوح بوادرها قبل هذا ؛ فقد اضطر أولو الحـلّ والعقـد في السنوات الاولى من حكم عبد الحميـد ، الى اعادة النظر في سياسات (التنظيمات) التي نفذهـا الوزراء المصلحون مثل مصطفى رشيد وعالي وفـؤاد ما بين ١٨٣٩ و ١٨٧١ • وقالوا صحيح ان التنظيمـات على النمط الاوربي الغربي ساهمت في تحديث الدولة وتحسين أحوالها ، ولكنهـا لم تكن كافية لجعلها تصمد أمام الضغوط الاقتصادية والسياسية للـدول الغربية • وفي السبعينـات : اعترض عـدد متزايد من الساسة والمفكرين العثمانيـين على أسلوب التنظيمات الـذي كان يرمي الى اصـلاح شؤون الدولة على أساس اذابة الجماعات العنصرية والدينية في البوتقـة العثمانية ، واعتبرت محاولات رجـال التنظيمات في هـذا الصدد غير عمليـة وضـارّة ، والبديـل الافضل هو ترسيـخ الاسس الاسلامية للدولـة ، باعتبارها الحل العملي والسليم لاعادة تضامن المسلمين وخاصة الترك والعرب مـن أجل احياء قوة الدولة وضمان استمرارها •

وفي رأي عبد الحميد أنه لولا التدخل الأجنبي والتراخي العثماني الذي سهّله « فان قلوب جميع الرعايا يمكن أن تمتلىء بالحب والولاء نحو السلطان من خلال القوانين والتنظيمات التي جرى تنفيذها بعد اعلان منشور كلخانة . ولكن في الحالة الحاضرة لم تقصر فقط النظم الحكومية عن صون مصالح الدولة وسلامة أراضيها ، ولكنها أيضا فشلت في اقرار المصالح الحقيقية للرعايا المخلصين ، وخاصة للدين الاسلامي الذي هو السبب في قوة ودوام الدولة »[1] . وبما أن عبد الحميد جعل الاسلام محور الولاء للدولة ، فكان من الطبيعي أن يوجه عنايته لاكتساب قلوب العرب الذين أصبحوا يشكلون ، بعد الحرب الروسية العثمانية ، العنصر الثاني الاكبر من سكان الدولة بعد الترك .

وكان المشرع والمؤرخ العثماني أحمد جودت باشا الذي حكم ولاية سورية عام ١٨٧٨ حوالي تسعة شهور ، قد وضع بطلب من السلطان عبد الحميد أسس التوجّه الاسلامي الجديد للدولة ، وحضّ فيه على أن يكون العرب محلّ التقدير العالي في السلطنة « فان لغتهم هي لغة ديننا » . واستذكر أن السلطان سليم الاول التزم بهذا التقليد الذي حوفظ عليه لمدة طويلة . ولكن في نهاية الامر ــ كما يقول جودت باشا ــ ومع تزايد عدد الموظفين الجهلة والطائشين ، انتهك هذا التقليد[2] .

وهنالك ما يثبت اهتمام عبد الحميد بالولايات العربية عامة ، والحجاز وسورية خاصة ؛ بدليل أن عددا من أقرب مستشاريه كانوا من سورية مثل عزت باشا العابد الدمشقي ، السكرتير الثاني للسلطان وناظر الخاصة السلطانية ورئيس عدد من اللجان الهامة مثل لجنة مشروع سكة حديد الحجاز . والشيخ أبو الهدى

---

(١) انظر بحث الدكتور انجن اكرلي المقدم الى مركز الابحاث في جامعة بوغازيشي بتركية وعنوانه :

Engin D. Akarli, Abdulhamid II's Attempt to Integrate Arabs into The Ottoman System, N.D. نقلا عن الوثائق العثمانية في قصر يلدز

(٢) المصدر السابق نفسه ، نقلا عن وثائق يلدز

Basbakanlik Arzivi Yildiz Esas Ewrakı, 1/156 - XXVI/156/3.

الصيادي[1] ، شيخ مشايخ الطرق الصوفيـة وصاحب الحظوة لدى عبد الحميد . والاخوين سليم ونجيب ملحمـة اللبنانيين ، الاول وزير المناجم ، والثاني مـدير الشرطة السرية . وقـد تزايد عدد العرب الذين شغلوا مناصب حكومية هامـة في العهد الحميدي ، كما سهّل توسع النظـام التعليمي الرسمي في الولايات العربيـة، وتوفر الفرص التعليمية عموما ، استخدام العرب بأعـداد كبيرة في جميع مستويات الادارة الحكومية والجيش . ودل ذلك على محاولة لدمجهم كشركاء متساويـن في النظام العثماني . كما دلّ الارتقاء بالنظام التعليمي وتفحص مناهجه في المـدارس بمختلف مستوياتها ، على تحسن ملموس بالقياس الى فترة التنظيمات السابقـة . ومـن مظاهر ذلك ، انشاء (مكتب العشيرة) في الآستانة عام ١٨٩٢ لتعليم أبنـاء العشائر العربية البارزة ، ممن تتراوح أعمارهم بين ١٢ ــ ١٦ سنة ؛ وهو مدرسـة ثانويـة داخلية ذات خمسة صفوف (سنوات) ، يدرس الطلبة فيها على نفقة الدولة ويتقاضـون جعالات شهريـة ، ويأخـذون بأسباب المعرفة والحضـارة ، ويقوى انعطافهم نحو الخلافة الاسلاميـة والسلطنة العثمانية . وبعـد التخرج يلتحقون بعشائرهم ويخدمون كمعلمين وموظفين في مناطقهم . كذلك بوشر بحملة دعائيـة منظمـة ، لكسب تأييد العرب وضمان التفافهم حوله ، من خلال العلماء والدعـاة والوعاظ الذيـن احتفظ بهم في حاشيته ، ليسهموا في رسم صورة للسلطان التقي في أعين المسلمين . وجرت محاولة للحفاظ على العلاقات الطيبة مع زعماء العشائر والاعيان المحليين في الولايات العربية ، كما جرى التأكيـد على تسوية النزاعـات بالطرق السلمية ، وخاصة في منطقة جبل العرب (الدروز) في حوران التي شغلت ولاة سورية إبان عهده . فقـد أوعز السلطان الى مدحت باشا (١٨٧٨ ــ ١٨٨٠) وبعـده أحمد حمدي باشا (١٨٨٠ــ١٨٨٥) ، وراشد ناشد باشا (١٨٨٥ــ١٨٨٨) ونظيف باشا (١٨٨٨ ــ ١٨٨٩) بوجوب تفادي استعمال القوة العسكرية في معالجة الشؤون الداخلية لعدم اثارة سخط الاهلين .

ويلاحظ أن سياسـة عبد الحميد العربيـة الاسلاميـة قد اقترنت بجهـود

---

(١) ولد في بلدة خان شيخون بولاية حلب عام ١٨٤٩ وتوفي عام ١٩٠٩ .

لتحسين أحوال الادارة والامن وتوفير العــدل وتأمين النقل والمواصلات • ويشار في هــذا الصدد (مثلا) الى أن السكك الحديدية التي أنشئت في سورية والحجاز بلغ طولها ٢٣٥٠ كيلومترا ، أي ما يقارب نصف طول السكك الحديدية المشيّــدة في كافة أرجاء الدولة العثمانية ، وبالتحديد نسبة ٤٧ر٣ ٪ منها • اضافــة الى بناء ميناء حديث في بيروت ، وتوزيع المياه في المدن وترقية وسائل النقل والمواصــلات في المدن العربيــة الرئيسية ، وبناء سدّ الهندية على الفرات ، وتحسين الخدمــات البريدية ، ومدّ خطــوط التلغراف الى أقصى مناطق الدولة ؛ وهذا التقــدم الذي تحقق في العهد الحميــدي ، وتركز في الاساس عــلى ولاية سورية ، تبدو قيمته في ضوء الموارد المالية القليلة المتوفرة للحكومة •

ولكن برغم كل ذلك ، لم يكن من السهل تحقيق هدف عبــد الحميد في دمج الرعايا العرب في النظام العثماني ، عــن طريق كسب ولائهم ومساندتهم الفعالــة للخلافة والسلطنــة • فبرغم اشتراك الغالبيــة الساحقة مــن العرب مع العثمانيين الترك في الديــن الاسلامي ، فقد حال دون اندماجهم ارهاصات القومية العربيــة التي أخذت تظهر بوادرها آنــذاك ، وتجلّت في الاختلاف اللغــوي والسياسي ، والتبايــن في التنظيم الاجتماعي والمصلحة الاقتصادية ، ويضاف الى ذلك التأثيرات الثقافيــة والسياسية للجماعات المسيحية (وخاصة الموارنة) ذات النفوذ الاقتصادي والتي تتمتع بالحماية الاوربية • هــذا الى أن طريقة عبد الحميد في الحكم الفردي، ومبالغته في التوجس والتخوف على حياته ، واصطناعه من وسائل القمع والتجسس ما نفّر منه الكثيريــن ، وعلاقته مع الزعمــاء العرب المحليين التي كانت أقرب الى علاقات السيد بالتابعين له•• كل هذا قد ساهم في احباط سياسته العربية والاسلامية•

ولا ننهي الكلام على سياسة عبد الحميد الاسلاميــة قبل أن نعرض ايجــازا لحركة الجامعة الاسلاميــة التي راجت في عصره وأعجب السلطان بها ورعاها منــذ أوائل عهــده ولا سيما بعد أن أدرك مدى هيمنة روسية ودول الغرب على مصــير الدولة في أعقاب مؤتمر برلين (١٨٧٨) • ومعلوم أنه منذ أوائل القرن التاسع عشر والمشرق العربي يموج بحركات إحياء دينية ظهرت للردّ على حركة الاقتباس مــن

الغرب ذات الاتجاه العلماني في حياة المجتمعات الاسلامية من ناحية ، ولمواجهة اعتداء الغرب المسيحي على حوزة العالم الاسلامي من ناحية أخرى • فبعض هذه الحركات استنكر الاقتباس من الغرب ، ونادى بضرورة العودة الى الاصول الاسلامية الاولى ، كالحركة الوهابية أو الحركة السنوسية أو المهدية • وهذه الحركات كلها ، رغم فشل بعضها سياسيا ، تركت آثارا بعيدة في العالم العربي خاصة والاسلامي عامة • وفي حين وقفت الحركة الوهابية والسنوسية ، وحتى المهدية موقفا عدائيا من السلطان العثماني ، دعت حركة الجامعة الاسلامية الى وحدة صفوف المسلمين شعوبا وحكومات وعلى رأسها الدولة العمثانية ، لمجابهة الزحف الاستعماري على ديار الاسلام ، وشحذ همم المسلمين لمباشرة الاصلاح الديني والاجتماعي ، والتعاون الوثيق لتحرير بلادهم من السيطرة الاجنبية •

لقد تبلورت هذه المشاعر الدينية والوطنية والتحررية في الشخصية الثورية للسيد جمال الدين الافغاني (١٨٣٩ — ١٨٩٦) ، أكبر دعاة الجامعة الاسلامية الذي هزت تعاليمه العالم الاسلامي بكامله في الربع الاخير من القرن التاسع عشر ، وأثرت فيه تأثيرا عميقا[1] • دعا الافغاني الى وحدة اسلامية تقوم على ركنين أساسيين وهما : التفاف المسلمين شعوبا وحكومات حول السلطان العثماني باعتباره خليفة المسلمين وحامي حمى الاسلام • والحج الى بيت الله الحرام في مكة ، باعتبار أن الحج ليس فريضة دينية فحسب ، وانما هو أيضا مؤتمر اسلامي سنوي كبير ، يلتقي فيه المسلمون من كافة أرجاء الارض ، حيث يتعارفون « ويتبانون العواطف

---

(١) انظر للمزيد عن حياة الافغاني واعماله وأفكاره : احمد امين « زعماء الاصلاح في العصر الحديث » القاهرة ١٩٤٨ ص ٥٩ — ١٢٠ والبرت حوراني « الفكر العربي في عصر النهضة ١٧٩٨—١٩٣٩ » الترجمة العربية، بيروت ١٩٧٧ ط٣ ص١٣٧—١٦١ •
محمد رشيد رضا « تاريخ الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده » الجزء الاول ص ٢٧ — ١٠٢ •
شكيب أرسلان (تعليقات) في كتاب «حاضر العالم الاسلامي»، القاهرة ١٩٢٥ جزآن•
محمد المخزومي « خاطرات جمال الدين » بيروت ١٩٣١ . اضافة الى الاعداد الثماني عشرة التي صدرت من جريدة (العروة الوثقى) •

الدينية ويتباحثون في الشؤون الاسلامية » ، ويضعون الخطط ويرسمون الط
للدفاع عن الاسلام والمسلمين .

ومعلوم أن الخلافة كانت قد برزت مجددا كأداة للضغط السياسي خص
في المفاوضـات التي أنهت الحر بالروسيـة العثمانية بمعاهـدة كجك قينا
(١٨٧٤) ، ثم عادت للظهور في عهد السلطان عبد العزيز في الستينات والسبع
مـن القرن التاسع عشر ، ووجـدت سبيلها الى دستـور عام ١٨٧٦ وقـد ذ
مادته الرابعة على آن السلطان « هو حامي الدين الاسلامي بحسب الخلافة و
جميـع التبعة العثمانية وسلطانها » .

لقـد دعا الافغاني الى اصلاح العقول والنفوس أولا ، ثم اصلاح الحكو
ثانيا ، وربط ذلك بالدين ، على أساس أن قوة المسلمين تعتمد على فهمهم الص
لدينهم والتزامهم بتعاليمـه ، وان ضعف المسلمين راجع الى الجهل ، ولـذا ي
عليهـم أن يتعلموا فنـون وعلوم أوربة المفيـدة ، لترسيخ دعائم وحـدة ال
الاسلامية ، وهذه هي « العروة الوثقى لا انفصام لها » .

طاف الافغاني في فارس والهند والحجاز والآستانة واوربة ، وكانت السن
الثماني التي أمضاها في مصر أخصب سنـوات عمره (١٨٧١ ـ ١٨٧٩) حيث
يلقي دروسه في بيته على طائفـة من مجاوري الازهر وبعض علمائه ، أمثال الش
محمد عبـده ، وابراهيم اللقاني وسعد زغلول .. وبعد فشـل الثورة العراب
اشترك مع تلميذه الشيخ محمد عبـده الرائد الآخر في الدعوة الى الاصـلا
باصـدار جريدة (العروة الوثقى) في باريس (١٨٨٤) ، فهاجمـت الاستعم
الذي يتهدد البلدان الاسلامية ، ودعت الى تضامن المسلمين ضمن حركة الجامع
الاسلامية ، باعتبارهـا نوعا من تأكيد الـذات الاسلامية ضـد الاستعمار الغ
المسيحي ، ومنهجا آخر للدعوة الى التحرر من ربقة السيطرة الاجنبية .

وناصر عبد الحميـد الحركة ، ودعا الى إحيـاء ما كان للخلافة من مها
ومكانـة في العالم الاسلامي . بقصـد استخدامها كأداة تضمن التفاف الولا

العربية حوله ، وكوسيلة يقاوم بها الحركة الدستورية المعادية له ، وأخيرا لكبح جماح الدول الاوربية التي كانت تحكم رعايا مسلمين ، مثل فرنسة في شمال افريقية، وبريطانية في الهند وافريقية ، وروسية في القفقاس وتركستان . ودعا عبد الحميد الى الالتفاف حوله بوصفه خليفة المسلمين واجتذب الى الآستانة الكثيرين من الوعاظ والعلماء والمتصوفة ، ورأسل بعوثه الى أقطار العرب والاسلام ، وزوّد المدارس الدينية ، داخل السلطنة وخارجها ، بالمعونات والهبات . وأنشأ مدرسة للوعظ والارشاد ، لينشر خريجوها الدعاية للوحدة الاسلامية والخلافة العثمانية . وأغدق على الصحافة ، واستمال عددا من الكتاب والصحفيين الى صف الجامعة الاسلامية ، وكان أول من عمل في ميدانها اللغوي الاديب أحمد فارس الشدياق (١٨٠٤ ــ ١٨٨٧) الذي أصدر كبرى الصحف العربية في الآستانة ، وهي جريدة الجوائب الاسبوعية التي استمرت حتى عام ١٨٨٤ ، وكانت تعنى خاصة بالسياسة الاسلامية لعبد الحميد وتحمل أفكارها الى مختلف الاقطار العربية . وكان من الطبيعي أن يدعو عبد الحميد السيد جمال الدين الافغاني الى الآستانة ، حيث اتفق الرجلان على العمل لتكوين الجامعة الاسلامية ، وكان الافغاني يأمل أنه بمعونة السلطان يمكنه أن يوسع دائرة الاصلاح ، بوضع خطة لجامعة اسلامية تؤلّف بين فارس وافغانستان والدولة العثمانية بنوع من الاتحاد أو الحلف . وتكررت مقابلة الافغاني للسلطان ، ووصفه بأنه ذكي واسع الاطلاع على السياسة الاوربية وألاعيبها ، ولكن جبنه يفسد عليه ذكاءه ومعرفته[1] . ولم يلبث أن ساءت علاقة الافغاني بالسلطان بفعل دسائس أبي الهدى الصيادي ، وبعد أن أمضى في الآستانة أربع سنين وأشهر ، كان فيها تحت رقابة السلطان ، مات ودفن كرجل عادي ومنعت الجرائد من تأبينه[2] .

ومن ناحية أخرى ، أبدى عبد الحميد اهتماما بالغا بالحج ، وهو الركن الثاني من الوحدة الاسلامية ، فأقرّ مشروع سكة حديد الحجاز ، وكان أول

---

(١) احمد امين ، المصدر السابق ، ص ٩٩ ــ ١٠١ .
(٢) المصدر نفسه ص ١٥٠ .

المكتتبين بأموالهم لهذا المشروع • وبهـذا ظهر أمام ثلاثمائة مليـون مسلم بمظهر الخليفـة المتدين الغيور على مصالح رعايـاه • واستغرق انشاء المشـروع ثماني سنوات (١٩٠١ ــ ١٩٠٨) وتكلّف زهاء ثلاثة ملايين جنيه استرليني • ورد ثلثها على هيئة تبرعات من مختلف أرجاء العالم الاسلامي • ويبدو أن عزت باشا العابد قـد أدخل في روع السلطان أن المشروع يعزّز مشاعر الولاء للخلافة بين المسلمين ، ويشد د قبضة السلطان على الحجاز والاماكن المقدسة • وهو الى ذلك وسيلة فعالة للنقل البري ، يحسل الجنود الى شبه الجزيرة العربية ومنها الى اطرافها واليمـن ، ويفوق الطريق البحري عبر قناة السويس في السرعة والسهولة •

وبعـد الاطاحة بالسلطان عبد الحميد (١٩٠٩) تابـع الاتحاديون تمسكهم بحركة الجامعة الاسلامية ، لاستغلالها في محاولة جمع المسلمين حولهـم • وتجلى ذلك أثناء الغزو الايطالي لطرابلس الغرب عـام ١٩١١ ، حيث قاوم عرب طرابلس الغزاة مقاومة ضارية ، مؤازرين في ذلك حكام الدولـة العثمانية • وانهالت عـلى السلطنة ، في هـذه الحرب مساعدات ماديـة ضخمة من الجمعيـات الاسلامية في مختلف أنحاء العالم • كمـا ظهر التضامن الاسـلامي لنصرة الدولـة في حروب البلقان قبيل الحرب العالمية الاولى مباشرة •

مجمل آثار مرحلة التنظيمات والاصلاحات على الاقطار العربية :

في العصر العثماني الاول الـذي يمتد من القرن السادس عشـر الى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر ، خضع العرب لأنظمة الحكم التي وضعت للولايات العربية ، وهي أنظمـة تركت قدرا كبـيرا من حرية التصرف للسلطـات المحليـة ، وكان حجر الزاوية فيها ابقاء ما كان على ما كان ، وتميّزت باللامركزية والبساطة والسطحية ، وبهذا الوصف ، لم تحـدث تغييرا جوهريا في نظم البـلاد وحيـاة المجتمـع •

أما في العصر العثماني الثاني ، الذي يمتد من القرن التاسع عشر حتى نهايـة الحكم العثماني (١٩١٨) ، فقـد اختلف الامر اختلافـا كبيرا ؛ فقد تميّز الحكم

والتشريع بالنظام المركزي ، وربطت الولايات بالعاصمة ربطا محكما ، وأخضع أصحاب الحقوق المكتسبة والجماعات والهيئات والعصبيات اخضاعا تاما ، وتكفلت الدولة بأداء واجبات وتحمّل مسؤوليات لا عهد للرعية بها من قبل ، وكان ذلك نتيجة حركة التجديد والاقتباس عن الغرب • فقد بدأت تنحل العصبيات والجماعات والهيئات الحرفية التي كان ينضوي تحتها الفرد ويحتمي بها أحيانا من قوة الدولة ، وقد رأينا ما يماثل ذلك في عصر محمد علي بمصر ، مع فارق ...م هو أن مصر كانت شعبا واحدا متجانسا ؛ أما الدولة العثمانية فكانت متعددة العناصر والاجناس والثقافات واللغات والاديان • وترتب على هذا أن الدولة العثمانية في ظل النظم الحديثة ، كانت تفتقر الى الاجهزة الصالحة للحكم والادارة بدرجة أكبر من مصر •

ومع ذلك فقد حققت الدولة في مرحلة التنظيمات والاصلاحات التالية ، نجاحا لا يستهان به ، وسجلت المرحلة المذكورة بداية التقدم والنهوض في الدولة العثمانية من الوجهة الحكومية الادارية ومن وجهة الشؤون الثقافية والتعليمية• وجدير بالذكر أن التنظيمات الادارية والتشريعية حدثت بعد انفصال مصر عمليا عن الدولة العثمانية في الشؤون الداخلية في أعقاب تسوية ١٨٤١ • ولذا بدأت أحوال مصر تزداد تباينا عن سائر الولايات العربية ، من الوجهتين الادارية والتشريعية •

غير أن هذه التنظيمات والاصلاحات التي كافحت الفوضى الناجمة عن نظام الاقطاع ، وحددت سلطات الولاة ، قد غالت في المركزية ، فأصابت البلاد العربية بضرر بالغ • فالاصلاح على أساس عثماني ، فرض اللغة التركية على الرعايا ، وأدى الى استياء الاهلين العرب من تضييق مجال حريتهم ، خلاف ما اعتادوا من قبل • ففي عهد بساطة الحياة الاجتماعية والسياسية التي أشرنا اليها ، كانت دواعي الاتصال والاحتكاك بين الافراد وأجهزة الحكم والإدارة محدودة • ولذلك فان اختلاف لغة الحاكم عن لغة المحكوم ما كان يولد مشاكل كبيرة • ولكن عندما تعقدت الحياة الاجتماعية ، وتنوعت أجهزة الحكم ،

زادت وتوسعت دواعي الاتصال بين الافراد ورجال الدولة • ونتج عن ذلك بطبيعة الحال مشاكل كثيرة في البلاد التي تتكلم جماعاتها لغات متباينة ، وفي البلاد التي تحكم شعوبا مختلفة اللغات والثقافات والعناصر والاديان • وزادت هذه المشاكل وتنوعت ووصلت الى درجة الخطورة خاصة بعد أن تقرر مبدأ (سيادة الشعب) ، وتكوّنت المجالس التمثيلية • وتساءل الناس والحكام عن اللغة التي تسود القوانين والانظمة والمحاكم ، والتعليم والخدمة العسكرية والتدريب ، وما الى ذلك • ويلاحظ أنه جرى التحوّل الرسمي نحو اللغة التركية عهد يقظة اللغة العربية من سباتها ، لتسترد مكانتها في ميادين الفكر والتعليم والتأليف •

ومن هنا ، فميل الترك الى تطبيق الانظمة المركزية ، وفرض اللغة التركية على العرب ، مما أوغر صدور هؤلاء ، ولا سيما عندما ضيّق الطورانيون بعد الاطاحة بعبد الحميد ، دائرة ولائهم ، وحصروها في الترك الطورانيين[1] ، وتنكروا للعرب ، بل كبتوا انطلاقهم وهددوا شخصيتهم وثقافتهم ، وكان لا بدّ للقومية العربية أن تردّ على ذلك ، وترى في الخلافة العثمانية ما خدّر فيها روح القومية ، وما أرضاها بالاخاء العربي العثماني ضمن رابطة الجامعة العثمانية الاسلامية • لقد رفض المستنيرون العرب التسلّط العثماني المقنّع ببرقع الخلافة والذي كان يفرض على العرب ، دون مبرر حقيقي ، تصادما بين الايمان الديني الاصيل ، وبين ارادة الحياة التي ترفض الاستبداد •

ومن ناحية أخرى ، فان تطبيق هذه التنظيمات والاصلاحات الجديدة لم يكن سواء من حيث السرعة والشمول في الولايات العربية • سورية (دمشق وبيروت وحلب كانت أولى الولايات التي طبقت فيها بشمول • في حين كان تطبيقها في ولايتي بغداد والبصرة أقل سرعة وشمولا • أما في ولايتي الحجاز واليمن

---

(1) استعمل زعماء الحركة القومية التركية كلمة (توران ــ طوران) للدلالة على الاقطار الشاسعة التي يقطنها الترك واقاربهم من المغول والتتر والقيرغيز والاوزبك

فكان تطبيقها ضئيلا . لقد انتشرت المدارس الرسمية في الولايات العربية ، وخاصة المدارس العسكرية ، لأن المدارس العالية تركزت في الآستانة ، ولم يتوفر الا للقلائل أن ينتسبوا اليها نظرا للعسر المالي والظروف العائلية ، ولكن الولايات العربية لم تكن سواء في افادتها من المدارس العسكرية . فاليمن والحجاز لم يتأثرا بها على الاطلاق ، ولم تنشأ فيهما مدارس عسكرية ، واستمدت الثقافة فيهما من المصادر الاسلامية التقليدية . أما الشام ، فقد كانت اتجاهاتها الفكرية والثقافية عامة نحو الغرب ، بسبب اتصالها بالنشاط الاوربي التجاري والتبشيري . بيد أن العراق كان أكثر استفادة من المدارس العسكرية العالية . وبينما نجد كثيرا من خريجيها العراقيين العسكريين ، لا نكاد نجد من خريجي المدارس المدنية العالية الا نفرا قليلا جدا في أعقاب الحرب العالمية الاولى . وقد لوحظ أن الدول الاوربية ـ إبان عهد التنظيمات بوجه خاص ـ كانت تتنافس في نشر نفوذها في الولايات العربية ، عن طريق تأسيس مدارس تنشر لغتها وثقافتها ، وخاصة في القرى والمدن التي يكثر فيها المسيحيون ، ولا سيما في ولايات حلب والموصل وبيروت ، ومتصرفيتي القدس ولبنان[1] .

ومما شجع على تدخل الدول الاستعمارية في أقطار الشرق العربي ، أن المساواة التي كفلتها مناشير التنظيمات بين المسلمين وغير المسلمين ، منذ منشور الكلخانة عام ١٨٣٩ ، لم تطبق عمليا بشكل تام ؛ فظلت الخدمة العسكرية قاصرة على المسلمين ، بينما ظل المسيحيون يدفعون (البدل العسكري) ، كما ظلت الوظائف عموما بيد المسلمين . وهكذا أدت التنظيمات الى زعزعة (الملل) دون أن تتمكن من ادماج أفراد المجتمع في كيان واحد ، الأمر الذي أفضى الى استياء الجاليات غير الاسلامية ، ليجد فيها النشاط الوربي مجالا رحبا ، وخاصة في بلاد الشام .

وبينما اتجه المسلمون بولائهم نحو اسلامبول ، واتخذوا موقفا مناهضا للتغلغل الاجنبي الذي تمثل بالغزو التجاري والفكري ، كما تمثل بالنظم الأوربية

---

(١) الحصري ، المصدر السابق ، ص ٩٥ .

المدعمه بصالح السياسة الاوربية ، ظلت معظم الاقليات المسيحية تت
الدول الاوربية لحمايتها • وهكذا انتهت التنظيمات والاصلاحات العثمانية
توسيع الخلاف بين المسلمين والمسيحيين في المشرق العربي • وزاده سوءاً
الدول الاستعمارية في شؤون الاقليات في محاولة لتجعل منها عوامل تفرقة
الوحدة القومية •

على أن عصر التنظيمات شهد أيضا اهتمام الدولة العثمانية بتأكيد نف
على أقطار المشرق العربي ـ وخاصة في عهد عبد الحميد الثاني ـ واحياء
في شرق الجزيرة[1] وجنوبها ، بفضل فتح قناة السويس للملاحة (١٨٦٩
مكّن الاسطول العثماني من الوصول الى البحر الاحمر والخليج العربي ، و
تولي المصلح المشهور مدحت باشا ولاية بغداد (١٨٦٩ ـ ١٨٧٢) ، وعز
مدّ سيطرة الدولة على الكويت والبحرين وقطر ، والحلول محل الدولة الس
في الاحساء ونجد •

أرسل مدحت حملة بحرية عثمانية الى الخليج (١٨٧١) سيطرت على الا
مستغلا فرصة نزاع ولدي فيصل آل سعود على الامارة ، واستنجاد أحد
« عبد الله » به ضد أخيه سعود • وحين باشر العثمانيون اعادة بناء ميناء
المواجه للبحرين ، اشتد قلق بريطانية فأوحت الى حاكم البحرين عيسى بن
ليحتج على عمل يقع ضمن أملاكه • وفي الوقت نفسه أرسلت بريطانية تهدد الآ
بالتدخل ازاء كل ما يمس « استقلال البحرين » فتوقف العمل في الميناء • وفي
التالية رأت الدولة أن تسحب حامياتها من مناطق الخليج لأنها وجدت أن نفقا
لا توازي عائداتها ، ولأن نسبة الوفيات ارتفعت بين جنودها ، وفضلت أن

---

(١) عن الجهود العثمانية المستمرة لترسيخ النفوذ العثماني في شبه جزير
ومنطقة الخليج العربي واصطدامها ببريطانية ، أنظر كتاب المؤلف الهندي سالدا
Saldanha, Precis of Qatar Affairs from 1873 to 1904.
وترجم الكتاب الى العربية احمد العناني بعناية دولة قطر تحت اسم « الشئون ال
من سنة ١٨٧٣ ـ ١٩٠٤ » الدوحة لا تاريخ .

هذه النواحي بولاية البصرة التي أصبحت ولاية مستقلة عن بغداد سنة ١٨٧٤ ، وضمت سنجق الكويت ومتصرفية الاحساء ومدينة البيضاء في قطر •

ولكن محاولات التوسع العثماني استمرت ضد البحرين[١] ، وتمثلت بتحريض قبائل (بنو هاجر) على غزو البحرين ، وردت بريطانية بتقوية علاقاتها مع شيخ البحرين ومساندته ضد بني هاجر ، ثم وجدت ان خير وسيلة لاحباط التحركات العثمانية التوسعية هو فرض اتفاقية جديدة تربط البحرين نهائيا ببريطانية(١٨٨٠) ، ونصت الاتفاقية على عدم دخول حاكم البحرين عيسى في مفاوضات أو اتفاقات مع أي حكومة أخرى بغير موافقة بريطانية ، ومنع أي حكومة أخرى من اقامة تمثيل دبلوماسي أو قنصلي ، أو انشاء مستودعات لوقود السفن في ممتلكات أمير البحرين دون ترخيص بريطانية • وفي سنة ١٨٩٢ فرضت التزامات جديدة على البحرين وهي عدم جواز اتصالها مع أي حكومة غير بريطانية، وعدم جواز بيع أو رهن أو السماح باحتلال جزء من أراضيها لأية دولة سوى بريطانية • ونظرا لأهمية البحرين الاستراتيجية فقد اتخذت بريطانية فيها قاعدة حربية في الحرب العالمية الاولى •

وفي عصر التنظيمات العثمانية ، نجحت بريطانية كذلك في فك عرى الوحدة بين شطري عمان[٢] ، مستغلة وفاة السلطان سعيد بن سلطان (١٨٥٦) وانقسام ممتلكات عمان بين ولديه ثويني في القسم الآسيوي (عمان) وماجد في القسم الافريقي (زنجبار وتوابعها) ، وسعت بريطانية الى فصل القسمين عن بعضهما

---

(١) انظر للمؤلف نشأة وتطور دولة البحرين حتى استقلالها عام ١٩٧١ في كتاب « دولة البحرين » الصادر عن معهد البحوث والدراسات العربية (١٩٧٥) ص١٣-٤٨•

(٢) عن تطور مشيخات الساحل العماني الى دولة الامارات العربية المتحدة ، انظر بحث د. جمال زكريا قاسم في كتاب « دولة الامارات العربية المتحدة » الصادر عن معهد البحوث والدراسات العربية بالقاهرة (١٩٧٨) ص ٢٣ — ٨٤ •

وانظر للمؤلف نفسه : « الخليج العربي ١٩١٤ — ١٩٤٥ » القاهرة ١٩٧٣ ص ٢٨٣ — ٣١٩ • وكتاب : « الخليج العربي ١٩٤٥ — ١٩٧١ » القاهرة ١٩٧٤ ص ١٧٥ — ٢٢١ •

وانظر ايضا : د. محمود علي الداود « التطور السياسي الحديث لقضية عمان » القاهرة ١٩٦٤ •

والقضاء على وحدتهما التي طالما استند اليها العمانيون في تمسكهم بحريتهم والتخلص من القيود الاحتلالية البريطانية التي يساندها سلطان مسقط •

انتهزت فرصة نزاع الاخوين على ارث أبيهما ، فجعلت من نفسها الحكم بينهما ، وصدر حكمها في نيسان عام ١٨٦١ ويقضي باقامة سلطتين منفصلتين احداهما في مسقط وتتبعها عمان ونواحيها في الخليج العربي ، والثانية في زنجبار وتتبعها الاقاليم العربية على ساحل افريقية الشرقي • وقفت بريطانية الى جانب سلطان مسقط الجديد تركي بن ثويني ضد جميع الثورات التي قامت ضده • ولما تولى فيصل بن تركي مكان أبيه سنة ١٨٨٨ كان أول ما قام به هو عقد معاهدة صداقة وتجارة مع بريطانية (آذار ١٨٩١) • وبعد شهر واحد عقد معاهدة جديدة تعهد فيها ألا يبيع أو يرهن أو يهب أي جزء من سلطنة مسقط وتوابعها الا الى الحكومة البريطانية ، وربط بهذا التعهد نفسه وخلفاءه وأحفاده • ثم التفتت بريطانية لفرض سيطرتها التامة على ساحل عمان واعلان قصور أهله عن التعامل الدولي ، بعد أن حرمته من جميع أسباب القوة وفرضت عليه رقابتها برا وبحرا ، وتآمرت على رزقه وقوت يومه ، فدفعت شيوخ أبو ظبي والشارقة ودبي وعجمان وأم القيوين ورأس الخيمة الى توقيع معاهدة في آذار عام ١٨٩٢ تحكم قبضة بريطانية على حق أي شيخ من هؤلاء ١ ـ بالاتفاق أو التراسل مع أية حكومة عدا بريطانية ، ٢ ـ رفض اقامة أي وكيل لأي حكومة أخرى في منطقته الا بموافقة بريطانية ، ٣ ـ عدم التنازل أو البيع أو الرهن أو الاحتلال لأي جزء من منطقته الا لبريطانية •

وتمشياً مع المبدأ الاستعماري القديم ، فرضت بريطانية عام ١٩٠٢ منع استيراد الاسلحة على شيوخ دبي والشارقة وأم القيوين وعجمان وأبو ظبي ، وبذلك نجحت في تقليم أظافر عرب ساحل عمان ، بعد أن اطمأنت الى حرمانهم من الاستقلال والسيادة على أرضهم • ثم عزمت على تدعيم نفوذها داخل عمان لاحتكار مواردها ، بعد أن ضمنت سيطرتها الفعالة على مسقط ، فارغمت السلطان في العام نفسه (١٩٠٢) على عدم منح امتياز استثمار حقول الفحم الى أية شركة أو دولة أجنبية دون موافقة بريطانية •

وكان من الطبيعي أن يوجه الاستعمار البريطاني عناية خاصة الى النفط واستغلاله ، وأن يفرض عليه الوصاية مسبقا • ولذلك فقد أرغم شيوخ ساحل عمان على عدم اعطاء امتياز استغلال النفط ــ في حالة العثور عليه ــ لأي شخص عدا الشخص الذي تعينه « الحكومة البريطانية السامية » • تعهد بذلك شيوخ الشارقة ورأس الخيمة وأبو ظبي وعجمان وأم القيوين ما بين شباط وأيار عام ١٩٢٢ •

وكانت السيطرة على الكويت[١] تمثل آخر مرحلة في المخطط البريطاني لربط أقطار الخليج بعجلته • وهنا أيضا كانت سياسة التنظيمات العثمانية مما دفع بريطانية لتبسط سيطرتها على الكويت • ولم يجد مدحت والي بغداد صعوبة في بسط نفوذ الدولة على مشيخة الكويت ما دامت هذه المشيخة لا تمانع في الاعتراف بالسيادة العثمانية دون دفع جزية أو قبول ادارة تركية مباشرة •

وظلت الكويت موالية للدولة أثناء حكم عبد الله بن صباح ، كما ظلت تدفع له مرتبا سنويا نظير مشاركته في الدفاع عن ميناء البصرة بحرا • وصدر فرمان سلطاني باعلان الكويت سنجقا تابعا لمتصرفية الاحساء (١٨٧٠) ، يحمل شيخها لقب (قائمقام) ، ويستقل بشؤونه الداخلية ، ويرفع على سفنه العلم العثماني •

وفي سنة ١٨٩٢ توفي عبد الله وخلفه أخوه محمد ، وقد خشي مبارك وهو أخ غير شقيق لمحمد من تمادي أخيه في الولاء للعثمانيين وعملائهم الذين لا يثق بهم ، ويرى أنهم قد يعزلون آل صباح عن حكم الكويت،فقام وقتل أخاه محمداً واستولى على السلطة ، واضطر الباب العالي لتعيين مبارك قائمقاما على الكويت • وظل مبارك يقاوم مد النفوذ العثماني الى الكويت ويخشى من أطماعه ومن تحريضه آل الرشيد على التوسع في منطقة الخليج وجعل الكويت منفذا لحائل ، ولذا أنهى رغبته الى المقيم البريطاني في وضع نفسه وبلده تحت الحماية البريطانية • وترددت بريطانية ،

---

(١) انظر عن التطور السياسي للكويت ، جمال زكريا قاسم ، المصدران السابقان ص ٤٩ ــ ٢٠٠ و ٣٩ ــ ١١٤ على التوالي •

وعن تطور دولة قطر انظر للمؤلف نفسه المصدرين السابقين ص ٢٦٩ ــ ٢٨٢ و ١٦٢ ــ ١٧٢ •

ولكنها تغلبت على ترددها في قبول طلب مبارك ، حين علمت أن نوايا الروس متجهة الى الحصول على امتياز من الدولة لمدّ سكة حديد من الاسكندرونة الى الفرات فالخليج ، وان مساعيهم ناشطة لتكون نهاية الخط هي ميناء الكويت •

وهكذا التقت مخاوف بريطانية من النفوذ الروسي والالماني ، مع مخاوف مبارك من هجوم جيرانه عليه وخاصة آل رشيد ، فعقد الطرفان اتفاقية سرية (١٨٩٩)، لأن مباركاً ما زال يعتبر قائمقاماً لدى الآستانة ، وهي صورة طبق الاصل تقريبا عن الاتفاقية المعقودة مع سلطان مسقط فيصل بن تركي (١٨٩١) ، وبذلك اطمأنت بريطانية الى احكام النطاق الذي ضربته حول منطقة الخليج ضد محاولات السيطرة العثمانية أو الاجنبية على حد سواء • وكان الكشف عن آبار النفط في جنوبي فارس وفي البحرين وقطر والكويت وأجزاء أخرى من الخليج من أهم عوامل تصميم بريطانية على الاحتفاظ بسيطرتها في منطقة الخليج حتى قرب أيامنا هذه •

أما في الحجاز ، فالمنازعات المحلية بين الاشراف على منصب شرافة مكة ، ولا سيما بين فرع بركات من الاسرة الادريسية وفرع زيد من الاسرة الهاشمية ، قد أسفرت عن ظفر آل زيد بمنصب الشرافة منذ منتصف القرن الثامن عشر • وقد شعر الشريف غالب بن مساعد (١٧٨٨ ـ ١٨١٣) بالخطر الوهابي يقترب من بلده ، وحاول عبثا التصدي له • وفي ١٧٩٩ عقد اتفاقا لتعيين خط الحدود مع أمير الدرعية ، بشرط أن يكون الوهابيون أحرارا في دخول الاراضي المقدسة• ولكن كان يستحيل تجنب أسباب النزاع ، والحصار الذي ضربه الامير سعود على مكة ، وانتشار المجاعة والطاعون فيها ، اضطر الشريف غالب الى التسليم والاعتراف بالسيادة الوهابية مع الاحتفاظ بمنصبه (١٨٠٤) • وحين كلف محمد علي باعادة الحجاز الى الحظيرة العثمانية ، ونزلت الجيوش المصرية أرض الحجاز عام ١٨١١ ، ظل غالب في منصبه حتى عام ١٨١٣ حين عزله محمد علي بسبب موافقه الانتهازية وجشعه للمال وصادر ممتلكاته ، ونقله مع ولديه الى مصر ، ثم نفاهم السلطان الى سلانيك حيث مات غالب فيها (١٨١٦) • وعين محمد علي

الشريف يحيى بن سرور ابن أخي الشريف غالب أميرا على مكة[1] ، (١٨١٣ — ١٨٢٧) براتب شهري ، وهكذا أصبح الحجاز تابعا فعليا لمصر ، وتلقى مجددا الارزاق التي رصدها السلاطين على الحرمين من غلال وهبات واعانات وما اليها . وحين انتقم يحيى من أحد أقربائه ، اضطر محمد علي للتدخل ، فأبعد آل زيد ، وأقام مكانهم العبادلة ممثلين بشخص محمد بن عون (١٨٢٧ — ١٨٥١) ، وهم الذين ناهضوا آل زيد منذ مطلع القرن التاسع عشر . ونشب نزاع بين محمد إبن عون وخصم له من أقربائه ، فاستدعي الرجلان الى القاهرة (١٨٣٦) حيث بقي شريف مكة فيها حتى عام ١٨٤٠ حين عاد الحجاز الى السيادة المباشرة للباب العالي ، ورجع محمد بن عون الى وطنه واستعاد منصبه .

وقد كان للحكم المصري تأثير هام في تعريف الاوربيين بالجزيرة العربية ، عن طريق تمكين الرحالة السويسري لويس بركهاردت من زيارة حواضر الحجاز ، والكابتن سادلير مبعوث حكومة الهند البريطانية من عبور شبه الجزيرة العربية عام ١٨١٩ من القطيف على الخليج العربي الى ينبع على البحر الاحمر[2] . اضافة الى أن الحكم المصري خضد شوكة القبائل العربية ، وأفاد العثمانيون من ذلك حين حاولوا في العصر العثماني الثاني تقوية نفوذهم في مناطق الجزيرة العربية عن طريق ربطها ربطا مباشرا بالآستانة ، وذلك بعد انسحاب الجيوش المصرية منها عام ١٨٤٠ .

واعتبارا من هذا الوقت تمثلت السيادة العثمانية في الحجاز بشخص والي جدة، تبعا للتنظيمات والاصلاحات العثمانية ، ولم يكن بدٌّ من الاحتكاك والتنازع بينه وبين شريف مكة، ولكن صداقة الشريف مع محمدعلي كانت خير معين له على الاحتفاظ

---

(١) الجبرتي ، المصدر السابق ، ج ٤ ص ٢٠٠ .

(٢) جمع بركهاردت معلومات قيمة عن رحلته التي نشرها في كتاب بعنوان :

Burckhardt, J. L. : Notes on the Bedouins and Wahhabys, London 1830.

كذلك نشر سادلير كتابا عنوانه :

Sadelier, G. F., : Diary of a Journey across Arabia from el Katif in the Persian Gulf to Yambo in the Red Sea during the year 1819, Bombay 1866.

بمنصبه ، لاسيما وأنه قد أدى خدمات جلّى للعثمانيين، بارساله الحملات ضد فيصل بن تركي في الرياض ، وضد قبائل عسير ، وهيأت غاراته ضد اليمن للسيادة العثمانية عليها[1] . وظل محمد بن عون يتولى شرافة مكة حتى عام ١٨٥٨ باستثناء أربع سنوات عينت الدولة فيها غريمه الشريف عبد المطلب بن غالب (١٨٥٢ – ١٨٥٦) ثم عزلته ونفته الى الآستانة على أثر فتنة وقعت بين أهل مكة من ناحية والعثمانيين من ناحية ثانية ، بسبب تحريم هؤلاء بيع الرقيق في مكة بعد الغائه . وقد استفاد عبد المطلب من منصبه في البدء ، ثم اضطر للتنحي عنه لصالح محمد بن عون الذي بدأت فترة شرافته الثانية ، ولكن لم تدم سوى عامين ، وخلفه ابنه الشريف عبد الله الذي كان عضوا في مجلس الدولة آنذاك في الآستانة ، وتميزت فترته بالهدوء وبمحبة الاهالي في الداخل . وفي الخارج بفتح قناة السويس الذي ربط الحجاز مباشرة بالآستانة ، وبالعالم بواسطة خطوط البرق (التلغراف) ، وأعيد فتح اليمن . وبقي عبد الله شريفا في مكة حتى عام ١٨٧٧ حين عزله السلطان عبد الحميد الثاني ، ليعين مكانه أخاه الشريف حسين بن محمد بن عون ، ولكن هذا قتل مطعونا بيد أفغاني عام ١٨٨٠ ، فعاد عبد المطلب بن غالب الى الشرافة (١٨٨٠ – ١٨٨١) ، وغضب آل زيد ، ومضى وفد منهم الى الآستانة للوقيعة والدس ضد خصمهم ، فاتهموه لدى السلطان بأنه صديق لمدحت باشا الذي كان منفيا في الطائف آنذاك ، وأسفرت سعايات الوفد عن عزل عبد المطلب ، واعادة الشريف عبد الله بن محمد عون أميرا على مكة ، ولكن السلطان أمر بأن يبدل به أخوه الشريف عون بن محمد المعروف باسم عون الرفيق (١٨٨٢ – ١٩٠٥) . واحتدم النزاع بينه وبين والي جدة عثمان نوري باشا على الصلاحيات مثل السلطة الشرعية وضمان الامن في طرق القوافل . واستدعي الوالي الى الآستانة عام ١٨٨٦ ، وخلفه جمال باشا ، ثم صفوت باشا ، ونجح أحمد راتب باشا أخيرا في البقاء الى جانب عون الرفيق ، بفضل اغضائه عن كثير من الامور ، ونواله

---

(١) انظر مقال قنسنك عن (مكة) في دائرة المعارف الاسلامية – النسخة الفرنسية ص ٥١٥ – ٥١٦ .

بعض المنافع المادية • ولكن استمر التنازع على شرافـة مكة بين شيع آل عـون أنفسهم من ناحية • ثم بينهم مجتمعين وبين آل زيـد من ناحية أخرى • فقـد حزّ في نفس الشريف حسين بن علي من آل زيـد ، تنصيب عمه عون الرفيق بدلا منه ، وتبادل معه الاتهامات والمشاحنات ، مما اضطر السلطان عبـد الحميد الى دعـوة الشريف حسين وأسرته للاقامة في الآستانة عام ١٨٩٣[١] وفي هـذه الآونة ظهرت بوضوح سياسة السلطان العربية ، وكان مـن مظاهرها ، دعوة أبنـاء شريف مكة لحضور مدرسة القصر المخصصة للاسرة السلطانية •

ومن ناحية أخرى بدأ شريف مكة يستعيد سلطاته التي كانت تصطدم بسلطات والي الحجـاز في جدة ، والقـوة العسكرية الكبـيرة الموضوعة تحت تصرفـه لاستخدامها في فرض سيطرته على العناصر المحلية والعشائر البدويـة • ففي الوقت الذي أوعزت فيه الآستانة الى الوالي بوجوب تسوية النزاعات بالطرق السلميـة ، أفهمت الشريف والاعيان بأن يعترفوا بهيمنة السلطان عليهم ، ولا يشوهوا صورته كخليفـة للمسلمين • وتعكس هذه السياسـة شعور عبد الحميـد بأن مقتضيات التضامن الاسلامي مع العرب ، أهم من متطلبات الادارة الحكومية القوية هناك[٢]•

وحين بوشر بمد سكة حديد الحجاز عـام ١٩٠١ ، كان الاشراف يرقبونهـا بسخط ، وتمنوا ألا تتم لسببين : الاول اقتصادي لأن السكة تقطع أرزاق القبائـل التي يعتمد عليها الحجاج في الانتقال الى الديار المقدسة لأداء الفريضة • والثـاني عسكري ، لأن قبضة العثمانيين ستقوى على ممتلكاتهم في الجزيرة العربيـة ، نظرا لسهولة نقل القوى والعتاد بواسطة السكة الحديدية •

بيـد أن أحوال امارة مكة ساءت في عهد عون الرفيق ، فاضطرب حبل الامن وعمّ القـلق وانتشرت الفـوضى ، بسبب توافق المصلحة الشخصيـة بين الوالي

---

(١) انظر أحمد زيني دحلان « تاريخ الـدول الاسلامية بالجـداول المرضيـة » ص ١٦٣ • وايضا De Gaury, : Rulers of Mecca, p. 48

(٢) Akarli, op. cit., p. 11. نقلا عن Butrus Abu-Manneh «Sharifs of Mecca» AAS (1973) pp. 1 - 12.

العثماني والشريف • وعانى الناس من الظلم والجور الى أن توفى عون الرفيق عام ١٩٠٥ ، فتولى الشرافة أحد أقربائه علي بن عبد الله بن محمد بن عون حتى عام ١٩٠٨ اذ اعتزل منصبه مع الوالي العثماني أحمد راتب بعد الانقلاب الدستوري ، وغادر الشريف الحجاز للاقامة في مصر • وبعد تردد مال الاتحاديون لتعيين الشريف حسين بن علي في ايلول ١٩٠٨ لضمان نجاح مشروع سكة حديد الحجاز ، وحمايته من غارات البدو ، ونظرا لوعود الشريف بمقاومة الامراء الثائرين على الدولة في عسير ونجد واليمن •

العراق في عصر النهضة(١) :

كان العراق وقت استيلاء العثمانيين عليه ، قد ورث الفساد والفوضى من عصور المغول ومن الامارات العجمية ، وما خلفته الحروب الطاحنة بين السلطنة وفارس على صعيده من شرور ، انعكست بالخراب على حواضره وأريافه • ورجع أهلوه الى حالة محزنة من الجهل والفقر والبداوة • ولم تتحسن أحواله الا في عصر التنظيمات والاصلاحات الذي استهل عهدا جديدا تميز بشيء من ملامح الحضارة الحديثة ، وبشيء من التطور والاستقرار • وفضلا عن ذلك تميز هذا العهد بكثرة تبديل ولاته ، وبأن أكثرهم كانوا جهلة بأحواله ولغته ، وما أن يتعرفوا

---

(١) طالع للتوسع المراجع العربية التالية : عباس العزاوي : « تاريخ العراق بين احتلالين » صدر في ثمانية اجزاء ــ بغداد ١٩٣٩ ــ ١٩٥٦ يهمنا منها خاصة الجزآن السادس والسابع •

د. عبد العزيز سليمان نوار « تاريخ العراق الحديث ــ من نهاية حكم داود باشا الى نهاية حكم مدحت باشا » القاهرة ١٩٦٨ •

د. عبد الكريم محمود غرايبة « مقدمة تاريخ العرب الحديث ــ العراق والجزيرة العربية » ــ مطبوعات جامعة دمشق ١٩٦٠ •

سليمان صايغ « تاريخ الموصل » جزآن ، مصر ١٩٢٣ •

وانظر أيضا المراجع التالية باللغة الانكليزية أو ترجماتها : ستيفن لونكريك « أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث » ــ الترجمة العربية لجعفر خياط بيروت ١٩٤٩

فيليب ويلارد آيرلند « العراق ــ دراسة في تطوره السياسي » ــ الترجمة العربية لجعفر خياط بيروت ١٩٤٩ •

Holt, P.M. Egypt & the Fertile Crescent, 1516-1922, London, 1966.

على شؤونه واحتياجاته حتى ينقلوا الى ولايات أخرى • ويقرب عدد من تولى الولاية في العراق خلال هذه الفترة من ثلاثين واليا تراوحت مددهم من عدة أشهر الى ثلاث سنوات • وقلّ من امتدت ولايته خمس سنوات أو ستا • وهم الى ذلك قد تفاوتوا في الثقافة والمعرفة وطريقة الحكم ، ووجد بينهم الأمي والمرتشي والسكير وقائد الجند • وربما وجد الاديب والمتفقه ، ولكن ندر الاداري الموهوب، الى أن حضر مدحت باشا •

والحق أنه لم تتعرض الولايات العثمانية في العراق لحكم أجنبي في القرن التاسع عشر ، فقد ظلت مندمجة في السلطنة العثمانية ، ولم تدخلها التأثيرات الغربية المباشرة الا بنحو قليل • كذلك لم يحدث ما يعكر العلاقات المستقرة بين فارس والعراق في العقدين الاخيرين من القرن الثامن عشر ، الى أن نهب الوهابيون كربلاء (١٨٠١) أثناء حكم سليمان باشا (الكبير) في ولاية بغداد • وقد فشل كغيره من الولاة السابقين في نشر الهدوء بين القبائل العربية والكردية ، كما فشل في التصدي للغزو الوهابي • ولكن الكتاب الاجانب يشيدون بحكمه لأنهم تمتعوا خلاله بالحماية والرعاية •

وتوفي سليمان عام ١٨٠٢ وخلفه كتخداه (كخياه) علي باشا ، بعد صراع مع آغا الانكشارية ومتسلم البصرة صهر سليمان الكبير • ولكن النظام المملوكي السياسي لم يكن ثابت الاركان ، فسرعان ما تآمر عليه جماعة من المماليك واغتالوه (١٨٠٧) فاقتص سليمان ابن أخته وكتخداه من القتلة ، واجتمع العلماء والاعيان وزعماء المماليك ، ونصبوه قائمقاما على الولاية ، وأرسلوا مضبطة بالواقعة الى عاصمة السلطنة ، والتمسوا توجيه الولاية الى سليمان الصغير • وتردد رجال الدولة ، وأرادوا انتهاز الفرصة لتخليص الولاية من المماليك ، فقرروا تعيين رضا باشا الذي كان واليا على ارضروم • ولكن الجنرال سبستياني سفير الامبراطور نابليون في الآستانة ، دعم تعيين سليمان للمنصب ، واستقر الرأي على تقليد سليمان منصب الولاية ، ويبدو أن ذلك كان نتيجة المبالغ التي أرسلها سليمان

الى العاصمة[1] ، وارضاء فرنسة التي كان موقفها متأرجحا بين معاداة السلطنة ومصادقتها ، اضافة الى تلبية رغبة المماليك والاعيان والعلماء في بغداد .

ولكن سليمان باشا لم يكن أكثر توفيقا من أسلافه ؛ فبينما نجح في تسوية الخلافات مع العشائر العربية التي جنحت الى الهدوء في عهده ، ولا سيما عشيرة العبيد وزعيمها جاسم الشاوي ، الا أنه واجه صعوبات في البصرة والموصل والمناطق الكردية . فقد حاول سليم بك متسلم البصرة انتزاع الولاية من سليمان بدعم من العثمانيين ، ولكن شيخ المنتفق حمود الثامر ، استرد البصرة وسلّمها الى سليمان ، وهرب سليم الى بوشهر . كذلك اضطربت أحوال الموصل بتأثير أسرة الجليلي ، لأن الدولة عينت متصرفا من خارج الاسرة ، مع أن المتصرفية كانت توجه حتى ذلك التاريخ ، ومنذ عام ١٧٢٦ الى أفراد من أسرة الجليلي حصرا . وانتهى الامر بمقتل المتصرف والعودة الى آل الجليلي .

وأدركت الدولة مغزى هذه الاحداث الناجمة عن سوء تصرف سليمان باشا ، فقررت ايفاد مندوبها حالت أفندي لحثّه على العمل بتبصر ، وتحصيل الاموال المرتبة عليه ، واستلام ما في عهدته من مخلفات سلفيه . ولم تلق نصائح المندوب السلطاني الاستجابة اللازمة ، ولذا فوضته الآستانة بمحاربة الوالي وتنصيب سواه . وأسفرت المعارك عن اندحار الوالي واغتياله (١٨١٠)[2] . وأدرك حالت أفندي صعوبة اقصاء المماليك عن حكم بغداد ، فسعى لتنصيب سعيد بن سليمان الكبير ، ولكن الخزندار عبد الله التوتنتجي تمكن من السيطرة على بغداد ، فاضطر المندوب الى القبول بالامر الواقع وتعيينه واليا (١٨١٠) . وانقسمت صفوف المماليك في عهد التوتنجي ، ولم يلبث أن تنازع مع سعيد

---

(١) الحصري ، البلاد العربية والدولة العثمانية ، ص ٥٨ ــ ٥٩ نقلا عن تاريخ جودت .

(٢) انظر مآخذ الدولة على سليمان باشا في الحصري ، المصدر السابق ص ٦٤ ، وقابل هذه المآخذ مع محاسن الوالي المذكور كما وردت في عباس العزاوي « تاريخ العراق بين احتلالين » ج ٦ ص ٢٠١ ــ ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ .

الـذي سانده حمود الثامر زعيم عشائر المنتفق ، فهزم الوالي وقتـل بعد أسره • واستلم سعيد باشا الولايـة ولم يتجاوز الحاديـة والعشريـن ، فأكثر من تغيير موظفيه ، ووصلت الوشايـة ضده الى الباب العالي ، واتهمه المعارضون بالاعتماد على شيوخ العشائر العربيـة • وفي غضون ذلك لمع نجم الدفتردار داود حين أظهر مقدرة في اخضاع العشائر العاصية في المناطق الكردية والبدوية • وحين توجه داود الى كركوك ، التف حولـه المماليك والعثمانيون وأعداء سعيد باشا ، ولم يلبث أن وصله فرمان تقليـده ولاية بغـداد والبصرة والموصل (١٨١٦) ، ونشب صراع بينه وبين سعيد باشا انتهى بقيـام ثورة في بغداد تأييدا لداود الذي اقتحمت قواته المدينة وقتلت سعيد باشا[1] •

وداود مملوك من بلاد الكرج (جورجية) ، ولد في تفليس عام ١٧٦٧ واشتراه سليمان الكبير (١٧٨٠) وعني بتربيته وتدريبه حتى أتقن اللغات العربيـة والفارسية والتركية وآدابها ، ودرس الفقه والتفسير وحفظ من آيات القرآن ، ومهر في استعمال السلاح وبرع في الفقه[2] • وتقلب داود في مناصب الحكومة المحلية ، ومنذ تسلمه الولاية أخذ يوطد دعائم حكمه ، فأقرّ الامن والنظـام ، وتحقق على يديه ما لم يتحقق على يد من سبقه من المماليك ما عدا سليمان الكبير • وكان عليه أن يواجه المشكلات المزمنـة التي كان يعاني منهـا العراق ، وهي تمسك العشائر العربية الكبرى باستقلالها الذاتي وسط انقسـام الزعامة المملوكية وتنازعها علـى الحكم • وصراع الامارات الكردية للتفرد بالسيطرة على كردستان • وتزايد النفوذ البريطاني في مياه الخليـج العربي ، وامتداده نحو بغداد لتأمين مصالحه • وأخيرا الحرب مع فـارس ، وتعتبر استمرارا للحروب الخمس السابقـة في عهـد سليم الاول (١٥١٤) وسليمـان القانوني (١٥٣٤) ومراد الرابـع (١٦٣٨) ومحمود الاول (١٧٤٥) وعبد الحميد الاول (١٧٧٥) ، وكانت فارس تشنّها كلما أحست

---

(١) انظر حول داود باشا ــ نشاته ولايته واعماله د. يوسف عز الدين « داود باشا ونهاية المماليك في العراق » بغداد ١٩٦٧ ص ٣٣ •

(٢) عز الدين ، المصدر نفسه ، ص ٢٥ •

بقوتها ، بقصد السيطرة على العراق ، وارضاء شيعة فارس بالاستحواذ على العتبات المقدسة في النجف وكربلاء .

فشل داود في اقناع العشائر بالكف عن الغزو المتبادل ، ولجأ الى الخطة التقليدية في ضرب عشيرة بأخرى . واعتمد على حلفائه من شمر الجربا لحماية المنافذ الغربية الصحراوية للعراق ، وعلى المنتفق لحماية جنوب العراق وخاصة البصرة من عشائر كعب الكبرى التي انطلقت أطماعها من بلدة المحمرة المنافسة للبصرة عهدئذ . ولكن داود حين شعر باتساع نفوذ حمود الثامر زعيم المنتفق بحيث أصبح يهدد السيطرة المملوكية هناك ، أبدله بزعيم آخر هو عقيل السعدون . كذلك لجأ داود في كردستان الى ضرب أمير كردي بآخر لضمان ولاء كردستان ، واستمرار تبعيتها لبغداد ، ووضع حدّ لعصيان آل بابان على المماليك . ومعلوم أن آل بابان حكموا الامارة البابانية التي قامت في السليمانية في مطلع الربع الاخير من القرن الثامن عشر واتسعت ما بين أواخر الثامن عشر وأوائل العشرين ، بحيث أطلق على الحاكم البابانى لقب باشا كردستان .

وكان من الامور المألوفة أن يلجأ الامير البابانى المخلوع الى كرمنشاه في فارس ، وهي مجمع الناقمين على الحكم في العراق ، وموئل اللاجئين من العراق . وقد تتوسط كرمنشاه للعفو عنه ، أو ترسل معه قوة لمحاربة والي بغداد[1] ، والسيطرة على كردستان ، تمهيدا للاستيلاء على العراق ، فتنشب الحرب بين الوالي وفارس . وبرغم أن العشائر والامارات الكردية ، وهي في غالبيتها الساحقة من السنّة ، دأبت على طلب معونة فارس كلما اشتدت وطأة بغداد عليها ، فانها سرعان ما كانت توجّه قواها لطرد الفرس من بلادها ، حالما تتخلص من ضغط ولاة بغداد .

وقد جرت في عهد داود آخر الحروب الفارسية ــ العثمانية ، حين حرضت روسية ، فتح علي شاه فارس ، على اكتساح الحدود العثمانية ، لتشغله عن

---

(١) انظر أمثلة عن ذلك من وقائع بغداد ، للحصري ، المصدر السابق ، ص٥٦ ــ ٦٤

استرداد بعض مناطقه الشمالية التي أرغم على التخلي عنها لروسية في معاهدة كولستان (١٨١٣) . فأمر ولديه عباس ميرزا حاكم أذربيجان ، ومحمد علي حاكم كرمنشاه بغزو أراضي العراق (١٨٢٠) . وتقدم عباس الى شهرزور معتمدا على استياء الاكراد ، وهزم جيش داود ، وزحف علي ميرزا على بغداد ، ولكن تفشي الكوليرا أوقف تقدمه ، وانسحب بعد مفاوضات انتهت بمعاهدة أرضروم (آب ١٨٢٣) التي لم تأت بجديد ، بل أكدت الحدود العراقية ــ الفارسية غير الثابتة التي ترجع الى عهد مراد الرابع . ولذا ظهرت الخلافات مجددا بين بغداد وكرمنشاه بسبب تدخل فارس في شؤون الامارة البابانية ، ووجود قواتها في منطقة تعتبر عثمانية بموجب معاهدة ١٨٢٣[1] . وبينما كان داود يسعى للاطاحة بالامارة البابانية ، كان يحرّضها جيمس ريتش Rich الوكيل السياسي البريطاني في بغداد ، ويحثها على الانفصال عن العراق ، وتكوين كيان كردي مستقل .

نقم داود على ريتش ، ولكن العداء بين الرجلين يعود الى دوافع اقتصادية ، وذلك حين فرض داود رسوما على البضائع البريطانية تفوق ما نصت عليه الامتيازات (٣ ٪) . ولم تسفر شكاوى ريتش الا عن تصلب الوالي الذي مضى يتقاضى الرسوم نقدا أو بضاعة ، وبالقوة عند الحاجة . وتأزمت الامور بسبب حملات التحريض التي كان يشنها ريتش ضد داود مستغلا نفوذه المتعاظم في بغداد والمركز الراجح للسفير البريطاني في الآستانة . وحاصر داود المثلية البريطانية في بغداد ، ولم يطلق سراح ريتش ويغادر البلاد الى الهند في أيار ١٨٢١ الا حين احتجت حكومة الهند لدى الآستانة . على أن داود عدّل موقفه من النفوذ البريطاني الذي استقر في شرق العراق وجنوبه وشماله ، وخاصة بعد أن أوقفت حكومة الهند تجارتها مع العراق ، فحرمت داود من أهم موارد خزينته ، ووافق على التقيّد بالامتيازات الاجنبية ، بحيث تضمن للرعايا البريطانيين حماية أرواحهم وأموالهم ، وحرية التجارة ، ودفع رسوم بنسبة ٣ ٪ من ثمن البضاعة . كما عمل داود على

---

(١) للمزيد من التفاصيل ، انظر د. عبد العزيز نوار ، ص ٣٢٨ ــ ٣٢٩ . وعز الدين ص ٤٥ .

تحسين علاقته مع الميجر تيلر Taylor خلف ريتش ، ووافقه على أن غرض الروس من استخدام البواخر هو التسلط على الشرق الادنى والعراق ، وأن تعزيز مقاومة الانكليز للخطر الروسي يقتضي استخدام نهر الفرات كطريق للملاحة المنتظمة عبر العراق ، لربط الخليج العربي بالبحر المتوسط ، تمهيدا لربط الهند والشرق الاقصى بأوربة • ولم يتمكن داود من تنفيذ هذا المشروع بسبب اصطدامه بالسلطان محمود الثاني الذي طلب منه أن يستبدل الجنود النظامية بالجنود الانكشارية ، فامتثل داود ، وحل الفرق الانكشارية دون عنف ، وسجل جنودها كقوات نظامية رسمية للسلطان • واستدعي الضابط الفرنسي ديڤو Deveau لتدريبهم ، وأقيمت المصانع لسدّ احتياجاتهم من الثياب والمعدات • ولكن السلطان لم ينظر بارتياح الى هذا الجيش الحديث الذي تشكل في بغداد وفق رغائبه ، لأنه زاد قوة الباشا ، ودعم استقلاله ، ولذا كان لزاما القيام بعمل سريع اذا أريد ألا تحذو الولايات العراقية حذو مصر محمد علي[1] • وطلب السلطان من داود امداده بالجنود لقتال الروس بعد معركة ناڤارينو (١٨٢٧) ، ثم تذرع برفض داود دفع المبالغ المطلوبة كمساهمة منه في الحرب ، فقرر عزله ، وعهد الى علي رضا باشا والي حلب بهذه المهمة ، نظرا لاطلاعه على أحوال العراق بفضل القوافل التجارية المارة بحلب في ذهابها وايابها بين فارس والعراق والشام •

وغادر علي رضا حلب في أوائل شباط ١٨٣١ ومرّ بالموصل ، وبينما كان في طريقه الى بغداد كانت المدينة تئن تحت وطأة الطاعون الذي تفشى فيها بسرعة ، وحصد الالوف من سكانها ، اضافة الى غرق معظم أرجائها بسبب فيضان الدجلة الذي دمّر خلال يومين حوالي سبعة آلاف منزل على سكانها من المرضى والاصحاء[2] ، وانتشرت المجاعة وعمت الفوضى • ومع هذه الكوارث التي أضعفت مقاومة داود ، صمم من بقي من أهالي بغداد على الوقوف بجانب داود ، اذا اعتزم علي رضا احتلال المدينة المحاصرة عنوة • ولكن الوالي الجديد تصرف

---

(١) Holt, op. cit., P. 249 ، وايضا لونكريك ، ص ٢٦٢ •
(٢) انظر عز الدين ، المصدر السابق ، ص ٤٨ ــ ٤٩ •

بحكمة ، فأعلن أن العفو سيشمل جميع المدافعين عن المدينة[1] . وبعد وقت قصير دخلت قواته بغداد ، واستسلمت المدينة (ايلول ١٨٣١) ، كما استسلم داود لعلي رضا في معسكره خارج السور ، فعفا عنه وأكرمه لعلمه وسنّه ، وأرسله معززا الى الآستانة ، حيث عفا عنه السلطان ، وقلّده عدة مناصب رفيعة كان آخرها مشيخة الحرم النبوي في المدينة المنورة ، ومات هناك ، ودفن في البقيع (١٨٥٠) .

وما أن دخل علي رضا بغداد حتى دبر مقتلة للمماليك ، شبيهة بتلك التي دبرها محمد علي لمماليك مصر (١٨١١) ؛ فقد دعي المماليك لسماع قراءة فرمان التعيين رسميا ، ونص على حكم « بغداد وحلب وديار بكر والموصل » . وحين غادر المكان ، كإشارة متفق عليها ، انهال الرصاص على المماليك من كل صوب ، فقضى عليهم ، وصدر الامر بقتل من كان منهم في المدينة وخارجها ، ولم تقم للمماليك بعدها قائمة ، وتوطدت أقدام الحكم العثماني هناك . واعتنى داود بعمارة بغداد ، وبنى الجوامع وأنشأ المدارس والمعاهد ، وأنفق على المدرسين ، واحتفر الانهار ، وزاد موارد البلاد ، وغرس الحدائق والبساتين[2] .

باشر علي رضا اعادة الحكم العثماني المباشر الى جنوب العراق الذي كانت تسيطر عليه بالفعل عشائر عربية قوية ، أهمها عشائر كعب في عربستان التي كانت موزعة الولاء بين فارس وبغداد ، وعملت للاستقلال عنهما ما أمكن ، وانشغلت بالنشاط التجاري البحري حتى صار ميناء المحمرة ينافس البصرة كما قلنا ، اضافة الى عشائر المنتفق الموالية لبغداد . وكان وجود هاتين العشيرتين يحفظ التوازن في المنطقة التي تميزت بضعف السلطة المركزية ، فارسية كانت أو عثمانية . فقد استخدمت قوات كعب لخضد شوكة المنتفق ، كما استخدمت المنتفق لكبح جماح كعب كلما اتجهت غربا . وفي مسعى الادارة العثمانية في بغداد لاعادة سيادتها

---

(١) انظر وصف ذلك في لونكريك ص ٢٦٩ ــ ٢٧٣ .
(٢) انظر عز الدين ، المصدر السابق ، ص ٣٨ .

على كعب ، طلب علي رضا من شيخها الولاء للسلطان العثماني ، فأجاب الشيخ مهددا أنه سيطلب معونة حاكم شوشتر الفارسي ، لو ضغط عليه الوالي • وأرجأ الوالي اتخاذ اجراءات عنيفة ضد الشيخ حتى عام ۱۸۳۷ ، حين تمكن من الاستيلاء على المحمرة بعد معركة ضد عشائر كعب • وبما أن المحمرة كانت تدخل في نطاق التنازع الدولي بين بريطانية وفرنسة ، فقد حرّضت فرنسة الباشا للاستيلاء على المحمرة قبل أن يسبقه اليها الانكليز ، لئلا تلقى نفس مصير الامارات العربية في الخليج العربي ، حين فرضت عليها بريطانية معاهدة السلام الدائمة ، كخطوة لفرض السيطرة الكاملة عليها • وبرغم أن حملة الباشا على عشائر وسط العراق وجنوبه لم تستمر الا وقتا قصيرا ، ولكن ترتب عليها أن فارس تنبهت الى أهمية توطيد دعائم النفوذ الفارسي في تلك المنطقة المتاخمة للعثمانيين ، ولذا سينشب نزاع طويل حول كعب والمحمرة بين الدولتين فيما بعد •

والتفت علي رضا الى الموصل للقضاء على حكم آل الجليلي الذين حكموا قرابة القرن ، وكانوا قد صمدوا مع أهل الموصل أمام جيش نادر شاه الفارسي (۱۷٤۷) وأرغموه على فك الحصار عن المدينة ، فكافأتهم الدولة بأن ثبتت في الحكم زعيمهم حسن باشا الجليلي • ولكن ضعف حكمهم فيما بعد ، أطمع فيهم العشائر الكردية ، وأدى الى تقلص حدود ولايتهم لحساب المماليك في بغداد • وفي العشرينات واجه آل الجليلي مصاعب حين ثار أهل الموصل بزعامة منافسيهم آل العمري ضد الوالي يحيى الجليلي ، وطردوه لاحتكاره تجارة الغلال ، فعينت الآستانة مكانه قاسم العمري • وبمعونة العشائر العربية استرجع يحيى مدينة الموصل ، وتوطد مركزه حين تحالف مع صفوق شيخ عشائر شمر الجربا ، ونجح علي رضا في ضرب عشائر شمر الجربا بعشائر عنزة القوية • وارسل القائد العثماني محمد اينجه بيرقدار للقضاء على حكم آل الجليلي في الموصل ، فتم له ذلك عام ۱۸۳٦ ، وحكم المدينة لتسع سنين أدخل خلالها مختلف الاصلاحات في المدينة •

وحاول علي رضا اعادة الحكم العثماني المباشر الى العتبات المقدسة في كربلاء والنجف ، فلم يحقق نجاحا يذكر • وحين انحسر خطر محمد على عن الشام ،

صمم نجيب باشا (١٨٤٢ ــ ١٨٤٧) خلف علي رضا ، على اخضاع كربلاء ، وتحرزاً من نشوب أزمة مع فارس ، أبلغ نواياه مقدما الى الوكيل الفارسي في كربلاء ، والقنصلين البريطاني والفرنسي في بغداد • وفي أواسط كانون الثاني ١٨٤٣ دخلت قوات نجيب باشا المدينة عنوة ، برغم احتجاج فارس ، وأعلن أهل النجف طاعتهم لئلا يصيبهم ما أصاب كربلاء ، ووضعت فيها حامية عثمانية لتحول دون اصطدام الفئتين المتنافستين فيها • ولكن ما أن رحلت الحامية حتى عادت الفتن والفوضى الى ما كانت عليه(١) •

والتفت علي رضا لتصفية امارات الكردية واعادة الحكم العثماني المباشر الى كردستان • ويرجح أن الاكراد من الاقوام الآرية ، توطنوا في كردستان قادمين من آسية عبر فارس ، وغالبيتهم العظمى سنيون ، وقد لجأوا الى السلطان عندما تعرضوا للبطش من جانب الصفويين الشيعة أوائل القرن السادس عشر • وحين وقعت كردستان في قبضة السلطان ، اعترف بالامارات والعصبيات الكردية الحاكمة هناك • وبينما ساعدت طبيعة البلاد الجبلية على ظهور امارات متناحرة، كل منها تحاول السيطرة على الاخرى ، برزت الامارة البابانية في القرن الثامن عشر كأقوى الامارات ، ولكن سرعان ما ابتليت بالصراع الاسري داخلها ، فضعفت ، وأخذت مكانها الامارة الصورانية منذ القرن التاسع عشر وحكمها زعيم قوي هو محمد باشا المعروف باسم (ميركور) أو البك الاعور ، لعلة في عينه •.وكان داود قد استخدمه حين تولى حكم راوندوز (١٨٢٦) لضرب البابانيين ومقاومة التدخل الفارسي هناك • ورجحت كفة ميركور حتى دان له معظم كردستان ، ولم يبق أمامه سوى الامارة البابانية التي شعر أميرها سليمان بالخطر ، فاستنجد بفارس كالعادة ، فسارعت لنجدته ، وشددت معه الضغط على ميركور الذي طلب معونة والي بغداد فوصلته • كذلك وقف الانكليز الى جانب والي بغداد كجزء من سياستهم المساندة للعثمانيين في وقفتهم اليائسة أمام محمد علي ، وتوقف القتال •

---

(١) للمزيد عن ذلك ، انظر نوار ، المصدر نفسه ، ص ٩٣ ــ ٩٦ •

وبينما وجه العثمانيون قواهم ضد ميركور خشية توسع سلطتــه ، سارعت فارس لتحريضه على اعــلان الولاء للشاه ، لينقذ نفسه مــن الخطر المحدق بــه • ولكن ميركور رفض الولاء للفرس الشيعــة ، وأمــل في عفو السلطــان اذا ما استسلم ، فعلا الى رشيد باشا ، ولسوء طالعه مات رشيد باشا فأعدمته الآستانة[1] •

أما الامارة البهدينانية ، فهي برغم قيامها قبل الفتح العثماني للعراق ، الا أنها لم تشكل امارة ذات نفوذ ، لأن الامارتين البابانيــة والصورانية كانتا تتقاسمــان السيطرة في كردستان خــلال معظم الفترة بين القرن السادس عشر والقرن التاسع عشر • وكانت نهاية الامارة البهدينانية عام ١٨٤٢ على يد محمد اينجه بيرقدار والي الموصــل • ولم تلبث أن سقطت بعــد ذلك الامارة البوتانية بزعامة آل بدرخان في جزيرة ابن عمر ، وامارة حكاري ، ولم يبق سوى الامارة البابانية بزعامة سليمــان الذي عصف بأخويه بعد عزل داود ، وسيطر على السليمانية مقر الامارة • واعتزم علي رضا القضاء عليــه لعلاقته الوثيقة بفارس ، ولكن انشغاله باخضاع المتمردين على حكمــه ، مدّ في عمر الامارة البابانيــة وخاصة بعد القضــاء على ميركور • بيــد أن عبدي باشا والي بغــداد أطاح بتلك الامارة (١٨٥٠) ، وذلك بعــد أن تخلت فارس عنها نتيجــة اسقاط كــل ادعاءاتها في حاضرتها السليمانيــة بموجب معاهدة ارضروم الثانية (١٨٤٩) •

أما القبائل الكردية المعروفة باليزيدية ، فتتوزع في منطقتي شيخان وسنجار ، وقد صمدوا في وجه التجريدات العثمانيــة الموجهة ضدهم من بغــداد والموصل ، والراميــة الى وقف تعدياتهم على طرق القوافل بين العراق والشام والاناضول[2] • وقــد خضعت ديار اليزيدية الى ميركور الذي دمّر قراهم وفتك بالالوف منهم • ولكن العشائر اليزيديــة ظلت بعــد مصرع ميركور ، شوكــة في جنب العثمانيين حتى عام ١٨٣٨ حين أنزل بها والي الموصــل محمد اينجه بيرقدار ضربة موجعة •

---

(١) انظر لونكريك ص ٢٨٨ — ٢٨٩ •
(٢) لمزيد من التفاصيل عن اليزيدية ، انظر نوار ، المصدر السابق ، ص ١٢٤ — ١٣٤ •
وانظر أيضا عباس العزاوي « تاريخ اليزيدية واصل عقيدتهم » بغداد ١٩٣٥ •

وتابع ولاة الموصل حملاتهم لاخضاع اليزيديين للتنظيمات العثمانية وخاصة التجنيد ، ولكن هذه الحملات لم تنجح الا في عهد مدحت باشا (١٨٦٩) الذي استوفى ما عليهم من أموال الحكومة ، وطبق عليهم نظام القرعة العسكرية ووضع حامية في تل عفر •

وكانت تصفية الامارات والعصبيات الكردية ايذانا بانحسار التدخل الفارسي في شؤون العراق ، بكل ما انطوى عليه من تصعيد نزاعاته الى مستوى دولي ، بدل أن تعالج محليا كالسابق ، اضافة الى أنه حرم النشاط السياسي الاجنبي من مجالات كان يدأب على استغلالها ازاء طوائف العراق وعصبياته ، لتكون أدوات يستعملها في الوقت المناسب •

حقيقة ، انتشر الامن والسكينة في بلاد كردستان ، وخفت حدة الصراع الى أدنى حد ؛ ولكن السيطرة العثمانية أدت ، تدريجيا ، الى اجتماع كلمة الاكراد للتخلص من الحكم العثماني المباشر ، لأنه لم يسفر عن تغيير جذري في أحوال البلاد الاقتصادية والسياسية • وقد حدث ذلك في وقت تصاعدت فيه الحركة القومية العربية في بلاد الشام • أما مشكلة العشائر العربية ، فقد ظلت تشغل بال ولاة العراق الذين قاموا بشن حملات مستمرة ضدها ، بقصد تدمير قوتها أو تأديبها وقمع اضطرابها وجباية الاموال والضرائب منها • وقد عرف نجيب باشا ونامق باشا باتباع سياسة الشدة والعنف دون نتيجة ايجابية تذكر[1] • بينما عرف محمد رشيد باشا الكوزلكي أي صاحب النظارات ، بسياسة حكيمة تهدف الى اصلاح أحوال العشائر بالتدريج ، وتوجيهها نحو معيشة مستقرة بدل معيشتها المتقلبة المضطربة •

أما خطوط المواصلات عبر العراق ، فقد اشتد التنافس الدولي حولها ؛ ذلك أن انكلترة سارعت بعد الحملة الفرنسية على مصر ، الى مقاومة المشاريع

---

(١) انظر حول ذلك لونكريك ، المصدر السابق ص ٢٩٤ و ٢٩٥ •

الفرنسية الرامية للوصول الى الهند ، واضطرت لاستخدام طريق العراق للوصول الى أوربة ، كبديل موقت لطريق مصر • وقد أوعزت الى شركة الهند الشرقية لاستخدام السفن البخارية (البواخر) لنقل البريد والبضائع الى البحر المتوسط ومنه في اتجاه واحد من طريقين ، يمر أحدهما بمصر فالبحر الاحمر ، ويمر الآخر بنهر الفرات فالخليج العربي ، وذلك للوصول الى الممتلكات البريطانية في الهند بكلفة أقل وسرعة أكبر ، برغم ما كان يقتضيه طريق البحر الاحمر من نقل بري عبر مصر ، وطريق الخليج العربي من نقل عبر بلاد الشام • ولتحقيق التفوق التجاري البريطاني ، وابعاد أي نفوذ سياسي واقتصادي أوربي هناك ، نشطت الجهود البريطانية لمعرفة أفضل الطريقين ، وعهد الى الكابتن تشسني Chesney بدراسة الطريق المصري والفراتي دراسة مقارنة • وبعد أن اطلع تشسني على مهمة زملائه في مصر ، عاد الى وادي الرافدين وأجرى المسح الاستطلاعي لطريق الفرات من أعلاه الى عانة ، ومنها الى الفالوجة فبغداد فالبصرة ، واستغرق المسح سنة كاملة (حزيران ١٨٣٠ ــ حزيران ١٨٣١)(١) •

وفي لندن تشكلت لجنة للمفاضلة بين الطريقين المصري والفراتي ، وللحيلولة دون الزحف الروسي نحو الرافدين والخليج العربي • وأشار تشسني الى هذا الهدف بقوله : « ان أهمية الفرات في المواصلات السريعة تتضاءل بالقياس الى أهميته كحاجز في وجه روسية ، حاجز يستند الى تجارة نامية مفيدة لنا ولمستعمراتنا الشرقية وللبلاد العربية »(٢) • وقامت بعثة تشسني بمهمتها منذ عام ١٨٣٥ واستغرقت ثلاث سنوات ، واستعانت بباخرتين نقلت أجزاؤهما بحرا الى ميناء السويدية على الساحل السوري ، ثم ركبت وأنزلت الباخرتان (دجلة والفرات) في مسكنة على الفرات في منتصف آذار ١٨٣٦ ، ولكن غرقت الباخرة (دجلة) بفعل اعصار عاصف بعد مغادرتها دير الزور ، وتابعت (الفرات) سيرها الى البصرة ،

---

(١) Holt, op. cit., PP. 252-3.

(٢) انظر د. زكي صالح « مجمل تاريخ العراق الدولي في العهد العثماني » ، القاهرة ١٩٦٦ ، ص٤٧ •

واتصلت البعثة بالعشيرتين الكبيرتين المسيطرتين على الجزيرة العراقية والبادية الشامية وهما شمر الجربا والعنزة ، وعقد تشسني اتفاقية مع عشيرة عنزة ضمنت للانكليز التدخل في أمور الصحراء الشامية ، ومساندة عنزة لهم ضد أي هجوم على العراق[1] . وبينما كان الفرمان السلطاني لعام ١٨٣٤ يمنح الانكليز حق إبحار بواخرهم في نهر الفرات ، تجاوز الانكليز حقهم وأبحرت الباخرة في نهر الدجلة ، وأغضت السلطات العثمانية بسبب حاجتها لدعم بريطانية ضد محمد علي آنذاك . واعترضت فرنسة لان هذا التجاوز حقق لبريطانية مكاسب سياسية واقتصادية هامة أضيفت الى مكاسبها التي خرجت بها من الازمة السورية . فبالاضافة الى احتكارها لمشاريع الملاحة البخارية في العراق ، تحققت لها امكانات التصدي للنفوذ الروسي الزاحف الى الشرق الاوسط والهند . ولتفادي المشاريع الانكليزية في العراق ، حاول نجيب باشا والي بغداد تسيير البواخر في مياه الرافدين ، فنشبت أزمة مع بريطانية ، سويت عام ١٨٤٦ لصالح البواخر البريطانية التي منحت حرية القيام بالاعمال التجارية في نهري الفرات والدجلة . وفي عهد محمد رشيد باشا الكوزلكني ، الذي استلم ولاية بغداد عام ١٨٥٣ بعد عزل نامق باشا ، وحكم خمس سنوات تميزت بالحكم النزيه الصارم الحر ، تأسست شركة ملاحة بخارية وطنية ، توزع رأسمالها مناصفة بين الحكومة والاهالي (١٨٥٥) ، وكلفت شركة بلجيكية ببناء باخرتين (بغداد) و (البصرة) لنقل المسافرين والبضائع في دجلة والفرات ، وباشرتا العمل عام ١٨٦١ . وبنيت ثلاث بواخر جديدة في عهد خلفه نامق باشا الذي عاد ثانية لولاية بغداد عام ١٨٦١ وحكم سبع سنوات . وتأسست شركة لينتش Lynch في لندن عام ١٨٦٠ ، وحصلت على حق استخدام بواخرها في النهرين عام ١٨٦١ وباشرت عملها في العام التالي ، ما بين بغداد والبصرة ، وترك للسفن الشراعية الوطنية والانكليزية حرية النقل بين الموصل وبغداد . وحاول العثمانيون مقاومة الاحتكار البريطاني للملاحة في العراق ، ولكن الانكليز استندوا الى تساهل علي رضا والباب العالي والفرمانات

---

(١) نوار ، المصدر السابق ، ص ٢٥٨ .

الصادرة عنه ، ليجعلوا منها حقوقا ثابتة • وهيمنت شركة لينتش التي عرفت باسم : « شركة الملاحة التجارية في دجلة والفرات » ، على معظم النقل النهري الى ما بعد الحرب العالمية الاولى[1] •

وبرزت المنافسة الدولية أيضا على مد" السكك الحديدية عبر العراق ، وقد ظهرت أهمية استخدامها على أثر تدخل فارس في شؤون افغانستان وتهديد النفوذ البريطاني في الهند ، وما تلاه من تخلّي شاه فارس عن مشاريعه التوسعية وسط آسية بعد استيلاء القوات البريطانية على الاهواز بطريق نهر كارون • ونظر الانكليز بعد نشوب ثورة السيبوي في الهند (١٨٥٧) الى طريق العراق كبديل عن المشروع الفرنسي لشق قناة السويس ، ولكن بالمرستون لم يؤيد مد" سكة حديد عبر العراق ، وانما أعلن تأييده لمد" خط برقي (تلغرافي) على طول نهر الفرات • واتفقت الحكومة العثمانية مع الانكليز (١٨٦٣) على مد" هذا الخط من الآستانة عبر آسية الصغرى الى بغداد ، ويتولى الانكليز مد"ه من بغداد الى الهند • ونفذ المشروع • وكانت خطوط المواصلات البرقية هي الوسيلة الوحيدة لربط الشرق بالغرب عبر العراق[2] •

لقد ساعدت المصالح البريطانية سالفة الذكر على تقوية النفوذ البريطاني في العراق ، واستغل الانكليز تناحر العصبيات هناك وظروف التوسع المصري في الثلاثينات ، والضغط الفارسي المتواصل على العراق ، للتدخل في أمور البلاد• كما عملوا لدعم المبشرين البروتستانت ضد المبشرين الكاثوليك المدعومين من فرنسة • وبرغم الضغط البريطاني المستمر على والي بغداد نجيب باشا ونامق باشا اللذين عارضا بنشاط القنصل الانكليزي راولنسون Rawlinson في بغداد ، فقد استمر حكم الاول ست سنوات (١٨٤٢-١٨٤٧) والثاني أكثر من سبع سنوات• وكانت المقيمية البريطانية في بغداد ، والوكالتان في البصرة والموصل ، مراكز النشاط

(١) آيرلند ، المصدر السابق ، ص ٢٤ •
(٢) انظر تفاصيل اخرى عن مشاريع السكك الحديدية والخطوط البرقية في نوار ، المصدر السابق ، ص ٢٧٦ - ٢٨٠ •

البريطاني في العراق ، ولا سيما من مقيمية بغداد على الدجلة التي كانت ترسو أمامها باخرة ترفع العلم البريطاني ، وتطلق مدافعها لتحية القنصل ، وعليها بحارة من السيبوي (الحرس الهنود) ، وفيها طبيب خاص ، يتولى أيضا معالجة كبراء البلاد ، مما يمنح المقيمية مزايا واسعة[1] • وبينما ركزت مقيمية الموصل اهتمامها على التنقيب عن الآثار ، والنواحي الدينية والاقتصادية ، شغلت مقيمية البصرة بالنواحي الاقتصادية والسياسية ، نظرا لصلتها المباشرة بالهند ، وباعتبارها المحطة النهائية في مشاريع خطوط المواصلات العالمية عبر العراق • وكانت الجالية الانكليزية والجالية الهندية ناشطتين في العراق لخدمة النفوذ البريطاني • وتسابق قناصل انكلترة وفرنسة على اجتذاب طوائف العراق لنشر نفوذهم السياسي بواسطتهم • وبينما عني الانكليز بالمسألة الكردية والعشائر العربية ، نشط الفرنسيون في الميدان الديني لنشر الكاثوليكية ، ومن خلالها نفوذهم السياسي • وكان مجال عملهم النساطرة والكلدان والسريان واليعاقبة • ولكن هذه الجهود التبشيرية اصطدمت بمقاومة المسلمين والمسيحيين في العراق • وحين غزت الارساليات البروتستانتية العراق منذ نهاية حكم المماليك ، قاومها الناس خشية أن تكون مقدمة لاحتلال ديار الاسلام وتحويل المسلمين الى المسيحية • وأدى نشاط مرسل أمريكي لدى النساطرة في الجبال الكردية الى صدام مع الاكراد ، ووقوع أحداث داميه كان سببها التدخل الأوربي في تلك الجهات[2] • كذلك كان اليهود والصابئة موضع تنافس شديد بين القناصل الانكليز والفرنسيين • وسعى اليهود لوضع أنفسهم تحت حماية دولة اوربية سعيا وراء الامتيازات التي تساعدهم على الاثراء السريع • ويبدو أن التبشير بين اليهود حقق بعض النجاح ، أما لدى الصابئة فلم يحرز نجاحا يذكر •

وبقي النزاع محتدما على العراق بين فارس والسلطنة العثمانية ، منذ أن

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٩٤ •

(٢) انظر حول نشاط المرسلين الانكليز والامريكان وعواقبه في العراق ، نوار ، ص ٣٠٧ — ٣١٤ •

استولى الصفويون على العراق عام ١٥٠٨ ، وكان يساعـد الفرس على غزو العراق والتدخـل في شؤونه أن نصف سكانـه تقريبا من الشيعـة ، بينما كان يساعـد العثمانيين على طرد الفرس من العراق أن نصف سكانه الثاني من السنّة • وكانت أهم مناطـق الاحتكاك بين الدولتـين في السليمانية موطـن الامارة البابانيـة ، وعربستان موطـن امارة كعب العربيـة الشيعيـة • وقد مرّ بنـا أن العلاقـات العثمانيـة ـ الفارسية قد توترت حول عربستـان وعشائر كعب ، وخاصة بعـد تسوية المسألة المصرية (١٨٤٠) وتعيين نجيب باشا لولاية بغداد الـذي أصرّ على فرض السلطة العثمانيـة في كل أجزاء ولايته • وحين أيـد متسلم البصرة مطالب ثامر شيخ كعب في حكم المحمرة ، طالبت فارس بعربستان حتى القرنـة ، واستعدت لمحاربـة العثمانيين ، وهـددت باحتلال البحريـن والكويت • وردت السلطـات العثمانيـة بحشد قواتها على الحـدود ، ودعت أنصارها مـن المنتفـق وبني لام والبابانيين لمحاربة فارس • وسارعت روسية وبريطانيـة للضغط على الدولتـين ، وقبول وساطتهما ، وتشكيـل لجنة رباعية من الفرس والترك والروس والانكليز لتخطيط الحدود بين الدولتين ، وعقـدت معاهدة ارضروم الثانية (١٨٤٧) ونصت على أن تتنازل فارس عن أيـة مطالب في السليمانيـة ، مقابل تنازل السلطان عـن المحمرة وجزيرة الخضر (عبادان) • وتفرض الضرائب على التجـار الفرس بنسبة ٤ ٪ ، وتؤلف لجنة لتخطيط الحدود • وباشرت اللجنة عملها ثم توقفت أثناء حرب القرم التي وقفت فيها بريطانية الى جانب السلطنة ضـد روسية ، وانعكس الموقف على صعيد العراق ، فضغطت بريطانية على الشاه لئلا ينحاز الى الروس • وأرسلت بارجتين الى شط العرب ، كدليـل على دعم العثمانيين في جنوب العراق • وبعـد حرب القرم اتهمت بريطانية شاه فارس بالميـل الى الروس ، وبارسال جيشه ضـد الامير الافغاني المتحالف مـع بريطانية ، وأرسلت حمـلة الى عربستان عاونتهـا السلطات العثمانيـة في العراق ، فهزم الفرس ، ووقعوا معاهـدة باريس (١٨٥٦) مع بريطانيـة • واضطرب نفوذ فارس في عربستان بعـد احتلال المحمرة ، وتابعت لجنـة الحدود عملها حتى عام ١٨٦٥ ووافقت الدولتـان الاسلاميتان على خريطة الحـدود ، وبرغـم احترام الوضـع الارضي الراهـن عموما ، فقـد استمرت

الخلافات على الحدود بين الدولتين ، حتى عهد مدحت باشا في العراق الذي شهد أول زيارة رسمية لشاه قاجاري للعراق ، وهو ناصر الدين شاه[1] .

اصلاحات مدحت باشا :

استلم مدحت باشا ولاية بغداد في نهاية نيسان ١٨٦٩ خلفا للوالي تقي الدين باشا الذي حكم عدة شهور بعد نامق باشا . وقد نجح مدحت في جميع المهام الموكلة اليه من قبل ، وأرسل الى ولاية بغداد لاصلاح أحوالها .

ويلاحظ أنه طرأ كثير من التعديلات على وضع الولايات الاربع في العراق حتى عام ١٨٦٨ ؛ فقد تحولت البصرة الى متسلمية تابعة لبغداد منذ منتصف القرن الثامن عشر ، وتضاءلت ولاية الموصل حتى اقتصرت على مدينة الموصل ومنطقة صغيرة حولها ، أما ولاية شهرزور فقد أصبحت غير واضحة المعالم ، وتحت اشراف والي بغداد . وفي منتصف القرن التاسع عشر بعثت ولاية البصرة مجددا ، ولكن بقيت أمورها المالية والعسكرية تابعة لولاية بغداد (١٨٦٣) . ولعل ضعف البصرة عن مجابهة عشائر المنتفق وتقاعسها عن نشر النفوذ العثماني في شرق الجزيرة والخليج ، مما خفض مرتبتها الى المتصرفية ، وأدخل مدحت الترتيبات الادارية الجديدة الى العراق ، بحيث انتظمت البلاد ولايتان هما بغداد وشملت ولايتي بغداد والموصل القديمتين . والموصل وشملت ولايتي الموصل وشهرزور القديمتين . وفي عهد مدحت كانت البصرة تضم المنتفق والعمارة . أما متصرفية نجد فكانت تضم الكويت والاحساء . وحين استرجعت البصرة مركزها كولاية عام ١٨٨٤ أصبحت نجد والاحساء من متصرفياتها[2] . وقد جمع مدحت في شخصه صلاحيات الوالي والمشير بسبب الظروف التي واجهته . وكان يعاونه طائفة من الموظفين أبرزهم معاون الوالي (الكتخدا سابقا)،

---

(١) نوار ، المصدر نفسه ، ص ٣٤٧ .
(٢) انظر عن التقسيمات الادارية في العراق ، لونكريك ، ص ٣١٨ ، ونوار ، ص ٣٥٧ ـ ٣٥٨ .

والمكتوبجي المكلف بتحرير المكاتبات وحفظها ، والدفتردار المسؤول عن الماليـة ، ويعينه الباب العالي • ومدير الامور الاجنبيـة ، وعلاقته بالقناصـل ، وآلاي بك لقيادة قـوات الضبطية •

واقتضى قانون الولايـات لعام ١٨٦٤ تدريب الاهـالي على الحكم المحـلي ، على أن تبقى السلطة العليـا للحكومة المركزيـة ، ولـذا تألف المجلس الكبـير (مجلس الولاية) برياسة الوالي ، ويجتمـع أعضاؤه المنتخبون أربعين يومـا في السنة ، ومهمته النظر في تنمية الاقتصـاد الزراعي التجاري ، ومناقشـة مقترحات الوالي بشأن الولاية ، والعناية بالطرق والمنشـآت العامة والضرائب ومخالفـات الموظفين • أما القضاء فكان مستقلا عن السلطة التنفيذيـة ، ويعتبر ديوان التمييز أهم هيئة قضائيـة في الولاية ، وهـو مؤلف مـن رئيس وستة أعضاء ، ثلاثـة مسلمون وثلاثـة مسيحيون • وله النظر في دعاوى الاموال والامـلاك والجرائم التي فصلت فيها محاكم الالوية واستؤنفت • ولا ينظر في الامور الشرعية الاسلامية لأنها مـن اختصاص المحاكم الشرعيـة ، ولا في الامور الدينيـة المسيحية لأنهـا تنظر في الهيئات المسيحية المختصـة ، ولا قضايا التجارة التي تنظر فيها محكمـة التجـارة • ولكن نجاح النظام الاداري والقضـاء كان يقتضي وجود وال حـازم نزيه كمدحت الذي لم يبق في منصبـه سوى ثلاث سنـوات ، تميزت بالثـورات الداخليـة والمشكلات الخارجيـة ، ومع ذلك فقد تسنى له أن ينجز من المنشآت والاعمال ما لم يتسن مثله لولاة العصر مجتمعين •

وبمـا أن للعشائر شأنـاً خطيراً في حيـاة العراق الاقتصادية والاجتماعيـة ، باعتبارهـا تشكل جماعات مستقلة ضمـن المجتمع العراقي وتحيط بمـدن العراق وقراه ، وتتحكم في طرق مواصلاتـه ومرافقه ، فقـد اعتبر مدحت أن مشـكلة العشـائر التي واجهتـه ، هي جزء مـن مشـكلة الاراضـي التي سعى قانـون الاراضـي لعـام ١٨٥٨ الى حلّهـا دون نجـاح يـذكر في العراق • فالعشـائر عارضـت ادخـال النظـم الاداريـة الجديـدة لأنهـا ترمي للسيطرة عليهـا ، وجمـع كامل الضرائب منهـا ، واقرارهـا في الاراضـي الزراعيـة ليسهـل على الحكومـة ضبطها وردعها • وبعد اخماد ثورة العشـائر في منطقة الحلة جنـوبي

بغـداد ، تحقق مدحت أن حملات جباية الضرائب مـن العشائر واستعمال وسائل القمـع ضدها ليست كافية ولا مجدية ؛ ولذا سعى الى توطـين العشائر وكسب دعمها وربطها بالحكومـة ، عن طريق تطبيق قانون الاراضي في ولايته الواسعـة الممتدة بين بغداد والبصرة ، والقضاء على الفـوضى في ملكية الاراضي ، تمهيـدا لادخال التحسينات عليها ومضاعفة مواردها وعائداتهـا(١) •

ومعلوم أن الفوضى ترجع الى عوامل متعددة قديمة وحديثة ؛ منهـا تمسك أحفـاد أصحاب الاقطاعات القديمة بوثائق تملكهم للاراضي الاميرية ، والتصرف بها بيعا وشراء منذ أجيـال من غير علم الحكومة أو اعترافها • واستيـلاء زعمـاء العشائر ومشايخ القرى ، والموظفين الرسميين على الاراضي الاميرية (الحكومية) وتحويلها الى أملاك شخصيـة بحيل كثـيرة ملتوية ، وهبات الاراضي مـن جانب الولاة لأصفيائهم وأقاربهم • وحين فشلت محاولات الـدولة في استرداد هـذه الاراضي ، شجع ذلك أنواع التلاعب فيمـا يتعلق بملكيـة الاراضي • وبرغم أن الدولة بقيت المالك الحقيقي ، اذ كان لها (رقبة) الاراضي الاميرية أي ملكيتهـا الحقيقيـة ، فان حقوق تصـرف الافراد بها تأكـدت بسندات تسجيل الاراضـي (الطابو)(١) ، وتفويض حامليها حق التصرف بالاراضي المسجلة فيها •

وقـد أراد مدحت معالجة مشكلة توطين العشـائر ، باستغـلال الاراضي ، وخلق ظروف مواتية للعشائر ، وتوجيهها نحو الانتاج الزراعي ، فتستبدل القوانين المدنيـة والعلاقات الزراعية بالعرف العشائري ، وتحيا حياة مستقرة بدل التنقـل والبـداوة • ولتحقيق هذه الغايـة ، طرح مدحت مساحات ضيقة أو واسعة مـن الاراضي الاميرية لتفويضها الى الراغبين فيها بأقساط ضئيلة تدفع دوريـا • ومنح

---

(٢) انظر آيرلند ، المرجع السابق ، ص ٥٨ • وانظر ايضا Holt, op. cit., p. 250

(١) الطابو هو الرسم الحكومي الذي يستوفى مقدما في مقابل منح حق التصرف بالارض ، على أساس أن الدولـة هي المالكة الحقيقيـة للارض • وقد عرفت عمليـة تسجيل الاراضي (الطابو) في العراق باسم (تفويض) أي تفويض دافع (الطابو) حق التصرف بالارض •

هـذا الحق بصفة خاصة لشيوخ العشائر على أرض تتسع لعشيرتهم ، وللقرويين الذين كروا نهرا أو غرسوا بستانا ، ولأصحاب الاقطاعات القديمة من التيماريين • واستمر العمل في سياسة تفويض الاراضي الاميريـة في عهد خلفاء مدحت ، وكانت عمليـة التفويض تتم عن طريق الاعلان والمزايدة طبقا لقانـون الاراضي ، ولكن مدحت تجاوز القانـون لصالح أهل البلاد من الفلاحين والزرّاع • من ذلك أنـه أمر بتفويض مساحات مـن الاراضي الاميريـة بأسعار زهيدة لا بالمزايـدة ، حتى يمكّن الفـلاح الفقير من تسجيل قطعة باسمه ، ولكيلا تقع الاراضي بيـد كبار الملاّك أصحاب الرساميل • وذلك ايمانا منـه بأن الفلاح هو القادر على اصـلاح الارض وزيـادة دخلها ، وبالتالي زيادة الاموال المربوطة عليها • وتصرّف مدحت أيضا في تطبيق القانـون ، فأعفى البساتين المغروسة حديثا من الضريبـة لمدة ست سنوات ، ولكن هذا لم يمنع من ظهور الاقطاع الواسع الذي قاومه مدحت إبـان حكمه ، ولكنه لم يستطـع أن يزيله • ولـذا أصبح كثير مـن شيوخ القبائـل وأصحاب الرساميل ملاكا لاقطاعات غنيـة واسعة ذات موارد طائلة(١) •

لقـد عني مدحت عناية خاصة باصـلاح طرق الري وشق القنـوات والترع واقامة السدود ، لزيـادة الاراضي القابلة للتفـويض ، ولتمكين الاهالي مـن استصلاحها ، واجتذاب العشائر اليها لزراعتها ، وبذلك يرتبط الشيوخ بأراضيهـم وزروعهـم ونخيلهم • وبالمقابل أصبح شيخ العشـيرة الذي كان بالامس معاديـا للحكومـة ، رهينة بيدها لئلا تقطع المياه عنه ، أو تصادر زرعه ورزقه • وباعتباره رئيسا للمجتمع الزراعي في منطقته ، فسوف يسهـل جباية أموال الـدولة منهم • ولكن نجاح الحكومة في توطين العشائر على هـذا النحو كان محـدودا • فمـن ناحية لقيت الحكومة صعوبات جمة في تسجيـل الاراضي لأن القائمـين على دائرة التسجيل (الطابو) لم يكونوا على مستوى لائق من الاهليـة والنزاهة • اضافـة الى أنه لم تتوفر لديهم خرائط المساحـة التي تحدد الملكيـات بوضوح ، فكانت قطعة الارض أحيانـا موضع نزاع بـين عدة أدعياء ، كـل منهم يقدم شهـوده

---

(١) انظر امثلة عن ذلك في لونكريك ، المصدر السابق ، ص ٣١٢ — ٣١٤ .

ومستنداته • ومن ناحيـة أخرى ارتاب معظم زعماء العشائر بمشروع الحكومـة وأدركوا أن الغايـة من توطينهـم هي تفكيك قواهـم وتجنيد أبنائهـم وترتيب الأموال عليهم • وكانت النتيجة أن سارع التجـار والمضاربون وبعض الزعمـاء العشائريين الى ابتياع سندات الطابو ، فأصبحـوا ملاكا كبارا خاضعـين لسلطان الحكومة • ومن أبرز أمثلة ذلك ما جرى لمشيخة عشائر المنتفق التي تعاون زعيمهـا ناصر السعدون مع مدحت ، وتعهد بتطبيـق قانون الولايات والغاء مشيخة المنتفق، وسلّم بتحويل الاراضي التي تنزل فيها عشائره (الديرة) الى متصرفية يتولى فيها منصب المتصرف ، وبنى بلدة الناصريـة لتكون عاصمة للمتصرفية ، وعني بعمرانها• وبقيت المتصرفيـة في آل السعـدون الى أن ألغيت ، بعد رحيـل مدحت بسنوات قليلة • ففي عـام ١٨٧٤ عين ناصر السعدون واليا على البصرة التي جعلت ولايـة مستقلة عـن بغداد ، مع ضم متصرفية المنتفق اليها ، وطبق قانون الاراضي عـلى (ديرة) المنتفق ، فحصل ناصر وآخرون من أسرتـه على معظم سندات الطابـو • وفي عـام ١٨٧٥ نقل ناصر من منصبه الى القدس ثم الى الآستانة بعـد عامين حيث استبقي هناك ، وعين عضوا في مجلس الشورى حتى وفاتـه عام ١٨٨٥ • والتفت عشائر المنتفق حول منصور شقيق ناصر عام ١٨٨٠ ، ورفعت لواء المعارضة ، ولكن الحكومة تغلبت عليـه بصعوبة ، عام ١٨٨٥ ، ثم نفي الى الآستانة حيث مات فيها بعـد سنة • وظل آل السعدون زعماء المنتفق مصدر ازعاج للدولة التي كانت تنفي المعارضين مثل سعدون ابن عم ناصر الذي توفي في منفاه بحلب (١٩١٠) أو تستخدم الموالين ، مثل عجمي بن سعدون الذي قرّبه الاتحاديون لتهديد حركة السيد طالب النقيب في البصرة[١] •

ويرجع الفضل الى مدحت في تزايد نفوذ الحكومة بين العديد من العشـائر ، ودفعها نحو الاستقرار والزراعة[٢] ، وذلك حين طبق نظام (الطـابو) ، وسهر على

(١) انظر د. عبد الكريم غرايبة ، مصدر سبق ذكره ، ص ٢١٩ ، وايضا آيرلند، ص ١٧٧ — ١٧٨ •

(٢) من مظاهر اعتماد العشائر على الحكومة ، أنه حين صار نهر الفرات يفيض اكثره من فرع الهندية وأقلّه من فرعه الآخر الذي يمر بالحلّة ، تخوفت العشائر على شطوطه من الجفاف ، فجلب المهندسون الفرنسيون لاصلاحه ، وتم ذلك عام ١٨٩١ •

تنظيم الري وتوزيعه بالعدل لعمران البلاد ، وأبطل الضرائب والرسوم التي كانت تفرضها الزعامات العشائرية ، ومنع المصادرات واكتفى بضريبة العشر على الحاصلات الزراعية • وكذلك سعى مدحت الى تنفيذ سياسة (العثمنة) بتأمين تجانس السكان في العراق ، واذابة الفوارق الفكرية بين العربي والكردي والسني والشيعي والعشائري والفلاح والمدني ، وذلك بادخال التعليم الحديث ، واقامة المدارس الرشدية المدنية والعسكرية ، وتأسيس مدرسة ابتدائية في مراكز الاقضية ، وأنشئت مدرسة ثانوية في بغداد (١٨٧٠) ، وتأخر انشاء مدرسة البنات الابتدائية حتى ١٨٩٨ ، كما أنشئت مدرسة صناعية لتخريج الفنيين اللازمين للصناعات النسيجية الجديدة وسواها ، كما عني المسيحيون واليهود بانشاء المدارس في المدن • وأنشأ مدحت مطبعة (الزوراء) عام ١٨٦٩ لنشر الجريدة الرسمية باللغتين العربية والتركية ، واذاعة أخبار الوالي وحركات العشائر وبلاغات الحكومة والاوضاع الاقتصادية ، اضافة الى نشر أسباب المعرفة •

وسجل التعليم بعد مدحت تطورا سريعا ؛ فبينما كانت نسبة المتعلمين عام ١٨٥٠ لا تزيد عن نصف في المائة من سكان المدن ، أصبحت عام ١٩٠٠ تتراوح بين ٥ ــ ١٠ في المائة[1] • وبعد الانقلاب الدستوري على السلطان عبد الحميد (١٩٠٨) تعطلت النسخة العربية ، واستمرت التركية في الصدور ، مع تعصّب للاتحاديين الذين وجد الزعماء العرب أنهم شرّ على المستقبل العربي من استبداد عبد الحميد نفسه ، ما داموا دعاة نشيطين لاستعباد وتتريك جميع عناصر السلطنة • كذلك عني مدحت ببغداد لتكون جديرة بمركزها كعاصمة لولاية واسعة هامة[2] ، وكرى الانهار وأقام السدود لتنظيم الري ، ولدرء عوادي الفيضان ، وأصلح النظام المالي والضريبي ، وأقا م المباني للادارة الحكومية ولمرافق التعليم والصناعة ، وأصلح المواصلات ، وربط بغداد بضاحيتها الكاظمية بواسطة الترامواي ، وزودها

---

(١) لونكريك ، ص ٣٢٢ .

(٢) انظر للاستزادة عن المرافق والمنشآت في هذا العهد ، محمد بهجة الاثري ، المصدر السابق ص ١٣ ــ ١٤ نقلا عن (أخبار بغداد) لمحمود شكري الالوسي .

بمشفى كبير من تبرعات الاهالي ، وحديقة عامة تعزف فيها موسيقى الجيش ، وأنشأ المحاجر الصحية ، وطبق قوانين التنظيمات في البصرة والموصل ، وأنشأ في كل منها ثكنة عسكرية ودارا للحكومة . كما ضبط الموازين وأصلح النقد وشجع الملاحة النهرية وفرض نظام التجنيد على الولاية . وكان لهذه المحدثات في الادارة والتعليم والقضاء والصحة والمواصلات البرية والنهرية والصناعة والتجارة آثار واضحة في الحياة العامة ، وفي رفع المستوى الثقافي للاهلين ، وكانت قد فتحت مراكز بريد بريطانية ـ هندية في بغداد والبصرة عام ١٨٦٨ ، وبعد عشر سنوات شاركت السلطنة في مؤتمر باريس (١٨٧٨) حيث دفعت اشتراكها في الاتفاقية البريدية ، ثم فتحت مراكز البريد العثمانية لسد حاجات العراق ، ومدت خطوط البرق (التلغراف) الى جميع حواضر العراق ، وتحسنت وسائل المواصلات ، وبدأ عدد من العربات يحل محل الدواب والجمال على بعض الطرق الرئيسية[1] .

وتولى حكم بغداد بعد مدحت وحتى الانقلاب الدستوري ، ستة عشر واليا خلال ستة وثلاثين عاما ، كان بينهم التركي والكريدي والالباني والعربي . وتوطد الامن والنظام بفضل وفرة الحاميات العسكرية وتحسن مستوياتها ، اضافة الى استخدام البرق والزوارق المسلحة في قمع حركات العشائر . وكان على السلطنة أن تحافظ على العراق ، وتحول دون وقوعه في الشباك البريطانية وخاصة بعد أن تطورت المصالح البريطانية في العراق على نحو شكل خطرا محققا على مستقبل البلاد . فلم يعد القنصل البريطاني يطلب مراعاة الامتيازات وردع الاعتداء على التجار والمبشرين ، وانما أصبح المقيم البريطاني في بغداد حاميا لشركات ملاحية كبرى ذات مكاسب مالية ضخمة وغلاقات تجارية واسعة ، وحارسا لخطوط برقية بذل مواطنوه الانكليز الاموال لمدها ، ومسؤولا عن عدد من المدارس والمشافي . وكانت المصالح البريطانية تزداد أهميه في العراق يوما عن يوم ، مما جعل بريطانية تتشبث بأرضه وتفكر في كيفية الاستحواذ

---

(١) لونكريك ، المصدر السابق ، ص.٣٢٤ ـ ٣٢٥ .

عليه ، وخاصة لقربه من الهند ، وضرورته للمواصلات الامبراطورية • وكان على العروبة في العراق أن تواجه المطامع البريطانية ، اضافة الى التيارات التركية الطورانية التي برزت بعد الانقلاب الدستوري (١٩٠٨) • وكان للعروبة في العراق جذور عميقة مستمدة من الاسلام والقرآن وكتب التراث العربي • فالحكام المماليك في بغداد تكلموا التركية الى جانب العربية ، وقربوا العلماء والشعراء العرب اعتدادا بمكانتهم لدى الشعب ، وشجعوهم على الانتاج الادبي والعلمي • وقد شهد عهد المماليك ، ولا سيما أيام داود باشا ، تفوق اللغة العربية على الفارسية والتركية اللتين تسربتا الى العراق مع الجالية الفارسية في كربلاء والنجف ، ومع رجالات الحكم والادارة الاتراك العثمانيين • ولم يتخلص النتاج الادبي في العراق من آثارهما الا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، برغم التأثير التركي المنظم الذي ظهر بعد انشاء المدارس الرشدية في مراكز الاقضية وتمثّل في لغة التدريس ، فلم يتخلّ خريجو هذه المدارس الرسمية عن انتمائهم العربي وأمانيهم القومية • ويعتبر أبو الثناء الالوسي ١٢١٧ — ١٢٧٠ هـ (١٨٠٢—١٨٥٣م) مؤسس الحركة العلمية والادبية في العراق في عصوره الاخيرة[١] • ويعتبر مع عبد الغني جميل وعبد الغفار الاخرس ، من رواد الحركة الادبية في العراق ، ومن أبرز الداعين الى أن يحكم العرب أنفسهم ويتخلصوا من صلف الترك وسيطرتهم • ونظرا لبعد العراق وصعوبة مواصلاته ، لم تكن الحركة العربية فيه كمثيلتها في الشام لأنها اتصلت بأفكار العرب وتأثرت بها قبل العراق وبنحو أعمق ، كذلك لم تصل الصحف الشامية والمصرية الى العراق ، في حين كانت (الجوائب) أبرز الصحف العثمانية المقروءة في حواضره[٢] •

وقد شارك كثير من العراقيين في الجمعيات العربية كالمنتدى الادبي ، ومن أبرزهم عزت الاعظمي — البغدادي الذي أصدر مجلة تعبر عن أغراض

---

(١) انظر ترجمته وآثاره في محمد بهجة الاثري « محمود شكري الالوسي وآراؤه اللغوية » مطبوعات معهد الدراسات العربية بالقاهرة ١٩٥٨ ، ص ٣١ — ٣٦ •

(٢) انظر حول الصحافة في العراق ، روفائيل بطي « تاريخ الصحافة في العراق » مطبوعات معهد الدراسات العربية بالقاهرة ١٩٥٥

المنتدى ، سميت (لسان العرب) ثم (المنتـدى الادبي) • كما شارك في جمعيـة العربية الفتاة السرية نفر من أبرز العراقيين مثـل ياسين الهاشمي وجميـل المدفعي ومولـود مخلص وعلي جـودة الايوبي وجعفر العسكري وطـه الهاشمي وناجي السويدي وغيرهم • أما جمعيـة العهد السرية فقـد شكلها لفيف مـن الضباط العرب معظمهم عراقيون وشاميون ، وشـارك بعضهم في الثورة العربيـة الكبرى (١٩١٦) وفي الحكم العربي بدمشـق (١٩١٨ ـ ١٩٢٠) وفي الثورة العراقيـة (١٩٢٠ ـ ١٩٢١) ، ومنهم أركان في الوزارات العراقية وفي الجيش العراقي[١] •

ولا ننهي الكلام على العراق دون الاشـارة الى مشروع سكة حديد بغـداد الالماني الذي كان من أبرز مظاهر سياسـة الاتجـاه نحو الشرق الالمانية[٢] ، التي كانت تحظى بتأييد مجموعـة مـن الرأسماليين الالمـان ، وترمي الى بسط نفـوذ المانية فيما وراء النمسة أي في الدولة العثمانية ، بواسطة التوسع العسكري ، وان تعذر ذلك ، فبالتغلغل الاقتصادي •

واذا كانت روسية أهم خصم لبريطانية خلال القرن التاسع عشر ، في ما تعتبره بريطانية مناطق نفوذها الخاصة في آسيـة ، فقد أصبحت المانيـة ذلك الخصم في النصف الاول من القرن العشرين • ومـن المعلوم أن المانية نهضت في السبعينات من القرن التاسع عشر كقوة صناعية وعسكرية واقتصادية عالمية ، واستفادت مـن تدهور مكانة بريطانية وفرنسة في السلطنة العثمانية ، بسبب استحواذهما على عدد من ممالك السلطان في آسية وافريقيـة ، وسارعت للتقرب من السلطنة والتعـاون معها • وفي نفس العام الذي أنجز فيه الالمان انشاء سكة حديد برلين ـ الآستانـة (١٨٨٨) ، عقد اتفاق بين الدولتين لمدّ سكة حديد عثمانية في الاناضول ، وتوطدت العلاقات بينهما ، بقيام الامبراطور غليوم الثاني (ولهلم) بزيارته الاولى للآستانـة

---

(١) انظر الامير مصطفى الشهابي « القومية العربية » مطبوعات معهد الدراسات العربية بالقاهرة ١٩٥٨ ص ٧٠ ، ٧٥ ـ ٧٦ ، ٧٩ •

(٢) ويعرف بالالمانية : Drang Nach Osten

في العـام التالي . وفي الزيارة الثانية للآستانة عام ١٨٩٨ ، وبفضل ما تخللها مـن تفاهم ودي مع السلطان عبد المجيد ، وتصريح قوي بدعم حركة الجامعة الاسلامية التي يرعاها ، مهّد الامبراطور السبيل للحصول في العام التالي على امتيـاز سكة حديد تصل بين قونية فالموصل فبغداد فالبصرة والخليج .

في البـدء لم تنظر بريطانية بانزعاج وقلق الى اهتمام المانية المبكر في شؤون السلطنة ، لأن منح الالمان امتياز سكة حديد بغداد ، كان في رأي بريطانية وسيـلة لوقف الاطماع الروسيـة والفرنسية . بيـد أن توسع الصناعة الالمانيـة ، وغزو بضائعها الاسواق التي كانت تعتبر حتى ذلك الوقت أسواقا للبضائع البريطانية ، والنمو المفاجيء للاسطول التجـاري الالماني ، والآمال الاستعماريـة للسياسيين الالمان ، والمظاهرات الصاخبة المناوئة لبريطانية عشيـة حرب البوير ، كلها أقنعت الحكومة البريطانية بأن نفوذها السياسي لا أسواقها فقط ، مهددة بدرجة خطيرة[1]. كذلك اهتمت الحكومة والرأي العام في بريطانيـة بسكة حديد بغـداد لما تنطوي عليـه من تهديد جدي لاحتكارات بريطانيـة في العراق ، ولسيطرتها على ميـاه الخليج وطريق الهند نفسه . وبمـا أن القسم من سكة الحديد الذي سيمتد بـين البصرة والخليج هو ما كان يقلق بريطانية ، فقـد سعت لمنع بنائه ، بعقد اتفاقيـة سرية مع شيخ الكويت ، مبارك الصباح (١٨٩٩) . وبموجبها تعهـد مبارك بألا يعقد أيـة اتفاقية مع دولة أخرى ، وألا يتنازل عن أي جزء من أراضي الكويت ، ولا يؤجره لاية دولة أو شركة . وبالمقابل تعهدت بريطانية بحماية مبارك وتقـديم معونة ماليـة له . ولذا خابت جهود ألمانيـة عام ١٩٠٠ حين طلبت شراء عشريـن ميلا على ساحل الكويت ، لانشاء المحطة النهائية لسكة الحديد . كما قاوم لـورد كيرزن نائب الملك في الهند (١٨٩٩) محاولات السلطنة لبسط سيطرتها مـن جديد على الكويت (١٩٠٣) ، اذ أرسل لمعونة مبارك طرادا بريطانيـا مرتين ، ثم بعـد تهديد ابن الرشيـد للكويت ، بتحريض مـن العثمانيين أرسل ثلاثـة طرادات الى

---

(١) آيرلند ، المصدر السابق ، ص ٢٦ .

الميناء ، وأحبط محاولات أقارب مبارك لخلعه[1] . وكان كيرزن عام ١٨٩٨ قد أحبط مشروعا روسيا لبناء سكة حديد تصل بين ميناء على الساحل السوري والكويت ، ويعرف بمشروع الكونت فلاديمير كابنيست Kapnist شقيق السفير الروسي في ڤينا ومن رجال الاعمال ذوي النفوذ في البلاط القيصري . وانبرى كيرزن لمعارضة المشروع على أساس أنه ضار بالمصالح البريطانية في الكويت . ولم تكترث بريطانية بادعاء الآستانة بأن الكويت قائمقامية تابعة للبصرة منذ ولاية مدحت باشا ، وأن شيخ الكويت قائمقام معين من طرفها . وتعقدت المشاكل الناجمة عن امتياز سكة حديد بغداد وتشعبت حين طلبت فرنسة امتيازا لمدّ سكة حديد بين دمشق وحماة حتى حلب مع فروع له ، وانشاء موانىء طرابلس وحيفا ويافا . وقدمت مشروعا آخر لربط العراق بالبحر المتوسط ، بمدّ سكة حديد بين حمص وبغداد ، بقصد تسويق المنتجات الزراعية التي تجود هناك .

ولحل المعضلة ، اقترحت المانية ترك انشاء القسم الذي سيمتد بين بغداد والبصرة الى شركة عثمانية تساهم فيها الدول الاوربية ، مقابل حصول المانية على امتياز لمدّ سكة حديد بين حلب والاسكندرونة ، لربط سكة حديد بغداد بالبحر . وافقت الآستانة ، ولكن بريطانية رأت أن تكون حصتها من الاسهم هي الراجحة في الشركة العثمانية المرتقبة . وظلت القضية معلقة كغيرها ، حتى وقعت السلطنة وبريطانية في آب ١٩١٣ على اتفاقية السكك الحديدية ، وأعلنت السلطنة في بيان ملحق بها ، أن شركة حديد بغداد قد تخلّت عن جميع الحقوق الممنوحة لها لتمديد السكة الى ما بعد البصرة ، ولانشاء مرفأ في الخليج[2] . وتأكد ذلك في الاتفاق على الحقوق والامتيازات الذي توصلت اليه بريطانية والمانية في منتصف حزيران ١٩١٤ ، ووقعتا عليه بالاحرف الاولى . ولكن الحرب أطاحت بهذه التسويات الطويلة المعقدة ، وكان قد أنجز من سكة حديد بغداد بحلول ١٩١٤ ، القسم الممتد بين بغداد وسامراء .

---

(١) المصدر السابق نفسه ، ص ١٨ — ١٩ .

(٢) انظر نص الاتفاقية في الحصري ، المصدر السابق ، ص ٢١٠ — ٢١٢ .

أمـا اقليم عربستان ، فقد اعتبر جزءاً من الدولة الفارسية في معاهدة أرضروم (١٨٤٧) ، وبذلك أصبحت عشائر كعب أقلية عربية في فارس ، وتعرضت لتأثيرات فارسية متنوعة•وحين تولى عرش فارس رضا بهلوي(١٩٢٥)، قضى على امارة المحمرة العربيـة ، وحاول ازالـة صبغتها العربيـة وثقافتها القوميـة ، ودمجها في دولـة (ايرانيـة) واحـدة[١] •

وحين اشتدت وطأة الاتحاديين ، واحتكروا المناصب العليا ، انتقد المستنيرون العرب ذلك صراحـة ، ولكن الحركة العربيـة في العراق لم تنشط للتخلص مـن التسلط التركي وتشارك في الثورة العربيـة عام ١٩١٦ ، الا بعد أن خاب أملها باستهلال عهـد من المساواة بـين الترك والعرب وفق المشروطيـة (الدستور) • واتضحت نوايا الحكومة نحـو العرب ، حين اتفقت مع شركة لينتش على تأسيس (شركة الملاحة العثمانية في أنهار دجلة والفرات وشط العرب) ، وعيّن لها مـدير انكليزي ، شملت سلطته بواخر لينتش والبواخر العثمانية ، وأعطيت امتياز احتكار الملاحة والتجارة في أنهار العراق ، على حساب المصالح والحقوق العراقية الوطنية •

وأثار النواب العرب في مجلس المبعوثان ضجة كبرى حول الاتفاق ، وأحرجوا الحكومة • ولكن عددهـم القليل (٤٠ نائبا مـن مجموع ٢٦٠ نائبـا) لم يكف لاسقاط الحكومة والاتفاق ، لأن الاتحاديين كانوا قد تدخلوا في الانتخابات لضمان غالبية تركية موالية في مجلس المبعوثان ، وعطلوا بذلك حق العرب في شغـل ٢/٥ مقاعده ، بحسب نسبتهم العددية في السلطنة آنذاك •

وقد أرسل العراق الى مجلس المبعوثان سبعة عشر نائبا ، منهم طالب باشـا النقيب عن البصرة ، وعبد المحسن السعدون عن المنتفق ، وعبد المجيد الشاوي عـن

---

(٢) انظر للاستزادة د. مصطفى عبد القادر النجار « التاريخ السياسي لمشكلة الحدود الشرقية للوطن العربي في شط العرب » البصرة ١٩٧٤ .
وايضا د. فاضـل حسين « مشكلة شط العرب » مطبوعـات معهد البحـوث والدراسات العربية بالقاهرة ١٩٧٥ .
وايضا د. عبد العزيز سليمان نوار «العلاقات العراقية الايرانية» القاهرة ١٩٧٤ .

العبيد ، واسماعيل حقي بابان عن الاكراد • ولم يكن بمستطاع النواب العرب اقناع الاتحاديين بجعل العربية لغة التدريس في المدارس الا عام ١٩١٠ ، وفي كلية الحقوق ودار المعلمين في بغداد عام ١٩١٤ •

ومعلوم أن البصرة كانت موئلا للمعارضة العربية ، فقد تشكلت فيها جمعية البصرة الاصلاحية برياسة طالب النقيب (١٩١٣) ، وحضر عراقيان المؤتمر العربي الاول في باريس أحدهما توفيق السويدي ، وبعد أقل من عام دخلت البوارج البريطانية مياه شط العرب ، وتم احتلال البصرة في أواخر تشرين الثاني ١٩١٤ • ثم حاصر العثمانيون الكوت خمسة شهور ، فاستسلمت حاميتها الانكليزية ، ووقع بيدهم ١٣ ألف أسير • وفشلت محاولة لشراء ضمير القائد العثماني بمليوني جنيه[1] • وتابع الانكليز زحفهم في أواخر عام ١٩١٦ ودخلوا بغداد في آذار ١٩١٧ •

بلاد الشام في عصر النهضة :

أطلق اسم بلاد الشام على البلاد التي تحدها جبال طوروس شمالا وصحراء سيناء وخليج العقبة جنوبا ، والبحر الابيض المتوسط غربا وبادية الشام شرقاً • وقد استهل القرن التاسع عشر وفي بلاد الشام أربع ولايات هي ولايات حلب ودمشق وطرابلس وصيدا • وكانت ولاية دمشق أوسع هذه الولايات وأكثرها سكاناً ، ومركزها مدينة دمشق التي اتسعت طولياً من حي الصالحية في الشمال على سفوح جبل قاسيون ، الى حي الميدان في الجنوب على طريق الحج باتجاه حوران والمدينة المنورة •

خرج الشام بعد موت أحمد باشا الجزار (١٨٠٤) ، كما يقول كرد علي « مقلّم الاظفار معروق العظام بل مقطّع الاوصال سيىء الحال»[2] • وزاد الحال سوءاً التهديد الوهابي الذي تكررت غزواته على تخوم البادية التي تفصل الشام

---

(١) انظر حول ذلك عباس العزاوي ، مصدر سبق ذكره ، ج ٧ ص٢٩١–٢٩٣•
(٢) انظر محمد كرد علي « خطط الشام » دمشق ١٩٢٥ ، ج ٣ ص ٢٥ •

عن الجزيرة العربية ، بحيث صار العثمانيون يخشون ضياع الشام والحجاز من أيديهم • وعيّن ابراهيم باشا والياً في دمشق ، مع امارة الحج (١٨٠٥) ، واستطاع ايصال قافلة الحج الشامي الى مكة بعد عنت كبير • وخلفه عبد الله باشا العظم والياً في دمشق للمرة الثالثة ، فنجح في الوصول الى الديار المقدسة بعد دفع مبلغ كبير من المال للوهابيين ، وبعد أن خاض ضدهم معارك هلك فيها غالب عسكره • واستلم يوسف باشا الولاية (١٨٠٧) فأعلن أنه سيقهر صلف الوهابيين ، ولم يكد يبارح دمشق متجهاً نحو الحجاز ، حتى فوجىء بهجوم الوهابيين ، فاضطر للتقهقر، وتكبد خسائر فادحة • وفي محاولة لستر فشله ، باشر ظلم الناس وتكديس المال مستغلا انشغال السلطنة بمشاكلها الداخلية والخارجية ، وبرغم أنه أرسل ألف كيس رشوة للآستانة ، فقد أمر السلطان محمود الثاني بعزله واعدامه ومصادرة أمواله ، وكلف بذلك والي صيدا سليمان باشا الكرجي (١٨٠٥ ـ ١٨١٩) وهو من مماليك الجزار • واصطدم الطرفان قرب داريا والجديدة على مسافة من دمشق ، فاندحر يوسف باشا ، وهرب الى اللاذقية ومنها الى دمياط بحراً مع بعض أعوانه (١٨١٠) • وقد عرف سليمان باشا بالامانة والعدل ، وكان الأسف عليه عاما حين توفي (١٨١٩) ، وخلفه في ولاية صيدا عبد الله باشا (١٨١٩ ـ ١٨٣٢) •

أما في ولاية دمشق فقد حكم صالح باشا الكوسا (١٨١٦) لسنتين ، وتلاه سليمان باشا ، فدرويش باشا (١٨١٩) • وطلب عبد الله باشا من الامير بشير الثاني الشهابي حاكم جبل لبنان أن يسانده ضد خصمه درويش باشا في نزاعهما على حدود نابلس • وكاد عسكر الامير أن يرجح الكفة لصالح عبد الله باشا(١٨٢١)، لولا أن أعلن السلطان محمود تمرّد عبد الله باشا ، واحالة ولايته الى عهدة خصمه درويش باشا ، مما اضطر الامير الشهابي الى الالتجاء لمحمد علي في مصر الذي تلقاه بالحفاوة والاكرام ، طمعاً في معونته المقبلة له في خططه التي وضعها لضم بلاد الشام • وتوسط محمد علي لدى السلطان ، وسعى للعفو عن الأمير والباشا، وتثبيتهما في مركزيهما السابقين • ومنذ ذلك الحين ، بقي الشهابي على صلة وثيقة بمحمد علي ، يتفهم سياسته ويسعى جهده لمعاونته وتحقيق رغائبه ، وبشير من ناحيته يريد الاستعانة بالقوة المصرية لاكمال تنفيذ خططه في القضاء على الأمراء

والمشايخ الاقطاعيين لتجريدهم من سلطاتهم ومواردهم المالية • وعندما زحف ابراهيم باشا لاحتلال الشام (١٨٣١) انضم اليه الامير بشير وساهم في الفتح ما استطاع ، فقدّر محمد علي مساعدته وأطلق يده في شؤون الجبل ، وكانت هذه فرصة الامير لضرب رجال الاقطاع وسجن معظمهم ، ففر البعض الى جبل حوران، والتحق آخرون بالجيوش العثمانية المنهزمة أمام ابراهيم باشا •

وقبيل وصول الحملة المصرية الى الشام ، ثار أهالي دمشق ضد الوالي سليم باشا (١٨٣٠) الصدر الاعظم السابق ومبيد الانكشارية ، حين أراد أن يطبق قانون رسوم الاحتساب سداً لنفقة الجند ، بوضع رسم على كل عقار ، كما هو الحال في الآستانة • فثارت المدينة ، وضرب الوالي (العامة) من أبراج القلعة بالقنابل ، ولكن الاهالي ضيقوا عليه الخناق وقتلوه • واجتمع أعيان دمشق ورتبوا حكومة موقتة ، ولبثوا يترقبون انتقام السلطنة ، ولكن ورد الخبر بخروج الحملة المصرية باتجاه الشام ، فسكن روعهم بعض الشيء ، وصرفت الآستانة النظر عن ثورة الأهالي ، واضطرت لانتحال الاعذار لهم[1] •

أما ولاية حلب ، فلم تشهد أحداثا أفضل من أحداث دمشق • وقد تولى حكم الولاية في النصف الاول من القرن التاسع عشر سبعة وعشرون واليا ، لم تتجاوز مدة معظمهم السنة الواحدة ، وبعضهم سنتين أو أكثر قليلا • وفي عهد مصطفى باشا ١٢١٢هـ/١٧٩٧م تفاقم النزاع بين الانكشارية والاشراف على السلطة في حلب ، وتمثّل في واقعة جامع الأطروش ، حيث قتل عدد كبير من الاشراف • وبعد حوالي خمس سنوات ، استلم يوسف باشا ولاية حلب (١٢١٧هـ/١٨٠٢م) ، فأنذر الطرفين المتخاصمين بالتزام السكينة ، ورتّب غرامة ٣٠٠ كيس على البادىء بالعدوان • وبعد احدى عشرة سنة تمكن الوالي محمد جلال باشا (١٢٢٨هـ/١٨١٣م) من القضاء على زعماء الانكشارية أثناء وليمة صنعها لهم ، مستهلا بذلك ما سيفعله محمود الثاني بهم بعد عشر سنوات[2] ،

---

(١) محمد كرد علي ، الخطط ، ج ٣ ص ٤٢ .
(٢) محمد كامل الغزي « نهر الذهب في تاريخ حلب » ج ٣ ، حلب ١٣٤٥/١٩٢٦ ص ٣١٧ .

ولكن العصبة الانكشارية لم يُقضَ عليها نهائيا الا بعد أن أنشئت الادارة المصرية في الشام • وقد تعطلت الحركة التجارية في حلب ، بسبب الاضطرابات المستمرة في عهد هذا الوالي الذي تفنن في الاختلاس والقتل والمصادرة • وثار الاشراف ضد فساد حاشية الوالي خورشيد باشا (١٢٣٥هـ/١٨١٩م) وانضم اليهم جماعة من الانكشارية الفارين من ظلم جلال باشا ، وقتلوا كتخدا الوالي ، ولكن السلطنة ضبطت المدينة بعد حصار دام أربعة شهور • وبعد سنتين حدث زلزال مدمّر في حلب في عهد الوالي ابراهيم باشا (١٢٣٧هـ/١٨٢١م) ومات تحت الردم حوالى ١٥ ألفا من الناس[1] •

بدأ ابراهيم باشا الحكم في بلاد الشام ، بتثبيت الزعماء المحليين الذين انحازوا الى صفّه ضد العثمانيين ، وهم أصحاب النفوذ في مناطقهم ، كالأمير بشير الشهابي الثاني ، وقد أقرّه في امارة جبل لبنان ، وعيّن أبناءه لحكم بيروت وصيدا ومدن الساحل ، والشيخ حسين عبد الهادي ، وقد عهد اليه بالاشراف على المناطق الجبلية بفلسطين ، وعين بعض أقاربه لحكم القدس ونابلس ويافا وسواها ، ومصطفى آغا بربر الذي عيّنه حاكما على طرابلس • وألغى ابراهيم الولايات القديمة في بلاد الشام ، ووحدها في ولاية واحدة (ولاية عربستان) وعاصمتها دمشق • واحتفظت السلطنة لنفسها بحق تعيين القضاة والمفتين والمدرسين ونقباء الاشراف في الحواضر الشامية الكبرى ، مثل دمشق وحلب وطرابلس وعكا والقدس ، على أن يحاط علما بهذا التعيين والي مصر أو ابنه ابراهيم ، أو حاكم ولاية عربستان قبل مباشرة مهامهم • ولم يجر محمد علي تعديلات جوهرية في النظام القضائي ، لئلا تعتبر ماسة بسيادة البا بالعالي على بلاد الشام المنصوص عنها في معاهدة كوتاهية (١٨٣٣) ، ولكن لا تصبح أحكام قضاة الشرع نافذة الا بعد مصادقة حاكم الولاية • كذلك خصصت رواتب للقضاة ونوابهم ولكتّاب

---

(١) المصدر السابق نفسه ج ٣ ص ٣٣٠ • لمزيد من التفاصيل حول الصراع بين الانكشارية والاشراف في حلب انظر :

Bodman, H. L. : Political Factions in Aleppo, 1760 - 1826, Univ. of North Carolina Press, 1963.

المحاكم ، وأنشئت (مجالس الشورى) في الحواضر الشامية ، وتتركز صلاحياتها على الامور المالية والمحلية ، كتوزيع الضرائب على الاهلين وفق ثرواتهم ، واختير أعضاء المجالس من المسلمين وغير المسلمين ، مع امكانية استئناف أحكامها الى مجلس شورى القاهرة بوصفه المرجع الاستئنافي الاعلى .

اهتم ابراهيم بتوطيد الامن في البلاد ، ومنع البدو من الاغارة على الشام من الشرق والجنوب ، وأقام في دمشق وفي عكا ادارة مصرية مباشرة وحاميات عسكرية ، وأبطل المغارم التي كان يفرضها آل أبي غوش أصحاب قرية العنب الواقعة بين القدس ويافا ، على حجاج بيت المقدس . وسعى لتطهير البادية من أعمال الشقاوة وسلب القوافل ، وأبطل أتاوات العشائر على المدن ، كما اهتم باستقرار البدو في وادي الفرات ، وأنشأ لهم القرى هناك ، ومنحهم الاراضي معفاة من الضرائب ، وأمر بتسليفهم الاموال لشراء المواشي والادوات الزراعية ، وألغى المصادرة ، وأحيا الزراعة والتجارة ، ونشّط الصناعة وتربية دودة الحرير ، وأمر باستخراج بعض المعادن ، وتتيجة ذلك ، استعادت أكثر قرى حوران وعجلون وحمص وحماه وغيرها عمرانها القديم تدريجيا . وجربت الادارة المصرية زراعة أشجار البن ، وزرعت النيلة والقطن المصري ، وغرست ألوف غراس الزيتون في ضواحي عكا .

وقضت الادارة المصرية على فوضى الضرائب العثمانية السابقة ، ونظمتها ، وزادت عليها ضريبة (الفردة) على كل المكلفين من أتباع مختلف المذاهب الذين تتراوح أعمارهم بين الخامسة عشرة والستين ، ومقدارها لا يقل عن ١٥ قرشا ولا يزيد عن ٥٠٠ قرش . وتولى رؤساء الحرف في المدن وشيوخ القرى توزيعها على المكلفين بحسب طاقة كل منهم . وثقلت وطأة الضرائب على الاهلين ، فتبرموا بها ونفروا من الادارة المصرية التي فرضت عليهم التجنيد بنسبة رجل من كل اثني عشر رجلا ، ورفضت قبول البدل النقدي .

واشتهر من رجال الادارة المصرية في الشام شريف باشا ، صهر محمد علي ، وحاكم (عربستان) ، وأحمد المنكلي حاكم أدنة ، وسليمان باشا الفرنساوي

(الكولونيل سيف) الذي تولى الحكم في المدن الساحلية بدل أولاد بشير الشهابي ، وكلف بالتعامل مع القناصل وموظفيهم ومحمييهم والمستأمنين الاجانب من التجار • وبقي ابراهيم باشا المرجع الاعلى العسكري والاداري • أما الامور المالية فقد عهد بها الى حنّا بحري ، وأصله من أسرة حمصية من الروم الكاثوليك ، وهو من الموظفين الموثوقين القدامى لدى محمد علي في مصر • وجدير بالذكر أن محمد علي تابع سياسة التسامح الديني التي درج عليها في مصر ، ونقلها الى جميع ممالكه ، ونعم غير المسلمين في الشام بمعاملة حسنة ، بفضل اقرار المساواة التامة بين مختلف طوائف السكان • أما في جبل لبنان ، فقد برزت النعرة الطائفية بسبب التجنيد الاجباري الذي فرضته الادارة المصرية على المسلمين وجعلته اختياريا بالنسبة للنصاري ، لا لدالة الامير بشير الشهابي على محمد علي فحسب ، وانما تمشيا مع النظام السائد في بقية أجزاء السلطنة العثمانية ، وتطمينا للنصارى وكسب ولائهم • وفي عام ١٨٣٥ أمر ابراهيم بتجنيد دروز حوران ووادي التيم ، فتمرد هؤلاء وتغلبوا عليه بمعونة اخوانهم دروز لبنان عدة مرات ، وتشدد ابراهيم في أمر التجنيد ، فضعفت الزراعة وتعطلت أعمالها ، ورفع الدروز راية العصيان عام ١٨٣٨ في وادي التيم وحوران بزعامة شبلي العريان ، وحينئذ كتب ابراهيم الى الامير الشهابي بأن يجمع أربعة آلاف مقاتل من نصارى لبنان ، ويسلّمهم أسلحة لقتال الدروز ، الأمر الذي وسع شقة الخلاف وغذى الحقد بين الطائفتين • وأصبح معلوما أن الدروز منذ الفتح المصري بقوا موالين للعثمانيين ، وان الموارنة بقيادة الامير بشير انحازوا الى صف محمد علي ودعموه ، وتمكن بمعونتهم من التغلب على الدروز (١٨٣٨) • ولكن بعد تشدد الادارة المصرية في التجنيد ، ونزع السلاح من الاهالي ، واحتكار تجارة الحرير وبعض المواد الغذائية الاخرى ، والشائعات التي نشرتها السلطنة العثمانية بأنها تتأهب للزحف على سورية ، ظهرت الثورة ضد الحكم المصري في مختلف أنحاء البلاد ، وغدت الاسلحة التي وزعها على الجبليين الموارنة عام ١٨٣٢ و ١٨٣٨ لاخماد ثورات الدروز في جبل حوران ، وثورات العلويين ونابلس ، موجهة ضده • وكان السخط عاما والاستياء شاملا جميع طبقات المسلمين والنصارى ، فضلا عن أوساط الفلاحين والاقطاعيين • ذلك

أن الادارة المصرية ألغت سلطات الاقطاعيين الاستبدادية القديمة ، ورفعت أيديهم عن جمع الاموال والخراج ، وجعلت لهم راتبا مقننا تدفعه الادارة . ولكن هذا الراتب الذي عيّنته للامراء والمشايخ المعزولين ما كان يوازي عشر ما كانوا يتقاضونه قسراً من جهود الفلاحين والمزارعين . وأصغى الفلاحون الى تحريض الاقطاعيين للثورة على الادارة المصرية ، وامتحنوا قوتهم في عصيانهم مع مشايخهم عليها ، وسيكون لذلك ما بعده من تمردهم على سلطة هؤلاء المشايخ أنفسهم عام ١٨٥٩ في كسروان[١] .

والحق أن الحكم المصري تمكن في زمن قصير أن يعيد الى بلاد الشام النظام والاستقرار بوجه عام . وكان يمكن أن يظل بادارته المنظمة وبتسامحه مصدر خير للبلاد والاهلين ، لولا نضوب موارد محمد علي اثر حروبه مع السلطنة ، مما ألجأه الى اثقال كاهل الشعب بالضرائب . وقد اعترف قنصل بريطانية بدمشق (برانت) بمآثر الحكم المصري ، في رسالة الى سفير دولته بالآستانة عام ١٨٥٨ ، وقال ان شريف باشا حاكم الشام بادارته الجيدة ، قد ضاعف نشاط الاهلين ، فتحسنت المالية ، كما أن نشاط ابراهيم وحزمه قد وطدا الامن والثقة . وكان على الادارة المصرية أن تصلح عدة أمور مختلة ، « وان تبدل بالعدل ، الفوضى والتعصب والقلاقل التي كانت سائدة . فأصحاب المقامات العالية والافندية والاغوات امتعضوا كثيرا لأنهم كانوا يثرون من ابتزاز أصحاب التجارة والحرف وسائر الطبقات العاملة ، وقد سرّ هؤلاء كثيرا لخلاصهم من الظلم الذي أنّوا تحت عبئه طويلا .. وكم من مرة ذهبت الجنود بإمرة ابراهيم باشا لاتلاف بيوض الجراد وما نقف منها ، وبفضل هذا الحكم الحازم العادل المحترم من الجميع أخذت البلاد تترقى في مدارج النجاح والنماء . ولم يكد المصريون يطردون من البلاد .. حتى عاد القوم الى نبذ الطاعة وخلفت الرشوة والتبذير في ادارة المالية النزاهة والاقتصاد ، ومنيت المداخيل بالنقص ، واستأنف عرب البادية غاراتهم على السكان فخلت القرى والمزارع المأهولة »[٢] .

---

(١) انظر للمزيد عن ذلك ، احمد طربين « ازمة الحكم في لبنان » دمشق ١٨٦٦، ص ٤٤ — ٤٦ ..

(٢) انظر نص التقرير في كرد علي ، الخطط ، ج ٣ ص ٦٨ — ٦٩ .

يبدو أنه لم يأسف أهالي دمشق كثيرا على رحيل الحكم المصري الذي سمح بتأسيس قنصليات للافرنج في مدينة دمشق ، ورفع أعلامهم على مبانيها لأول مرة ، وسمح لقنصل انكلترة بركوب جواده في المدينة (١٨٣٣) كما سمح بتأسيس قنصلية انكليزية في القدس . ولكن سرعان ما تحققوا أن العثمانيين أدخلوا من التنظيمات ما لا يختلف كثيرا عن تنظيمات الادارة المصرية السابقة ، وخاصة حين أعلنوا أنهم لن يقتصروا على الاهتمام بشؤون الامن والدفاع والقضاء وانما سيتدخلون في مختلف المناشط والفعاليات الاقتصادية والتجارية والثقافية .

واستهلت الادارة العثمانية أعمالها بالغاء ولاية طرابلس ، فأصبحت لواء تابعا لولاية صيدا ، وأبقت على ولايات دمشق وحلب وصيدا . ويلاحظ أنه كان يحدث بين آونة وأخرى ، تغيير جزئي باضافة بعض الاقضية أو بعض قرى القضاء الى قضاء آخر ضمن الولاية نفسها . أو الحاق بعض الاقضية بولاية أخرى . أو تشكيل لواء جديد داخل الولاية نفسها من قائمقاميات تسلخ من هذا اللواء أو ذاك . وقد جرى ذلك خاصة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الذي شهد تطبيق قوانين التنظيمات من ناحية ، وتزايد حدة الاطماع السياسية الاوربية والامتيازات الاجنبية من ناحية أخرى . وبدأت تتضح في بلاد الشام آثار التنظيمات العثمانية ونزعة الاقتداء بالنظم الغربية بكل ما تحمله من تحولات اجتماعية واقتصادية وفكرية .

بقيت التقسيمات الادارية في بلاد الشام على النحو السابق ، حتى صدور قانون الولايات لعام ١٨٦٤ ، وبموجبه اختفت ولاية صيدا ، وانتظمت بلاد الشام ولايتان هما ولاية سورية التي اتسعت بضم أجزاء من ولايتي طرابلس وصيدا القديمتين . وولاية حلب وقد امتدت حتى الاناضول . ثم انفصلت متصرفية القدس الشريف عن ولاية سورية عام ١٨٨٢ ، لتشكل متصرفية مستقلة مرتبطة

مباشرة بوزارة الداخلية في الآستانة[1] ، نظرا للمركز الهـام الذي تحتله مدينـة القدس بالنسبة للديانات السماوية الثـلاث ، ولتشابـك المصالح الدولية فيهـا ، وضمت أربعة أقضية هي يافا وعزة وبئر السبع والخليـل • وأنشئت ولاية بـيروت بعـد أن فصلت عـن ولاية سوريـة عام ١٣٠٥ هـ/١٨٨٧ م نظرا لتزايد أهميـة بيروت التجاريـة ، وقـدوم الكثير مـن الأجانب اليها ، ونشاط القناصـل فيها ، وضرورة الحدّ من مداخلاتهم مع طوائف سكانها ، وليسهل على السلطنة مراقبـة الدسائس والفتن الاجنبية فيها ، واخضاعها لاشراف والٍ مستقل عن ولاية دمشق الكبـيرة • وتعود أهميـة بيروت الى موقعها الممتاز ، وميناثها الصالح لاستقبـال وتفريغ البواخر ذات الحمولة الكبيرة ، ونمو طبقـة برجوازية وسيطة فيها تتقـن اللغات الاجنبية والمعاملات التجارية والمالية ، وتتم عن طريقهـا عمليـات الاستيراد والتصدير للمناطق الداخلية السورية ، بحيث فاقت كل ما سواها من الموانىء عـلى الساحل السوري ، كطرابلس وصيدا والاسكندرونـة • وضمّت ولاية بـيروت جميع الموانىء السورية الرئيسيـة ، واشتملت على متصرفيات اللاذقيـة وطرابلس وعكا ونابلس • وارتبط بلواء بـيروت أربعة أقضيـة هي بيروت وصيدا وصـور ومرجعيون • أمـا لواء طرابلس فقد ضمّ أقضية عكار وحصن الاكراد وصافيتا • وبينما كان ميناء طرابلس أكبر الموانىء السورية حتى منتصف القرن التاسع عشر ، اذا بميناء بيروت يحل محله في الاهميـة ، ولكن طرابلس تابعت اتساعها الاقتصادي في أواخر القرن نفسه بعد زراعة الحمضيات والزيتـون • وتألفت بـلاد الشام في أواخر الثمانينات من القرن التاسع عشر من ثلاث ولايات هي ولاية دمشق وولايـة حلب وولاية بيروت وثلاث متصرفيات مرتبطة رأسا بوزارة الداخلية في الآستانـة وهي متصرفية القدس الشريف ومتصرفية الزور ومتصرفية جبل لبنان •

ونقرأ في حولية (سالنامه) الدولة العثمانيـة تفاصيل التقسيمات الاداريـة وأسماء رؤساء الموظفـين في جميع الاقضية والالوية (السناجق أو المتصرفيـات)

---

(١) انظر عن احوال متصرفية القدس قبل انفصالها عن ولاية سورية ، عـارف العارف « تاريخ القدس » ، القاهرة ١٩٥١ ، ص ١٢١ ـ ١٥٣ •

والولايات والعاصمة ، ويتضح من حولية عام ١٣٢٢ هـ/١٩٠٤ م أن ولاية سورية اشتملت على ألوية الشام الشريف وحماة وحوران والكرك • وان ولاية حلب اشتملت على ألوية حلب وأورفة ومرعش • ويلاحظ أن لواء مرعش يقع الآن في تركية ، كما أن معظم لواء اورفه يدخل في نطاق الدولة المذكورة • وقد استولت تركية عام ١٩٣٩ على قضاءي اسكندرون وانطاكية اللذين كانا تابعين لولاية حلب ، وتشكّل منهما لواء الاسكندرون أثناء الانتداب الفرنسي في سورية • وضمت متصرفية القدس الشريف أربعة أقضية هي يافا ، غزة ، بئر السبع ، خليل الرحمن • وأهم القبائل التي تتبع قضاء بئر السبع هي : عزازمة ، ترابين ، ثياها ، حناجرة ، جبارات • وضمت متصرفية الزور أربعة أقضية هي رأس العين ، عشارة ، البوكمال ، عربان • وشملت متصرفية جبل لبنان أقضية الشوف ، المتن ، كسروان ، البترون ، جزين ، الكورة ، زحلة ، وقصبة دير القمر[1] • وكانت ولاية سورية أوسع ولايات بلاد الشام رقعة وأكثرها سكانا ، وتولى حكمها منذ نهاية الحكم المصري حتى المشروطية الاولى (١٨٧٦) أربعة وثلاثون واليا تفاوتت مددهم بين عدة شهور وخمس سنوات •

وفي ولاية سورية كان لواء دمشق أهم الالوية ، وارتبط به قضاء بعلبك والبقاع ودوما والنبك ووادي العجم وحاصبيا وراشيا • وتمشيا مع سياسة التنظيمات العثمانية الرامية الى القضاء على العصبيات والامارات شبه المستقلة في السلطنة ، وطدت الادارة العثمانية سيطرتها في منطقة بعلبك وعينت فيها قائمقاما عثمانيا • وكان آل حرفوش المتاولة لهم في حكم المنطقة كلمة نافذة • وحين أعلن الامير محمد حرفوش العصيان وجمع عسكراً من بعلبك ووادي التيم ، اصطدم بالقوة العثمانية ، فانهزم أمامها الى معلولا حيث تم أسره ، واستسلم أمراء الحرافشة بعد تطويق بعلبك فأرسلوا الى دمشق ومنها تم نفيهم الى جزيرة كريت[2] ، وبذلك انتهت امارة آل حرفوش • أما لواء حماة فقد ضم أقضية حمص

---

(١) انظر الحصري ، المصدر نفسه ص ٢٤٣ ــ ٢٤٧ . وانظر أيضا عارف العارف المصدر نفسه ، ص ١٢٢ حاشية (٢) :
(٢) كرد علي ، الخطط ج ٣ ص ٧٩ .

وحصن الاكراد ومعرة النعمان والحق قضاء معرة النعمان بحلب عام ١٨٧٥ . وبعد ربع قرن صار يضم قضاء السلمية وقضاء الحميدية (مركزه مصياف) اضافة الى قضاءي حمص وحماة .

وقضت الاعتبارات العسكرية أن يكون مركز لواء حوران في بلدة (شيخ سعد) لان المواصلات معها ميسورة بواسطة السكة الحديدية ، ولانه يسهل سوق العساكر منها الى مناطق الاضطراب والثورة ، ولا سيما في منطقة جبل الدروز ، ثم حلت محلها بلدة (شيخ مسكين) عام ١٩٠٠ . وضم لواء حوران أقضية جبل الدروز وعجلون والقنيطرة (١٨٧٠) وفي مطلع القرن الحالي ضم ثماني أقضية[1] . وكان جبل الدروز مصدر المقاومة للسلطات المصرية ، ومن بعدها العثمانية ، فمنذ اندحار الحزب القيسي أمام الحزب اليمني في موقعة عين دارة (١٧١١) لجأ معظم الدروز من الحزب اليمني الى جبل حوران وغيره من مناطق سورية الداخلية ، بعد القضاء على زعمائهم من آل علم الدين . وهاجر آخرون الى جبل حوران بعد حوادث ١٨٤٢ في جبل لبنان ، وحاولت السلطات العثمانية زحزحتهم عن قرى حوران ، ففشلت . وغادر الدروز جبل لبنان بأعداد كبيرة في أعقاب حوادث الستين ونزول الحملة الفرنسية في بيروت ، واستقروا في جبل حوران . وما زالوا يتجمعون فيه بالهجرة اليه حتى سمي جبل الدروز .

وكان من جملة شواغل السلطنة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، الثورات التي قامت في الجبل ، وسببها الرئيسي الامتناع عن دفع الضرائب الى والي سورية ، كما كان الحال في ثورة (١٨٥١) التي هزم فيها العسكر العثماني ، وثار الجبل ثانية في عهد الوالي مدحت باشا (١٨٧٨ — ١٨٨٠) ، وحين حشد العسكر لقتالهم ، توسطت بريطانية لدى الباب العالي ، فأمر مدحت بتسوية المشكلة بالطرق السلمية . وحين استلم أحمد حمدي باشا الولاية بعد مدحت ،

---

(١) هي اقضية حوران ، عجلون ، القنيطرة ، بصر الحرير ، درعا ، صلخد ، ماهرة .

تمكن من اقرار الصلح بين أهل حوران والجبـل (١٨٨٠) ، ثم نشب الخـلاف مجددا بين الطرفين ، بسبب الغارة الفاشلة على قرية المسمية في حوران (١٨٨٦) • وتوسع الـدروز عام ١٨٨٧ في قرى اللجاه للتحصن بهـا واستثمار ما يصلح مـن أرضها الوعرة • ولم يلبث أن انقسم الدروز الى (مشايخ وعامة) ، ورأت السلطات العثمانيـة أن قبول دعـوة التوسط بينهما ، يتيح لها ترسيـخ نفوذها في الجبـل وجمع ضرائبه وتجنيد أبنائـه (١٨٩١) • وكانت نتيجة الوساطـة تثبيت حقوق الفلاحين في الاراضي التي يزرعونها ، وتأمـين مصالحة العامة مع المشايخ الذيـن تخلّوا عـن نصف أراضيهم لصالح الفلاحين ، ودفعوا دية قتلاهم • وشيدت ثكنة عسكرية في السويداء ، وعين لها قائمقام ومجلس اداري ومحكمة وقوة ضبطية[١]•

ولكن الوقائع توالت في الجبل كلما سعت الحكومة لجمع الضرائب أو تجنيد الانفار ، أو احصاء النفوس وتسجيل الاراضي[٢] ، وتوالت معها المساعي الانكليزية في الآستانة لتحل مشاكلها مع أهالي الجبل صلحا[٣] • وبعد ثورتي ١٨٩٣ و ١٨٩٥ ، نشبت آخر ثورات الجبل عام ١٩١٠ ، فجردت ضدها حملة عثمانية من ثلاثين ألف جندي ، وهدأ الجبل بعدها حتى نهاية العهد العثماني •

وبقي لواء الكرك ونواحيه بعيدا عن متناول الدولة منذ نهاية الحكم المصري في بلاد الشام ، اذ خضع لحكم شيوخ العشـائر هناك ، وكانت الدولة تدفع لهـم مبالغ شهرية لقاء تأمين مرور قافلة الحج ، ومرافقـة موظفي تعداد الاغنام وجبـاة الضرائب • وقـد اعترف مدحت باشا في تقرير عـن أحوال الولاية (١٨٧٩) أن قضـاء معان في لواء البلقاء وناحيـة الكرك التابعة له ما زالا منـذ ست سنوات

---

(١) انظر نص تقرير مدحت باشا عن أحوال ولاية سورية عام ١٨٧٩ ، في عوض ، سبق ذكره ، ص ٣٥٢ — ٣٦٠ •

(٢) انظر كرد علي ، الخطط ، ج ٣ ص ١٠٥ ، ١١٠ — ١١١ • وانظر ايضا د• عبد الكريم غرايبة « سورية في القرن التاسع عشر » (١٨٤٠ — ١٨٧٦) ، مطبوعات معهد الدراسات العربية بالقاهرة ١٩٦١ ، ص ٧٧ — ٧٩ •

(٣) المصدر نفسه ص ١٠٥ — ١٠٦ نقلا عن مفكرات مدحت باشا لعام ١٨٨٠ • وانظر أيضا للمزيد عن ذلك تقرير القنصلية الفرنسية العامة في بيروت :
Beyrouth, Registre No. 23, Rapport No. 34 du 15 sept. 1880.

بدون ادارة ، وقد شكا المسيحيون المقيمون هناك من ذلك الوضع ، ثم جاء المبشرون الاجانب المرسلون خصيصا ، فبدا الاهتمام الزائد من الفرنسيين والانكليز بتلك الانحاء . وفي عام ١٨٩٤ وصل والي سورية على رأس حملة عسكرية الى لواء الكرك ، فأخضعه لسلطة الدولة المباشرة ، وأعلن عفوا عاما ، وعيّن أول متصرف في اللواء ، وبنى في بلدة الكرك دارا للحكومة وجامعا ومدرسة ابتدائية . ولم تكن عمان مأهولة آنذاك ، بل مجرد ماء يرده العربان ، الى أن استقر بها الشراكسة بعد عام ١٨٧٨ ، فبدأت تنهض بالعمران والتقدم . وقاسى الفلاحون والأهالي عموما في لواء الكرك وحوران من ارهاق الدولة لهم بالضرائب ، ومن عشائر البدو الطامعين بسلب منتجاتهم . وكانت سياسة الدولة نحو شيوخ العشائر مزيجا من الشدة وتجريد الحملات العسكرية ضدهم لاخضاعهم وكف اعتداءاتهم على الحواضر ، والتودد لهم بالمنح والاعطيات والمشاهرات . حتى اذا قطعتها الدولة عنهم ، شقوا عصا الطاعة ، واعتدوا على المزارعين ونهبوا قافلة الحج وقطارات سكة حديد الحجاز . وقد بذلت الدولة المساعي لتوطينهم واقرارهم في الاراضي التي يرتادونها في محاولة للسيطرة عليهم وتحصيل الضرائب منهم(١) .

وعلى غرار لواء الكرك ، برزت أهمية منطقة دير الزور ، وكانت قد خضعت للحكم المصري الذي اهتم بتوطين عشائرها في قرى جديدة . وبعد عودة الحكم العثماني ، تمردت عشائر الموالي وعنزة فأخضعت . ونظرا لصبغة المنطقة البدوية أقيمت فيها متصرفية ممتازة ليست تابعة لولاية ما ، وانما مرتبطة بالآستانة مباشرة (١٨٥٧) . وحين تمردت عشائرها بعد ثمان سنوات ، أخضعهم والي حلب ثريا باشا (١٨٦٢ ــ ١٨٦٦) ، وسجلت درجة من النجاح حين استخدم الاقناع والشدة لالزام شيوخ العشائر باقامة منازلهم في مركز المتصرفية الناشئة ، ولكن ما أن فرغوا من تشييدها حتى عادوا الى مضاربهم . وفي عام ١٨٧١ حاولوا التخلص

---

(١) انظر غرايبة ، ص ٧٩ ــ ٢٨٠ . وانظر أيضا تقرير مدحت سالف الذكر ، وعوض ، المصدر نفسه ص ٣٠٠ .

من أجهزة إلحكومة وترتيباتها هناك ، فاستخدمت القوة ضدهم . واستمرت جهود الدولة في توطين عشائر الزور الى ما بعد ولاية مدحت باشا[1] ، وحتى نهاية الحكم العثماني ، ذلك أنه بعد أن ثبت للدولة عدم جدوى وسائل القمع وتجريد الحملات ضد البدو ، حاولت أن تقنعهم بالاستقرار والتجنيد في الجيش والمشاركة في الحكم ، وبرغم أنها لم تصادف الا نجاحا قليلا ، فقد أدى تحسن طرق ووسائل المواصلات الى شيء من السيطرة الحكومية على بعض المناطق البدوية .

وضم لواء اللاذقية أربعة أقضية هي اللاذقية وجبلة وصهيون والمرقب ، ونمت مدينة اللاذقية بسرعة في القرن التاسع عشر ، بحيث بلغ عدد سكانها في نهاية القرن أكثر من عشرين ألفا بينهم ثلاثة آلاف من الروم الارثوذكس ، واشتهر ميناؤها خاصة بتصدير التبغ ، وهو من انتاج جبال العلويين ، الى مصر خاصة . وكان لواء عكا أكبر ألوية ولاية بيروت مساحة وأقلّها سكانا ، وضم أربعة أقضية هي عكا وحيفا وصفد وطبريا . وأصيبت عكا بضربة قاسية بعد نقل مركز الولاية الى بيروت ونمو ميناء حيفا ، وهبط عدد سكانها الى عشرة آلاف . وازدهر ميناء حيفا وتزايد سكانها الى ستة آلاف عام ١٨٨١ والى أكثر من عشرة آلاف في نهاية القرن وأكثر من خمسين ألفا قبيل الحرب العالمية الاولى . وأقبل عليها عدد كبير من الاجانب ولا سيما من الالمان ، وتزايد عدد اليهود في أقضية حيفا وصفد وطبريا[2] .

وبعد رحيل الادارة المصرية عن بلاد الشام ، أسندت ولاية دمشق الهامة الى نجيب باشا (١٨٤٠) فأعاد تشكيل مجلس الولاية ، واستحلف جميع الموظفين بالتزام الحق والعدل والبعد عن الرشوة التي شجبها منشور كلخانة . وقد لوحظ أن القناصل الاجانب عموما ، والانكليز خصوصا ، بدأوا يتدخلون في

---

(١) انظر تقرير مدحت ، وانظر ايضا كامل الغزي « نهر الذهب في تاريخ حلب » حلب ١٩٢٦ ج ٣ ، ص ٣٩٢ .
(٢) انظر غرايبة ، مصدر سابق ، ص ٩٠ ـ ٩٣ .

شؤون الولاية ، وحتى في عزل الولاة ، بفضل ما كان للسفير البريطاني في الآستانة مــن نفوذ واسع على وزراء السلطان ، وما كان يكرره على أسماعهم مــن أن بلاد الشـــام انما عادت الى السلطان على يد بريطانية • فقد عزل والي دمشق عام ١٨٤٧ ليس لأن حكومته لم تكن راضية عن ادارته ، ولكن بسبب تقارير انكليزية ضده[١] ويذكر أن تقارير الولاة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر تحفــل بالشكاوى من تدخلات القناصل واتصالهم بطوائف السكان في مسعى لاثارة الفتن فيما بينهم[٢] •

واستقبلت الطوائف المسيحية منشور همايون (١٨٥٦) بالترحاب[٣] ، لأنــه حقق لها المساواة التامة الى جانب عضوية المجالس الاداريــة وامكان دفع البــدل لنقدي لتفادي الخدمة العسكرية ، واقامة دور العبادة الجديدة والمدارس ، ممــا ساهم في تطوير أحوالها المادية والثقافية • في حين استقبل رؤساء الطوائف المسيحية المنشور ببرود ، لأنه في بعض فقراته انتقص من سلطاتهم ومكاسبهم ، اذ طلب منهم أن يصلحوا تنظيمهم الداخلي بالتشاور مع البــاب العالي ، وأن يبطلوا كــل الرسوم والاموال التي كانــوا يجمعونهــا ، ويعيّنوا رواتب محددة لرجــال الدين بحسب درجاتهم • وبالمقابل رأى المسلمون أن التنظيمات العثمانيــة طبّقت لصالح غــير المسلمين ؛ فهم الذين يتحملون العبء الاكبر مــن الضرائب وهم وحدهم الذيــن يساقون الى الحرب ومغارمها الأجتماعية والاقتصاديــة ، بعد أن فرض التجنيــد الاجباري في بلاد الشـــام لأول مرة منــذ نهاية الحكم المصــري وأدى الى تناقص ملموس في عــدد الرجال بالقرى والمدن • وعزا المسلمون ذلك الى النفوذ الاجنبي المهيمــن على الحكام العثمانيين • ولذلك ظهرت قبل حرب القرم وبعدها مباشرة ، دلائل السخط والتذمر في عدد مــن الحواضر الشاميــة ، وتوتر الوضع في حلب

---

(١) انظر حول ذلك :
A. L. Tibawi, A Modern History of Syria, London 1969, PP. 110-111.
وسنشير اليه فيما يلي باسم طيبــاوي.

(٢) انظر شواهد على ذلك في عوض ، المصدر السابق ، ص ٣٢٩ ، وطيباوي ، ص ٩٧ ، ١٣٨ ، ١٤٠ ، ١٥٤ ...

(٣) انظر حول ذلك ميخائيل مشاقة « مشهد في حوادث سوريا ولبنان » مصر ١٩٠٨ ، حتى ١٦١ .

ودمشـق ، وفي غزة ويافا والقدس • وزاد مـن حدة المشاعر ما انتشر مـن أنباء الأضطرابات بين المسلمين واليونانيين في كريت ، ووصـول اللاجئين المسلمـين الى دمشق ، وخاصة قصف جدة ميناء مكة من قبل بارجة بريطانية ، على أثر شغب قتل فيه القنصلان الانكليزي والفرنسي(١٨٥٨) •

أما الثورة الفلاحية في منطقة كسروان شمال جبـل لبنان (١٨٥٩) ، فكانت ذات طبيعة مختلفة • ذلك أن الفلاحين هناك ارتفعت شكاواهم ضد تعسف المشايخ الاقطاعيين ، وطالبوا أن يكون لهم في كسروان والمتن وكـلاء يحكمون القرى الى جانب المشايخ ، لردع هؤلاء عن تسلّطهم وكبح جمـاح استهتارهم وتلاعبهـم • واستشهد فلاحو القرى بالمنشور الهمايوني في التعبير عن مطالبهـم التي تلخص في طلب المساواة في توزيـع الضرائب ، وابطال المظالم والهدايا الالزاميـة للمشايخ ، وتمثيل شعبي للاهالي ومساواة الجميع أمـام القانون وفي الهيئة الاجتماعيـة[١] • وكان توجيـه مطالب الفلاحين الى شخص البطريرك الماروني بولس مسعد ، لـه دلالة في الاطار الذي نمت فيـه بذور الثورة منـذ البداية • فقـد تلقى الفلاحون دعم الكهنة الموارنة الذين كان معظمهم مـن أصل فلاحي ، وثاروا ضـد المشايخ الاقطاعيين من آل الخازن واستولوا على ممتلكاتهم وطردوهم وقتلوا بعضهم ، على ارتياح عميق مـن الاكليروس الماروني المتطلـع نحو السيادة الزمنيـة • وخشي المشايخ الدروز من انتقـال عدوى الثورة الى القائمقامية الدرزيـة في الجنوب ، حيث كـان يعمل الفلاحـون الموارنة والدروز ، فأوحـوا الى الفلاحين الـدروز ألا يصغوا الى التسويلات المارونية الراميـة لاضعاف وحـدة الصف الدرزي التي أثبتت جدواهـا في أحـداث لبنـان عـام (١٨٤٢) و (١٨٤٥)[٢] • ومـا لبث الدسيس الاجنبي والاقطاعي والطائفي أن لعب دورا آثما في اشعال نار الفتنة بـين الموارنة والدروز في المناطـق المختلطة من الجبـل ، بإغضاء الجهلة مـن المسؤولين

---

(١) انظر مزيدا من التفاصيل عن الثورة الفلاحيـة ودوافعها د. أحمـد طربين « أزمة الحكم في لبنان » دمشق ١٩٦٦ ، ص ١٠٣ ــ ١١٠ •

(٢) أشرنا اليها سابقا ، انظر ص ٢٤٧ ــ ٢٤٨ من الكتاب •

العثمانيين الذين طمعوا في اعادة الحكم العثماني المباشر الى جبل لبنان ، بدلا من تقسيمه الى قائمقاميتين بموجب نظام شكيب أفندي (١٨٤٥) وسرت شرارة الاحداث المؤسفة الى دمشق حين هاجم المتزمتون من الغوغاء الحي المسيحي في المدينة ، فتصدى لهم المفتي وكبار العلماء والوجهاء مع الامير عبد القادر الجزائري • وحضر فؤاد باشا مندوبا فوق العادة الى دمشق ، وأعدم على عجل والي دمشق مع الكثيرين من أهاليها ، ونفى بعضهم الى قبرص ، في محاولة لاظهار سطوة الدولة ومقدرتها ، وابطال مفعول التدخل الاوربي الذي تمثل بنزول الحملة العسكرية الفرنسية الى بيروت[٣] (آب ١٨٦٠) بعد شهر من حضور فؤاد الى سورية •

واجتمعت لجنة دولية في بيروت (حزيران ١٨٦١) مؤلفة من ممثلي الباب العالي وبريطانية وفرنسة وروسية والنمسة وبروسية ، وأقرت انشاء متصرفية جبل لبنان على أن ترتبط بالآستانة مباشرة ، ويحمكها حاكم عثماني مسيحي كاثوليكي من غير أهالي الجبل ، يعينه الباب العالي وتوافق عليه الدول الخمس ، ويكون بجانبه مجلس اداري يعاونه في شؤون الحكم ، ويتألف من اثني عشر عضوا ، أربعة موارنة وثلاثة دروز واثنين من الروم الارثوذكس وواحد عن كل من الروم الكاثوليك والسنة والشيعة • وعين داود باشا أول متصرف في جبل لبنان وهو أرمني كاثوليكي تولى مناصب هامة في السلك الدبلوماسي وعين ناظرا عاما للمطبوعات ثم للتلغراف • وقد استقر داود في بيت الدين ، وأعاد الهدوء الى الجبل ، وبعث الألفة والتعاون مجددا بين الموارنة والدروز ، واسترضى الامراء والمشايخ الذين الغيت اقطاعاتهم بمناصب ادارية في حكومته الجديدة • ولكن داود اصطدم بمعارضة الزعيم الماروني يوسف كرم الذي عينه فؤاد باشا في قائمقامية النصارى ، فهزم طنوس شاهين زعيم ثورة الفلاحين ، وأعاد آل الخازن الى أملاكهم • ثم استقال كرم على أمل أن تسند اليه حاكمية الجبل • وبعد أن

---

(٣) انظر تفاصيلها في طربين ، المصدر السابق ، ص ١٤١ — ١٤٨ •

استمر القتــال سجالا بين جموعــه وقوات المتصرف ، هُزم ونفي الى ايطالية حيث مات (١٨٦٧) .

والحق أن رسوخ قدم الطائفية في سياسة لبنان ، يعود الى هذه الفترة مــن تاريخ الجبل ، حين أوجد الباب العالي والدول ، التمثيل الطائفي في مجلسي الادارة والمحاكمة ، فساعدوا على تمزيق وحدة اللبنانيين بجعل المنازعات الطائفية تشمــل شتى نواحي الحيــاة اليومية . وبديهي ان ترسيخ المبدأ الطائفي ما كان في مصلحة الدروز بعــد اسقاط امتيازاتهم الاقطاعية ، ولذا هاجر حــوالي الالفين منهــم الى حوران[1] . وقــد أعيد النظر في نظام الجبل عام ١٨٦٤ ، ومدّد لداود في منصبــه خمسة أعوام أخرى ، ولكنه استقال عام ١٨٦٨ ، وأعقبه نصري فرانكو باشا الــذي توفي عام ١٨٧٣ قبل استيفاء مدته ، وتلاه المتصرفــون : رستم باشا ، الذي وطــد نظام المتصرفية ، ثم تولى بعده واصه باشا (١٨٨٣) ، نعوم باشا (١٨٩٢) ، مظفر باشا (١٩٠٢) ، يوسف فرنكو باشا (١٩٠٧) ، اوهانس قيومجيــان (١٩١٢) . ثم ألغي نظام المتصرفية [2] حين خاضت الدولة العثمانية غمار الحرب العالمية الاولى، وأخضعته للحكم المباشر كمتصرفية عادية حتى نهاية العهد العثماني (١٩١٨) .

أما ولاية سورية ، فقد تعاقب عليهــا عدد من الولاة العثمانيين ، وسنتنــاول أبرزهم ، ويبدو مــن التقدير العام للوالي محمــد رشدي باشا أنه ترك « آثــارا حسنــة »[3] ، ويمكن أن تؤخــذ ادارته باعتبارها دليــلا على أن تنفيذ قوانــين التنظيمات كان يعتمد أساســا على شخص الوالي أكثر مما يعتمــد على الضمانات المكتوبة التي لا تحترم في كثير من الاوقات . حكم هــذا الوالي سنتين وخمســة أشهر (١٨٦٣ ــ ١٨٦٦) . وما نعرفه عنــه وعن ولايته في هــذه الفترة ، مستمد

---

(١) انظر حول ذلك ، د. احمد طربين « لبنان منذ عهــد المتصرفية الى بدايــة الانتداب ١٨٦١ ــ ١٩٢٠ » مطبوعــات معهد الدراســات العربية العالية بالقــاهرة ١٩٦٨ ، ص ٧ ــ ١٢ .

(٢) انظر تفاصيل هذه الفترة في المصدر السابق نفسه .

(٣) انظر حوله ، محمــد أديب آل تقي الديــن الحصني « منتخبات التواريــخ لدمشق » ج ١ دمشق ١٩٢٧ ص ٢٦٩ .

من تقريره عن أحوال الولاية لعام ١٨٦٥[1] الذي كتبه بعد عام من صدور قانون الولايات (١٨٦٤) ، ويتبين منه حرص الوالي على التقيد بالقوانين الصادرة اليه من الادارة المركزية في العاصمة ، والتزامه بالرجوع الى الآستانة في كل ما هو هام من شؤون الولاية • ويصلح هذا التقرير نموذجا لشواغل الولاية في تلك الفترة التي تلت صدور قانون الولايات (١٨٦٤) ، وهو يعكس نوعية الاحداث والشواغل التي واجهتها الولاية ، والترتيبات الادارية التي توسلت بها وطبقتها • وهي نفسها التي يفترض تطبيقها في الولايات الشامية الاخرى بمقدار يتناسب مع نوعية الاحداث والشواغل ، والعوامل المحركة والمساندة لها ، مع فوارق البيئة والمؤثرات المحلية والدولية ومدى حرص الولاة والمتصرفين على مبادىء الحق والعدل • فالباشا تولى معالجة ما كان مألوفا من أمور الولاية أو ما استجد عليها ، مثل تعدي أشقياء البدو على عربان العشائر المقيمين في لواء حوران من جهة بادية الشام ، وما اقتضاه من تعيين قائمقام لحوران من ذوي « المكانة والهيبة عند العربان » ، وتشكيل لواء حمص من لواءي حمص وحماة ، وتعديل ربط والحاق بعض الاقضية والنواحي والقرى ، ومراعاة نسبها الجغرافية في التشكيلات الادارية الجديدة بحيث تتناسب مع مواقعها ، وتعيين المدراء المؤهلين فيها • هذا الى متابعة تشكيل مجالس القرى والاقضية والالوية لأنها « من أبرز مهام الولاية وأساس عملها » ، والاعتماد في انتخاب أعضائها « على أكثرية رأي الاهلين » ، بدءا من مجالس الاختيارية في القرى ، ومجالس الاقضية فالالوية ، وانتهاء بمجلس الولاية[2] • وسبق انتخاب المجالس ، توزيع التعليمات المتصلة بها ، مع قوائم المرشحين والناخبين • والغاية من ذلك انهاء مظاهر الفساد التي شابت الادارة السابقة ووضع حد لظلم وسوء تصرف بعض الشيوخ والمسؤولين • ويبدو أن الوالي حرص على تحقيق المساواة بين مختلف الطوائف ، وقد حل مشكلة تمثيلها في مجالس الاقضية بانتخاب ثلاثة من المسلمين وثلاثة من الملل

---

(١) طالع نصه الكامل في عوض ، ص ٣٤٥ — ٣٥١ •
(٢) انظر حول انتخاب وتطور صلاحيات هذه المجالس ، عوض ، نفس المصدر ، ص ١٠٢ — ١٠٩ •

الاخرى . ولئلا تتعطل مصالح الولاية ، قرر تأليف مجلس ادارة الولاية ، ومجلس تمييز الحقوق والجنايات[1] بصورة موقتة ، ريثما ينتهي انتخاب مجالس الالوية الذي يتوقف عليه تأليف مجلس الولاية .

وبالاضافة الى ذلك ، نظم محمد رشدي باشا شعبة الرسائل العربية في ديوان المكتوبجي أي المشرف على تحريرات الولاية ، واختار رئيسها من العرب ما دام « أكثر المعاملات التحريرية وخاصة مضابط الالوية وأوامرها تكتب بالعربية » ، وباعتبار أن مجالس الاقضية والالوية تضم كتّابا بالعربية والتركية . كما نظم محاسبة الولاية بمختلف شعبها ، وباشر تنظيم دفتر يضم أسماء موظفي وكتّاب الولاية عامة ، ومقدار رواتبهم وتاريخ مباشرتهم العمل ، فضلا عن وضع ترتيبات لتسهيل دفع الضرائب على الفلاحين وحدّد موعد تسديدها من بداية حزيران حتى غاية شباط ، لأن انتاج المحاصيل يتم خلال الشهور التسعة المقسطة عليها . ومما يعكس الحرص على تحقيق العدالة وجود القاضي والمفتي في الاقضية لاجراء الاحكام « ضمن نطاق الشريعة المطهرة والقوانين المنيفة لمسايرة أساس التمدن » .

واهتم محمد رشدي في النواحي العمرانية ، فأحدث عدة طرق داخل دمشق وخارجها ، ووسع أزقتها وشوارعها وفق الاصول الهندسية الحديثة ، وأنشأ المحلات التجارية والمقاهي على طراز جديد ، وحوّل الانارة في الاسواق من القناديل التي كانت تنار بزيت الزيتون الى زيت الكاز المشتق من النفط . وأنشأ مطبعة حديثة في الولاية عهد بادارتها الى خليل الخوري محرر جريدة (حديقة الاخبار) البيروتية التي تأسست عام ١٨٥٧ ، نظرا لأهليته ومهارته باللغة العربية ، وتقرر أن تصدر الجريدة الرسمية للولاية باللغتين العثمانية في جانب والعربية في جانب آخر[2] .

---

(١) تألف من ستة اعضاء ثلاثة مسلمون وثلاثة غير مسلمين باسم (مميزين) ونظر في الدعاوى التي يفصل فيها القانون . باستثناء دعاوى المسلمين التي تنظرها المحاكم الشرعية ودعاوى التجار التي تنظرها مجالس التجارة التي تحولت الى محاكم تجارة عام ١٨٧١ .

(٢) انظر نعمان القساطلي « الروضة الغناء في دمشق الفيحاء » بيروت ١٨٧٩ ، ص ١٣٠ .

ويشير تقرير الوالي الى أنــه كان في دمشق مكاتب رشدية ومكاتب صبيان ـ ابتدائية ـ ومستشفى وأكثر من عشرين جامعا ومدرسة وأحواض عامة وجسور ومصانع وأسواق مستقلة ، مما يــدل على أن التطــور الاداري والعمراني والثقافي أخذ يسجل بعض الخطى على طريق التقدم والتحديث •

ومن الامثلة على تحسن نوعية الولاة في عصر التنظيمات ، الوالي محمد راشد باشا الذي أسندت اليه ولاية سورية لخمس سنوات وثلاثة أشهر (١٨٦٦ــ١٨٧١)، وقبل ذلك ، كان القناصل الانكليز ، قــد أشادوا بمزايا كامــل باشا الذي تــولى متصرفية القدس ثم بــيروت بعد منشــور همايون (١٨٥٦) ، وهــذا أمر نادر الحدوث في العقود السابقة • ويبــدو أن محمد راشد باشا نهج على منوال سلفه وفاقــه ، بدليل أن القنصل الانكليزي بدمشق امتدحه عام ١٨٧١ بقوله : في حدود معرفتي لا يوجد والٍ غادر سورية وكان الاسف عليه عاما كهذا الوالي[١] • فقــد وطــد الامن ، وضرب على أيدي الاشقياء والبــدو ، وشهدت بيروت في عهــده نهضة أدبيــة عربية ، فانتشرت فيها المدارس والجرائــد والمجلات العربية والمطابع وباعة الكتب المتنوعة ، وراجت الحركة التجارية ، وظهر ديوان التمييز ، و (سالنامه) الولاية ، وكان سلفه قد باشر اعدادهما[٢] • وخلفه عبد الله صبحي باشا (١٨٧١ ــ ١٨٧٣) ، وفي أيامــه انفصلت امارة الحج الشامي عن وظيفــة الوالي ، وأفرد لهــا أمير خاص ، وأول من تقلدها محمود باشا اجليقين من أكراد دمشق • ويــذكر أن تأسيس المحاكم النظامية عام ١٨٧١ قصر صلاحيــات القاضي في المحاكم الشرعيــة على النظر في الاوقاف والتركات والاحوال الشخصية • ولكن بقي قاضي دمشــق يتمتع بمكانــة محترمة ويعين نوابــه في مختلف المحاكم الشرعية فيهــا ، كمحكمة الباب والقسام والعونيــة والسنانية والميدان والصالحية والبزورية والعمارة •

وقــد اشتهر ضيا باشا (١٨٧٧) بأعمالــه العمرانية الدينية ، ومنها اظهــار تربــة صلاح الدين الايوبي وبناء وتشييد مقام عبد الغني النابلسي ، وتجديد ضريح

---

(١) طيباوي ، المصدر نفسه ، ص ١٣٩ •
(٢) الحصني ، المصدر السابق ، ص ٢٦٩ ــ ٢٧٠ •

محي الدين بن العربي ، ولم تدم فترته سوى أربعة شهور ، وقـد امتدحه كرد علي وأشـاد بمقدرتـه[١] .

ويعتبر مدحت باشا من آبرز الـولاة المصلحين في سورية ؛ فقـد وصل الى بيروت بحرا في ٢٥ تشرين الثاني ١٨٧٨ واستقبـل بحرارة من السلطات والجماهير في المدينة[٢] . وما كاد ينهي السنة الاولى من ولايته حتى قدم استقالتـه « لدواعي التعب واعتلال الصحة والشيخوخة » ، وكان له من العمر آنذاك ٥٧ عاما . ويبـدو أنه ضمّن تقريره عن أحـوال الولاية ما يعتبر مسوغـا لاستقالته . فقـد وصف مدحت الولاية بأن الفوضى تسودها ، والناس في الساحل واقعون تحت المؤثرات الاجنبية ، وخاصة بعد آن أعفي اللبنانيون من كافة التكاليف بفضل الدعم الاجنبي. وفي الداخل الناس مستاؤون بسبب الطريقـة السيئة التي تطبق فيهـا التنظيمات ، وبسبب ضيقهم بزيادة الضرائب والتكاليف . وشكا مدحت من تجاهل مشير الجيش الخامس لطلباته بسـوق العسكر الى مناطـق التمرد والاضطراب وحماية توطـين البدو من أشقياء العربان . وأشار الى المنافسة بين بريطانيـة وفرنسة على حمايـة الطوائف بسورية ، والى المهاجرين الالمان في عكا ومستعمراتهم الجديدة في فلسطين. وقال مدحت ان السلطنة لم تفعل شيئا لاصلاح هذا الحال بسبب حربها مع روسية ، بل تابعت الحاحهـا على الولاية بطلب المزيـد من المال والرجال ، فزاد الاستيـاء وتفاقم الفساد ، وأدى خفض الرواتب وتأخرهـا الى لجوء كثير مـن الموظفين الى الاختلاس ، وعبث الجيش بأسواق بيروت ، في حين هبطت الموارد المالية الى النصف بسبب ادخال العملة الورقية ، وزادت مصاريف الولاية ، وحلّ موعد تجهيز قافلة الحج ، وهذا الحال مـن الفوضى يمكن أن تستغله الدول الطامعة لفرض سيطرتها على سوريـة[٣] .

ومن المرجح أن مدحت عندما أعيته العراقيـل التي كان يضعها الباب العـالي

---

(١) المصدر السابق نفسه ص ٢٧١ ، وانظر كرد علي ج ٣ ص ١٠٦ .

(٢) Beyrouth, Registre No. 21, Annexe II, du 29 nov. 1873.

(٣) انظر نص تقرير مدحت سالف الذكر ، وانظر أيضا طيباوي ص ١٥٥ .

أمامه ، وبعد أن سمع أن عدوه اللدود محمود نديم باشا قد انتظم في سلك الادارة العليا ، قرر ارسال استقالته ، ولكن الباب العالي رفض الاستقالة ، وطلب منه معرفة حقيقة ما دفعه لتقديمها ، وأبدى استعداده لمساعدته على تحقيق الادارة الحسنة • ويبدو أيضا أن حكومة الآستانة رفضت تلبية احتياجاته للمال ، بحجة أن الميزانية كانت تعاني من العجز • فقد وجد مدحت ان الرشوة والاختلاس من المشاكل التي تعاني منها ادارته ، ورأى أن التخفيف من شرورها يتطلب اصلاح المحاكم المدنية والجزائية ، وتعيين الموثوقين النزيهين فيها • وهذا يحتاج للمال ، والمال غير متوفر ، ولا يمكن طلبه من العاصمة • لقد نظم مدحت انتخابات مجالس الولاية بنزاهة أكبر من ذي قبل ، وسن قانونا للشرطة المحلية ، ورفض أمر الباب العالي بحسم ٣٣ ٪ من رواتب جميع موظفي الولاية ضغطا للنفقات ، وكان من رأيه أنه بدلا من ذلك ينبغي مكافأتهم لضمان ولائهم وتعاونهم • ومن ناحية أخرى فان انتزاع بعض سلطاته الهامة قد أورثه الضعف والعجز ، وحرمه الاشراف على الجمارك والمحاكم والبلديات والجيش • يؤيد ذلك ما أورده تقرير قنصل فرنسة العام في بيروت الذي ذكر أن سلطات مدحت انحصرت في رئاسة مجلس الولاية الاداري « الذي يهتم حاليا بموارد الخزانة التي تتألف من رسوم الأملاك والعقارات وضريبة العشر ، وتأمين الاموال اللازمة لقافلة الحج » وذكر أنه ينبغي على الباب العالي أن يحقق أمرين كي تستعيد ادارة الولاية فاعليتها وهما :

١ ــ أن يتسلم الوالي أمور الجيش ، ٢ ــ أن يعطي صلاحية مراقبة المجالس والبلديات والجمارك ، مع سلطة فصل الموظفين الفاسدين والمتقاعسين[1] •

لقد كان مدحت محقا في شكاواه ، فقد تأكد (مثلا) أنه اضطر للاستدانة من البنك العثماني في بيروت لتأمين نفقات قافلة الحج الشامي[2] ، ولكن السلطان وجد

---

(١) انظر التقارير الفرنسية القنصلية :
Registre No. 22, Rapp. No. 7 du 19 juin 1879.
Registre No. 22, Rapp. No. 18 du 10 sept. 1879.
Registre No. 22, Rapp. No. 17 du 20 sept. 1879.

(٢) انظر Registre No. 22, Rapp. No. 19 du 9 oct. 1879.

أن شكاواه مبالغ فيها ، وزادت شكوكه حين طلب مدحت أن يوضع الجيش بأمرته ، بينما كان السلطان يرى حل المشاكل والفتن بالوسائل السلمية جهد الامكان[1] ، تمشيا مع سياسته العربية ، ومراعاة لانكلترة التي كان سفيرها في الآستانة يشكو ويحتج كلما ساقت السلطنة عسكرها لضرب الدروز[2] . وكان يعرف كل ما يدور في سورية مثل مدحت والدبلوماسيين الاجانب ، وتصله معظم شكاوى مدحت الى هؤلاء ، كما كان واقفا على شائعات ترددت عن اعتزام مدحت اعلان نفسه حاكما مستقلا في سورية على النمط المصري . ولذلك لم يسمح له السلطان بالاستقالة ولا بالقدوم الى العاصمة حيث يمكن أن يتآمر عليه هناك ، ولا الاستيطان في منطقة مأهولة من الساحل السوري حيث يمكن في ظنه أن ينفّذ طموحه في سورية. ولكن القصر السلطاني ظل يكيل الثناء لمدحت برقيا حتى آخر لحظة لتبديد هواجسه وتطمينه[3] ، الى أن نقل الى ولاية ازمير وانتهت ولايته في سورية التي دامت عشرين شهرا .

ومهما يكن ، فقد كان لمدحت يد بيضاء على ولاية سورية في معظم نواحي الحياة العامة . وكان له الفضل في بناء المدارس الحديثة وشق الطرق الجديدة وتوسيع كثير من شوارع دمشق ، وانشاء السوق الشهيرة باسمه فيها ، وتجميل أطراف نهر بردى وتطهير مياهه من الاقذار المسبّبة للمرض ، وتأسيس مكتب الصنائع ، وتنظيم دوائر العدل والشرطة والدرك ، وتشجيع تشكيل جمعية المقاصد الخيرية الاسلامية في بيروت ، مع فروع لها في طرابلس وصيدا ودمشق .. وكان أهم أهدافها تأسيس المدارس الحديثة وتثقيف الناشئة العرب ، لابعادهم عن المدارس الاجنبية والتبشيرية . وباشر مشروع خط ترام في طرابلس ، يصل المدينة بالميناء ، وشهد عهده تعاون المسلمين والمسيحيين لتأسيس غرفة للتجارة ومقر للبورصة في بيروت . ونشّط الصناعة والزراعة ، ونشر الحرية الشخصية ولقّن

(١) انظر ص ٢٨٩ من الكتاب .
(٢) انظر حول ذلك كرد علي ، الخطط ، ج ٣ ص ١٠٥ — ١٠٦ .
(٣) Registre No. 23, Rapp. No. 32 du 14 Août 1880.

الحكام والمحكومين درسا في الوطنية والشعور بالواجب . ولذا وصف مدحت بحق بأنه مصلح عثماني مقتـدر ، وأنه كان محبـا للعرب مقربا لهـم لمعرفتهم أحـوال بلادهـم[1] .

وتسلم أحمد حمدي باشا ولاية سوريـة للمرة الثانية (الاولى كانت عـام ١٨٧٦) ، وعرف بهمته في نشر المعارف وتنفيـذ الاصلاح وتوطيد أركان الامـن في جواضر الولاية[2] . وتلاه راشد ناشد باشا عام ١٨٨٥ للمرة الثانية (الاولى كانت عام ١٨٧٧) ، ولكن طمعه أفسـد مزاياه الادارية ، ودامت ولايتـه سنتين ونصف السنة تقريبا ، وفي آخرها تشكلت ولاية بيروت ، وأنشىء سوق الحميدية والمكتب الاعـدادي الليلي بدمشق . وفي ولايـة حسن رفيق باشا (١٨٩٥) شيد معهـد المعلمين وأصلحت عمارة الجامع الاموي بصورتها الراهنـة ، ومدّت سكة حديـد بين المزيريب ودمشق ، ثم بين بيروت ودمشق . ويعتبر الوالي حسين ناظم باشـا أطول الولاة عهدا ، فقد استمرت ولايتـه اثنتي عشرة سنـة (١٨٩٧ ــ ١٩٠٩) وقـد عرف بميله للعمران ، اذ نمت مدينة دمشق في أيامـه بانشاء حي المهاجريـن في سفح جبل قاسيون ، ودار للحكومة ومشفى للغرباء ، وجلب مياه عـين الفيجة الى دمشق مقسّمة بنسب هندسية عادلة على أحيائهـا ، وربط دمشق بخط البرق الى المدينة المنورة ، وخلّد ذلك بنصب تذكاري في ساحة المرجة . وسقف أسواق دمشق بصفائح التوتيـاء لمنع سريان الحريق مـن جانب الى آخر ، ووزع الاراضي بأطراف الولاية على طوائف المهاجرين المسلمين ، وأنشأ القرى لإيوائهم . وسانـد حقوق طائفة الروم في الشام بأن يكون لهـم بطريرك عربي وطني ، فتحقق لهم ذلك وأعيدت لهم حقوقهم ، كما بنى الثكنة العسكرية (الحميدية) التي تشغلها حاليـا بعض كليات جامعة دمشق . وأنشىء خط للترام الكهربائي في عهد الوالي عارف بك المارديني (١٩١٢ ــ ١٩١٣) ، ومـدّت خطوطه مـن المرجة قرب دار الحكومـة

---

(١) انظر الحصني ، مصدر سابق ، ص ٢٧٢ ، وانظر ايضا طيباوي ، المصدر نفسه ، ص ١٥٦ ، وكرد علي ج ٣ ص ١٠٦ .

(٢) انظر الحصني ، ص ٢٧٣ ، وطالع ايضا محمد عبد الجواد القاياتي « نفحة البشام في رحلة الشام » مصر ١٣١٩ هـ / ١٩٠١ م ، ص ٤٠ ــ ٤١ .

والبلدية الى محلة الصالحية والمهاجرين . وشهد عهد خلفه خلوصي بك (١٩١٤) فشل حملة قناة السويس ضد الانكليز في مصر ، وكانت بقيادة أحمد جمال باشا المعروف بنزعته الطورانية وباستبداده وعدائه للقوميين العرب وهو الذي أصدر أحكام الاعدام على صفوة منهم في عاليه . وكان آخر وال عثماني هو رأفت بك (١٩١٨) الذي انسحب بعد دخول القوات العربية والبريطانية الى دمشق .

أما ولاية حلب ، فقد شهدت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر نهضة عمرانية وثقافية ، فقد أسس والي حلب أحمد جودت باشا ، المؤرخ المشرع ، جريدة اسبوعية اسمها (الفرات) لنشر أخبار الولاية وبلاغاتها واعلاناتها باللغتين العثمانية والعربية (١٨٦٧) . وأبدلت سقوف الاسواق في حلب بسقوف على شكل سنم الجمل ، بعد أن كانت مغطاة بالحصر المنسوجة من البردي والقصب ، ومعرضة للحريق ، وتم ذلك في عهد الوالي ناشد باشا (١٨٦٨) . وظهرت ولاية كامل باشا (١٨٧٦) جريدة عربية باسم (الشهباء) حررها عبد الرحمن الكواكبي ، وحين أغلقت حرر جريدة (الاعتدال) ، بهدف الكشف عن سيئات الموظفين وعرض حاجات البلد وتوسيع دائرة المعارف[1] .

وكان جميل باشا من أطوال الولاة مدة (١٨٧٩ — ١٨٨٦) ، فقد عني بالمعارف ونشرها ، وأنشأ المكتب الرشدي العسكري ، ومستشفى الغرباء[2] (الوطني) وشق جادة باب الفرج . وافتتح المستشفى عام ١٨٩٧ ولكن لم يستكمل اعداده الا عام ١٩٠٠ . وفي عهده بدأت تظهر ضواحي حلب الجديدة ، كضاحية الجميلية . وظهرت أول خريطة لمدينة حلب باشراف مهندس الولاية ، في عهد الوالي رائف باشا (١٨٩٥ — ١٩٠٠) الذي عرف بميله للعمران والاصلاح . وكان معاونا لمدحت باشا في ولاية بغداد ، وقد أسف الاهلون على عزله من الولاية . وشهد مطلع عهده فتنة الارمن في قضاء الزيتون من أعمال مرعش ، نشأت عن

---

(١) انظر كامل الغزي « نهر الذهب في تاريخ حلب » ج ٣ ص ٤٠٤ ، ٤٢٦ .

(٢) انظر محمد راغب الطباع « اعلام النبلاء في تاريخ حلب الشهباء » ج ٣ حلب ١٩٢٥ ص ٤٦٤ .

منازعات بعض الارمن وبعض صغار موظفي الحكومة ، فهاجم الارمن أفراد الحامية العثمانيـة وفتكوا بهم وبعائلاتهم ، فهاج الاهالي ، وقتلوا المئات مـن الارمن ، ثم أرسلت حمـلة وحاصرت الزيتـون شهرا ، الى أن توسـط السفراء ، وأثمرت جهودهم ، وصدر العفو عن زعماء الفتنة بعد أن استمرت خمسة عشر شهرا[1] .

وتأسس في حلب مكتب للصنائـع (١٩٠١) وبعـد سنتين افتتح في المعهـد الاعدادي الملكي (المدني) معرض للسلع التجارية والصناعية كالمنسوجات القطنية والحريرية المنوعة ، والغلات الزراعية والحيوانيـة ، والمصنوعات الفضية والذهبية، ودام المعرض شهرا . وفي عهد الوالي ناظم باشا (١٩٠٥ ــ ١٩٠٩) جرى احصـاء للنفوس في حلب وملحقاتها ، وتم وصل حلب مع حماة بالسكة الحديدية . وشهـد عام ١٩٠٦ تدفق الكثيرين من مهاجري القفقاس وداغستان وسواهما مـن البلدان الاسلاميـة التي استحوذت عليها روسية . اضافـة الى المهاجرين من كريت بعـد لنزاع عليهـا مع اليونـان ، فجرى اسكانهم في ولايتي حلب وسوريـة ، وأدخلت الكهربـاء الى حلب عام ١٩٠٧ وبـدأت تظهر فيها مآثر التقنيـة الحديثة كالسيارة (١٩٠٩) التي أحضرها تاجر حلبي من أوربـة لتشغيلها بين حلب والاسكندرونـة فلم تنجـح[2] .

ولا ننهي الكلام على بلاد الشـام دون أن نشير الى عمليـة (الطابو) ، أي تسجيـل الاراضي باسم الفلاحين الذين يتصرفون بأراضيهم ، أو الافراد الذيـن يرغبون في الحصـول على حق التصرف بالارض وامتلاك وثائقـه ، مقابل رسـم لا يجاوز ٥ ٪ من قيمتها التقديرية . جرت العملية في بلاد الشام ، ولكنها لم تنتـه في العهد العثماني وانما استمرت حتى عهد الانتداب الفرنسي والبريطاني . وكمـا حـدث في العراق ، سعى التجار والمقرضون والملاك الى تحويل فوائـد (الطابو) لمصلحتهم ، وذلك حـين صوروه للفلاحين بأنه وسيلة لتسجيـل الافراد للخدمـة العسكرية ، فباع الفلاحون الى الاغنياء حقوقهم المكتسبة في الاراضي التي سقوها

(١) انظر كرد علي ، الخطط ، ج ٣ ص ١١١ ، والفزي ، ج ٣ ص ٤٢٦ .
(٢) الفزي ، المصدر السابق ، ج ٣ ص ٤٨٦ ــ ٤٨٧ .

بجهدهم وعرقهم ، مقابل قيمة اسمية • وكانت اللجان المشكلة لمسح الاراضي وتعيين حدودها تتخذ قرارها بأكثرية الآراء ، مما أفسح المجال أمام ذوي النفوذ والملاّك للتلاعب والتحايل • كما سجل قسم كبير من الاراضي باسم الوجهاء والزعماء في المدن الذين يبسطون الحماية على الفلاحين ، بطلب منهم حينا ، ورغما عنهم حينا آخر ، وخاصة في فترات الفوضى وانعدام الامن ، وكانت النتيجة أن سجلت الاراضي باسمهم لا باسم الفلاحين • واقترنت عملية (الطابو) بشراء الدولة رقعة واسعة من الاراضي الزراعية بثمن بخس ، والحاقها بالاملاك السلطانية ، وذلك في نواحي حلب وحمص والنبك وشرقي البحر الميت وبيسان وسواها[1] • ويلاحظ أنه حين صدر قانون (الطابو) انتقلت صلاحية تسجيل بيع العقارات والاراضي من محاكم دمشق الشرعية الى دوائر (الطابو) •

ويتصل موضوع الهجرة بموضوع الملكية الزراعية ، ذلك أن بعض الفلاحين تركوا أراضيهم تخلصا من دفع الضرائب عليها ، أو فرارا من (نظام تحرير النفوس) لعام ١٨٨١ ؛ فالفلاحون كانوا يخشون التجنيد والضرائب • وقد شهدت بلاد الشام حركات هجرة داخلية أشرنا منها الى هجرة الدروز من لبنان الى حوران • وفي الربع الاخير من القرن الماضي غادرت بلاد الشام موجات متزايدة من المهاجرين سعيا وراء الثروة في امريكة وافريقية ومصر وخاصة بعد الاحتلال الانكليزي ، للعمل في مجالات الادارة البريطانية أو في الفعاليات الخاصة ولا سيما الصحافة • وخسرت البلاد بهجرتهم خسارة اجتماعية واقتصادية ، لأن المهاجرين كانوا من الشبان المثقفين الذين وجدوا مجالا أرحب لحرية الفكر بعد أن ضاقوا بأحوال الحياة السياسية والاقتصادية في مواطنهم الاصلية ، وهذا برغم أن الكثيرين منهم عادوا مع رساميلهم أو أرسلوا المال الى ذويهم ، فأنفق على بناء البيوت الجديدة وشراء الاراضي وزرعها بغراس الكرمة والتوت والزيتون[2] •

---

(١) انظر ص ٢٦٠ من الكتاب . وانظر ايضا بولياك « الاقطاع في مصر وسوريا وفلسطين ولبنان » ، الترجمة العربية ، بيروت ١٩٤٩ ، ص ٢١١ — ٢١٢ .

(٢) انظر طيباوي ، ص ١٧٥ — ١٧٦ .

ومقابل الهجرة الوطنية خارج بلاد الشام ، كان ثمة هجرة أجنبية اليها ؛ وقد حضرت جاليات المانية الى فلسطين أيام ولاية مدحت باشا وما قبله بقليل ، وأنشأت مستوطنات زراعية على مقربة من يافا وحيفا وناصرة وسواها ، وأثارت قلق الباشا في حينه ، وحمل أفرادها معهم الادوات الاوربية لمباشرة الفلاحة والزراعة والبذار بالطرق الحديثة •

وثمة هجرة اسلامية الى بلاد الشام أشرنا اليها ، ونضيف اليها هجرة مسلمي البوسنة (البوشناق) الى بلاد الشام في أعقاب احتلال النمسة للبوسنة والهرسك عام ١٨٧٨ ثم الحاقهما نهائيا بالنمسة عام ١٩٠٨ • وقد جرى توطينهم في بلدة قيسارية القديمة على ساحل فلسطين ، وأعطوا الاراضي لتملّكها وزراعتها •

أما الهجرة اليهودية ، فقد بدأت طلائعها منذ العهد المصري في الشام ، اذ توطنت أعداد قليلة من اليهود في مدن القدس وصفد وطبرية لدوافع دينية • وبدأ عددهم يتزايد تدريجيا ، فبلغ ١٠ آلاف عام ١٨٤٠ ، وارتفع الى ٣٥ ألفا عام ١٨٨٠ • وبعد سنتين وفد الى فلسطين اليهود من روسية وبولونية فرارا من المذابح هناك ، وهذه المرة جاؤوا بدافع استيطاني ورغبة في انشاء مستعمرات مماثلة للمستوطنات الألمانية • واذ أخفقت محاولاتهم ، سارع المتمول اليهودي ادمون روتشيلد لمعونة المستعمرتين أو الثلاث الاولى • وهنا تغيّر موقف السلطات العثمانية من التسامح الى التشدد ، لاعتبارات أهمها ما تتيحه الهجرة اليهودية للبعثات الدبلوماسية الروسية من فرص التدخل لصالح هذا العدد الكبير من المهاجرين الذين ما زالوا ــ وسيظلون لوقت طويل ــ يعتبرون من الرعايا الروس • هذا الى حرص السلطات العثمانية على عدم الاخلال بالتوازن الطائفي ، وخاصة في القدس ؛ فان تزايد عدد اليهود فيها غير مرغوب فيه اسلاميا ومسيحيا[1] • ولكن معظم الاجراءات العثمانية لتقييد بقاء اليهود في فلسطين لم تطبق ــ كالعادة ــ على نحو دقيق • وهذا برغم أن السلطان عبد الحميد رفض

(١) المصدر نفسه ص ١٧٧ •

بشدة استيطان اليهـود في فلسطين ، وذلك في رده على عميـل للزعيم الصهيوني تيودور هرتسل (١٨٩٦) :

« قال السلطان لي اذا كان هرتسل صديقك .. فانصحه بأن لا يسير أبـدا في هذا الموضوع . اني لا أستطيع أن أبيع ولو قدما واحدا من أراضي الامبراطورية ، لأنها ليست ملكي ، بل ملك شعبي .. دع اليهود يحتفظون ببلايينهم ، فاذا ما جرى تقسيم الامبراطورية ، فقد يحصل اليهود على فلسطين بدون مقابل . ولكن ما يجري تقسيمه آنذاك انما هـو جثتنا ـ لأننا لن نسمح بتشريح جسدنـا ونحن أحياء لأي غرض كـان »[1] .

معالم التطور الاقتصادي والاجتماعي والثقافي :

كان المجتمع العربي في بلاد الشام موزعا بين المـدن والرياف ، في تجمعـات مدنيـة في الاقل" ذات فعاليات حرفية تقليدية وتجارية موروثة ، أو تجمعات ريفية زراعية في الاكثر تسيطر عليها نوازع المحافظة والاستقرار . وكانت الزراعة عماد الثروة الرئيسي ووسيلة المعيشـة بالنسبة للعـدد الاكبر من سكان بـلاد الشام . فالفلاح قبيل عصر التنظيمات كان يعمـل في أرض اقطـاع أو أرض وقف أو أرض أميرية ، فهو لا يملك الارض وانما يتصرف بها فيفلحها ويزرعها . ويحرص الملتزم على بقاء الفـلاح في أرضه لضمان زرعها ودفـع الاموال المقررة عليها . فالفـلاح يزرع الارض بكد"ه نظير حق بقائه عليها ، ولـذا اقتصر على زرع ما يكفي قوتـه اليومي دون التفكير بتحسين الارض أو النهوض باتتاجيتها ومضاعفـة أرباحها . والفـلاح الذي يعيش في المدينـة أو في أرباضها ، يحمل انتاج أرضـه الى سوق المدينة يوميا ويبتاع بثمنه ما يلزمه مـن مواد غذائية وسلع أخرى مـن الحرفيين والباعـة . أما الفلاح الذي يعيش في الارياف ، فكان يبيع نتاج أرضه من الحبوب وغيرهـا ، ويشتري الخضار التي تجود في المناطق المروية القريبة منـه ، ويبتـاع

---

(١) د. أحمد طربين « قضيـة فلسطين (١٨٩٧ ـ ١٩٤٨) » دمشـق ١٩٦٨ ص ٥٦ ، نقلا عن يوميات هرتسل ـ الترجمة العربية ج ١ ص ٣٧٨ .

السكر والقهوة والشاي من الباعة المتجولين القادمين من الحواضر ، أو يبادل نتاجه مع نتاج البدو في الاسواق الاسبوعية والمواسم . وقد شجع الحكم المصري في بلاد الشام زراعة القطن وأشجار التوت لتربية شرانق الحرير ، وقمع أعمال الشقاوة . وأكملت الحكومة العثمانية التنظيمات المصرية ، وطبقت قانون الولايات وأنشأت المحاكم النظامية ، وأسهم ذلك في الحد من غارات البدو وتوطيد دعائم الامن ، فأقبل الفلاحون على الزراعة ، وارتقت أحوالهم بعد ارتفاع أسعار الحبوب والغلال ، وساعد تحسن طرق المواصلات على تسويقها في الاساكل البحرية القريبة . وعمدت الحكومة الى تشجيع زراعة القطن وكافأت المجدّين في انتاجه ، وأعفت معداتهم الحديثة المستوردة من الرسوم الجمركية ، كما أعفت غراس الزيتون من ضريبة الاعشار لمدة ثلاث سنوات اعتبارا من بدء الانتاج . وفعلت الشيء نفسه بالنسبة لغراس التوت (١٨٧٢ م) ، وأمرت مدراء الزراعة بأن يعملوا على ترغيب الاهالي بزراعة القطن والارز والنيلة ، اضافة الى الحبوب ، لتزداد ثرواتهم. كما أوعزت بتحسين نسل الخيل مجانا لمنفعة الاهالي[١] .

وفي مجال الصناعة تقف مدينتا دمشق وحلب في مقدمة المراكز الصناعية في الشام ، واشتهرت الصناعات النسيجية المتنوعة وصناعة الزجاج والخزف ولاسيما النوع المعروف بالقيشاني ، اضافة الى الصناعات المعدنية ــ الحديدية لصنع لوازم المزارعين والفلاحين وصناعة السيوف والدروع ، والنحاسية للاواني المنزلية وخلافها ، والصناعات الخشبية لصنع الآلات الموسيقية والمفروشات والخشب المطعّم بالصدف ، وصناعة الصابون والزيت والحلويات والسجاد والدباغة وصناعة الجلود والمدابغ والمصابغ والمطاحن والزجاج ، وحلج القطن وفتل الحبال والحلويات وتجفيف الفواكه والقمردين الخ ...[٢] .

---

(١) انظر عوض ، المصدر السابق ، ص ٢٤١ ــ ٢٤٢ .

(٢) لمزيد من المعلومات عن الحياة الاقتصادية في بلاد الشام ابان القرن التاسع عشر ، انظر :

علي الحسني « تاريخ سوريا الاقتصادي » دمشق ١٣٤٢ هـ ومحمد كرد علي « خطط الشام » ج ٢ ط ٢ بيروت ١٣٩١هـ/١٩٧١م .

كامل الغزي « نهر الذهب في تاريخ حلب » الجزآن الاول والثالث ، حلب ١٩٢٢ ــ ١٩٢٦ .

والصناعة في بلاد الشام ، كانت تتولاها طوائف الحرف المختلفة ؛ ويعكس القاسمي في قاموس الصناعات الشامية صورة واضحة عن وفرة الحرف والصناعات ، وتنوع منتجاتها ، وتقسيم العمل بين طوائفها واتساع تخصصها ، وتنظيم خدماتها وترابطها • وكانت حرف النسيج وما يتصل بها من الصنائع والمهن من أهم الحرف الشامية نظرا لوفرة العاملين فيها من سكان المدن والارياف ، وانتشار منسوجانها القطنية والحريرية والصوفية في الاسواق المحلية او في أسواق الاناضول والآستانة والحجاز ••• وظلت طوائف الحرف الشامية تلبي رغبات الناس وترضي أذواقهم حتى الربع الاخير من القرن الثالث عشر الهجري الموافق لمطلع الستينات من القرن التاسع عشر الميلادي ، حين بدأت أوربة تصدر منتجاتها الى أسواق العالم ، نتيجة تعاظم الثورة الصناعية ، ونتيجة التطور العظيم الذي شهدته التجارة العالمية ووسائل النقل البحري بوجه خاص ، وان كان بعض الصناعات الشامية القطنية قد استعاد بعض قوته بعد صدمة المنافسة الاجنبية[1] •

ومعلوم ان بيروت كانت ميناء بلاد الشام بأجمعها ، وقد ارتبط ازدهارها ونموها بتطور التجارة العالمية بوجه عام ، وتوسع العلاقات التجارية بين الدولة العثمانية وأوربة بوجه خاص • وقد أسهم فرع البنك العثماني في بيروت في مضاعفة المبادلات التجارية لولايتي سورية وبيروت وتقاضى أقل من نصف الفائدة التي كان صيارفة بيروت يتقاضونها • ومن الطبيعي أن يكون تأثير التنظيمات العثمانية عميقا في الاحوال الاجتماعية والاقتصادية ، وأن يتجلى هذا التأثير خاصة في المدن والاساكل مثل بيروت ، وتدفقت البضائع الاوربية على الاسواق الشامية ، وزاحمت المنتجات المحلية عامة ، والصناعات النسيجية خاصة ، بسبب رخص ثمنها ، وان قصرت عنها في الجودة والجمال • وبدأت طوائف حرف النسيج وما يتصل بها

---

(١) انظر حول ذلك طيباوي ، المصدر السابق ، ص ١٧٦ .
وصفت جريدة حديقة الاخبار البيروتية (عدد ٢٨ آب ١٨٥٨) بيروت بانها مستودع بضائع سورية وفلسطين ، فبواسطتها توزع أجواخ مانشستر ومصنوعات برمنغهام والاقمشة الحريرية من فرنسة والاسلحة من بلجيكة والورق من النمسة .. ووصلت حتى بغداد . وضمن سورية وصلت الى دمشق والقدس في الداخل ، والى طرابلس ويافا وغزة في الساحل . ومن بين الصادرات ذكرت الجريدة زيت الزيتون والحرير الخام . انظر طيباوي ص ١٦٧ .

تقاسي من كساد بضائعها وانتشار البطالة بين عمالها وتناقص أنوالها وهبوط كمية انتاجها . وأخذت بعض الحرف في المدن والقرى تتضاءل أهميتها وتختفي تدريجيا ، بسبب عدم قدرتها على منافسة البضائع الغربية المدعومة بقوة الاقتصاد الاوربي التقنية والمالية . وحين طغت نسبة الواردات على نسبة الصادرات ، خسرت بلاد الشام معظم عملتها الذهبية والفضية بعد أن سحبها التجار الاجانب ثمنا لبضائعهم ، ومال الميزان التجاري لصالح أوربة ، بعد أن كان راجحا لصالح بلاد الشام في الحقبة السابقة .

ولا بدّ من الاشارة الى تأثّر الوضع الصناعي والتجاري في بلاد الشام بنظام الامتيازات الاجنبية ، باعتبار أن هذا النظام كان من أهم العوائق السلبية التي حالت دون تحقيق نهضة اقتصادية إبان القرن الماضي ، وخاصة في النصف الثاني حين عانت من كثرة الحروب والفتن والثورات ، ومن عجز مالي دائم . لقد رتب النظام على التجار الاجانب أن الذين يعملون في أراضي الدولة العثمانية ، أن يدفعوا عن بضائعهم رسوما أقلّ بكثير من الرسوم التي يدفعها التجار الوطنيون عن بضائعهم في الاستيراد والتصدير والمرور . ذلك أن متوسط الرسوم التي يدفعها الاجانب لا تتجاوز نسبة ٣ أو ٤ ٪ من ثمن بضائعهم ، في حين يدفع الوطنيون نسبة ١٨ ٪ وقد تصل الى ٢١ ٪[1] ، الامر الذي ألحق بالصناعة والتجارة أضرارا بالغة . ان دمشق وحلب (مثلا) وهما أهم مركزين صناعيين في بلاد الشام ، كانتا تستوردان مادتي الحرير والقطن من ولايات صيدا (عكا) وطرابلس وفلسطين . ولكن التجار الاجانب كانوا ينافسون أرباب الصنائع النسيجية في البلدين على شراء هاتين المادتين الاوليتين اللتين تعتبران من أهم سلع التصدير ، نظرا للمكاسب الضخمة التي يحققونها من تصديرهما الى فرنسة وأسواق أوربة . وطبيعي أن ترفع المنافسة أسعار المادتين لتضاف الى متوسط التكلفة الاجمالية للمنسوجات الوطنية ، فلا تتمكن من منافسة المنسوجات الاجنبية . بل ان الصناعة

---

(١) اكدت معاهدة بلطة ليمان (١٨٣٨) التي وقعت بين السلطنة العثمانية وانكلترة حق الاجانب في دفع رسم الاستيراد عن بضائعهم عند انزالها في ميناء عثماني، ولكنها نصت على اعفائهم من هذا الرسم في حال اعادة تصدير تلك البضائع الى منطقة أو ولاية عثمانية ثانية .

النسيجية الحديثة التي نشأت نواتها في جبل لبنان في أواسط القرن الماضي ، واستوردت الآلية الحديثة بقيت تابعة للهيمنة الاوربية من الوجهتين المالية والتقنية.

لقد سهّلت الامتيازات الاجنبية تغلغل الرساميل الاجنبية في الولايات العثمانية مستغلة ضعف السلطنة ، وأدت الى تغلب المنافس الاوربي المتفوق تقنيا في انتاج سلع رخيصة على المنتج العثماني المحلي .

وحين حاولت السلطنة منافسةالبضائع العربية، وذلك بتشجيع الصنائع والحرف المحلية وحمايتها ، أصرّت الدول الغربية على تطبيق بنود الامتيازات التي تمنح جميع المزايا للاجانب ومنتجاتهم على حساب الحرفيين المحليين ومنتجاتهم ، مستغلّة الظروف القاسية التي مرت بها الخزانة المركزية العثمانية قبيل اعلان افلاسها ، ومسارعة الدائنين الغربيين الى تحصيل ديونهم مضاعفة من ايراد بعض المرافق الهامة في السلطنة . ومن هنا يصح القول بأن الاتصال بين بلدان الوطن العربي ، مشرقا ومغربا ، وبين أوربة كان فاجعا في القرن الماضي ، على المستويين السياسي والاقتصادي .

والتجار كالحرفيين ، انتظمتهم طوائف بحسب نوع السلع التي يبيعونها أو يستوردونها . وكانت تجارة الاستيراد والتصدير تتركز في الخانات والمراكز التجارية في المدن ، وكان لها أهمية ملحوظة في الاقتصاد الشامي ، اضافة الى قافلة الحج الشامي وما تبعثه من نشاط تجاري كبير . ويلاحظ أن التاجر كان في غالب الاحيان يشرك معه ولده أو أخاه ليقوم معه ببعض المهام المتنوعة التي يقتضيها سير العمل .

وفي ظروف الاتصال المتزايد بين بلاد الشام واوربة ، تفاعلت عوامل التطور الاقتصادي والاجتماعي ، فتمخضت عن نمو طبقة وسطى غنية (برجوازية) بدأت تماشي التطور وتنشط في الاساكل الشامية ولا سيما في بيروت ، لتمسك تدريجيا بعض أسباب القوة الاقتصادية . ولكن هذه الطبقة البرجوازية كانت تختلف عن الطبقة الموسرة القديمة من أرباب الزراعة والصناعة والتجارة ، بأن أفرادها تعلموا لغة الاجانب وأتقنوا فن التعامل معهم ، وطافوا بلدانهم ،

وتكيّفوا مع حركة الرساميل الاجنبية والاحوال الاقتصادية الجديدة التي أوجدتها ، بحيث أن الوضع الاقتصادي التقليدي لم يعد يرضي تطلعات طائفة منهم ، أو يتلاءم معها ، لأنه في نظرهم يعبّر عن حياة مجتمع تسوده مفاهيم المحافظة والتقليد ، وتنتظمه مثل في الحياة متصلة بأنماط من الحكم وعلاقات في الاقتصاد والمجتمع ، أخذ التطور الاجتماعي المتأثر بالغرب يقود الى غيرها . وكان من الطبيعي أن تكون هذه الطائفة (المتفرنجة) التي تكيفت مع أفكار الغرب وقيمه ، مسيحية في الاكثر . فمن العائلات المسيحية في بيروت آل سرسق والتويني وبسترس وغيرهم « ممن ظهر حديثا بمظهر الغنى المفرط بواسطة التجارة والمعاملات الاوروباوية »[1] . ومن العائلات المسلمة البيروتية آل بيْهم ورمضان وإياس والغندور وغيرهم اذ أصبح لهم « تجارات عظيمة وثروة جسيمة » ، وبواخر يستخدمونها لأغراض تجارتهم في البحر الابيض المتوسط وفي البحر الاحمر[2] .

وربما كان من قبيل التعميم والمبالغة أن نقول ان جميع أفراد هذه العائلات قد ولّوا وجوههم شطر الغرب (وتفرنجوا) . فثمة كثير من أفرادها ، ولعلهم الغالبية بين المسلمين ، من ظلوا محافظين في أفكارهم وتصرفاتهم ، ولم يتفاعلوا مع التأثيرات الاوربية ، مع أنهم أخذوا بنصيب وافر من الثقافة الحديثة والتعليم الغربي .

ومهما يكن الامر ، فقد كانت هذه الطبقة البرجوازية ، محدودة التأثير ، لأنها بقيت وسيطة تجاه الهيمنة الاقتصادية والمالية الغربية المدعومة بالامتيازات الاجنبية . ولأن معظم اهتمامها انصبّ على النشاط التجاري ، وعلى أعمال الوساطة والعمالة التجارية والصناعية والمالية . وبقي الاجانب يسيطرون على أهم مرافق الحياة الاقتصادية في جميع ولايات السلطنة ، بما فيها قطاع المواصلات والنقل الذي جرى تطويره ليلائم متطلبات العصر في السرعة والامان .

وحتى النصف الاول من القرن الماضي كانت طرق الشام وعرة المسالك صعبة

---

(١) محمد عبد الجواد القاياتي ، المصدر السابق ، ص ٢٦

(٢) المصدر السابق نفسه ص ١٠

العبور وكان الجمل وسيلة نقل البضائع والمتاجر بين مدن الشام والبلدان المجاورة. كما كانت الدواب المستأجرة من المكارية وسيلة المسافرين للانتقال جماعات وقوافل بين حاضرة وأخرى . وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر بدأ انشاء شبكة من الطرق البرية الجيدة ، تربط مدن الشام وتسير عليها العربة (الكروسة) وحتى ثمانينات القرن التاسع عشر كانت طرق طرابلس بيروت ، وبيروت صيدا ، والقدس دمشق وسواها ، تعبرها قوافل المسافرين على الدواب . كذلك الطرق التي تربط مدينة القدس بمدن فلسطين باستثناء الطريق الذي يصل يافا بالقدس عبر الرملة ، نظرا لأهميته للحجاج المسيحيين القادمين من الغرب عن طريق البحر . أما طريق بيروت دمشق فقد تولت بناءه شركة فرنسية بطول ١١٢ كم وعرض ٧ أمتار ، وقد افتتح سنة ١٨٦٣ وسارت عليه عربة الديليجانس[1] ، وهي عربة لنقل المسافرين تجرها ستة جياد ، وتتوقف في المحطات (خانات) على الطريق ، لاستراحة الركاب وتبديل الجياد . وتفرع من هذا الطريق شبكة طرق سارت عليها العربات وربط عددا من المدن والقرى . وفي الوقت نفسه بدأ العمل في بناء طريق عربات بين ميناء الاسكندرونة وحلب ، وتم وصل الحواضر الشامية بخطوط البرق بدءا من ١٨٦٢ ، وأدخلت اليها خدمة البريد المنتظمة (١٨٨٥). وفي سنة ١٨٦٩ صدر نظام يقضي بتعبيد طرق السلطنة . وقد ساهم هذا في تحسين أحوال الطرق وتحسين شبكتها . وافتتح طريق يصل دمشق بمنطقة حوران سنة ١٨٨٨ واستفاد منه القرى التي يمر بها وساعد على نقل منتجاتها وتسويقها في الحواضر الشامية . وكذلك ساهمت الخطوط الحديدية العثمانية في خفض أجور النقل الى الثلث بعد مدّ خط حديدي بين بيروت ودمشق عبر جبال لبنان في منتصف التسعينات من القرن التاسع عشر ، ومدّت فيما بعد خطوط حديدية أخرى ربطت

---

(١) باشرت انشاءه شركة فرنسية عام ١٨٥٩ وكان السير عليه صباحا ومساء من الجهتين بواسطة عربة الديليجانس وتقطع المسافة في ١٣ ساعة وحققت الشركة ارباحا طائلة ، واستمرت في عملها ثلاثين عاما حتى ١٨٩٢ ، حين استلمت الحكومة العثمانية الطريق ، ولكن اهملت المحافظة عليه فأصبح السير عليه صعبا الى أن أصلحه الاتراك في الحرب العالمية الاولى . انظر محمد كرد علي « خطط الشام » ج ٥ ص ٢٢٩ .

دمشق بتركية والعراق والحجاز • وأنشىء خط للترام بين مدينةطرابلس ومينائها[1] •

وبتطور طرق المواصلات ووسائل النقل تحطمت عزلة المجتمعات الريفية الزراعية والمدنية الحرفية والتجارية التي دامت عصورا ، وساعدت على تصدير المحاصيل الزراعية بكميات كبيرة ، وسهلت وصول البضائع والسلع المستوردة والمصدرة الى مناطق أبعد ، الامر الذي جعل بلاد الشام تدخل عصر المواصلات الحديثة ، لتصبح من أكثر مناطق السلطنة العثمانية تقدما ومدنية وأمنا ، وخاصة في الاوقات التي لا تنشغل فيها السلطنة بحروب خارجية مع روسية وسواها ، وترهق خزينتها المالية •

وعلى الصعيد الاجتماعي ظهرت طبقة وسطى برجوازية جديدة تتألف من التجار والاطباء والمحامين والمعلمين وأرباب الصنائع والحرف الآخرين ، نمت باطراد على حساب التنظيم الاجتماعي الاقطاعي العسكري الذي كان سائدا لقرون ثلاثة خلت ، والذي ميّز الارستقراطية (العثمانية) الحاكمة ، عن الرعية العربية الممثلة بالصنّاع والزرّاع والتجار والعلماء ••• وبدأت عناصر هذه الطبقة الوسطى البرجوازية تشق طريقها الى المراتب العسكرية والوظائف الادارية والمناصب العلمية، بعد أن كانت وقفاً على عائلات معينة ، وتعمل على تغيير بنية المجتمع الشامي وقواه الفاعلة ببطء وتدرّج ، وتدفعه نحو التنظيم البرجوازي •

صحيح أن حواضر بلاد الشام ومدنها قد اشتملت على طبقة وسطى من الحرفيين وأرباب الصنائع ورجال الاعمال ، ولكن تلك الطبقة كانت ضعيفة وغير بارزة • ولذلك فان ظهور طبقة وسطى برجوازية فاعلة ومتأثرة بحركة التنظيمات العثمانية وبالاقتباس من الغرب ، كان ظاهرة جديدة • وقد تركزت آمال المستنيرين والمصلحين على هذه الطبقة لقيادة الاصلاح والتجديد في ميادين الفكر والمجتمع والاقتصاد • ومع تقدم الطبقة الجديدة الى مراكز القيادة

---

(1) منح امتياز هذا الخط لشركة وطنية عام ١٨٧٨ ، ويمتد بين المدينة والميناء لمسافة ثلاثة كيلومترات وتجرّ حافلاته الخيل . انظر كرد علي ج ٥ ص ٢٢١ . انظر ص ٣٥٨ من الكتاب .

والتوجيـه في المجتمع ، تقدمت أيضا مثلها ومبادئها الاجتماعية ، فتطور تدريجيا شكل الاسرة من الطراز الابـوي الى الطراز الحديث على شكل أسـرة صغيرة • ويلاحظ أن الطراز الابوي القـديم كان يتميز بسلطـة الاب المطلقـة على أفراد عشيرته وأسرته الذيـن يعيشون في كنفه تحت سقف واحد ، ويضمّون الاب والام والاولاد ، اضافـة الى زوجات الاولاد وأولادهـم ، يتقاسمـون جميعا معيشـة مشتركة ، يحققون من خلالها التعـاون الاقتصادي والمنفعـة المتبادلة والحمايـة الاسرية[1] • وقد رأى أفراد هـذه الاسرة أن عيشهـم في بيت كبير يتوزعـون واجبـاب خدمته والانفاق عليـه ، يلائم التنظيم الاجتمـاعي الموروث أكثر مـن شكل الاسرة الصغـيرة التي لا تجمع أكثر مـن جيلين ، والتي تعتبر من سمـات المجتمعات الاوربية الغربيـة • ومع ظهور الطبقـة البرجوازية الجديدة ، اهتزت بنيـة الاسرة الابوية ، وظهرت فيها النزعـة الفردية ، وبدأت تتجه نحـو التفكك وانحلال الروابط بين أفرادهـا • وترتب على ذلك زعزعة الصلات العائلية وانقسام ولاءاتهـا ، فلم يعـد الابن بالضرورة يتبع خطوات أبيه في عمله وحرفته كمـا كان شائعا من قبل • وأخـذت بعض مفاهيم الاخـلاق والعادات تتغير ، بسبب انتشار الافكار الاجتماعية التي قامت على أساس الحرية الفردية واحترام حرية الآخريـن في ممارسة حقوقهم وحرياتهم •

ومـن ناحية أخرى ، ظهرت المرأة في المجتمـع بعض الظهور ، ولا سيمـا في الطوائف المسيحيـة ، وبدأ شفوف الحجاب ، واحتـدم الصراع الظـاهر والخفي بين أنصار الحجاب وخصومه • وكان لا بـد أن يطرأ بعض التغيير على المفاهيـم الجديدة التي وصلت مـن الغرب ، نتيجة تكيّفهـا مع أنماط السلوك القديمـة الراسخة ، كيمـا تصبح أكثر قبولا لـدى عامة الناس • وأخـذ التغيير يشمـل مختلف وجوه الحيـاة الاجتماعية في البـلاد ، فتطورت أشكال المـلابس ، وظهر

---

(١) Hitti, Ph. - The Impact of the West on Syria & Lebanon in the Nineteenth Century, P. 619. off print, Paris 1955.

السروال الغربي الى جانب الثياب المرسلة العريضة مثل الشروال والقنباز • وأخذ الطربوش يحل محلّ العمامة ، التي اقتصرت على المشايخ والمعلمين • وبدأ التكلف الاجتماعي يتلاشى ومعه الالقاب التي تعبّر عن الفروق الطبقية وتقاليدها الجامدة • واستعمل الكاز (الكيروسين) في الاضاءة بديل زيت الزيتون والفتيل كما رأينا •

كذلك تطورت الآداب والاذواق العامة ، فأصبح أفراد الاسرة البرجوازية يأكلون في أطباق خاصة ، في غرفة الطعام ، بدل الآنية الكبيرة التي يتحلقون حولها جلوسا فوق بساط على الارض • وينامون على السرر المريحة في غرف النوم بدل الفرش الموضوعة على أرضية القاعة • وتأنقت النساء في استخدام مساحيق التجميل والعطور الغربية ، والتزين بالحلي والمجوهرات المستوردة ، والظهور مع أوزاجهن في المناسبات الاجتماعية أو السهرات المختلطة على نحو لم يألفه المجتمع في العصر الغابر • ولكن يلاحظ بأن عدد هؤلاء (المتفرنجين) لم يكن كبيرا • كما يلاحظ أن التعاون بين المسلم العربي والمسيحي العربي بدأ يتزايد ويطرد • وهنالك شواهد عديدة على التعاون في ميادين التجارة والصناعة ، وخاصة في ميادين التعليم والثقافة • وكانت ملامح التغيير الاجتماعي تتضح تدريجيا برغم معارضة المتزمتين من رجال الدين وطلبة العلم ، ووقوفهم في وجه جهود كبار المصلحين أمثال عالي باشا وفؤاد باشا ومدحت باشا الذين وجّهوا حركة الاصلاح والتجديد في السلطنة بعد رشيد باشا ، وناصروا تيار الاقتباس من الغرب ، وعملوا على تحويل الدولة من الشكل الاقطاعي العسكري الوسيط الى الشكل العصري الحديث • وكان لا بد أن تنقضي فترة من الوقت قبل أن تنهض قوى الاستنارة الاسلامية ممثلة بطليعة الاصلاحيين المسلمين ابتداءً من الربع الاخير من القرن التاسع عشر ، مثل السيد جمال الدين الافغاني والشيخ محمد عبده المصري ، والسيد محمد رشيد رضا الشامي •• وتدعو الى مواجهة التحديات الغربية للمسلمين ، بالعودة الى مصادر الشريعة الاصلية من قرآن وسنّة والى احياء الاسلام فكريا وسياسيا ، ونبذ الجهل والجمود والتزمت ، كما سنرى في موجزنا التالي عن الوضع الثقافي •

دخلت الافكار السياسية الحديثة بلاد الشام مع الحكم المصري الـذي رافقه نظم وأعمال تعبّر عن مفهوم حديث للدولـة لم تعرفه البـلاد في العهد العثمـاني السابق • لقـد عملت الادارة المصرية على تدمير نفوذ الرؤساء والاقطاعيين والزعماء المحليـين ، وفرضت ضرائب منظمـة ، ونشرت التعليم وأدخلت برنامجـا واسعا للمرحلتين الابتدائية والثانوية • ومنذئذ بدأت تظهر تباشـير يقظة ونهضة في التعليم ولا سيما بين المسلمين الذين كانوا يشكلون طلبة المدارس الرسمية • وبعد انحسار الحكم المصري ظل أثره الباقي يفعل فعله ويدفع الفئات الواعيـة الى فتح المدارس• ثم كانت حوادث الستين سببا في ردة فعل واسعة ضد الجهل والتعصب ، وتجـدّد النشاط لافتتاح المـدارس وخاصـة بعد أن صـدر قانون المعـارف ، واستطاعت الافكار الحديثة أن تجد قبولا بين نفر مـن المستنيرين في فترة الخمسة عشر عامـا التالية • حتى اذا جاء مدحت باشـا واليا على سورية قاد المستنيرون معه حركـة (التمدّن) والاصلاح • فعمل الوالي الهمـام على تشكيـل الجمعيات الخيرية في جميع أنحـاء ولايته ، وكان أعضاؤها مـن وجوه وأعيـان المدن والحواضر في بلاد الشام[1] • وأنشأت المدارس الابتدائية مـن تبرعات الاهالي ومـن ايرادات الاوقاف • كما جمعت المكتبة الظاهرية من خزائن العائلات العلمية ، بهمّة الشيخ طاهر الجزائري الذي عين مفتشا للمدارس الابتدائية ، فجعل العربية لغة التعليـم وألّف بها عددا من الكتب المدرسية •

والى جانب هذا التعليم (الاهلي) كان يوجد في بلاد الشام التعليم التقليدي وهو ظاهرة قديمـة تمثلت في الكتاتيب وفي المدارس الدينيـة • واقتصر التعليم في الكتاتيب على قراءة القرآن وتعليم الكتابة ومبادىء الحساب والدين والمختصرات اللغوية والفقهية • أما المدارس الدينية فعنيت بالعلوم اللغوية والدينية وقليل مـن

---

(١) تشكلت الجمعية الخيرية في لواء الشام (سالنامة ولاية سورية لسنة١٢٩٧هـ (١٨٧٨ م) وتشكلت جمعية المقاصد الخيرية في لواء بيروت (سالنامة ولاية سوريـة لسنة ١٢٩٨ هـ (١٨٧٩ م) . كما تشكلت الجمعية العلمية الخيرية في لـواء طرابلس والجمعية الخيرية في لواء اللاذقية والجمعية الخيرية في لواء عكا والجمعية الخيرية في نابلس وجنين ، وجمعية المقاصد الخيرية في صيـدا .

المنطق والحساب ، والطلبة فيهـا لا ينتظمون في صفوف ، وانما يحفظون المتـون ويحضرون المطوّلات ، ثم يرتحل القادرون منهم لطلب العلم والاستزادة . وكذلك وجـد التعليم المدني العصري في المدارس الرسمية كالمكاتب الابتدائية والرشديـة والاعدادية والاختصاصية (دور معلمـين ، مكاتب صناعية ، مكاتب زراعيـة) ، الى جانب المدارس الطائفية المسيحية التي استلهمت الاساليب الغربية في مناهجهـا وطرق تدريسها ، اضافة الى التعليم العالي الـذي تركز في عاصمة السلطنـة ، ولم تنشأ معاهدة في بلاد الشام الا في مطلع القرن العشريـن . وكان تدريس العـلوم الحديثة يجري باللغة العثمانيـة .

ولا يصح اغفال جهود الارساليات الكاثوليكية والبروتستانتية في رفد حركة النهضة الثقافية العربية[1] ، ذلك أن هذه الارساليـات حاولت التأثير على الناشئـة العربية بواسطة التعليم ، فركّزت جهودها عليه في كل مظاهره الليبرالية والعلميـة والمهنية والتقنيـة ، وامتدت الجهود التعليمية الامريكية والفرنسية من جبل لبنان الى بيروت ، وتوّجت بافتتاح الكلية الانجيليـة السورية (١٨٦٦) ـ الجامعـة الامريكية فيما بعد ، وجامعة القديس يوسف (١٨٧٤) . كذلك كان للارساليـات الروسية والايطالية والالمانية دور في تأسيس عـدد من المدارس والمعاهد . وبرغم أن تأثيرها اقتصر على المسيحيين ، فقد بعثت روح المنافسة والغيرة في علماء الديـن المسلمين والمسيحيين على السواء ، فأقبلوا على انشاء المدارس الحديثـة في مختلف مـدن الشام ، مدفوعين بدوافع دينية خيرية من ناحية وثقافيـة كيانية من ناحيـة أخرى . أما المطابع العربية فقـد وجدت في الآستانـة والقاهرة قبل أن توجـد في بيروت . وقد طبعت الكتب العربيـة في الآستانة منـذ مطلع القرن التاسع عشر . ولكن مطبعـة بولاق بالقاهرة فاقتها في كميـة الكتب المطبوعة ، وخـلال الحكم المصري في الشام ، وصـل كثير من نتاج هذه المطبعة الى الشام وتداولته أيـدي جميـع طبقات القراء وبينها عـدد من كتب التراث المشهـورة . وقد جرى ذلك

---

(١) في لبنان انشـأ العازاريون مدرسـة عينطورة (١٨٣٤) وانشـأ المرسلون الامريكان بزعامة ڤانديك مدرسة في عبيه (١٨٤٦) ، والآبـاء اليسوعيون مدرسة في غزير (١٨٤٤) ، وتعتبر مدرسـة عبيه اقـدم الكليات العربية عـلى النمط الحديث وتخرّج منها طائفة من العلماء ساهموا في بناء النهضة الادبية والاجتماعية في الشام .

في عصر تمثلت ثقافته في المراكز العلميـة التي كانت تحفل بها كل حواضر الشـام وتتركز حول العلم التقليدي ورجاله ومدارسه ، وتتجلى في الحفاظ على ذلك التراث المخطوط في موضوعـات العلوم الشرعية واللغويـة والعقلية والمعارف العامـة ، والمحفوظ لدى علماء الدين المسلمين • أما الكهنـة المسيحيون فلديهم مخطوطاتهم في علومهم الدينية ، اضافة الى معرفتهم بعض اللغات كالسريانية واليونانية واللاتينية أو اللغات الاوربية الحيّة •

القومية العربية في مواجهة العنصرية الطورانية والخطط الاستعمارية :

لن يتسع المجال لتتبع ظهور وتطـور الحركة القوميـة التي عرضنـا لبعض مظاهرها وايحاءاتها في الجزيرة العربيـة ، متمثلة في الحركـة الوهابية والاصـلاح الديني الذي أحدث نوعا من اليقظة الفكرية بعد الجمود الـذي ران على المشرق العربي دهرا طويلا • لقـد كانت الحركة الوهابيـة ثورة ضد ما اعتبرتـه تحلّل العثمانيين من الدين وفسادهم في الحكم • وبعـد التنظيمات ، ضد الاصلاح عـلى الاسلوب الغربي الذي اعتبرته زيغا وانحرافا عـن جادة الاصلاح السليم • وطبيعي أن تقـوم الحركة الوهابية على دعوة دينيـة ، لأن العقيدة الدينية كانت العامـل الاقوى في توجيه الناس نحو الاهداف السياسيـة • كما سجلت دولة محمـد علي منطلقا سليما لاذابة الفوارق في الحقوق والواجبات بين مختلف الطوائف في جميـع الممالك التي حكمتها ، عن طريق تحقيق المساواة بينها • واذا لم تقم دولة محمد علي على أساس نزعـة قومية عربيـة ، فان استقـلال مصر وأخذها بوسائل المدنيـة الحديثة وعلومها ، وفتح أبوابها لاحرار العرب وأدبائهم ، أوجد نهضة فكرية وأدبية فاقت نهضة سائر الاقطار العربية •

وبينمـا لم تكن غالبية المسلمين الساحقـة في الولايا تالعربية ، راغبـة في الانفصال عن السلطنة العثمانية خشية أن تمتد اليها المطامع الاستعمارية المتربصة ، فان المسيحيين تطلعوا للانفصال عنها ، والاستعانة بحماية القناصل والسفراء الاجانب عليهـا ، ورأوا أنهم غرباء في خضم السيادة العثمانية الاسلامية • وبرغم أن التعليم

في المدارس التبشيرية قد انتشر بين المسيحيين ، فيجب أن لا نبالغ في تقـدير دور هذه المدارس في توعيـة النشء العربي قوميا وسياسيا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، لأنها قامت أساسا في محاولـة لنشر الدين المسيحي بـين المسلمين ، واجتذاب بعض الطوائف المسيحيـة الى الكثلكة أو البروتستانتية • فضلا عن أنها أثارت الشك والريبة في غالبية المسلمين ، فامتنعوا عموما عن تعاليم أبنائهم فيهـا ، وخاصة لما أثارته من عوامل الوقيعـة والبغضاء بين الطوائف الوطنية بدعم مخطط له مـن قناصل الدول الاجنبية التي تتبعها تلك المدارس •

ولكن العرب ، بدأوا في العهد الحميدي ، يحسّون بوطأة الاحكام العثمانية ، وقد آلم المحافظين منهم خاصة ، أن تنحو السلطنة في الاصلاح نحو الاقتـداء بنظم الغرب ، والغرب متربص بها وبولاياتهـا • ومع ذلك فالذين شاؤوا الانعتاق مـن الحكم العثماني ، كانوا لا يزالـون قلة تضمّ بعض المستنيرين الواعين من أهـل الفكر والمعرفة ، وذلك لأن فكرة (القومية) بمعناها الذي يتجاوز المذهبية والطائفية لم تكن قد أخذت بأسباب الشيوع بين الجماهير العربية ، ولأن الروابط والعلاقات الاجتماعية بين الناس كانت تقوم على أساس التمييز بين الطوائف والمذاهب •

حقيقـة ، تزايد التعاون بـين العرب والمسلمين والمسيحيين ، بعـد أن كفلت قوانين التنظيمـات المساواة لجميـع الطوائف ، وتجلى ذلك في الميـدان الثقافي ، كتشكيل جمعيات أدبية تكمن فيها بذور الحركة القومية العربية ، ولكن ليس مـن بيّنة مقنعة على أن مثل هذه الجمعيات الادبية كان لها أية أهداف سياسية • فقـد استبعد « مجمع التهذيب » الجدل الديني والسياسـة ، لأن هدفه تثقيف العقـل واكتساب المعارف النافعـة ، وكان أول جمعيـة في بـيروت التأم شملها في مطلع عـام ١٨٤٦ وتولى أمانة سرهـا بطرس البستاني ، بينما كـان ناصيف اليازجي واحـدا من مؤسسيها الاربعة عشر • وباستثنـاء اثنين من المبشريـن الامريكان ، فأعضاؤها جميعا كانوا مـن المسيحيين الذيـن تحولوا الى البروتستانتية ، أو مـن أصدقاء المبشرين الامريكان • وظلت الجمعيـة قائمـة لخمس سنوات ثم اختفت

في ظروف غامضة [1] . كـذلك استبعد الجـدل الديني والسياسة مـن جمعيتين أخريين ، هما جمعيـة القدس الادبيـة التي تأسست عام ١٨٤٩ على يد القنصـل الانكليزي فين Finn ، للبحث الادبي والعـلمي في الاراضي المقدسـة ، وكـان أعضاؤها أجانب ووطنيين بروتستانت . والجمعية الشرقية التي قامت بجهود وطنيين كاثوليك بتوجيه تبشيري يسوعي ، مع أهـداف وعضوية تشبه نظيرها « مجمـع التهـذيب » .

ولكن الروح الطائفية التي كانب بارزة في الجمعيـات الادبية والعلميه قبـل عـام ١٨٦٠ ، لم تلبث أن لانت وتطورت نحو اللاطائفيـة بفضل انتشار الثقافـة والتعليم ، وردّة الفعـل ضد التعصب الذميم التي سادت بعد أحـداث الستين . فأعيد تشكيل الجمعية العلمية السورية في بيروت عام ١٨٦٨ ، واندرج في عضويتها المسلمون والمسيحيون على السـواء ، واعترفت السلطات العثمانية بالجمعيـة التي ترأسها الامير محمد أرسلان ، وكان من أعضائها فؤاد باشا الوزير المصلح ، وأفراد بارزين آخرين من دمشق والقاهرة والآستانة . وأكـدت هذه الجمعية ، ربما أكثر من أيـة جمعية سابقة ، على الاسهامـات والمنجزات الحضاريـة للعرب في الفنون والعلوم ، وحثّت أحفادهم على اقتفاء أثر الاجـداد ومضاهاتهم بانشاء المـدارس والجمعيات العلميـة[2] . وعلى غرار سابقات هـذه الجمعية ، لا يمكن النظر اليها أيضا ، كمنبر للدعوة المبكرة للانبعاث السياسي العربي .

وبادر نفر مـن خريجي الكليـة الانجيلية السورية في بيروت ، جلّهم مـن المسيحيين ، الى تأليف (جمعية ثورية سرية) حوالى عام ١٨٧٦ غايتها تحرير لبنان مـن الحكم العثماني ، وحاولوا التعاون مع المسلمين تحت راية العروبة لتشكيـل جبهة موحـدة ، واجتذبـوا بعضهم الى الجمعيـة الماسونية ، كوسيـلة للنهوض

---

(١) انظر طيباوي ، المصدر السابق ، ص ١٦٠ .
(٢) انظر ابرز اسماء اعضائها في جرجي زيدان « تاريخ آداب اللغة العربية » ج ٤ ص ٦٩ـ ٧٠ .

بقضيتهم . ولكن الوحدة التي تكونت على أساس محاربة ظلم الترك العثمانيين واستبدادهم وتحقيق المساواة بين العرب والاتراك ، سرعان ما انفرط عقدها ، حين اختلفوا على الهدف الاعلى للجمعية وهو طرد الاتراك من ولاية سورية التي كانت تشمل آنذاك متصرفية جبل لبنان[1] . وثبت أن العاطفة الدينية والولاء الطائفي ما زالا أوضح من فكرة القومية .

ولكن بوادر النقمة من الحكم التركي والشكوى من صلف موظفيه واستبداده ، كانت تظهر بين آونة وأخرى ، وبأشكال مختلفة ، وتنتظم المسيحيين والمسلمين . منها (مثلا) ما ذكر عن المناشير والملصقات العربية المغفلة المكتوبة بخط اليد ، والتي وجدت في صيدا أولا عام ١٨٨٠ ثم في بعض المدن الشامية الاخرى ، كبيروت ودمشق وطرابلس . وقد شجبت الفساد والظلم في الادارة العثمانية ، ودعت الى طرد العثمانيين . وبرغم أنه بولغ في تقدير أهميتها ، إلا أننا نعرض لها لوضعها في اطارها التاريخي الصحيح . فقد كتب من بيروت القنصل الفرنسي سينكفكس ، أنه في أواخر ولاية مدحت باشا ، وعلى أثر حادثة محلية عادية ، مفادها أن قائمقام صيدا رفض ترشيح بعض الاهالي من طوائف مختلفة ، للانتخاب كقضاة في المحاكم النظامية ، ظهرت مناشير تدعو لطرد الترك وتسمية قائمقام عربي في صيدا . وذكر سينكفكس في تقريره عنها لوزير خارجيته فريسينيه أن السلطات المركزية العثمانية أرسلت توبيخا شديدا الى الوالي لعجزه عن القبض على ملصقي المناشير ، وأن السلطات المحلية قبضت على بعض أعضاء جمعية المقاصد الخيرية الاسلامية في صيدا وعلى المتسببين في النزاع مع القائمقام ، ونقلتهم الى بيروت للتحقيق معهم ، برغم أنه لم تتضح للقنصل هوية الفاعلين[2] . وبعد خمسة عشر يوما كتب سينكفكس يقول انه ظهرت مناشير جديدة ليلة ٣١ كانون الاول ١٨٨٠ ذات لهجة أشد من السابقة ، وطالبت بالاستقلال الذاتي المدني والعسكري

---

(١) انظر للاستزادة ، زين نور الدين زين « نشوء القومية العربية » ط ٣ ، بيروت ١٩٧٩ ، ص ٦٠ ــ ٦١ .

(٢) Registre No. 23 Rapp. No. 48 du 30 déc. 1880.

لسورية ، وادارة مماثلة للبنان • ولكن القنصل الفرنسي لم يعلق عليها أهمية كبيرة • وقد أنهى رستم باشا حاكم متصرفية جبل لبنان الى القنصل الفرنسي بأنه واثق من أن جمعية المقاصد الخيرية كانت وراء المناشير ، وأن أحمد حمدي باشا والي سورية يشاطر رستم هذا الرأي ، على حد" قول رستم[1] • ونقل القنصل الانكليزي العام في بيروت ديكسون في رسالة بتاريخ ١٧ كانون الثاني ١٨٨١ ما اعتبره الرأي السائد الموحد بأن مصدر المناشير هو جمعية المقاصد الخيرية التي تأسست قبل سنة ونصف السنة برعاية مدحت باشا ، كستار للجمعية الثورية السرية التي كان مدحت أحد أعضائها السريين ، وقال ان مدحت باشا أنشأ جمعية المقاصد لكي يعزز نشاط الجمعية الثورية ويعضدها وأن مدحت ، فيما يقال ، ما زال على اتصال وثيق بالجمعية بالرغم من وجوده في ولاية ازمير ، وأن لمدحت ضلعا في توزيع هذه المناشير في سورية بواسطة عملائه السريين • وختم تقريره بقوله : « •• ويخيل الي أن الشعب اللبناني الذي ينعم نسبيا بعيش حر" وبحياة هانئة ، سيتردد كثيرا في أمر الاشتراك مع السوريين في ثورة ضد الاتراك • وعليه فانني أرى أن هذه المناشير التي ظهرت مؤخرا ، يجب أن تعتبر تعبيرا عن نقمة عابرة دون أن يترتب عليها نتائج ذات خطورة •• »[2] •

ويبدو أنه كان لدى السلطات العثمانية بيّنات أخرى لم تفصح عنها ، لأنها حظرت نشاط جمعية المقاصد ونقلت مهامها الى شعبة المعارف في بيروت ، ونعلم أن الشيخ محمد عبده الذي كان يقضي فترة نفيه في بيروت بعد ثورة عرابي والاحتلال الانكليزي لمصر ، شجب حظر جمعية المقاصد ، وذكر بأن مدارسها أنقذت أولاد المسلمين من الخضوع للمؤثرات التبشيرية والولاءات الاجنبية • وعلى الرغم من أن أعيان بيروت وزعماءها وقعوا عريضة عبّروا فيها عن ولائهم للسلطان ، واستنكروا كل حركة ثورية ضده ، فان هذه المناشير التي انحصرت

---

(١) Registre No. 24, Rapp. No. 51 du 15 Jan. 1881.

(٢) انظر للمزيد عن تقرير القنصل الانكليزي ديكسون ، زين : المصدر السابق ، ص ٦٥ — ٦٦ •

ضمن عدد محـدود من الأفراد ، مع دعم شعبي ضئيل ، كان مبعثها نزعة قوميـة نشأت في نفوسهم ، وكانت ذات دلالة على عمل مستمر أوسع ، يتولاه القوميـون العرب في الجيـل القادم ، كمـا كانت نذيرا للسلطات العثمانية بأن تشدّد رقابتها على الصحف والكتب والتعليم .

ومهما يكن مـن أمر ، فمن الجلي أن بوادر النقمـة ضـد الحكم العثماني لا يمكن أن تنهض دليلا على محاولة منظمـة قام بها المسلمون العرب للانفصـال عن السلطنة واقامة دولة عربيـة مستقلة برئاسة مدحت أو غـيره ، لسبب بسيط ، هـو أن الزعماء والقادة كانوا يدركـون تماما تصارع المطامع الدولية من حـول السلطنة للسيطرة عليها واقتطاع أجزائهـا . كما يعلمون أن أي ضعف أو وهـن يصيبهـا ، لا بدّ أن يدفع الدول الغربية أو واحـدة منها ، الى احتـلال الولايات العربيـة ، ولا سيما في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الذي بلغ فيـه المـدّ الاستعمـاري الغربي ذروته في افريقيـة وآسية . ومـن هنا كان أقصى ما طلبـه العرب آنذاك هو اصلاح نظم الدولة والقضـاء على الفساد والاستبداد ، والمساواة مع الترك في الحقـوق والواجبات ، وتحقيـق قسط أوفى من الحريـة السياسية والمدنيـة في سورية . أما في لبنـان ، فقد طالب المسيحيون بالاصـلاح السياسي والاستقلال السياسي .

واذ رأى المفكرون المسلمـون في احتلال فرنسـة لتونس ، وانكلترة لمصر ، برهانا جديدا على تآمر الغرب على البلدان الاسلامية ، وعلى فشل السلطنة مجددا في استرضاء الغرب ووقف عدوانه على ممالكها ، فقد سارعوا الى المطالبـة باصلاح الادارة لضمان انبعاث الاسلام السياسي ومؤسساته ، وكان من أشهرهم جمال الدين الافغـاني ومحمد عبـده وعبد الرحمـن الكواكبي ومحمد رشيـد رضا صاحب مجلة المنـار .

وترجع أهمية الافغاني الى أنـه أنشأ جيـلا كاملا مـن المفكرين السياسين

أمثال الشيخ محمد عبده وسعد زغلول ومصطفى كامل وعبد الله النـديم ، وأديب اسحاق ، وعبد الرحمـن الكواكبي ، وكان هدفـه « تجديد حياة احدى الـدول الاسلامية وتقويتها حتى تبلغ مستوى الدول الكبرى ، ومـن ثم تعيد الاسـلام الى سالف عزّه » ، وكانت السلطنة العثمانية عنده مرشحة للقيام بذلك[1] . ومـن كلماته التي كانت تؤجج الحماس في الصدور « الحرية تؤخذ ولا تعطى والاستقلال يؤخذ ولا يعطى » .

أما محمد عبـده ، فيصفـه الاستاذ جب بأنـه « أعظم مصـلح حقيقي في الاسلام » ، ويهدف الى تحرير الفكر من عبودية التقليـد ، ولذا ينبغي تبصـير المسلمين بحقيقة دينهم ، ورفـع استبداد حكامهم والدفاع عـن الاسلام في وجـه التيارات الإدبية والتهجمات المسيحية ، اضافة الى مقاومته احتلال الغرب للاقطـار الاسلامية ووقوفه في وجه التيارات الثقافية الاوربية الضارة ، والحضارة المادية[2] .

أمـا عبد الرحمن الكواكبي (١٨٥٣ ــ ١٩٠٢) فقد جمع في شخصه التيارات الاربعـة الكبرى التي سـادت عصره وهي : الانبعـاث الاسلامي ، والقوميـة العربيـة ، والتمـدن الغربي ، والنزعة الدستوريـة والاجتماعية . وكان يؤمـن بمستقبل الاسلام والامة العربية ، ويكره كل أنواع الظلم والتعصب ، وكان لقبـه في حلب مسقط رأسه (أبو الضعفاء) ، وكان في مقـدمة من تأثر بالنهضة العلميـة التي أوجدها محمد علي في مصر ، وانتقل تأثيرها الى بلاد الشام ، ومهدت لقيـام نهضة فكرية وأدبيـة فيها . وأكسبه تهجمه على الاستبداد والفساد سخط خصومه، فتآمروا عليـه مع والي حلب عارف باشا (١٨٨٩ ــ ١٨٩٢) للايقاع به ، فـأودع السجـن ، ثم أطلق سراحـه بعد أن قضت محكمـة بيروت ببراءتـه وطلبت عزل الوالي ، فعزل . وحاول عبد الحميـد أن يستميله ليجعله داعية من دعاته ، فعيّنـه رئيسا لبلدية حلب ومنحه النيشان المجيدي (١٨٩٢) ، ولكن الكواكبي لم يطمئن ، فهاجر الى مصر خلسـة عام ١٨٩٨ حيث نشر كتابيـه أم القرى وطبائع الاستبـداد اللـذين يعكسـان آراءه وأهدافـه في بعث الحياة الاسلاميـة عامـة والحيـاة

(١) انظر ص ٢٩١ ــ ٢٩٣ من الكتاب .
(٢) انظر دراسة جب حول ذلك

Gibb H. A. R. Modern Trends in Islam, Chicago, 1947, P. 33.

العربيــة خاصــة .

أنكر الكواكبي التشدّد في الدين لأن الديــن يسر ، وتناسى الاختــلاف في المــذاهب ، فلا سنّي ولا شيعي ، واستنكر الخلاف بين الفقهــاء ودعا الى نبــذه ليسترد الاسلام سماحتــه والعقل قوته فتكون اليقظة العقلية الداعيــة الى التحرر الفكري والاصلاح الديني والسياسي والاجتماعي . وقال ان الاسلام يكره الحكم المطلق ، والاستبــداد والمستبدين ، ويحضّ على الحكم الشوري . فالحرية « أعزّ شيء لدى الانسان بعد حياته » وبدونها « تفقــد الآمال وتبطل الاعمال وتمــوت النفوس وتتعطــل الشرائع وتختــل القوانين » . ويرى أن التربيــة هي المنقــذ الوحيــد من الاستبداد ، فثمة حرب دائمة بين العلم والاستبداد . وكان الكواكبي يميّز بين المسلمين العرب والمسلمين غير العرب تمييزا دقيقــا ، ويؤكد على المكانــة الخاصة التي يحتلها العرب في الاسلام بفضل لغتهم وشرف نسبهم ، ولأن اسلامهم يفضل اسلام الترك[1] . ولذلك فالعرب هم الوسيلة لجمع الكلمة الدينية . وقــد ظهرت الدعوة الى اقامة خلافــة عربية في كتابه (أم القرى) ، وفيه تناول العوامل التي أدت الى انحطاط المسلمين على شكل مناقشــات تجري بين منتسبين لمختلف البلاد الاسلامية ، ويخرج مــن هذه المناقشات بالدعــوة الى اقامة خلافة عربيــة تقوم على أكتاف العرب وتكون مكة عاصمتها . وكان كرفاعة الطهطاوي مــن قبله (١٨٠١ ــ ١٨٧٣) ، يستشهد بآيــات القرآن ليظهر ليحث الناس على ممارسـة مضمونها ، وكان يرى ضرورة اصلاح أخلاق النخبة قبل غيرها . وحارب الكواكبي التفاوت بين الناس في الثروة ، لأنها مصدر المشاكل الاجتماعية ، وباعث على الظلم والتحكم والاستبداد . ولــذلك شجب التفاوت الطبقي ورفض الاعتراف بملكيــة خاصة للاراضي ، فالأحق بالارض هو الــذي يعمل فيها . وامتدح الاســلام لأنه ترك معظم الاراضي الزراعية ملكا لعامة الامة يستنبتها ، ويتمتع بخيراتهــا العاملون

---

(١) انظر ام القرى ، القاهرة ، ١٣١٦ هـ ، ص ٢١٧ . وانظر ايضا احمد عزت الاعظمي « القضية العربية » ج ١ : بغداد ١٩٣١ ، ص ٣٩ ــ ٤٢ .

فيها فقط ، وليس عليهم غير العشر والخراج[1] . واذا تعذّر تحقيق ذلك ، فلا أقل من تحديد الملكيــة وحماية الفلاح من الديون .

وعرض الكواكبي بجرأة لناحية العدالة الاجتماعية ، حين أكـد أن في أموال الاغنياء حقا معلومـا للبائس والمحروم ، وأنه لو التزم المسلمون مبـادىء الشرع الاسلامي « لأمنوا الفقر وعاشوا عيشة الاشتراك العمومي المنتظم الذي يتطلع الى مثله أغلب العالم المتمدن الافرنجي » . ورأى أن تعطيـل دفع الزكاة والكفـارات وانتشار الربا الذي يربي الثروات ، قد أخلّ بالتساوي بين الناس[2] . ويتضح من من الحلول التي طرحها الكواكبي أنه كان ميالا الى الاشتراكية ، وأنه فعـل ما فعله أكثر معاصريه في محاولة الاصـلاح على أساس الدين ، ليبدو مقبـولا من الحكام والشعب[3] . ويذكر أن (طبائع الاستبداد) ينتهي بدعوة المسلمـين والمسيحيين من العرب الى الاتحاد وتناسي الاحقاد والاتفاق على كلمات سواء وهي : فلتحيـا الامة العربية ، وليحيا الوطن ، ولنحيا أعزة طلقاء . وكان مـن الطبيعي أن تساعـد المبادىء التي طرحهـا الكواكبي ، على بلورة وعي عربي ، بدأ ينتشر تدريجيا بـين المسلمين ، ويدفع المستنيرين والواعين من العرب الى رفض التسلط العثماني المقنع ببرقـع الخلافـة[4] .

وعلى غرار الكواكبي ومحمد عبده ، يعتبر محمد رشيد رضا (١٨٦٥ـ١٩٣٥) من دعاة الانبعاث الاسلامي ، وان كـان يخصّ العرب بمكانة مركزية في مصـير الاسلام . وكان قد لقي الشيخ محمد عبـده في طرابلس في منتصف الثمانيـات ، وطالع أعداد (العروة الوثقى) فتأثر بمقـالاتها كثيرا . وبعد عشـر سنوات ، لقي محمد عبده ثانية في طرابلس ، ومنذئذ أصبـح تلميذه الامين وشـارح أفكاره ، وهاجر من بلده الى القاهرة (١٨٩٧) ، وفي العام التالي أصدر مجلة (المنار) التي

---

(١) انظر طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد ، القاهرة ١٩٣١ ، ص ٦٤ .

(٢) المصدر نفسه ص ٦٦ ، ٧٠ ، ٧١ .

(٣) انظر الامير مصطفى الشهابي « القومية العربية » مطبوعات معهد الدراسات العربية بالقاهرة ١٨٥٩ ، ص ٥٧ ـ ٥٨ .

(٤) انظر ص ٢٩٦ من الكتاب . ويلاحظ أن نسخا من أم القرى وطبائع الاستبداد وصلت الى الحواضر الشامية ومنها حلب ، بصورة خفية ، وجرى تداولها ومطالعتهـا بشغف مـن الكثيرين .

غدت منبر الدعوة الى الاصلاح الاسلامي وفقا لمدرسة الاصلاحيين الاسلاميين وخاصة محمد عبده ، واستمر يصدرها حتى وفاته عام ١٩٣٥ • وتعتبر (المنار) مصدرا هاما لتاريخ الفكر العربي الاسلامي في هذه الحقبة • وقد رأى رضا ، كأستاذه محمد عبده ، أن السلطنة العثمانية آخر الدول الاسلامية الباقية ، ولهذا ، تستحق المساندة والتأييد •

وقاوم الفكرة الرامية الى احلال خلافة جديدة محل الخلافة العثمانية ، معتبرا أنها من وحي أجنبي ، ولا تخدم سوى المصالح الاجنبية • فالخلافة ضرورية للعرب والشعوب الاسلامية ، لأنها الوحيدة القادرة على حمايتهم بالقوة من السيطرة الاجنبية • ولكنه من ناحية أخرى ، كان يرى أن الخلافة العثمانية ليست أصيلة لأنها تفتقر الى أحد الشروط الجوهرية للاجتهاد ، وهو معرفة اللغة العربية التي لا يتسنى التفكير في عقائد الاسلام وشرائعه إلا بواسطتها • وكان يرى الشر المستطير في الجمود والتقليد ، ولا سيما في المرحلة المعاصرة التي تحتاج فيها البلدان الاسلامية الى مواجهة تحديات التمدن الغربي بقبول ما يكفي منه لاستعادة قوة المسلمين • ويظهر ميل رضا للتمدن والتحديث أيضا في مشاركته بالجدل الذي أثاره قاسم أمين حول حقوق المرأة المسلمة ، وكان من رأيه أنه يحق لها أن تشارك في الحياة الاجتماعية الاسلامية ، كما فعلت في أيام الحضارة العربية الزاهرة[1] •

وممن أظهر القضية العربية في الغرب ، نجيب عازوري وهو كاثوليكي ذو نشأة فرنسية ، كان موظفا مدنيا عثمانيا قبل أن يختار الاقامة في باريس ، حيث عرف بمقالاته الصحفية الداعية الى ثورة العرب ضد السلطنة العثمانية والاستقلال عنها • وفي عام ١٩٠٥ نشر كتابا بالفرنسية اسمه (يقظة الامة العربية) ، دعا فيه الى فصل الولايات العربية عن السلطنة العثمانية ، على أن يكون الحجاز مقرا لخلافة عربية، وتقوم في الشام والعراق ولبنان دولة عربية واحدة على الاسس الغربية الحديثة•

---

(١) انظر حول ذلك : حوراني . مصدر سبق ذكره ، ص ٢٧٣ ؛ ٢٨٦ ؛ ٢٨٨ .

ثم أصدر عام ١٩٠٧ مع جماعة من الكتاب الفرنسيين مجلة شهرية عنوانها (استقلال العرب) لم تعش أكثر من سنة وبعض السنة . ومن الطبيعي أن نشاط عازوري القومي في باريس ، لا يمكن أن يبلغ صداه المشرق العربي في يسر ، أو يكون له تأثيره في نفوس العاملين في الحركة القومية[١] .

وفي حين حذّر عازوري من مطامع القوميين اليهود في العودة الى فلسطين ، فقد ناقض نفسه في وقت لاحق ، حين ألمح في جريدة (استقلال العرب) الى أن انشاء المستعمرات والمصارف اليهودية يؤدي الى تقوية القومية العربية بفضل مصالح أقطاب المال في العالم[٢] .

ويبرز بين الكتاب المتحررين أديب اسحاق (١٨٥٦ — ١٨٨٥) ، ولد بدمشق وتلقى تعليمه في المدارس التبشيرية بدمشق وبيروت ، ثم غادر الشام الى مصر حيث نبغ بين تلاميذ الافغاني واشترك في الحركة الوطنية ، وأصدر جريدة مصر (١٨٧٧) والتجارة (١٨٧٨) وكتب مقالات في الحقوق والواجبات والحرية والوطنية ، ويعتبر داعية نشيطا للتحرر والنزعة الدستورية . ويعكس مفهومه للوطن عمقا وأصالة ، فالوطن عنده هو المكان الذي تضمن فيه حقوق الانسان ، وتترتب عليه الواجبات تجاهه ، فلا وطن بدون حرية ، ولا حرية بدون فضيلة . وناقش اسحاق مواضيع الحرية والدستور وحقوق الانسان ، فقال ان الحرية هي التقيد بقوانين يشترك الشعب في وضعها عن طريق ممثليه ، وان المساواة لا تكون بإلغاء الطبقات ، وانما بنبذ التمييز والتحيز ونزاهة القوانين وتكافؤ الفرص ، والمساواة تتحقق حين « يسري قانون واحد على جميع المواطنين يمثلون كلهم أمامه ، لا فرق بين غني وفقير وقوي وضعيف وأبناء مذهب ومذهب »[٣] .

(١) انظر الشهابي ، المصدر نفسه ، ص ٥٩ .
(٢) انظر حول ذلك ، حوراني ، ص ٣٣٣ .
(٣) انظر آثار اديب اسحق ، جمعها اخوه عوني اسحاق في كتاب (الدرر) ، بيروت ١٩٠٩ .

ومن رواد الانبعاث الادبي العربي ناصيف اليازجي وبطرس البستاني وأحمد فارس الشدياق ، ويوسف الاسير • كان ناصيف اليازجي (١٨٠٠ — ١٨٧١) من أسرة كاثوليكية حمصية الاصل ، تلقى تعليما تقليديا ، ونشأ غيورا على مآثر التراث العربي كأي عالم مسلم في عصره • وتميّز بذاكرة قوية استوعبت محفوظا ضخما من الشعر العربي ، اضافة الى أنه درس القرآن وحفظه عن ظهر قلب • وقد استعان به المرسلون الامريكان لتعليمهم اللغة العربية ، ولترجمة الكتاب المقدس الى العربية • واشترك مع بطرس البستاني في تحرير جريدة (نفير سوريا) التي صدرت عام ١٨٦٠ ، ودعت الى التآلف والتعاون بين الطوائف ، ووضع عددا من التواليف في علوم اللغة العربية وآدابها •

أما بطرس البستاني (١٨١٩ — ١٨٨٢) فهو ماروني تلقى تعليمه في مدرسة عين ورقة المارونية ، ثم قام بالتدريس فيها ، واعتنق البروتستانتية وانتقل الى مدرسة عبيه للمرسلين الامريكان ، وبرغم أنه تعاون معهم ، إلا أنه اتخذ نهجا مستقلا ، وأسس (المدرسة الوطنية) عام ١٨٦٣ لتعليم الطلاب من مختلف الطوائف على أسس وطنية ، ووضع لها كتبا مقبولة من الجميع ، ودرس في المدرسة الوطنية الكثيرون من المسلمين والمسيحيين ، منهم عبد القادر القباني صاحب مطبعة وجريدة (ثمرات الفنون) (١٨٧٥) • وبفضل اتقان البستاني لبعض اللغات الاجنبية ، فانه باشر وعائلته اصدار دائرة معارف بمعونة مالية من الخديوي اسماعيل ، وتابع أبناؤه اصدار أجزائها وتشمل أبحاثا في العلوم والطب والهندسة، وأنماطا من الفكر اللبرالي السائد في أوربة وامريكة • كما نشر (محيط المحيط) وهو قاموس المحيط للفيروزابادي مرتبا على نسق أبجدي حديث • ومع أن مجلة (الجنان) التي أصدرها عام ١٨٧٠ دعت الى وحدة الوطن العثماني التي كان جو السبعينات عابقا بأفكارها وترتيباتها ، فانها تضمنت اعتزازا بالوطن المحلي ؛ « فالامبراطورية (العثمانية) هي وطننا ، لكن بلادنا هي سوريا » • واذا امتدح الحكومة العثمانية لإسنادها الوظائف المحلية للوطنيين العرب ، كما حدث في بيروت ، فانه كان مقتنعا بعروبة جميع الناطقين بالضاد من مسيحيين ومسلمين ،

ومدركا أهمية الوحدة الوطنيـة ، وضرورة نبذ التعصب والاحترام المتبادل بـين الديانات ، ولا أدلّ على ذلك مـن أنه جعل شعار مجلتـه (نفير سوريا) الحديث النبوي الشريف : « حب الوطن من الايمان »(١) ٠

وأحمد فارس الشدياق (١٨٠٤ ـ ١٨٨٧) مـن عائلة مارونية عريقة ، تلقى العلم في مدرسة عين ورقـة ، ولما أصبح أخوه أسعـد بروتستانتيا يعمل بتدريس اللغة العربيـة للمبشريـن الامريكان ، أمر البطريرك الماروني بسجنـه واعدامه ، فالتجأ فارس الى مصر ثم مالطة ولندن حيث اشتغـل بالترجمة والصحافة ٠ وزار تونس بدعوة من الباي أحمد حيث اعتنق الاسـلام وتسمى بأحمد ٠ ثم استقر في الآستانة بدعوة مـن السلطان وأصدر صحيفـة (الجوائب) عام ١٨٦٠ ، فاستمر في تحريرها حتى اعتزل عام ١٨٨٣ فحررها ابنه سليم ، وكانت أول صحيفة عربيـة ذات نفوذ كبير وانتشار واسع ، كمـا كانت منبرا تتبارى عليه أقلام كتّاب العرب وأدبائهم(٢) ٠ وعالج محررها مختلف المواضيع السياسيـة والاجتماعية بمستوى فكري راق وأسلوب لغوي متين ٠ واشتهر الشدياق بعدد من المؤلفات اللغوية مثل « الجاسوس على القامـوس » وهـو نقد للفيروزابادي صاحب قامـوس المحيط المتوفى عام ١٤١٤ م ٠

أمـا يوسف الاسير (١٨١٤ ـ ١٨٨٩) فقد ولد في صيـدا وتعلم في دمشق وفي الازهر ، وعلّم العربية في دار المعلمين العالية بالآستانة قبل عودتـه الى الشام واستقراره في بيروت حيث انقطع للتعليم والدرس ، وترجـع أهميته الى أنه نشـر العلوم العربية والاسلامية بين المسيحيين في بيروت ولبنان واستفاد منـه المبشرون الامريكان ولا سيمـا فانديك الـذي كان كثـير الاعجـاب بمعارفه ومقدرتـه اللغويـة والادبيـة ٠

---

(١) انظر حول ذلك ، حوراني ، ص ١٢٩ ، ٣٢٧ ٠

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٢٥ ـ ١٢٦ ٠

ويضيق المجال عن ذكر علماء ومفكرين آخرين كان لهم فضل لا ينكر في حركة الانبعاث الادبي والفكري ، مثل محمود حمزة (١٨٢٠ ــ ١٨٧٥) مفتي دمشق ومن أبرز علماء الشام ، وتشهد تواليفه بطول باعه في معارف وفنون عصره ، وقد رأس شعبة المعارف في الولاية . ومنهم على سبيل المثال لا الحصر ، ابراهيم الاحدب (المتوفى عام ١٨٩٠) الشاعر والاديب المشهور في ميادين النحو والبلاغة والادب ، ورفيق العظم الكاتب الاجتماعي الذي نشر في صحف مصر ومجلاتها، وتردد على مجلس الشيخ محمد عبده ، وعلى الشيخ علي يوسف صاحب جريدة (المؤيد) وكان على مودة مع الزعيمين مصطفى كامل ومحمد فريد . وحسين بيهم رئيس الجمعية العلمية السورية ، ومحي الدين اليافي ، وأحمد عباس الازهري ، وحسين الجسر ، وجمال الدين القاسمي ، وسليم البخاري ، ورفيق العظم ، وعبد القادر المغربي ، وشكيب أرسلان ، وعبد الحميد الزهراوي ، والدكتور صلاح الدين القاسمي ، وضياء الدين الخالدي ، وشكري العسلي ، ومحب الدين الخطيب ، ومحمد كامل القصاب ، ومحمد كرد علي .. وقد عمل هؤلاء وغيرهم لرفعة العرب ومجدهم ولنشر اللغة العربية وجعلها لغة التعليم والادارة والجيش في الولايات العربية . وفي الميدان الصحفي ، أصدر سليم تقلا وأخوه بشارة ، جريدة (الاهرام) في مصر ، كما أصدر يعقوب صروف وفارس نمر مجلة (المقتطف) في بيروت أولا ، ثم في مصر بعد نزوحهما اليها عام ١٨٨٣ ، اضافة الى جريدة (المقطم) . وأصدر جرجي زيدان مجلة (الهلال) الشهرية على غرار المقتطف ، كما أصدر رشيد الدنا جريدة (بيروت) ، وأنشأ عبد الغني العريسي جريدة (المفيد) ، وكانت مجلة (المقتبس) لمحمد كرد علي لسان حال نخبة النابهين المتعلمين في دمشق[1] . وهؤلاء جميعا على تباين آرائهم كانت تتضافر جهودهم في تثقيف مواطنيهم وتنوير أذهانهم ، وتهيئة الجو لانتقال النهضة من مجالها الادبي الثقافي الى المجال القومي السياسي .

ان الكشف على التراث العربي القديم كان حافزا أساسيا لليقظة العربية ، وقد

---

(١) انظر أسماء الصحف العربية وتواريخ تأسيسها في بلاد الشام والعراق ، فيليب دي طرازي « تاريخ الصحافة العربية » ج ٤ بيروت ١٩٣٣ .

سهل تقدم الطباعة انتشار مآثرها الادبية واللغوية ، وتزايد عدد القراء العرب نتيجة اتساع حركة التعليم في المدارس الجديدة • وكرة أخرى غدت اللغة العربية ــ كما كانت قبل ألف سنة ــ أداة نقل الثقافة وواسطة العقد في التساند القومي ، والعلاقة المميزة للشعوب التي تستعملها • وهذا مجرى من مجاري الحركة القومية الوحدوية التي لا تكترث بالخصائص المحلية والانشغالات الاقليمية •

واذا كان الفكر القومي لم يتخذ موضوعا واقعيا حيا الا في بلاد الشام ، فما تم ذلك الا بسبب من انتشار العلم وتفتح الوعي لدى شعب هــذه المنطقة المعرضــة للتيارات الغربية أكثر من بقية أجزاء الوطن العربي ، وكذلك انطلقت صرخات التحرر لنبذ الخلاف وتنفيذ الاصلاح ، مطالبة الترك بحقوق العرب المسلوبــة[1] • وعلى الرغم من نشوب فتن واضطرابات محلية بين آونة وأخرى فان الحركة العربيــة لم تكن ذات غناء لأن المبشرين بها كانوا قلة ، ولأن الوعي الشعبي الذي يسند الفئات المناضلة ، ما وصل بعد الى درجة النضوج والتغلغــل في نفوس الجماهير • وحتى تلك الصفوة من المفكرين الاحرار ما كانت سواء في فهم المبادىء وتهيئة الوسائل وتحقيق الاهــداف •

ويمكن تلخيص الاتجاهات السياسية العربية قبل الانقلاب الدستوري عــام ١٩٠٨ بخمسة تيارات رئيسية :

١ ــ السعي لاحياء الخلافة العربية لتحل محل الخلافة العثمانية •

٢ ــ الاشتراك مع أحرار الترك للمطالبة باجراء اصلاحات عامة تشمل الولايات العثمانية كافــة •

٣ ــ المطالبة بحق البلاد العربية في اصلاحات خاصة بها •

٤ ــ السعي لانفصال البلاد العربية عن الدولة العثمانية لانشاء دولة عربيــة موحــدة •

٥ ــ طلب الحماية مــن دولة أوربية •

---

(١) أحمد عزت الاعظمي « القضية العربية » ، جـ ١ ص ٥٠ •

ومعلوم أن التيار الاول كان خاصا ببعض جماعات المسلمين والتيار الاخير كان يضم بعض جماعات المسيحيين ، والتيارات الثلاثة الباقية كان ينتظم فيها المسلمون والمسيحيون على السواء[1] .

ولم يطل تفاؤل عناصر الدولة العثمانيـة باعلان الدستور وبعهد رخاء وعدل وإخـاء ، لأن الخلافات العنصرية بدأت تظهر أولا بين الترك والأروام ، ومـن ثم بين الترك والعرب ، ومنشأ الخلاف الاساسي كان على قضية المركزية واللامركزية في الادارة . ومصدر آخر من مصادر الخلاف بين الترك والعرب كان بسبب قانـون الانتخاب العثماني ، الـذي كان يؤهل أي مرشـح مستوف للشروط أن يرشـح نفسه عـن أية دائرة ومنطقـة في الدولة ، ولـو لم يكن من سكان تلك الـدائرة أو المنطقة الانتخابيـة . وكانت هذه الانتخابات كثيرا ما تخرج من ميدان التنافس الشخصي أو الحزبي الى التنافس العنصري القومي بـين التركي والعربي ، ممـا كان يوسع شقة الخلاف بينهما[2] .

ولما كانت اللغـة الرسمية في الدولة هي اللغة العثمانيـة للتعليم والمعامـلات وما اليها ، فقد تضايق العرب من ذلك ، خاصة لأنه كان لعناصر الدولة العثمانيـة الاخرى تشكيلات طائفيـة وامتيازات تتيح لهـا أن تدرس في مدارسهـا الخاصة بلغاتها القومية ، على حين كان العرب المسلمون محرومين من ذلك . ونتيجة لذلك كان التعليم باللغة العربية من خصائص المدارس المسيحية وحدها . ولذا سيطالب العرب بمراعاة حقوقهم القومية التي كان أهمها : حق التعليم باللغة العربية .

وبين عامي ١٩٠٩ و ١٩١٣ حدثت في الدولة العثمانية سلسلة أزمات سياسية اضطرت النواب العرب الى التكتل وحملتهم على الانضمام الى المعارضة . ومـن أسباب هذه الأزمات تفريط الدولة بحقوق الولايات العربية ومصالحها الاساسية ، عندما تمسكت الحكومة الاتحادية بمشروع منح امتيـاز الملاحة النهرية الى شركة

---

(١) ساطع الحصري « نشوء الفكرة القومية » ص ١٧٦ .

(٢) انظر حقي العظم « حقائق عـن الانتخابـات النيابيـة في العراق وسورية وفلسطين » القاهرة ١٩١٢ .

لينتش الانكليزية، واعترض النواب العرب على الامتياز لأنه يزيد نفوذ الانكليز في العراق ولأن اقتصاديات البلاد تتضرر به • ومن هذه الأزمات أن الحكومة الاتحادية بعد خلع عبد الحميد سحبت مشروع النظام الاداري الخاص باليمن بعد أن قدمته الحكومة السابقة الى البرلمان لتصديقه ، وعادت الحكومة الى سياسة العنف في اليمن بعد أن عززت حامياتها فيه باستقدام بعض الفرق العسكرية من طرابلس الغرب ، وبذلك أنقصت الحامية العثمانية فيها في الوقت الذي كانت أطماع الايطاليين معلومة للجميع • وقد أثار تهاون الحكومة في الدفاع عن تلك الولاية سخط النواب العرب • ومعلوم أن ايطالية احتلت مدن طرابلس ودرنة وخمس وبنغازي في تشرين الاول ١٩١١ وأعلنت ضم كل الولاية لبلادها ، ثم توصلت الى ذلك رسميا بمعاهدة (اوشي) التي وقعتها مع السلطنة في تشرين الثاني ١٩١٢ •

واندلعت الثورة في البانية قبل نهاية الحرب الطرابلسية ، وتلتها الحرب البلقانية (١٩١٢ ــ ١٩١٣) ، وأعقب ذلك تصريح بوانكاريه وزير الخارجية الفرنسية « ان لفرنسة مصالح تقليدية في سورية ولبنان وان الحكومة عازمة على حمل الجميع على احترام تلك المصالح » •

وحقّ لمفكري العرب ألا يثقوا بالدولة في الدفاع عن بلادهم ؛ فالدولة التي عجزت عن حفظ الروملي وهو سياج الآستانة وحصنها أمام البلقان ، ستعجز عن حماية البلاد العربية اذا هاجمتها دولة قوية ، وسيحلّ بها ما حلّ بطرابلس الغرب ، وطالب العرب بحقوق ايجاد تشكيلات عسكرية وادارية ذاتية ، تضمن الدفاع عن البلاد تجاه أطماع الدول الاوروبية ، وتكون أدعى الى عمران كل قطر واستعداده للدفاع عن نفسه عند الحاجة •

تنبه زعماء العرب وعاينوا الخطر المحيط بالدولة ، وتحقق لديهم ، ولدى معظم ساسة الترك ، أن الدولة يجب أن تصبح ثنائية ، أي تركية ــ عربية على غرار دولة النمسة ــ المجر ، وأنشأ أحرار الترك جمعية الحرية والائتلاف التي كانت غايتها منح الولايات العثمانية استقلالا اداريا وادارة شؤون المملكة على أساس اللامركزية • وانضم الى الجمعية معظم مبعوثي العرب والارمن والاروام والالبان ، وفريق كبير من الضباط والقواد • وقامت هذه الجمعية ابان ثورة البانية بمظاهرة

ثورية في الآستانة أطاحت بحكومة الاتحاديين ، وحلّ مجلس المبعوثان وعيّنت وزارة ائتلافية . ولكن عودة الحكم لجمعية الاتحاد والترقي ، واطلاعها على مشروع الاصلاحات الذي وضعته الجمعية العمومية المنعقدة في بيروت بناء على طلب حكومة الائتلاف السابقة ، وحلّها للجمعية ، كل ذلك أوقف حركات الاصلاح ، فاستاء الناس وعم استياؤهم سائر الولايات العربية ومدنها . وازاء مناورة الحكومة ، رأت بعض الجماعات أن تلجأ الى التشكيلات السرية ، ورأت جماعات أخرى أن تسعى لعقد مؤتمر عربي عام خارج البلاد العثمانية ، والغاية من كل ذلك هي الدفاع عن الحقوق العربية .

ولسنا في معرض ذكر الجمعيات العربية والتشكيلات السرية بالتفصيل ، فالجمعيات هي جمعية الاخاء العربي العثماني ، والمنتدى الادبي ، والجمعية القحطانية ، وجمعية العهد ، وجمعية العلم الاخضر ، وحزب اللامركزية الادارية بمصر (١٩١٣) ، وجمعية بيروت الاصلاحية ، وجمعية البصرة الاصلاحية وجمعية العربية الفتاة (١٩١١)[1] .

ان جمعية العربية الفتاة السرية تأسست في باريس عام ١٩١١ ، ولم تلعب أية جمعية أخرى الدور الذي لعبته هذه الجمعية في تقرير مصير الحركة القومية . أسسها سبعة من العرب الذين كانوا يدرسون في باريس ، وقام أحد أعضائها توفيق الناطور بتأسيس فرع لها في الآستانة ، ثم نقل مركز الجمعية من باريس الى بيروت سنة ١٩١٣ ثم الى دمشق ، وكان هدف الجمعية السياسي تحقيق استقلال البلاد العربية وتحريرها من الحكم التركي ، وأية سيطرة أجنبية أخرى ، وان ترفع الامة

---

(١) انظر الامير مصطفى الشهابي : محاضرات عن القومية العربية ، مطبوعات معهد الدراسات العربية ١٩٥٩ ص ٦١ — ٨٥ .
وانظر أسعد داغر : « ذكرياتي على هامش القضية العربية » القاهرة ١٩٥٩ .
ومحمد عزة دروزة : « نشأة الحركة العربية الحديثة » صيدا — بيروت الطبعة الثانية ١٩٧١ .
ود. توفيق برو « العرب والترك في العهد الدستوري العثماني » مطبوعات معهد الدراسات العربية بالقاهرة ١٩٦٠ .

العربية الى مستوى اجتماعي وثقافي تضاهي به الامم الاوروبية •

والجمعية الثانية التي تستحق الذكر هي علنية تأسست في القاهرة أواخر عام ١٩١٢ واتخذت اسم حزب اللامركزية الادارية العثماني ، وكانت أهدافها ذات شقين : اقناع حكام الترك بضرورة ادارة المملكة على أساس لا مركزي من جهة ، ومن جهة ثانية توجيه الرأي العام العربي نحو المطالبة باللامركزية • وقد أسس للحزب فروع في كل مدينة من مدن الشام ، وأقامت صلات وثيقة جدا بينها وبين الهيئات السياسية العربية في الشام والعراق •

وقام بالسعي لعقد مؤتمر عربي أعضاء جمعية الفتاة ، فقد كتبوا الى لجنة حزب اللامركزية في القاهرة يدعونه والجمعيات التابعة له لحضور المؤتمر ، وأرسلت جمعية الاصلاح البيروتية تعلن انضمامها للمؤتمر بحرارة ، وانعقد المؤتمر من ١٨ حزيران ١٩١٣ حتى ٢٣ حزيران واشترك فيه ممثلون عن مختلف الجمعيات العربية في الآستانة ودمشق وبيروت والقاهرة ، وعن مهاجري العرب في المكسيك والولايات المتحدة ••• وحضر الجلسات نحو المائتين من العرب بصفة مستمعين •

افتتح المؤتمر العربي برئاسة عبد الحميد الزهراوي واستمرت جلساته حتى ٢٣ منه وأعلن في ختامه نص القرارات : (١)

١ ــ ان الاصلاحات الحقيقية واجبة وضرورية للمملكة العثمانية فيجب أن تنفذ بوجه السرعة •

٢ ــ من المسلم ان يكون مضمونا للعرب التمتع بحقوقهم السياسية وذلك بأن يشتركوا في الادارة المركزية للمملكة اشتراكا فعليا •

٣ ــ يجب أن تنشأ في كل ولاية عربية ادارة لا مركزية تنظر في حاجاتها وعاداتها •

٤ ــ كانت ولاية بيروت قدمت مطالبها بلائحة خاصة صودق عليها يوم ٣١ كانون الثاني سنة ١٩١٣ باجماع الآراء وهي قائمة على مبدئين أساسيين وهما :

---

(١) انظر امين سعيد « الثورة العربية الكبرى » القاهرة لا تاريخ ج١ ص٢٩ــ٣٠.

توسيع سلطة المجالس العمومية وتعيين مستشارين أجانب فالمؤتمر يطلب تنفيذ وتطبيق هذين الطلبين •

٥ ــ اللغة العربية يجب أن تكون معتمدة في مجلس النواب العثماني ويجب أن يقرر هذا المجلس كون اللغة العربية لغة رسمية في الولايات العربية •

٦ ــ تكون الخدمة العسكرية محلية في الولايات العربية الا في الظروف والاحيان التي تدعو الى الاستثناء الاقصى •

٧ ــ يتمنى المؤتمر على الحكومة السنية العثمانية أن تكفل لمتصرفية لبنان وسائل ماليتها •

٨ ــ يصادق المؤتمر ويظهر ميله لمطالب الارمن العثمانيين القائمة على أساس اللامركزية ويرسل لهم تحياته بواسطة مندوبيهم ويحيي العراق •

٩ ــ يجرى تبليغ هذه القرارات للحكومة العثمانية •

١٠ ــ وتبلغ هذه المقررات أيضا للحكومات الاوروبية ويشكر المؤتمر الحكومة

الفرنسية شكرا جزيلا لترحابها الكريم بضيوفها •

ووضع ملحق لهذه القرارات يتضمن المواد الثلاث التالية :

١ ــ اذا لم تنفذ القرارات التي صادق عليها هذا المؤتمر فالاعضاء المنتخبون في لجان الاصلاح يمنعون من قبول أي منصب كان في الحكومة العثمانية الا بموافقة من الجمعيات التي ينتمون اليها •

٢ ــ ستكون هذه القرارات برنامجا سياسيا للعرب العثمانيين ولا يمكن مساعدة أي مرشح في الانتخابات التشريعية الا اذا تعهد من قبل بتأييد هذا البرنامج وطلب تنفيذه •

٣ ـ المؤتمر يشكر مهاجري العرب على وطنيتهم في مؤازرتهم له[١] •

ولا بد من التنبيه الى أن أهم المسائل التي كانت مثار جدل عنيف كانت قضية المستشارين الاجانب ؛ ذلك أن بعض الاعضاء كانوا يرون الاستعانة بمستشارين أوروبيين لبلوغ الاصلاح الحقيقي ، في حين أن البعض عارضوا ذلك لخشيتهم من تدخل الدول بشؤون البلاد •

والواقع أن الحكومة الفرنسية اعتمدت على جهود بعض الاعضاء المتفرنسين ليؤيدوا خطط فرنسة ، ولكن مظاهر الاتحاد بين المسلمين والمسيحيين في المؤتمر وفي تصريحاته وخطبه وشجبه للتدخلات الاجنبية ، أفسد عليهم تدبيرهم وكان ضربة شديدة لآمال فرنسة ، لا سيما بعد أن ذهب الزهراوي وأحمد مختار بيهم لمقابلة وزير الخارجية فرنسة باسم المؤتمر وقالا له :

« اننا نحترم الفرنسيين ولكن لا نرضى أن يكونوا رؤساء علينا بل نرحب في معاضدتهم لاصلاح أحوالنا ، بشرط أن نبقى عثمانيين ، وما كان السوريون ـ كما قيل لكم ـ ليفتحوا صدورهم لفرنسة » • وقد أدرك الوزير الفرنسي بيشون ما رمى اليه الرجلان ، فتألم من ذلك وأرسل الى قناصل فرنسة يقول : « ان الحركة الاصلاحية العربية قد انقلبت علينا ، يجب عليكم أن تتظاهروا بمساعدتها لاكتساب ثقة الاهلين على أن تسعوا في الخفاء للقضاء عليها » • يظهر هذا في بعض الوثائق التي نشرتها الحكومة العثمانية •

ومما يجدر ذكره أن فكرة الانفصال عن الدولة العثمانية لم تخطر على بال المؤتمرين ، بل بالعكس كانت كلمات الخطباء في المؤتمر ، تنصب كلها على الاحتفاظ بوحدة الامبراطورية ، شريطة الاعتراف بحقوق العرب عن طريق اشتراكهم في حكم بلادهم ضمن الشكل الاداري اللامركزي[٢] •

---

(١) تراجع الخطب في كتاب محب الدين الخطيب « المؤتمر العربي الاول » القاهرة ١٩١٣ •

(٢) محب الدين الخطيب ، المصدر نفسه ، ص ١٩ •

لم تكترث الحكومة العثمانية باديء الامر بالمؤتمر ، ذلك أنها وضعت مشروعا جديدا لقانون الولايات يقوم على توسيع سلطة الولايات ، لتقطع الحجة على دعاة اللامركزية ، ولكن هؤلاء لم يوافقوا على القانون ، لأنه وسع سلطان الولاة دون أن يوسع سلطات مجالس الولاية • كما نجحت الحكومة في استكتاب كثير من المقالات والبرقيات لاستنكار سلوك الاصلاحيين ، واتهمت المؤتمر بأنه وليد دسائس أجنبية ••

وأخيرا آثرت أن تتصل بالزعماء ، فأوفدت لباريس مدحت شكري بك أحد أقطاب الاتحاديين فاجتمع برجال المؤتمر ، وحين رأى أن الاتفاق أصبح وشيكا ، عاد الى الآستانة برفقة عبد الكريم الخليل معتمد الشبيبة العربية ورئيس المنتدى الادبي ، لاستكمال المباحثات مع وزير الخارجية طلعت الذي وقع على الاتفاقية باسم الاتحاديين ، كما وقعها عبد الكريم الخليل باسم الشبيبة العربية ، وتم الاتفاق على أساس تنفيذ معظم قرارات المؤتمر العربي في باريس ، ولكن الاتحاديين عمليا لم يقوموا بأية خطوة حاسمة في سبيل ذلك ، فاستنكر العرب تسويف الترك ومراوغتهم ، ولكنهم لم يكونوا يملكون سوى الاحتجاج •

والواقع ان الجمعيات العربية حتى نشوب الحرب العالمية الاولى ما كانت تنوي الانفصال عن الدولة العلية لسببين[1] :

الاول هو تمسك العرب بالخلافة الاسلامية والرابطة العثمانية ، والثاني خوفهم من تطرق النفوذ الاجنبي الى بلادهم ، وكان يبدو خطره في الافق القريب •

ولكن بعد انحياز تركية لدول الوسط وعنف مظالم الترك ، وبعد ما كان من مذابح جمال باشا في سورية ولبنان للقضاء على العرب القوميين ، لبست « النهضة العربية ثوبا جديدا فأصبحت جامعة قومية سياسية[2] » •

وفي هذه الغمرة ، وازن أحرار العرب ، بين الحكم التركي واستمراره ، وبين امكانية الاتفاق مع حليف أجنبي قوي يضمن لهم الحرية والاستقلال مقابل انحيازهم

---

(١) تحسين العسكري : « مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى والثورة العراقية » ج ٢ ص ٢٢١ •

(٢) عبد الرحمن الشهبندر : مقال في مجلة المقتطف المجلد ٧٩ ص ٢١٩ سنة ١٩٣١ •

الى صفه ، والثورة على الدولة العثمانية ، فرأى معظمهم أن مصلحة العرب تقتضي اضرام نار الثورة •

ومهما يكن الامر فان المشكلة العربية ظهرت في المجال الدولي بحركة الشريف حسين ، وقبل أن يجتمع نجله فيصل بأقطاب جمعيتي العربية الفتاة والعهد السريتين ، لم يكن في ذهن أمير مكة ولا ابنه الا معلومات ضئيلة عن تنظيمات القوميين في بلاد الشام • ولم يقم أي خلاف بين المؤتمرين في دمشق على تحديد الكيان العربي المقبل، بل أقر فيصل الشروط التي أجمعوا عليها في الوحدة العربية ، أملهم المنشود، وحملها الى والده ، وعلى أساسها نهضت المفاوضات مع ممثلي بريطانية من أعضاء المكتب العربي البريطاني في القاهرة • وبالرجوع الى هـذه التحديدات الجغرافية[1] التي حرص العرب القوميون على تثبيتها ، كشرط لا يقبل الاخلال قطعا ، اذا ما أريـد للثورة العربية أن تنشب في الشام دعماً لحركة الحجاز •

كانت رسالة الحسين الاولى تعبر عن آراء زعماء العرب جميعا كما وضعت في بروتوكول دمشق ، فكان ذلك يومئـذ مظاهرة عربية تعبر عـن مطلب العرب في الوحـدة والتحرر •

وكانت مذكرة الزعماء العرب في دمشق هي المحور الذي دارت عليه المراسلات، وكانت تفيض بتصميم المشرق العربي ، وعزمه على أن يبلغ حريته واستقلاله • وقد حددت الأقاليم التي يطلب العرب أن تكون مشمولة بالحرية والاستقلال •

وتكلم الحسين طويلا على الحدود بصورة تفصيلية ، وكان من الطبيعي أن يقصر الكلام على المشرق العربي الرازح تحت ثقل الاحكام العثمانيـة وليس على الوطن العربي بأسـره •

وقد يتساءل البعض عن السبب الذي من أجله لم يطالب الحسين في مذكرتـه لبريطانية باستقلال أجزاء افريقية العربية : مصر ، ليبية ، تونس ، الجزائر ، مراكش، وهي كلها أجزاء من الوطن العربي لا تنفصل عنه •

ويقولون وقولهم حق : « أن القضية العربية قضية عامة ترمي الى تحرير العرب

---

(١) انظر نص المراسلات بين الحسين مكماهون في ملحق كتاب جورج انطونيوس « يقظة العرب » ، ترجمـة د. ناصر الدين الاسـد و د. احسـان عباس ، بيروت ١٩٦٦ ، ص ٥٤٣ ـ ٥٧٧ •

تحت كل سماء » ، وهي قضية واحدة مهما اختلفت الدول المسيطرة ، تركية كانت أو انكليزية أو افرنسية ! والرد على ذلك هو أن المعركة كانت قائمة في ذلك الحين ضد الدولة العثمانيـة ، والبلاد العربية التابعة لها في بلاد آسيـة العربية المحددة في بروتوكول دمشق ، والتي ورد ذكرها في مذكرة الحسين الاولى المؤرخة في ١٤ تموز ١٩١٥ • يذكر هذا الرد لأن بعض الجاهلين والمتجاهلين يتقولون فيزعمون أن مصر وليبية وتونس والجزائر ومراكش ليست من الوطن العربي ، لأن الحدود التي طلب العرب الاستقلال لها لم تتضمن هذه البلاد ! وهذا الكلام لا يستحق المناقشة •

ان الظرف التاريخي وحده جعل من الحسين قائداً للثورة التي أعلنت في الحجاز فجر يوم ١٠ حزيران ١٩١٦ ، واتجهت جحافلها نحو الشمال ، وساهمت بقدر كبـير جداً في طرد فلول العثمانيين الى جانب الجيش البريطاني الزاحف بقيـادة اللنبي • بيد أن الامل في الوحدة كان يراود تفكير الطليعة العربية ، والدعوة لها تتبع أسباب الشيوع في صفوف الضباط والمتنورين والاعيان • ولكن البريطانيين لم يخـدعوا الحسين وحده ، بل طعن العرب جميعا باتفاقية سايكس بيكو ثم بوعد بلفور ، فقد دبر الانكليز خطتهم المتعددة الوجوه بحيث كانوا يفاوضون العرب في نفس الوقت الذي كانت خلاله تدور مباحثاتهم مع فرنسة وروسية لاقتسام تركة الدولةالعثمانية• ومهما قيل في عدم تناقض الاتفاقيـة الفرنسية البريطانيـة (سايكس بيكو)[1] ،

---

(١) خلاصة اتفاقية سايكس بيكو (أيار ١٩١٦) :

(أ) اقامة دولة عربية مستقلة أو حلف دول عربية في منطقتين الاولى تقع تحت سيطرة فرنسة وتشتمل على سورية الداخلية وولاية الموصـل ، والثانية تقع تحت سيطرة انكلترة وتشتمل على شرقي الاردن والعقبـة وجنوبي بادية الشـام والارض الواقعة بين الموصل وبغداد . ويكون لكل من فرنسـة وانكلترة في منطقتها حق الرجحان في المشاريع الاقتصادية والمعونة الفنية .

(ب) اطلاق يد فرنسة في لبنان والساحـل السوري ، ويـد انكلترة في ولايتي بغداد والبصرة .

(جـ) اقامة ادارة دولية في فلسطين بالاتفاق مع شريف مكة وروسية القيصرية.

من أجل تفاصيل اتفاقية سايكس بيكو والمراسـلات التي تبودلت بشأنهـا بين فرنسة وبريطانية وروسية ، انظر :

(E. L. Woodward & R. Bulter, Editors, Documents on British Foreign Policy 1919 - 1939 1st, Ser, Vol. 4 pp. 241 - 51, London 1952).

والاتفاقية العربية البريطانية (الحسين ــ مكماهون)[1] فـان الادلـة والبراهين والنصوص تثبت أنهما غير متطابقتين معنى وروحـاً • ان اقامة دولة عربية أو حلف دول عربية ، لا تنطبق بحال مع تجزئة بلاد هذه الدولة أو ذاك الحلف الى مناطـق نفوذ أجنبي يحرمها الاستقلال والسيادة الموعودين •

واذا صرح السير هنري مكماهون في السنين الاخيرة بأنه لم يعاهد الحسين أبداً على انجاز الوحدة العربية دون تحفظات ، اما لم يفهمهـا الشريف أو رفض التسليم بها ، فان الشيء الذي لا شك فيه هو ان العرب فهموا ، كان ذلك خطأ أو صوابا ، ان بريطانية وعدتهم الاستقلال ، وكانت هي تعلم حـق العلم مبلغ ذلك الفهم من جانبهم • وما أرى ان اللوم يقع الا على الحكومة البريطانية التي أسقط بيدها لما فاتحها الحسين مستفسرا عن حقيقة المعاهدة المشؤومة التي نشرها البولشفيك عـام ١٩١٧ ، فما وجدت مخرجاً من هذا المأزق الا بالمواربة والتهرب •

ولا يشفع لبريطانية اتهامها السير مارك سايكس اذ « أبرم » مع زميله جورج بيكو المعاهدة التي ثبت خطؤها أخيرا ، ولا نعت لورانس له بأنه « كتلة من الافكار المسبقة والأوهام ونصف العـلم ، يأخذ جانبا من الحقيقـة حتى اذا تبين له خطؤه اعترف به[2] » ، لأن سايكس وبيكو ، كما يقول الاستاذ توينبي ، لم يضعا المعاهدة وحدهما • بل انهما لم يثبتا فيها سوى التفاصيل والصيغ النهائية ، بينمـا اعتمدت النقاط الاساسية في اجتماعات ضمت ساسة الانكليز والفرنسيين[3] •

والقول بأن المكتب العربي في القاهرة كان يعتقد ان مطالب الحسـين بمملكة عربية تمثل أطماعه الشخصية فحسب ، ولا تمثل مطالب القوميين العرب ، يمكن الرد عليه بأن بريطانية ما سبق لها أن أنكرت على الحسين حقه في الكلام باسم العرب ،

---

(١) انظر الفقرات التي تحدد تعهدات بريطانية وتحفظاتها في المذكرة الهامة التي أرسلها السير هنري مكماهون الى الشريف حسين بتاريخ ٢٤ تشرين الاول ١٩١٥ ، وقابلها مع خلاصة اتفاقية سايكس بيكو سالفة الذكر .

(٢) Lawrence « Seven Pillars of Wisdom » P. 58, London 1935

(٣) Toynbee « Western Question » p. 48 Note 2.

وما ارتابت في سلطته الشرعية • فضلا عن ان المكتب العربي ما كان يجهل وجود جمعيات قومية في سورية ومصر ؛ فقد امتلأت صحف القاهرة ببيانات احزابهم ولجنتهم اللامركزية ، وكلها تلهج بذكر التحرر والاستقلال والوحدة ، بعد نشوب الحرب وطغيان الاتراك •

ومن جهة أخرى ، لا نصدق انه ما وصل الى علم دوائر الاستخبارات الانكليزية نبأ الرسالة التي تسلمها الحسين بتاريخ ١٢ صفر سنة ١٣٢٩ هـ (١٩١١) من السيد طالب النقيب مندوب البصرة والتي كانت تحمل تواقيع خمسة وثلاثين نائبا عربيا كلهم أبدوا له استعدادهم للثورة تحت لوائه للتخلص من « الاستبداد والاستعباد » واعترافهم بأنه المسؤول الوحيد عن مصالح البلاد العربية [١] •

لقد كانت مطالب الحسين هي نفس مطالب القوميين العرب كما حددها بروتوكول دمشق يوم ان اجتمع نجله فيصل بأعضاء جمعيتي العهد والفتاة كما ذكرنا • واذا كانت المطالب تمثل مطامع الحسين الشخصية فلماذا انتخبته بريطانية وفاوضته لو لم يكن حائزاً ثقة معظم رجالات العرب الذين جعلوا الثورة عربية لا حجازية ، اذ اشترك فيها الحجازي والشامي والعراقي والمصري،مستهدفين الاستقلال والتحرر والوحدة؟!

أما وعد بلفور ، فقد عدل في شروط اتفاقية سايكس بيكو على نحو ينجم عنه تنظيم سياسي خاص لفلسطين • ولا حاجة الى القول بان ولادة هذا الوعد وظروف اخراجه لا تنفصل في الاساس عن مسألة الفصل بين المشرق العربي والمغرب العربي بجسم غريب يشغل الانطلاقة العربية المحتومة عن مجابهة الاستعمار ومصالحه في الوطن العربي الذي مزقه اعداؤه ضد ارادته وضد مصلحته • ولا تنفصل أيضا عن مسألة الصراع الفرنسي البريطاني على الارض المقدسة ، حصن قناة السويس ، والمعبر البري والجوي الممتاز نحو الشرق[٢] • وعندما أبدى الملك حسين قلقه لدى سماعه به بادرت حليفته العظمى الى تطمينه بارسال القائد هو غارث يحمل مذكرة شفوية

---

(١) Khairallah, Les Régions Arabes Libérées, p. 32 « Paris 1919 ».
وثورة العرب تأليف اسعد داغر ص ٧٨ مصر سنة ١٩١٦ •

(٢) انظر للمؤلف « قضية فلسطين » (١٨٩٧ – ١٩٤٨) دمشق ١٩٦٨ •

صريحة جداً بأنه لن يسمح باسكان اليهود في فلسطين الا بالقدر الذي يتفق مع حرية السكان العرب السياسية والاقتصادية (١) • اما وان هذا الوعد لن ينجم عنه ما يضر بحرية العرب « السياسية والاقتصادية » فليأمر الحسين أولاده بتبديد المخاوف الجديدة التي ولدها ، وليحث المناضلين العرب على الثبات في ايمانهم بصدق بريطانية ووعودها ، ولتستمر « حامية ذمار الحق والعدل والحليفة الوافية التي لا تخون العهد(٢) » سادرة في مغالطتها وسياستها الملتوية مع الحسين ، الذي سيتكشف له وفاؤها بعهودها ، ولكن في توقيت متأخر لا يحسد عليه ، عندما تتركه وحيداً أمام جاره القوي ابن سعود (٣) •

وتوجت الحركة العربية الاولى بدخول فيصل دمشق على رأس جيشه العربي حيث أعلن فيها قيام حركة عربية مؤقتة باسم الملك حسين ، مستقلة استقلالا مطلقا تشمل البلاد السورية • بينما رزحت العراق وفلسطين تحت الحكم العسكري البريطاني •

ان نهوض الدولة العربية في ديار الشام أظهر لأول مرة بعد عصور متطاولة من الخمول والانحطاط ، أن عودة العرب الى مجرى التاريخ ، وبعثهم كأمة واحدة ليس ضربا من الاحلام يراود نفراً من المثاليين ، وانما هو وليد حي شهد النور في فورة من الحماس القومي الرائع ، وجابه مطامع الاستعمار قبل ان يشتد منه العود •

وتلخص الاحداث التالية بنزول الجيوش الفرنسية على امتداد الساحل السوري(٤)

---

(١) انظر نص المذكرة الرسمي في : Hurewitz « Diplomacy in the Near & Middle East » 2, p. 29

(٢) من كتاب السير ريدجنلد ونفت الى الحسين بتاريخ ٢٩ نيسان سنة ١٩١١ (ملوك العرب للريحاني ج ١ ص ٦٢ الطبعة الاولى بيروت ١٩٢٤) .

(٣) كان الحسين كثير التسليم وشديد الثقة بانكلترة . يقول نجله عبد الله في عدد جريدة القبلة ٢٨ بتاريخ ٢٤ محرم ١٣٣٥ : « وما مثل الذين يعترضون عليكم في موالاة حلفائكم الا كمثل من يحاول الاعتراض على الله في تدبير شؤونه التى يبديها ولا يبتديها » . خير الدين الزركلى « عامان في عمان » ص ١٢٣ .

(٤) طبقا لاتفاق لويد جورج كليمنصو (ايلول) ١٩١٩ عن — Philippe David , « Un Gouvernement Arabe à Damas », P. 18 (Paris 1923).

بعد انزال العلم العربي من مدن الساحل ، الامر الذي ولد هياجا في صفوف الجند العربي بدمشق ، فما كان من دولتي الوفاق الا ان نشرتا تصريحا جديداً (٧ تشرين الثاني سنة ١٩١٨) أكدتا فيه ان اقامة حكومات وطنية سيتم وفقاً لارادة الاهلين الحرة (١) • وسافر فيصل مرتين الى أوربة للدفاع عن المسألة العربية امام مؤتمر الصلح • وهنالك فوجيء بمناورات فرنسة وبريطانية والصهيونية ، وكلها تسعى وتبذل نفوذها لتهديم اماني العرب ومناهضة قضيتهم • وبعد مجهود جبار ظفر بمبدأ الاستفتاء للوقوف على رغبات السكان في تقرير مصيرهم ، وقدمت لجنة كرين الامريكية ، وطافت البلاد ، وأخيرا كتبت تقريرها في ان العرب يطلبون الاستقلال ويرفضون المزاعم الصهيونية في فلسطين ، ويطلبون المساعدة الفنية عند الحاجة من الولايات المتحدة ، واذا رفضت هذه فانكلترة ، اما فرنسة فغير مرغوب فيها ، ويختارون الامير فيصلا ملكا ، ويرفضون تجزئة سورية بسلخ فلسطين ولبنان عنها ، ويطلبون الاستقلال التــام للعراق ، دون ان يكون بينه وبين سورية حواجز جمركية •

ولكن تقرير اللجنة أهمل ، كما أهملت مباديء ويلسون في حرية تقرير المصير (٢) • اعترى اليأس فيصلا ، وكان ان يوقع اتفاقية مع فرنسة ، لولا ان مستشاريه انقسموا تجاهها ، فقرر العودة لاستطلاع رأي البلاد (٣) •

---

(١) Antonius op. cit. , p. 274.

(٢) لخير الدين الزركلي ابيات في وصف هذه الوعود :

وعود (ولسن) كم اضللت من فئــة   لانت اشأم ما سيست بــه الامم
خدعتنا فانخدعنــا فاستخف بنا   شمس عن الحق في آذانهــم صمــم
ايدعون حقوقــا في مواطننــا ؟   والمين اقبح ما يطوى عليــه فم !

(٣) يذكر تحسين العسكري في « مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى والثورة العراقية » ج ٢ ص ٣٣ انه عندما اشتد الاخذ والرد على مسألة الحدود بين سورية ولبنان بين وزارة الخارجية الفرنسية وفيصل ، قدم الدكتور ثابت نعمان من مكة ، يحمل كتابا من الملك حسين الى نجله فيصل تأمره بالرجوع الى سورية ، والمحافظة على مباديء الثورة . فعاد فيصل الى دمشق ، وكان جفاء بين الاب وابنه ، لان فيصلا (باعتقاد الحسين) فتح للفرنسيين باب سورية نتيجة عدم اتباعه نصائح ابيه واوامره. انظر « الريحــاني نفس المصدر السابق ص ٥١ » .

اجتمع المؤتمر السوري ، وتلي قراره يوم ٨ آذار ١٩٢٠ باحداث أمر واقع ، فأعلن استقلال سورية بحدودها الطبيعية استقلالا تاما لا شائبة فيه ، ورفض مطالب الصهيونية في فلسطين وملكية الامير فيصل بن الحسين على سورية ، والمطالبة باستقلال العراق استقلالا تاما على ان يكون بين القطرين اتحاد سياسي واقتصادي[1] . وذكر فيصل المؤتمر باخوان العراق الذين أبلوا بلاء حسنا في سبيل الوطن العربي ، ولم يلبث ان اجتمع مؤتمر من رجالات العراق ، وتلى قرار مؤتمرهم عقب تلاوة قرار المؤتمر السوري ، واعلن استقلاله التام بملكية الامير عبد الله بن الحسين ، وباتحاد سياسي واقتصادي مع سورية .

وازاء ما بدا من تحلل الحلفاء من وعودهم ، اضطر العرب ان يتخلوا موقتاً عن هدفهم في انشاء الدولة العربية الموحدة ، ليأخذوا بما هو أقرب من مقتضيات السياسة الدولية الحاضرة . ولكن الامل في تحقيق الوحدة لم يغادر أذهان حواريي الوحدة العربية ، فتجدهم قرروا أن تكون أعلام « الدول العربية » الجديدة موحدة في أشكالها وألوانها الاساسية[2] ، بحيث بقي علم الثورة دونما نجوم ، علماً لمملكة الحجاز ، وأضيفت نجمة واحدة الى علم سورية ، ونجمتان الى علم العراق .

على أن الخلافات نشبت بين السلطات السورية والسلطات في الساحل ، وازداد توتر الحالة يوماً عن يوم ، حتى بلغ حنق حلفاء الامس غايته عندما توصل رئيسا حكومتي فرنسة وبريطانية أخيرا الى المصادقة على توزيع الغنائم واقتسام الحصص . وقرر المجلس الاعلى للحلفاء في مؤتمر سان ريمو (٢٥ نيسان ١٩٢٠) ان يمنح فرنسة الانتداب على سورية ولبنان ، وان يمنح انكلترة الانتداب على العراق وفلسطين وشرقي الاردن . فهاجت الخواطر ، ولم تلبث البلاد السورية ان شهدت سلسلة من حوادث الصدام ، وكان صداماً غير متكافيء القوى ، انتهت بخنق الحكم العربي في دمشق ، وخروج فيصل من سورية (تموز سنة ١٩٢٠) .

---

(١) انظر كتاب « الوثائق والمعاهدات في بلاد العرب » نشرته جريدة الايام الدمشقية ١٩٣٧ ص ١٢٤ ، وانظر جريدة العاصمة الرسمية بدمشق عدد ١٠٧ (٨ آذار ١٩٢٠)

(٢) ساطع الحصري « يوم ميسلون » ص ٨٤ .

والانصاف يقتضي أن نفسر الفشل الذي أصاب حركة العرب الاولى بالعوامل الثلاثة التالية :

١ — أثناء الحرب العالمية الاولى بقيت نزعة القومية العربية سرية ، وكان القوميون العرب في بلاد الشام والعراق يتابعون أخبار الثورة العربية في الحجاز بلهفة وشوق ، وهمهم أن يساعدوها ما استطاعوا ، وقلما كانوا يجدون لزوما للتفكير فيما ينبغي عمله بعد نجاح الثورة في مراحلها الاولى . ولذا فان دخول فيالق الثورة بقيادة فيصل بن الحسين الى سورية ، أوجد انقلابا فجائيا في الاوضاع السائدة ، لم يكن مفكرو البلاد على استعداد كاف له . لان الظروف لم تكن تساعدهم على الاطلاع على حقائق السياسة العالمية وتطوراتها . فلا غرابة اذا سبب هذا الانقلاب المفاجيء بلبلة كبيرة في الآراء والافكار التي كانت تتراوح بين التفاؤل والتشاؤم ، على ما يذكر الاستاذ ساطع الحصري[١] . هذا الى جانب من كان لا يزال يشعر « بارتباط قلبي نحو العهد العثماني ، ومن لا يزال يعتقد بضرورة الحكم الاجنبي » ، والبلبلة الناجمة عن ضعف بعض النفوس ، وعن الدسائس الفرنسية والروح الرجعية وخيانة الموتورين المنتفعين . ولولا ان الثورة العربية وحكومتها في دمشق كانت تجابه دون معين ، عواصف سياسة خارجية كبرى ، لاستطاعت ان تتغلب على هذه الاحوال المفاجئة التي أوجدها الانقلاب العربي[٢] .

٢ — كانت بريطانية تدعم الثورة وتؤيدها بالمال والسلاح بادىء الامر ، على الرغم من ان برقيات الحسين لمندوبه في القاهرة كانت تظهر كيف ان مناصرة الانكليز كانت دوما مترددة وحذرة ومقترة في العتاد والتموين[٣] ، فلا تعطى منها الا بقدر

(١) عمل العلامة الاستاذ ساطع الحصري وزيرا للمعارف في اثناء العهد الفيصلي العربي . وعقب ميسلون رافق الملك فيصل الى أوربة ، ثم عمل معه في العراق ، ولذا فالاستاذ الحصري يعتبر حجة في تاريخ هذه الفترة ، لانه اطلع على كثير من الامور اطلاعا مباشرا وشارك فيها .

(٢) الحصري — نفس المصدر السابق ص ٩٠ — ٩١ .

(٣) انظر نصوص برقيات الحسين لمندوبه في القاهرة في كتاب « تاريخ مقدرات العراق السياسية » تاليف محمد طاهر العمري الموصلي ، الجزء الاول ص ٢٧٤ — ٣٠٠ (بغداد ١٩٢٥) .

ما ترى انه ضروري للقيام بالحركات التي ترسمها هي . ذلك ان بريطانية لم تكن ترغب في تسليح العرب ، لانها هي نفسها كانت تطمع في قسم من الاقطار التي ثار العرب لتحريرها ، والتي كانت من اجلها مضطرة لمسايرة الفرنسيين في اطماعهم بسورية ولبنان .

٣ ـ وزاد في سوء الاحوال ان قادة الفكر القائمين على السياسة العربية يومذاك اختلفت وجهات نظرهم ، وذلك لان « كل فريق منهم كان ينتسب الى قطر ذي مشاكل خاصة من وجهة الاطماع الدولية ، فكان لا يشعر بمشاكل ذلك القطر أكثر من شعوره بمشاكل الاقطار الاخرى ، فهذا فلسطيني يعتبر الصهيونية أول ما يجب ان يهتم به من المشاكل ، وذاك سوري يرى في اطماع الفرنسيين اكبر الاخطار المحدقة بالقضية السورية ،وذلك عراقي يرى الثورة ضد الانكليز قبل كل شيء . وكان باستطاعة كل منهم ان يقيم مئات البراهين على صحة ما يقوله [1] .

هذه هي الحالة التي سادت سورية عندما ائتمرت بها دولتا الاستعمار فرنسة وبريطانية أقوى دولتين في العالم يومذاك .

ولا ننهي الكلام على حركة العرب الاولى دون ان نصحح بعض الاوهام العالقة في الاذهان عن الثورة العربية وعواقبها :

ان الثورة التي اندلعت فجر ١٠ حزيران ١٩١٦ من الحجاز لاسباب عدة تتصل بالاحوال الجغرافية والاقتصادية والتاريخية ، والتي تقدمت جيوشها نحو الشمال مرحلة مرحلة حتى دخلت دمشق وحلب وما وراءها لم تكن ثورة حجازية ، بل كانت ثورة عربية استهدفت تحرير الاقطار العربية واستقلالها ووحدتها . ولسنا في حاجة الى ذكر خدمات الثورة العربية لقضية الحلفاء ، وانما نتساءل عن قيمة هذه الثورة من وجهة نظر الذين يرون ان الثورة هي التي أتت بالاحتلال الاجنبي لبلاد العرب الشمالية ، وبالصهيونية الى فلسطين !

اننا نسجل هنا ان الثورة لم تعلن الا بعد ان قام الانكليز باحتلال نصف رقعة الارض العراقية تقريبا .

---

(١) الحصري ـ يوم ميسلون ص ٩٢ .

وأما احتلال فرنسا لسورية ، فما كان له علاقة بالثورة من قريب ولا بعيد ، لانه تم بناء على اتفاق سايكس بيكو • وجهود اليهود من أجل فلسطين معلومة منذ حملة نابليون على مصر ، ومنذ عهد محمد علي والسلطان عبد الحميد ومن بعدهم •

والواقع أن الثورة وأنصارها وأفكارها القومية التي شعت منها كانت مما أعاق تسرب النفوذ الاجنبي الى بلاد الهلال الخصيب • وكانت عاملا اساسيا يحمل معه أسباب التخلص من هذا النفوذ في قابل الايام • وبعبارة أخرى يمكن القول ان احوال الاقطار العربية كان يمكن ان تصبح أسوأ بكثير مما هي عليه لو لم تقم الثورة • وما كان يعقل أن تظل سورية في نجوة من الاحتلال بعد انتصار الحلفاء واستسلام الالمان والترك • وهل أدل على ذلك من أن تركية نفسها ابتليت بعض مدنها بالاحتلال مثل ازمير وأدرنة وبروسة ؟ ثم ان الدولة العثمانية نفسها منذ حرب البلقان ، سلمت بمناطق نفوذ كل من فرنسة في سورية ، وانكلترة في جنوب العراق ــ على ما نوهنا به آنفا • وتشهد بذلك الاتفاقات التي ابرمتها الدولة العثمانية مع هاتين الدولتين قبل الحرب العالمية الاولى بفترة قصيرة[1] •

ونتساءل عن سورية ماذا يمكن ان يحل بها لو لم تقم الثورة العربية وجيوشها وتقيم فيها دولة عربية ؟

من المؤكد ان البلاد العربية من وجهة نظر القومية والوطنية تأثرت كثيراً بالثورة العربيه ؛ ذلك ان الفرنسيين ، ما كانوا ليجدوا هذه المقاومة الضارية التي قاسوا منها الامرين في كل يوم من أيامهم في سورية • ان الامر لا يتوقف عند حدود سورية وانما يتجاوزها الى العراق التي اندلعت فيه أول ثورة (١٩٢٠) بمعونة وتوجيه الدولة

---

(١) يمكن مراجعة نصوص الاتفاقيات في كتاب صدر بالتركية تحت عنوان :
Türk Inkilàbi Tarihi, Profesôr yusuf Hikmet Bayur, Türk Tarih Kurumu yayinlarindan.

(تورك انقلاب تاريخي تاليف البروفسور يوسف حكمت بيور وهو خمسة أجزاء ١٩٠٨ ــ ١٩١٤) طبع استامبول . نشرته الجمعية التاريخية التركية تباعا منذ عام ١٩٥١ .

انظر بعض نصوصها ايضا في كتاب ساطع الحصري : « البلاد العربية والدولة العثمانية » بيروت سنة ١٩٦٠ الطبعة الثانية ص ٢٠٤ ــ ٢٢٧ .

كما هو معلوم ، والى فلسطين حيث كانت جذوة النضال تستمد
بعة .

الكبرى (١٩١٦) وما تبعها من فترة الحكم العربي في دمشق
هب العربي في بلدان الهلال الخصيب فكرة الحرية والاستقلال ،
س روح المقاومة الضارية التي جابهتها دولتا فرنسة وبريطانية ،
ارله الآثار التي تركها الاستقلال الموقت الذي نعم به رواد الحركة
ي دمشق .

ان الثورة العربية وما تلاها من انشاء الحكم العربي في بلاد الشام قد نفعت الوعي القومي العربي نفعاً لا يقدر مداه ، ذلك انه خلال هذه السنوات تكونت نواة الجيش العربي ، والادارة الحكومية العربية ، فوجهت الشعب وعرّفته بأهدافه ، وأنارت أمامه السبيل الى الواجب المترتب عليه ، والى مكانه بين الامم . وفرق بين ان تقع البلاد فريسة هينة بيد العدو وبين ان تقع اقتدارا واغتصابا ، يولد الحقد والمرارة ضد الاجنبي الدخيل مما يمهد للمرحلة التاريخية القومية التالية التي مر بها الشعب العربي في الفترة ما بين الحربين . وهكذا خرج العرب من معمعان الحرب العالميه الاولى ساخطين مستائين لان هدفهم في الاستقلال والوحدة قضت عليه المساومات الدولية التي انتهت بمساومة سان ريمو عام ١٩٢٠ ، فكان عام النكبة في تاريخ النضال العربي . وما أجدى رجال الثورة قيامهم بنصيبهم الاوفى من الصفقة المعقودة مع حليفتهم بريطانية ، وما نفعهم نقد الناقدين لسياستها أن نسيت التزاماتها المبدوله لاولئك الذين لجأت اليهم في ساعة الشدة ، فكان لمعونتهم القيمة اكبر الاثر في طرد الترك من بلاد الشام والحجاز .

لقد استنكر العرب أية تسوية تجري خلاف أمانيهم في الاستقلال والوحدة ، لانهم كانوا يرون ان مطالبتهم بهما قائمة على حق صريح مؤيد بعهود ووعود ، لا دخل فيه لمسألة مقدرتهم ودرجة استعدادهم للحكم الذاتي ، ولغير ذلك من المبادىء المسطورة في نظام الانتداب . وما أخطأ العرب اذ أدركوا ان هذا النظام ما كان سوى أداة جديدة وشكل مهذب للاستعمار ، خُلق ليرضي النزعة المثالية النظرية في الرئيس ويلسون وغيره من بناة عصبة الامم .

لم تكتف قوى الاستعمار بتحطيم الوحدة السياسية التي نعم بها العرب على أرض وطنهم الاكبر في أثناء الحكم العثماني وما قبله ، وانما تآمرت أيضا على ما بقي موحدا من أقطار الوطن العربي في آسية العربية ، وهو الهلال الخصيب ، حيث حلّ فيه الحكم الاستعماري المجزّىء محل الحكم العثماني الموحّد في أعقاب الحرب العالمية الاولى . وبذلك تكاملت عملية الغدر التي فرضها الاستعمار على أقطار الوطن العربي ، فقسمته الى ٢٥ وحدة سياسية ترزح تحت حكم الفرنسيين والبريطانيين والايطاليين والاسبان ، في آسية العربية وافريقية العربية . وبذلك أيضا فقدت الاقطار العربية حرية التواصل والترابط ، وتوقفت عملية الصهر والاندماج والتماثل التي كانت تجري عبر العصور ، وتوجب على العرب أن يناضلوا لرفع نير الاجنبي أولا ، ثم يعملوا للتواصل من جديد ، وازالة ما علق من أدران الانفصال والقطيعة المفروضة عليهم ، والتي أوجد الزمن ما يؤيدها في النزعات الاقليمية والمصالح المحلية.

الفصل الثالث

المشرق العربي ما بين الحربين واثناء الحرب العالمية الثانية ١٩٢٠ ـ ١٩٤٥

(التحرير الوطني والتضامن القومي)

اقطـار الهـلال الخصيب

التطـور السيـاسي

تمهيد ـ الفاجعة المزدوجة :

لا عجب اذا تشكلت اليقظة القومية العربية تشكلا متميزا في أقطار الهلال الخصيب ؛ فدمشق وبغداد كانتا مقرا للخلافة العربية أيام عزها عهد الامويين والعباسيين ، وكل من العاصمتين اصبحت موئلا لنظام عربي ومركزي عظيم ، تدور من حوله احداث المشرق والمغرب • لقد وجدت بذور القومية التربة الصالحة والمنبتة في أرض الهلال الخصيب ، فقامت نبتتهـا تتسامى على الطائفيات والمذهبيات والعنصريات ، وقامت الحركة العربية في ديار الشام التي لا يفوق ولاءها للعروبة ولاء ما ، بفضل استمرار كونها مستودعا للحيوية العربية الدافقة التي تحملها موجات العروبة الصافية من قلب الجزيرة ، منذ ظهور الاسلام وما قبله • ولم تلبث تلك الخميرة القومية والفكرة العربية التي استبدت بالنفوس في ديار الهلال الخيصب ، ان عبرت عن نفسها عمليا بالتهيئة للثورة العربية الكبرى وتفجيرها (١٩١٦) • وبما ان بلادهم يومذاك كانت موحدة تاريخيا لا حواجز بينها ولا فواصل ، ولذلك لم يلح القوميون العرب في المفاوضات التي دارت مع البريطانيين على مطلب الوحدة ، طالما انها حقيقة راهنة ؛ لقد أصروا على مطلب التحرر من الحكم العثماني ، ولكن ضمن وحدة عربية سياسية ، وهي الوحدة الراهنة والقائمة بالفعل وقت المفاوضات • ومن هنا كانت فجيعة عرب الهلال الخصيب مزدوجة ؛ فمن ناحية احتل حلفاء الامس

ـ وهذا ما يضاعف الجرح ـ بلادهم • ومن ناحية ثانية مضوا يقطعون أوصالها ويقسمونها الى دول مصطنعة ، على وجه لم يعهدوه في ماضيهم البعيد أو القريب • وكأنما نُصبت لوحات المقارنة أمام اعينهم لوحة ازاء لوحة عن حالهم المفتت المجروح في الحاضر ، وحالهم الموحد المتواضع في الماضي ؛ فالحكم العثماني ، لم يكن في أسوأ فتراته المتأخرة لينحدر الى هذا الدرك الذي انحط اليه المخطط الاستعماري في تمزيق اوصال الوطن العربي ، والقضاء على الوحدة السياسية المأمولة التي طالما رنا اليها العرب بالحنين الجارف والحب الاكيد •

ونفذ حلفاء الامس مخططهم الاستعماري في التمزيق والتفتيت بشكل مباغت ، فلم يصدق العرب سريعا وتوا ان بلادهم اصبحت نهبا للاجنبي ، ولم يشعروا الا بوطنهم يئن تحت وطأة أحكام مختلفة ومتعسفة ، وقوم يرطنون ويعجمون بين ظهرانيهم • صحيح ان اقطار الوطن العربي في شمال افريقية وشواطيء شبه الجزيرة العربية قد ابتليت بالاحتلال الاجنبي وبالتجزئة من جانب الدول الاستعمارية الاوربية، ولكن ذلك لم يتم فجأة بل دام ذلك أكثر من قرن : ما بين (١٧٩٨ ـ ١٩١٢) • اما اقطار الهلال الخصيب فقد تم تمزيقها بين (١٩١٨ ـ ١٩٢٢) وهي المدة التي انقضت بين دخول الحلفاء ارض حلفائهم بالخديعة والغدر ، وبين التآمر الخفي والسافر في أروقة عصبة الامم حيث كان صوت الحق خافتا لا يكاد يبين • وبدأت المعركة في أقطار الهلال الخصيب لاستعادة وحدة ما قبل الحرب العالمية الاولى ، وتجلت لا في رفض تسوية ما بعد الحرب كلية فحسب ، وانما ايضا في الثورة على ازالة عروبة جزء حيوي من وطنهم (فلسطين) ، وتعريضه لمصير محزن وغير مسبوق، ضد ارادة سكانه العرب ، وضد جميع العهود والوعود التي بذلها حلفاء الامس الخونة لحلفائهم العرب أثناء الحرب وما بعدها •

وفهم العرب حقاً ان وعد بلفور تكمن خطورته في انشاء اسرائيل لتكون فاصلا يمزق امتداد الارض العربية ، ولتكون قاعدة لتهديدها وقمع انطلاقها • وقد حز في نفوس العرب ان يخطط حلفاءهم لكل هذا التآمر اثناء حرب دائرة بذل العرب فيها ما بذلوا من دماء ، وتكبدوا اكثر من مائة الف اصابة باعتراف الجنرال اللنبي امام

مؤتمر الصلح ، منهم أكثر من عشرة آلاف قتيل[1] .

هذه هي الفاجعة المزدوجة التي أصابت العرب كافة ، حتى اذا دوت الصيحة فيهم : « أيها العرب أزيحوا أولا الاحتلال الاجنبي بجميع أشكاله ، وعندها ستكونون أحرارا في استعادة وحدتكم السليبة ، بدأ النضال العربي في الفترة ما بين الحربين من أجل التحرير أولا ، مع الحرص على التواصل والتقارب والتهيئة من جديد لارجاع الامور الى نصابها وطبيعتها في وحدة الاقطار العربية التاريخية والمحتومة .

ا ـ ديار الشـام ـ سورية :

قضى مؤتمر سان ريمو (نيسان ١٩٢٠) بوضع المستطيل العربي كله الممتد من البحر الابيض المتوسط حتى حدود فارس تحت الانتداب ، تقسيم بلاد الشام ـــ سورية الطبيعية ـــ الى ثلاثة أقسام هي فلسطين ولبنان وما تبقى من سورية الطبيعية . وعهد الى فرنسة بالانتداب على سورية ولبنان ، كما عهد الى انكلترة بالانتداب على فلسطين وعلى العراق بما فيه الموصل ، بشرط ان يكون لفرنسة حصة من نفطها[2] .

---

(١) كانت حصيلة الثورة ستة آلاف اسير تركي في الاشهر الثلاثة الاولى ، واضطر الترك الى امداد حامياتهم في الحجاز بعدد كبير ، وتشجع الانكليز بالثورة وقاموا بعبور قناة السويس باتجاه ديار الشام شمالا . واهم من ذلك ان الثورة قضت على بعثة البارون الالماني ستوتزنفن التي قصدت السفر من الحجاز الى اليمن ثم الى افريقية لاثارة الاضطرابات . وقد كتب هوغارث بعد الحرب مقالا في تقييم ذلك جاء فيه : « لو لم تحقق الثورة اي عمل عدا احباطها الزحف التركي الالماني المشترك الى جنوبي الجزيرة العربية عام ١٩١٦ ، لزاد رصيد دينها على كل ما دفعناه في سبيلها حتى الآن » . وماذا دفعوا كفاء ذلك كله ! !

يذكر الجنرال البريطاني ويفل ان مجموع نفقات الثورة التي دفعتها بريطانية بلغت (١١) احدى عشر مليون جنيه انفق منها لورنس ٤٩٠ الف جنيه . وهذا مبلغ تافه بالمقارنة مع ما انفقته بريطانية في ميادين الحرب بالشرق الاوسط (٧٥٠) مليون جنيه ، ومع مبلغ (٤٠) مليون جنيه لاخماد الثورة العراقية عام ١٩٢٠ .

(٢) Cumming « Franco British Rivalry » pp. 63 - 65.

تمت الصفقة بين فرنسة وبريطانية على اقتسام المستطيل العربي اثناء انعقاد مؤتمر سان ريمو وذلك في وثيقة عنوانها : مذكرة عن الاتفاق بين مسيو فيليب برتلو وسر جون كادمان مؤرخة في ٢٤ نيسان ١٩٢٠ (Cmd 675 (1920 .

ومنذ ان أعلن المؤتمرون في سان ريمو هذه القرارات سارت السلطات الفرنسية التي كانت تحتل سورية الساحلية بالعمل على احتلال سورية الداخلية . وقد وجه الجنرال غورو في ١٤ تموز انذارا الى الملك فيصل يطلب فيه قبول الانتداب فورا ، والغاء التجنيد الاجباري ، وتسريح الجيش العربي ...

وعلى الرغم من رد فيصل بالقبول ، ولكن غورو احتج بتأخر وصول الرد اليه في الوقت المحدد ، وقد ثبت بطلان هذه الحجة فيما بعد ، وأمر قواته بالتقدم نحو دمشق وأثار فيصل بقبوله الانذار الفرنسي دهشة أعوانه وغضبهم ، وعرض نفسه لنقمة جماهير الشعب ، وقد شجعه على المضي في تنفيذ قراره استلامه برقية من اللورد كيرزن وزير الخارجية البريطانية ينصح فيها بتجنب الصدام بأي ثمن . ولكن المؤتمر السوري ومن ورائه جماهير الشعب رفض الانذار ، وعزم على الصمود . وفي ١٩ تموز أصدر قرارا جاء فيه : « ... فالحكومة الحاضرة اذا خالفت بيانها الرسمي ولم تقم بواجبها تجاه البلاد وارادت ان توقع على صك يخالف قرار المؤتمر ، فالمؤتمر يعتبرها بتوقيعها غير شرعية » . على ان الوزارة شرعت بتنفيذ بنود الانذار في مساء اليوم نفسه ، وفي اليوم التالي صدر مرسوم ملكي بتعطيل جلسات المؤتمر لمدة شهرين ، ثم تقدمت الجيوش الفرنسية زاحفة على دمشق ، فثارت ثائرة الاهالي وواجه فيصل رغبة الشعب في المقاومة والصمود باجراءات عنيفة ، واستشهد اكثر من مائة مواطن في شوارع دمشق على يد قوى الامن ، ثم وقعت معركة ميسلون (٢٥ تموز سنة ١٩٢٠) ، ودخل غورو دمشق ، معقل الحركة العربية ومهبط وحيها ، وقد خيل اليه انه قضى على القومية العربية الناشئة التي أقضت مضجع الفرنسيين ، مخافة انتقال عدواها الى مناطق نفوذهم في الشمال الافريقي العربي[١] .

أما القسم الجنوبي من سورية الطبيعية فقد اقتطعه الانكليز ، ونصبوا أميرا عليه عبد الله بن الحسين ودعوه شرق الاردن .

ثبت ان تطبيق الانتداب الفرنسي في سورية ولبنان خلال السنوات العشرين القادمة ، كان بعيدا عن تحقيق الغاية التي وضع من أجلها نظام الانتداب .

---

(١) R. Poincaré « Au service de la France - Vol. VII p. 363

ظل الفرنسيون يميلون الى اتهاج سبل استعمارية قديمة ، واتباع سياسة رجعية متحيزة ، ويهزؤن بأهلية سكان البلاد وبقصورهم عن مؤهلات الحكم والادارة .

اما الوطنيون فظلوا يحنون الى الاستقلال ويضرمون نار الثورة والنضال ، ويقاومون بعناد الاتجاه الاقليمي الذي تحاول فرنسة احلاله محل الاتجاه القومي العربي .

جعلت السياسة الفرنسية من البلاد مسرحا لصراع عنيف بين الفكرتين الاستقلالية والاستعمارية ، فاذا قويت هذه مرة طغت على تلك ، ونشرت الدساتير وشكلت الحكومات الوطنية ، واذا تراجع المد وانحسرت موجة الوطنية ، طويت الدساتير وعطلت المجالس وقمعت الحريات .

تلك قصة الانتداب الفرنسي التي لم تخل سنة من سنيها التي سبقت عام ١٩٢٥ من ثورة دامية في سورية [١] بينما كانت لجنة الانتدابات في عصبة الامم تقف حائرة تجاه فصولها المحزنة لانها لا تملك ، كما ذكر الاستاذ توينبي « صلاحية عملية بتفتيش البلاد المنتدبة ومراقبة سيرها »[٢]

اهم الاحداث السياسية في سورية :

ولنثبت أهم الاحداث والتطورات السياسية في سورية . بعد ان ضرب الاحتلال الفرنسي بجرانه في طول البلاد السورية وعرضها ، كان أول تدبير في سياسته القائمة على مبدأ « فرق تسد » هو توسيع لبنان على حساب سورية (آب ١٩٢٠) ؛ ذلك ان جبل لبنان ، الذي يسكنه اصدقاء فرنسة القدامى ــ الموارنة ــ كان محصورا ضمن حدود وضعت في نظامه الاساسي منذ عام ١٨٦١ ، فأضيفت اليه أقضية أربعة كانت تابعة لولاية سورية وهي بعلبك والبقاع وحاصبية وراشية ومرجعيون ، وألحقت به متصرفيات طرابلس وبيروت وصيدا وصور ، كما أضيف اليه قسم من قضاء حصن الاكراد وقسم من قضاء عكا[٣] . وبينما كانت حوزة

---

(١) Rabbath (Edmond), « Unité Syrienne et devenir Arabe », p. 22

(٢) Toynbee, « Islamic World » p. llf.

(٣) Ettore Rossi, « Documenti Sull, Origine E. Gli Sviluppi Della Questione Araba » (1872 - 1944) p. XXVI.

متصرفية جبل لبنان لا تزيد عن (٥٧٤٠) كم٢ ، ولا يتجاوز سكانها (٤٨٠) ألفاً ، رفع غورو مساحة (دولة لبنان الكبير) وسكانها الى الضعف . وسلكت فرنسة فيه مسلكا خاصا يختلف عن مسلكها في سورية[١] ، وضرب بينها وبين سواحلها بسور قوامه دولة لبنان الكبير ، ودولة العلويين ، وسنجق الاسكندرون ، يحكم كلاً منها حاكم فرنسي يتمتع بسلطة واسعة . ومزق الفرنسيون سورية بتقسيمها الى اربع دول مستقل بعضها عن بعض ، بقصد تقوية النزعات الانفصالية والخلافات الطائفية ، واحلال الاتجاه الاقليمي محل الاتجاه القومي ، واضعاف اللغة العربية وتشويه التاريخ العربي .

ان مخاوف السوريين من شرور الحكم الفرنسي ما كانت وهما من الاوهام ؛ فقد عاينوا بأنفسهم كيف ان الفرنسيين تذرعوا بوسائل مختلفة لتوطيد نفوذهم وتخليد احتلالهم للبلاد ؛ ففي ميدان التعليم فرضوا اللغة الفرنسية في المدارس ، واشهد اننا تعلمنا نشيد « المرسيليز » قبل ان تتعلم نشيدنا الوطني . وفي ميدان الاقتصاد أفقروا البلاد ، فمنيت بركود لم تعرف له مثيلا قبل نصب الحواجز بين أجزاء سورية . هذا الى الخسائر التي أصابت الخزانة السورية من جراء ربط النقد بالفرنك المتدهور دوما ، وامتصاص الرصيد الذهبي وطمع الموظفين الفرنسيين المتزايد للمال ورواتبهم الضخمة وعددهم الكبير . أما في ميدان الادارة فنذكر تعسفهم وقلة خبرتهم ووقاحتهم واثارتهم للمنافسات وتشجيعهم للنزعات الانفصالية وتقوية العناصر الموالية والنعرات الطائفية والعنصرية[٢] .

عبر الشعب عن استيائه بثورات وفتن ؛ نذكر منها ما كان من مقتل وزيرين سوريين قبلا تنفيذ بعض مآرب سلطة الاحتلال (١٩٢٠) ، وما كان من اطلاق النار على الجنرال غورو نفسه ، واستمرار الثورات في الشمال[٣] ، والهتاف بسقوط الانتداب والخونة اثناء زيارة المستر كراين (١٩٢٢) عضو لجنة الاستفتاء الامريكية لدمشق ،

---

(١) قسمت سورية الى اربع دول : دولة حلب ودولة العلويين (اللاذقية) ودولة دمشق ودولة جبل الدروز (السويداء) .

(٢) Hourani, « Syria and Lebanon », p. 167

(٣) ثورة ابراهيم هنانو وثورة الشيخ صالح العلي ، دامتا حتى تموز ١٩٢١ .

وما تبع ذلك من اعمال الاعتقال والنفي والعدوان • رغب الجنرال غورو في تهدئة النفوس فأقام الاتحاد السوري بين دول دمشق وحلب والعلويين (١٩٢٢) ولكن خلفه الجنرال ويغان عاد فألغى الاتحاد وقصره على دولتي دمشق وحلب باسم دولة سورية[1] ، وحل ارتباط لواء الاسكندرون بدولة حلب السابقة ، فخرج عن النطاق السوري منذ ذلك الوقت (١٩٢٤) • ولم يلبث ويغان ان حل مكانه الجنرال سراي ، والرجل ماسوني النزعة يساري الاتجاه على عكس سلفة الاكليركي ، فأعلن ان بابه مفتوح لسماع شكاوى البلد ، وتقبل الوفد الذي قابله في بيروت بقبول حسن ، واصغى الى مطالبه ، وعلى رأسها « الوحدة السورية تشتمل على بلاد العلويين وجبل الدروز ولواء الاسكندرون والاراضي الملحقة بلبنان » • ويظهر في بادىء الامر ان سراي ما كان راضيا عن الخطة التي يسير عليها الموظفون الفرنسيون، فقد اشتكى من كثرتهم واسرافهم ، وحاول بادىء الامر ان لا يركب متن العناد ويشتط في الادارة ، ولكن معاونيه وموظفيه كانوا حجر عثرة في وجه أية نية في الاصلاح والتقارب ، حفاظا على امتيازاتهم ومراكزهم التي لا تتيحها لهم ظروف سياسية أخرى ، شأنهم شأن بعض المترئسين طلاب الجاه والمال الذين لا يكاد يخلو منهم عصر من العصور •

وانقلبت الاناة الى رعونة لدى المندوب السامي ، فخرج عن جادة الاعتدال ، ووجدت الطبيعة الهوجاء سبيلا الى نفسه الحائرة ؛ فما ان هرع اليه وفد الدروز لينصفهم من حاكمهم الفرنسي حتى ضاق بهم ذرعا ، وهددهم بالنفي ورفض مقابلتهم• ثم اوعز بالقبض على زعمائهم باستدراجهم بعد ذلك لمقابلته بحجة الاستماع الى مطالبهم • وانطلت حيلته على البعض فنفي ، أما الآخرون فقد اضرموا نار الثورة في الجبل الدرزي ، ومنه انتشرت الى غوطة دمشق والى حماه واطراف حمص ومنطقة البلان وغيرها •

ولسنا في صدد تحليل اسباب غضبة الشعب على الطغاة ، ولكن لنا ان نرى في ظفر الترك الكماليين مشجعا وحافزا لها ، وفي نهوض فيصل في العراق بمعاهدة

---

(١) Amedo Giannini, « L'ultima Fase della questione orientale » , (1913 - 1932), p. 273.

(١٩٢٤) المعتبرة يومئذ كسبا وغنما ، وفي تصريحات عبد الله أمير شرق الاردن ، وعزمه على تحرير سورية ، ما أثار حماس السوريين واعجابهم بلغة السيف ، فآمن من لم يكن يصدق كلمة فيصل « الاستقلال يؤخذ ولا يعطى » • وغدت هذه الكلمة شعارا ورمزا للثورة السورية الكبرى (تموز ١٩٢٥) •

تكبد الفرنسيون خسائر باهظة ومنوا بهزائم عديدة من قبل ان يضيع صواب سراي ، ويأمر بصب نيران المدافع والطائرات على دمشق • وأسرعت الحكومة الفرنسية تسحب مندوبها وتذيع انها تنوي تعديل سياستها • وأرسلت المسيو دو جوفنيل أول مفوض سامي مدني (تشرين الثاني ١٩٢٥) فدعا الثائرين الى الهدوء ، ودعاه الثائرون الى تحقيق الوحدة السورية ، واقامة حكومة وطنية ، واجراء انتخابات المجلس التأسيسي لوضع الدستور ، والعفو عن الثوار وتعويض المنكوبين[1] • ولكن المندوب طلب الاستسلام المطلق أولا ، ومشى بين الزعماء ، فكان نصيبه الاعراض منهم ، وكان نصيبهم منه قصف ثان لدمشق بالقنابل ، وتعميم الفعال الوحشية في البلاد ، وأفسد على نفسه امر الوصول الى اتفاق يؤدي الى معاهدة تحالف بين الطرفين ، فترك الامر الى خلفه المسيو بونسو (آب ١٩٢٦) • وبدأ المندوب الجديد اتصالاته مع الوطنيين بينما كانت الثورة مستمرة • غير ان الخلاف على موضوعي الوحدة السورية وحدود لبنان الكبير ، جعل الرجل يرى الحكمة في التسويف واطالة امد المباحثات ، واخيرا عهد الى احد « المعتدلين » بتأليف الوزارة واجراء الانتخابات ففازت الكتلة الوطنية (نيسان ١٩٢٨) وتشكلت جمعية تأسيسية صاغت دستورا للبلاد لم يرض عنه بونسو الا عندما أضاف الى مواده مادة تجعل الامر كله بيده • رفض المجلس ان تحرم الامة من سيادتها ، وعجزت السلطة عن املاء ارادتها الا على سبعة اعضاء ، بينهم رئيس الوزارة « المعتدل » • ثم صدر قرار بتأجيل الجمعية التأسيسية الى مدة غير معينة •

ان فترة النضال الدستوري في سورية بدأت منذ ان تلاشت الثورة السورية (آب ١٩٢٧) ، هذه الثورة التي كان لها صدى قوي في الاوساط العربية والدوائر السياسية العالمية وعصبة الامم • وبقي بونسو في منصبه سبع سنوات قضاها متمسكا

---

(١) حنا ابو راشد (جبل الدروز) ، ص ٣٢٧ •

بالتريث والانتظار ، ولم يكن يتعجل في ايصال الانتداب الى غايته المرسومة • وبدا الشعب متلهفا لانتزاع شيء وتحقيق شيء عندما اجتمع المجلس النيابي الجديد (حزيران ١٩٣٢) • وتعقدت الاحوال يوم تقدم المندوب بمشروع معاهدة ردهاالمجلس لانها ، كسابقتها تحكم القيد والتضييق على وجه يخالف ما يحق للحليف ان يجده لدى حليفه • وفي تشرين الاول ١٩٣٣ حل محل بونسو الكونت دومارتل ، ورغبت اليه حكومته ان يتبع سياسة جديدة صارمة •• ألم يمض على انتهاء الثورة ستة أعوام ؟ وضع مشروع معاهدة[1] لا تراعي أماني الوطنيين ، ولا تنظم العلاقات بين الطرفين على اساس معقول • ولما عرضت على المجلس النيابي (تشرين الثاني ١٩٣٣) ، نهض نائب وتلا عريضة برفضها • قرر المفوض السامي تعطيل المجلس وتأجيله ، وطفق يصرف شؤون البلاد بمراسيم اشتراعية على كره وعداء من الناس ، ثم تظاهر باصلاح الاحوال الاقتصادية ، ولم يكترث بعواقب سياسة البطش التي اتبعها ؛ فأفاق بعد سنتين ليجد ان ادارته ترتطم بمصاعب جديدة جعلتها مهددة بالسقوط ؛ فالكتلة الوطنية نشطت للعمل ، واصدرت ميثاقا وطنيا بمناسبة حفلة الذكرى للزعيم ابراهيم هنانو (كانون الثاني ١٩٣٦) ، يتضمن المطلب التقليدي ــ التحرر والوحدة ــ ومقاومة فكرة الوطن القومي الصهيوني ، والعمل على اتحاد الاقطار العربية [2] وقامت في كل مكان مظاهرات السخط العنيف ضد الفرنسيين ، فقابلها هؤلاء بعنف يحسنون وسائله ، فكان الاعتقال والتعذيب والتشريد • وعبرت دمشق عن المها باغلاق الاسواق واعلان الاضراب العام فدام قرابة ستين يوما ، تعطلت خلاله مرافق البلاد وجمدت حركتها ، وخيم عليها الحزن والاضطراب ، ولاح شبح الثورة في الافق القريب ، عقب اصطدامات دامية بين قوى الشعب وقوى الامن • ولم يجد المندوب بداً من الانحناء أمام هذا التعاون الشامل والثبات الشعبي ، فاذاع بيانا فتح فيه باب المفاوضات لعقد معاهدة صداقة وتحالف ، ودعا الزعماء للمباحثة معه ، فرحبوا بالعودة الى التفاهم • وتم الاتفاق (آذار ١٩٣٦) على تشكيل وفد يذهب الى باريس ليتفاوض مع وزارة الخارجية الفرنسية مباشرة •

---

(١) انظر نص المعاهدة في (الوثائق والمعاهدات) ص : ١٧٢ ــ ١٨٠ •

(٢) Hourani, op. cit. p. 199.

امضى الوفد في باريس خمسة أشهر ، وبعد مفاوضات تجلى فيها الاقبال والادبار، وقع الطرفان معاهدة ايلول ١٩٣٦ . ان المعاهدة الجديدة لم تتضمن الاستقلال التام ، ولا مطلق الحرية في السياسة الخارجية وشؤون الدفاع ، وانما تضمنت بعض الملاحق التي تشوب سيادة البلاد ووحدتها ؛ اذ نصت على ان تنضم أراضي العلويين وجبل الدروز الى سورية ، على شرط ان تتمتع بنظام اداري ومالي خاص [1] . وأما مسألة ابقاء الحدود اللبنانية أو ازالتها ، وعودة الاراضي التي الحقت بلبنان الى مكانها من سورية ، فما أشير اليها من قريب أو بعيد . وتعهدت سورية بأن تحترم استقلال دولة لبنان وتعدل عن مشروع اتحاد سورية ولبنان . واذا اعتبر الوفد المفاوض السوري هذه المعاهدة نصرا مؤزرا فلانه كان يعلم ان فرنسة ما كانت تسلم بما سلمت به الا تحت ضغط ظروف داخلية وخارجية ؛ فلولا الميول الحرة للجبهة الشعبية التي استلمت الحكم آنذاك ، ولولا موقف فرنسة المهدد الدقيق في أوربة يومئذ ، لما أبرمت المعاهدة . وانجلت انتخابات الخريف التالي عن فوز الكتلة الوطنية — الحزب المعارض — وصادق المجلس النيابي على المعاهدة مع فرنسة ، ثم بوشر بتطبيق نصوصها من الجانب السوري . وبدا للبعض وكأن البلاد مقدمة على عهد بنّاء وطني ، تتبوأ فيه مكانتها اللائقة بجهادها المستمر . الا ان الاحتلال الذي لم يعجبه أن يخرج السلطان من يده ، أخذ ينفث سمومه ويحرض الحركات الانفصالية ، ويزرع بذور التفرقة العنصرية والاقليمية والطائفية بين صفوف الشعب الآمن . بل انه شجع التمرد على الحكومة الوطنية المركزية في دمشق . وزاد الطين بلة ، ما كان من الخصومة والجفاء ، بين الكتلة الحاكمة وبين نفر من الوطنيين لم تعجبهم المعاهدة وقيودها الثقيلة مما أعان الفرنسيين فيما بعد على النكول بما عاهدوا عليه من قبل . وبينما كانت موجة التفاؤل بقرب أوان عرض المعاهدة وتصديقها من البرلمان الفرنسي ، تتقدم تارة وتتراجع اخرى ، برزت مشكلة لواء الاسكندرونة بشكل خطير . ولنثبت موجزين مأساة اقتطاع هذا الجزء الثمين من القطر السوري ، ومؤامرة ضمه الى تركية .

خشيت الحكومة التركية ان يؤدي زوال الانتداب الفرنسي الى عودة لواء

---

(١) انظر نص المعاهدة وملاحقها في الوثائق والمعاهدات ص ١٨١ — ٢٠٠ .

الاسكندرونة الى أمه سورية ، فطلبت بحث مسألة الحدود معها ، في الوقت الذي أصبح توقيع المعاهدة وشيكا في باريس ، مستفيدة من الاحوال الدولية المضطربة في أوربة آنذاك ، ومن ضعف سورية • وعندئذ عرضت فرنسة موضوع نزاع الحدود على عصبة الامم (كانون الاول ١٩٣٦) فأوصت العصبة باستقلاله الذاتي تحت اشرافها على أن يشترك اللواء مع سورية في الشؤون الخارجية وفي الادارة والنقد كما أوصت بان تكون اللغتان التركية والعربية رسميتين فيه (كانون الثاني ١٩٣٧)• وعينت لجنة مراقبين للاشراف على انتخابات المجلس التمثيلي في اللواء • ولكن هذا الامر جعل الترك في موقف حرج ، لانهم لا يؤلفون من مجموع سكانه سوى ٣٧ بالمائة فقط • الا ان الامر يختلف لو تمكن الترك من الاشراف على الجهاز الانتخابي ، وعلى قوى الامن ، فعند ذلك لا يقف بوجه « الاكثرية » شيء • ولاجل هذه الغاية ضغطت تركية على فرنسة[1] ، وكانت هذه ترقب بقلق وخوف التهديد الفاشي الايطالي لمصالحها في منطقة شرقي البحر المتوسط ، فرأت في ارضاء تركية ما توازن به ذلك التهديد ، وما يضمن لها السلامة • وقعت معاهدة صداقة فرنسية تركية (١٩٣٨) دخلت بموجبها الفرق التركية اراضي اللواء لتشترك مع الفرق الفرنسية في تأمين « النظام والهدوء » اللازمين أثناء المعركة الانتخابية المقبلة • وبرع المتآمرون في تهيئة الجو الانتخابي ، ولكن سرعان ما بدا فساده للجنة المراقبين الدوليين ، فانسحبت من الاشراف على عمليات الاقتراع ، واتهمت فرنسة بالمناورة وسوء القصد ، واحتجت على وسائل الارهاب التي تمارسها بمعونة الترك ، للضغط على العناصر غير التركية ــ وهي الاكثرية ــ لحرمانها من حق التصويت الحر[2] • وكانت صيحة ممثلي العصبة كالعادة صيحة في واد ، ذهبت مع الريح وما ذهبت بالاوتاد التي غرسها الترك في ارض اللواء ، بعد أن نالوا « أكثرية » ٦٣ بالمئة من الاصوات • وبعد قليل اجتمع المجلس التمثيلي النيابي وقرر الالتحاق بتركية (٣٠ حزيران ١٩٣٩)[3] •

---

(١) Hourani, op. cit, . p. 210

(٢) G. Kirk op. cit. , p. 191

(٣) Hourani, op. cit. , p. 212

هاج الرأي العــام في سورية ، وهاجم فرنسة بشدة اذ نبذت حليفتها ، وانحازت الى الجانب القوي ، وانتهكت المادة الرابعة من صك الانتداب[1] القائلة بوجوب محافظتها على أراضي الوديعة المقدسة التي وكل اليها امر ارشادها • وجدير بالذكر ان بريطانية التي كانت ترقب باتنباه ما يجري في هذا الجزء من العالم ، باركت هذه الصفقة ، لانها كانت تفضل ان يحل الاتراك محل الفرنسيين في قاعدة بحرية هامة كالاسكندرونة تقابل قواعدها في قبرص ، والعملية بالنسبة اليها مغرية لا تكلفها شيئا ، وسورية وحدها تدفع الثمن • وفي دمشق اكتفى المجلس النيابي بتسجيل عدم موافقته على ضم اللواء الى تركية[2] ، بينما ظهرت الحكومة الوطنية السورية بمظهر العاجز المكبوت • ومنذ هذا الوقت ستقف مسألة الاسكندرونة حجر عثرة في سبيل أي تقارب بين معظم العرب وبين تركية •

وفي هذا الجو السياسي المكفهر بنذر الحرب القادمة ، فتحت الوزارة السورية على أمل ، صفحة جديدة من المفاوضات ، أضافت بها الى المعاهدة قيودا وملاحق وذيولا جديدة لتبدو أكثر قبولا لدى المسؤولين الفرنسيين • ولما عاد رئيس الوزراء ــ جميل مردم بك ــ الى دمشق صرح بأن ابرام المعاهدة اصبح قاب قوسين • ولكن برقية وصلته من الحكومة الفرنسية تعلن فيها بأسف انها لا تنوي في الوقت الحاضر عرض المعاهدة على البرلمان[3] ،فاستقالت الحكومة السورية ، ولجأ المسيو بيو ، خليفة دومارتل ، الى حل المجلس النيابي السوري ، والى فصل جبل الدروز وجبل العلويين عن الادارة المركزية في دمشق • ولم يلبث ان استقال رئيس الجمهورية هاشم الاتاسي • وبعد ازمات وزارية متتالية ، وسدت الامور الى مديرين يأتمرون بأمر السلطة ، فعم السخط وتقارب السوريون وأحسوا جميعا بالآلام لما تناجوا في نيات

---

(1) Hourani, op. cit. , Appendix A , p. 310

(٢) مذكرات المجلس النيابي السوري ــ جلسة ٣١ أيار ١٩٣٩ •

(٣) شعرت الحكومة الفرنسية بعد ابرام المعاهدتين مع سورية ولبنان انها أصبحت قادرة على مجابهة الازمات الدولية في أوربة ، ذلك ان ما يشغل بال السياسة الفرنسية في الاساس كان مسألة الامن ضد اعتداء المانية وايطالية ، وقد اطمأنت نوعا من هذه الناحية •

الاحتلال المقبلة • ولكن اندلاع الحرب العالمية الثانية سيزيد في تمادى السلطة ، وستوضع البلاد تحت وطأة الاحكام العسكرية •

• • •

ب ـ لبنان ـ التطور السياسي :

أما في دولة لبنان « الكبير » ، وهي دولة انشئت عمدا لضمان اكثرية مسيحية فيها [1] ، فان الطائفية المعقدة جعلت سير السياسة الاستقلالية فيه أقل اندفاعا من سورية ، ومع ذلك لم تنعدم فيه تلك الاصوات التي تدعو فرنسة الى منح اللبنانيين حق وضع الدستور ، وحق انتداب الحاكم الوطني • وما كان لدوائر المفوضية العليا في بيروت ان تعيرها ادنى انتباه ، واستمرت تصرف شؤون البلد بواسطة جيش من الموظفين[2] ، ذوي الرواتب الضخمة ، يؤرثون العداوات بين طوائفه ، لتكون فرنسة المرجع والملجأ والحكم الذي لا غنى عنه ، اذا أريد للناس أن يهنأوا بنعمة الاستقرار !

وبينما كان هدير الثورة السورية يزلزل الاحتلال بين (١٩٢٥ ـ ١٩٢٧) كان لبنان يشهد أياما هادئة نسبيا ، وان لم يخل من بعض حركات عصيان وتمرد[3] • ولكن معظمها وأهمها ما كان ناجما في الاساس عن رغبة سكان البلاد التي اقتطعها الفرنسيون من سورية ، في الالتحاق بالوطن الام • وكافأت فرنسة اللبنانيين بان منحتهم حق الاشتراك بوضع الدستور ، ثم باعلان الجمهورية (أيار ١٩٢٦) • على ان مواد الدستور العتيد قدمت الى المجلس النيابي بسرعة لم يستطع معها مناقشتها كما ينبغي • ومنح المفوض السامي حق الرفض (Veto) الذي ضمن له هيمنة تامة على مرافق الدولة • وقد أسند الاحتلال في البداية رئاسة الجمهورية الى مسيحي

---

(١) Antonius, op. cit. , p. 71

(٢) يذكر أوجين يونغ في كتابه « الاسلام وآسية امام المطامع الاوربية » انه كان في لبنان قبل الاحتلال الفرنسي (٣٥٠) موظفا مدنيا وعسكريا ، أما الآن (١٩٢٨) فقد ناهز عددهم الـ (٤٠٠٠) الامر الذي أدى الى زيادة الضرائب وشكوى الناس . (الترجمة العربية ص ١٠٨) .

(٣) Rabbath, op. cit. , p. 23

ارثوذكسي عرف بصلاته الوثيقة مع سلطات الاحتـلال[1] .

كانت السلطة التشريعية بحسب هذا الدستور موزعة بين مجلس نوات منتخب ومجلس اعيان ، ثم توحد المجلسان في مجلس واحد للنواب عدد أعضائه خمسة وأربعون ، ثلثاهم ينتخب من الشعب ، والثلث الاخير يعينه رئيس الجمهورية . وما كان على المفوض السامي ، اذا أراد ان يرفض أية لائحة اصلاحية او غيرها ، الا ان يوحي بانضمام ثمانية أعضاء من الثلثين الى الثلث المعين ، وبذلك يحقق رغباته ، ويفسد محاولات الوطنيين للافلات من القيد الفرنسي المحكم .

علق المفوض السامي بونسو الدستور (أيار ١٩٣٢) بدعوى ان تكاليفه كانت تثقل كاهل المكلف اللبناني والخزانة العامة ، ولكن حقيقة الازمة ما كانت تتعلق بتنسيق عدد من الموظفين وانقاص رواتبهم كوسيلة من وسائل اصلاح الاقتصاد اللبناني[2] . وانما لان رئيس مجلس النواب الشيخ محمد الجسر اراد ان يرشح نفسه لرئاسة الجمهورية ، بعد ان اوشكت مدة الرئيس الاول ان تنصرم ، وأيده بذلك كثير من النواب . وخيل للسلطة المحتلة ان الفوز سيكون حليفه حتما ، خصوصا وان الدستور لا يشترط كون الرئيس مسيحيا[3] .

بادر بونسو للعمل حالا ، فأوعز الى الشيخ الجسر ألا يرشح نفسه فأبى . وعندئذ أوقف بونسو العمل بالدستور وعطل الحياة النيابية ، فامتعض المسلمون من هذا العمل الشائن المتحيز ، ورأوا فيه دليلا جديدا على تفضيل فرنسة فئة دون أخرى ، وحرصها على ارضاء طائفة بعينها من الشعب ، فوزعوا مناشير في ١٨ أيار ١٩٣٢ تحيّي الوحدة السورية ، وتشجب تحيز فرنسة ، وتدعو المسلمين للانضمام الى سورية ، ومعارضة الحكومة اللبنانية[4] .

---

(١) ليس في نص الدستور اللبناني ما يحدد مذهب رئيس الجمهورية او دينه ولكن الميثاق الوطني الذي وقعته مختلف الطوائف في لبنان عام ١٩٤٣ ، اقر بان تكون رئاسة الجمهورية للموارنة ورئاسة مجلس النواب للمسلمين الشيعة ورئاسة مجلس الوزراء للمسلمين السنة ، وليس ثمة نص قانوني ملزم بهذا الصدد ، لكنه اتفاق على الشرف جرى التوقيع عليه بين اقطاب الحركة الوطنية يومذاك .

(٢) Hourani , op. cit. , p. 180

(٣) مجيد خدوري (المسالة السورية) ص ١٢٧ .

(٤) عدد المقطم ٢٢ أيار ١٩٣٢ .

ولما عقدت معاهدة التحالف بين فرنسة وسورية (ايلول ١٩٣٦) طالبت بعض الطوائف ، وعلى رأسها الموارنة ، بابرام معاهدة لبنانية فرنسية مماثلة ، تكون دليلا على مساواة لبنان بسورية ، وضمانة اضافية على ان تحسن علاقات الاحتلال مع سورية لا يعني ولا يفهم منه ان يطرأ أي تغير في الحالة السياسية الراهنة للجمهورية اللبنانية . سارعت فرنسة لاجابة الطلب ، وشرع الكونت دومارتل بمفاوضات مع وفد يمثل لبنان ، انتهت على يسر بعقد معاهدة بين الطرفين (تشرين الثاني ١٩٣٦) هي من حيث المبدأ شبيهة بالمعاهدة السورية الفرنسية، غير ان امكان تجديدها بموافقة الطرفين مضمون[١] . وفرق آخر مهم بين المعاهدتين هو ان الاتفاق العسكري مع لبنان خول فرنسة حق ابقاء قواتها العسكرية من جميع الاسلحة طوال مدة المعاهدة (٢٥ سنة) ، دون تحديد للمناطق التي ترابط فيها او للعدد الذي تتكون منه[٢] . أما في سورية فقد احتفظت فرنسة لنفسها بحق ابقاء حاميتين عسكريتين ، الواحدة في جبل الدروز ، والثانية في منطقة اللاذقية لمدة خمس سنوات منذ تنفيذ المعاهدة ، بالاضافة الى حق استخدام قاعدتين جويتين قرب دمشق وحلب طوال مدة المعاهدة .

وفي لبنان رحب الموارنة خاصة بتوقيع المعاهدة ، بينما استقبلها المسلمون بالقلق والاستياء ، واعتبروها ضربة موجهة لامانيهم . وقامت الاضطرابات ووقعت اصطدامات عديدة في بيروت وطرابلس عندما حاولت الحكومة كم أفواه المطالبين بتسوية مسألة الحدود فورا على اساس العودة الى حدود عام ١٩٢٠ مع الوطن الام سورية . ولكن نزول الجيش الفرنسي الى الشارع جعل المجلس النيابي يصدق المعاهدة ، برغم صرخات المعارضة المدوية من خارج المجلس (تشرين الثاني ١٩٣٦) . وكانت هذه المعاهدة هي التي ايدت عمل الجنرال غورو عام ١٩٢٠ عندما اوجد دولة لبنان الكبير ، ثم اعيد العمل بدستور عام ١٩٢٦ ابتداء من مطلع عام ١٩٣٧ ، واجتمع المجلس الجديد ، ولكن ذلك كله ما كان لينهض برهانا على ان بعث الاشكال الدستورية قد بدل من طبيعة الحياة السياسية في لبنان . تلك التي استمرت تسيرها الروح الطائفية وتغذيها . وفي شهر تشرين الثاني ١٩٣٧ طرأ تعديل جديد على قانون

---

(١) Hourani, op. cit. , pp. 203, 201.

(٢) انظر نص المعاهدة اللبنانية وملاحقها في (الوثائق والمعاهدات) ص ٢٠٣ ــ ٢١٧

الانتخاب اصبح بموجبه ثلثا أعضاء المجلس على الاساس الطائفي ، والثلث الباقي يعين تعيينا ، غير ان جزءا كبيرا ومتنفذا من الشعب قاطع الانتخابات ، فانبثق عنها ممثلون شغلوا بخصوماتهم الداخلية عن بحث الاصلاح والسير بالبلد نحو معالجة ما يعانيه من أزمات متكررة ، وعدم استقرار دائم • واستمر المجلس على هذا المنوال حتى عام ١٩٣٩ ، كما تتابعت الوزارات على المسرح السياسي ، دون ان يكون لها مأثرة محمودة تذكر لها في ميدان المصالح القومية ، بشكل لا يشوبه التفكير في انتفاع أو في مصلحة •

غلب على الرأي العام اللبناني القنوط ، فكره المسائل العامة والاشتغال بالسياسة، وانعدام ايمانه بالنظام الدستوري بشكله القائم في البلد ، ولم تعد كلمة قادةالاحزاب مسموعة لدى جماهير الشعب • بل لقد تساءل بعض عقلاء اللبنانيين عن جدوى برلمان لا يجلس فوق مقاعده سوى الملاكين الكبار والمحامين المتفيقهين ، يقتلون الوقت بخصوماتهم ومشاجراتهم • ألم يكن لبنان في خير عندما كان يظله نظام بسيط ينصرف فيه الناس الى العمل النافع ويهتمون بمصلحة البلد من قبل ان تحل عليه لعنة الانتداب ؟ أليس من الاسراف والسخف ان تشتمل منطقة صغيرة الرقعة كلبنان ، على برلمان تنوء بنفقاته الخزانة ، ودستور يعقد الامور ويؤيد الفوارق ويزعم انه يشيع العدل ويحفظ الحقوق بين الطوائف جميعا ؟ !

• • •

ج ـ شرقي الاردن ـ التطور السياسي :

كانت الاراضي الواقعة الى الشرق من نهر الاردن ايام العثمانيين جزءا من ولاية سورية ، ثم اصبحت تؤلف جزءا من المملكة العربية في دمشق بين تشرين الثاني ١٩١٨ وتموز ١٩٢٠ ، ولكنها لم تكن جزءا موحدا ، فمن ناحية الشمال ، كانت عمان والكرك تابعتين الى دمشق ، ومن ناحية الجنوب كانت معان والعقبة تابعتين للملك حسين في الحجاز وطالما كان الحسين يعتبر نفسه ملك البلاد العربية ، لم تكن مسألة الحدود مثار خلاف بين فيصل في دمشق وابيه في مكة • ومعلوم ان المنطقة تقع كجزء من المنطقة (ب) الخاضعة للنفوذ البريطاني بموجب اتفاقية سايكس بيكو •

لقد انتدب مؤتمر سان ريمو بريطانية لهذه المنطقة ، كجزء من انتدابها على فلسطين ، مع العلم بأن تدابير الانتداب عليها لا تصبح نافذة المفعول الا اذا كانت الظروف المحلية مواتية[1] ، وتقدير هذه الظروف راجع الى بريطانية ، فهي مخولة ، بعد موافقة جمعية الامم ، ان تؤجل او توقف تطبيق مقتضيات الانتداب على بلاد شرقي الاردن — وهو الاسم الذي أصبح يطلق على المنطقة الممتدة شرقي نهر الاردن من جنوب مدينة درعا الى خليج العقبة • وبعد دخول الفرنسيين الى دمشق (تموز ١٩٢٠) ، قرر الملك فيصل مغادرة سورية الى اوربة ، وبينما لبث في حيفا ينتظر الباخرة التي ستقله ، تلقى كتابا سريا (آب ١٩٢٠) من السير هربرت صموئيل المندوب السامي البريطاني في فلسطين يعلمه فيه بنية حكومته تنظيم حكومة في شرقي الاردن ، بعد دعوة زعمائها للمشاورة في الامر[2] •

وكان قصد بريطانية من اقامة امارة شرق الاردن في بقعة من الاراضي الصحراوية التابعة لولاية دمشق العثمانية ، ان تستفيد من موقعها الاستراتيجي الذي يسيطر على ما يجاوره من الاقطار العربية ، ورضيت ان تتحمل الجزء الاكبر من ميزانيتها ، وهي تعلم ان الامارة يعوزها كل مقومات الدولة وعناصر وجودها[3] •

قصد صموئيل مدينة السلط (الصلت) حيث اجتمع بشيوخ البلاد وزعمائها ،

(١) استند الانتداب على شرقي الاردن الى وثيقتين ، الاولى وثيقة الانتداب على فلسطين وبخاصة المادة ٢٥ منها ، والثانية وثيقة القرار الذي تبناه مجلس العصبة في ايلول ١٩٢٢ بناء على اقتراح اللورد بلفور .

بموجب المادة ٢٥ من وثيقة الانتداب ، يسمح للدولة المنتدبة ، بموافقة مجلس العصبة ، ان تؤجل تطبيق الانتداب على فلسطين بالنسبة الى شرقي الاردن ، الا ما يختص بالمواد ١٥ ، ١٦ ، ١٨ ، ومع ذلك فالمجلس قرر ، بناء على اقتراح بلفور ، انه فيما سوى استثناءات معينة ، يجب تطبيق بنود الانتداب كلها على شرقي الاردن .

Minutes of the 5th session (extraordinary) of the permanent Mandates Commission, 1924. p. 91.

(٢) راجع نص الكتاب السري في (الوثائق والمعاهدات) ص ٢٢٣ — ٢٢٤ •

(٣) انظر ساطع الحصري — العروبة بين دعاتها ومعارضيها (بيروت ١٩٥٢) ص ١٢ — ١٥ حيث يناقش اسباب انشاء امارة شرق الاردن وعدم ضمها الى العراق او فلسطين .

وأشار في خطابه الى المساعدة التي سينالها الاهالي من بريطانية فقال : « تسألونني عن نوع المساعدة التي تريد انكلترة ان تقدمها لكم فاجيبكم بانها لا تريد ان تضمكم الى الادارة الموجودة الآن بفلسطين ، بل تنشيء لكم ادارة منفردة تساعدكم على أن تحكموا أنفسكم بأنفسكم[1] ». ثم عاد المندوب السامي الى القدس ، ودخلت البلاد رسميا ضمن دائرة نفوذه وتشكلت ثلاث حكومات : الواحدة في عجلون ، والثانية في الكرك ، والثالثة في السلط وعمان ، ولكل منها مستشار بريطاني يحكم من وراء ستار ، وفي كل منها نظام اداري وقضائي يختلف عنه في الاخرى قليلا او كثيرا ، ويتراوح بين العرف البدوي والقبلي وبين القانون المدني والشرعي والعسكري . وكانت نتيجة وجود حكومات متعددة وانظمة متفاوتة ان ضربت الفوضى أطنابها في البلاد ووجد الاستياء سبيلا الى القوم. وبرغم معاهدة أم قيس (ايلول ١٩٢٠)[2] التي عقدها الميجر سومرست (لورد ركلان فيما بعد) مع شيوخ عجلون،فان القلاقل والاضطرابات ما فتئت تسود الاحوال الداخلية ، ويزيد في احتدامها فقر البلاد وجدبها ، وعدم مقدرتها على كفاية السكان اقتصاديا ، بعد ان نصبت الحواجز الاقتصادية بينها وبين بلاد الشام الشمالية . هذا الى نفور الناس من مكائد السياسة البريطانية بعد نكبة الشام ، وخنق الحكم الفيصلي . في هذه الفترة التي سيطر على الرأي العام فيها القلق والحذر والهياج ، قدم الأمير عبد الله بن الحسين الى مدينة معان[3] فاتجهت انظار الكثيرين اليه (تشرين الثاني ١٩٢٠) وكان معه عدد من الاتباع وقوة من بدو الحجاز . اذاع ان نيته منصرفة الى تشكيل قوة اكبر لمهاجمة سورية ، ثأرا لاخيه الذي اخرجه الفرنسيون من دمشق . ومن مقره في معان كتب الى زعماء شرقي الاردن وسورية داعيا للمذاكرة معه في هذا الشأن . ثم نشر بيانا الى

---

(١) خير الدين الزركلي (عامان في عمان) ص ٣٩ .

(٢) تراجع موادها في (الوثائق والمعاهدات) ص ٢٢٥ – ٢٢٦ .

(٣) يقول الزركلي ان الملك حسينا كان دائم التفكير في سورية وما آلت اليه احوالها بعد خروج فيصل ، فارتأى ان يوفد الى جوارها احد ولديه علي أو عبد الله . وبعد تردد منه وزلفى اليه ، اوعز الى عبد الله ليكون وكيل اخيه فيصل فيما حول سورية من الاراضي التي لم يحتلها الفرنسيون ، واعلن انه سيكون اميرا على معان . ص ٢٥ من كتاب (ما رايت وما سمعت) للزركلي .

السوريين كافة ، صرح فيه بأنه ما جاء من مكة الا لاجلاء المعتدي الفرنسي ، وان « العاصمة الاموية ان رضيت ان تكون مستعمرة فرنسية ، فالجزيرة لا ترضى وستأتي غضبى »[1] • وأعلن انه قبل تجديد بيعة الملك فيصل عن الاكثرية الغالبية التي جددت تلك البيعة على يده ، وانه سيعود الى وطنه ــ الحجاز ــ حال نزوح العــدو عن سورية •

خشيت السلطات الفرنسية في سورية[2] ان تتوحد الحركات الناشبة في حوران وجبل الدروز على يد الامير عبد الله ضدها ، فسارعت للاتصال بالحكومة البريطانية بغية الحيلولة دون ذلك • وصلت برقيتان الى الامير من ابيه في مكة واخيه فيصل في لندن ، تأمره الاولى بألا يربك الحكومات المحلية في الاردن فيما لها أو عليها من ضرائب على الاردنيين ، وتبشره الثانية بوعد بريطانية في ان تعيد النظر في القضية العربية ، شريطة ان يكف العرب عن مناوءة الفرنسيين ، وان يوقف الامير مساعيه ضدهم[3] • وفي غضون الشهور التي اعقبت حضوره الى معان ، لم يقم بأي عمل لاسترداد الملك الضائع ، بل انه قدم الى عمان (آذار ١٩٢١) ، حيث استقبل بالترحيب والحماس والخطب الوطنية ، بما يتناسب مع ما عقد عليه من آمال عظام في الزحف على دمشق • ثم استلم مقاليد الادارة في البلد ، وبادر الى الاجتماع بالمستر تشرشل وزير المستعمرات ، وكان قد قدم الى القدس (٢٤ آذار) بعد انتهاء مؤتمر القاهرة الذي عقد في ١٢ آذار ١٩٢١ ، واقترح تنصيب فيصل على عرش العراق « توفيرا في النفقات ، ومحافظة على الشرف البريطاني وعهوده للعرب » •

قابل تشرشل المسيو «روبيردوكي» ، مندوب المفوض السامي الفرنسي في سورية ولبنان ، ثم ودعه وجلس ينتظر دخول الامير الهاشمي • وتم اللقاء ، وانتهت المباحثات بينهما الى الاتفاق على شروط شفهية موقتة[4] ، وتعترف فيها بريطانية برئاسة الامير

(١) (مذكراتي) ، لعبد الله بن الحسين ص ١٦٩ ، الزركلي ، نفس المصدر السابق ، ص ١٦ •

(٢) Ettore Rossi, op. , cit. , p. XXXV

(٣) مذكراتي ص ٢٣١ •

(٤) (الوثائق والمعاهدات) ص ٣٢٧ •

عبد الله للحكومة الوطنية المستقلة اداريا في شرقي الاردن [1] ، وتساعدها بمعونة مالية لاقامة ادارة حديثة ترجع بالمشورة الى المندوب البريطاني في فلسطين ، ويتعهد رئيسها الامير بالمحافظة على حدود فلسطين وسورية من عدوان « البدو والحضر » ، ومقابل ذلك تبذل الحكومة البريطانية المساعي الطيبة لتحسين العلاقات بين الامير والسلطة الفرنسية في سورية •

وهكذا فبلاد شرقي الاردن اقتطعها البريطانيون من سورية بناء على اتفاق سايكس بيكو ، لتكون دولة قائمة بنفسها دون ان يؤخذ بعين الاعتبار ، كون البلاد فقيرة محرومة من موارد مالية لا تكاد تكفي لسد نفقات الدولة ، ولا كونها متأخرة وعدد متعلميها قليل ، كل ذلك لم يقف حائلا في وجه الخطط البريطانية التي لم تتأخر عن بذل قدر من المال لضمان سيطرتها على هذه البقعة الستراتيجية الهامة من الشرق الادنى ، ورصدت بريطانية في ميزانيتها مساعدةمالية سنوية تمنح لشرقي الاردن التي ليس لها ان تخشى حدوث ثورة او قيام معارضة لها طالما يخيم الجهل على البلاد•

وفي ايلول (١٩٢٢) وافق مجلس عصبة الامم على الحاق شرقي الاردن بسلطة الانتداب في فلسطين مع استثنائها من مقتضيات وعد بلفور • وتمكنت بذلك السياسة البريطانية من خلق دولة موالية تؤلف حلقة في مواصلاتها بين البحر المتوسطوالخليج العربي • فضلا عن ان اصطناع هذه الدولة منحها فائدة مزدوجة ، اذ أخرجت مقاطعة هامة من المنطقة الموعودة لانشاء الوطن القومي اليهودي من جهة ، وكافأت عبد الله الساخط عليها حرمانها اياه من عرش العراق ، فكفلت ولاءه • وعملت على الوفاء بعهودها للعرب ، على النحو الذي تصورته من جهة أخرى • وبعد الحاح الامير على بريطانية بوجوب تطمين الافكار العامة وتهدئة هواجس الشعب بوعده الاستقلال ، خولت الحكومة البريطانية في أيار ١٩٢٣ السير هربرت صموئيل ان يدلي بالتصريح التالي في عمان « ان حكومة جلالته قررت ان تعترف بوجود دولة شرقي الاردن المستقلة برئاسة سمو الامير عبد الله على ان تقوم فيها حكومة دستورية ترتبط بمعاهدة مع الحكومة البريطانية ، تكفل لهذه تحقيق التزاماتها الدولية بخصوص هذه البلاد » • ولكن يبدو ان التصريح ما كان كافيا لتهدئة موجة الاستياء التي عمت

---

(١) Giannini, op. cit. , p. 310

أرجاء المنطقة ، تتيجة لانتقاص السيادة القومية فيها ، واشفق عبد الله من نفوذ الثورة في أعصاب الساخطين وشرايينهم ، فتجرأ ان ينفذ بعض رغبات الشعب والف لجنة لوضع قانون الانتخاب[1] ، ثم نشره تحت سمع وبصر المعتمد البريطاني • وأوعز هذا بهدوء الى الحكومة الوطنية لاستبدال قانون انتخابي وضعه هو بالقانون الاول ، فاضطربت الامور وعادت الحملة الوطنية على مساوىء الادارة الداخلية • وفي آب ١٩٢٤ وقعت بعض الحوادث في داخل الحدود السورية ، تتيجة مهاجمة عصابات آتية من شرقي الاردن لبعض اراضي حوران ودمشق ، وكان الامير يؤدي آنذاك فريضة الحج ، فلما عاد فاجأه المعتمد البريطاني بمطالب جردته من معظم سلطته ، ووضعت الشؤون المالية تحت رقابة بريطانية دون قيد لا شرط •

أما المعاهدة التي نص عليها التصريح الآنف الذكر ، فلم تعقد حتى شباط ١٩٢٨ • وجاء في مادتها الثانية ان السلطتين التشريعية والادارية تكونان بيد الامير تساعده حكومته • وربطت المادة الرابعة قوانين البلاد وانظمتها بتعهدات الانتداب• ثم صاغت السلطة البريطانية دستورا وافق عليه الامير ، ونشر في نيسان ١٩٢٨ •ولكن الوطنيين عارضوا المعاهدة وردوا الدستور ، لانهما لا يحققان اماني البلاد واستقلالها • وتداعوا الى عقد مؤتمر عام في شهر تموز وضعوا فيه ميثاقا وطنيا دعوا الشعب الى التمسك به ، والسعي للاستقلال،وشجب الانتداب ، وعدم الاعتراف به الا كمساعدة فنية نزيهة • واتهم الامير عبد الله بملاينة الاحتلال وممالأته وسعيه وراء اطماعه

---

(١) الكتاب الاسود الاردني ص ٥ ــ ٦ .

(٢) الوثائق والمعاهدات. ص ٢٣٦ .

(٣) يتحدث لورد ركلان ــ الميجر سومرست والمعتمد البريطاني في اربد سابقا وكان الامير شكاه الى رئيسه فنقله الى انكلترة ــ يتحدث الى صحيفة الديلي اكسبريس في عدد ١٠ نيسان ١٩٢٤ عن سوء ادارة الامير ، وان البلاد اصبحت عشا للرشوة والفوضى ، حتى دفع اليأس بعض الاهالي للثورة على حكمه وتبذيره للضرائب التي كان ينفقها لاشباع خيلائه بما لا يعود بالنفع على الحالة التعسة التي ترزح تحتها البلاد (الزركلي عامان ص ١٦٣) .

(٤) الوثائق والمعاهدات ص ٢٤٣ ــ ٢٤٩ نص المعاهدة .

الشخصية • ولكن غضبة الوطنيين وحملاتهم القاسية لم تلق سوق القمع والدسيسة من جانب الحكام ومن ورائهم الانكليز • وتجلت السيطرة البريطانية ليس في الممثلين السياسيين فحسب ، وانما ايضا بالفيلق الاردني الذي نظمه ودربه الضابط بيك (Peake) ثم آزره في قيادته بعد عام ١٩٣٠ الميجر كلوب (Glubb) وكان قبلئذ رئيسا لدائرة البدو في العراق ، وحل محل بيك عام ١٩٣٩ ، وظل قائدا للجيش الاردني حتى طرده عام ١٩٥٦ • ان هذا الجيش الاردني لم يكن منظمة عسكرية فحسب ، وانما كان اداة ضغط سياسي بيد سلطة الاحتلال ، تختار رجاله من العشائر والاسر المعروفة وتنفق عليه • ووقعت حوادث واضطرابات في البلد عام ١٩٣٣ عندما حاولت الصهيونية ان تضع قدمها فيه • وضرب الامير عبد الله مثلا سيئا اذ أجر ممتلكاته لليهود ، فكان من ذلك احتجاجات صارخة اعلن بعدها منع بيع الاراضي لليهود ، فهدأت الاحوال نسبيا [1]• وفي اتفاق ابرم عام ١٩٣٤ اعطي الامير حق تعيين ممثلين قنصليين له في الخارج ، ولكن بقيت بيد المقيم البريطاني امتيازات التشريع والشؤون المالية وحماية الاقليات والاجانب، بحيث ان الاتفاق جعل من البلد أشبه بالمستعمرة ، وجعل اميره خاضعا للمشيئة البريطانية في كل ما يمس الحياة الكريمة • ووافقت بريطانية عام ١٩٣٩ على تحويل المجلس التنفيذي الاردني الى مجلس وزراء ، وصدر قانون يعدل القانون الاساسي لعام ١٩٢٨ ، ويصبغ هيكل الحكم في البلد بصبغة ديموقراطية باهتة زائفة • وظلت بلاد شرقي الاردن على هذا الحال غير المستقر ، تنتابها الاحداث المؤسفة ويسودها جو سياسي مضطرب[2] ، الى ما بعد نشوب الحرب العالمية الثانية •

• • •

(١) Keller, « La question Arabe » p. 61

(٢) لم تختلف السياسة التعسفية البريطانية عن مثيلتها الفرنسية في سوريه في هذه الفترة ، فالموازنة الاردنية التى ارهقت المكلف الاردنى ، تضخمت لاعالة الضباط والموظفين البريطانيين ودار الاعتماد وتشكيلات المراقبة المالية . عدا عن سعى السلطة لتفريق الكلمة ، ورفضها سماع مطالب الامة بجمع المجلس النيابى ، وفسخ قانون الانتخاب او تعديله بما يضمن التمثيل القانونى للشعب ، كل ذلك اوقع الغرم كله على شرقي الاردن وجعل الغنم لبريطانية .

د ــ فلسطين ــ التطور السياسي :

استهلت فصول مأساة فلسطين بصدور وعد بلفور (٢ تشرين الثاني ١٩١٧) الذي نص على انشاء « وطن قومي لليهود في فلسطين ، دون الاضرار بالحقوق المدنية والدينية لغير اليهود فيها » . وكنا قد أشرنا من قبل ان الدافع الرئيسي[١] لبذله من جانب بريطانية ، هو مراعاتها للاستراتيجية الامبراطورية في شرقي البحر المتوسط . فان وجود قوم موالين[٢] لها ، كاليهود في فلسطين ، على مقربة من مصر وقناة السويس ، وفي قلب شبكة المواصلات الامبراطورية ، امر ترغب فيه . لا سيما وهي تعلم ان امام اليقظة العربية في المشرق العربي مستقبلا حافلا بالاحداث والاحتمالات . فوجودها الى جانب اليهود في فلسين ضروري لمراقبة تطور الحركة العربية من جهة وللاشراف على حماية مصالحها في القناة من جهة أخرى .

ولم تقف عهود بريطانية للعرب ــ وما اكثرها ــ حائلا دون تمثيل تلك المأساة التي هزت الوجدان الانساني بعنف ، والتي لم تنته فصولها المفجعة بعد . وما التفت عمال السلام في باريس الى وصية لجنة كنغ كرين ، بلزوم السرعة في كبح جماح الطمع الصهيوني في فلسطين ، والى شهادات العسكريين البريطانيين انفسهم بتعذر تنفيذ فكرة الوطن القومي اليهودي الا باللجوء الى القوة المسلحة التي يجب ان لا يقل عدد جنودها عن الـ ٥٠ ألفا . وتمت المساومة بين الصهيونية والاستعمار ، على ان يستعمل اليهود نفوذهم لدى دوائر السياسة العالمية لتأييد مبدأ منح الانتداب على

---

(١) وهناك دوافع ثانوية اخرى منها حراجة موقف بريطانية يومئذ وحاجتها الى مساندة الراي العام اليهودي المتنفذ في كثير من البلاد وخاصة في الولايات المتحدة وروسية . Ireland « The Near East Problems & Prospects » p. 158

ويذكر حاييم وايزمن الزعيم الصهيوني في مذكراته ان الكنيسة الانكليزية وتدين المدرسة القديمة من الانكليز . وايمانهما بعودة اليهود الى فلسطين حسبما جاء في التوراة . . كان لهما اثر هام في تحقيق آمال الصهيونية .

(٢) صرح سير هربرت صموئيل في تشرين الثاني سنة ١٩١٤ الى لورد غراي بقوله « اذا اجبنا مطالب اليهود في فلسطين ، نكون قد اوجدنا في جوار مصر وقناة السويس دولة جديدة موالية لنا » .

انظر للمؤلف (قضية فلسطين) ١٨٩٧ ــ ١٩٤٨ في جزئين ، دمشق ١٩٦٨

فلسطين لبريطانية ، وهذه مقابل ذلك ستتصرف بما ينطبق وروح مآثرها وتجاربها الاستعمارية الماضية في معاملة اضراب هذا الشعب بما يتفق مع آمال اليهود •

ومن قبل ان يصدر صك الانتداب ، بدأت ارتال اليهود تتوارد الى فلسطين • وبصفاقة معروفة عنهم أشاعوا موجة اتهامات وتضليل ، زعموا فيها ان الادارة العسكرية البريطانية تتواطأ مع العرب ضدهم ، وصرحوا بخبث ان مصالح العرب الاساسية لا تتضارب في الحقيقة مع مصالح اليهود ، ولكن السلطة البريطانية هي التي توسع شقة الخلاف بين الطرفين[1] • ونحن ما توقعنا من بريطانية الا ان تبارك وترجو استمرار النزاع بين الطرفين ليكون لها في البلد قدم راسخة •

وفي تموز من عام ١٩٢٢ ، أعلن الانتداب البريطاني رسميا على فلسطين ، وأدمج في مقدمة صك الانتداب تصريح بلفور ، لتكون له حرمة وقداسة المعاهدات الدولية ، وبموجبه اصبح للاقلية اليهودية سلطان على ما يقارب ٩٣ ٪ من السكان العرب الذين لم يذكر حتى اسمهم الصريح ـ العرب ـ وانما أشير اليهم بعبارة « الطوائف الاخرى من السكان » أو « الجماعات غير اليهودية » • ونص الصك على ان حكومة الانتداب تعترف بوكالة يهودية ، تتعاون معها وتستشيرها في كل ما له علاقة بتأسيس الوطن القومي لليهود من المسائل الاقتصادية والاجتماعية وغيرها ، وجعل لها حق التشاور أيضا مع الحكومة البريطانية مباشرة في لندن ، كما اعترف باللغة العبرية لغة رسمية الى جانب اللغة العربية ، وعلى الرغم من ان وثيقة الانتداب كانت توجب على بريطانية ان تقيم حكما ذاتيا في البلاد غير انها لم تعمل على قيامه خوفا من تضاؤل الاقلية اليهودية تجاه الكثرة العربية الساحقة • فكان تحيزها صارخا ودليلا قويا على ان الحراب البريطانية هي التي جعلت من أحلام اليهود حقيقة واقعة[1] •

---

(١) Storrs, « Orientations » p. 359 ff.

(٢) Alan Cunningham : « Palestine, The Last Days of the Mandate », International Affairs, April. 1948, p. 841

والان كاننفهام هو آخر مندوب سامي بريطاني في فلسطين ، وقد صرح في مقاله هذا ان عدد اليهود كان سنة ١٩٢٢ (٤٨) الفا واصبح ٦٤٠ الفا سنة ١٩٤٨ بفضل جنود السلاح البريطاني •

وقصة الانتداب في فلسطين هي قصة توتر دائم وقلق مؤلم ، يتخللها بين الفينة والفنية اضطرابات شديدة دامية ، يعقبها قدوم لجنة ملكية لبحث اسبابها • وجميع اللجان التي كان اولها لجنة هايكرافت سنة ١٩٢٠ ، كانت تقاريرها عن اسباب الثورة متشابهة : رغبة العرب في الاستقلال ، وكرههم وتخوفهم من تأسيس وطن قومي يهودي •

وادعت الصهيونية انها جلبت معها الى فلسطين منافع لا تحصى ، اصاب العرب منها خير كثير ، اذ نهضت باقتصاديات البلد ورفعت سوية الاجور فيه ، وحسنت الاحوال المعاشية المادية لجميع السكان •• ولكن من الثابت ان الفوائد المزعومة لم تكن لتوازي النفقات الباهظة التي كان يقتضيها انشاء الوطن القومي لليهود ؛ فان استعمال اللغة العبرية في مكاتب الحكومة ، وتنظيم دوائر الهجرة وتدابير الامن ، وتضخم باب الاجور في الموازنة وفي التعهدات العامة لا لسبب سوى الرغبة في ايجاد العمل للايدي العاملة اليهودية ، كل ذلك اثقل كاهل الخزانة بانفاق غير مثمر ، مع العلم بان العامل العربي كانت تدفع له الحكومة نصف ما تدفع للعامل اليهودي مقابل نفس العمل[1] •

أما الصناعة اليهودية فقد ادى تأسيسها الى حمايتها ، برفع الرسوم الجمركية ، وهذا بدوره رفع اسعار الحياة المادية • ما اعترف اليهود الصهيونيون منذ البدء بوجود القومية العربية في فلسطين ، وفكروا ان المال يسكتها ويلجم معارضتها ، وغاب عنهم ان القضية بالنسبة للعرب لا تتعلق بالرفاه المادي ـــ كما هو شأنها لدى اليهود ـــ وانما هي قضية المحافظة على بقائهم وارضهم ومقدساتهم • وكأنما فاضت نفوس الصهيونيين بشهوة الانتقـــام من الغير ، بعد ان رزحوا طويلا في اوروبة تحت القيود والاغلال ، فباشروا اعمالهم الشائنة بافساد ما بين صفوف الشعب العربي من علاقات طيبة ، ليزعموا ان الزعماء المشاغبين العرب هم الذين حركوا مشاعر العرب ضدهم ، سعيا وراء مصالحهم الشخصية ، وانه لولا تحريض أولئك القادة ودسهم ، لعاش اليهود الى جانب العرب بسلام ووئام ، ولما حدثت الاضطرابات منذ عام ١٩٢٠ ، أرأيت قلبا للحقائق كهذا القلب ؟ ولكن يكفي لاثبات بطلان هذه الدعوى ان لجنة

(١) N. Barbour « A Survey of the palestine Controversy » pp. 110-134.

هايكرافت نفت ان تكون اضطرابات سنة ١٩٢٠ نتيجة تحريك القادة ، بل بالعكس كان هؤلاء والمثقفون وكتل الشعب وطبقاته المختلفة مجمعين على كره ومقت أهداف الصهيونية ، لانهم كانوا يحسون بقوة ان مصالحهم السياسية والمادية متطابقة ومتفقة (١) .

وبعد تلك القلاقل والاضطرابات صدر كتاب تشرشل الابيض (حزيران ١٩٢٢) يوضح ان الحكومة البريطانية لم تكن تتصور ان تتحول فلسطين برمتها الى وطن قومي يهودي ، وانها ستسهل الهجرة اليهودية الى الحد الذي تقف عنده امكانيات البلاد الاقتصادية ، وطاقتها على استيعاب المهاجرين . ومنذ هذا التاريخ ، شرعت حكومة فلسطين تصدر نشرة سنوية بعدد اليهود الذين يحق لهم المهاجرة من أنحاء العالم المختلفة الى أرض الميعاد ، واقترح سير هربرت صموئيل اول مندوب سامي اقامة مجلس تشريعي في البلاد ، يتألف من العرب واليهود ، ولكن العرب رفضوا ذلك لان الاعضاء العشرة المنتخبين منهم يمكن ان يتفوق عليهم بالتصويت الاعضاء العشرة الرسميون ، والعضوان الصهيونيان المنتخبان . كما رفضوا مشروع الوكالة العربية لها ما للوكالة اليهودية من سلطة ، لان امر تعيين اعضائها كان بيد المندوب السامي ـــ وهو يهودي بريطاني ـــ فضلا عن ان قبول ذلك معناه الاعتراف بشرعية وعد بلفور ، والانتداب ، والعرب لم يعترفوا بهما قط(٢) .

وفيما عدا الفتنة الدامية التي ثارت في يافا (آذار ١٩٢٤)(٣) ، كان يخيم على البلاد هدوء نسبي بين عامي ١٩٢٢ ـــ ١٩٢٩ .

ظل سيرهربرت صموئيل في منصبه حتى عام ١٩٢٥ ، تدفقت في عهده الاموال اليهودية من انحاء العالم لشراء الاراضي والاكثار من المستعمرات الزراعية

---

(١) Jeffries, « Palestine the Reality », p. 425

هذا الكتاب جمع الصهاينة جميع نسخه من الاسواق العالمية بشرائها ليحولوا دون انتشاره طالما انه يدينهم ادانة شديدة ، ويحكم عليهم بجرد وحق .

(٢) Barbour, op. , cit. , p. 111

(٣) تراجع تفاصيلها في كتاب المؤلف « قضية فلسطين » سالف الذكر .

والمؤسسات الصناعية • وتجمعت بيد اليهود الصهاينة الامتيازات الاقتصادية وخاصة توليد الكهرباء ، واستخراج الاملاح المعدنية من البحر الميت • وتضاعفت اعدادهم بالهجرة فاصبحت عام ١٩٢٨ ، ١٥٠ الفاء وحاولت الحكومة البريطانية بعد اضطرابات حادث حائط المبكى (آب ١٩٢٩) ان تعالج المشكلة بوضع القيود على هجرة اليهود ، ومنع بيع وانتقال الاراضي اليهم • غير ان المدرسة الاستعمارية القديمة في البرلمان البريطاني ، من امثال بالدوين وتشامبرلن وايمري وتشرشل ، رفعوا عقيرتهم بالاحتجاج ، وطالبوا باطلاق الهجرة ، فانحنت حكومة رامسي مكدونالد امام الضغط ، وصرح رئيسها بأن حكومته لا تنوي منع انتقال الاراضي الى اليهود ، طالما ان ذلك يمكن ان يتم دون اضرار بحقوق ووضع الطوائف الاخرى من السكان[1] ، ولا تنوي كذلك ان توقف الهجرة اليهودية • ،

ولما استلم الحزب النازي الحكم في المانية (كانون الثاني ١٩٣٣) وبدأ حركة اللاسامية ضد اليهود ، تدفقت سيول المهاجرين الى فلسطين من المانية ورومانية وبخاصة من بولونية ، اذ مارست هذه الحكومات ، ومن ورائها شعوبها ، الضغط على اليهود للتخلص منهم بعد ان اصبح لهم وطن قومي يؤويهم • واستفحل خطر الهجرة المتزايدة على فلسطين بشكل لم يسبق له نظير ، ففي سنة ١٩٣٥ وحدها بلغ عدد المهاجرين ٦٢ الفا عدا عن الآلاف التي انسلت اليها خلسة وبغفلة أو تغافل عن أعين السلطة • وفي منتصف نيسان ١٩٣٦ ثارت عواطف العرب ، وقد يئسوا من انصافهم ، ونشبت الاضطرابات في حيفا وتل أبيب ، وتعاهد رجال الاحزاب العربية على مواصلة النضال بعد ان ادركوا ان هدف الصهيونية يرمي الى اقتلاعهم من أراضيهم عن طريق الاستمرار في المهاجرة حتى يصبحوا اكثرية في البلاد • وكان من أروع مظاهر هذا النضال اضراب دام ستة اشهر ، ظهرت خلاله العصابات العربية المدربة في تلال البلاد ووهادها ، واختفى الصهيونيون وراء الجند البريطاني الذي ارتكب مخازي واعمالا مشينة قتل فيها الالوف من المجاهدين العرب • ولم تهدأ

---

(١) انظر في كتاب المؤلف « الانتداب البريطاني في خلفية الدولة اليهودية ١٩٢٢ — ١٩٣٩ » القاهرة ١٩٧١ تفاصيل المعركة السياسية التي خاضها الصهاينة ضد الكتاب الابيض (١٩٣٠) وتأمل خاصة معنى عبارة (مقدرة البلاد الاقتصادية على الاستيعاب) ص ٦٠ — ٦٩ •

الثورة التي اتخذت طابع الشمول العربي ، لاشتراك كثير من ابناء البلاد العربية المجاورة بمعاركها ، الا بعد نداء وجهه ملوك وامراء العرب الى « ابنائهم عرب فلسطين »[1] .

ان هجوم ايطالية على الحبشة (١٩٣٥) وتحديها لبريطانية ولعصبة الامم ، أدى الى اكفهرار جو السياسة الدولية . واعتقدت الحكومة البريطانية ان سياسة المحاباة والمسايرة التي اتبعتها مع الصهيونية سوف تبعث في العالم العربي حقدا دفينا وعداوة مريرة ضدها في الوقت الذي تخشى فيه اضطراب السياسة الدولية ، وتزعزع مركزها في هذه المنطقة الحيوية من الشرق العربي . وكان لا بد لبريطانية من مصادقة العرب ، تجد فيها درعا واقيا من هجمات الفاشية والنازية المقبلة . وقدمت لجنة بيل لدراسة الحالة . وجاء في تقريرها ان الوعود المبذولة للعرب ولليهود غير متطابقة ، وان الانتداب البريطاني في حالته الحاضرة غير صالح للعمل به في فلسطين ، ولذا فالحل هو تقسيم البلاد الى ثلاثة اقسام : قسم عربي يضم الى دولة شرقي الاردن ، وقسم يؤلف دولة يهودية ، وقسم ثالث يبقى تحت الانتداب ، ويشتمل على القدس وما حولها .

لسنا خلال هذه النظرة السريعة ، في صدد تحليل هذا التقرير وانما نكتفي بالقول انه كان مجحفا بحق العرب ، فقد طالبت اللجنة المواطنين العرب، كما قال انطونيوس[2]، « بتضحية حقيقية ومادية وهي التنازل عن شيء يملكونه ويودون الاحتفاظ به ، وطالبت الصهيونيين بتضحية اسمية وهي الحصول على شيء لا يملكونه ولكنهم راغبون في أخذه . أما الدولة المنتدبة فلم تطالب بأية تضحية ، وسبب ذلك ان المشروع وضع بقصد السماح لبريطانيا بالاحتفاظ بمركزها الاستراتيجي والاقتصادي وتمكين الصهيونيين من ان يصبحوا الاسياد المطلقين لفلسطين الشمالية والغربية ، وان يتحقق هذان الهدفان على حساب العرب ».

وعينت لجنة فنية بريطانية في ربيع عام ١٩٣٨ لدراسة مشروع التقسيم ووضع نقاطه . وفي أثناء ذلك تجددت حوادث الثورة ، ووقعت الفتن والاضطرابات الشديدة

---

(١) Toynbee, Survey for 1936, p. 740

(٢) انطونيوس ، الترجمة العربية ، ص ٤٤٧ .

في طول البلاد وعرضها واصطدمت بالبريطانيين الذين قابلوها بمنتهى الشدة ، ونفوا بعض زعمائها وشردوا الآخرين . وسخط العرب على التقسيم واستنكروا الاخذ به . ثم ظهرت المصاعب الاقتصادية في طريق تنفيذه فعدلت الحكومة عنه .

وفي مطلع عام ١٩٣٩ دعي ممثلو العرب واليهود ، وممثلون عن الدول العربية المجاورة المعنية ، الى مؤتمر مائدة مستديرة في لندن . وانجلى هذا المؤتمر عن مقترحات بريطانية لم يرض بها الطرفان ، غير ان الحكومة اعلنت في أيار من العام نفسه ، انها ضمنت سياستها الجديدة في كتاب أبيض ، في الوقت الذي بدت فيه غيوب الحرب منذرة وواضحة لدى اكتساح هتلر للاراضي التشيكوسلوفاكية .

أما الكتاب الابيض فقد اقترح اقامة دولة فلسطينية مستقلة ترتبط مع بريطانية بمعاهدة في نهاية عشر سنوات . وتحدد الهجرة اليهودية بـ ٧٥ الفا موزعين على خمسة أعوام ، بعدها تصبح رهن موافقة العرب . ويكون للمندوب السامي سلطة كافية تخوله تنظيم الاراضي ومنع انتقالها . وتصرح بريطانية اخيرا بان سياستها لا تقوم على تحويل فلسطين الى دولة يهودية ، لان هذا يناقض عهودها والتزاماتها للعرب بموجب صك الانتداب(١) .

ان الهدف الذي رمت اليه السياسة البريطانية من كتابها الابيض ، لم ينحصر في حدود فلسطين فحسب ، وانما يتجاوزها الى الاقطار العربية الاخرى ، ولنزد ذلك شرحا : منذ عام ١٩٣٦ لجأت السياسة البريطانية الى محاولة ارضاء عرب فلسطين عن طريق اقناعهم بقبول مشروع التقسيم الذي اقترحته لجنة التحقيق الموفدة الى فلسطين على اثر الاضطرابات والثورات الدامية . ولكن هذه المحاولة اخفقت ، وقام زعماء العرب يواصلون الكفاح ضد اليهود وحماتهم الانكليز ، بعد ان استنكروا مساواة اليهود بهم في الحقوق ، ومن الطبيعي ان تصطنع سلطة الاحتلال الشدة بادىء الامر لقمع الحركة الثورية المتسعة ، لئلا تلزم بريطانية بوعود وعهود قد تمس سلطانها الذي تسعى لتأييده على فلسطين . وظنت أنها بالغة غايتها بالسرعة التي تكفلها الاسلحة الحديثة الانكليزية ، واساليب التدمير والتشريد التي اتبعتها

---

(١) Kirk. op. cit. , p. 188

في محاربة الثوار العرب الذين أموا فلسطين من شتى بقاع العالم العربي ، وذلك لاعتقادهم ان السياسة البريطانية تستهدف ان يشكل اليهود الاكثرية العددية في فلسطين ، لاتخاذ دولتهم التي ستقام بعدئذ ، رأس رمح للنفوذ البريطاني والغربي ، يطعن القومية العربية ، ويحرس قناة السويس ، وآبار البترول وانابيبه في الشرق العربي •

وأخيرا ثبت لبريطانية ان مسألة فلسطين اضحت تستقطب انظار العالم في شتى انحاء العالم العربي ، وان الدعاية المحورية قد تلقى أذنا صاغية منهم في مثل هذه الظروف الدقيقة التي يمر بها العالم • فاضطرت ان تعدل سياستها في فلسطين لاسترضاء العرب عموما ، واصدرت الكتاب الابيض (أيار ١٩٣٩) قبل نشوب الحرب العالمية الثانية بأشهر قليلة ، وفيه حددت الهجرة الصهيونية وحدت من نشاط الصهيونيين ، وكان في عمومه الى جانب العرب الذين حصلوا لاول مرة ، منذ تسوية الصلح عام ١٩١٩ ، على أساس لمطالبهم ؛ فان مراسلات مكماهون الحسين قد ترجمت الآن ونشرت ، وأبدت حكومة جلالته اسفها عن سوء التفاهم الناجم عن بعض الفقرات ، وذكرت ان وجهة نظر العرب في حدود منطقة الاستقلال العربي الاول ، هي أقوى مما كانت تبدو من قبل ، وان اصرت بريطانية على استثناء فلسطين من تلك المنطقة (١) •

ونتساءل هنا لماذا اتجهت السياسة البريطانية في فلسطين هذا الاتجاه الذي يعتبر ترضية الى حد كبير ؟

في الواقع كان أمام السياسة البريطانية عندما تصدت لحل مشكلة فلسطين حلان• أولهما ان تمضي بريطانية الى نهاية الشوط في تعضيد اليهود على حساب العرب • وثانيهما ان تنفح العرب ، لا في فلسطين وحدها ، بل في سائر العالم العربي ، بترضية كافية لتهدئتهم ، بأن تسجل السياسة البريطانية فترة استراحة في عملية بناء الوطن القومي اليهودي ، ريثما تمر العاصفة القادمة على الاقل • وتمضي السياسة البريطانية في استعراض ميزات وامكانيات الجانب العربي والجانب اليهودي ، وفي تحليل ما يصاحب ارضاء كل جانب ، أو ما يرافق اغضابه من احتمالات سيئة أو حسنة ،

(١) Bullard, « Britain & the Middle East » p. 106

يكون لها تأثير كبير او ضئيل على مصالحها الحيوية ومكانتها الدولية خلال الحرب الوشيكة الوقوع •

أما اليهود الصهاينة فان جانبهم مأمون في نظرها ، طوعا أو كرها بحكم عداوتهم لالمانية التي شرّعت ضدهم وشردتهم تحت كل نجم وكوكب • واذن فلا بد من انتصارهم لقضية الحلفاء ، مهما تبرموا وتململوا من سياسة الكتاب الابيض • وهم سيعرفون في النهاية ان مصلحة الحلفاء تقتضي ذلك التدبير ، ولو كان على حساب « وعد بلفور » الذي حملته بريطانية فوق ما يطيق على حساب العرب •

ان سخط اليهود على بريطانية ليس له مبرر لانها فتحت لهم صدر فلسطين وساعدتهم ومكنت لهم •

وأما العرب فان ثورتهم على بريطانية متوقعة ، لان دواعي السخط في نفوسهم زادت نتيجة مراعاتها جانب اليهود ، والعرب في اقطارهم يتجهون الى فلسطين ويتابعون بلهفة وقلق المعركة الناشبة فيها • ان المسألة الفلسطينية لم تعد تملأ سماء فلسطين فحسب ، بل اصبحت تملأ العالم العربي كله • أولم يتجه ملوك وامراء بندائهم الى « ابنائهم » من عرب فلسطين ؟ •

أولم يعتبر المندوبون العرب في مؤتمر لندن (المائدة المستديرة) ١٩٣٩ ان القضية الفلسطينية قضيتهم ، وان على بريطانية ان تبرهن على حسن نيتها تجاه العرب ، بحل القضية حلا عادلا يتفق مع حقوق العرب ؟

لا شك ان اغضاب العرب في هذا الظرف حماقة كبرى لا تقرها الا سياسة قصيرة النظر للاسباب الآتية :

ان الممرات والطرق المائية والجوية والبرية التي تدخل حساب الاستراتيجية الامبراطورية ، لا يمكن حمايتها الا اذا كانت السيطرة قائمة على منطقة الشرق العربي بكاملها ، تبعا لما تستوجبه حركة السوق والتعبئة ، ولما تستلزمه من حرية الحركات العسكرية ، وامتدادها فوق رقعة واسعة من الارض • فضلا عن انه ليس يمكن حماية الطرق البرية أو البحرية أو الجوية الا اذا كان لبريطانية علاقات ودية مع شعوب منطقة الشرق الاوسط ، تلك المنطقة التي تقطنها اكثرية عربية • والعرب

بالاضافة الى هذا لهم صوت مسموع في عالم الاسلام : في البنغال والملايو وشمال افريقية والدردنيل والقطاعات الروسية الاسلامية •••

وتستمر السياسة البريطانية في تبرير سياسة « المصالحة » التي ارتأتها لاستمالة العرب ، فتذكر البترول العربي الذي يشكل هدفا قائمة بنفسه لبريطانية • وتنعم النظر في الفوائد التي تعود عليها من الشحن والترانزيت الذي يمر ٥٠ ٪ من مجموع وزنه عبر قناة السويس • ان (ارنست بيفن) كان على حق عندما صرح بأن المنطقة العربية في الشرق الادنى هي « حلق » الامبراطورية • ولم يكن يعبر بذلك عن اهمية العامل الاستراتيجي الذي يمكن الجنود البريطانيين من التنفس فحسب ، بل كان أيضا يشير الى الرقعة الارضية التي يمكن فيها خنق هذا التنفس وايقافه بسرعة[1]•

واذن فلا غرو اذا جنحت السياسة البريطانية الى استرضاء العرب • ولكن هل ارتضى العرب بالحل الذي تضمنه الكتاب الابيض ؟ كلا ، فقد استقبلوه بكثير من التوجس والسخط ، وان كان سخطهم لم يبلغ المدى الذي بلغه سخط الصهيونيين الذين اعتبروا سياسة بريطانية في الكتاب الابيض خاتمة لمرحلة التعاون مع الدولة المنتدبة لفلسطين •

لم يقف اليهود الصهاينة مكتوفي الايدي تجاه سياسة الكتاب الابيض التي كان من شأنها ان تبدد أحلامهم في اقامة صرح دولة اسرائيل يومئذ ، فهاجموا بريطانية بقسوة، واتهموها بحنث وعدها في انشاء الوطن القومي ، واستقبل مجلسا البرلمان البريطاني الكتاب بفتور ، بل ان تشرشل واميري شجباه ، غير ان المجلسين وافقا عليه ، واصبح ساري المفعول من حيث الواقع De Facto ، لان نشوب الحرب العالمية الثانية منع مجلس عصبة الامم من مناقشته واقراره • ولكن هل ستبقى بريطانية مغاضبة لليهود ؟ ان ظروف الحرب ستجعلها تغفل من مقرراته ما تغفل • والعرب ؟ كفوا عن الثورة ، ونظروا في مقررات الكتاب الابيض المذكور ، فرأوا فيها غموضا وتحفظات ما ارتاحوا اليهاوما ارتضوها • ولكنهم شعروا ان بريطانية قد اعترفت أخيرا ببعض حقوقهم ، ورسمت خطة اوضحت فيها سياستها ، وانه مهما كان امر هذه السياسة ، فان المستقبل كفيل بأن يتيح فرصة أخرى للعرب توصلهم الى تسوية يرضون عنها •

(١) Speiser « The United States & the near East » p. 171

هـ ـ العراق ـ التطورات السياسية :

تمهيـد :

ان ارتباط مشاريع المواصلات ، سواء منها النهرية البرية في العراق أو البحرية في مصر ، بالامبراطورية الاوربية ، كان وبالا على البلدين • فكما انتهى مشروع قناة السويس باحتلال الانكليز لمصر ، كذلك ادى مشروع خط حديد بغداد الى احتـلال الانكليز للعراق • والواقع ان اهتمام السياسة البزيطانية بمصر ، وخاصة بعد حفر قناة السويس وان فاق اهتمامها بالعراق ، ولكن بعد ظهور حركة الزحف الالماني نحو الشرق ، عاد اهتمام السياسة البريطانية بالعراق ، وتمثل بمعارضة مشروع سكة حديد بغداد • وبدا جليا عند نشوب الحرب العالمية الاولى أن مواصلات بريطانية الامبراطورية اصبحت مهددة ، وان مركزها في الشرق ، الذي حافظت عليه طوال ثلاثمائة عام ، أضحى معرضا للزوال ، بعد ان تأكد لديها ان الدولة العثمانية ستنحاز الى دول الوسط ، وان نفط عبدان لن يكون بمأمن ما لم تتقدم القوات البريطانية لتحتل نقاطا في العراق ، تقاوم منها أي هجوم قد تقوم به الدولة العثمانية وحلفاؤها•

نزلت الجيوش البريطانية لاول مرة في أرض العراق (تشرين الثاني ١٩١٤) وحدثت معارك عنيفة بين الترك وبينها ، واستسلمت القوات البريطانية المحصورة في الكوت (نيسان ١٩١٦) ثم تقدم البريطانيون ظافرين نحو بغداد فدخلوها (آذار ١٩١٧) والقى قائدهم الجنرال « مود » بيانه على أهالي بغداد وهو مكره ، لان البيان كان ـ في نظره ـ يحفز العراقيين للمطالبة بالحقوق والاستقلال • وقد اعلن فيه ان الانكليز « ما أتوا قاهرين وانما محررين » • واستمر الجيش البريطاني يسير بمحاذاة نهر الدجلة شمالا حتى اضبح على مقربة من مدينة الموصل حيث دخلها في اليوم التالي لاعلان هدنة مودرس (تشرين الثاني) ، على الرغم من معارضة القائد التركي الذي اعتبر ذلك مخالفة لشرائط الهدنة[1] • ورفضت السلطات الانكليزية معونة من تقدم اليها من القادة العراقيين العرب طالبا الانضواء في صفوف الحلفاء ضد الترك ، لانها رأت في المعونة العربية ما يستلزم تعهدها بمنح الحرية والاستقلال

---

(١) Foster « The Making of Modern Iraq », p. 127
Toynbee & Kirkwood, « Turkey » p. 277

للعرب ،، على نحو ما تعهدت به حكومة لندن للثورة العربية الناشبة حينذاك في الحجاز ، والمتجهة نحو بلاد الشام • ولذلك فان السلطات البريطانية في الهند كانت تنظر بعين الريبة والحذر ، ان لم يكن بعين العـــداء ، الى ثورة العرب ، فحبست أنباءها عن عامة الشعب العراقي • وكانت تعتقد ان الامير الوهابي عبد العزيز بن سعود هو زعيم العرب • وقد رغبت في محالفته للنفوذ الى بلاد العرب عن طريق الخليج العربي وعدن ، للسيطرة عليها بصورة غير مباشرة(٢) • وبينما كانت هذه المدرسة الاستعمارية الهندية تأبى الاعتراف بأي حق للعرب الثائرين على الترك برئاسة شريف مكة الحسين ، كانت المدرسة البريطانية العربية في القاهرة تقــدر النفع الناجم عن التعاون مع العرب ، وتعترف بمساعدتهم القيمة ، وتميل الى اقامة حكومة او حكومات عربية تكون حصنا صديقا يحمي قناة السويس • وسعت هذه المدرسة الهندية ، وقد صار اليها أمر العراق ، الى اشاعة أنظمة الادارة الهندية لضم جنوب العراق الى الهند مباشرة ، مما أثار موجدة العراقيين عليها ، وعلى أعمـــال السخرة التي كانت تساق اليها جموعهم • هذا الى اغتصاب الاراضي واشغال الدور دون دفع اجورها المطلوبة ، والى اتباع سياسة ادارية خبيثة تزيد من نفوذ رؤساء العشائر البدوية لترسيخ جذور الاقطاعية في البلاد ، ولتجعل ولاء افراد العشائر لرؤسائهم فحسب ، بحيث يكون هؤلاء وسطاء بين العشائر وبين السلطة القائمة • وفي هذا ما فيه من خطر على تجانس الشعب العراقي ، وعلى انسجام عناصره وانصهارها في بوتقة واحدة •

وزاد الاستياء من فعال السلطة البريطانية انها اتبعت خطة تتعاون بموجبها مع موظفين أجانب هنود وانكليز ، ومع اقليات غيرمسلمة • فصدّ عنها المسلمون ، ورأوا في ذلك اجحافا بحقوق الاكثرية التي يؤلفونها • فضلا عن ان الادارة البريطانية كانت تتجاهل الروح القومية العربية المنتشرة بين صفوف العراقيين ، وتهزأ باامانيهم التي علقوها على نجاح الثورة العربية الناشبة في الحجاز ، تلك الثورة التي انخرط في جيشها عدد كبير من أبنائهم واخوانهم • ان موقف العداء الذي وقفته سلطة الاحتلال من اماني العراقيين ، يظهر بوضوح في موقف الحاكم المدني بالوكالة سير

---

(١) P. W. Ireland, « Iraq » p. 68

« أرنولد ويلسون » من اذاعة البيان الفرنسي البريطاني (تشرين الثاني ١٩١٨) ، الذي تضمن الوعد بتحرير الشعوب الرازحة تحت حكم الترك ، واقامة حكومات وطنية تختارها تلك الشعوب ، ففي سورة الغضب ، وصف « ويلسون » هذا البيان بأنه « خطأ مفجع » ، وراح يؤكد لرؤسائه في لندن أن العراقيين راضون عن الاحتلال ، وانه لا يوجد البتة اية رابطة سياسية او عرقية تربط العراق وبقية اجزاء الجزيرة العربية [١] ، في الوقت الذي كانت البلاد العراقية تئن من فساد الادارة الاستعمارية البريطانية ، وتطالب بمنحها الحقوق السياسية الكاملة أسوة بالدولة العربية الفيصلية في دمشق ، هذه الدولة التي كانت دوما تعلن تأييدها المطلق لاستقلال العراق ، وللاتحاد معه على اساس فدرالي ، رأى العراقيون في اعمال الادارة البريطانية ما يدل على رغبتها في ابقاء العراق تحت السيطرة المباشرة ، والحاقه بالامبراطورية البريطانية ، ان سياسة الكولونيل « ويلسون » كانت تؤيد هذا الاعتقاد ؛ فاسلوبه العتيق في الحكم ، ومقاومته لكل عمل ايجابي قد تقترح حكومة لندن القيام به في العراق ، واعماله الارهابية القمعية ، وصلفه الشديد وطيشه ، كل ذلك خلق جوا من التوتر والكآبة خيم على البلاد ، وعجل بالثورة العراقية التي أجمع الكتاب الانكليز انفسهم بان سياسة ويلسون التعسفية ، وقصر نظره كانا أهم عوامل تلك الثورة التي نشبت بعد اعلان مقررات سان ريمو مباشرة (نيسان ١٩٢٠) ؛ بحيث كان وضع الانتداب على العراق شرارة اشعلت جذوة الثورة في الشمال والجنوب على « الدخلاء الانكليز الذين لا يربطهم بالسكان عرق ولا دين ولا صلة قربى [٢] » .

أهم الاحداث السياسية في العراق بين (١٩٢٠ ـ ١٩٣٩) :

ان نفقات الثورة الضخمة وخسائر بريطانية الباهظة جعل هذه تعدل سياستها ،

(١) Sir Arnold Wilson : « Mesopotamia », 1917 - 20
A Clash of Loyalties » pp. 103 - 104, 134

(٢) تراجع حوادث الثورة في مذكرات تحسين العسكري ، وفي كتاب ويلسون السالف الذكر . وكتاب مهدي البصير « القضية العراقية » ، وفي كتاب على البازركان « الوقائع الحقيقية في الثورة العراقية » .

وتتراجع أمام هجمات البرلمان البريطاني ، لتصغي الى كلمات رجالاتها المتحببين الى العرب من أمثال لورانس وغرترودبل وكلايتون • الذين نصحوا حكومتهم بمنح العراق استقلاله واعلان ملكية فيصل عليه ، بدعوى ان المصالح البريطانية يمكن ان تؤمن عن طريق اتفاق الطرفين ، لا بطريقة القمع والضغط ، التي ثبت أنها عقيمة مبهظة تجاه الوعي القومي الذي اخذ ينمو بسرعة في صفوف العرب ، برغم ظواهر التحزب البادية عليهم أحيانا •

استمرت الثورة العراقية خمسة اشهر ، وانتهت في أواخر تشرين الثاني ١٩٢٠ ، بعد ان تعهد الانكليز بانشاء دولة عربية في العراق برئاسة شريف عربي يختاره الشعب• وانتدبت بريطانية لتنفيذ خطتها الجديدة احد ساستها المحنكين وهو « سير برسي كوكس » ، فعينته مندوبا ساميا في العراق حيث بادر لتهدئة الثورة بمعونة القوات البريطانية التي أتت من الهند • وكان عليما بأحوال البلاد ، فألف حكومة موقتة برئاسة نقيب بغداد السيد عبد الرحمن الكيلاني ، مهمتها وضع أسس الادارة الداخلية ، ونقلها الى العراقيين بالتدريج ، وتشكيل المجلس التأسيسي لسن الدستور وتصديق المعاهدة •• وبعد ان بدىء بوضع اسس الحكم الوطني ، عن طريق الحكم البريطاني ذي الواجهة العربية العراقية ، ظهرت الحاجة الى عاهل عربي يترأس الدولة العراقية ويعمل على تنظيم العلاقات العراقية البريطانية الجديد • ورددت الاندية والمحافل اسماء عدد من المرشحين لرئاسة الدولة مثل الامير عبد الله ، ونقيب بغداد السيد عبد الرحمن الكيلاني ، ونقيب البصرة السيد طالب باشا ، والشيخ خزعل ، وأحد ابناء الاسرة العثمانية المالكة ، واحد اعضاء الاسرة الخديوية المصرية ، وحتى آغا خان زعيم الاسماعيلية ••• غير ان الدعاية للمرشحين سرعان ما اشتدت لصالح احد انجال الشريف حسين ملك الحجاز بتأثير بعض الانكليز ، وبتأثير ضباط الجيش العربي الشريفي الذين عادوا الى العراق ، فضلا عن تأثير الاوساط الشعبية في البلاد • ومالت الدعاية لفيصل[1] ، بعد قضاء فرنسة على حكومة الشام العربية • وتقرر مفاتحته بملكية العراق ، وكان حينئذ في لندن • ثم عقد مؤتمر القاهرة (آذار

(١) كتبت مس غرترود بل في رسائلها : « اني على اقتناع تام بأنه ليس هناك غير حل عملي واحد وهو ترشيح احد انجال الشريف ، واختياري وقع على فيصل » .
« The Letters of Gertrude Bell », 2 : 581.

١٩٢١) برئاسة المستر تشرشل وزير المستعمرات ، وكان يعتقد ان تنصيب فيصل على عرش العراق ، سيزيد من تسلط الحكومة البريطانية عليه وعلى أبيه ملك الحجاز الذي كان ساخطا عليها نكولها بوعودها للعرب[1] • وقرر المؤتمر تأييد ترشيح فيصل وأمر « كوكس » بتحقيق ذلك واتخاذ اجراءاته •

ولكن فيصلا ما كان ليتقبل العرش الا من يد الشعب العراقي نفسه ، وبشرط ان تحدد علاقات العراق مع بريطانية بمعاهدة تحالف • ولم تلبث وزارة النقيب الكيلانية ان نادت به ملكا على العراق ، واقترن ذلك باستفتاء شعبي عام ، حاز فيصل فيه ستة وتسعين صوتا من كل مائة من اصوات الشعب العراقي • وفي يوم التتويج (٢٣ آب ١٩٢١) ، حضر ممثلون عن جميع الالوية في البلاد ما عدا السليمانية وكركوك[2] الآهلين بأكثرية عنصرية كردية وتركمانية • وتلقى فيصل برقية من تشرشل تقول : « من الواجب على فيصل ان يعترف في خطبة التتويج بان السلطة العليا في البلاد هي المفوضية البريطانية » ، ولكن فيصلا حصر كلامه بالمعاهدة التي ستعقد مع بريطانية[3] •

واذا تداول بعض الناس اسم ابن سعود أو أحد انجاله كمرشح للعرش ، من قبل ان تتجه الانظار الى فيصل ، فان معظم العراقيين ، وخاصة من الشيعة ، ما كانوا يميلون الى ابن سعود ، والانكليز ما كانوا يرغبون في افساد ذلك التوازن الذي حرصوا عليه ودعموه بين الاسر الحاكمة العربية ، للحيلولة دون تحقيق اتحاد قوي يخرج على سيطرتهم • وفضلوا نظام حكم ملكي في العراق ، لانه أيسر وآمن على مصالحهم من نظام جمهوري متبدل •

وعلى هذا نصب فيصل على العرش ليحكم ، ولكنه أحيط بالموظفين البريطانيين الذين كانت السلطة الحقيقية بيدهم لا ينزلون عنها الا بقدر وبمقدار •

---

(١) Ireland, op. cit. , p. 246.

(٢) Bell, op. cit. , 2 : 250

(٣) امين الريحاني « فيصل الاول » ص ٥٢ ، وانظر نص خطاب الملك فيصل في (الوثائق والمعاهدات) ص ٣٣٣ — ٣٣٤ •

وقد غمد الانكليز في العراق على نشر الخلافات الطائفية والعنصرية ، وشجعوا الاقطاع واطلقوا يد الاقطاعيين في استملاك الاراضي الشاسعة من املاك الدولة ، للسيطرة على الحكم وضمان نفوذ سادتهم الانكليز في البلاد • بينما عملوا جاهدين على عرقلة سير التعليم ، والاستحواذ على أهم مرافق البلاد الاقتصادية كالنفـط والسكك الحديدية وميناء البصرة ، ووضعوا يدهم على أهم صادرات العراق كالتمور والحبوب ، ووقفوا حائلا دون نمو الصناعة الوطنية كي تبقى اسواق العراق مستهلكة للمنتجات الانكليزية • وكان هم السلطات الانكليزية ان تتمزق وحدة الشعب ، وان يسود التطاحن بين رؤساء العشائر ، وان تظل غالبية السكان في وضع بدوي عشائري متخلف ، ولذلك سنت السلطات (قانون دعاوى العشائر المدنية والجزائية لسنة ١٩٢٢) وهو قانون استعماري يهدد وحدة الشعب في العراق مادام يقسمه الى قسمين ، لكل منهما قانون خاص يخضع لاحكامه • فهو يمنح بدو العشائر امتيازات خاصة ترسخ فيهم العادات والأعراف القبلية التي لا تنسجم مطلقا مع روح المواطنة الصالحة وتعطي شيوخ العشائر صلاحيات على مرؤوسيهم من البدو الكادحين الذين يفتك فيهم الفقر والمرض ، فلا يتجاوز ولاؤهم حدود عشائرهم وقراهم • فالولاء القومي هو نقيض الولاء القبلي الاقطاعي ، ومن هنا غياب غالبية الشعب في العراق عن المشاركة في الحياة السياسية ، والقضايا القومية عموما ، وهذا ما تريده السياسة البريطانية •

ان الحديث يطول بنا لو تبسطنا في شرح طبيعة السياسة البريطانية • وحسبنا ان نشير الى انها تغلب الجوهر على العرض دوما ، وتستثمر الظروف ، ولا تحجم عن اغراء البعض بسحق البعض • وحسبنا ان ننعت عداوة العراقيين للانتداب الانكليزي بأنها عداوة صريحة لم تفتر منذ ان وضع الانتداب موضع التنفيذ ، ولننتقل الى التفصيل :

عندما طلبت البلاد العراقية الاستقلال التـــام ، أجابت بريطانية على ذلك بمعاهدة تحالف لا تختلف في جوهرها عن الانتداب • فأوجدت حكومة عراقية موالية لها أقرت المعاهدة في تشرين الاول ١٩٢٢ على ان تنال موافقة المجلس التأسيسي • وتعتبر المادة الثالثة من المعاهدة أغرب ما يمكن ان تحتويه المعاهدات ، ونصها : « يوافق جلالة ملك

العراق على ان ينظم قانونا أساسيا يعرض على المجلس التأسيسي العراقي ويكفل تنظيم هذا القانون الذي يجب ألا يحتوي على ما يخالف نصوص هذه المعاهدة » ، فكأنما كان القانون الاساسي حصيلة للمعاهدة وفرعا لها • هذا عدا عن المواد الاخرى فيها التي تنقص من سيادة البلاد ، وتراعي مصالح بريطانية الدولية والاستراتيجية والمالية • لقد هدد البريطانيون وتوعدوا وأنذروا بان المعاهدة يجب أن تصدق والا فانهم سيعيدون الحكم المباشر • ولوحوا بمسألة الموصل ، وكانت مثار جدل عنيف آنئذ بين العراق وتركية • وتجاه سيف « ديموقليس » هذا ، انحنى المجلس النيابي العراقي ، ووافق على المعاهدة بعد ان عقد أربعا وعشرين جلسة[1] (آذار ١٩٢٤) ، واشترط المجلس ان تحافظ بريطانية على حقوق العراق في ولاية الموصل بأكملها ، والا فالمعاهدة وملاحقها لاغية أصلا وفرعا • وعلى الرغم من ان البروتوكول الملحق بالمعاهدة (نيسان ١٩٢٣) جعل مدتها اربع سنوات بدلا من عشرين سنة ، فان المعاهدة كانت مجحفة بحقوق العراق ، ووطأتها ثقيلة على أهله • رفعت المعارضة عقيرتها[2] ، ولكن المندوب السامي (سير هنري دوبس) الذي خلف سير برسي كوكس (ايلول ١٩٢٣) ، ركن الى سياسة الشدة • ثم عرضت مسألة الموصل على عصبة الامم ، فأوصت باحتفاظ العراق بولاية الموصل ، شريطة ان يعقد مع بريطانية معاهدة تكفل استمرار الانتداب البريطاني لمدة (٢٥) عاما ، الا اذا قبل العراق قبل انتهاء هذه المدة في عصبة الامم[3] • وان تراعي مصالح الاكراد في الشؤون الادارية ، وان تكون اللغة الكردية في القضاء والتعليم هي اللغة الرسمية في المنطقة الكردية من ولاية الموصل •

رأت الحكومة العراقية انها امام حلين لا ثالث لهما ؛ اما قبول المعاهدة ، أو التنازل عن ولاية الموصل ، فاختارت الحل الاول • ووافق البرلمان على المعاهدة في كانون الثاني سنة ١٩٢٦ • ومما قوى مركز بريطانية ان الترك اتصلوا بها سرا ، وعرضوا

---

(١) عبد الرزاق الحسني (العراق في ظل المعاهدات) ص ٩٢ •

(٢) كان سخط الشعب على المعاهدة وعلى عاقديها عاما ، وبقي هذا الشعور سائدا حتى بعد التعديلات التي اجريت •

(٣) انظر نص المعاهدة في « الوثائق والمعاهدات » ص ٣٤١ ــ ٣٤٣ •

عليها شروطا مغرية لاستغلال النفط ، ومد السكك الحديدية ، اذا رضيت بتعديل الحدود العراقية التركية ، ولكنها رفضت ذلك ، ودعمت العراق في مسألة الموصل من أجل نفطها ، ومن اجل اهميتها الاستراتيجية لسلامة الطرق الامبراطورية[1] • لقد فضلت بريطانية بقاء هذه المنطقة الحيوية بيد دولة موالية ضعيفة كالعراق ، على بقائها في قبضة تركية الناهضة المتحررة • وبالمعاهدة المذكورة سويت العلاقات التركية العراقية ، ولكن بعد ان اصبح العراقيون ـ ملكا وبرلمانا وحكومة وشعبا ـ يرسفون في اغلال بريطانية وقيودها التي لا يخفف من وطأتها سوى وعد بتعديل المعاهدة ، وأمل بالمبدأ المشهور الذي كان ينادي به فيصل ، « خذ وطالب » •

وفي كانون الاول ١٩٢٧ وقعت الحكومة العراقية معاهدة في لندن ، لم تكن تمتاز عما سبقها من المعاهدات الا بانها نصت في ديباجتها على ضرورة تعديل الاتفاقيتين العسكرية والمالية ، نظرا لعدم تمشيهما مع التطور والتقدم الذي حدث في العراق • ولكن آراء الوزراء بصدد المعاهدة كانت متباينة : ياسين الهاشمي وزير المالية وزعيم حزب الشعب ، ورشيد عالي الكيلاني وزير الداخلية وزعيم حزب الوسط ، لم يوافقا جعفر باشا العسكري رئيس الوزارة وموقع المعاهدة على رأيه فيها جملة ؛ ولم يوافقا أيضا على التعديل الذي ادخله على الاتفاقيتين المالية والعسكرية • وجعفر باشا لا يحيد عن رأيه ، واستقالت الوزارة • ثم عهد الى عبد المحسن السعدون زعيم حزب التقدم بتشكيلها للحصول على تصديق المعاهدة من البرلمان مع الاتفاقيتين المعدلتين • وعندما استؤنفت المفاوضات من اجل الاتفاقيتين ، ظهرت بعض الصعوبات أمامها فانقطعت ، لان كلا من الفريقين صمم على موقفه • ثم قدم السعدون كتاب استقالته للملك فيصل (كانون الثاني ١٩٢٩) ، بعد ان وقفت وزارته موقفا شريفا أمام تشدد بريطانية وتصلبها في رفض مطالب العراقيين • كما ان معارضة الرأي العام للمعاهدة ، كانت شديدة ، بحيث لم يكن من الممكن اقناع أي زعيم وطني بتشكيل الوزارة الا بعد مرور ما يزيد على ثلاثة أشهر • وفي أثناء ذلك وصل السير جلبرت كلايتون الى بغداد مندوبا ساميا للعراق ، وهو المعروف بسعة اطلاعه على الشؤون العربية ، وبحسن تقديره لصداقة العرب • وتوقع ساسة العراق تبدلا ملموسا في

(١) Foster, op. cit. , p. 132.

السياسة البريطانية في العراق ابان وجود كلايتون • وتألفت وزارة السويدي ، ثم رغب الملك فيصل في تشكيل وزارة اكثر تطرفا في وطنيتها ، لكي تستغل النزعة الحرة في حكومة العمال التي استلمت زمام الامر في بريطانية •

وكانت وزارة السويدي انتقالية مهدت لعودة السعدون الى الحكم من جديد • واستحث كلايتون حكومته لكي تفضي بتصريح يرضي بعض اماني العراقيين على الاقل • ووردت الى بغداد تعليمات الحكومة البريطانية الجديدة فيما يخص سياستها في العراق ، وتتضمن : الوعد بترشيح العراق لعضوية عصبة الامم عام ١٩٣٢ ، واعلام مجلس العصبة في اجتماعه القادم بتخلي بريطانية عن مشروع معاهدة ١٩٢٧ ، وبعزمها في الوقت نفسه على ادخال العراق في عضوية العصبة عام ١٩٣٢ • وصرح السعدون ان جواب بريطانية محقق لشطر من الرغائب العراقية التي لا ترضى عن الاستقلال بديـــلا •

وبعد ان امضى كلايتون في بغداد بضعة اشهر توفي فجأة (ايلول ١٩٢٩) ، وانيطت مهام المندوب السامي ببعض العسكريين البريطانيين الى ان قدم سير فرانسيس همفريز لاشغال هذا المنصب • وفي عهده اصيبت العلاقات بين العراق وبريطانية بنكسة ، وتحطمت الآمال التي بنيت على مجيء سلفه الراحل كلايتون • وفي أواخر شهـــر ايلول اكفهر الجو السياسي العراقي ، وهـــاجم فريق من النواب الحكومة السعدونية اثناء مناقشة خطاب العرش ، وكانت حملتهم شديدة على رئيس الوزراء وبلغ الاسى في نفس الرئيس مبلغا كبيرا ، وتنازعته عوامل متعددة ، وكان يرى انه ليس في امكانه ان يتراجع أو أن يتقدم ، وتقطعت في صدره اواصر العزم والايمان ، واقلقه العجز ، واستولى عليه القنوط ، حتى وصل به اليأس حدا آثر معه الموت (تشرين الثاني ١٩٢٩)[1] • والحق ان تدخل المندوب السامي في شؤون العراق تدخلا سافر أثار سخط الشعب عليه • فقامت المظاهرات واحتجت الصحف ونشطت المعارضة في البرلمان ، واشتدت الازمة ، والملك فيصل يقوم بدور الرجل المصلح لتخفيف شدة التوتر ، وللتوفيق بين مطالب الوطنيين من جهة وبين ما كان الانكليز مستعدين للتخلي عنه • وأخيرا ادلى وزير المستعمرات البريطاني بتصريح اعلن فيه

(١) الريحاني « فيصل الاول » ص ١٣٦ .

ان المفاوضات ستبدأ على أسس حرة لعقد معاهدة جديدة مع العراق. وابرمت المعاهدة في حزيران ١٩٣٠ ، وقعها نوري السعيد وزير الخارجية وسير « فرانسيس همفريز » المندوب السامي ، لمدة خمس وعشرين سنة ، يبدأ تنفيذها بعد السماح للعراق بعضوية العصبة . وقد أكدت الصداقة والسلام الدائمين والتحالف الوثيق بين البلدين ، كما نصت على مساعدة كل طرف للاخر في حالة الحرب ، فيقدم العراق عندئذ كل تسهيلات المواصلات في السكك والانهار والموانىء والمطارات ، ويبقى البريطانيون في قاعدتين جويتين الاولى قرب البصرة (الشعيبة) ، والثاني في غرب نهر الفرات (الحبانية) ، ويكون لممثل بريطانية السياسي امتياز التقدم على ممثلي باقي الدول[١] .. وبذلت الحكومة البريطانية مساعيها لادخال العراق في العصبة حبا في التخلص من اعباء الانتداب[٢] . ولما ابدت اللجنة الدائمة للانتدابات شكوكها في أهلية العراق للوقوف بنفسه ، أدلى سير « فرنسيس همفريز » بتصريح شرح فيه أسباب تزكية حكومته لدخول العراق في العصبة ، فوافق مجلس العصبة في تشرين الاول ١٩٣٢ على انضمام العراق اليه ، باعتباره دولة مستقلة ، بعد ان وقع على تصريح يضمن حقوق الاقليات وغير ذلك ، واستبدل بالمندوب السامي سفير بريطاني.

وفيصل الذي كان يدرك بذكائه ما كانت بريطانية مستعدة للتخلي عنه ، والذي كان يتبع معها سياسة مرنة تقوم على قاعدة « خذ وطالب » ، أيد المعاهدة تأييدا مطلقا . غير ان جزءا لا يستهان من الشعب العراقي لم يرض عنها ، بل جعلها هدفا لنقد مرير يكشف عن اخطارها ومثالبها [٣] . ووصفها بعض الوطنيين بأنها لم تضف شيئا الى ما كسبه العراق ، بل زادت في أغلاله ، وعزلته عن الاقطار العربية ، وباعدت بينه وبينهم وصاغت الاستقلال في مواد الاحتلال .

---

(١) انظر نص المعاهدة وملاحقها في « منشورات الحكومة العراقية » (مطبعة الحكومة بغداد ١٩٤٧) .

(٢) احتفظ الانكليز بالسلطة على جميع شؤون العراق كما كانت من قبل ، حتى قبل في ابرام المعاهدة الاخيرة (١٩٣٠) ان قصد بريطانية من ترك انتدابها ، وتوثيق سلطانها بالمعاهدة : هو الاستغلال في التسلط على مرافق العراق وشؤونه دون مراقبة عصبة الامم . انظر جميل بيهم « الانتدابان على سورية والعراق » ص ٧٥ .

(٣) الحسني « العراق في ظل المعاهدات » ص ١٨٨ .

ومهما يكن الامر فان عهد الانشاء والتعمير قد بدأ في العراق منذ ابرام المعاهدة[1] وشرع الملك فيصل يسير دفة الحكم بعين ساهرة تعرف مواطن الضعف وتشخص الداء وتصف الدواء ، بعد ان علمته التجارب في سورية والعراق ، وصيرته سياسيا بعيد النظر ، لقد حفظ التوازن بين البريطانيين وبين الوطنيين العراقيين ، لعلمه بحاجة بلاده للمعونة البريطانية ، صونا للعراق ضد مطامع جيرانه وتخلصا من الانتداب • وصرح فيصل ان مصالح الطرفين ليست متناقضة بالضرورة ، ولولا تأثيره الشخصي لما كان محتملا ان يوافق ممثلو الشعب على التزامات العراق نحو بريطانية في معاهدة ١٩٣٠ • لقد استطاع فيصل أن يسوس أهل المدن ، ويؤلف أهل الريف والعشائر ، وكان عليما بمشاكل البدو المعقدة المستعصية •

عرف كيف يكتسب ثقة شيوخ القبائل بسياسة ايجابية لا تستند الى مطالبتهم بالخضوع لسلطانه فحسب ، بل تستند الى معالجة صدام تلك العشائر مع موظفي الادارة الحكومية ، وذلك بتنظيم الري وتوزيع الاراضي • وحرص على ايجاد الانسجام بين العناصر والطوائف الجنسية والدينية المختلفة في العراق • وتوفي فيصل (٨ ايلول ١٩٣٣) بعد ان ترك لرجاله مذكرة قيمة فيها دراسة عميقة لمشاكل العراق[2]• وقد كان لوفاته وهو فيغمرة النضال القومي رنة حزن تجاوبت لها معظم بقاع العالم العربي •

اعتلى العرش ولده باسم غازي الاول ، ولكن من اين له مؤهلات وخبرات أبيه الراحل ، وهو بعد ما يزال فتى في الحادية والعشرين ؟ ترى هل يتمكن الملك الفتى من التوفيق بين النزعات المتنافرة ويشيع الوفاق ، ويخمد جذوة السوء والفتنة التي نامت في عهد أبيه ، واستيقظت بعد وفاته ؟

---

(١) اشار المسيو رابار Rappar عضو لجنة الانتدابات الدائمة الى ان مثل المعاهدة العراقية سنة ١٩٣٠ لا يمكن ابدا ان تعقد بين بلدين تتفاوت قوتهما كانكلترة والعراق ، دون ان ينقص من استقلال وسيادة الدولة الاضعف ؟ فانبرى له المندوب السامي همفريز قائلا انه يوجد امثلة عديدة على عقد معاهدات بين دول كبرى ودول صغرى دون ان ينتقص ذلك من سيادة الدولة الصغرى .

Minutes of the Permanent Mandates Commission 21 st session, 1931 p. 121.

(٢) نص المذكرة في عبد الرزاق الحسني « تاريخ الوزارات العراقية » ٣ : ١٨٦ .

تجددت الاضطرابات والقلاقل ، وكانت أهمها فتنة الآشوريين(١) في صيف ١٩٣٣ فشغلت حكومة العراق ، وولدت في العالم الغربي ضجة لا تتناسب مع قيمتها الحقيقية • ذهبت الحكومة العراقية في مسايرة اولئك الآشوريين الى ابعد الحدود ، ولكن تطرف رئيسهم وغلو شيوخهم وخوفهم من ان تساء معاملتهم بعد عقد معاهدة ١٩٣٠ مع بريطانية وهم أقلية مسيحية في مملكة عربية ، جعلهم يقومون بحركات شغب ، ويرتكبون جرائم مخزية لا تتواءم مع كرم الضيافة التي بذلها لهم العراق ، عندما امتنعت تركية عن قبولهم ثانية في بلادها بعد نهاية الحرب العالمية الاولى • وما كان الآشوريون يعترفون بحكومة البلاد الوطنية بل كانوا يهزأون بها ، ومرجعهم الوحيد كان السلطة البريطانية (٢) ، التي عطفت عليهم وقربتهم وسلحتهم فأفسدت ما بينهم وبين أهالي البلاد ، ولكن ثورتهم لاقت نهايتها على يد الجيش العراقي الفتي• ولم تخل السنوات التالية بين (١٩٣٣ ــ ١٩٣٦) من تفاقم الازمات الوزارية ، مصحوبة بحوادث الاغتيال السياسي ، ولا من استثمار الساسة المترئسين للعشائر واشراكها في غمرة تزاحمهم على السلطة والحكم • والعشائر لعبت دورا مهما في تاريخ العراق حتى عام ١٩٣٦ ، حين تسكن الجيش من خضد شوكتها ، بعد ان قامت بسلسلة من الثورات ، وأسقطت عــددا من الحكومات العراقية • كما ثار الاكراد واليزيديون ، ولكن الجيش سيطر على الحالة • وقد طبعت تلك السنوات الحياة السياسية في العراق ، بالبعد عن القصد وعن الاعتدال في التفكير ، وبتوخي المصلحة القريبة جدا والمنفعة الناجمة عن الاثر المباشر لعسل زعيم من الزعماء او حزب من الاحزاب • وكانت الطبقة الواعية تنظر باشفاق الى هذا الشر الوبيل الذي تتخبط به البلاد ، والذي يزعم كل فريق بأنه من فعل خصومه • وما كانت المصلحة القومية تقضي ان تبلغ الخصومة والفرقة في صفوف الشعب هذا المبلغ •

---

(١) صرح همفريز امام لجنة الانتدابات الدائمة عام ١٩٣١ « ان الآشوريين يشكلون جزءا مهما من الجيش العراقي عام ١٩٣٠ وقسم منهم تجنس بالجنسية العراقية » .

Minutes of the permanent Mandates Commission, Session of June 9th to June 27 th 1931 p. 135.

(٢) Main, E. « Iraq from Mandate to Independence » p. 140, (London 1935)

وقام الجنرال بكر صدقي بحركة عسكرية محضة ، (تشرين الاول ١٩٣٦) وتألفت الوزارة ، وضمت جماعة متنافرة النزعات : منهم الاشتراكي ومنهم الشعبي ومنهم الاصلاحي ومنهم العربي القومي • ولذلك فلم يمض شهر واحد على تشكيلها حتى انفرط عقدها ، لانه لم يكن ثمة رابطة تربط أفرادها بعضهم مع بعض •

وعند قام بكر صدقي بالانقلاب لاذ بالفرار عدد من الساسة العراقيين ، وبعضهم من المعروفين بملاينة الانكليز • ورضي الملك غازي عن هذه الحركة ، لان قائد الانقلاب كان يكره الاستعمار ويمقت الانكليز • وقد اخذ القوميون العرب على وزارة الانقلاب تقربها من تركية بعقد ميثاق سعدآباد معها ومع ايران وافغانستان[1]، وقوفا في وجه التهديد الفاشي كما زعم يومذاك • وبرغم انهيار الميثاق بعد توقيعه بوقت قصير ، وضآلة جدواه ، فقد دلّ على انحراف الاتجاه الرسمي العراقي عن الاهداف العربية ، وكان أول اسفين دق في الجبهة العربية ، وكان توقيت ابرامه لا يتفق مع حرص سورية على التمسك بلواء الاسكندرون الذي تطالب به تركية • والمعروف ان ساسة الترك كانوا يقفون دائما في وجه كل ما من شأنه ان يؤدي الى تماسك العرب واتحاد بلدانهم ؛ وعندما بلغهم ان فيصلا شارع فيقضية توحيد سورية والعراق ، أنذروه بأنه اذا بقي مصرا على مشروعه هذا ، فانه يجد تركية وايران وروسية متفقات على منعه بالقوة[2] • وكذا لم تقابل مصر والسعودية بالارتياح انحراف سياسة العراق وانفرادها عن الوجهة العربية العامة •

غير ان فقدان الانسجام بين أعضاء الوزارة التي كان يرأسها حكمت سليمان ، وتباين نزعاتهم القومية والاجتماعية ، جعل النظام الذي فرضه بكر صدقي لا يدوم طويلا ، اذ انهار اثر اغتياله ومعاونه في مطار الموصل على يد بعض انصار قائد الجيس السابق جعفر العسكري ، الذي كان بكر صدقي قد أمر باغتياله • وكان صدقي ومعاونه في طريقهما لمشاهدة مناورات عسكرية على الحدود التركية (آب

---

(١) اضطرت وزارة حكمت سليمان ، تأييدا لشعبيتها ، ان تصدر تصريحا رسميا بالانتصار لعرب فلسطين ، وذلك ردا على التهمة التي كانت موجهة اليها بأنها مبالة الى تركة . (من حديث للمؤلف مع الاستاذ الراحل ساطع الحصري) .

(٢) انظر شكيب ارسلان « الوحدة العربية » ص ٦ .

١٩٣٧) • وخطا الجيش خطوات واسعة في التدريب والتسليح والتنظيم بعد مقتل بكر صدقي ، اذ تسلم قيادته نفر من الضباط ذوي النزعة العربية ، ورغب هؤلاء في ان يكون الجيش جيشا عربيا ، لا جيشا عراقيا تهيمن عليه البعثة العسكرية البريطانية • وطبيعي ان تمتعض السياسة البريطانية من نهضة الجيش ، فعمدت الى الوقوف في وجه توسعه وتسلحه ، وثارت ثائرتها خاصة لما بادرت رئاسة أركان الجيش العراقي بشراء الاسلحة من دول أخرى كالمانية وايطالية والمجر وتشيكوسلوفاكية • ووعدت بريطانية بان تزود الجيش العراقي بالاسلحة والمهمات اللازمة ، ولكن سرعان ما نكثت بعهدها لما علمت بان العراقيين اطمأنوا الى وعدها ، وأبطلوا شراء الجزء الباقي من صفقة الاسلحة غير الانكليزية[١] • وظل الجيش العراقي الذي اطمأن الشعب اليه ساهرا على سلامة الاتجاهات القومية في الوزارات العراقية المتعاقبة ما بين ١٩٣٧ ـــ ١٩٤١ • وفي ٤ ايلول ١٩٣٩ لاقى الملك غازي حتفه بحادث سيارة قرب بغداد ، فاضطربت البلاد لهذا المصاب الاليم ، وانتشرت شائعات تقول ان للانكليز يدا في الحادث ، كان عاقبتها مقتل القنصل الانكليزي في الموصل على يد المتظاهرين الثائرين [٢] • ودل هذا على ان أي سوء أو ضرر يقع في البلاد كان يعزى الى تحريكات الانكليز ودسائسهم •

المشرق العربي ما بين الحربين

(١٩٢٠ ــ ١٩٣٩)

اقطــار الهــلال الخصيب

النزعــات القومية والاتجاهــات العربيــة

آ ــ ديــار الشــام :

الاتجاهات السياسية والنزعات القومية في سورية :

كان القوميون العرب في سورية الطبيعية اول من حمل لواء الفكرة العربية في العالم العربي ، فقد شكلوا الجمعيات السرية قبل الحرب العالمية الاولى ، وساهموا في المحادثات العربية البريطانية ، ومنحوا الحركة العربية شهداءها ، وزودوا جيشها بكثير من الضباط والجنود . وفي أثناء العهد الفيصلي ، كانت تلك الفكرة تراود أذهان السوريين على أساس انهم يؤلفون جزءا من أمة عربية متميزة بمقومات اساسية تؤهلها للنهوض وللوحدة ، ولمجاراة ارقى امم الارض حضارة . فكان همهم موزعا بين مشاكل وطنهم المحلي ــ سورية ــ وبين مشاكل الوطن العربي الكبير . وأنظارهم كانت ترقب بلهفة وقلق ما يجد من احداث على أرضه : تتجاوب بالفرح قلوبهم في حالة انتصاف اخوانهم في بلد شقيق من الطغيان الاجنبي ، وتخفق بالاشفاق والهلع عليهم اذا ألمت بديارهم نازلة او وقع عليهم ظلم ، وعندئذ تثور المظاهرات الصاخبة وتعم الدعوة للتطوع والبذل . لقد كانت دمشق قبلة انظار العرب ، وصدى صوت الوطنيين فيها كان يسمع حالا في الحواضر المجاورة ، حتى ان سير الاحوال في

العراق كان يتوقف على مجراها في الشام[1] .

ولما نشبت ثورة العراق في ربيع عام ١٩٢٠ على الانكليز ، تألفت في دمشق لجنة خاصة للاشراف على الثورة ، واجراء الاستعدادات اللازمة لانجاحها . وكان من ذلك ان توترت العلاقات بين بريطانية والحكومة العربية الموقتة[2] . بل ان اول قوة وطنية عراقية أضرمت نار تلك الثورة ، خرجت من مدينة دير الزور السورية[3] . وعلى الرغم من ذلك الانقسام الاقليمي المؤسف الذي حل بجمعية العهد ، وهي منظمة قومية شاملة تستهدف وحدة العرب واستقلالهم ، فان انشطارها الى شطرين عام ١٩١٨ سوري وعراقي ، لم يوقف التعاون بينهما ، اذ سيطلب السوريون من لجنة الاستفتاء الامريكية (١٩١٩) الاستقلال للعراق ، وسيطالبون باتحاد سياسي اقتصادي معه بعد اعلان استقلاله في دمشق (آذار ١٩٢٠) .

على أن انهيار حكم فيصل ، وقد كان معقد أمل وموئل رجاء ، فرط عقد القوميين ولم يتيسر لهم جو ملائم يماثله في التضامن والاجتماع ، فالتحق اكثرهم ببلدانهم . وما أسرع ما اندمجوا في مشاكلها وتياراتها المحلية ، حيث طفقوا من جديد يعملون للتخلص من أسياد اليوم وحلفاء الامس . أما من خرج منهم الى ضفاف الدجلة ، فقد حملوا معهم فكرتهم وأشاعوها في الوقت الذي جلس فيصل على عرش العراق . ومن جديد تبدأ الآمال الاتحادية العربية بالتبلور حول فيصل ، فينتقل مركز الثقل العربي من دمشق الى بغداد ، وتستبدل عاصمة العباسيين القديسة بعاصمة الامويين التي أصابها الكسوف ، واتجه السوريون بانظارهم الى فيصل العراق ، ولبثوا ينتظرون الترياق من العراق ، واصبح هدفهم في الدرجة الاولى هو التخلص من الانتداب الفرنسي ، والظفر باستقلال سورية الموحدة ، بما فيها البقاع والاقضية التي ألحقت بجبل لبنان رغم ارادة أهلها [4] . لان نوال الاستقلال والوحدة

---

(١) لودر نفس المصدر ص ٦٩ .

(٢) العسكري نفس المصدر ص ٢٧ .

(٣) العسكري ص ٦٩ .

(٤) عبد الرحمن الكبالى : « رد الكتلة الوطنية » ص ٥ .

السوريين كانا في نظرهم جد ضروريين كمرحلة في الطريق الى الاتحاد العربي المقبل • وعلى الرغم من هذا الاتجاه الاقليمي [1] الظاهر الذي يرمي الى التحرر من الاحتلال الاجنبي أولا ، فان العواطف العربية والمشاعر القومية كانت تبدو في شتى المناسبات، تعبر عن ارادة السوريين ورغبتهم في مستقبل يتوفر فيه تقارب أعظم بين أقطار العرب قاصيها ودانيها • وكانت هذه النزعة الاتحادية تتجلى في بيانات اللجان والمؤتمرات ، وفي مناشير الثوار ونداءاتهم ، وفي برامج الوطنيين ومواثيق التكتّلات الشعبية المختلفة • ولنزد هذا شرحا •

نشأت اللجنة التنفيذية للمؤتمر السوري الفلسطيني في القاهرة (١٩٢١) بفضل جهود فريق من الوطنيين الذين كرهوا تعسف الفرنسيين في سورية فخرجوا منها واستقروا في مصر لمواصلة العمل القومي • وفي شهر آب عام ١٩٢١ عقدت اللجنة اجتماعا في جنيف مقر عصبة الامم ، اشترك فيه مشلون عن حزب الاتحاد السوري ، والمؤتمر الفلسطيني ، ومجلس الادارة اللبناني ، وحزب الاستقلال العربي ، واللجنة الفلسطينية بمصر ، والجمعيات العربية في الامريكتين • وتلخص مطالب المؤتمر من العصبة في : الاعتراف باستقلال وسيادة سورية الطبيعية بما فيها فلسطين ولبنان ، وفي الاعتراف بحق هذه البلاد بان تتحد معا من جهة ، وان تؤلف مع باقي الاقطار العربية اتحادا فيدراليا من جهة أخرى [2] •

وفي سورية ما أراح الوطنيون فرنسة وما كفوا عن مناوأتها • وما قلل من روعة جهادهم في سبيل القضية العربية الكبرى انصرافهم لمداواة جراح وطنهم المحلي ، وسعيهم الحثيث لادراك الوحدة السورية الشاملة •

---

(١) والمطالب الاخرى هي : الغاء الانتـداب حالا وجلاء الفرنسيين والانكليز عن سورية ولبنان وفلسطين والغاء تصريح بلفور المتعلق بانشاء وطن قومي لليهود في فلسطين .

(٢) في العهد الفيصلي كان حزب الاستقلال العربي ، اقوى حزب في المنطقة الشرقية ، يطلب الاستقلال لسوريه والعراق والحجاز ونجد ، وتوحيد هذه الحكومات في امبراطوريه واسعة براسها ملك الحجاز . وحزب الاتحاد السوري الذي تلخص ميوله واهدافه بدستور سورية للسوريين . وحزب ثالث موال لانتداب فرنسة على سورية .

ان الاثر العميق الذي تركته ايام الدولة العربية في نفوس شعب سورية العربي لم يسمح للفرنسيين بتنفيذ جميع أهدافهم فلم يتمكنوا من محو الوعي القومي العربي الذي كان يستبد بنفوس الناس ، فاضطروا الى مجاراة الرأي العام ، والتظـاهر بالاعتدال في توجيه التعليم وادارته •

ان مقالة المسيو Victor Bèrard يمكن الاستشهاد بها للكشف عن مدى عمق الشعور العربي وبعد غوره في سورية • قال : « عندما وصلنا سورية (١٩٢١) وجدنا ان الفكرة العربية راسخة في كل مكان ومتجسة في شخص فيصل • وفيصل مضى من سورية ، ولكن الفكرة بقيت فيها حية في نفوس الافراد ، وفي منازل الاسرة ، تهيمن على المحادثات والمناقشات السرية بين الناس [1] •

ولما قدم « سراي » الى بيروت وذهبت وفود من سورية تبلغه أماني البلاد ومطالبها كانت الوحدة السورية تشكل حجر الزاوية فيها • ولقد سعت سلطة الاحتلال لبث بذور التفرقة واشاعة الروح الانفصالية بين الاقاليم السورية وبين الطوائف الدينية ، فما افلحت في مسعاها بدليل انفجار الثورات في جبل العلويين نفسه (ثورة صالح العلي ١٩١٩ ـــ ١٩٢١) وفي جبل الدروز • ومن جبل الدروز ، امتدت الثورة واتسعت مؤلفة الثورة السورية الكبرى (١٩٢٥ ـــ ١٩٢٧) • وكان

---

(١) Discours au Sénat au 9 Avril 1921, Rabbath, op. cit. , p. 41

ان فكرة توحيد القطرين السوري والعراقي في ظل عرش واحد ظهرت ، على مابذكر امين سعيد للمرة الاولى في سنة ١٩٣١ ، على اثر زيارة رسمية قام بها فيصل لباريس حيث تباحث مع بعض المسؤولين في هذا الشأن . على ان انشاء الجمهورية السورية في حزيران ١٩٣٢ شغل الناس عنها موقتا ولم يلبث الرأي العام ان ادرك ان الجمهوريه الجديدة انما هي العوبة بيد الفرنسيين ، لا تختلف عن الحكومات الاخرى التي انشأوها سابقا .

وقد لقيت الدعاية لاتحاد القطرين في هذه الفترة تاييدا كبيرا فوضعت في دمشق وحمص وحماه وحلب وبيروت وطرابلس وجبلة وصبدا وصور وجبل عامل ، مضابط يطلب موقعوها وحدة سورية والعراق . وفعل ذلك السوريون في القاهرة ، فسلم باسمهم امين سعيد مضبطة الى الملك فيصل حين مروره بالقاهرة . الثورة العربية الكبرى ٣ : ٥٧٨ .

قائدها سلطان الاطرش قد أكد بندائه الى مواطنيه الثوار على وحدة سورية [١] وعروبتها واستقلالها . ان الصبغة العربية ظهرت بوضوح ابان هذه الثورة . فالاناشيد الوطنية واسماء المعارك والالوية والاعلام والقطعات الثائرة كانت أسماء عربية مستوحاة من التاريخ العربي [٢] .

ولا تكاد نفثات الشعراء والكتاب ، وخطب رجال السياسة ومشاعر الافراد تخلو من البكاء على الملك الضائع ، وعلى الشهداء العرب ، وعلى فلسطين العربية الشهيدة، وتدعوا الى مقاومة الاستعمار وتوحيد الاقطار العربية [٣] .

ولما توفي فيصل العراق وهو يستشفي في برن ، (ايلول ١٩٣٣) كان لصدى الفجيعة في الديار السورية رنة أسى عميق ، فأقيمت المآتم تخللتها المراثي الحزينة[٤] تنبي عن الخطب الجلل ، وتشير الى الميراث الثقيل الذي نركه لخليفته غازي في تحرير العرب ولم شعثهم والنهوض بهم .

وسنرى في بحث العراق واتجاهاته السياسية ان فيصلا كان يعمل لبلاده كما كان يعمل لسورية .. ولطالما قدم اليه الزعماء السوريون مضابط التوكيل والدعوات للمفاوضة باسمهم في الخارج [٥] . وكانوا يتصورون ان الوحدة العربية يجب ان تتحقق أولا في اتحاد سورية والعراق . وما أصم فيصل أذنيه عن سماع هذه الدعوات ، بل انه بحث مع بعض رجالات العرب السوريين ومع بعض رجالات الغرب في أوربة موضوع هذا الاتحاد[٦] . وغني عن البيان ان هذا المشروع ما كان

(١) نعني دائما بالوحدة السورية : وحدة البلاد السورية كما اصطلح على تحديدها أيام الانتداب بالاضافة الى المناطق التي الحقت بمتصرفية جبل لبنان .

(٢) Rabbath, op. cit. , p. 39

(٣) انظر امجد الطرابلسي « شعر الحماسة والعروبة في بلاد الشام » القاهرة ١٩٥٧

(٤) تراجع مطالع المراثي في كتاب انيس المقدسي « العوامل الفعالة في الادب العربي الحديث » ص ١١١ ، ونجيب الريس « نضال » ص ١٠٧ — ١١١ .

(٥) امين سعيد « الثورة العربية الكبرى » ٣ : ٥٧٧ — ٥٧٨ .

(٦) (الوحدة العربية) ص ٦ .

ليروق مطلقا للسياسة الفرنسية في سورية ، وان تظاهرات بالاهتمام به وبالاصغاء اليه بين الفينة والفينة دون ان تقدم على شيء يتعدى شرب الانخاب • وكان عيب بعض الوطنيين عهدئذ انهم اخذوا ذلك جدا وصدقوا به • بينما كان اهتمامها بالمشروع دعاية مرة ، اذ لمحت به شبح دسيسة جديدة تحيك خيوطها انكلترة ، لتعود بها الى سورية بعد ان خرجت منها مكرهة [١] وهي تردد : « سأعرف كيف اجعل سورية تشمئز من فرنسة ، وفرنسة تشمئز من سورية[٢] » • على ان موضوع الاتحاد السوري العراقي لم يطو بوفاة فيصل ، وانما سيبعث من جديد على يد ساسة العراق بعد ذلك ، كما سنرى في حينه •

وفي الحق ان غلبة النزعة الاتحادية في سورية وبروزها على النزعة الاقليمية لا يحتاج الى دليل • وليس يمكننا ههنا ان نستعرض برامج الاحزاب والهيئات الشعبية المختلفة لنرى فيها ما يؤيد قولنا [٣] • وانما نكتفي بأن نشير الى ظهور عصبة العمل القومي عام (١٩٣٣) والى اهدافها المرسومة لسيادة العرب واستقلالهم ووحدتهم الشاملة ، ولعلها كانت أول محاولة لارساء اسس تنظيم حزبي لا على الشعور والعاطفة فحسب ، وانما على نظريات مدروسة منسقة ترمي الى القضاء على النعرات الاقليمية في الاقطار العربية ، والى اقامة صرح الحركة على قاعدة شعبية عملية تنظم شباب العرب وتوجههم • ولقد هاجمت العصبة المعاهدة السورية الفرنسية (١٩٣٦) التي لم تبرم ، لانها لا تحقق اماني البلاد ، ولانها تعزل سورية عن الاقطار العربية وتباعد بينها وبينهم •

---

(١) مذكرات الدكتور عبد الرحمن شهبندر ص ٤ .

(٢) Gontaut Biron, « Comment La France S'est Installée en Syrie » p. 70.

(٣) اصدرت الكتلة الوطنية ميثاقا في غمرة الالم على وفاة الزعيم هنانو ، نص على تحرير البلاد السورية المنفصلة عن الترك من كل اجنبي ، وجمع اراضيها المجزاة في دولة واحدة ، ورفض وعد بلفور ، والسعي لاتحاد الاقطار العربية . ومنظمة الشباب الوطني السوري نص برنامجها على تحرير سورية الطبيعية وتوحيدها ، والعمل في سبيل تقارب البلاد العربية واتحادها . وقد ابدى عداءه للسياسة الاقليمية القائلة : سورية للسوريين . والهيئة الشعبية كان شعارها العمل للوحدة السورية الشاملة ، والسعي لجعل سورية عضوة في الاتحاد العربي المنتظر .

أما موقف سورية من فلسطين حيث كان المستقبل مظلما لا يبشر بخير ، فكان ينسجم مع موقف المعونة والتأييد لعرب فلسطين الذي اتخذته الاقطار العربية • ولقد اشترك كثير من المجاهدين السوريين في معارك فلسطين ضد الصهيونية وانصارها الانكليز ، وتابع الرأي العام احداثها بكل انتباه وعطف ، وصب جام غضبه على السياسة الاستعمارية عدوة العرب • وفي مطلع عام ١٩٣٧ ، انعقد مؤتمر بلودان لبحث القضية الفلسطينية ، واشترك فيه رجالات من معظم البلاد العربية •

وكانت نزعة الوحدة العربية تتجلى في الحفلات والمهرجانات ، لتكريم ادباء وشعراء الاقطار العربية الشقيقة[1] كشوقي وحافظ (مصر) والزهاوي (العراق) ، وفي حفلات التأبين التي أقامها السوريون لرثاء المنفلوطي وحافظ وشوقي (مصر) والالوسي (العراق) •

ويشير الشعر في تكريم حافظ وشوقي الى الاتجاه الاقليمي الفرعوني الذي ظهر في مصر مهددا بفصم عرى العروبة بين مصر وشقيقاتها ، ويشفق على مصر منها ، ولكنه يعبر عن ثقته بعروبة مصر القائمة على اللغة والتاريخ ، لانها باعثة اليقظة في الشرق ، ومهد النهضة اللغوية والادبية،وكفاحها يجعلها جديرة بقيادة الكفاح العربي• ولم ينس الشعر ان يصور البلبلة السياسية في مصر والخلاف الناشب بين قادة حركتها •

وكان المهرجان الثقافي يتحول دائما الى مناسبة قومية ، كما حدث عندما تحول المهرجان الثقافي الالفي لابي الطيب المتنبي الى مظاهرة قومية رائعة (٢٣ تموز ١٩٣٦) ، وذلك عندما بعثت المعاني القومية التي جالت في ذهن ابي الطيب يوم

---

(١) يقول شفيق جبري في حفلة تكريم احمد شوقي في دار المجمع العلمي العربي بدمشق (١٠ آب ١٩٢٥) :

تلك الاواصر لم تزل معقولة ... من عهد عمرو من يحل عقالها ؟
في الفوطتين الى الكنانة نزعة ... لو مثلت كان الهوى تمثالها
كهفان نضطرب العروبة فيهما ... حتى تجول على السنين مجالها
واذا الشدائد بالكنانة احدقت ... وثبت دمشق فقطعت اوصالها
لو تشتكي مصر اذى بشمالها ... بترت ربوع الفوطتين شمالها

أبصر سيف العجم مسلطا على رقاب العرب ، الذين اصبحوا غرباء في بلادهم بتخاذلهم وتشتتهم •

وفي الفترة التي مضت بين ابرام المعاهدة السورية الفرنسية من الجانب السوري ، وبين اندلاع الحرب العالمية الثانية ، ظل السوريون يتفاءلون بمستقبل افضل يؤمن لهم تحقيق اهداف القومية العربية في اجراء تقارب اعظم مع الدول العربية[1] • ولكن فرنسا احبطت فكرة الغاء الانتداب وقضت على جمهورية المعاهدة ، وضيقت الخناق على الحكومة السورية والشعب ، وحكمت البلاد حكما مباشرا ، وفرضت سياسه استعمارية مكشوفة عن طريق اثارة النعرة الدينية والعنصرية والحزبية بين صفوف الشعب ، لاشغاله بنفسه والهائه عن مواصلة النضال • وقابل الرأي العام هذه السياسة بسخط مكبوت عندما ثارت الحرب العالمية الثانية • وما انقضى العام الاول من هذه الحرب حتى انهارت فرنسة ، وهذا ادى الى سنوح ظروف مغايرة تماما ، سيعمل فيها السوريون واللبنانيون ، بعد لأي ، على تحقيق اهدافهم الوطنية المحلية ، وجزء يسير من مراميهم القومية الكبرى •

• • •

النزعات القومية والاتجاهات العربية في لبنان :

في لبنان ، حيث تتعقد المشكلة الطائفية وتغدو شائكة ، تختلف الاتجاهات والنزعات السياسية فيه عن سوريه ، لا لان المسألة الطائفية في سورية كانت أقل نموا ووضوحا فحسب ، بل لان الطوائف الدينيه فيها كافة كانت ترنو الى الوحدة السوريه ثم الى الوحدة العربية[1] •

---

(١) كان من اهم العاملين من اجل الوحدة العربية الزعيم الدكتور عبد الرحمن شهبندر . كتب في عدد تشرين الثاني ١٩٣٦ من الهلال عن مستقبل البلدان العربية يقول : « فاستقلال العالم العربي استقلالا منفردا محليا كما تبدو بوادره في هذه الايام ينتهي ان عاجلا او آجلا الى نظام عصبة امم شرقية عربية مؤلفة من بلدانه ؛ ويشتد التعاون الوثيق بينها على قدر الثمار التي تقتطفها من هذا النظام ، ولا سيما متى اصبحت حوزتها الدولية مضمونة بحمايته وتحت رعايته من الصولات الاستعمارية التي يصولها الغرب للبسطة السياسية والاقتصادية » .

(٢) Mme Gaulis, « La question Arabe » pp. 168 - 169

ان ما تستعت به الطوائف الدينية المسيحية خاصة في ظل العثمانيين من وضع خاص جعلها تعتاد على معيشة مستقلة نوعا داخل الوطن العربي بين الاكثرية المسلمة من سكانه • ولكن الريبة والتوجس من المحيط الاسلامي بفعل دسائس الفرنسيين كانا يتوزعان ابناء تلك الاقليات ، فيتوزع ولاؤهم بين الطائفة التي ينتمون اليها ، وبين الوطن الذين يعيشون فيه • وعلى الرغم من ان عددا من المسيحيين ابناء تلك الطوائف كان اتجاههم عربيا قوميا ، اذ عملوا على احياء التراث الفكري العربي ، وبعث روائع اللغة والآداب ، وبث الدعوة الى التذكير بالماضي المجيد ، غير ان هذا الاتجاه القومي لم يطمئن قلوب اكثرية المثقفين المسيحيين • فما آمنوا الا بأن القومية العربيه ستار يختفي وراءه سلطان الاسلام ، ليبدد منافعهم وسيادتهم المكتسبة ، ويجعلهم أقلية مهيضة الجناح •

ان وجود طائفة نصرانية مارونية في لبنان تتمركز في الجبل خاصة ، وطائفة كاثوليكية ، كان مما يعرقل الحركة العربية في لبنان ؛ ومن المعلوم ان فرنسة كان لها أطماع في بلاد الشام منذ القرن السابع عشر • وعندما حصلت على امتيازات تجارية وثقافية وبحرية من الدولة العثمانية ، ادعت لنفسها حق حماية الكاثوليك في الشرق ، وخاصة في بلاد الشام ، لانها تضم اكبر الكتل الكاثوليكية • ومعلوم أيضا ان الارساليات التبشيرية الفرنسية كانت تعلم في معاهدها تاريخ فرنسة ولغتها ، وتبث أفكارها المسمومة في نفوس من يقبل عليها من الموارنة والكاثوليك ، وتنفرهم من الفكرة العربية ، مما جعل جمهرة المتعلمين في هذه المدارس يناهضون العرب والعروبة ، ويدعون الى ايجاد كيان لبناني مستقل تحت حماية فرنسة •

وعندما تقدمت فيالق الثورة عام ١٩١٨ الى بيروت ، ورفعت العلم العربي على الدوائر الرسمية ، امتعض الموارنة والكاثوليك ،ولم تهدأ مخاوفهم الا حينما استبدلت القوات الفرنسية بالقوات البريطانية على طول الساحل السوري ، وذهب وفد برئاسة البطريرك الماروني الى باريس عام ١٩١٩ لتدعيم علاقات المودة بين فرنسة والموارنة ، والالحاح على الحكومة الفرنسية كي توجد كيانا لبنانيا يقع تحت اشرافها ، ورحب كليمنصو باقتراحات البطريرك وتبودلت الخطب المؤيدة لذلك •

وعندما وقف فيصل امام مؤتمر الصلح يطالب باستقلال بلدان آسية العربية

ووحدتها ، بما فيها جبل لبنان ، سارع وفد آخر من الموارنة الى باريس ، وعارض مطالب فيصل بايعاز من الفرنسيين ، وطالب باشراف فرنسة على لبنان ، وانتقد وضع لبنان تحت الادارة « البدوية » للحجاز[1] .

وعندما جاءت فرنسة منتدبة لدولتي المشرق ، سلكت مع سورية سياسة تستهدف اضعاف معقل المقاومة العربية « المسلم » ، وسلكت مع لبنان سياسة ترمي الى تعزيز ما حسبته حصن التعاون « المسيحي » . وبادرت الى خلق دولة لبنان الكبير ، وأقامت على حكمه طبقة من المتنفذين الموالين ، شعارهم المحافظة على الوضع الراهن الاقليمي ، والاعتزاز باستقلال لبنان الذي « يفضل الموت جوعا في ظل صخوره على ان يكون تابعا لدمشق »[2] وشجع الاحتلال الخلافات الطائفية لمصلحته ، فعادت نغمتها الى جبل لبنان بأشد مما كانت في عهد الترك العثمانيين .

ولجأت السلطة الفرنسية الى تدابير خبيثة ، فأشاعت بين صفوف طائفتي الشيعة والدروز ان الفكرة العربية من خلق المسلمين السنيين ، وان نجاحها سيقضي على مصالحهم وامتيازاتهم ، ويمحو شخصيتهم وتقاليدهم التي لا يصونها الا كيان طائفي لبناني .

وكان من الطبيعي ان تجد هذه الدعوة الهدامة صدى بين بعض قادة الطوائف الاسلامية السالفة الذكر في لبنان ، لانها تتمشى مع اهوائهم وترضي اطماعهم ، حتى ان جانبا من المسلمين السنيين والشيعة والدروز الذين كانوا من انصار الفكرة العربية والوحدة العربية ، أوقفوا نشاطهم في سبيلها .

---

(1) انظر : Lloyd George « The Truth about The Peace Treaties » Vol. II p. 1050.

(2) كلمة بطريرك الموارنة ؛ وكان قد طلب في مؤتمر الصلح ان تحكم فرنسة لبنان ، (اودر ص ١٨٩ الترجمة العربية) . لم يكن في لبنان منظمة رسمية تنطق باسمه سوى مجلس الادارة والبطريرك المارونى ، وجمعية الاتحاد اللبنانى ومركزها في مصر . ومطالب اللبنانيين المسيحيين نلخص من كتابي « في سبيل لبنان » : ليوسف السودا ، و « لبنان بعد الحرب » لاوغست باشا اديب . والرجلان يطلبان الاستقلال للبنان ، واعادته الى حدوده الطبيعية المزعومة بحماية فرنسة .

وتسكنت السلطة الفرنسية من صبغ لبنان بصبغة الطائفة المارونية ذات الاكثرية العددية بين الطوائف ، مما ادى الى تدعيم النزعة الاقليمية الطائفية التي كانت من أسوأ فعال الاحتلال الفرنسي ، واشدها نكاية وتهديما للفكرة العربية ولاي تقارب مع البلاد العربية الشقيقة •

وامعانا في تثبيت التجزئة التي فرضها الاحتلال على البلاد السورية ، فقد أيد حركات بعض المثقفين في لبنان ، الذين كانوا من أوساط معينة ، معظمها من خريجي المعاهد اليسوعية من المسيحيين الحاقدين على العروبة والاسلام ، او الخائفين منهما ، وبضمنها القليل من المسلمين المستائين من شرور الطائفية المستفحلة[1]• من هذه الحركات ما اتخذ مظهرا ثقافيا فكريا : كالقول بثقافة البحر الابيض المتوسط المباينة للثقافة والحضارة العربية • وكالدعوة الى انفصال لبنان « الفينيقي » عن البلاد العربية ، والى بعث اللغة العامية واتخاذها أداة للكتابة • أيدت فرنسة جاهدة هذه الحركات وتلك الدعوات ،وبثت هذه المغالطات والسموم المتنوعة متلفعة بجلباب البحوث العلمية والتاريخية والثقافية •

ومن هذه الحركات ما اتخذ مظهرا سياسيا كالحركة القومية السورية الاجتماعية التي تناهض صراحة الحركة القومية العربية الجامعة ، لانها تعتبر ان شعب سورية الطبيعية يؤلف أمة منفصلة تماما ، ومختلفة تماما عن الامة العربية [2] ؛ فالامتان المذكورتان ، وان اشتركتا بصلة واهية من القربى هي صلة اللغة ، لكن هذا لا يبرر ولا يوجب على « الامة السورية » ان تربط مصيرها بعجلة الامة العربية • وقد استهدفت هذه الحركة تقوية التباعد بين أقطار الوطن العربي ، واعاقة تعاونها ، وقد لاقت بعض النجاح في لبنان خاصة • أما الدعوة الفينيقية ، فلا تستحق النقاش الطويل ، لانها كالدعوة الفرعونية في مصر لم تلق الا نجاحا محدودا بدأ بالزوال •

وهناك رابطه البحر الابيض المتوسط التي عمل الفرنسيون في لبنان على نشرها ،

---

(١) انظر Hourani, op. cit. , pp. 128 - 135 للاطلاع على آراء الاقليات الدينية بخصوص موقفهم من العروبة ومن الغرب الاوربي .

(٢) هذه النظرية قديمة روج لها من قبل الاب لامنس اليسوعي في كتابه سورية ، انظر ساطع الحصري « العروبة بين دعاتها ومعارضيها » ، بيروت ١٩٥٤ .

تماما كما سعوا في المغرب العربي لاقصاء أهله عن فكرة العروبة بقولهم : « لا علاقة بينكم وبين العرب ؛ أنتم من شعوب البحر الابيض المتوسط ، مثلنا »[1] .

وفي منتصف الثلاثينات نشأ التنظيم الحزبي في لبنان ، وتركز حول شخصين هما بشارة الخوري واميل اده ؛ شكل الخوري ما دعي بالكتلة الدستورية وهدفها الدفاع عن الدستور ، وظهورها أدى الى نشأة حزب اميل اده الذي عرف باسم الكتلة الوطنية أو الكتلة الادية ، وهدفها الدفاع عن لبنان في حدوده الحاضرة وصيانة استقلاله .

وفي عام ١٩٣٧ أعلن بشارة الخوري ان الوقت قد حان كي يتعاون لبنان الى أقصى حد مع البلاد العربية ، وان على لبنان ان يعتبرها شقيقاته وشريكاته في النضال ضد الاستعمار ، والوصول الى الحرية والاستقلال . أما اميل اده فقد رد على هذه المبادرة ، وأعلن ان الشعب اللبناني هو من نسل الشعب القديم الفينيقي الذي أسهم في الحضارة العالمية . ولم يرحب اده بالفكرة القائلة ان اللبنانيين عرب ، وانما آمنت كتلته بقومية لبنانية ذات كيان خاص ، وطابع لبناني متميز ، تخشى عليه من أي وحدة او اتحاد او مجرد تقارب عربي[2] .

وابان عام ١٩٣٧ نشأت منظمتان في لبنان أصبحتا حزبين سياسيين ؛ المنظمةالاولى هي منظمة النجادة ، والثانية هي منظمة الكتائب ، الاولى تتمسك بالفكرة العربية وتشجب النزعة المحلية والانعزالية ، وتقبل ان تعمل من أجل اتحاد البلدان العربية ، على ان يقوم كل بلد عربي بتصريف شؤونه الداخلية بنفسه . والثانية هي منظمة تمثل الانعزالية الضيقة ، وشعارها « الله والوطن والاسرة » ، وسياستها قائمة على الاعتقاد بان لبنان حقيقة جغرافية وتاريخية وطبيعية ، وانه يجب ان يبقى كذلك . وهي تستهدف خلق وعي لبناني بين جيل الناشئين ، وترفض أي تهديد لاستقلال

(١) فكرة رابطة البحر المتوسط لا تستند الى اساس علمي صحيح . انظر مناقشة هذه الدعاية السياسية وتفنيدها في ساطع الحصري « آراء واحاديث في العلم والاخلاق والثقافة » ص ٤٤ — ٦١ .

(٢) نبيه امين فارس : هذا العالم العربي ص ١٠٢ .

لبنان ، سواء كان ذلك عن طريق الوحدة والاتحاد او حتى التضامن والحلف[1].

وفي عام ١٩٣٦ نشأ في لبنان فرع لحزب عصبة العمل القومي الذي كان مركزه دمشق ، ونادى بوجوب اندماج لبنان في وحدة عربية . ويظهر انه طرأ على مبادىء فرع العصبة في لبنان بعض التغيير . ذلك ان الفرع قبل ما هو أقل من الوحدة العربية الكاملة ، وذلك عندما أذاع في بيان له في ١ آذار سنة ١٩٣٩ ، ان العصبة تعتبر لبنان بكيانه الجغرافي الحاضر قطرا عربيا مستقلا ، وتعتبر اللبنانيين كافة اخوة ومواطنين ، لا فاضل فيهم ولا مفضول الا بالمواهب والاعمال الوطنية المشرقة. ولا تعترف بأكثرية أو أقلية في لبنان الا من الناحية السياسية ، لانها لا تقوم على اساس ديني او مذهبي أو عائلي ولانها تنظر الى اللبنانيين كشعب واحد .. مجتمع ممتزج لا يعنيها أمر عقائده الدينية . فاللبنانيون في نظرها لبنانيون ، وليسوا مسلمين ومسيحيين[2] .

وصرحت في بيان آخر في ٣ نيسان ١٩٣٩ : « لقد صرحنا غير مرة ـ ونحن

---

(1) Ziadeh, « Syria & Lebanon » p. 201

(٢) يذكر علي ناصر الدين رئيس فرع العصبة في لبنان ان الفرع لاقى مقاومة من رجال السلطة وانه عام ١٩٣٨ تبين للعصبة بعد تجارب عديدة ودروس وابحاث ان فكرة معينة تتعلق بلبنان ، الذي كان القوميون العرب العارفون المخلصون في كل مكان ، يرون فيه اقليما من اقاليم ديار الشام ، تستحق ان تدرس. وان هذه الفكرة قد تجمع اللبنانيين على صعيد واحد ، وتتجه بهم الاتجاه الصحيح . وقد اوحى للعصبة بهذه الفكرة عوامل عديدة كان في مقدمتها التطور الذي بدأ يظهر في تفكير بعض اللبنانيين بشأن قومية اهل لبنان وعروبته ، فقد طفت يومذاك الى حد ما ، على اقلام الكتاب والسنة بعض الناس عبارة : لبنان وطن عربي مستقل وكان هؤلاء انفسهم الى عهد غير بعيد من ذلك اليوم يتنكرون لكل ما هو عربي ، وينفرون من كل من يجاهر بأنه عربي ، ويستقبلون الغرب بوجوههم وعقولهم وعواطفهم بلا احتياط . أما الفكرة فهي مماشاة القائلين بكيان لبنان في قولهم واعتباره قطرا عربيا قائما بنفسه وليس جزءا من قطر ، على ان يجارينا المتنكرون للعرب والعروبة في العمل لتحرير لبنان من الاجنبي ، واستقلاله على اساس ان اهله عرب وليسوا فينيقيين ولا من بقايا الشعوب المنقرضة على سواحل هذا البحر الابيض ، ولتوجيهه وجهة الشرق العربي وتقريبه من الاقطار العربية الشقيقة . وقد اقتنع رجال العصبة بصواب فكرتهم فنشروها ودعوا اليها غير مبالين بالمقاومة (مجلة العروة الوثقى ـ عدد خاص بالاحزاب السياسية في البلاد العربية ـ نيسان ، ص ٧٠ ـ ٧١)

لبنانيون أصلاء ـ تصريحات شخصية وحزبية ، ان العصبة تعتبر لبنان بكيانه الجغرافي الحاضر قطرا عربيا له ما لغيره من الاقطار العربية ، الحق التام في الحرية والاستقلال، وان العصبة التي تعتبر الاقطار العربية كلها وطن لكل عربي ، تريد ان تجعل من لبنان الحلقة الذهبية في سلسلة هذه الاقطار [1] •

ويهمنا ان نقرر هنا ان النزعة الاقليمية الانفصالية اصبحت حقيقة واقعة في لبنان في ما بين الحربين ، تقاوم النزعة الاتحادية العربية التي تعتنقها سورية • لقد اصطرعت هاتان النزعتان في دولتي المشرق ؛ فالاولى تغذيها فرنسة وتدعمها مخاوف الطوائف واطماعها ، والثانية تغذيها جهود الوطنيين السوريين ، على وهنها ، ومن ورائهم غالبية فئات المسلمين في لبنان ، وبعض المسيحيين وخاصة من الروم الارثوذكس •

وفي الحق ان طوائف المسلمين في لبنان ، الذين كان شعورهم بالعروبة قويا ، والذين يؤلفون نصف سكانه تقريبا ، ما كفوا عن اظهار عدائهم الصريح وتحديهم للحكومة اللبنانية وللسلطة الفرنسية التي أقامتها • ويصعب على الباحث ان يحصي عدد العرائض والمطالبات التي قدموها ، والتي تبدو فيها صراحة ، نزعتهم العربية في الاتحاد مع سورية ، وربط مصيرهم بمصيرها ، كما كان قبل انشاء دولة لبنان الكبير (١٩٢٠) • ورفض المسلمون ان يعتبروا أنفسهم لبنانيين ، فاضطرت السلطات أن تمنحهم بطاقات شخصية خاصة لا تحمل اسم لبنان الكبير ، وملأت دعوتهم للوحدة السورية أجواء المناطق التي الحقت بلبنان ، أثناء الثورة السورية الكبرى • وعندما أقبل المجلس التمثيلي النيابي على وضع دستور لبنان عام ١٩٢٦ ، رأى النواب المسلمون في اقرار الدستور تدشين ادماجهم النهائي في لبنان ، فطلبوا من عصبة الامم ان تؤلف من المناطق التي يمثلونها والمقتطعة من سورية دولة مستقلة مرتبطة باتحاد لا مركزي مع لبنان القديم وسورية[2] • وفي مؤتمر الوحدة السورية المنعقدة في دمشق (١٩٢٨) ، طلب حزب الاتحاد السوري الذي يضم زعماء الحركة العربية

---

(١) نفس المرجع السابق .

(٢) برقية عمر الداعوق الى سكرتير عصبة الامم بهذا المعنى ، انظر الارمنازي سورية من الاحتلال الى الجلاء ص ٤٨ .

في لبنان ، وعلى رأسهم رياض الصلح « وحدة سورية دون لبنان الصغير [١] » ، وطلبوا أيضا ان يحتوي الدستور على فقرة للتعبير عن هذه الامنية ، وقد تم ذلك عندما وضعت مسودة الدستور السوري ، وكانت المادة (١٢) تنص على ذلك • وقبل عقد المعاهدة مع فرنسة (١٩٣٦) طالب مؤتمر مدن الساحل والاقضية الاربعة، المفوض السامي الفرنسي بالوحدة السورية الشاملة [٢] • وتمسك القوم بأمانيهم ، وقامت مظاهرات السخط العنيف ضد الحكومة اللبنانية ، فتصدت هذه لها وقابلتها بعنف أيضا ، وجعلت كلمة الوحدة السورية تقود صاحبها الى السجن فورا ! ••

ترى هل سيظل التفكير السياسي لدى اللبنانيين على هذا النحو ، بعد ان رزحوا تحت حكم فرنسة ما يقارب خمسة عشر عاما ، رأوا خلالها جهازا اداريا مفككا ، وموازين الحكم مختلة ، والعمل الانشائي فاسدا ، والجو السياسي مضطرما بالخصومة والموجدة بين الاحزاب ؟ لقد تساءل بعض المفكرين اللبنانيين عن ذلك الازدهار والرفاه الذي وعدتهم به فرنسة من قبل ، يوم وطئت قدمها أرضهم ، وفتشوا عنه فما وجدوه ، وانما وجدوا قيود فرنسة موضوعة على جميع مرافق البلاد ، وعلى كافة انظمة الثقافة والتربية الوطنية • وتحقق من كان راجح التفكير من أولئك اللبنانيين ان فرنسة انما ترمي من وراء خلق وطن قومي للاقليات المسيحية في الشرق ان تؤمن مصالحها ، وتدعم نفوذها التجاري والسياسي والاستراتيجي بين شعب محب لفرنسة ، ومعجب « بعبقريتها » المتفوقة • وان حمايتها للاقليات ومراعاتها لهم ليست ناجمة عن دافع الدين والانسانية ، وانما عن اطماع غير محدودة ، تجلت في محاولة « فرْنسة » البلد ونسف الثقافة الوطنية الاصيلة المشتقة من المشاعر العميقة في نفوس اللبنانيين ، والمتراكمة على مر الاجيال المتعاقبة [٣] • لقد فهم هذا النفر من اللبنانيين الانتداب الفرنسي ، أول ما سمعوا به ، على انه معونة فنية واشراف رفيق يؤدي الى ان يحكم البلد نفسه بنفسه ، بعد فترة قصيرة انتقالية صائرة الى الزوال في أقرب زمن ممكن • ولكن ما شاهدوه من تصرف سلطة الاحتلال ، دل على سعة الهوة بين ما يفهمونه من

(١) Correspondance d'orient, Août, 1928 p. 82.

(٢) كراس مؤتمر الساحل والاقضية الاربعة (بيروت ١٩٣٦) .

(٣) Elizabeth Monroe « the Mediterranean in Politics » p 77 ff.

الانتداب وبين ما تفهمه هي منه • وتملك هذا النفر اللبناني سوء الظن شيئا فشيئا ، وأدرك ان سياسة فرق تسد بين طوائف لبنان ، واشاعة سوءالتفاهم بين لبنان وبين جاراته العربيات ، لن تؤمن له مستقبلا يبشر بالخير ، فما خلدت يوما دولة ظالمة ، بل هاهي ذي العواصف الدولية منذ عام ١٩٣٥ ، تبدو وكأنها تتهيأ لتبديل ميزان القوى في شرقي البحر الابيض المتوسط ، فتهرع فرنسة لابرام معاهدتين مع بلدي المشرق ، ثم تنكل عنهما بعد ذلك وتماطل • هل من شك بعد هذا في نواياها السيئة التي تبيتها لهما ؟

ونجرح الحق اذا لم نقل ان ثمة تغييرا طفيفا طرأ على تفكير بعض القادة اللبنانيين فجعل موقفهم من النزعةالعربية اكثر قربا وفهما من ذي قبل • ويظهر هذا التطور لدى بعض زعماء الموارنة[1] ، وفيهم بعض أصدقاء فرنسة المعروفين• فقد صرح أحدهم في خطاب له عام ١٩٢٠ : « اننا لا نتمالك ان نتصور وطنيتنا تمام التصور دون ان نجعل لفرنسة فيها مقام الشرف الذي تستحقه [2] » ، ثم نرى انه في عام ١٩٣٧ قد صرح بأن « الوحدة العربية هي انشودة لبنان ، ولا يستطيع لبنان ان يعيش حرا مستقلا منفردا بدونها » ولكنه يختم حديثه بتفضيل الاتحاد الذي يحتفظ فيه كل قطر باستقلاله وبشؤونه المحلية « وهذا هو الانسب في باديء الامر » •

وبدأت تظهر عبارة « لبنان وطن عربي مستقل » في كتابات بعض اللبنانيين وعلى ألسنتهم ، فهو يقبلون ان يعتبر لبنان قطرا عربيا قائمابنفسه ، لا جزءا من قطر أو اقطار ، ولكن يلحون على سلامة كيانه واستقلاله •

ولنسرع الى القول بان ما ذكرناه من طروء هذا التبديل الطفيف على التفكير السياسي اللبناني ، لا يعني سيطرة الفكرة العربية على الكتل والجماعات المعادية لها ، فما يزال الحذر والحيطة ملازمين لكل خطوة قد يتخذها لبنان في درب العروبة •

---

(١) انظر جريدة بيروت ١١ ايلول ١٩٣٥ عن تصريح بطريرك الموارنة لبعض الزعماء السوريين اثناء زيارتهم له عن الروابط المشتركة بين سورية ولبنان ، وصعوبة اقامة حاجز مطلق بينهما .

(٢) جريدة البشير اللبنانية عدد ٢٥١٧ ـ ١٠ كانون الثاني ١٩٢٠ من تصريح لبشارة الخوري .

وقد لخص الامير شكيب ارسلان الاتجاهات السياسية العربية في لبنان بكلمات يحسن ايرادها . قال الامير: « فأما لبنان الذي كثيرا ما نسمع الاعتراضات على تلكؤه في الانضمام الى سائر البلاد العربية ، فانه قطر عربي بحت من جهة الثقافة واللغة ، ولكنه ينشطر الى شطرين في منحاه السياسي ، احدهما يتولى الدول الاوربية ، ولا يأمن الا تحت ظل سيادتها ، والآخر ينظر الى الشرق والى العالم العربي ، ولا يأمن الا في حمى العروبة ، وكل من الشطرين مناوىء للآخر ، ولكن الرجحان بينهما انما يكون من عمل الزمن الذي اذا ساعد الوحدة العربية وأدخلها في طور الفعل ، لم يمتنع لبنان كله ان يكون من أركانها ؛ وان قصر العرب عن تحقيق امنيتهم هذه ، بقي لبنان على خطته الحاضرة ، وربما حمد (الدول) الاوربية . وبالاجمال ، فليس لعشاق هذا المشروع (الوحدة العربية) اليوم ، ان يجعلوا لبنان من اهدافهم القربى ، لان وحدة العرب انما تبدأ في مركز قوتها ، ولبنان ليس مركز قوة لها ، وانما هو مركز تردد فيها ؛ القوة تقضي به والعجز يمنع عنه »[1] .

ويجب ان ننتظر حلول عام ١٩٤٣ لنرى تبديلا صريحا في وجهة لبنان القومية ، حيث سيختار على نحو ما المشاركة في الحياة العربية ، وفي اهدافها الاتحادية الجامعة ، بعد ان تقوم فيه أول وزارة قومية دستورية . ومنذ هذا الحين سيعمل لبنان للقضية العربية بقدر ما يتيح فهمه لها ، وعلى النحو الذي يتمشى مع ايمان قادته بها .

. . .

الاتجاهات والنزعات القومية في شرقي الاردن :

يشعر الواعون من عرب امارة شرقي الاردن انه لو لم يخلق الانكليز الامارة ، ولو لم تقتطع السياسة الدولية منطقة شرق الاردن من سورية ، لما شعر سكان الامارة بانهم اردنيون ، ولاعتادوا ان يشعروا بانهم عرب سوريون . أما غير الواعين ، وخاصة من ابناء العشائر ، فالسياسة البريطانية عاملتهم بنفس الاسلوب الذي عرضنا لطرف منه في حديثنا عن العراق وعشائره ، وذلك لخلق التناقض المحتوم بين الولاء

---

(١) شكيب ارسلان ـ من محاضرة القاها في النادي العربي بدمشق بتاريخ ١٩٣٧/٩/٢٠ ونشرتها مكتبة عرفة بدمشق ، ص ١٠ ـ ١١ .

القومي الواسع ، الذي يستوجب المشاركة الديمقراطية الفعالة في الحياة السياسية المحلية والعربية ، وبين الولاء القبلي الضيق الذي يؤدي الى اعاقة الوعي القومي بين الشعب والى ابعاده عن المشاركة بالحكم .

ومن ناحية أخرى ، فقد كانت سياسة امير البلد مستوحاة من مبادىء (النهضة العربية) التي ابرزها الحسين الى المجال الدولي بثورته المعروفة ضد الترك . وحين فشل الامير عبد الله في الاستحواذ على عرش العراق ، اتجه مع اعوانه الى شرق الاردن وأعلن عن عزمه على تحرير سورية وطرد الفرنسيين . وقد ترتب على ذلك وعلى طرد فيصل من دمشق ان فيصلا لم يستطع ان ينسى دمشق التي طرده منها الفرنسيون ، وعندما أصبح ملكا على العراق كان من جملة خططه القومية ان يعود الى سورية ويحررها . في حين ان استياء عبد الله من اخيه الذي استحوذ على عرش العراق من دونه ، أوجد في نفسه أيضا توقا الى عرش سورية ؛ وكان يقول : لقد أضاع فيصل مملكة سورية ، وأصبح ورثته على عرش العراق ، فيجب ان تكون سورية لي أنا ، وهذا هو سر حملته الطويلة ومسعاه الدائب لتحقيق حلمه في عرش سورية الكبرى .

فمنذ أن قدم الامير عبد الله الى معان ، صرح بأن هدفه تحرير سورية وطرد الفرنسيين منها ، لولا ان الظروف السياسية يومئذ لم تسمح له بذلك حرصا على التحالف الفرنسي البريطاني . فقنع الامير بحدود امارته مكرها ، دون ان يغادر حلمه . فلم يترك فرصة تمر الا واهتبلها للاستشهاد بمبادىء الثورة ، وقرارات المؤتمر السوري ، وبالعلم الاردني الذي كان أقره ذلك المؤتمر ، وما رغب الامير في تبديله ، ليثبت ان سورية له وان أمرها لن يتم لغيره أبدا . لقد أفهمه تشرشل في اجتماع القدس ان يبقى في شرق الاردن على وفاق وتفاهم مع بريطانية ، ومع فرنسة فلا يتحداها . وقال تشرشل ان تم هذا فهو أي تشرشل — يأمل ان تعيد فرنسة النظر في الامر (أمر ملكية الامير على سورية) ويعتقد انه باستطاعته تهنئة الامير برجوع الشام الى الهاشميين بعد ستة أشهر [1] .

---

(١) مذكراتي ص ١٨٠ .

ولما وصل الى الامير نبأ وصول فيصل الى العراق ، وترشيحه للملك ، لم يستطع أن يضبط نفسه ، وانفجر قائلا : « أيزدان مفرق فيصل بتاج العراق وعبد الله حي يرزق ؟ تلك والله قاصمة الظهر[١] » . ولكن ثورة السخط هدأت في نفسه ، وحل محلها يقين بصداقة الانكليز ، وبأنها امر لا بد منه لاكتساب عرش كعرش سورية مثلا ! ولم لا يتبع نصيحة تشرشل ويسعى للتقارب مع السلطات الفرنسية فيها ؟ وسنحت الفرصة لذلك في وصول الجنرال ويغان الى بيروت في أيار ١٩٢٣ ، فأبرق اليه الامير عبد الله : « بلغني بكل سرور خبر وصولكم ، فبادرت للاعراب عن صداقتي وأخلص أماني » . وأجابه ويغان : «أثرت في نفسي تمنياتكم بمناسبة مباشرتي العمل ، أرجو التكرم بقبول فائق احترامي »[٢] . وتواترت الشائعات في مقر الامير ان الفرنسيين أبرقوا اليه من سورية ، يطلبون منه ارسال مفوض من لدنه لمذاكرته في نصب سموه أميرا على سورية (أيار ١٩٢٣) ، وصدق الامير تلك القالة ، وانفق على رسله التي تذهب وتعود بين دمشق وبيروت وعمان مبالغ طائلة ذهبت هباء ، مع الجهود والمبالغ الاخرى ، التي بذلت اثناء الاتصالات التي جرت بين رسله وبين بعض زعماء جبل الدروز . ومهما يكن الامر فقد ظهرت في مناطق الحدود السورية الاردنية بعض الحركات والمساعي للالتحاق بحكومة شرق الاردن ، وتجلت خصوصا في منطقتي حوران وجبل الدروز . ولكن الامير عبد الله الذي كان ينقصه عنصر المغامرة ، لم يستطع ان يوجه هذه الحركات ويدعمها بالقوة ويفيد منها ، وانما علق الآمال على رضى الفرنسيين بتعديل حدود الامارة الاردنية ، بحيث يتراجع خط حدود فرنسة في سورية من درعة الى قرية الكسوة جنوب دمشق ، ومعنى هذا ان تلحق منطقتا حوران وجبل الدروز بشرقي الاردن[٣] . ولكن لم يحدث شيء من هـذا القبيـل .

---

(١) الزركلي « عامان » ص ١٤٣ . ثار الامير في وجه شقيق الشيخ فؤاد الخطيب عندما قرا على مسامعه بيتا نظمه أخوه وقال فيه :

تنازل عن عرش العراق تكرما   وافضل من عرش العراق تنازلـه

(٢) الزركلي « عامان » ص ١٤٨ .

(٣) حنا ابو راشد ، « جبل الدروز » ، ص ١٤٢ .

ان سياسة التقارب والملاينة مع فرنسة في سورية كان يصحبها احيانا من جانب الامير عبد الله ، رجاء ورغبة في وثوب السوريين بفرنسة ، مع افهام الثوار الناقمين من السوريين اللاجئين الى امارته ، فرارا من عسف فرنسة ، بأنه لا يحجم عن مساعدتهم ضدها •

وفي مذكرته التي أرسلها الى حكومة لندن (شباط ١٩٣٦) ، طلب الامير الاتحاد مع سورية ، كخطوة أولى في سبيل الاتحاد العربي[١] ، وذلك قبل ان يخرج الى العرب بمشروعه الذي سيعرف باسم سورية الكبرى ، في مطلع الحرب العالمية الثانية •

أما علاقات الامير مع أخيه الملك فيصل في العراق ، فيبدو انها كانت ودية ، ولكن بعض الكتاب يسجلون بعض المآخذ على الامير بهذا الخصوص[٢] • على ان فيصلا الذي كان لورانس يطري مواهبه ورجاحة عقله ، زار عمان (١٩٣٢) وأحيطت زيارته بالكتمان • وهنالك استمع الى شكاوى الوطنيين بصدد الاحوال الحاضرة في الامارة ، وبصدد آمال الناس وآلامهم • وسعى الملك فيصل للتوفيق بين المعارضة السياسية وبين اخيه الامير عبـــد الله[٣] •

ولكن صعوبات امارة شرقي الاردن كانت مع جيرانها السعوديين الذين ما فتئوا منذ عام ١٩٢١ حتى عام ١٩٢٤ يغيرون على أراضيها ويتوغلون فيها ، لولا ان الطائرات والمدرعات البريطانية كانت تصدهم[٤] •

---

(١) مذكرة الامير عبد الله بتاريخ ٢٢ شباط ١٩٣٦ ، نشرتها بعض الصحف العربية يومذاك : Rabbath, op. cit. , p. 338 .

(٢) يذكر الزركلي في كتابه « عامان في عمان » ص ١٤٥ ، ١٥١ أنه كان للامير عبد الله دعاة وعملاء في العراق ، « حتى قيل ان اتفاقا سيعقد بين الامير والترك ــ اثناء الثورة الكمالية ــ لمهاجمة العراق وفيصل فيه » .

(٣) « مجلة العرب » العدد رقم ٥ ــ ١٩٣٢ ــ ص ٩ .

(٤) يذكر محمد كرد علي في خطط الشام ٣ : أن « ابن سعود احتج على اعتداء عرب البلقاء على تجار نجد ، وارسل (آب ١٩١٢) قوة هاجمت شرقي الاردن ، ولكن المدرعات الانكليزية تاثرت الوهابيين وردتهم ، ثم عادوا ثانية . وذكر بعض الواقفين على ←

ولا يمكن للامير عبد الله أن ينسى هزيمة جيشه وابادة جنوده في معركة (تربة) عام ١٩١٩ على أيدي الوهابيين ، فلطالما اقضت هذه الكارثة مضجعه ، وأورثته هماوغما بعد ان تضاءلت سمعته الحربية على اثرها ، فتأصلت العداوة في نفسه ، وصمم على الثأر من السعوديين ولكن دون جدوى •

وخلقت أسباب جديدة لتغذية النزاع السعودي الاردني ؛ فان المنطقة الجنوبية من شرقي الاردن ، وتضم معان وميناء العقبة كانت تابعة للملك حسين في الحجاز • وقبل ان يستولي ابن سعود على الحجاز ، كان الملك علي الذي خلف أباه الملك حسين ، قد تنازل بمعاهدة جدة (حزيران ١٩٢٥) عن هذه المنطقة الجنوبية الى أخيه الامير عبد الله بصفة شخصية ، وبذلك أصبحت العقبة ومعان تابعتين لبلاد شرقي الاردن • ولما تم الامر لابن سعود في الحجاز ونجد طالب بهما ، ولكن عبد الله تمسك بالمعاهدة تدعمه بريطانية • والحقيقة ان هذا التنازل لم يتم الا بناء على رغبتها ، فقد عرفت كيف تستفيد من ابن حليفها القديم الملك علي — وهو في اضنك الازمات — أمام جحافل السعوديين لتضم البلدين الى منطقة نفوذها • ومعلوم ان ميناء العقبة يؤمن لبريطانية مركزا عسكريا واقتصاديا عظيم الاهمية ، مما دفعها لادخاله في دائرة نفوذها منذ نهاية الحرب العالمية ، ونجحت في ذلك • ولما خططت الحدود الجديدة بين الطرفين في معاهدة جدة (أيار ١٩٢٧) اعترف ابن سعود بالامر الواقع موقتا ، دون ان يتنازل عن حق مطالبته في تلك المنطقة • ولم يتغير موقفه هذا في معاهـدة الصداقة وحسن الجوار التي عقدت بينهما (١٩٣٣) برغبة بريطانية وبوساطتها • وظلت العلاقات بينهما متوترة قائمة على المخاوف والشكوك والاحقاد • وسعى كل منهما لئلا يتقوى خصمه حذر الجولة القادمة • ومن هنا نشأت سياسة المحاور

مجرى السياسة ان الجنيهات الانكليزية وجدت بكثرة في جيوب الاخوان الوهابيين الذين غزو البلاد للمرة الاولى ، وان حملتهم لم تتقدم نحو الاردن الا بعد زيارة المستر فيلبي لبلاد نجد » • لعل الانكليز كانوا يغرون الوهابيين ، أحيانا ، بالهجوم على الامارة الهاشمية للوصول الى مأربهم بالضغط عليها ، كما كانوا يفعلون مع مملكة العراق كي يسلم بمطالب بريطانية ، ولاثبات ان وجود بريطانية ضروري في البلدين ، وان مطالب الوطنيين فيهما يجب نكون معتدلة ، بدليل ان غزوات الوهابيين كانت تتفق زمنيا مع نشوب الازمات السياسية بين الوطنيين في العراق وبين بريطانية .

الداخلية في كيان العرب ، وكان لها أثر كبير في تتائج المباحثات التي ستدور خلال الحرب العالمية الثانية لاجراء تقارب عربي ، وتأليف جبهة متحدة عربية •

لم يقم في البلاد تنظيم حزبي صحيح في هذه الآونة • الا ان المؤتمرات القومية التي كانت تعقد كل سنة تقريبا نادت بعروبة البلاد منذ المؤتمر الاول الذي عقد في عمان ٢٥ تموز ١٩٢٨ • وجاء في البند الاول من قرارات ذلك المؤتمر ان (امارة شرق الاردن دولة عربية مستقلة) وجاء في قرارات المؤتمر الرابع (١٥ آذار ١٩٣٢) في المادة السابعة ان الاردن يشاطر الامة العربية امانيها القومية •

وورد في البند الثالث عشر من قرارات المؤتمر الخامس في عمان (حزيران ١٩٣٣) : « توحيد الجهود مع البلاد العربية لدرء الاخطار الاستعمارية والصهيونية وتحقيق المبادىء القومية مع السعي لتقرير الاتحاد العربي اللامركزي على قواعد الاتفاق بين حكومات البلاد العربية على ان يحتفظ كل قطر بخصائصه الداخلية وشكل حكومته خاصة » •

والاهداف القومية العربية ، تتجلى بوضوح في تأييد العرب في شرقي الاردن لاخوانهم عرب فلسطين ، وفي رغبتهم في بذل المعونة المادية والمعنوية لهم • يعترف بذلك (كركبرايد) المندوب السامي البريطاني في شرقي الاردن امام لجنة الانتدابات الدولية ، فيذكر ان الثوار العرب في فلسطين « حاولوا ان ينقلوا الثورة الى شرقي الاردن دون ان يلاقوا نجاحا يذكر ، لان الامير عبد الله يبذل ما في وسعه ليصرف رعاياه من الشعب الاردني عن الاشتراك في الحركة »(١) ــ خوفا من سخط بريطانية• وموقف الامير هذا أقنع رؤساء الثورة ان يزعزعوا سلطته باشعال الاضطرابات المسلحة في بلاد شرقي الاردن• وما كان من نتيجة ذلك كله سوى نفور العرب القوميين من سياسة الامير • ولذلك سيتنكرون لمشاريع الاتحاد العربي الجزئي التي سيبرزها ابان الحرب الثانية كما سنرى •

• • •

(١) Minutes of the 36th session, p. 94 1939 . يذكر الاستاذ توينبى ان الامير حاول جاهدا ان يقنع زعماء فلسطين العرب بان اساليب العنف والارهاب هي اقل نجاحا من اساليب السلم والتفاهم .
Survey of International Affairs, 1936 p. 736.

الاتجاهات السياسية والنزعات القومية في فلسطين :

يمكن تلخيصها في الفترة ما بين الحربين بان الروح الاقليمية الضيقة ما ظهرت في أهداف عرب فلسطين ، لان الخطر الداهم جعلهم يتجهون دائما الى تعزيز الرابطة العربية الجامعة • لقد كانوا يرقبون بقلق ما يجري حولهم في البلدان الشقيقة : شهدوا مصرع الحكم العربي في دمشق ، وثارت عواطفهم مع ثورة مصر والعراق على الانكليز ، ومع ثورات سورية على الفرنسيين ، وتشجعوا بابرام المعاهدة العراقية عام ١٩٢٤ ، واستمدوا منها قوة جديدة لمتابعة الكفاح ، وتطلعوا الى الدولة المستقلة العربيه الوحيدة في الحجاز ، وانتظروا منها شيئا ولكن ـ للأسف ـ كانت لاهية بمنازعاتها مع جيرانها السعوديين •

ان المسألة الفلسطينية استقطبت الحماس العربي في بلدان العرب ، فظهرت في مجالها وميدانها وحدة الشعور ، وسرعة التجاوب ، ونمو الوعي القومي الجماعي •

وعرب فلسطين اعتبروا قضيتهم جزءا من القضية العربية التي تناضل من أجل تحرر أقطارها ووحدتها ، ومن هنا كانت مشاعرهم القومية واضحة أشد الوضوح في كل المناسبات السياسية • وفي اجماعهم على ميثاق فلسطين القومي الذي أقره المؤتمر القومي المنعقد في نابلس (آب ١٩٢٢) وقد أقسم الحضور على مواصلة المساعي لتحقيق الاستقلال والاتحاد العربي ورفض الوطن اليهودي والهجرة الصهيونية • كذلك انعقد مؤتمر الشباب العربي الفلسطيني (كانون الاول ١٩٣١) وجاء في مقرراته « توثيق العلاقات بين الاقطار الشقيقة والعمل للوحدة العربية » • وقد تحول المؤتمر الى حزب منظم عام ١٩٣٢ ، كما تأسس حزب الاستقلال العربي وغايته :

١ — استقلال البلاد العربية استقلالا تاما •

٢ — البلاد العربية وحدة تامة لا تقبل التجزئة ••

٣ — فلسطين بلاد عربية وهي جزء طبيعي من سورية •

ثم تأسس الحزب العربي الفلسطيني (نيسان ١٩٣٥) ونص على « ارتباط فلسطين بالاقطار العربية في وحدة قومية سياسية مستقلة استقلالا تاما » •

كما تأسس حزب الاصلاح (حزيران ١٩٣٥) ونص على استقلال فلسطين ضمن

الوحدة العربية واعتبار قضية فلسطين من القضية العربية الكبرى • والعمل على تنمية الصلات السياسية بين فلسطين والاقطار العربية •

كذلك نشأ حزب الكتلة الوطنية (تشرين الاول ١٩٣٥) وغايته « السعي للوصول الى استقلال فلسطين السياسي التام والمحافظة على عروبتها ضمن الوحدة العربية » •

ان كارثة فلسطين كانت كارثة العرب ؛ فكان ذكرها على لسان الصبي والصبية والفتى والكهل ، وفي منازل الاسرة ، وفي النوادي والجمعيات والاحزاب ، وفي كتب الكتاب ، وتفثات الشعراء والادباء • لقد نبهت عقلاء الامة العربية وزعماءها الى مساوىء السياسة الاقليمية التي سار عليها بعضهم في أعقاب الحرب العالمية الاولى ، فعملوا على مناوأة هذه السياسة واضعين نصب أعينهم هدفا واحدا هو الوحدة العربية الكاملة ، واستقلال أقطارها التام • وشرعوا يبثون فكرتهم بواسطة الصحافة والجمعيات والنوادي ، حتى تم لهم عقد المؤتمر الاسلامي في أواخر عام ١٩٣١ في مدينة القدس ، وهنالك تمكنوا من عقد مؤتمر عربي [١] ووضعوا ميثاقا عربيا ، فكان نواة لبث الفكرة عمليا في سائر البلاد العربية ، وجددوا به عهد الحركة العربية ، وبعثوا أهدافها • واستقر رأي المؤتمرين على الدعوة الى مؤتمر عربي عام للنظر في تنفيذ أحكام الميثاق • وأبدى العراق استعداده لتعضيد المؤتمر ، ورحب بعقده في بغداد برعاية فيصل ، ولكن العراقيل قامت في وجهه من جانب الانكليز ، الذين خوفوا فيصلا ورجاله بان ذلك سيفتح على بلدهم المستقل حديثا باب المشاكل[٢] • ومع ان فكرة عقد المؤتمر لم تثمر ، الا انها كانت خطوة في الاتجاه العربي العام •

ولما انفجرت ثورة ١٩٣٦ ، ودارت رحى معاركها الطاحنة بين العرب والانكليز اشترك فيها السوريون والعراقيون والاردنيون• مما جعلها بحق ثورة عربية كبرى[٣]•

---

(١) مجلة العرب العدد ٤ (ايلول ١٩٣٢) .

(٢) محمد عزة دروزة ـ حول الحركة العربية ، ٣ : ٨٤ .

(٣) يقول الاستاذ توينبي في كتابه : Survey for 1936, op. cit. , p. 740
ان الثورة العربية في فلسطين كانت فترة بعث ويقظة ؛ فان حوادث ١٩٣٦ في فلسطين قد بثت الحماس والاهتمام في الشرق الاوسط . ونقلت صحيفة المانشستر غارديان في ١٣ تشرين الاول ١٩٣٦ عن جريدة الدفاع الفلسطينية ان عرب فلسطين قد اعتبروا جزءا من الفيدرال العربي ، فهم اذن لم يعودوا وحدهم في الميدان .

ولقد سارعت لجـان الدفـاع عن فلسطين ، التي تشكلت في كل بـلد عربي ، لجمع التبرعات وارسالها مع المتطوعة والسلاح لقتال الصهيونيين وحماتهم • واهتزت البلاد العربية لانباء القمع والبطش ، وارهاب الآمنين العرب ، وحرق قراهم وتشريدهم من قبل الانكليز •

ووقفت الشعوب والحكومات وجماعات المفكرين والصحفيين للدفاع عن اخوانهم المجاهدين • وتوجه غازي العراق ويحيى اليمن وابن سعود وعبد الله بنداء حار لايقاف القتال الى ابنائهم عرب فلسطين [1] ، ولحل الاضراب الطويل الذي دام ستة أشهر • ولما قدمت لجنة بيل قاطعها العرب في بادىء الامر ، ثم برغبة ملوك وأمراء العرب قابلوها في أواخر ايامها ، بحيث لم يتمكن اعضاء اللجنة من تدقيق الشهادات العربية بالاتقان الذي عالجوا به الشهادات اليهودية والبريطانية • وأخيرا خرجت اللجنة على الناس بمشروع التقسيم كما ذكرنا ، فما وافق عليه العرب ، بينما وجد فيه الامير عبد الله الحل الممكن والعملي لهذه القضية المعقدة [2] وذلك ليصبح ملكا على رقعة أوسع من الارض ، كما صرحت يومئذ الصحف الاجنبية والعربية[3] • ولعله يستبعد ان يكون الانكليز قد تحدثوا الى بعض « اصدقائهم » من زعماء العرب ، عن مشروع دولة عربية تتألف من فلسطين وشرقي الاردن والعراق ، أو من فلسطين وشرقي الاردن ، أو من جزء من فلسطين ، ليضمنوا انشاء كيان يهودي قومي وسط بلاد العرب التي دب فيها دبيب اليقظة والتفتح القومي •

وفي سورية [4] وشرقي الاردن وبعض مدن لبنان ، قامت الاضرابات والمظاهرات تشجب مشروع التقسيم ، واستنكرته اليمن كذلك ، وطلب علماء نجد من ابن سعود ان يقوم بصد الخطر الصهيوني عن البلاد المقدسة •

---

(١) Rabbath, p. cit. , p. 41 .

(٢) دروزة ، نفس المصدر السابق ، ٣ : ١٥٦ .

(٣) صدقة « قضية فلسطين » ص ٢٠٤ وما يليها .

(٤) يعترف (روبير دوكي) مندوب فرنسة امام لجنة الانتدابات الدائمة ان السلطة الفرنسية تدخلت اكثر من مرة لمنع تهريب ونقل الاسلحة من سورية الى عرب فلسطين.
Minutes of the 33 rd Session p. 25, 1937.

اما مصر فقد بدأ اهتمامها يتعاظم ، وأكد رئيس وزرائها النحاس انه يواصل البحث مع بريطانية للدفاع عن عرب فلسطين [1] . وشرعت مصر تتطلع الى العالم العربي وتعنى بشؤونه وتتابع نضال الحركة العربية المشتت في فلسطين خاصة ، وفي كل قطر عربي ابتلى بالنفوذ الاجنبي عامة . وجدير بالملاحظة ان الشعور والعامل الديني كان له المقام الاول في البذل والتضحية والتأييد الذي نال المسألة الفلسطينية من طرف البلاد العربية عموما[2]. وأمام لجنة الانتدابات في عصبة الامم ، دوى صوت مندوب مصر ومندوب العراق ، وأكدا ان أي عربي ، لا يمكن ان يرضى بالتقسيم لما ينطوي عليه من اخطار على الامة العربية . واعترف رئيس لجنة الانتدابات بان « للرأي العام العربي أهمية عظمى في معالجة قضية فلسطين ، وان الحكومة الانكليزية التي لم تبد أي اعتراض على توسط ملوك العرب في وقف الاضراب والثورة ، لا يحق لها ان تحتج على ان تدخل العراق أو مصر في مشكلة اخوانهما » . وتساءل عما اذا كانت بريطانية تستطيع الوقوف في وجه التيار العربي الجارف الذي يطالب باستقلال فلسطين[3] .

وعقد مؤتمر بلودان في مطلع ايلول ١٩٣٧ ، وتقاطرت الوفود من مصر والعراق ولبنان وشرقي الاردن وفلسطين ، واتخذت مقررات منها عدم تجزئة الوطن العربي ، وفلسطين منه واستنكار التقسيم وانشاء دولة يهودية ، والمطالبة بالغاء الانتداب ، ووقف الهجرة وبيوع الاراضي حالا ، ثم اقسم المؤتمر على الميثاق[4] .

وبرزت الاخوة الدينية الاسلامية الى جانب الاخوة القومية العربية للمشاركة في المشكلة ، فعقد المؤتمر البرلماني العالمي للبلاد العربية والاسلامية في القاهرة (تشرين الاول ١٩٣٨) ، انتصارا لعروبة فلسطين ، حيث اجتمع فيه نواب وشيوخ عديدون من مصر والعراق وسورية ولبنان وفلسطين ، ووفد عن المغرب العربي ، وعن مسلمي

---

(١) دروزة ، نفس المصدر السابق ، ٣ : ١٦١ .

(٢) هذا القول ينطبق اكثر ما ينطبق على مصر .

(٣) دروزة ، نفس المصدر السابق ، ٣ : ١٦٨ – ١٦٩ .

(٤) كراس مؤتمر بلودان ، ص ١٥٤ .

الهند ، وعن مسلمي يوغوسلافيا [1] . وتبعه عقد المؤتمر النسائي العربي في القاهرة أيضا ، فاجمعت نساء مختلف البلاد العربية على التنديد بالتقسيم ، وحذت حذو المؤتمر البرلماني .

وفي عام ١٩٣٩ اعترفت الحكومة البريطانية باهتمام العرب المتزايد بالمشكلة فدعت ممثلي البلاد العربية كما ذكرنا ، لمؤتمر لندن ، وكان هذا حدثا خطيرا في تاريخ القومية العربية ، اذ اعترف فيه رسميا بحقيقة واقع الشعور العربي ، كما كان مجالا مناسبا للتقارب بين البلاد العربية وللتعاون بين حكوماتها على وجه عملي .

لقد كان لحوادث فلسطين مأثرة شديدة الاهمية في خلق شعور عربي سياسي موحد فكانت أهم عامل ايقظ معنى الوحدة العربية في النفوس التي استكانت على السياسة القطرية الانطوائية في أوطانها المحلية ، وكشف عن مساوىء انقسام العرب وضعفهم ، وحض على ضرورة اتحادهم وتماسكهم تجاه قوى الغرب الطامعة .

. . .

الاتجاهات السياسية والنزعات القومية في العراق :

في بلدان الهلال الخصيب الاربعة : سورية وفلسطين وشرقي الاردن والعراق ، الاساس الفكري للحركة القومية العربية واحد ، والروح السائدة فيها هي الروح العربية العامة تغوص في أعماق الناس ، وتستمد جذوتها من نفس النبعة . ومنذ ان انشطرت جمعية العهد العربية الى شطرين سوري وعراقي ، أصبح هدف العهد العراقي : استقــلال العراق التام ضمن الوحدة العربية ، وداخل حدوده الطبيعية[2].

وفي أوائل عام ١٩١٩ انشئت جمعية حرس الاستقلال السرية ، وهدفت الى استقلال العراق ، على ان تفرغ قصارى جهدها لضم مملكة العراق الى لواء الوحدة

---

(١) تراجع الخطب والمقررات بالتفصيل في كراس المؤتمر البرلماني العالمي للبلاد العربيــة والاسلامية في القاهرة ، (٧ تشرين الاول ١٩٣٨) .

(٢) محمد المهدي البصير المصدر السابق ص ١٠٠ .

العربية [1] • ولكن لم يطل عمر حزب الحرس كثيرا لان السلطة حلته (١٩٢٠) بعد ان تفاقم نزاعه مع حزب العهد الذي كان يرى ان تطلب المعونة الفنية ـ يومئذ ـ من انكلترة فحسب ، بينما حزب الحرس ما كان يرى ضرورة لذلك ، بل كان يرجو المعونة من اية دولة كانت سواها • ولمانشبت الثورة العراقية كانت في الحقيقة تتمة للثورة العربية الكبرى ، تماما كما كانت الثورة السورية (١٩٢٥) • ومع ذلك فان معظم الاحزاب والجمعيات في عهد الانتداب والاستقلال ، كانت تستهدف توطيد دعائم الاستقلال التام للشعب العراقي [2] • وهذا لا يعني انصراف العراق عن الفكرة العربية واهدافها ، وانما هو بذلك الموقف ينسجم مع الموقف الذي وقفته سورية في وجوب التخلص من الانتداب أولا ، ومن ثم السير نحو التقارب والاتحاد مع الاقطار العربية الاخرى • والحق انه بعد عام ١٩٣٢ ، ونوال العراق استقلاله ، بدأت الحكومات العراقية المتتابعة تتخذ خطة تتمشى مع رغبة جماهير الشعب في اجراء تقارب وانشاء علاقات اخوية مع اقطار العالم العربي • وقد تجلت مسألة الوحدة العربية في برامج الوزارات المذكورة قبل نهاية الانتداب ، وان لم يكن للمسألة امتياز التقدم على غيرها من المسائل[3] • ولما كان العراق اسبق البلاد العربية الى الاستقلال ، لذلك غدا مرتعا للقوميين العرب ، وأصبح الملاذ الرسمي للفكرة العربية • وتصور القوميون العرب انه سيلعب نفس دور « بيهمونت » أو « بروسية » في خلق الوحدة والاتحاد العربي • ونظر هذا الفريق الى بريطانية فوجدها تكيد للبلاد ، ولا تعمل شيئا يدعم التعاون الذي نصت عليه المعاهدة العراقية الانكليزية (١٩٣٠) ورأوا ان النظام القائم في العراق ما هو الا بناء اصطناعي خلقته بريطانية ليلائم مصالحها وأغراضها الامبراطورية ، وهو لذلك لا يستحق الحياة والبقاء • والجدير بالحياة والبقاء هو نظام قومي عربي يشكل فيه العراق جزءا من الدولة

---

(١) محمد المهدي البصير المصدر السابق ص ١٣٨ •

(٢) انظر مناهج جمعية النهضة العراقية والحزب الحر العراقي ، وحزب الامة ، وحزب الاستقلال العراقي وحزب الشعب وحزب العهد العراقي ، وحزب الاخاء الوطني .. في كتاب تاريخ العراق السياسي للحسني ، ج ٣ : ص ٢٤٣ وما يليها •

(٣) Longrigg. « Iraq 1900 to 1950 », p. 228

العربيه الموحدة . ان منح بريطانية الاستقلال للعراق ما كان ليرضي نزعة القوميين ؛ لان معظمهم كان يتطلع الى تحرير الاقطار العربية واندماجها في وحدة قومية شاملة ، وذلك بسبب ارتفاع مد الحركة العربية في العراق ، ونفوذها الى اذهان الجيل الجديد فيه . وقد عمل على نشر الفكرة العربية نوادي ومنظمات وطنية كنادي المثنى (تأسس في بغداد ١٩٣٥)[١] ومنظمة الجوال ، ومنظمة الفتوة[٢] .. وهكذا كانت النوادي والمنظمات تؤلف القاعدة الشعبية الراسخة التي تشع من حولها الافكار القومية وتصهر ماعداها في بوتقتها العربية . وبعض هذه المنظمات ذو مظهر فاشي أو نازي عسكري ، يمكن النظر اليها على انها تمثل ضربا من ضروب المناوءة للانكليز، وخطوة في تهيئةالجيل الجديد ليومالفصل الذي تدعى الامةبكاملهافيهلتحقيق هدف العروبة ، « تلبية لدعوة التاريخ والاسلام والكبرياء القومية والعداء المكنون » نحو النفوذ الغربي . وقد انسجمت أعمال الحكومة العراقية مع هذا الاتجاه الى حد كبير فالعلم الوطني منذ البدء كان عربيا ، وكذا برامج التعليم ، واناشيد الطلبة ، ونظم الادارة . كما وجدت هذه الفكرة العربية لدى طبقات الشعب وطوائفه مجالا رحيبا ، فهي توافق الشيعة والسنة على السواء وتبدد كثيرا من الازورار والجفاء الواقع بينهم ، اذ يعتقدون الا قليلا منهم ، بان تحقيق الوحدة العربية هو الضمان الوحيد لصيانة الاستقلال .

وقد أراد فيصل ان يجعل من بغداد مركز العروبة الحديثة ، فأقام مع رجاله حكومة العراق العربية ، لا حكومة العراق فحسب ، والفرق بينهما هام . وموت فيصل لم يوقف سير هذه الحركة العربية الدافقة ، فقد انتقلت الى اذهان رجال السياسة العراقية بدافع من الشعور القومي والمصلحة الاقتصادية والعاطفة الدينية .

ولكن من الواجب ان نذكر أيضا اتجاه الفريق « المعتدل » من ساسة العراق ؛

---

(١) شرح الدكتور سامي شوكت احد اعضاء هذا النادي افكار حركة العروبة في كتاب عنوانه « هذه اهدافنا من آمن بها فهو منا » (بغداد ١٩٣٩) ، ودعا فيه الى القوة لبذلها في سبيل تحقيق الوحدة العربية . وقد دعمت الحكومة تعاليمه هذه فاقرت نظام الفتوة وتمرين الشبيبة في المدارس على السلاح .

(٢) انظر نظام الفتوة في الجريدة الرسمية العراقية عدد ١٢٩٩ (١٥ مايو ٩٤٩) او في Oriente Moderno Vol. 20 (April 1940) pp. 157 - 176 .

فهم الى رغبتهم في تحقيق تعاون قريب مع بقية الاقطار العربية ، يدافعون عن سياسة خارجية مستقلة عراقية مستوحاة من ظروف العراق الخاصة الداخلية ، كوجود أقلية مهمة كردية ، ووجود ما يربط العراق بحليفته بريطانية من علاقات عهدية . فهم يرون في معاهدة التحالف (١٩٣٠) حجر الزاوية في الصداقة العراقية البريطانية ، تلك الصداقة التي لا تتضمن في نظرهم تناقضا لازما بين مصالح الطرفين ، بل انها تتضمن تأييد بريطانية للعراق ، حتى فيما يختص بمعونته لبقية الاقطار العربية الرازحة تحت الحكم الاجنبي . والحق ان فيصلا كان مضطرا للاعتماد على هذه « الصداقة » البريطانية العربية ، وكان يخشى ان يماشي الاتجاه « المتطرف » الاول ، لانه كان في نظره ، يعرض البلاد العراقية لخطر يحدق بها قبل ان يشتد عودها وتقوى للدفاع عن نفسها . ومع هذا فما كان فيصل يؤيد وجوب احتفاظ العراق باستقلاله وعزلته عن شقيقاته العربيات ، واتباع مبدأ الولاء المحلي الاقليمي الذي كان ينادي به بعض المستوزرين ، وذوي النفوذ والمصالح والزعماء ، حفاظا على مراكزهم وامتيازاتهم .

ويمكن الجزم بان فيصلا كان يرنو ببصره دائما الى اتحاد فيدرالي سوري عراقي[1] ، يجعل لبلاده واجهة بحرية تفتقر الى مثلها ، وتنمي مرافقها الاقتصادية وتبعث فيها الحياة . وقد فكر ان الاتحاد العربي العام لا يمكن ان يتم الا بتطور البلاد العربية تدريجيا نحو الاستقلال ، حتى اذا نالته ، فيومئذ يمكنها ان تنضم الى الاتحاد الفدرالي المذكور[2] . وما كان انصراف فيصل لادارة شؤون العراق لينسيه اخوانه

---

(١) في عام ١٩٣١ ذاعت فكرة اتحاد العراق وسورية ، وكتبت الاهرام (٣ ديسمبر ١٩٣١) ان فيصلا سيعلن ملكا على سورية ، اما بعد اجراء الانتخابات ودخول سورية العصبة ، أو بعد تعديل الدستور السوري .

(٢) ذكر جلال الاورفهلي في كتابه « الدبلوماسية العراقية والاتحاد العربي » (ص ٢١٧ — ٢١٨) . انه جرت مذكرات دبلوماسية عديدة في أوربة وبغداد ، بصدد ارتباط سورية بالعراق ، بعد ان تعقد فرنسة معاهدة مع سورية مماثلة لمعاهدة العراق مع بريطانية . وتحدث بعضهم عما اسموه بالعرش السوري وزشحوا له الملك علي ملك الحجاز السابق لسببين : أولهما ان قبول الملك علي للعرش السوري يعني تنازله عن عرشه في الحجاز لابن سعود ، وبهذا تحل مشكلة قومية بين الاسرة الهاشمية والسعودية . ثانيهما : بموافقته على العرش السوري ، تصل سورية للحرية والاستقلال . ولكن المشروع لاقى معارضة شعبية قوية في العراق وفي سورية .

العرب في سورية وفلسطين [1] . وعلى الرغم من انه لم يستطع ان يعمل شيئا سوى تأييد أماني الوطنيين هنالك بمذكرات كان يرسلها الى فرنسة وبريطانية ، فانه خطا بالعراق خطوات واسعة في علاقاته مع الدول العربية ، عندما بادر الى الاجتماع بالملك عبد العزيز آل سعود ، ليسبلا ستارا على مآسي الماضي ، وليحلا الوئام والصفاء بين بلديهما ، مما يمهد للتقارب العربي الذي لا يمكن ان يقوم الا برضى العاهل السعودي القوي . اجتمع العاهلان على ظهر دارعة بريطانية في مياه الخليج العربي ، ودخلا في مفاوضات توصلا بعدها الى عقد معاهدة صداقة وحسن جوار (١٩٣١) بين العراق والمملكة السعودية ، اشتملت على اعتراف كل من الطرفين بالآخر ، وقبول تبادل التمثيل الخارجي، والتعهد بمنع الغزو والاعتداء بين العشائر التابعة الى بلديهما ، وتنظيم مسائل الحدود بينهما ليحترم كل أرض صاحبه . والفضل في ابرام المعاهدة ترجع الى كياسة ابن سعود السياسية ، والى الوطنية الواعية للملك فيصل الذي مدّ يده الى ابن سعود قائلا : « كلنا في خدمة الامة العربية[2] » . وفي عام ١٩٣١ أرسل فيصل وفدا عراقيا برئاسة نوري السعيد الى المملكة السعودية، والى المملكة اليمنية ، والى الامارة الهاشمية في شرقي الاردن ، توثيقا للرابطة القومية وتعزيزا للصداقة والاخوة العربية . وقد لاقى الوفد في هذه الاقطار ترحيبا وتأييدا ، وأفصح كل من الرؤساء الثلاثة عن عواطفهم الودية ، وأثنوا على جهود الملك فيصل في سبيل الوصول الى تفاهم واتفاق على أسس الوحدة المقبلة للامة العربية[3] .

---

(١) ليس فيصل للعراق وحده ، بل هو للعراق والشام وفلسطين ؛ فهنالك اهله وهنا عشيرته وهناك قومه ، ومن احق من فيصل بأن يتمثل قول الشاعر الحمداني :
(جريدة القبس الدمشقية عدد ١ حزيران ١٩٣٣)

بالشام اهلي وبغداد الهوى وانا   بالرقمتين وبالفسطاط اخواني

(٢) ساطع الحصري « العروبة اولا » ص ٤٥ .

(٣) الاورفه لي ، المصدر السابق ، ص ٢٥٣ ــ ٢٥٥ .
يصور لنا الامير شكيب ارسلان المساعي التي قام بها الملك فيصل لتحقيق الاتحاد والتقارب العربي ، وما بذل من مساعي لازالة الجفاء بينه وبين ابن سعود ، ولابرام تحالف معه . يقول الامير .. فبقينا (الملك فيصل واحسان الجابري وشكيب ارسلان
←

ومهما يكن فانه ليس لدى الباحث ما يحمله على الشك في صدق وطنية فيصل ، وفي اندفاعه لتحقيق الاماني القومية • وموت فيصل لم يوقف تيار هذا الاتجاه العربي في العراق،لان الملك غازي الذي كان محاطا باعوان والده ، تابع هذا الاتجاه ، واقترب من أهداف الفكرة العربية ، وقطع في سبيلها مراحل أبعد مما كان متصورا غداة وفاة

وبعض حاشية الملك فيصل) ثلاثة أيام نتكلم عن القضية العربية ، ونتصفح وجوهها ، وماذا يجب ان نتذرع به لاجل جعلها حقيقة ثابتة في الداخل والخارج ، فأجمعنا على ان الشرط الاول لذلك هو زوال المنافسة بين البيت الهاشمي الحجازي ، والبيت السعودي النجدي وانه من بعد تمهيد هذه العقبة ، لا يمنع العرب مانع من ان يسيروا سيرا حثيثا في طريق الوحدة ، وما تفارقنا حتى كتبت الى الملك ابن السعود اروي له جميع ما تقرر بيننا وبين الملك فيصل ، وذكرت له انه يكون في مصلحة آل سعود ومصلحة العرب اجمعين تناسي تلك الضغينة التي بين البيتين ، واحلال الاخاء محلها ، وقد صادف كتابي هذا هوى في نفس جلالة عبد العزيز ، فاقتنع بلزوم التـآخي وهذه المحالفة ، ولا سيما انه لم يكن له ثأر عند الملك فيصل واخوته ، وانما كان هؤلاء هم الموتورين • ولكن الجرائد الوطنية في ذلك الوقت عندما رات الملك فيصل ارسل وزيره نوري السعيد الى مكة للاتفاق مع ابن السعود ، تسرعت في حكمها بان هذه الحركة انما هي دسيسة انكليزية مقصود بها القضاء على الاستقلال الباقي للعرب،وهو استقلال ابن سعود ، فلما قامت تلك الضجة حول مشروع التحالف بين ابن سعود وفيصل ، اثار ذلك شبهة في خاطر جلالة الملك عبد العزيز ، فاقتصر في محادثاته مع نوري السعيد على بعض المسائل المتعلقة بحسن الجوار بين المملكة العربية السعودية والمملكة العراقية ، ويرجع نوري باشا غير فائز بكل ما اراده الملك فيصل ، فكتب المرحوم الى كاتب هذه الاحرف يقول لي :

الم اقل لك ان مدارك هذه الامة السياسية لا تزال غير ناضجة ، وانهم قد يتلقون مشروعنا هذا على غير وجهه ، وتذهب فيه الظنون كل مذهب ؟ افلا ترى هذه الجلبة القائمة الآن من جراء دعوتنا جارنا ابن سعود الى الاتحاد معنا ؟ ..

ويشير الامير ارسلان بعد ذلك الى ما قيل عن صلـة انكلترة بموضوع مشروع التحالف بين فيصل وابن سعود ، فيقول : « وأوضحت ان هذا الامر الذي كنا بصدده لم يكن فيه شيء من دسائس انكلترة ولا كانت انكلترة من الدول اللائي ترغب فيه ، وانما هو مشروع قررناه مع الملك فيصل في (انطيب ــ فرنسة) ، وجعلناه مبدأ للوحدة العربية ، مباشرين العمل فيه على سبيل التجربة ، حتى اذا نجحت تقدمنا منه الى غيره » • ويقول الامير ان الذين كانوا مثبطين للمشروع كانوا يرون بان فيصلا لا يمكن ان يأتي بعمل الا اذا اشارت عليه به دولة انكلترة ، وبما ان انكلترة لا يمكن ان تشير

والده .. وكان على يقين من ان الانكليز اعداء الداء للفكرة العربية ، يضعون العراقيل في وجهها ، ويتظاهرون بتأييدها لاكتسابها الى جانبهم ، وربطها بعجلتهم . ويتعمدون وأد الوزارات العراقية ، كي لا تنجز أي مشروع وطني يعود بمنفعة على البلاد ، ويحولون دون وصول ضباط الجيش المعروفين بميولهم القومية العربية الى مركز القيادة ، ويفضلون ان يسيطر على زمام الجيش ضباط اقليميون ينادون بان العراق للعراقيين وينفرون من العاملين للوحدة العربية وخاصة من عرب سورية وفلسطين[1] ، المتوطنين في العراق ممن قدموا مع الملك فيصل عام ١٩٢١ . وقد تابع غازي خطة والده في تدعيم العلاقات بين العراق وبين الدول العربية المجاورة ، وبخاصة مع ابن سعود ، فقد أبرق له مهنئا بمناسبة توقيع معاهدة الطائف التي أنهت الخصومات بين المملكة السعودية والمملكة اليمنية (١٩٣٤) ؛ ورد ابن سعود عليه في برقية قال فيها « نشكر صاحب الجلالة .. ان هذه الصداقة وهذا الاخاء كانا وسيكونان دوما الهدف الذي سنسعى جهدنا لتحقيقه بين جميع العرب من أجل مصالح دينهم أولا ، ومن أجل رفاهيتهم المشتركة أخيرا ، وسيكون هذا الهدف هدفنا ، وآمل أن تقوم جلالتك مع سائر زعماء العرب بدعمي لتحقيقه [1]» ، وهذا الكلام واضح جدا . وخطت علاقات العراق الودية مع المملكة السعودية خطوة واسعة أيدت علاقاتهما السياسة بنصوص رسمية ، وذلك بعد ظهور نذر خصومة عالمية جديدة في

←

بعمل يكون فيه خير للعرب اذن فالمشروع الذي يقوم به الآن فيصل ليس فيه خير للعرب ! ! ويثبت ارسلان خطأ ذلك الاستنتاج بدليل جهاد فيصل السياسي اكثر من عشر سنوات حتى حصوله على الاعتراف باستقلال العراق . ثم يقول : « وعلى فرض ان انكلترة لها كلمة في الموضوع فانه غير خاف على احد ان الانكليز بدهائهم المعروف ليس من عادتهم ان يصادموا التيارات القومية التي يرونها جارفة كل ما يعترضها ، ويرون المسير معها انفع وايسر عليهم من مقاومتها بالقوة . وعلى كل حال ، فذلك المشروع العربي البحت ، وهو التحالف بين العراق من جهة والحجاز ونجد من جهة اخرى ، كان فكرة عربية خالصة ، تقرر العمل لاجلها بيننا وبين الملك الفقيد ، والسعي وراءها عند الملك ابن سعود ، لتكون براعة استهلال هذه الوحدة العربية » . الامير شكيب ارسلان « الوحدة العربية » ص (١٥ ــ ٢٠) .

(١) مذكرات الشهيد العقيد الركن صلاح الدين الصباغ ص ٦٦ .

(٢) Rabbath, op. cit. , p. 336

أوربة تتيجة غزو ايطالية للحبشة سنة ١٩٣٥ • فافتتحت في بغداد مداولات ومفاوضات طويلة بين مندوب ابن سعود الشيخ يوسف ياسين ، وبين وزير خارجية العراق نوري السعيد • وأسهم في هذه المباحثات رئيس الوزراء ياسين الهاشمي الذي كان حائزا على ثقة الملك السعودي • وتوصل الفريقان الى عقد معاهدة اخوة عربية وتحالف[١] (نيسان ١٩٣٦) ، بناء على « الروابط الاسلامية والوحدة القومية » • وعلى الرغم من ان هذه المعاهدة تؤلف حلفا دفاعيا بين البلدين موجه ضد الاعداء في خارج البلاد وداخلها ، فانها افسحت المجال لاية دولة عربية مستقلة اخرى ان تنضم الى هذا الحلف ، كما نصت على ان الفريقين يسعيان لطلب انضمام حكومة اليمن اليه • وأوفد الملك غازي بعثة الى اليمن حيث وقع الامام يحيى وثيقة الانضمام (نيسان ١٩٣٧) [٢] •

أما علاقات العراق بالامارة الاردنية فكانت ودية تبودلت خلالها زيارات بين الطرفين ، وان لم تخف الاوساط القومية في العراق سخطها على الامير عبـد الله بسبب ما ذكر عن صلاته بالصهيونيين • ومن مصر طلب العراق عددا من المدرسين والمهندسين ورحب بالمعاهدة المصرية البريطانية (١٩٣٦) واعتبرها خطوة في طريق التحرر النهائي •

وكان ثمة تخمر وهيجان في صفوف الجيش ، فان عددا من الضباط شجبوا التجزئة المفروضة على الوطن العربي ، وانتقدوا تقسيمه الى دويلات منفصلة موزعة القوى مشتتة الجهود ، ورأوا في انقسام العرب وانصرافهم الى معالجة مشاكلهم القطرية الاقليمية مرضا وبيلا لا حيلة للوقاية منه الا بتأسيس اتحاد عربي • كذلك اسهمت الصحافة في تنوير الرأي العام عن شؤون القومية ؛ فقد آزرت جريدة النهضة العراقية الهيئة الوطنية بمصر سنة ١٩٢٨ ، في ضجة الشعب المصري لوأد الدستور ، كما برزت في الدفاع عن عروبة فلسطين ، وعن عرب خوزستان • وحفلت جريدة حزب العهد بالمقالات القومية ، ونشرت تعاليم النهضة العربية بزعامة البيت الهاشمي ، وكان لها جولات في تأييد مشروع توحيد العرشين بين العراق وسورية •

---

(١) انظر نصها في الوثائق والمعاهدات ص ٣٥٦ — ٣٦٠ •

(٢) انظر نص قرار انضمام اليمن الى معاهدة التحالف العربي بين السعودية والعراق في « تاريخ الوزارات العراقية للحسني » ٤ : ٢٣٧ — ٢٤٠ •

ولما شاهد العراقيون مأساة فلسطين اندفع كثيرون منهم للتطوع والجهاد فيها • كما ان علاقات اخوية كانت تربط العراق بسورية ، وطالما انتقدت الصحافة العراقية فرنسة واشادت بعروبة سورية وبجدارتها بالاستقلال • وشجب غازي بشدة الاستعمار الفرنسي في سورية ، ومطالب الصهيونيين في فلسطين ، وطالب بكل صراحة، متحديا مركز بريطانية ومصالحها ، بان تنضم الكويت الى العراق(1) •

وقد كان للموقف النبيل الذي وقفه الملك غازي ورجال حكومته وبرلمانه من الاضطرابات التي حدثت في سورية ، بسبب موقف الفرنسيين المعادي لامانيها في السيادة القومية ، ما دفع طلبة الجامعة السورية بدمشق ان يدعوا الى بيعته ملكا على سورية والعراق متحدين(2) ، وما ابهج قلوب العاملين للقضية العربية العامة ، وما فجر عواطف الامتنان في نفوس السوريين • فكانت لوعتهم على وفاة الملك غازي لا تقل ابدا عن لوعة العراقيين ، يبدو ذلك جليا من تحليل النفثات الشعرية التي ارسلها شعراء الشام في تأبين الملك الراحل الشاب الذي كان يرعى القومية العربية ويعطف على ابنائها وينافح عن بلادها (3) •

---

(1) Longrigg, op. cit. , p. 265.

(2) انظر قصيدة مصرع الشمس لبدوي الجبل في تأبين غازي في كتاب الشيخ عبد الواحد الانصاري (ذكرى غازي الاول) ص ٧٢ ومنها :

ليس بين العراق والشام حد   هدم الله ما بنوا من حدود

وقصيدة مصرع الصقر لامجد طرابلسي (نشرت في مجلة الرسالة عدد ٣٠٧ ص ١٠٦٠) ومنها :

يا فقيدا بكى لمصرعه العر   ب بدمع ملء الجفون غزير
وحدة العرب كم سهرت تناجيـ   ـها مشوقا لفجرها المنظور
نم قريرا فوحدة العرب سارت   بسناها النجوم كل مسير

(3) في عام ١٩٣٨ تنقل نوري السعيد وزير الخارجية العراقية السابق بين بيروت والقاهرة ودمشق . وتباحث في مصر مع الزعيم السوري الدكتور شهبندر ومع عوني عبد الهادي الزعيم الفلسطيني . واشارت جريدة البلاد العراقية في عدد ١٤ كانون الثاني ١٩٣٨ ان السياسي العراقي كان يعتزم العمل على تكوين دولة عربية كبرى تضم العراق وفلسطين وشرق الاردن . وكانت الصحيفة البيروتية Orient قد نشرت في عدد ٣٠ تشرين الاول سنة ١٩٣١ ان الاتحاد الذي سيكون ملكه فيصلا سيشمل سورية والعراق وفلسطين وشرق الاردن ، مع اعتراف العراق باستقلال لبنان .

والخلاصة ان العراق بين عامي ١٩٣٠ ـــ ١٩٣٩ كان موئل الفكرة القوميـة العربية وأمل روادها • وبناء الدولة في هذه الفترة كان في معظمه بناء قوميا عربيا • ان النزعة الاتحادية العربية في العراق برزت في كل مجال تؤيدها جهود العراقيين ملكا وحكومة (١) وشعبا ، يحفزها شعور السخط على البريطانيين الذين أفسدوا أمر العرب ، وشتتوهم في أقطار مصطنعة منفصلة فرضوا نفوذهم عليها ، واستولوا على خيراتها وسلموا فلسطين للاستعمار الصهيوني ، وفي كل مكان من بلاد العرب ، كلمتهم نافذة ومحترمة تضمن لهم العظمة والنمو ، وللعرب الانحطاط والضعف والفرقـة •

وبعد ، هل ستكون ثورة العراق عام (١٩٤١) الا نتيجة منطقية للحقد الدفين الذي كان كامنا في نفوس العراقيين على فعال بريطانية منذ أمد طويل ؟ ! وصدى لما كان يتحدث به القوميون العرب من ان الدول الاوربية لن تنسحب من العـالم العربي الا بالقوة والعنف ؟ !

سبق ان ألمحنا الى المذكرة الصريحة التي سطرها الملك فيصل عن الوضع العراقي العام ، ونحن فيما يلي سنختار منها ما يساعد على توضيح صعوبة الظروف المحلية التي عمل فيها العراق ورئيسه للفكرة العربية ، وكانت ذات اثر لا يستهان به على الاتجاهات العربية والنزعات القومية فيه • وجرى توزيع هذه المذكرة على بعض من يثق فيهم الملك ، ويطمئن الى آرائهم • جاء في المذكرة :

أولا ـــ « ان البلاد العراقية هي من جملة البلدان التي ينقصها أهم عنصر من عناصر الحياة الاجتماعية ذلك هو الوحدة الفكرية والملية والدينية ، فهي والحالة هذه مبعثرة القوى منقسمة على بعضها يحتاج ساستها ان يكونوا حكماء مدبرين ، وفي نفس الوقت أقوياء مادة ومعنى ، غير مجلوبين لحسيات او اغراض شخصية أو طائفية او متطرفة ، يداومون على سياسة العدل والموازنة والقوة معا ، على جانب كبير من الاحترام لتقاليد الاهالي ، لا ينقادون الى تأثرات رجعية او افكار متطرفة تستوجب رد الفعل •

---

(١) جريدة البلاد العراقية (١٠ آذار ١٩٣٦) عن كتاب « ذكريات الحفار » (ص ٥٨ ـــ ٥٩) انظر مجلة الرابطة العربية مجلد (٦) جزء ١٤٤ ص ٤٧ •

ثانيا ـ في العراق أفكار ومنازع متباينة جدا وتنقسم الى اقسام : أولا الشبان المتجددون بما فيهم رجال الحكومة • ثانيا : المتعصبون • ثالثا : السنة ، رابعا : الشيعة ، خامسا : الاكراد ، سادسا : الاقليات غير المسلمة ، سابعا : العشائر ، ثامنا : الشيوخ ، تاسعا : السواد الاعظم المستعد لقبول فكرة سيئة بدون مناقشة أو محاكمة• ان شبان العراق القائمين بالحكومة وعلى رأسهم قسم عظيم من المسؤولين يقولون بوجوب عدم الالتفات الى افكار وآراء المتعصبين ، وارباب الافكار القديمة ، لانهم جبلوا على تفكير يرجع عهده الى عصور خلت ، ويقولون بوجوب سوق البلاد الى الامام بدون التفات الى أي رأي كان ، والوصول بالامة الى مستواها اللائق ، وبالاعراض عن القيل والقال طالما القانون والنظام والقوة بيد الحكومة ؛ فهي ترغم الجميع على اتباع ما تمليه عليهم • ان عدم المبالاة بالرأي بتاتا مهما كان حقيرا ، خطيئة لا تغتفر • ولو ان بيد الحكومة القوة القاهرة التي تمكنها من تسيير الشعب رغم ارادته لكنت واياهم •• والنقص البارز الذي ظهر في قواتنا العسكرية يضطرني أن أقول ان الحكومة أضعف من الشعب بكثير • ولو كانت البلاد خالية من السلاح لهان الامر ؛ ولكنه يوجد في المملكة مايزيد على مائة الف بندقية يقابلها خمس عشرة الف حكومية • ولا يوجد في بلد من بلاد الله حالة حكومة وشعب كهذه • هذا النقص يجعلني أتبصر وادقق وادعو انظار رجال الدولة ومديري دفة البلاد للتعقل وعدم المغـامرة •

ثالثا ـ العراق مملكة تحكمها حكومة عربية سنية مؤسسة على انقاض الحكم العثماني • وهذه الحكومة تحكم قسما كرديا أكثريته جاهلة ، بينه أشخاص ذوو مطامع شخصية يسوقونه للتخلي عنها ، بدعوى انها ليست من عنصرهم • وأكثرية شيعية جاهلة منتسبة عنصريا الى نفس الحكومة ، الا ان الاضطهادات التي كانت تلحقهم من جراء الحكم التركي الذي لم يمكنهم من الاشتراك في الحكم وعدم التمرن عليه ، والذي فتح خندقا عميقا بين الشعب العربي المنقسم الى هذين المذهبين ، كل ذلك جعل مع الاسف لهذه الاكثرية او الاشخاص الذين لهم مطامع خاصة ، الدينيون منهم وطلاب الوظائف بدون استحقاق والذين لم يستفيدوا ماديا من الحكم الجديد ، يظهرون بانهم لم يزالوا مضطهدين لكونهم شيعة ، ويشوقون هذه

الاكثرية للتخلي عن الحكم الذي يقولون بأنه سيىء بحت • ولا ينكر ما لهؤلاء من التأثير على الرأي البسيط الجاهل • أخذت بنظري هذه الكتل العظيمة من السكان بقطع النظر عن الاقليات الاخرى المسيحية التي يجب أن لا نهملها ، نظرا الى السياسة الدولية التي لم تزل تشجعها ، للمطالبة بحقوق غير هذه وتلك • وهنـاك كتل كبيرة غيرها من العشائر كردية وشيعية وسنية لا يريدون الا التخلي عن كل شكل حكومي بالنظر لمنافعهم ومطامع شيوخهم التي تتداعى بوجود الحكومة • تجاه هذه الكتل البشرية المختلفة ، والمطامع والمشارب المملوءة بالدسائس ، حكومة مشكلة من شبان مندفعين أكثرهم متهم بأنهم سنيون او غير متدينين أو أنهم عرب ، فهم مع ذلك يرغبون في التقدم ولا يريدون ان يعترفوا بما يتهمون به ولا بوجود تلك الفوارق وتلك المطامع بين الكتل التي يقودونها ؛ يعتقدون بأنهم أقوى من هذا المجموع والدسائس التي تحرك هذا المجموع ، غير مبالين بنظرات السخرية التي يلقيها عليهم جيرانهم الذين هم على علم بمبلغ قواهم • أخشى أن أتهم بالمبالغة ولكنه من واجبي ألا أدع شيئا يخامرني ، خاصة لعلمي بأنه سوف لا يقرأ هذا الا نفر قليل ممن يعلمون وجائبهم ومسؤولياتهم • ولا أرغب أن ابرر موقف الاكثرية الجاهلة من الشيعة وانقل ما سمعته الوف المرات ، وسمعه غيري من الذين يلقون في أذهان أولئك البسطاء من الاقوال التي تهيجهم وتثير ضغائنهم ، ان الضرائب على الشيعي ، والموت على الشيعي ، والمناصب للسني ، ما الذي هو للشيعي ، حتى أيامه الدينية لا اعتبار لها ، ويضربون الامثلة على ذلك مما لا لزوم لذكرها •

أقول على سبيل المثـال ذلك للاختلافـات الكبرى بين الطوائف التي يثيرها المفسدون • وهناك حسيات مشتركة بين أفراد الطوائف الاسلامية ينقمون بمجموعهم على من لا يحترمها • وهناك دسائس آثورية وكلدانية ويزيدية ، والتعصب للتفرقة بين هؤلاء الجهلاء توهن قوى الحكومة تجاه البسطاء • كما ان العقول البدوية والنفوذ العشائري الذي للشيوخ ، وخوفهم من زواله بالنسبة لتوسع نفوذ الحكومة، كل هذه الاختلافات وكل هذه المطامع تشتبك في هذا الصعيد وتصطدم وتعكر صفو البلاد وسكونها ؛ فاذا لم تعالج هذه العوامل بأجمعها وذلك بقوة مادية حكيمة ردحا من الزمن ، حتى تستقر البلاد وتزول هذه الفوارق الوطنية الصادقة ، وتحل

محل التعصب المذهبي والديني هذه الوطنية التي سوف لا تكون الا بجهود متمادية وبسوق مستمر من جانب الحكومة ، بنزاهة كاملة ، فالموقف خطر • وفي هذا الصدد أقول وقلبي ملآن أسى انه في اعتقادي لا يوجد في العراق شعب عراقي بعد ، بل توجد تكتلات بشرية خالية من أي فكرة وطنية متشبعة بتقاليد واباطيل دينية لا تجمع بينهم جامعة ، سماعون للسوء ، ميالون للفوضى ، مستعدون دائما للانتقاض على أي حكومة كانت،ونحن نريد والحالة هذه ان نشكل من هذه الكتل شعبا نهذبه وندربه ونعلمه • ومن يعلم صعوبة تشكيل وتكوين شعب في مثل هذه الظروف يجب ان يعلم أيضا الجهود التي يجب صرفها لاتمام هذا التكوين وهذا التشكيل » •

وتتابع المذكرة شرحها للخطة التي وضعها الملك لمعالجة هذه الحالة وانجاحها ، وأهمها : تدعيم قوة الجيش ، واحترام التقاليد والشعائر الدينية لكافة الطوائف الاسلامية ، ووجوب تطمين سكان العراق بانهم سيشتركون فعلا في خدمات الدولة مع أهل بغداد والموصل بصورة متساوية ، وبذلك تزول تهمة « الحكومة السنية أو العربية » كما يقول اصحاب الاغراض من أكراد وشيعة • وان لا يترك المجال للاحزاب المصطنعة والصحف والاشخاص ليقوموا بانتقادات غير معقولة وتشويه الحقائق وتضليل الشعب • وتختم المذكرة بقولها : « وانه لمن المخزي والمضحك المبكي معا ان نقوم بتشييد أبنية ضخمة بمصاريف باهظة ، وطرق معبدة بملايين الروبيات ، ولا ننسى الاختلاسات ، وتصرف اموال هذه الامة المسكينة التي لم تشاهد معملا يصنع لهاشيئا من حاجياتها • واني أحب ان أرى معملا ينسج القطن بدلا من دار حكومة ، وأود أن أرى معملا للزجاج بدلا من قصر ملكي » •

شبــه الجزيرة العربيــة

التطورات السياسية والنزعات القومية

أ ــ اهم الاحداث السياسية في المملكة العربية السعودية حتى ١٩٣٩ :

منذ أن قام عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود بمغامرته المدهشة التي استولى بها على الرياض في مطلع عام ١٩٠٢ ، تمر الامارة الوهابية السعودية بمرحلتين : أولاهما المرحلة السابقة للحرب العالمية الاولى وما وقع خلالها من حوادث خطيرة • وثانيتهما المرحلة التي تنتهي بتغلب عبد العزيز على الحجاز وطرد الاشراف منهـــا •

أما العلاقات بين امارات الجزيرة العربية في ذلك العهد فيمكن اجمالها بما يلي : ماكان بين نجد وجبل شمر من عداوة• ماكان من رغبة شيخ الكويت مبارك في توسيع نفوذه الى الداخل قليلا • ما نهض به الشريف حسين في الحجاز ليكون صاحب الامر في الجزيرة كلها • ويهمنا خاصة ان نعرض لعلاقات ابن سعود مع الشريف حسين التي كان نتيجتها خروج الحجاز من ايدي الهاشميين •

نصب الترك العثمانيون الشريف حسينا أميرا على مكة المكرمة عام ١٩٠٨ ، بعد أن أصاب فرع أسرته نفي واعتقال من جانبهم ، فاتجهت سياسته الى عرقلة امتداد الخط الحديدي الى مكة بعد ان وصل الى المدينة المنورة ، كما استخدمته الدولة في قتال الادريسي صاحب عسير ليستنى لها اخماد حركة الامام يحيى في اليمن • وانتصر

الحسين في حرب الادريسي وعاد الى الحجاز ، ثم تحرك عام ١٩٠٩ (١٣٢٨ هـ) شرقا نحو اراضي كان يتنازع على ملكيتها مع امارة نجد ، وتمكن من القبض على أخ لعبد العزيز هو الامير سعد ودعى ابن سعود لافتدائه بثمن هو قبوله الاعتراف بالسيادة العثمانية ودفع جزية اسمية عن ادارته منطقة القصيم الواقعة بين شمر والحجاز • واضطر ابن سعود ان يوقع صك الفداء ، ولكن لم ينفذ منه شيئا •

ولم يلبث ابن سعود ان غزا قبائل المنتفق وظهر قرب البصرة والزبير • وأيا كان الحافز الذي دفعه الى هذه المظاهرة في نفس الوقت الذي كان يغلي مرجل الغضب في نفوس الترك ، من جراء انتشار الحركة القومية العربية في سورية والعراق بعد ثورة سنة ١٩٠٨ ، فقد وافق على الانسحاب اثر مقابلته لمبعوث والي البصرة ، ولوفد يمثل أهالي الزبير • وعندئذ بدت للترك ضرورة استمالة ابن سعود المتزايد النفوذ الى جانبهم ، لعله يعدل كفة الحركة القومية العربية المتاخمة لحدوده ، فعهدوا الى والي البصرة سليمان شفيق باشا كي يتصل بابن سعود ليتعرف على آرائه بخصوص مستقبل العلاقات بين الترك والعرب في الدولة العثمانية ، وأغلب الظن ان الوالي قصد بالعرب عرب الجزيرة الذين ليس للدولة سلطان كبير عليهم •

كانت اجابة ابن سعود واضحة وصريحة عندما قال : « أكتفى الترك بكونهم حكاما دون ان يحققوا شيئا من مسؤولية الحاكم لمصلحة ورفاه رعيته »(١) • والمسؤولية عن سوء العلاقات بين العرب والدولة العثمانية تقع على عاتق الدولة ؛ لانها لم تسع حتى الآن الى وضع العلاقة بينها وبينهم على اساس الاختيار والحرية • ولذا اقترح على الحكومة العثمانية ان تدعو الى مؤتمر يحضره رؤساء العرب كلهم ، كبيرهم وصغيرهم ويعقد في بلد لا سيادة فيه ولا نفوذ للحكومة العثمانية ، لتكون لهم حرية المذاكرة ، والغرض من المؤتمر احلال التفاهم وايجاد الصداقة بين العرب والحكومة » • وفي رأي ابن سعود هنالك حلان لمستقبل العلاقات بين الترك والعرب :

١ ـــ ان توضع البلاد العربية تحت رئاسة حاكم منتخب من تلك البلاد •

٢ ـــ ان تستمر هذه الوحدات السياسية القائمة تحت حكامها منفصلة ومستقلة

---

(1) Philby : « Saudi Arabia », pp. 259 - 60

اداريا ، وان تحدد الحدود بوضوح بين تلك الوحدات العربية المنفصلة بواسطة الدولة ، وفي كلتا الحالتين ، السيادة والاشراف على الاراضي العربية سيبقيان في عهدة الدولة العثمانية التي تكون مسؤولة عن تنظيم شؤون الدفاع ، وعن توجيه السياسة الخارجية ، ويساهم العرب في جميع التكاليف . وعلى اساس هذا الحل ، يمكن لمنافع الطرفين ان تتفق ضد أي معتد خارجي ، وبذلك يحل الوئام والصداقة بين العرب والترك محل الخصام والشقاق . يقول الريحاني ان والي البصرة استحسن هذا الرأي ، فارسل به الى الآستانة . ولكن أولي الامر هناك استنكروه وسفهوه قائلين : يريد ابن سعود ان يجمع كلمة العرب بواسطتنا ولخير نفسه[1] . وارتأى الباب العالي ان يقلم أظافر المغامر العربي النجدي في فرصة هدوء قادمة . أدرك ابن سعود ان أذن الترك صماء عن سماع مثل هذه الدعوة الاصلاحية ، فاتجه نحو السلطات البريطانية في الخليج العربي لعلها تعضده ضد كيد المعتدين .

أما بريطانية فكانت آمنة على مصالحها تسير وفق مراميها في الخليج ، وهي لا تود ان تزج بنفسها في مشاكل الصحراء ، حتى اذا فاتحها الامير برغبته في التعاقد معها على معاهدة حماية كتلك التي نالها أمير الكويت ، رفضت ، لانها لم تكن متأكدة ان صيانة مصالحها تقتضي منها التوغل في بر الجزيرة العربية . حسبها ان عينها الساهرة لا تغفل عن سواحل الخليج ، وان اهتمامها منصرف ايضا الى اليمن والحجاز ، لوقوعهما على البحر الاحمر في الطريق الى قناة السويس والبحر الابيض المتوسط من ناحية ، ولضمان اداء فريضة الحج للملايين من رعاياها من ناحية أخرى . وأمر آخر يمنع بريطانية من التعاقد مع ابن سعود هو انها لا تريد ان تخيف الدولة العثمانية بتوثيق علاقات بريطانية جديدة مع امارات اخرى خلاف امارات الخليج . والحكومة البريطانية تعلم جيدا ان الدولة العثمانية على الرغم من ضعفها وتفككها ، ما زالت تحسب لها السياسة الاوربية كل حساب ، ولا سبيل الى المفاضلة بينها وبين هذا الامير الوهابي المغامر .

---

(1) امين الريحاني : « تاريخ نجد الحديث وملحقاته » ص ١٨٢ — ١٨٣ (الطبعة الاولى ، صادر بيروت ١٩٢٨) .

أما ابن سعود فيتلخص موقفه عام ١٩١٠ فيما يلي : الاعداء من شمر والعراق والحجاز يحيطون بامارته ، والترك يرابطون في اقليم الحسا فيحرمون امارته من الاتصال بساحل الخليج الذي تعتمد عليه نجد في حياتها وتجارتها • والانكليز يرابطون على طول الساحل من الكويت حتى مسقط • ويبقى ابن سعود منبوذا في الصحراء نهبا لهجوم اعداء له يظاهرهم الترك عليه • ليس هذا فحسب ، بل هنالك مصدر آخر من مصادر تقلقل مركزه هو ان معظم اعتماده في القتال كان على العنصر البدوي ، والبدو بحكم عادتهم يهبون خفافا ويتحمسون ، غير انهم سرعان ما يسأمون ويتشتتون والحرب دائرة •

وهنا تتضح سياسة ابن سعود الحكيمة في معالجة خطر تكوين هذا المجتمع الصحراوي الذي كان قادرا على عمل عظيم ، لو وجد على رأسه شخصية قوية تحفزه بدافع عظيم أيضا • وفي نظره لا تستطيع رابطة ما ان تؤدي الى تماسك العناصر المختلفة المشغولة بالولاء الضيق المحدود ، دون الوطنية الواسعة والروح العامة ، الا ان تكون رابطة الدين والدعوة الوهابية • ولهذا عمل ابن سعود على بعث وهابي آخر ، وارسل الوفود والمبشرين الى القبائل •• وكانت الاخوة الجديدة ، وكان الاخوان الوهابيون ، واصبح الولاء للدعوة فوق الولاء للقبيلة وللعشيرة • وانتظم هؤلاء الاخوان في مستعمرات[1] أو هجر تقوم كل منها حول بئر ومسجد • وعلى هذا الاساس الاجتماعي نشأت القرى ليزرع البدو وتستقر القبائل تدريجيا ، ويصبح لها وطن تذود عنه ، وعندئذ يمكن الاطمئنان اليهم اذ يدعوهم للحرب في سبيل اعلاء كلمة الله • وقد كان للاخوان فضل على نجاح ابن سعود ، وان كانوا احيانا مصدر متاعب له عندما تصطدم الاتفاقات الدولية التي يبرمها مع معتقداتهم •

وفي نهـاية عام ١٩١٢ كان ابن سعود سيد نجد يرنو ببصره نحو الاحساء ويتهيأ لاقتحامها • وفي الواقع استولى على الهفوف ، وابحرت الحامية التركية عائدة الى بلادها • ولما كانت الدولة العثمانية مشغولة في ولاياتها العربية وفي البلقان ، فقد بدا لها ان تفاوض ابن سعود ليكتفي بادارة الاحساء تحت سيادتها • وتمت المفاوضة

---

(١) تسمى هذه المستعمرات او القرى بالهجر ، وكانت أول هجرة بنيت هي هجرة الارطاوية عام ١٩١٢ .

بواسطة السيد طالب النقيب في البصرة ، ولكن في الوقت نفسه كانت الدولة تحرض عليه اعداءه وتمدهم بالسلاح والمال لمحاربته . ولم يخف على ابن سعود دقة مركزه ، فبادر لقبول الاعتراف بنفوذ السلطان العثماني . تعهد بذلك شفويا للسيد طالب النقيب [1] مقابل ان تمده تركية بالمال والسلاح الكافيين لتوطيد الامن في هذه المنطقة الساحلية ، التي كانت بمحاصيلها الزراعية ومواردها الجمركية أغلى جوهرة في تاج امارته . ولكن شيئا من هذا لم يتحقق ، لان الحرب العالمية الاولى نشبت بين تركية وبريطانية في كانون اول سنة ١٩١٤ ، وزالت آمال الترك باستعادة الاحساء . وقبل نشوب الحرب بدأت بريطانية تحس بوجود ابن سعود ، فارسلت له وكيلها السياسي في الكويت الكابتين (شكسبير) فمر على الرياض للتعرف به ، وكانت لدى شكسبير معلومات ذات أهمية خطيرة عن تطورات سياسية لم يفض بها الى ابن سعود لانها تهمه بالذات ، وما علم بحقيقتها الا عام ١٩٣٠ ؛ ذلك ان بريطانية كانت آنئذ تفاوض الدولة العثمانية لتنظيم علاقاتها معها فيما يخص الجزيرة العربية . تناولت المباحثات مسألة تخطيط الحدود في منطقة الخليج العربي ، وافترضت ان الاحساء لا تزال تابعة الى تركية . والاعجب من ذلك انه بينما كانت المفاوضات بين الطرفين تتقدم ، كان (شكسبير) يبادل ابن سعود مشاعر الصداقة والمودة في الرياض . ولم يكد (شكسبير) يصل الى السويس ، حتى كانت بريطانية والدولة العثمانية قد وقعتا معاهدة آذار ١٩١٤ ، وصودق عليها في أوائل تموز ، وتقضي بأن يقتسم الطرفان اراضي الجزيرة العربية . وذلك برسم خط مستقيم بين شبه جزيرة قطر ويخترق الصحراء ليصل الى عدن ، فشمال هذا الخط يكون من نصيب تركية ، ويحتوي ليس فقط على الاحساء ، وانما يضم نجدا نفسها . وجنوب هذا الخط يكون من نصيب بريطانية . ولكن نشوب الحرب قلب هذه الاوضاع التعاقدية ، وغدا مقصد بريطانية ان تؤلب اعداء الدولة العثمانية عليها ما استطاعت الى ذلك سبيلا . فأرسلت شكسبير الى ابن سعود ليرعى مصالحها في الرياض ، غير أنه قتل في معركة (جراب) التي دارت رحاها بين شمر ونجد بينما كان يوجه نار المدفع

(١) الريحاني : نفس المصدر السابق ص ١٩٣ .

الوحيد لدى الوهابيين نحو اعدائهم آل الرشيد [1] . واخذ الانكليز يبحثون عن حلفاء بين أمراء الجزيرة العربية . أما الامام يحيى فقد اعلن حياده ، واما الادريسي فدخل مع الانكليز في حلف عام ١٩١٥ . أما ابن الرشيد فقد انضم الى الترك ، خير معين ضد عدوه ابن سعود .

وتباينت آراء الساسة الانكليز فيمن ينصبونه زعيما يقود العرب ضد الترك ، فكانت حكومة سملا في الهند ترى ترشيح ابن سعود القوي للرئاسة ، بينما كان لورانس ورجال المكتب العربي البريطاني القاهرة يرون ضالتهم في شخص حسين . وقد نجحوا ، ولا يصعب علينا ان نفهم دوافع اهتمام بريطانية بالحجاز واسباب ايثارها الشريف حسين ، فالحجاز قبلة العالم الاسلامي ، والابقاء على الصلات الطيبة مع الشريف حسين أمر ضروري لاجل تيسير فريضة الحج لرعاياها المسلمين ، فضلا عن ان البحر الاحمر يؤلف واجهة الحجاز العربية كما رأينا ، وفيه قواعد بحرية يصح ان تمس الطرق العالمية للمواصلات . على عكس نجد فهي فيما عدا اقليم الاحساء معزولة عن البحر ، ويمكن لبريطانية ان تستغني عن معونة الامارة التي تملك الاحساء بمعونة حليفاتها على الخليج العربي . هذا الى ان مقام الاشراف في العالم الاسلامي والعربي ملحوظ وكريم ، بينما سمعة الوهابيين مدموغة بالقسوة والعنف . واحس ابن سعود ان انكلترة تريد منه ان يقوم بنشاط محلي عربي صرف ، يستهدف مناوشة ابن الرشيد صديق العثمانيين . كما تود منه ان لا يضايق محمياتها الواقعة على الخليج ، دور محلي لا يؤثر الا من بعيد في مجرى الحوادث الخارجية العالمية . أما سياسة انكلترة مع الشريف فكانت تتجه الى ان يترأس حركة لا تقتصر على الحجاز فقط ، وانما تشمل العالم العربي الآسيوي العثماني لمناوءة الدولـــة

---

(١) أجلت وفاة شكسبير لبضعة اشهر الاتفاق الذي اعترفت بريطانية به في معاهدة القطيف (دارين) نهاية عام ١٩١٥ بان « النجد والحسا والقطيف والجبيل وما يليها وحدودها ، هي من ممالك ابن سعود وممالك اجداده السابقين » ، والتي تعهد فيها ابن سعود بالا يدخل في مكاتبات او اتفاقات مع اية دولة اخرى ، وعلى أن يتبع مشورة بريطانية بشرط ان لا تكون ضارة بمصالحه الخاصة ، كما يتعهد بان يتجنب التعدي والمداخلة في شؤون الكويت والبحرين وقطر وعمان الساحل الذين هم تحت حمايه بريطانية . وستبقى معاهدة القطيف سارية حتى تحل محلها معاهدة جدة

العثمانية ، ولقطع امداداتها العسكرية عن الجزيرة بنسف السكة الحديدية الحجازية • وفي عام ١٩١٥ عقدت بريطانية معاهدة القطيف مع ابن سعود وكانت من نوع المعاهدات التي عقدتها بريطانية مع امثاله من امراء العرب : تحميه من الاعتداء الخارجي وتضمن له اراضيه وامارته داخل حدود ترسم بعد انقضاء الحرب ، مقابل تعهده بان لا يهاجم شياخات الخليج ، ولا ينزل عن اراضيه كلها أو شطر منها ، الى دولة أجنبية ، وان يترك شؤونه الخارجية لبريطانية التي اعطته بعض السلاح والمال[1] •

وقع المعاهدة وكيل بريطانية السياسي في الخليج « برسي كوكس » • وكان كوكس متكتما في مسألة الاشاعات التي راجت عن مفاوضة انكلترة للشريف حسين ، وكم كان ابن سعود تواقا لمعرفة حقيقتها ، والتي كان مؤداها اندلاع الثورة العربية • ومهما يكن من أمر معاهدة القطيف فا نبريطانية اعترفت بسيادة ابن سعود على النجد والحسا والقطيف والجبيل وجميع المدن والمرافىء التابعة لهذه المقاطعات ، وما كان لابن سعود الخيار في توقيع المعاهدة ، لان موقفه كان دقيقا لا يحسد عليه • وترجب عليه ان يختار جانب احدى الطائفتين المحتربتين ، فاختار جانب انكلترة بعد ان انعم النظر فيمن حوله من الامارات المعادية له ، وأدرك أنه يقف في العاصفة السياسية وحيدا مما يغري به اعداؤه ، وقد ينعقد اجماعهم على ضربه اذا واتتهم الفرصة •

ولما بدأت الثورة العربية (حزيران ١٩١٦) ، تخوف ابن سعود من المستقبل ، وكان يعلم حق العلم أن طموح حسين لا يقف عند حد ، حتى تظلل رايته اقطار الجزيرة واماراتها جميعا • وتذرع ابن سعود بالصبر والاناة لعل الايام القابلة تكشف له عن قوة الحركة العربية وعن مدى مساعدة بريطانية لها ، لا سيما وان مركزه ما زال مقلقلا ، اذ لم يكن على وفاق مع جيرانه ، وخاصة مع سالم امير الكويت • وعندما احس بتحرج موقفه ازاء من يتربص به في الكويت والحجاز وشمر ، طلب مقابلة سير برسي كوكس على عجل ، بحجة البحث في الطرق الناجعة للقضاء على ابن الرشيد• والواقع ان ابن سعود كان قلقا ومشوقا لمعرفة موقف بريطانية وتدابيرها ازاء الشريف حسين الذي كان قد أعلن نفسه « ملكا على العرب » في تشرين الاول سنة ١٩١٦ ،

---

(١) انظر حاشية الصفحة السابقة .

وتقبل البيعة في ٢ تشرين الثاني • وأكد كوكس لابن سعود في اجتماع العقير ان استقلاله غير مهدد ، ودعاه لزيارة البصرة[١] ، وخرج ابن سعود من الاجتماع بتعويض شهري قدره ٥٠٠٠ جنيه ، كما حصل على كمية من السلاح مقابل الاستمرار في مكافحة آل الرشيد ، وقطع دابر التهريب الذي نشط بين الخليج من جهة وبين حائل ودمشق من جهة أخرى[٢] • وفي خريف ١٩١٧ وبناء على اقتراح المندوب السامي في مصر سير « ريدجنالد ونغت » شكلت بعثة خبراء بريطانية في الشؤون العربية ، مهمتها القيام بمساع من شأنها احلال التفاهم والوفاق محل العنف والخلاف بين أصدقاء بريطانية من العرب ، عن طريق الربط بين مساعي السلطات البريطانية في القاهرة المتصلة بالحسين ، وبين مساعي السلطات البريطانية في العراق المتصلة بمشاكل الخليج وامرائه • ذلك ان الحركة العربية اصابها شيء من الفتور • مرت البعثة بالرياض ثم وصلت جدة ، ولكن محادثاتها مع الحسين فشلت ، لانه يرفض ان يعترف بأي وزن او حق لابن سعود ، لا سيما بدعوى ملكية واحة الخُرْمة التي استنجد أهلها بابن سعود عندما غزتها قوات تابعة للحسين• والحق انه منذ عام ١٩١٨ بدأت العلاقات بينهما تزداد توترا حتى كان الاصطدام بينها امرا وشيكا ومحتوما ، وعلى الاخص عندما خرج الترك من الحرب ، وتركوا حلفاءهم آل الرشيد امام ابن سعود ومطامحه ، في حين كان الحلفاء من بريطانيين وفرنسيين مشغولين بالمسائل الدوليه الكبرى في مؤتمر الصلح ، لا يلتفتون الى ما يجري داخل الجزيرة العربية • .

وقع أول اصطدام خطير في أيار ١٩١٩ قرب « تُرَبة » الواقعة على حدود الحجاز الشرقية ، حيث اجهزت القوات الوهابية على جيش كان يقوده الامير عبد الله بن الحسين وكادت أن تفنيه • وكان بوسع ابن سعود ان يدفع بقواته لاحتلال الحجاز بأكمله لولا ان تدخلت بريطانية ، وطلبت منه أن يرد « الخرمة » وأنذرته من مغبة

---

(١) وصف السير ارنولد ويلسون الانطباع الذي خلفه ابن سعود في زيارته للبصرة فقال : هاهنا رجل غير حديث عهد بالملك لا يعتمد على اسلحة البريطانيين في سلامته ولا على الذهب البريطاني في مركزه .

Sir Arnold Wilson, « Loyalties Mesopotamia, 1914 - 17 » p. 160 (1930)

(٢) Philby, op. cit. , p. 247.

افساد وساطتها بين الطرفين • ولكنه تجاهل الانذار ، سار الى « تربة » ، وضمها الى أملاكه ، ثم عاد الى الرياض • ساد الذعر في الحجاز وقيل بأن الاستيلاء على الخرمة هو مقدمة لغزوة اكبر تستهدف الحجاز • والواقع ان ابن سعود لم يخف امتعاضه من مداراة انكلترة للحسين ، ومن تخصيصه بالمعونة والمال • لا سيما بعد تأييد لورد كيرزون للملك حسين ، واعتباره واحة الخرمة من مملكة الحجاز ، وتصريحه بان « سياستنا هي سياسة الملك حسين[1] » •

وتطلع ابن سعود الى ما يجري خارج الجزيرة وخاصة في العراق ، حيث اندلعت الثورة عام ١٩٢٠ ضد الانكليز ، فقدم سير برسي كوكس على جناح السرعة لتهدئة الاحوال ، واجتمع بابن سعود في العقير • وكان ما يهم ابن سعود في تلك الآونة ، هو تردد الشائعة عن تنصيب فيصل على عرش العراق ، بعد ان خسر عرشه في سورية على يد الفرنسيين • ولكن كوكس لم يفض بشيء ، حتى خرج عبد العزيز من مقابلات العقير وهو موقن بأنه غدا محاطا بأعدائه من جديد : الحسين في مكة ، ونجله فيصل في بغداد ، وآل الرشيد في حائل ، ومن يدري فربما تبسط بريطانية جناح حمايتها على ابن الرشيد الذي كان مبعوثه يقوم بمفاوضات سرية مع « غرترود بل » في بغداد ؟

عزم ابن سعود على ان يحل مشاكله بنفسه ، ويادر لتصفية حسابه مع حائل ، واجتمع مشايخ الوهابيين واقروا تسمية عبد العزيز آل سعود سلطانا على نجد وملحقاتها ، وارسلوا الى بريطانية اعلاما بذلك • فوافقت ، وبذلك أصبح لنجد مركز دولي • ثم استولى الوهابيون على حائل في خريف ١٩٢١ ، والحق جبل شمر كله بنجد اتصلت حدود نجد بحدود العراق • واندفع الاخوان في سنة ١٩٢٢ الى منطقة الجوف ووادي السرحان ، وأغاروا على شرقي الاردن ، وكان مؤتمر القاهرة سنة ١٩٢١ قد نصب عبد الله بن الحسين أميرا عليها ، غير ان سلاح الطيران البريطاني ردهم على أعقابهم ، وكذلك غزوا قبائل الرولة في الشمال • وفي نهاية عام ١٩٢٢ كان ابن سعود سيد الجزيرة من اطراف الهلال الخصيب حتى مشارف الربع الخالي ، يحيط به الهاشميون من الشمال والغرب •

---

(١) كنيث وليامز « الدولة السعودية » تعريب صموئيل مسيحة ص ٩٣ بيروت ١٩٣٤ •

وبدأ نجم الحسين بالافول ، لان بريطانية التي كانت القوة الحقيقية التي تدعمه في الجزيرة العربية ، نكثت بوعودها للعرب ، واختلفت معه بعد نهاية الحرب على « تأويل » ما جاء في عهودها ، واقتسمت بلدان الهلال الخصيب مع فرنسة • وفترت علاقات الحسين معها ، لا سيما بعد ان قطعت عنه المعونة المالية (٢٠ الف استرلينية شهريا) عام ١٩٢٠ ، فاورثته مصاعب شتى في تعبئة الجيوش التي رحل معظمها مع نجله فيصل الى الشام • وكان خلاف الحسين مع ابن سعود يضعف مركزه ، ولو كتب عليهما الوفاق بمبادرة الحسين الى فض الخلاف سلما مع جاره ابن سعود ، لكانت مقدرات بلاد الشام والعراق ، بله فلسطين افضل مما كتب لها •

أما مشاكل الحدود بين ابن سعود وجيرانه الهاشميين في العراق ، فقد سويت في معاهدة المحمّرة (أيار ١٩٢٢) ، وعدلت في بروتوكول العقير بضغط من البريطانيين الذين يرغبون في الحفاظ على خطوط مواصلاتهم عبر الهلال الخصيب (كانون الاول ١٩٢٢) ، كما سويت الحدود بين نجد والكويت • واهتم الانكليز بعودة الخلاف من جديد بين نجد والعراق ، نتيجة لتباطؤ العراق في تنفيذ احد شروط الاتفاق ، وهو ارجاع قبائل شمر التي لجأت الى العراق واخذت تغير على الحدود النجدية • واقترحت الحكومة الانكليزية عقد مؤتمر يبحث في المسائل التالية :

١ ـ الحدود ما بين نجد والاردن •

٢ ـ الحدود ما بين نجد والحجاز •

٣ ـ البحث في مشاكل بدو شمر الملتجئين الى العراق[1] وأبدى ابن سعود استعداده لارسال مندوبين الى المؤتمر شريطة ان تكون المفاوضة بين مندوبيه

---

(١) انظر الكتاب الاخضر النجدي عن مؤتمر الكويت ـ نشر بأمر سلطان نجد ـ ص ٦ وما يليها .

يذكر حافظ وهبة ان اخفاق المؤتمر يرجع الى صلابة الملك حسين وتعسفه وعدم وقوف الهاشميين في العراق وشرق الاردن على حقيقة الحالة في نجد ومدى قوة ابن سعود . فقد كان هؤلاء يعتبرون ابن سعود شيخ عشيرة ليس من الخطر بمكان حتى يخشى .. وكانوا يعقدون الآمال على نشوب الثورات في نجد . ولكن ما عجز مؤتمر الكويت عن حله ، قد حل في تشرين الاول ١٩٢٥ في مؤتمري حداء وبحرة ، وفي سنة ١٩٣٠ بين ملكي العراق والحجاز ونجد (يومذاك) . نفس المرجع السابق ص ٢٨٤ .

ومندوبي كل من الحجاز والعراق وشرقي الاردن على حدة ، خشية من ان يكون الحسين وابناؤه جبهة موحدة ضده . انعقد المؤتمر في ١٧ كانون الاول ١٩٢٣ دون حضور مندوبين عن الحجاز[1] . وحضر مندوبون عن شرقي الاردن ، واشتركوا في جلسة المؤتمر السادسة (٢٣ كانون الاول) . وقدم الوفد الاردني مذكرة للمؤتمر رفضها الوفد النجدي ، وأنكر على الوفد الاردني مطالبته بأراضي الجوف وسكاكة ، والخوض في المعاهدة المعقودة بين نجد وبريطانية . وطلب الوفد النجدي ضم وادي السرحان والجوف الى نجد ، ولم يوافق على اتصال حدود شرقي الاردن بحدود العراق ، لان تجارة نجد وكيانها الاقتصادي يعتمدان على اتصالها بسورية . ثم اتصل رئيس المؤتمر الكولونيل « نوكس » المعتمد البريطاني في الخليج العربي بالحسين ، وأقنعه بوجوب الاشتراك في الدور الثاني للمؤتمر ، فعين الشريف ابنه الامير زيدا لينوب عن الحجاز ، واشترط ان يعين ابن سعود احد ابنائه مندوبا عنه . لم يقبل ابن سعود بذلك ، وبالتالي رفض الحسين ان يشترك في المؤتمر ، واقتصر الامر في هذه المرحلة على اجتماع مندوبي شرقي الاردن ومندوبي نجد فقط (١٩ نيسان ١٩٢٤) . وانفض المؤتمر على غير وفاق ؛ لان وفد شرقي الاردن تمسك بما تمسك به الحسين من قبل ، وهو اعادة الحالة الى ما كانت عليه قبل الحرب العالمية الاولى في بلاد العرب .

وربما يكون اعلان الحسين نفسه خليفة (١٩٢٤) هو مما عجل بوضع نهاية للمداولات المحتضرة في المؤتمر ، وربما تكون رئاسة نوكس البريطاني للمؤتمر سببا في فشل المؤتمر ، وكان هم نوكس طوال الجلسات ان يضغط على الممثلين السعوديين لقبول الحل الذي تدعمه لندن ، ولكن ابن سعود رفض المقترحات لانها تؤذي سلامة دولته السياسية ، وفشل المؤتمر ادى الى توسيع شقة الخلاف بين الهاشميين وبين ابن سعود .

وبدأت نهاية الملك حسين ، عندما قدم الى شرقي الاردن في مطلع عام ١٩٢٤ ، وأراد ان يظهر دالته على ابنائه . وبينما كان يفكر في استبدال ابنه الامير علي بالامير عبد الله على امارة الاردن ، حدث أمر هام في التاريخ العربي الحديث ، حين الغى مصطفى كما أتاتورك منصب الخلافه ، وشرد آخر الخلفاء عبد المجيد العثماني[1] ،

Philby. op. cit. , p. 286. (١)

فأعلن الحسين نفسه خليفة على المسلمين باحتفال عظيم (١٢ آذار ١٩٢٤) ، وبعد ان تقبل البيعة ، عاد الى مكة [١] • وكان اعلان الخلافة آخر ما يمكن لابن سعود ان يحتمله من جانب خصمه الحسين ، فاتخذ ذلك ذريعة لضربه ضربة قاصمة تزيحه عن المسرح السياسي للجزيرة العربية [٢] • ورحب الاخوان بالحرب حالما فاتحهم بها ابن سعود في مؤتمر الرياض (تموز ١٩٢٤) • وفي آب ١٩٢٤ كان الاستعداد للحرب قد تم ، فاعطى الامر بالهجوم الى الاخوان التواقين لحرب « المبتدع » الذي منعهم من اداء شعائر الحج ، ثم رفع الستار عن مذبحة الطائف (ايلول ١٩٢٤)، وسقطت مكة بيدهم في تشرين الاول • تنازل الحسين لابنه علي عن العرش أملا بالوصول الى شروط أفضل في المفاوضات مع ابن سعود • ثم قدم الحسين الى جدة فالعقبة ، حيث اخرجته السلطات الانكليزية منها لئلا يهاجمها الوهابيون قبل ان تضع يدها عليها ، وسمحت له بالالتجاء الى جزيرة قبرص [٣] • واجتمع ابن سعود مع سير « جلبرت كلايتون » لتسوية مسألة الحدود بين نجد والحجاز ، وبين العراق وشرقي الاردن • ولكن ابن سعود رفض بشدة ان يعترف باحتلال الانكليز لميناء العقبة ، ثم ضرب الحصار على المدينة المنورة فسقطت ، ولم يلبث ان دخل جـدة

---

(١) حضر البيعة مندوبون عن العراق والحجاز وشرق الاردن بينما استنكرت الدول الاسلامية الاخرى كمصر والهند المسلمة خلافة الحسين لانها كانت تعتبره صنيعة الانكليز . Rabbath, op. cit. , p. 333.

(٢) اقتنع ابن سعود ان الهاشميين برغم اعترافهم بمركزه لن يسمحوا له بان يعيش بسلام . ثم ان مركز ابن سعود غدا مقلقلا بعد انشاء دولتين هاشميتين الى الشمال منه في العراق والاردن ، وللافاة الخطر جزئيا هاجم الحجاز . وان الحظر الذي فرضه الحسين على الحجيج الوهابي أثار ابن سعود والاخوان ، كما ان وقف معونة الحرب البريطانية لابن سعود حرره من التزاماته نحو بريطانية فبدأ يخطط سياسته مستقلا عنها .

(٣) حين هاجم ابن سعود الحجاز (١٩٢٤) كان الحسين يقف وحده في الميدان ، كما انه بسبب رفضه التوقيع على معاهدة فرساي كان محروما من تأييد عصبة الامم ، فضلا عن أن علاقاته مع بريطانية ، حليفته القديمه ، لم تكن حسنة نتيجة لمعارضته في مسائل الانتدابات ومسألة فلسطين خاصة . وكذلك لم تكن صلاته مرضية مع فرنسة وايطالية • وصرح الحسين بانه رفض توقيع معاهدة مع انكلترة لتشبثها بوعد بلفور .

(كانون الاول ١٩٢٥) بعد ان استسلم الملك علي ، والتحق بالعراق حيث عاش بقية أيامه في كنف أخيه فيصل ملك العراق •

ويمكن ان يعزى فشل الحسين الى ما يلي :

استياء بريطانية منه اثر رفضه مشروع اتفاق بينه وبين بريطانية حمله لورانس ، وتضمن طلب موافقته على نظام الانتدابات ، ووضع القيود على سيادته الداخلية • كذلك رفض الحسين ان يعترف بفتح ابن سعود لجبل شمر ، وبضم الادريسي للحديدة • وانكر الحسين فرض الانتداب البريطاني على فلسطين ، ولم تفلح بريطانية في اقناعه بتوقيع مشروع الاتفاق • ويبدو ان ادارة الحسين لم تكن ناجعة وقد اتهم بالطموح الشخصي عندما ادعى جدارته بمنصب الخلافة • ودعا ابن سعود الى عقد مؤتمر اسلامي في موسم الحج القـادم للمشاورة في الشؤون التي تخص الاسلام والمسلمين ، ثم نودي به ملكا على الحجاز في مكة المكرمة (٨ كانون الثاني ١٩٢٦) • وباستصفاء الحجاز ، اصبح الملك عبد العزيز آل سعود مسؤولا امام العالم الاسلامي قاطبة ، وأمام الدول الاوربية التي يهمها تيسير امور الحج لرعاياها المسلمين • واذا به يدخل في طور جديد من العلاقات مع العالم الخارجي ، واذابه وجها لوجه امام الدول الغربية التي يعنيها شأن البحر الاحمر من النواحي الحربية والتجارية • ان دخول الحجاز تحت حكمه اضطره لاصطناع نظم حكومية وادارية جديدة ، وتم له ذلك • وسارعت الدول تعترف بملكه ، وكانت روسية السوفياتية أول من اعترف به ، وتبعتها انكلترة وفرنسة •• وترددت ايران نتيجة هدم الوهابيين بعض القباب والاضرحة ، ولكن المسألة سويت عن طريق اصلاح ما امكن اصلاحه • وبقيت حادثة المحمل (١٩٢٦) تفسد طيب العلاقات بين مصر والسعودية حتى عام ١٩٣٦ ، حيث عقد الطرفان معاهدة صداقة بينهما •

لقد اقتضى امتلاك عبد العزيز للحجاز ان يتخذ سياسة معينة تجاه العـالم الاسلامي ؛ فقد تخوف الناس من ان تتكرر اعمال العنف التي اتسمت بها فتوح الاخوان الوهابيين • وأصبح لزاما على سلطان نجد ان يؤكد سلامة الحجيج وسيادة الامن ، وان يعد بأن الناس تحت حكمه سيشعرون انهم احسن حالا واكثر طمأنينة مما كانوا في عهد الحسين • وتتضح سياسته مما جرى بينه وبين وفد الخلافة الهندي

الذي زاره بعد الاستيلاء على مكة المكرمة ؛ فقد اقترح الوفد ان يعهد بادارة شؤون الحرمين الى مجلس او لجنة يمثل فيها العالم الاسلامي ، كما زعم الوفد لنفسه حق النقد والكلام في سياسة عبد العزيز عموما ، حتى اضطر الى ان يأمر اعضاء الوفد بمغادرة البلاد . واعلن انه لن يتخلى عن ادارة الحجاز ، وانه يعتبر نفسه أمينا على الحرمين . كما أعلن انه على استعداد لان يستمع الى آراء المسلمين اثناء انعقاد مؤتمر الحج القادم في صيف ١٩٢٦ . وفي الواقع التأم المؤتمر وحضره ستون مندوبا معظمهم غير رسميين ، ثم انفض دون اتخاذ قرار معين ، بعد ان تكلم الحضور في كل موضوع ، وفهموا ان ملك الحجاز ونجد الجديد مصمم على ان يكون صاحب الامر في الحجاز كما هو في نجد .

وكانت مشكلة تعيين الحدود احدى المعضلات المستعصية التي جابهها ابن سعود ، وقد بدأت مسألة الحدود الخطيرة بينه وبين العراق وتطورت الى ما كاد ان يكون ثورة داخلية في بلاده . ذلك انه كان تقرر في معاهدة المحمرة وبروتوكول العقير ألا تقام حصون وقلاع على مسافة معينة من الحدود بين نجد والعراق ، حرصا على حرية تنقل قبائل البدو وهجراتها الموسمية . وحدث أن بوشر باقامة قلعة على مقربة من الحدود العراقية النجدية ، فهجمت قبيلة مطير النجدية على العمال وذبحتهم عن آخرهم ، واسرع سلاح الطيران البريطاني وتعقب البدو وضرب مخيماتهم . فاشتعلت الحدود بين الطرفين ، وانتهى من ثار من غلاة الاخوان الى انهم اعلنوا العصيان على عبد العزيز ، واتهموه بالانحراف عن سياسته القديمة وأخذه بالبدع الآليةالحديثة[1] . وسار الملك لمحاربة العصاة وعلى رأسهم فيصل الدويش في ربيع ١٩٢٩ ، حتى تمكن منهم وفرق شملهم في مطلع عام ١٩٣٠ . أفادت ثورة الدويش في الظاهر ، اذ ادت الى تحسين العلاقات بين هاشميي العراق وبين السعوديين ، فبدآ يحترمان حدودهما الارضية . ولكن من الواضح أن بعض الهاشميين ما كانوا لينسوا فقدانهم « وطنهم » ولا سيما بعد ان مات الملك فيصل ، وادعى الامير عبد الله زعامة الاسرة الهاشمية ووراثة « نهضتها » . وكانت الحكومة البريطانية تخشى ان يقدم ابن سعود ، وقد

(١) انظر ما انكر رؤساء الاخوان على ابن سعود في حافظ وهبه ، المصدر السابق ص ٣١٧ ــ ٣٢١ ، ورد علماء نجد على هذه المسائل التي كانت سبب تشوش الاخوان .

اطاح بالنفوذ الهاشمي في الحجاز ، على مهاجمة الدولتين الشقيقتين الهاشميتين على حدوده الشمالية ، وبوجه الخصوص شرقي الاردن التي خططت حدودها اثناء انعقاد مؤتمر الصلح ، لتشتمل على معان وميناء العقبة من جهة ، ولتؤمن الاتصال بين شرقي الاردن وبين العراق من جهة ثانية . وكان ابن سعود يشعر انه صاحب حق في معان والعقبة ، كما كان يلح على ان تكون له حدود مباشرة مع سورية . وهذا معناه ان تنتقل ملكية المستطيل الصحراوي المعروف بالممر الاردني من حوزة الامير عبد الله الى حوزة الملك عبد العزيز . ولا يمكن ان ينشأ ذلك الا على حساب صلة شرقي الاردن بالعراق ، ولكن هل ترضى بريطانية ، وهل يرضى الامير عبد الله بذلك ؟

من المؤكد ان الحكومة البريطانية التي تمارس الانتداب على كل من شرقي الاردن والعراق ، لا تود بحال من الاحوال ان تقطع الطريق البري الامبراطوري ما بين البحر الابيض المتوسط والخليج العربي . هذا الى ان الامير عبد الله كان يرغب في ان يكون على صلة دائمة بأخيه الملك فيصل في العراق ، فلا غرو اذا رفض سير جلبرت كلايتون مطلب الملك عبد العزيز هذا ، واستمرت المفاوضات وانتهت بتوقيع اتفاقية حداء (تشرين الثاني ١٩٢٥) حيث اعترف الطرفان بالوضع القائم فيما يخص الممر الاردني ، دون ان يصلا الى اتفاق على منطقة معان والعقبة ، اذ أبدى الملك ابن سعود رغبته في الاحتفاظ بالاحوال الراهنة[1] . ووعد بعدم التدخل في ادارة المنطقة ، حتى تسمح الظروف في المستقبل بتسوية نهائية للمسألة .

والحق ان الاتفاقية كانت نصرا سياسيا لبريطانية لان كلايتون تمكن من الحصول على اعتراف غير مباشر من ابن سعود بالهاشميين في العراق والاردن . ونجح كذلك في وصل البلدين ،وابعاد ما يهدد فلسطين ، والمحافظة على سهولة الاتصال بين بغداد والقاهرة ، وعلى سلامة خط الانابيب من الموصل الى حيفا . اما ابن سعود فقد كانت الفائدة التي حصل عليها هي اطلاق يده في الحجاز ، سكتت بريطانية تماما خلال حملته

---

(١) في اثناء انعقاد الدورة الخامسة والعشرين للجنة الانتدابات الدائمة تكلم الامير فيصل بن عبد العزيز عن الحدود النجدية الاردنية فقال ان الوقت الحاضر لا يصلح لاجراء تسوية نهائية لمسالة الحدود مع شرق الاردن ، وانه رغبة في صداقة شرق الاردن يوافق على ابقاء الحالة الراهنة في اقليم معان والعقبة حتى يحين الوقت الملائم لبحثها .
Miuntes of the 28th Session June 1934, p. 34.

على الحجاز واستصفائه له . ولكن ابن سعود لم يلبث ان شعر بوجوب مراجعة معاهدته مع بريطانية نفسها ؛ فالمعاهدة القديمة (١٩١٥) لم تعد عملية ولا مجدية ، اذ وضعته في حالة التبعية لبريطانية . ثم انه كان تواقا للاعتراف به من جانب بريطانية؛ وحاولت هذه ان تفرض شروطها عليه ، ولكنه ابى حتى رضخت ووقعت اتفاقية جدة (أيار ١٩٢٧) سويت بموجبها العلاقات بين الطرفين : اعترفت بريطانية باستقلال السعودية التام ، ونصت الاتفاقية على حماية تسهيل الحج لرعايا بريطانية . وتعتبر الاتفاقية ابرز معاهدة وقعها ابن سعود في علاقاته مع الدول الكبرى اذ جعلته على قدم المساواة مع بريطانية .

لا نكران في ان شعور الملك السعودي بالامان قوي ، لا سيما بعد تعاونه مع بريطانية في اخماد ثورة الدويش ، ولكن توجسه من شرقي الاردن لم يطرد نهائيا . ومن المؤكد انه كان يتوقع حربا انتقامية من جانب الامير عبد الله ، مما أثر على سياسته الخارجية تجاه بريطانية التي كان ابن سعود حريصا على ان تكون علاقاته معها قائمة على المودة والصداقة للافادة من نفوذها الواسع لدى حكام العراق وشرقي الاردن .

أما علاقات ابن سعود بالامام يحيى في اليمن ، فكانت ناجمة عن علاقة كل منهما مع امارة الادارسة في عسير[1] . ذلك ان صلات الامام مع جاره الادريسي كانت أبعد ما تكون عن الود ؛ كان الامام يطمح الى توسيع ملكه ــ بعد ان جلا الترك عن بلاده وغدا سيد اليمن عقب انتهاء الحرب العالمية الاولى ــ باحتلال رقعة واسعة من عسير بما فيها ميناء الحديدة ، التي سلمها الانكليز للادريسي عام ١٩٢١ . والحديدة ثغر اليمن الطبيعي ، والاستيلاء عليها يحرم البلاد اليمنية من منفذ ضروري

---

(١) كان محمد الادريسي امير صبيا في عسير احد احفاد السيد احمد الادريسي من سلالة الادارسة في فاس مراكش ، حيث انشأ طريقة دينية واسهم في تاسيس الطريقة السنوسية في برقة ثم وصل الى مكة حيث وعظ بها ، وانتقل منها الى صبيا حيث اكتسب نفوذا دينيا واسعا تمكن احفاده بواسطته ان يقبضوا على فروع السلطة المدنية ايضا في بلاد عسير . ومحمد الادريسي درس في الجامع الازهر ، وتتلمذ على السنوسيين في برقة قبل ان يستقر في صبيا ويدير امورها .

Toynbee, « Islamic World », 1925, Vol. I, p. 276.

وحيوي كانت تستعمله منذ أجيال ، وهذا احد اسباب التوتر بين الادريسي والامام . وفي أوائل عام ١٩٢٣ توفي عميد الاسرة الادريسية السيد محمد ، فنشب بين خلفه السيد علي وبين افراد الاسرة خلاف اضرم نار الحرب الاهلية . فاستغل الامام هذه الفرصة وبادر باحتلال جنوبي عسير مع جزء من الساحل تقع ضمنه الحديدة . وتشجع الامام فدفع بقواته نحو الشمال لتتوسع هنالك ، مما جعل السيد علي الادريسي يلوذ بالفرار الى عدن . على حين كان عمه السيد حسن قد هبط فجأة في ميناء جيزان التابع لعسير قادما من عدن ، فاستنهض الهمم لمقاومة اليمنيين ، وطلب النجدة من ابن سعود مستندا الى حلف الادارسة معه ضد الحسين عام ١٩٢٠ . ولكن ابن سعود رفض ، واصر على مبدأ الحياد ، بدعوى ان له علاقات ودية مع الامام ، وانه ليس له مطمح في بلاد الادريسي [١] . وأخيرا نصب السيد حسن حاكما على بلاد عسير الجنوبية ، واتخذ بلدة « ابو عريش » عاصمة له بمعونة ابن سعود ، مقابل احتلال السعوديين امارة « ابها » ـ عسير الشمالية ـ واعترف السيد حسن بسيادتهم عليه طبقا لمعاهدة مكة (١٩٢٦) التي تعهد فيها الا يدخل في علاقات سياسية مع أي دولة أخرى دون موافقة ابن سعود . وألا يعلن حربا او يوقع صلحا الا بموافقة العاهل السعودي الذي يترك للسيد حسن تصريف اموره الداخلية طبقا للشرع الحنيف ، كما يضمن له عرشه وسلامة حدوده [٢] . غير ان الخصومات والخلافات بين امراء الادارسة لم تمكنهم من اصلاح ذات بينهم وتقويم شأنهم . وكان عليهم أن يختاروا بين الانضمام الى مملكة ابن سعود والانضواء تحت لوائه نهائيا ، وبين الخضوع لامام اليمن والتسليم بمطامحه الاقليمية في بلاد عسير . واضطر السيد حسن الادريسي ان يختار جانب ابن سعود على كره منه ، وعقد اتفاق عام ١٩٣٠ وضعت بموجبه بلاد عسير تحت حماية ابن سعود رسميا ، ولم يبق للادريسي من السلطة الا اسمها ، فأثار ذلك حفيظته ، وأخذ يتربص بابن سعود الدوائر .

أما الامام يحيى فوجد نفسه وجها لوجه امام الملك عبد العزيز ، بعد ان تماست حدود بلديهما التي كان الخلاف عليها مستمرا بين الطرفين .

---

(١) Toynbee , op. cit. , p. 323.

(٢) انظر نص المعاهدة في :

Survey of International Affairs, 1925, Appendix VII.

وعقب مفاوضات متطاولة ، توصل عاهل الرياض وعاهل صنعاء الى توقيع معاهدة صداقة وحسن جوار (كانون الاول ١٩٣١) تعهد كل منهما فيها ان يسلم للآخر المجرمين السياسيين والعاديين الذين صدرت بحقهم احكام في دولتهم • وعلم ابن سعود ان بعض رعاياه من العصاة متوارين في اليمن ، فطلب من الامام تسليمهم ، ولكن الامام انكر وجودهم • ولم يلبث أن قام السيد حسن الادريسي بتحريض رجال القبائل في عسير للانتقاض على « الحكم الوهابي » • وتقدم في صيف عام ١٩٣٢ واحتـل بلدتي « ابو عريش » وجيزان في جنوبي عسير ، ولكن سرعان ما هزمته القوى السعودية واستعادتهما منه ، حتى اذا التجأ الى اليمن ــ وكانت تحافظ على حيادها ابان هذه الحوادث ، ورفض الامام يحيى تسليم الادريسي الى ابن سعود ، وافق هذا على بقائه في اليمن ، واجرى عليه راتبا يعيش منه [١] •

وفي مؤتمر عقده ممثلون عن كل من الامام يحيى والملك ابن سعود للوصول الى حل المشاكل المعلقة بينهما ، طلب مندوب اليمن اعادة الادريسي الى امارته تحت الحماية السعودية • ولكن المندوب السعودي رفض ذلك ، واكد ان المملكة العربية السعودية قد اشتملت على بلاد عسير[٢] • فشلت المحادثات ، فأجاب اليمنيون بالهجوم على اقليم نجران ، وقطعوا الطريق بين نجد وعسير (أيار ١٩٣٣) ، ولم يصغ الامام الى نصيحة البعثة السعودية التي ارسلها عاهل الرياض الى صنعاء على جناح السرعة ، وانما طالب بشدة ببلاد تهامة وعسير ونجران ، وأوقف أفراد البعثة واعتبرهم رهائن لديه[٣] • تهيأ الفريقان للحرب ، وأنذر ابن سعود الامام بوجوب عقد معاهدة معه يتم فيها تثبيت الحدود بينهما ، وطرد الادريسي ، وتسوية مسألة نجران (تشرين الثاني ١٩٣٣) • وعندما اخفق مؤتمر « ابها »[٤] أيضا في شباط

---

(١) Brémond, « Yémen & Saoudia » p. 107. (Paris 1937).

(٢) وحد الملك ابن سعود ممتلكاته في الجزيرة العربية تحت اسم المملكة العربية السعودية عام ١٩٣٢ . Giannini, op. cit. , p. 241

(٣) Brémond, op. cit. , p. 109

(٤) كان غرض مؤتمر « ابها » القيام « بتثبيت عرى الاخوة الاسلامية والوحدة الاسلامية » بين الملكين وانشاء علاقات صداقة وحسن تفاهم •

١٩٣٤ ، أصبح اللجوء الى السلاح أمرا محتوما • وبعث ابن سعود بجيشه الاول بقيادة ولده سعود ، والثاني عن طريق تهامة بقيادة ولده فيصل ، واحرز الجيشان انتصارات سريعة • ولما احتل جيش تهامة ميناء الحديدة ، سارعت ايطالية وفرنسة وانكلترة بارسال سفنها الحربية للميناء بدعوى حماية مصالحها[١] • أمر ابن سعود ولديه بأن يوقفا الزحف حالا ، وارتضى عقد الصلح مع الامام يحيى بناء على طلبه ، وانتهت المفاوضات بتوقيع معاهدة الطائف (٢٠ أيار ١٩٣٤) • وفيها يعترف كل من الفريقين للآخر باستقلال مملكته التام وبملكيته عليها •• ويسقط كل منهما أي حق يدعيه في قسم أو أقسام من بلاد الآخر ، وتنشأ فورا بين جلالة الملكين وشعبيهما حالة سلم دائم وصداقة وطيدة واخوة اسلامية عربية دائمة لا يمكن الاخلال بها جميعها او بعضها • ويتعهد الفريقان الساميان المتعاقدان بأن يحلا بروح الود والصداقة جميع المنازعات والاختلافات التي قد تقع بينهما ، وبأن يسود علاقتهما روح الاخاء الاسلامي العربي في سائر المواقف والحالات [٢] •

والحق ان ابن سعود ادرك ان ضم اليمن الى بلاده لن يكون مصدر قوة له ، بل مصدر ضعف ، بسبب خلاف مذهبه مع معتقدات الشيعة الزيدية ، فضلا عن ان احتلال اليمن سيجعله على تماس مع مشاكل الحدود بينها وبين « المحميات » البريطانية في الجنوب العربي •

هذا عن علاقات ابن سعود بالبلاد العربية ، أما علاقاته الخارجية مع الدول الاوربية فقد كانت حسنة عموما • قام ابنه فيصل عام ١٩٣١ بزيارة اوربة ، فزار المانية وايطالية وفرنسة وبولونية والاتحاد السوفييتي وتركية • أما العلاقات بين تركية والمملكة العربية السعودية فلم تتحسن الا بعد وفاة اتاتورك ١٩٣٩ • ولم يشترك ابن سعود في عصبة الامم ، بل ما آمن بصلاحيتها وجدواها لحماية الدول الصغرى •

ومن النواحي الاقتصادية والمالية كانت احوال المملكة السعودية سيئه جدا لقلة الموارد ، وكثرة النفقات ؛ ذلك ان ايراد تلك البلاد الفقيرة الاساسي كان يتوقف على

---

(١) Philby, op. cit. , p. 323.

(٢) انظر نص المعاهدة في الوثائق والمعاهدات ص ٤٣٣ — ٤٤٧

موسم الحج . وكان الحديث عن غنى باطن الارض السعودية بالمعادن مشوبا بالحذر والحيطة ، لان استخراج تلك الثروات الدفينة قد يتيح المجال لتسرب النفوذ الاجنبي الى أرض الاسلام المقدسة . وحدث ان قام المليونير الامريكي المعروف (تشارلز كراين) بزيارة جدة واجتمع بالملك ابن سعود[1] ، وقدم له المهندس الجيولوجي (تويتشل) الذي عكف على البحث والتنقيب ليخرج بتقرير موثوق عام ١٩٣٢ ، يؤكد فيه ان اقليم الظهران يحتوي على النفط الوفير ، كما ان المكان المسمى مهد الذهب[2] يوجد فيه معدن الذهب. اهتمت شركة (ستاندرد اويل كاليفورنيا) بتقرير تويتشل ، وتعاقدت مع ابن سعود في أيار ١٩٣٣ لمنحها امتيازا لمدة ٦٠ عاما ، تنقب بموجبه في رقعة من الارض مساحتها ٦٥ الف ميل مربع . وكذلك منح ابن سعود امتيازا لشركة التعدين في البلاد العربية السعودية للتنقيب عن كل المعادن ما عدا النفط ، في مناطق محدودة شمال مهد الذهب . ولا حاجة الى القول بانه لولا حاجة ابن سعود الى المعونة المالية لما أقــدم على منح الامتيازات للشركات الامريكية أو لغيرها ، تلك الامتيازات التي نمت بفضلها مرافق البلاد العربية السعودية ، وتحسنت تحسنا ملموسا في النواحي الصحية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية . ومنذ ذلك الحين أصبحت البلاد تعتمد على الضرائب المفروضة على استخراج النفط والمعادن الاخرى ، بالاضافة الى مواردها التقليدية من موسم الحج .

. . .

ب ـ الاتجاهات والنزعات القومية في المملكة السعودية :

لا شك في ان الجيل العربي الذي نشأ في الحجاز ايام الثورة العربية (١٩١٦) كان يصدر عن شعور ووعي بأمجاد الامة العربية ، بالدعوة الى تحرير العرب واستقلالهم وايقاظ الحماس في النفوس ؛ فقد اتجه جيل الشباب من طلبة المدارس هذا الاتجاه القومي في منحى تفكيرهم وسلوكهم : يضيقون ذرعا بطرائق التعليم العتيقة التي تعتمد على الحفظ والتلقين ، ويثورون على نظم الامتحانات التي لا ينجح

---

(١) Philby, op. cit. , p. 330

(٢) مكان في منتصف الطريق بين جدة والمدينة .

فيها الا الذين يستظهرون نصوص العلوم العقلية والنقلية دونما تحليل او مناقشة أو تقييم ونقد • والمدرسون في المدارس كان منهم الجامد التقليدي ، ومنهم المستنير المفكر • فكان لا بد ان يتمرد بعض الطلبة على ما يلقنهم معلموهم من افكار قديمة ومعلومات جامدة ، فيتلمسون الجديد الذي يروي تطلعهم ويجيب على تساؤلهم عن طريق مطالعة الصحف العربية التي كانت تصدر في الاقطار العربية المجاورة كالصحف الشامية والمصرية ، وبعض التواليف التي تجد طريقها الى الحجاز ؛ وكانت هذه الكتب والتواليف تشكل الزاد الفكري والثقافي الذي يقوم على رصيد من الثقافة اللغوية والدينية المدفوعة بروح الثورة العربية •

والشريف حسين كان يحب الوعي ويخشاه في آن واحد ؛ يحبه على النحو الذي يتفق وأهدافه ، ويصد عنه اذا تجاوز هذه الاهداف • ولكن نفوس المفكرين والادباء الحجازيين كانت تختزن جميع المؤثرات الثورية آنئذ ؛ فالثورة كانت عميقة التأثير في نفوس الشبيبة الحجازية يومذاك ، لان بلدهم كان معقل الثورة • والثوار العرب كانوا يفدون اليه من كل حدب وصوب ، ومواكب المتطوعة للحرب من ابناء الحجاز كانت تزدحم بهم شوارع مدن الحجاز ، وهم يسيرون في حماس وقوة يهزجون بالاناشيد العربية القومية على انغام موسيقى الحرب والحانها المثيرة ؛ وكان خطباء الثورة من حجازيين وسوريين وعراقيين يقفون في الساحات العامة ، ويصورون للجماهير ما هم فيه من حاضر غير مشرّف ، وما كان عليه أجدادهم من ماض تليد وتاريخ حافل بالمجد والحضارة ، ثم يبيّنون ما يتعرض له اخوانهم المناضلون في ديار الشام على يد الطغاة الاتراك ، فيهيبون بالشباب ان ينهضوا للثأر ، ولبعث الماضي ، وتحقيق الحرية العربية المغتصبة • اذن فقد كانَ في الحجاز ما يبرر وما يفسر هذه النهضة القومية العربية نظرا لظروف الحج وعوامل الثورة ، ونظرا لاتصاله النسبي بتيارات الثقافة والادب في البلاد العربية الاخرى بحيث يمكن القول انه اصبح البيئة الصالحة لنبتة الحركة العربية الحديثة والوعي القومي ، دون سائر اقاليم شبه الجزيرة • ذلك ان هذه الاقاليم لم تكن على هذا المستوى ، ولم تكن ظروفها مواتية :

في الاحساء مثلا لم يوجد الا علماء الدين او غيرهم من الكتاب والادباء الذين

ربما يتداولون في بعض الاغراض التقليدية او الموضوعات الدينية ، أو ينشغلون بالردود الفقهية او المذهبية نظما او نثرا • وقد توجد لدى بعض الشبان نزعة ثورية تتجلى في نقد الحكام بجرأة وبحق ، وفي محاولة تحريك الاجواء الساكنة المهيمنة على النفوس • وينطبق هذا القول أيضا على نجد وعسير • أما الوعي الحقيقي فقد ظهر بعد الحرب العالمية الاولى ، حين انشئت المدارس النظامية ، وحين اتصل الجيل الجديد من أبناء نجد والاحساء وعسير بمدارس الحجاز ، وتأثروا بجوها الثقافي والاجتماعي • وحين أتيح لنفر من ابناء هذا الجيل ان يرتحلوا الى العراق والشام ومصر بقصد التجارة او النزهة او الدراسة الجامعية ، عادوا الى ديارهم وشاركوا في الكتابة والصحافة ، وعملوا على نقد فساد بعض الاوضاع الداخلية كالاستغلال والغلاء ، ولكن كل ذلك كان يتم في أضيق حدود ، نظرا لان الجو الفكري والسياسي لا يشجع على حرية التعبير والنقاش الموضوعي • وكانت فئات المفكرين الواعين والمثقفين الاحرار تتجاوب مع أحداث الصراع الدائر بين نهضة العروبة وبين مقت الاستعمار ، يجدون فيه متنفسا لما يضطرم في نفوسهم من عواطف جياشة ، وآمال عريضة • فقد ينظم شاعر قصيدة حول ما تعانيه قرية جزائرية من الاستعمار الفرنسي مثلا ، وهو في الواقع لا يقصد الا قرية في منطقته ، مؤيدين دعواهم بالمقتبس من آي الذكر الحكيم أو الحديث والسنة أو آراء المفكرين التقدميين في الاسلام ، ومتخذين من المشاعر الدينية وسيلة لحفز الهمم واثارة النفوس ضد الاستعمار والظلم • لقد تأثر هذا الجيل العربي ، في الحجاز خاصة من اقطار شبه الجزيرة العربية ، بالثورة العربية ، وتطلعوا لاقامة ملك عربي مستقل على انقاض الحكم العثماني التركي البائد • وتبدو نزعاتهم القومية بوضوح اذا ما وقع البغي والارهاق على اخوانهم في سائر انحاء الوطن العربي ، واذا ما وفد على ديارهم وفود عربية مجاورة ، وحينئذ يظهرون تعلقهم بالعروبة ، وحماسهم للوحدة العربية ، كما جرى حين قدم وفد من سورية الى الحجاز (١٩٣٥) فانتظم عقد الشعر بهذه المناسبة في قصيدة تدعو لتوحيد البلاد العربية [١] ، وكما جرى حين نزل مكة وفد شباب الكشاف العراقي ، في

(١) انظر صوت الحجاز السنة الرابعة عدد (١٩٥٦) في عبد الله عبد الجبار « التيارات الادبيه الحديثة في قلب الجزيرة العربية » القاهرة ١٩٥٩ ص ٣٤١ .

موسم حج عام ١٣٥٣ (١٩٣٥) فكان حضورهم مناسبة شعرية قومية كبرى اشترك فيها شعراء الحجاز وادباؤه .

لم يكن اتصال معظم أقطار شبه الجزيرة العربية بأحداث الحركة القومية وتياراتها الفكرية قويا ، كما ان احوال الناس فيها من النواحي الاجتماعية والاقتصاديةوالثقافية ما كانت لتساعد على اندماجهم بنظم الحياة القومية العصرية ، كما كان الحال في ديار الهلال الخصيب ، فليس عجبا اذا كانت الاتجاهات السياسية والنزعات القومية بمفهومها الحديث ضعيفة الاثر في هذا الجزء الصحراوي من الوطن العربي . ولا حاجة الى القول ان اسباب هذا التخلف في ميدان الوعي القومي لا ترجع الى انعزال أقطار هذا الجزء ، وانقطاعها تقريبا عما يجاورها من اقطار العروبة التي سبقتها في هذا الميدان فحسب ، وانما ترجع ايضا الى ضعف الحركة الثقـافية والتعليمية ، وضآلة عدد المدارس والمعاهد ، وبدائية نظمها مما لا يساعد على تفتح الفكر الموضوعي الحر ، والاحاطة بالتطورات القومية والعالمية ، الامر الذي يجعل الدولة وسياستها تدور حول شخص الحاكم ، تتجسد فيه وفي بطانته وأسرتهالاهداف السياسية للبلد . ذلك ان نظام الحكم النافذ هو النظام القبلي[1] حيث يكون ولاء الافراد لرؤسائهم ولأسرهم بمثابة الولاء القومي لدى عرب الهلال الخصيب . ومن هنا فنحن لا نستطيع في أقطار شبه الجزيرة العربية وخاصة في المملكة السعودية وفي اليمن ان تتتبع الاتجاهات السياسية التي تنظم الكتل والجماعات المفكرة ، كما فعلنا في صدد اقطار الهلال الخصيب ، وانما سنكتفي بتتبع مشاركة الملك وحكومته

---

(١) فهم ابن سعود انه لن يتمكن من اقرار الامور في مملكة نصف سكانها ينتظمون في حياة قبلية مستقلة تخرج عن نطاق رقابة السلطة المركزية . وبفضل حركة الاخوان الوهابية ، نجح في تحضير حوالي ثلث هؤلاء البدو ، وبذلك خفف من فداحة المشكلة ، ولكنه لم يحلها ؛ فما زالت قبائل كثيرة ــ باستثناء منطقة الاحساء البترولية ــ حريصة على طرق الحياة البدوية في أواسط الجزيرة . ومن اجل السيطرة على هذه القبائل احتفظ ابن سعود بالنظام التقليدي ، وتعامل معها على اساس المصاهرة (السياسية) هو وابناء أسرته ، ومع القبائل البدوية والاسرات الاخرى ، وخاصة من آل الرشيد . كذلك لجأ باستمرار الى نفح مشايخ القبائل بمبالغ من المال تختلف بحسب أهمية القبيلة من حيث الرجال والجمال والبنادق التي يمكن ان تؤمنها . وبين هؤلاء البدو الذين يشكلون اساس المملكة الصلب ، يحتل الاخوان الوهابيون المكانة الاولى .

في ما تنهج من برامج سياسية تكشف عنها الاتفاقات والعلاقات الدولية المختلفة التي تبرمها مع ما جاورها من البلدان العربية ، لنرى في ذلك مدى ما عمل الملك وحكومته في سبيل التقارب العربي ، وتضامن الجبهة العربية على الصعيد الرسمي ، بمالا يخرج عن محصلة القوى المختلفة التي تحيط بظروف هذا البلد في الداخل والخارج ، وبما يعود بالقوة والمنعة على مصالح اشخاصهم واسراتهم • ولنكتف اذن بشرح هذه السياسة العملية التي سلكها ابن سعود ازاء العرب فيما وراء حدود مملكته ، فهي تمثل جانبا لا يستهان به من أهداف السياسة العربية للمملكة السعودية التي تتمثل في شخص الملك ، ولا معنى هنا للتمييز التقليدي بين السلطات الذي تعارفت عليه الدول العصرية •

في مطلع الحرب العالمية الاولى ، انفذ ابن سعود ثلاثة من رجاله بكتب الى أقرب أمراء العرب منه ، وأبرزهم في الجزيرة يومذاك : ابن الصباح في الكويت ، وابن الرشيد في حائل والحسين في مكة المكرمة ، يقترح الاجتماع بهم للمذاكرة فيما قد يؤدي الى « اتفاق » ينقذ العرب من اهوال الحرب القائمة ، ولتوحيد جهودهم لرفع شأن البلاد العربية ، ولابعاد التدخل الاجنبي عن مقدراتهم السياسية والاقتصادية • ولكن احدا من هؤلاء لم يلب نداءه بغير التواء ، الا ابن الرشيد الذي صارحه بانحيازه الى جانب الترك في الحرب [1]• كذلك ذكرنا فيما سبق كتابه الى والي البصرة التركي الذي بعث به قبل الحرب ، يقترح فيه على دولة الخلافة العثمانية أن تدعو رؤساء العرب الى مؤتمر يعقد في بلد لا سيادة لها فيه ولا نفوذ ، ليقرروا احد أمرين : اما ان تكون البلاد العربية كتلة سياسية واحدة ، او ولايات مرتبطة بعضها ببعض فيما هو عام ومشترك من المصالح[2] • وفكر ابن سعود في قيام « وحـدة عربية » في شكل ما ، فقد تحدث بعد الحرب الى الرحالة اللبناني أمين الريحاني ، ولخص هذا حديثه في عدة بنود عرضها على السلطان ابن سعود في الليلة التالية ،

---

(١) الريحاني « تاريخ نجد الحديث » ص (١٩٦ ــ ١٩٧) . كتب ابن سعود يقول لهم فيما يقول : « علنا نتفق فننقذ العرب من اهوال الحرب ونتحالف ودولة من الدول لصون حقوقنا وتعزيز مصالحنا »

(٢) انظر فصل المملكة العربية السعودية ــ تطور الاحداث السياسية فيها .

فقرأها وأصلح خطأه فيها وها هي :

رأي السلطان عبد العزيز في الوحدة العربية ــ من حديث له ليلة ٣ جمادى الثانية من عام (١٣٤١ هـ ــ ١٩٢٢ م) •

١ ــ هو يبغي الوحدة العربية ويساعد من سعى باخلاص في تحقيقها ، فيحضر اجتماعا يعقد لهذه الغاية ، ويقبل الزعامة والبيعة ملكا على البلاد العربية كلها ، لاعتقاده انه أهل لها ويستطيع تعزيزها •

٢ -- واذا بايع العرب غيره فهو يقبل ذلك ولا يتحول عن فكرته بل يستمر في خدمة القضية العربية بما يستطيع •

٣ ــ واذا لم تتحقق الوحدة وكان ائتلاف او حلف عربي من امراء العرب لتعزيز شؤونهم معنويا وسياسيا ، ولضمانة مصالحهم الاقتصادية المشتركة ، فهو ينضم اليه •

٤ ــ واذا لم تكن الوحدة ولا الحلف ، فهو على سياسته يحالف دولة تكون المصالح مشتركة بينه وبينها •

٥ ــ وفي كل حال هو رجل سلم في بلاده ، لا يبغي الاعتداء على أحد ، ولكنه يأبى أن يعتدي عليه أحد •

ولما أطلع الريحاني السلطان على خلاصة حديثهما عن الوحدة العربية تلك الليلة ، أخذ ابن سعود القلم وضرب على الفقرة الثانية قائلا : « أسأت فهمنا •• نحن نعرف أنفسنا ولا نقبل الرئاسة في غيرنا » !

أما الشريف حسين فلا نكران في اخلاصه للقضية العربية ، وفي فضله بابرازها من المجال المحلي الى المجال الدولي • لانه كان أول من دعم « الفكرة العربية » بقوة عسكرية ، وأقدم على اعلان « الثورة العربية » في ظروف خطيرة •

ولكن ابن سعود كان يختلف عن الحسين بأمور توفرت له وهي اعتماده على

---

(١) الريحاني، ملوك العرب ٢ : ٩٥ الطبعة الثانية بروت ١٩٢٥

القوة المادية ، وأصالة الرأي في التريث ، والنظرة الواقعية الصائبة[1] ؛ فقد كانت المجابهة الاولى بينه وبين البريطانيين في قضية فلسطين ، يوم عرضوا في اجتماعات « وادي العقيق » عام ١٩٢٦ ، مشروع اتفاقية جدة ، وطلبوا وضع مادة خاصة يعترف فيها بمركز بريطانية الخاص في فلسطين ، اذ رغبت السياسة البريطانية في اقتناص الفرصة حين كان ابن سعود يطالب بالغاء معاهدة القطيف (١٩١٥) لتأخذ ثمن الغائها اعترافا من ابن سعود بمركز خاص لها في الارض المقدسة فلسطين ! •• واستمرت المباحثات نحو عشرين يوما ، وكانت هذه المادة الى جانب مواد اخرى سببا لوقف المفاوضات مدة من الزمن ، الى ان نزلت بريطانية عنها •

والحق ان معاهدة الطائف (١٩٣٤) مع اليمن لم تحتو على شروط الصلح السخية فحسب ، وانما تؤكد رابطة « الاخوة العربية والصداقة الاسلامية » • وهي ولا ريب وثيقة ذات قيمة معنوية كبرى ، عقدت ليس فقط لانهاء حالة الحرب بين المملكة العربية السعودية والمملكة اليمنية ، ولكن ايضا لتوحيد الآراء وتوجيهها في الوطن الاسلامي العربي • واعترف كل من العاهلين باستقلال مملكة الآخر ، ولكن صرحا بأن شعبيهما يؤلفان أمة واحدة بفضل الجنس العربي والدين الاسلامي • وترد العبارات التعاونية في كل فقرة من فقرات المعاهدة وموادها • وتعترف المادة (١٦) بأن كلا من الفريقين الساميين المتعاقدين اللذين « تجمعهما روابط الاخوة الاسلامية والعنصرية العربية ، يعلن ان أمتهما أمة واحدة »[2] ، وانهما لايريدان بأحد

---

(١) اتى احد الوجهاء اللبنانيين الى ابن سعود وقدم له عريضة كبيرة موقعة لمصلحة ابنه في عرش سورية ، فخاطبه ابن سعود قائلا : « ومنذ متى كانت التيجان تلتمس بالمضابط ؟ » .Rabbath, op. cit. , p. 342

(٢) ورد في كتاب رئيس الوفد العربي السعودي في مؤتمر « ابها » الى السيد رئيس الوفد اليمني بتاريخ ٢٣ ذي القعدة سنة ١٣٥٣ (شباط ١٩٣٤) :

« أما بعد فانه لا يخفى على علم فضيلتكم الاسباب التي دعت الى عقد اجتماعنا في « أبها » والقيام بما يكون من ورائه تثبيت عرى الاخوة الاسلامية والوحدة الاسلامية بين حضرة صاحب الجلالة الملك عبد العزيز والامام يحيى وبين بلاديهما ورعاياهما وتقوية أواصر الصداقة والمودة الصميمتين بين ابناء امة واحدة بما يكون من ورائه عز ومجد للعرب والاسلام » . وثيقة رقم ١٦١ (بيان عن العلاقات بين المملكة العربية السعودية والامام يحيى حميد الدين) عام ١٣٥٣ مطبعة ام القرى .

شرا ، وانهما يعملان جهدهما لاجل ترقية شؤون امتهما في ظل الطمأنينة والسكينة وأن يبذلا وسعهما في سائر المواقف لما فيه الخير لبلاديهما وأمتهما غير قاصدين بهذا أية عداوة على أية أمة • كما ان المادة (٢٠) تنص على ان كلا من الفريقين المتعاقدين يمكن ان يخول ممثليه في الخارج حق تنسيق جهودهم للوصول الى سياسة موحدة لمصلحة « أمتهم الواحدة » • ومعاهدة الطائف رسمت الخطوط الاولى والعناصر الرئيسية للاتحاد مع اليمن بحلف Confederation .

كما تعتبر معاهدة الطائف نموذجا للسياسة التي سيلتزمها ابن سعود في دعم مبدأ التوازن والتحكيم بين الشعوب العربية والاسلامية • وغداة توقيع المعاهدة توطدت الصداقة بين الملكين برغم التباين المذهبي • وستقف السعودية ضد جميع المحاولات التي يقوم بها الثوار اليمنيون للاطاحة بنظام الامامة المتخلف باليمن اعتبارا من ١٩٤٨ كما سنرى •

وفي عام ١٩٣٦ كان يلوح في الافق العربي بوادر تقارب سياسي وحربي حين وقع ابن سعود معاهدة الاخاء والتحالف العربي مع العراق (١٢ نيسان ١٩٣٦) ـ وكان قد تردد في عقدها قبل ذلك بأربع سنوات على ما ذكرنا في فصل العراق [1] ـ وظهر ان انجاز المطمح العربي المشترك في تضامن جزء من العالم العربي على الاقل ، ليس حلما يراود اذهــان القوميين العرب فحسب ، وانما هو مشروع حقيقي رسم خطوطه الرئيسية الملك فيصل ثم الملك ابن سعود والملك غازي حرصا منهم على وحدة الصف العربي تجاه الاحداث العالمية المضطربة آنذاك • ان احدى المميزات البارزة في هذه المعاهدة هي انها نسجت على منوال معاهدة الصداقة الاسلامية والاخوة العربية بين اليمن والمملكة السعودية (معاهدة الطائف ١٩٣٤) •

لا يمكن التقليل من مظهر الشعور بالتضامن العربي الذي بدا جليا على نحو غير مسبوق في العلاقات الدولية العربية • ولا مراء في ان تحسن روابط الاخوة العربية في الدول العربية الثلاث التي خرجت الى العالم بعد الحرب العالمية الاولى ، وهي اليمن والمملكة السعودية والعراق ، قد اكسب الحركة القومية العربية أساسا متينا وقاعدة راسخة في صرح التعاون العربي • كما بدد جانبا كبيرا من غيوم الشك

---

(١) ارسلان « الوحدة العربية » ص ٢٠ •

والريبة وسوء الظن التي كانت تسمم جو العلاقات القائمة بين الحكام العرب ، ووضعت في الظاهر حدا لخصومة الحكام في البلدين • وهذا لا يعني امحاء سوء الظن لدى السعوديين وانطفاء الحقد في قلوب الهاشميين ، بل ان العداء المستحكم سيبدو عنيفا في الموقف الصلب الذي وقفه آل سعود بمعارضة مشروعي سورية الكبرى والهلال الخصيب العزيزين على بريطانية • ذلك ان ضم العراق وفلسطين وسورية ولبنان تحت سلطان الهاشميين من شأنه ان يحقق الى جوار السعودية دولة أقوى منها ولا يؤمن جانبها ؛ في حين ان الوحدة العربية او الاسلامية التي يدعو لها آل سعود ، يجب ان تقوم على مبدأ صريح وواضح ، وهو ان تكون الوحدة لهم وليس ضدهم •

لقد اتفقت السعودية والعراق على عقد معاهدة أخوة عربية وتحالف[1] ، بناء على الروابط الاسلامية والوحدة القومية التي تجمعهما ، وبغية المحافظة على سلامة بلادهما وبناء على ما تقتضيه الحاجة الماسة للتعاون فيما بينهما ، والتفاهم في الشؤون التي تهم مصلحة بلديهما • ونصت المعاهدة [2] التي وقعت في اليوم الثاني من شهر نيسان ١٩٣٦ في مدينة بغداد ، على وجوب اجراء تسوية سلمية لما يشجر من النزاع بين الفريقين المتعاقدين (مادة ٢) • ويتعهد كل من الفريقين المتعاقدين تعهدا متقابلا بأن لا يقوم بأي تفاهم أو اتفاق مع فريق ثالث على أمر يضر بمصلحة الفريق المتعاقد الآخر أو بمملكته أو مصالحها ، أو يكون من شأنه تعريض سلامة مملكته او مصالحها للاخطار او الاضرار (مادة أولى آ) • واذا أدى نزاع بين أحد الفريقين المتعاقدين ودولة ثالثة الى حالة يترتب عليها خطر يؤول الى الحرب ، يوحد الفريقان المتعاقدان حينئذ مساعيهما لتسوية ذلك النزاع بالوسائل السلمية وفقا للتعهدات الدولية التي يمكن تطبيقها على تلك الحالة • وفي حالة وقوع اعتداء مفاجيء •• على الفريقين ان يتشاورا في ماهية التدابير التي يراد القيام بها بقصد توحيد مساعيهما بالطرق المفيدة لرد الاعتداء المذكور (مادة ٤) • ويتعاون الفريقان المتعاقدان على توحيد الثقافة الاسلامية العربية والاساليب العسكرية في بلادهما بتبادل بعثات علمية

(١) انظر نص المعاهدة في الوثائق والمعاهدات .

(٢) Toynbee, Survey for 1936, p. 783.

وعسكرية للاطلاع على الاساليب المتبعة في المملكتين ، وتوحيد ما يمكن توحيده منها ، وللاستفادة من المعاهد العلمية والعسكرية والتدرب فيها (مادة ٧) • وترك الباب مفتوحا امام الدول العربية الاخرى الراغبة في الانضمام الى هذه المعاهدة وخاصة اليمن ، فقد جاء في المادة ٦ « نظرا للاخوة الاسلامية والوحدة العربية التي تربط المملكة اليمنية بالفريقين المتعاقدين ، فانهما يسعيان لطلب انضمام حكومة اليمن الى هذه المعاهدة ، ويجوز لاية دولة عربية اخرى مستقلة ان تطلب الانضمام لهذه المعاهدة » • وبالفعل فقد انضمت اليمن الى معاهدة الاخوة العربية والتحالف في نهاية نيسان ١٩٣٧[1] •

وفي شهر نيسان ايضا من عام ١٩٣٦ كان ابن سعود يعمل على صياغة حلقة أخرى في سلسلة التقارب العربي ، بمفاوضة معاهدة صداقة مع دولة عربية ثالثة كانت حينئذ على وشك توقيع معاهدة الاستقلال التام • هذه الدولة العربية هي مصر ، التي لم يكن بينها وبين المملكة السعودية علاقات دبلوماسية رسمية لعشر سنوات خلت ، منذ حادثة المحمل المؤسفة في حزيران ١٩٢٦ • وبعد مضي خمسة أيام على توقيع معاهدة الاخوة العربية والتحالف بين العراق والمملكة السعودية ، ابرق رئيس وزراء مصر علي ماهر الى وزير الخارجية السعودية ، يدعوه ليرسل ممثلا الى مصر للمفاوضة في ابرام معاهدة سعودية مصرية • قبلت الدعوة حالا ووقعت المعاهدة في ٧ أيار ١٩٣٦[1] وعلى الرغم من أن مدى المعاهدة المصرية السعودية لم يكن متسعا كما كان في المعاهدتين الاخريين،اذ اهتمت أولا بتسجيل اعتراف الحكومة

---

(١) ذكر الامير شكيب ارسلان في « الوحدة العربية » ما نصه : « وقد قلنا لفيصل ان الوحدة العربية لا تتم الا اذا اتفقت سورية والعراق مع ابن سعود لما له من انصار او احزاب في سورية ، وقد وافق على ذلك ، وكتب إلى ابن سعود ولكن الظروف عاكستني في ذلك الحين وعارضني بعضهم • ولم تمض مدة على فيصل حتى تمكن من الاتفاق مع ابن سعود ، وهذا الامام يحيى ينضم الى القطرين المتفقين .. الوحدة العربية هي فكرة قديمة لم نخترعها نحن ، وانما كنا اول من دخل في هذا الموضوع بصورة علنية ، فكنا نتكلم تارة مع ابن سعود وتارة مع فيصل وتارة مع الامام يحيى وطالما وفقنا بين المتخالفين منهم » •

(٢) Documents on International Affairs ; 1937, pp. 528 - 30.

المصرية بالاستقلال التام والسيادة للمملكة السعودية (مادة ١) ، وباقامة علاقات سياسية وقنصلية بين الفريقين (مادة ٣) وبتنظيم معاملة الحجاج المصريين •• على الرغم من كل ذلك ، فقد دعمت حركة التقارب العربي ، ومهدت للتفاهم والتواصل بين الدولتين ، وقررت الحكومة السعودية ارسال ٣٣ طالبا الى مصر للدراسة فيها [١] •

وتحدث كثير من الكتاب عن مقدرة الملك عبد العزيز على بناء دولة قوية في الجزيرة العربية • وكانت اخباره تصل الى بلاد العرب الشمالية فيزداد الاعجاب بشخصيته القوية في الثلاثينيات • ولعل ذلك راجع الى صفة أصيلة في ابن سعود دون غيره من الحكام العرب آنذاك ، وهي مقدرته على تحقيق هدفه بقوة جنوده المغاوير• والحق ان الانظار كانت ترنو اليه ابان اندلاع الثورات ضد سلطة الانتداب في بلدان العرب الشمالية ، فضلا عن أن موقع البلاد السعودية المتوسط في المشرق العربي ، جعلها النواة الطبيعية لاي وفاق عربي او اتحاد عربي مقبل • ولا يخفي انصار ابن السعود قلقهم من العوائق السياسية والاجتماعية التي تعرقل سبيل هذه الوحدة العربية ، على الرغم من توفر الروابط الثقافية والدينية والاقتصادية التي تصل المملكة السعودية بجاراتها العربية الشمالية • وهم يرون انه لا يمكن انشاء الوحدة العربية الا اذا قام ابن سعود بخطوة حربية ، وذلك بالهجوم على سورية[٢] وضمها الى بلاده • ولكن هل يزج ابن سعود نفسه في مغامرة من شأنها ان تغضب

---

(١) Toynbee, Survey for 1936, p. 790

(٢) اشار لورد Lugard عضو لجنة الانتدابات الدائمة الى ان صحيفة Bourse Egyptienne الصادرة في القاهرة (١٨ ــ ١٩) آذار ١٩٣٥ قد افادت بان الوطنيين السوريين ارسلوا بعثة منهم الى ابن سعود وشرحوا له خطتهم وبرنامجهم لانشاء امبراطورية اتحادية عربية تحت رئاسة الحجاز ، فأجاب روبردوكي الفرنسي ان الحركة العربية تلقى التأييد من عدد من المسلمين الوطنيين ، وفيما يخص اي تأييد لهم من الخارج يمكن القول بدقة انه لم يأت من المملكة السعودية . وبرغم ان ابن سعود يتمتع باعجاب الوطنيين السوريين ، فلا يوجد سبب للاعتقاد بانه اندمج في الشؤون السورية . وقال دوكي انه سمع ان البعثة استقبلها ابن سعود ولكنها اصيبت بخيبة امل . عن :
Minutes of the 27th. Session 1935, pp. 79 - 80 Permanent Mandates Commission.

انكلترة التي يعني غضبها انطلاق « الهاشميين » ضده ؟ [1] . ان ما يتوفر لدى المملكة السعودية من صفات سياسية وحربية ممتازة كان يقابلها أيضا فقر في المجال الاقتصادي ، وتأخر في المجال الفني والثقافي مما يجعلها غير قادرة على ايجاد الوحدة العربية وقيادة حركتها . ولكن ابن سعود رأى ان هذا النقص يمكن ان يعوض في دخول بلاده بمشاركة ثنائية مع دولة عربية سبقت في مضمار التقدم ، كالعراق مثلا ، فتنتفع المملكة السعودية منه ثقافيا وفنيا وتنفعه حربيا ، وبذلك يستفيد العرب كافة من هذا التقارب الذي بدأه ابن سعود وغازي ، ثم تبعتهما اليمن ، ومصر الى حـــد ما .

وهذا التقارب العربي كان له أثر في امارات الخليج العربية الممتدة من الكويت حتى عمان ، حيث يقبض المستشار البريطاني المقيم في كل من هذه الامارات على أدوات السياسة الداخلية والخارجية . فقد كان من نتيجة الخطوات العربية السعودية في مضمار التعاون والتضامن بين بلاد العرب ان استيقظت النزعات القومية المكبوتة في بعض شعوب هذه الامارات ، وبدأت الكتل الوطنية فيها تتهم النظام القائم تحت الحماية البريطانية وتستنكر تجاهله المطالب القومية العربية ، مراعاة لمصلحة الامراء والشيوخ من ناحية ، وحرصا على مصالح الامبراطورية البريطانية من ناحية ثانية . وارتفعت أصوات تدعو الى وجوب الاتحاد مع أية دولة عربية مجاورة . وعندما زار امير البحرين بغداد في شهر آذار ١٩٣٦ ، اقترح ان يطلب أمراء ومشايخ الخليج الانضمام الى المعاهدة العراقية السعودية للاخاء والتحالف العربي[2] .

---

(١) كان ابن سعود يحسب حسابا كبيرا لعداوة الهاشميين الذين طردهم من الحجاز . وكان دائم الحذر والخشية من احاطة اعدائه به ، وبخاصة عندما توفى الملك فيصل وخلفه في زعامة « النهضة الهاشمية » الامير عبد الله الذي كان يكرر دوما مسألة العودة الى ارض « الوطن المضاع » الامر الذي اقلق ابن سعود فحرص على صداقة بريطانية ، فهي الوحيدة التي يمكنها ان تمنع الامير من « العودة » ، او ان تحرضه على تنفيذ بعض المشاريع التوسعية التي من شأنها ان تهدد ابن سعود ، كمشروع سورية الكبرى مثلا او مشروع الهلال الخصيب ، وسنزيد المسألة تفصيلا في مكانها من البحث .

(٢) ترددت في شهر آب ١٩٣٦ شائعة مفادها ان شيخ البحرين الذي عاد من زيارة لندن قد قرر بناء على رغبة الحكومة البريطانية ان يدعو زملاءه مشايخ الخليج العربي لحضور مؤتمر يعقد في البحرين بقصد انشاء اتحاد اقتصادي سياسي بينهم مما يمكنهم ←

ان مجهود ابن سعود في جمع الدول العربية المجاورة له بحلف بنائي كان يصاحبه سياسة عملية تتمشى معضآلة موارده ، وقلة امكانياته اذا ما قيس بالعراق مثلا ، الذي كان يستطيع ان يقوم بدور كبير في تحقيق حلم العرب بالوحدة ، لانه كان يجمع الى استقرار الشؤون المالية فيه وغنى الموارد الاقتصادية ، تقاليد الادارة العصرية ، ورقي النظم الثقافية نسبيا •

وظهر دهاء ابن سعود حين تحالف مع اعدائه : الهاشميين في العراق ، والزيود في اليمن • وليس ذلك سوى امتداد السياسة الداخلية التي اتنهجها على المستوى العربي الدولي • ومعلوم ان تلك السياسة اعتمدت على محالفة القبائل ومصاهرتها ونفحها بالمال • والحق ان ما قام به ابن سعود يدل على مدى اهتمامه بتقارب الشعوب العربية والاسلامية وجمع شملها ، ولعل الشعوب الاسلامية لها مقام التقدم عنده على الشعوب العربية ، ليس فقط بسبب ضخامة عدد الحجيج السنوي الذي يؤم الديار المقدسة الحجازية ، وانما أيضا لان ابراز الاخوة الاسلامية وتقديمها يخول الاسرة السعودية ان توطد وشائج العلاقات الطيبة مع الدول الاسلامية غير العربيه ، الدانية منها والقاصية ، وفي ذلك نفع عظيم للسعودية •

ان ما كان يميز السياسة السعودية ، وسيميزها الى زمن بعيد ، هو اعتمادها على شبكة من الاحلاف القائمة على الصلة الاسلامية • والنتيجة المنطقية لهذه السياسة قبل تغلغل النفوذ الامريكي عقب اكتشاف البترول ١٩٣٨ — ان تكون الدول ذات العلاقة المستمرة مع ابن سعود هي نفس الدول التي تحكم مجموعات اسلامية مثل بريطانية وفرنسة وهولندة والاتحاد السوفييتي • وما دام ابن سعود على قيد الحياة ، فلن يتبدل الخط العام للسياسة السعودية الخارجية ، وسيظل يهدف الى الملاءمة بين الصداقات القديمة وضرورات المشاركة في شؤون العالم

← ان يعملوا « كدولة عربية مستقلة ذات كيان تجاه بقية العالم » . ان صح هذا الخبر فهو يدل ، في نظر الاستاذ توينبي ، على محاولة سياسية من جانب بريطانية لارضاء الاماني القومية لشعوب الخليج دون ان تضار التزاماتهم تجاهها أو تلغى . (Toynbee, Survey for 1936, p. 793) ومعنى ذلك ان شيخ البحرين قد ارتضى حلا وسطا بين انضمام امارات الخليج الى الميثاق العربى ، وبين بقائها منفردة لا تربطها رابطة فيما بينها .

الحديث ، دون ان يعني ذلك تخليها عن خطتها العربية الاسلامية التي ستظل الاساس المكين في السياسة السعودية الخارجية • والاسلام كجامعة تنطوي ضمنها القوى العربية بمعناها العنصري ، سيبقى فوق الخلافات حول نظم الحكم ، وفوق العداوات القديمه بين القبائل والاسر الحاكمة ، الا عندما تتعارض مصالح البلاد المنتجة للنفط أو تتماثل ، فحينئذ سيزيد هذا التعارض أو التماثل من تباين الاتجاهات السياسية السعودية وسيكون له الاولوية •

ومسألة فلسطين ، لفتت انتباه عاهل الجزيرة فشجب بشدة حوادث العـدوان اليهودي ، واستنكر الاعتداء على المصلين في المسجد الاقصى خلال حوادث آب ١٩٢٩ ، كما احتج على بريطانية ، فأجابه العاهل الانكليزي في كانون الاول ١٩٢٩ مؤكداً اهتمام حكومته للامر • ولما اشتدت ثورة فلسطين عام ١٩٣٦ ، رأى ان يقوم بمساعي مشتركة مع الدول العربية ، فأبرق الى القائم باعمال مفوضيته في بغداد ، ليبلغ ياسين الهاشمي رئيس الوزارة رأيه في الموقف ، ووجوب المسارعة لعمل المسكن لمساعدة فلسطين في موقفها الحاضر الدقيق ، ولفسح المجال أمام العرب لنقل قضية فلسطين من قضية بين اهاليها وانكلترة واليهود ، الى قضية عربية عامة • واتصل بعدئذ برؤساء الحكومات البريطانية التي لم تشأ الارتباط بأي وعد ، ولم تزد على القول بانها تحب الاصلاح[1] • وكذلك سارع الى تحويل العون المادي للثوار عام ١٩٣٦ • وفي كانون الاول ١٩٣٧ قابل الوزير البريطاني في جدة مستر « بولارد » ، وافضى اليه بأنه لا يوجد عربي صادق يوافق على التقسيم • كما ارسل الى الرئيس الامريكي روزفلت رسالة مؤرخة في ١٩ تشرين الثاني ١٩٣٨ بشأن فلسطين ، يدحض فيها حق اليهود ويدلي بحق العرب فيها •

وفي المذكرة الشفهية التي وجهتها الحكومة السعودية الى حكومة العراق في حزيران ١٩٣٩ بخصوص سورية وفلسطين ، يمكن ان نرى تطبيقا لميثاق الصداقة

---

(١) ابان ابن سعود في هذه البرقية : ١ ـ وصف الحالة التي صارت اليها قضية فلسطين وعظم اثرها في نفوس العرب والمسلمين ٢ ـ موقف الانكليز وتصلبهم في القضية ٣ ـ موقف العرب المدافعين عن انفسهم ٤ ـ المصاعب التي ستواجه التدخل في الامر امام تشدد البريطانيين واستماتة العرب ٥ ـ اشار الملك الى ان هذه الصعوبات كلها لا يجوز ان تحول دون بذل المساعي .

والاخوة المعقود بين الدولتين سابقا (١٩٣٦) • في هذه المذكرة لفتت المملكة السعودية نظر العراق واقترحت عليه التدخل لتدعيم الجانب السوري واقناعه بقبول وساطة مشتركة من العراق والسعودية ، بغية تنظيم العلاقات والشؤون المعلقة بين سورية من جهة وبين فرنسة ومن ورائها انكلترة من جهة اخرى ، وذلك لاجل تفادي « تضحية الشعب السوري والفلسطيني »[١]• وبادرت وزارة الخارجية السعودية الى محو الانطباع غير المستحب الذي ولدته المذكرة السابقة ، وأوضحت لحكومة العراق بأن المملكة العربية السعودية « قد عملت وسوف تعمل للاتفاق مع الحكومات العربية الراغبة في توحيد قوى الامة العربية لمصلحة العرب كافة ودون أي اعتبار آخر ، وان المذكرة قد وضعت للدعوة الى القيام بعمل مشترك على اساس الاتفاقات المعقودة سابقا بين الطرفين »[٢] •

هذا ما اتسعت له ظروف السعودية من العمل للفكرة العربية ، في الفترة ما بين الحربين ، ترى ماذا سيكون موقف السعودية من دعوة الوحدة العربية التي انطلقت في أثناء الحرب العالمية الثانية وما بعدها ؟

• • •

المملكة المتوكلية اليمنية

أ ــ أهم الاحداث السياسية في المملكة المتوكلية اليمنية حتى عام ١٩٣٩ :

بعد سقوط الدرعية عاصمة آل سعود بيد ابراهيم باشا ، توجه الى تهامة اليمن حيث طرد الوهابيين •• وبذلك استعاد الامام الزيدي نفوذه مقابل دفع أتاوة مالية الى السلطان في الآستانة ، ورابطت الحاميات المصرية في مدن الحديدة وزبيد ومخا • وعندما استولى البريطانيون على مدينة عدن في مطلع عام ١٨٣٩ تزايد اهتمامهم باليمن ، وتبينوا ان احتلال عدن لن يكون له كبير أهمية ما لم يتوصلوا الى تفاهم مع القبائل المجاورة • عقدوا مع هذه القبائل مجموعة معاهدات لم تؤد الى الاستقرار

---

(١) A. Nassif, Revue Egyptienne de droit International, p. 56.1949.

(٢) Idid

والسلام . ولما جلت الفيالق المصرية عن الجزيرة العربية عام ١٨٤٠ ، حلت محلها الفرق التركية التي ما كادت تقترب من صنعاء حتى لقيت مقاومة عنيفة من اليمنيين ، فانقلبت على أعقابها لتعود بقوة أكبر عام ١٨٧٢ ، فتحتل صنعاء وتتقدم الى مناطق القبائل الواقعة في دائرة النفوذ البريطاني في عدن . وأفاد الترك من النزاع الذي ذر قرنه بين تلك القبائل فتوغلوا في أراضي محمية عدن سنة ١٨٧٣ . ومنذ ذلك التاريخ أصبحت الحدود بين اليمن وعدن أبعد ما تكون عن الاستقرار ، والخلاف حولها ناشب باستمرار ، الى ان عينت الحدود على يد لجنة مختلطة من الانكليز والترك عام ١٩٠٤[٣] ، فانقسم الجزء الغربي من بلاد العرب الجنوبية الى مناطق نفوذ تركية وبريطانية من الناحية النظرية فقط ، لان كلا من تركية وبريطانية في الواقع لم يكن لها كلمة مسموعة خارج مراكز الحاميات والقبائل الواقعة تحت سيطرتها المباشرة . لقد قامت ثورات عنيفة في اليمن على الاتراك الذين تراوحت سياستهم تجاهها بين اللين والشدة المتناهية ، هذه الثورات شغلت الامراء والائمة والسادة الذين يمثلون الطبقات الحاكمة في اليمن عن صراعهم الدامي وسلوكهم طريق الفناء ، فلما ان وجد الترك في الميدان، اجتمعت الكلمة على حربهم وطردهم من البلاد .

وفي عام ١٩٠٤ اشتعلت الثورة ، وحوصر الترك في صنعاء طويلا ، ثم اعاد الامام يحيى بن محمد حميد الدين الكرة عليهم ، وحاصرهم فيها ستة أشهر « أطعمناهم النار والفار » فسلموا بدون شرط [١] ، واتخذها عاصمة للامامة الزيدية في نيسان ١٩٠٥ . ولكن احمد فيضي باشا التركي[٢] استردها وتتبع الامام الذي انسحب جنوده الى (شهارة) حيث جرت وقعة هائلة دحر فيها الترك شر دحرة ، وعقد بعدها اتفاق بين القائد التركي والامام نص على الصلح سنة ١٩٠٦[٣] . ولم يدم الصلح بين الفريقين سوى بضع سنين ؛ ففي عام ١٩١١ كانت العشائر قد تاقت الى الحرب فهاجمت صنعاء ، واحاطت بها ، وكان الوالي يومئذ عزت باشا يجمع

(١) Survey of International Affairs, 1928 p. 309.

(٢) الريحاني « ملوك العرب » ١ : ١٤٥ (مطبعة صادر بيروت ١٩٥١) .

(٣) كان عدد قواته ٥٠ الفا على ما يذكر الريحاني ، نفس المصدر ص ١٤٦ .

(٤) شروط الصلح مذكورة في كتاب الواسعي « تاريخ اليمن » ص ٢٠٧ — ٢١٠ .

بين الحذاقة والحنكة ، فاستطاع ان يستميل الامام . وكانت الدولة العثمانية على أهبة الحرب في ايطالية في طرابلس الغرب ، فسعى عزت أن يصل الى اتفاق مع اليمنيين يمنعهم من الانحياز الى الطليان ، كما فعل الادريسي . وعقدت معاهدة ١٩١١ بين الامام يحيى والوالي عزت باشا لمدة عشر سنين ، وكان من شروطها ان يعترف الامام بالسيادة التركية . وتقبل الدولة ان يتمتع بالاستقلال الذاتي وخاصة في الامور الدينية . كما تتعهد الدولة بأن تدفع للامام ولرجاله السادة ولمشايخ حاشد وبكيل[١] مشاهرات مالية قدرها (٢٥٠٠)ليرة ذهباء وتأكدت هذه المعاهدة بفرمان من السلطان العثماني عام ١٩١٣ ، وفيه تعترف الحكومة العثمانية باستقلال الامام الاداري في جميع الهضاب والمرتفعات حيث تسود الشيعة الزيدية . أما في منخفضات تهامة حيث يشكل السنيون الشوافع الاكثرية العددية من السكان ، فقد ظلت السلطة بيد الترك ، ولم يعترف معظم الشوافع بسلطة الامام وظلوا مصدر متاعب وقلق له [٢] .

بقي الامام أمينا على عهده مع الترك خلال الحرب العالمية الاولى وما بعدها بقليل ، « وبعد ان كان اليمانيون تحتاج الدولة العثمانية في بسط سيادتها عليهم الى أربعين أو خمسين طابورا بصورة دائمة ، انقلبوا بأسرهم عثمانيين[٣] » ، بينما كان الادارسة قد ثاروا على الدولة أثناء الحرب التركية الايطالية (١٩١١ — ١٩١٢) وبمعونة الطليان اصبحوا شبه مستقلين ، واثناء الحرب العامة انحازوا الى جانب الانكليز والحلفاء ، وتوسعت امارتهم لتشتمل على معظم أراضي تهامة الشمالية . أما اليمن فقد كانت في وضع غريب لان الحامية التركية وكان عددها ١٤ الفا بقيت معزولة عن بقية القوات التركية المحاربة ، ولذا ما كان لها تأثير يذكر على سير العمليات الحربية في الشرق الادنى العربي . وبينما كانت هذه الحامية تتحرك للهجوم على عدن لضرب البريطانيين فيها ، كانت البوارج البريطانية تقصف الموانىء اليمنية

---

(١) قبائل زيدية متعصبة قوية تقع منطقتها الى الشمال من صنعاء ، شروط الصلح بين الامام وعزت باشا عام ١٩١١ مذكورة في كتاب الواسعي ، نفس المصدر السابق ص : ٢٣٦ — ٢٣٩ .

(٢) Survey for 1925, Vol I, p. 277.

(٣) المنار الجزء ٩ المجلد ٢٢ صفحة (٦٩٠ — ٦٩١) .

تعضيدا لهجوم الادارسة من عسير على الترك في اليمن . واستمرت هذه الاعمال والمناوشات الحربية طوال سني الحرب ، والامام في غضون ذلك لا يطعن الترك من الوراء،مع انهم بعد ان دخلوا الحرب لم يدفعوا مرتباته ومرتبات القبائل الاخرى ، ولا يصغي الى اغراء الانكليز لينضم الى حلفهم ، لانه مرتبط بالترك ، وبينه وبينهم صلح لعشر سنين . والترك عرضوا على الامام ان ينسحبوا من صنعاء لتكون له السيادة فيها ، لولا ان الالمان اقنعوهم بان انسحابهم من اليمن يفسح المجال للانكليز فيحتلونها فورا[١] .

وبعدتوقيع هدنة مودرس (١٩١٨) ، استسلمت معظم الفرق التركية في اليمن الى البريطانيين الذين نزلت قواتهم في بر اليمن لتساعد على اجلاء الترك ، وقد احتل البريطانيون ميناء « الحديدة » وأبقوه في أيديهم[٢] ، وميناء « لحية » وسلموه الى حليفهم الادريسي . ولكنهم لم يحاولواالتوغل في الاقاليم الداخلية الواقعة تحت نفوذ الامام يحيى ، ولا ورثوا السيادة العثمانية على اليمن . ماذا كان موقف الامام ؟

لم يتأثر الامام باعلان الهدنة اذ اعتبرها غير ملزمة له . ولم يتهيب من نصر الحلفاء ، وانما سعى لاقناع بعض الضباط والموظفين المدنيين الترك ، وفيهم الوالي السابق محمود نديم بك ، كي يبقوا في البلد ويخدموا لديه . ورأى انه يستطيع بمعونتهم ان يفرض سيطرته على البلاد اليمنية برمتها لا على مرتفعات الزيود فحسب، بيد انه وجد مناهضة قوية من جانب قبائل الشوافع السنية التي لا ترغب في استبدال الحكم الزيدي بالحكم التركي[٣] . ولكن من أين يبدأ ؟ رأى أنه غدا معزولا عن البحر ، على اثر احتلال الانكليز لميناء الحديدة ، وتسليمهم ميناء لحية الى الادارسة ، وبذلك حرمت تجارة البر اليمني عامة ، وصنعاء خاصة ، من هذه المنافذ الطبيعية

(١) H. Jacob, « Kings of Arabia » p. 153

(٢) يذكر الواسعي في تاريخ اليمن ص ٢٦٢ « ان الانكليز وعدوا الامام ان يسلموا له الحديدة ثم انقلبوا عن وعدهم فسلموها الى صديقهم الادريسي ، فغضب الامام وبادرهم بمثل معاملتهم ، وزحف نحو عدن واستولت قواته على اربع جهات من تلك النواحي وهي الضالع والش ، والاجعود والقطبب » .

(٣) Survey for 19.., Vol, l, p. 320

الحيوية جدا . فارتأى ان يغير في أواخر عام ١٩١٩ على حدود عدن ليرغم الانكليز على الجلاء عن الحديدة ، معلنا ان عدن وحضرموت وبلاد الادارسة كانت كلها تابعة في الاصل لاسرته . وجلا الانكليز عن الحديدة ولكن ليسلموها الى حليفهم امير عسير السيد محمد الادريسي (١٩٢١) الذي انقسمت اسرته بعد وفاته (١٩٢٣) وذر قرن الخلاف بين امرائها . فانتهز الامام هذه الفرصة ليستولي على موانىء باجيل ولحية (١٩٢٤) ثم على الحديدة (١٩٢٥) ، وبذلك فتح طرق التجارة بين هذه الموانىء وصنعاء ، بعد ان وطد نفوذه في ساحل تهـامة .

كان لتوسع الامام في تهامة والحديدة نتيجة مزدوجة ؛ فمن جهة ارتضى معظم الادارسة سيادة ابن سعود عليهم في (تشرين الاول ١٩٢٦) ، وقد كانوا مستقلين من قبل ، ومن جهة ثانية اشتكى الانكليز لان عدن تضررت اقتصاديا بسبب تحول القوافل التجارية عنها الى الحديدة. وتفسير ذلك، أن طريقا جديدا يقع ضمن ممتلكات الامام قد فتح الآن بادئا من الحديدة على ساحل البحر الاحمر حتى يصل الى أغنى أقاليم اليمن الداخلية . وهذا الطريق يلائم المصالح التجارية الايطالية في مستعمرة اريترية الايطالية على الشاطىء الافريقي المواجه لليمن . ولو اقتصر الامر على هذه الاضرار التجارية تلحق ببريطانية لهان الامر عليها . ولكن بريطانية كانت خير من يعلم أن الحكومة الايطالية ما انفكت يوما تنظر الى اليمن ، وتعتبرها مجالا صالحا للتوسع التجاري والسياسي . يكفي ان تضع ايطالية قدمها على شاطىء اليمن المواجه لاريترية لتربض على مضيق باب المندب ، فتهدد شريان الحياة البريطاني ، ومن يدري فقد تؤدي هذه الصلات التجارية الحسنة بين اريترية واليمن الى تحسين العلاقات السياسية بين ايطاليه والامام ؟ ايطالية التي خرجت مغاضبة من الحرب العالمية الاولى لانها لم تحصل على استحقاقها من « القسمة » والامام الذي يطالب بعدن ، ويدمغ بريطانية بمظاهرة القبائل السنية ضده بالمال والسلاح . وعندئذ يقترب الخطر من الجزيرة العربية التي تعتبرها بريطانية ارضا محرمة على غيرها من الدول . نحرص على ابعادها لا لان المصالح البريطانية المباشرة مع امارات الجزيره تستدعي شدة هذا الحرص . وانما لانها (بريطانية) ترغب في ان يكون طريق الهند بعيدا عن متناول تلك الدول الاوربية . وبما انه لم يكن بوسع « الاسد » البريطاني ان يبسط سلطانه

على مرتفعات اليمن الوعرة عن طريق فتح مباشر او ما يشبهه ، على غرار ما فعل في مشيخات وامارات الساحل الجنوبي والشرقي للجزيرة العربية ، فليعتمد على الوسائل الدبلوماسية وليجرب حظه في هذا الميدان ، وهو سيد فيه •

قضى السير جلبرت كلايتون قرابة الشهر (٢٥ كانون الثاني — ٢١ شباط ١٩٢٥) يفاوض الامام بشأن احتلاله لبعض التخوم والبقـاع التابعة لاملاك مستعمرة عدن ، والمأهولة بقبائل عربية مشمولة بحماية ورعاية بريطانية • ولكن كلايتون لم ينجح في ابرام اي اتفاق مع الامام الذي لم يعترف بشرعية وجواز حالة الحدود القائمة لمحمية عدن ، طبقا لاتفاق الحدود التركي البريطاني ١٩٠٤ ، عندما قامت لجنة مختلطة من الجانبين بتخطيط الحدود بين مناطق نفوذ كل منهما في الجزء الجنوبي الغربي من الجزيرة العربية • وكان الامام يرى ان محمية عدن ومستعمراتها وما يجاورهما من أقاليم كانت كلها تقع ضمن دائرة نفوذ واملاك أجداده ، ولذا فهو لا يقر عقود بريطانية واتفاقاتها السياسية التي وقعتها مع الحكام العرب المحليين ورؤساء القبائل من جهة ، ومع الحكومة العثمانية بصفتها صاحبة السيادة في أجزاء اليمن الاخرى من جهة ثانية ، في الفترة الكائنة ما بين احتلال بريطانية لعدن ، والغاء السلطة العثمانية على اليمن بعد توقيع معاهدة مودرس (١٩١٨) •

وبريطانية ردت على مطالبات الامام بقولها انها غير معقولة وغير قانونية ، لانه لم يكن مستقلا لا من حيث المبدأ ولا من حيث الواقع de Jure or de facto في أي وقت مضى أثناء عقد هذه العهود ، وبالتالي فان احدا لم يعترف باستقلاله أو بمركزه السياسي [١] •

أما ايطالية فكانت أسعد حظا في علاقاتها مع الامام من بريطانية ؛ ذلك ان حاكم أريترية السنيور غاسباريني ، بتفويض من الحكومة الايطالية ، وقع معاهدة صداقة وتجارة (ايلول ١٩٢٦) لمدة عشر سنين مع الحكومة اليمنية • والشيء المهم في المعاهدة ، ان الحكومة الايطالية اعترفت بالاستقلال التام المطلق لبلاد اليمن وبسيادة ملكها الاما ميحيى (مادة ١) ، الامر الذي لم تقدم عليه الحكومة البريطانية ، ولم يكن لديها أي سند قانوني أو ادبي للاعتراض على هذه الخطوة الخطيرة من جانب

---

(١) Survey for 1928, p. 308.

ايطالية ، في مضمار تحطيم القاعدة البريطانية القائلة بوجوب بقاء الاشراف على شؤون الجزيرة العربية بيد بريطانية وحدها • ومن الناحية التجارية نصت المعاهدة على استيراد الاجهزة الفنية ، وعلى استخدام الفنيين الايطاليين في انجـاز المشاريع اليمنية (مادة ٣) • وفي مطلع عام ١٩٢٧ دارت محادثات بريطانية ايطالية بخصوص المسائل الاقتصادية التي تمس مصالح الطرفين في البحر الاحمر على وجه العموم ، وفي الساحل العربي على وجه الخصوص • ونفت بريطانية ان يكون بينها وبين ايطالية أي سوء تفاهم او ان يكون هنالك ما يحمل على الظن بان المصالح البريطانية سوف تتأثر بسياسة ايطالية أو نشاطها [1] • وفي هذه الاثنـاء كانت الحكومة الايطالية ترحب ببعثة اليمن التي كان على رأسها نجل الامام سيف الاسلام محمد ، والتي امتدت زيارتها لايطالية من (٢٤ حزيران حتى ١٣ تموز سنة ١٩٢٧) ، قام الامير اليمني خلالها بمفاوضة رجال الصناعة واطلع على أحدث المعامل •

ما هو الهدف الذي رمى اليه الامام في معاهدته مع ايطالية ؟ في الحقيقة ان لم يكن هدف الامام من معاهدته مع ايطالية اكتساح محمية عدن بمعونة الاسلحة الايطالية ، فهو على الاقل يرى في ايطالية تكأة يستند اليها اذا تدهورت علاقاته مع جارته القوية الحانقة بريطانية ، التي سوف تفكر بالمركز السياسي الدولي الذي اكتسبه الامام نتيجة الاعتراف باستقلاله في المعاهدة قبل ان تقدم على التربص به والكيد له •

والعلاقات بين الامام وبريطانية كانت تزداد سوءا يوما بعد يوم لانه لم يجل قواته عن أراضي عدن المحتلة منذ سنة ١٩١٩ ، على الرغم من احتجاجات البريطانيين الذين كانوا ينظرون بسخط بالغ الى ورود اسلحة ايطالية الى الجيش اليمني ، وتأسيس مستشفى ايطالي في كل من صنعاء ومخا عام ١٩٢٧ • وزاد في ضجر السلطات البريطانية في عدن ان القوات اليمنية شنت الغارة على الاراضي « المحمية » في عامي (١٩٢٧ و ١٩٢٨) • وفي هذه السنة عقد الامام معاهدة مع روسية تخولها حق تأسيس مكاتب تجارية سوفيتية في صنعاء ، فاعتبرت بريطانية ذلك تحـديا لشعورها ، لان علاقاتها مع الاتحاد السوفييتي كانت آنذاك متوترة ، ولجأت الى

---

(1) Survey for 1928, p. 314.

استخدام سلاح الطيران في ضرب حشود القوات اليمنية فاضطرتها للتراجع عن معظم الاراضي المحمية التي كانت تحتلها • ولكن الامام لم يتنازل عن حقوقه ومطالبه في عدن • على أنه في عام ١٩٣١ وافق على الدخول في مفاوضات مع البريطانيين ، ولم يكن له بد من ذلك ، لان قوى السعوديين كانت رابضة الى الشمال من حدوده ، وقبائل الشوافع السنية كانت متمردة تحرضها سلطات عدن على الثورة وتمدها بالمال والسلاح • وكان يفت في عضد الامام ايضا ان قبائل حاشد وبكيل الزيدية المتعصبة في شمال صنعاء ، كانت ساخطة تنعى عليه اتفاقه مع الترك منذ عام ١٩١١ • في هذه الاحوال الداخلية المضطربة التي تجددت فيها الاشتباكات بينه وبين البريطانيين ، ما كان له الا يتخير سبيل المفاوضة مع بريطانية التي رأت في مصاعب الامام هذه فرصة سانحة لا يجود الزمان بمثلها للضغط عليه • وأفضت المباحثات أخيرا الى توقيع معاهدة صداقة وتعاون متبادل في صنعاء (شباط ١٩٣٤) اعترفت فيها بريطانية باستقلال اليمن الكامل المطلق (مادة ١) • ونصت على أن « يؤجل البت في مسألة الحدود الجنوبية اليمنية » الى ان تتم مفاوضات تجري بين الفريقين المتعاقـدين ، قبل انتهاء مدة هذه المعاهدة ، بما يتراضيان عليه بصورة ودية وباتفاق كامل ، بدون احداث اي منازعة او مخالفة • كما يتعهد الفريقان بأن يحولا دون أي تعد من قواتهما على حدود الآخر (مادة ٣) وتبقى المعاهدة سارية المفعول لمدة ٤٠ سنة (مادة ٧) ابتداء من تاريخ تبادل ابرامها (٤ ايلول ١٩٣٤) •

وجدير بالذكر ان بريطانية المتربصة انتهزت فرصة النزاع اليمني السعودي لتوطيد حكمها في الجنوب اليمني العربي في عدن وحضرموت • وكانت قد مدت حمايتها على النواحي التسع وحضرموت ما بين (١٨٧١ ـ ١٩١٥) على رضى من العثمانيين يومذاك •

واتبع الانكليز في الجنوب اليمني سياسة تفريق لا انسانية بين القبائل ، فكانوا يحرضون قبيلة على أخرى ليأمنوا اتحاد القبائل ضدهم ، ويضربون العشيرة المتمردة

بالعشيرة الموالية ، ضنا بأرواح جنودهم[1] ، وبذلك أوجدت بريطانية في محمية عدن أكثر من ثلاثين سلطنة وامارة ومشيخة مستقل بعضها عن بعض .

ثم قامت عام ١٩٣٧ بضم النواحي التسع الى حضرموت ومهرة وسمتها كلها محمية عدن ، ثم قسمتها الى شرقية وغربية [2] . ولكن الواقع ان هذه المعاهدة لم يكن لها تأثير ملموس على سياسة الامام في مقاومته للنفوذ البريطاني والحيلولة دون رسوخه في الجنوب المحتل ودون تغلغله في اليمن . واذا كان تحرير الجنوب اليمني المحتل من الدعائم الثابتة في سياسة اليمن ، فان السيطرة على اليمن كليا وجزئيا مما تهدف اليه السياسة البريطانية يومذاك . وتأكيدا لهذا الاتجاه شرع الامام في تحسين علاقاته مع الدول الاخرى ؛ ففي عام ١٩٣٣ عقد معاهدة صداقة مع هولندة واخرى مع فرنسة سنة ١٩٣٦ ، ولكن ايطالية ظلت تتمتع بمركز الدولة الاكثر رعاية . وفي عام ١٩٣٦ مدد مفعول المعاهدة الايطالية اليمنية (١٩٢٦) لسنة أخرى . وفي السنة التالية وقعت بعثة ايطالية في صنعاء معاهدة جديدة مع الامام لمدة خمسة وعشرين عاما ، وكانت معاهدة ١٩٣٨ هذه تمثل نقطة الاوج في المنحنى البياني للنفوذ الايطالي في اليمن ، وتعهدت ايطالية فيها بألا تتدخل في شؤون اليمن المستقلة استقلالا مطلقا ، ووافق الفريقان المتعاقدان على ان يمنح كل منهما للآخر حقوق معاملة الدولة الاكثر رعاية[3] . ولا حاجة الى القول بان العلاقات اليمنية الايطالية ما كانت في حقيقتها الا محصلة العلاقات الايطالية البريطانية ؛ فكل تحسن فيها يؤدي الى تقلص النفوذ الايطالي في اليمن . وعلى كل حال فان سياسة الامام لم تتأثر عمليا بتوجيهات

---

(١) ذكر الكولونيل جاكوب في كتابه (ملوك العرب Kings of Arabia) ما ترجمته « كتبت ادارة شركة الهند الى حاكم عدن الكابتن هينس Haines تقول : حرّض القبيلة الموالية على القبيلة المعادية فلا تحتاج الى جنود بريطانية . . . وانه وان كان هدر الدماء مما يؤسف له فمثل هذه السياسة تفيد الانكليز في عدن لانها توسع الثلمة بين القبائل » . p. 45

(٢) يبدو ان العصبية المذهبية كانت سبب الفرقة بين ائمة اليمن الزيود وبين السنيين الشوافع في الجنوب اليمني ، فانفصلت حضرموت في مطلع القرن الثامن عشر ، وسائر النواحي التسع وهي : لحج ، ابين ، الحواشب ، الصبيحة ، القطيب ، الضالع ، يافع ، العوالق ، حضرموت .

(٣) نشر نص المعاهدة الكامل في روما (كانون الثاني ١٩٣٨) Giornale d'Italia,

السياسة الفاشية الايطالية • وفي عام ١٩٣٨ احتجت بريطانية رسميا على الاذاعة الايطالية الدائبة ضدها في الشرق الادنى والاوسط ، وخصت بالذكر اذاعة (باري) الموجهة الى العرب • وفي نيسان من العام نفسه ، وقعت اتفاقية بريطانية ايطالية لتسوية المواضيع المختلف عليها منذ مسألة الحبشة • وعقد ايضا الملحق رقم (٣) المعروف بالاتفاقية الانكليزية الايطالية بخصوص بعض مناطق الشرق الاوسط ، وتعهد كل من الطرفين ألا يتخذ اجراء قد يضر باستقلال اليمن والمملكة السعودية والا يحاول الحصول على مركز ممتاز ذي صفة سياسية في أية بقعة تابعة لليمن أو للدولة السعودية ، وان يمنع الدول الاخرى من ذلك ، وألا يتدخل في الشؤون السياسية الداخلية للمنطقة المذكورة ، وان يكف عن بث الدعاية الاذاعية المعادية[١]•

ونكاية في بريطانية ظل الامام يتظاهر بالميل الى دول المحور • من ذلك انه أرسل ابنه الى طوكيو (١٩٣٨) لحضور افتتاح مسجد جديد فيها ، اذ كان لليابان تجارة واسعة مع اليمن منذ عام ١٩٣٣ ، بحيث كان ٨٥ ٪ من كمية النسيج المستورد الى اليمن يأتي منها • والباقي تتقاسمه انكلترة والولايات المتحدة وايطالية[٢] ، كما ان الاتحاد السوفييتي الذي كان له بعثة تجارية في صنعاء ، انتزع من ايطالية وبريطانية توريد النفط الى اليمن خلال عامي ١٩٢٩ و ١٩٣٠ • والحق ان اليمن ظلت موصدة في وجه الاجانب على الرغم من كل ما ذكرنا ، ولم تتمكن دولة اوربية ان تحصل على امتيازات سياسية او اقتصادية فيها •

• • •

ب ـ الاتجاهات والنزعات القومية في المملكة المتوكلية اليمنية حتى عام ١٩٣٩ :

يعتبر نظام الامامة في اليمن من اكثر انظمة العالم استبدادا وتخلفا ؛ احوال السكان مؤلمة ، تتفشى فيهم الامراض الوبائية التي يزيد في تفاقمها انعدام العناية

---

(١) تضم الاتفاقية الانكليزية الايطالية بروتوكولا وثمانية ملاحق ومراسلات متبادلة واتفاقية حسن جوار ، انظر نصوصها في مجلة
Correspondance d'Orient, Mai 1939, pp. 224 - 227.

(٢) Brémond, op. cit. , p. 127.

الصحية ونقص الغذاء ، وتفاقمه حتى المجاعة ، وارتفاع نسبة الوفيات بين الاطفال • ويتعزى اليمن عن بؤسه وضنكه بمضغ القات (أوراق شجيرة القات الخضراء) تؤثره غالبية السكان على الغذاء اليومي ، فيورثهم خدرا وخمولا لعدة ساعات بعد الظهر • والتركيب الاجتماعي في اليمن يقوم على الاساس الطبقي ؛ وبموجبه تختلف الطبقة عن الاخرى في شتى ميادين الحياة الاقتصاديةوالاجتماعيةوالدينية والسياسية• وفي أعلى الهرم الاجتماعي تقف طبقة الاسياد الهاشميين من الاسرة الحاكمة ومن يلوذ بها • وهؤلاء حين وفدوا على اليمن وجدوا انفسهم اقلية لا تستطيع الاستمرار في السيطرة على البلاد فنشروا المذهب الزيدي ، الذي يشترط كون الامام من أولاد فاطمة بنت النبي ، والا كان مغتصبا للسلطة • واستقر هذا المذهب وانصاره في شمالي اليمن ، وما زال يتسع حتى استغرق حوالي ٣٥ ٪ من مجموع سكان اليمن • أما بقية السكان في الجنوب والشرق فهم من الشوافع على المذهب السني الشافعي الذي لا يرى أن هذا الشرط ملزم لاتباعه ، ولكنه مع ذلك لا يمانع في ان يطيع أي امام ما دام يقوم بالامر فعلا • والاسرة الحاكمة الزيدية اذ اشترطت ان يكون رئيس الدولة هاشميا فاطميا ، فانها بذلك عملت على تحويل النفوذ الديني الى نفوذ سياسي استبدادي واقطاعي • ذلك ان اتباع الامام زيد من الهاشميين ، بعد ان شددوا قبضتهم على زمام الحكم في اليمن ، تحققوا ان الزيود لن يستمروا طويلا في ولائهم للعاطفة المذهبية وحدها ، ولذلك فقد اختصوهم بامتيازات ومكاسب مادية دعمت هذه العاطفة ، وشددت ذلك الولاء المذهبي : الوظائف الكبرى غالبا تبقى بيد الزيود ، وجباية الزكاة من القسم الشافعي تركزت في أيديهم ، يلجأون في جبايتها الى القوة أحيانا (١) ، على غير وجه الحق والشرع • وازاء نصيحة بعض «المصلحين» عرض الامام الزكاة في كل منطقة بالمزاد العلني ، وبذلك تطلق الحكومة يد أكبر المزايدين فيفعل ما يشاء • وطبق الامام هذه الطريقة ايضا على بعض انواع الجمارك • ولكن الزيود لم يلبثوا ان وعوا مضار التفرقة المذهبية واغراضها الحقيقية ، ولذلك أخذوا يلتقون باخوانهم الشوافع ويرفعون عقيرتهم مطالبين بالاصلاح ، والغـاء

(١) كان من الطبيعي ان تستفحل الشكوك المتبادلة بين جزئي السكان في اليمن نتيجة هذه السياسة المذهبية فتمزق شمل وحدة الشعب .

السخرة ، وازالة حواجز المرور المقامة على الطرقات وغير ذلك • وقد عمل الامام وبطانته على اعاقة نمو الوعي الشعبي في اليمن ، وحاربوا الثقافة والتعليم ، وشجعوا العقم الفكري والجمود • واتهم الاصلاحيون الامام بالاتجار باسم الجنوب اليمني وتحريره ، لاشغال ابناء الشعب بمعارك وهمية مع الاستعمار البريطاني ، وصرف الشعب عن التفكير في اختلال الموازين وفساد الاحكام • كذلك وجدوا ان الضرائب لا تستهدف تدبير مورد للدولة تسد به نفقاتها خلال فترة معينة ، وبحسب خطة مدروسة (ميزانية) ، وانما تهدف لاغتصاب اموال الناس ، والتستر تحت اسم الزكاة ، فيزداد الوضع الاقتصادي سوءا ، وتزداد الفروق بين الطبقات ، ويؤثر المتعلمون اليمنيون الهجرة الى ما وراء حدودهم بعد يأسهم من الاصلاح • وبقية السكان يعملون أجراء لدى الملاّك ، الذين يئسوا من استثمار أرضهم خشية استيلاء السلطات على دخلها ، وبذلك تبتلعها الصحراء • أو يعملون رعاة للابل والغنم ، أو يتوظفون في دوائر الحكومة ، والبعض يهاجر سعيا وراء الرزق خارج اليمن •

والقانون النافذ في اليمن هو امر الامام واعوانه وبطانته ، والفلاحون اكثر الطبقات الاجتماعية في اليمن تعاسة لارتباطهم بالارض ، ولا يجدون مخرجا من بؤسهم سوى الانضمام الى الجيش الامامي • والاسياد الذين يخسرون كل شيء لو أخذوا باسباب التقدم والتطور ، يعارضون كل اصلاح • والامام يحيى الذي تقدمت به السن ، استند الى اكثر رعاياه جمودا وتعصبا وانعزالية للمحافظة على عرشه ؛ وفي القرن العشرين ، يعطي تركيب المجتمع اليمني سياسيا واجتماعيا ، مثلا نادرا لنظام ملكي مطلق ، يعود الى مرحلة ما قبل عهد الاقطاع • أما الجيش فهو مجموعة من المرتزقة تشتري الحكومة الاسلحة له لتخزنها لا ليتدرب عليها خشية التمرس بها والانتفاض على صاحب السلطان • واذا حدثت اضطرابات ، عبأ الامام قواته من قبائل الشمال الموالية ، وخاصة من قبيلتي حاشد وبكيل حوالي منطقة حجة • ولكن هذه العزلة الرهيبة التي تحجز اليمن عن المدنية كسد الصين العظيم ، ستتعرض لانتفاضات وثورات شعبية متكررة ، حتى يستطيع مد الحياة الحديثة ان يجد ثغرة فيه ، تماما كما جرى يوما لسد مأرب ، فتزول هذه العزلة التي اصبحت طريقة حياة وقانونا ودستورا في اليمن « السعيد » • ويومها يتطلع الشعب العربي في اليمن الى

الوحدة الشاملة ، لان الايمان بها حي في النفوس يعمل عمله وينتظر الوقت المناسب ليظهر كالشمس في رابعة النهار .

والاتجاهات السياسية مرّ بنا معظمها اثناء كلامنا السابق على المملكة السعودية ؛ مع العراق عقد الامام معاهدة صداقة (أيار ١٩٣١)[١] ، ومع المملكة السعودية عقد معاهدة الطائف التي انهت حالة النزاع بينهما (١٩٣٤) ، ثم انضم الامام سنة ١٩٣٧ ، الى معاهدة التحالف العربي المعقودة في ٢ نيسان ١٩٣٦ بين العراق والمملكة العربية السعودية ، « بناء على الروابط الاسلامية والوحدة القومية » . لقد كانت معاهدة الطائف ــ وهي معاهدة صداقة اسلامية واخاء عربي ــ أول خطوة حقيقية في سبيل التعاون العربي . وفيها اقرار صريح برابطة الاخاء القومي المشترك بين دولتين عربيتين مستقلتين ، بحيث لم يعد لليمن حجة تتذرع بها لكي تتخلف عن الدعوة الموجهة اليها رأسا من جانب المملكة السعودية والمملكة العراقية ، للانضمام الى معاهدة العربي التي ذكرناها آنفا . وقد قوبل انضمام اليمن بمزيد الارتياح في جميع البلدان العربية ، لا سيما وان الحاجة الى اتحاد وتكاتف اقطار العالم العربي اصبحت ماسة بعد تلك المساعي الجدية التي تقوم بها بعض دول الغرب لانشاء وطن قومي لليهود في فلسطين . وتثبيتا للتضامن العربي وتوطيدا للحلف الذي تم بين الممالك الثلاث ، فوض الامام يحيى ابن سعود تمثيله لدى الدول الاوربية في قضية فلسطين[٢] .

اننا لا نعدو الصواب اذا قررنا ان الاعتبار « الاسلامي » يطغى على الاعتبار « العربي » الخالص في بلاد اليمن ، تماما كما هو الامر في البلاد السعودية . فالمعاهدة المعقودة بين الدولتين في الطائف تسمى معاهدة الصداقة الاسلامية والاخاء العربي ، وتستند الى « الصفة الاسلامية » دون سائر الاعتبارات ، وقبل سائر الاعتبارات على الاصح . وهذا لا يقلل من « عروبة » اليمن لانها عروبة مشهودة أصيلة ، ولان مفهوم العروبة في وقتنا الحاضر مزيج من اللغة والتاريخ والدين والتراث . ولسنا

---

(١) تتألف من ٣ مواد وتتضمن اعتراف ملك العراق بالمملكة اليمنية (مادة ١) وبسلم دائم وصداقة وطيدة بينهما (مادة ٢) .

(٢) ارسلان « الوحدة العربية » ص ٢ .

بصدد تحليل هذا الاتجاه الديني[1] البارز في اليمن وارجاعه الى اصول تاريخية واجتماعية تبرره بالنسبة للبيئة اليمنية المغلقة غير المتطورة ، وانما نكتفي بتقرير الواقع ، وهو اننا لا نجد في اليمن الاتجاهات والاهداف السياسية العربية بمعناها الحديث السائد في بعض البلاد العربية الشمالية ، لانها تتطلب قدرا من التقدم العلمي والاجتماعي والاقتصادي والثقافي يكون من شأنه انتشار التعليم وتحسن المعيشة ، واستقرار القبائل ، وشق طرق المواصلات وتنمية المرافق والموارد العامة •• وهذه الامور لا تتوفر في « بلاد العرب السعيدة » • ولذلك لا يستطيع الفرد اليمني أن يرقى الى الشعور الوطني والوعي القومي ، طالما يحيا في ظل حكومة دينية جعلت بينه وبين العالم الخارجي سدا منيعا يحول بينه وبين ما يجري حوله من الاحداث السياسية والتيارات الفكرية التي تنمي مداركه وتوسع أفقه • هذا الى ان موقع بلاد اليمن في اقصى الجنوب الغربي من الجزيرة العربية ، جعل الاتصال عسيرا بينها وبين الاقطار العربية المتحضرة ، الامر الذي صبغ تفكير اليمني وتصرفاته ونظرته الى الحياة بصبغة يمنية ضيقة ، بحيث لا نجد لديه من نزعة التكاتف والتضامن العربي الا شعورا ساذجا بسيطا من المودة ، يفيض بها اذا لقي فردا او جماعة من ابناء تلك الاقطار العربية ، كما شهدنا نحن وكما تروي لنا كتب الرحالة والرواد العرب الذين زاروا اليمن •

والحق ان الامام يحيى حاكم اليمن المطلق لمدة طويلة تقارب نصف القرن (١٩٠٤ — ١٩٤٨) كان يؤثر سياسة العزلة الاقليمية ، ويفضل عدم الاتصال بدول العالم الخارجي ، حتى عن طريق تبادل التمثيل السياسي معها ، اذ كان يعتقد ان التمثيل الدبلوماسي لا بد وان يعقبه علاقات تجارية وعسكرية ، وامتيازات تؤدي في النهاية الى النفوذ الاجنبي الذي يحيط ببلاده من كل صوب ، والذي استطاع بحنكته ان يتجنب شروره باستغلال ما بين الدول المتنفذة في البحر الاحمر[2] من

---

(١) كتب الريحاني في اوائل العشرينات من هذا القرن يقول « أفضنا في الحديث بالوحدة العربية فكانت اول كلمة للامام (يحيى) في الموضوع : وصلتم الى محط رحالها .. » « بيد انه الداعي الى الوحدة الاسلامية ، فحاولت ان اقنعه ان الجامعة القومية اصح اساسا واسهل تحقيقا من الجامعة الدينية ، ومن أعز العرب أعز الاسلام » . (ملوك العرب ١ : ١٣٢) — مطبعة صادر بيروت ١٩٥١ •

(٢) ابطالية وبريطانية وفرنسة .

تنافس وخصام . ليس هذا فحسب بل ان الامام كان يكره أن يزج نفسه وبلاده في أية حركة قومية جدية ، تجعل الدول العربية كتلة متحدة منسجمة ، لا لأنـه يؤمن بعدم جدوى التقارب والتواصل بينه وبين تلك الدول العربية ، وانما في الغالب لأنه كان يلمح شبح الدول الكبرى مهيمنا على معظم مقدراتها السياسية وعلى سيادتهـا التي لم تستكمل بعد ، ولعله كان يخشى تسلط جاره الوهابي القوي عليه ، ويحرص على معتقدات شعبه الزيدية من أن تشوبها بدع العصر والحضارة .

وبعد ، فان سير اليمن في سبيل التجمع العربي كان متعثرا وبطيئا ، يتناسب مع نزعة الحذر والريبة التي تسود سياستها . ومع ذلك فقد بدا الاتجاه العربي نحـو التقارب العربي بما أبرمته من معاهدات الاخوة العربية مـع مملكة العراق والمملكة السعودية . وبصدد مسألة فلسطين ، وهي حقا محك الوجدان العربي ، فقـد احتج الامام عام ١٩٤٣ على موقف الولايات المتحدة الامريكية مـن العرب الفلسطينيين ، وعلى عزمها على تأسيس دولة يهودية في فلسطين « الذي أوجب تأثر وتهيج شعبنـا وتأسف أنفسنا الى آخر مرتبة » ، وطلب من النحاس رئيس الوزارة المصرية أن يقبل تفويضه المطلق في الاحتجاج على القرار المذكور واجراء كل ما يلزم بشأنه .

مصر والسودان

امتـد عهد الاحتلال منذ عام ١٨٨٢ حتى عام ١٩١٤ حيث أعلنت الحمايـة بين (١٩١٤ ـ ١٩٢٢) . وثارت البلاد بعـد ذلك حتى أرغمت بريطانية على اعـلان استقلال مصر ضمن بعض التحفظات .

وعهد الاحتلال يملأ اللورد «كرومر» أوسع فترة منه خلال ربع قرن من الزمان (١٨٨٣ ـ ١٩٠٧) . وكرومر كان يرى ان مركز مصر الجغرافي والتاريخي يقتضي حرمانها من حق قيام حكومة وطنية مستقلة ، كما كان يرى ان نظام الامتيازات يعرقل تقدم مصر، ولكن مصر لا يمكن أن تستغني عن الاجانب ـ على زعمه ـ فلا مفر من ابتداع نظام يكفل للاجانب مركزا خاصا ونصيبا في الحكم . وكرومر من جهة أخرى ما حبذ ضم مصر للامبراطورية لما يثير من المشاكل في الداخل والخارج ، وانما ارتأى أن تبقى لانكلترة هيمنة على شؤون مصر الداخلية والخارجية . والخديوي عباس حلمي الذي رقي العرش بعد وفاة أبيه توفيق ١٨٩٢ لم يستطع أن يقف في وجـه كرومر ، بل انحنى مرارا أمام صلفه دون أن يجد عونا مـن السلطان العثماني ، أو من الشعب ، بعد أن استغل الاحتلال ما بين الخديوي توفيق والحركة العرابيـة . وتلخص سياسة كرومر بأنه تمسك بأساسيات وكان على استعداد للتخلي عن شكليات

مما يستطيعه الاحتلال دون الاضرار بنفسه : دون ان يقطع على المصريين الامل في الاستقلال ، ودون ان يفوته تحريض البعض على البعض ليفرق بين الصفوف ، كيلا تواجهه . ورد المصريون على ذلك فقالوا : ان لمصر عدوا واحدا هو الاحتلال ومقصدا واحدا هو الجلاء ، أما ما سوى ذلك فتفصيل له وقته[1] . عبر عن ذلك مصطفى كامل الذي قاد الحركة الوطنية المصرية وأججها ، وخاصة بعد حادثة دنشواي (١٩٠٦) التي كشفت للشعب المصري عن مركزه الحقيقي تجاه المستعمر ، وقد نجم عنها عزل كرومر ومغادرته مصر مغاضبا (١٩٠٧) ، حيث حل محله السير (الدون غورست) الذي تأهب لدعم مركز بلاده في مصر ، فانبرى له مصطفى كامل ، والح على ان مصر للمصريين ، ولكن المرض المتطاول لم يمهل هذا الزعيم الشاب الا بضعة أشهر قبض بعدها الى رحمة الله .

ومرض غورست عام ١٩١١ ، فأسندت الحكومة البريطانية منصبه الى سردار الجيش المصري السابق اللورد كيتشنر . وقد تمكن هذا من الحيلولة دون مساعدة المصريين للاتراك ابان الحملة الايطالية على طرابلس الغرب ، واصطنع الشدة في معاقبة الوطنيين ثم نشبت الحرب العالمية الاولى ، فاختير كيتشنر لوزارة الحرب البريطانية ، وتولى منصب المندوب السامي بمصر السير هنري مكماهون ، فاجتهد لحشد جميع موارد البلاد لا للدفاع عن القناة وجبهة سيناء فحسب ، بل لشن حرب هجومية على الترك في فلسطين . وارسلت جموع المصريين للعمل في تلك الجبهة فأصابها شواظ من نار الحرب الدائرة ، ولم تعد الاجور المرتفعة تغري الفلاحين بالتطوع ، فعمدت السلطة الى تجنيد العمال والفلاحين بالقوة . وتجاه المقاومة السلبية المصرية ، ومطالب القيادة العليا الملحة ، وفقدان المشورة والمعونة من حكومة لندن المشغولة عنه بأمور أخرى ، تخلى مكماهون عن منصبه للسير (ريدجنالد ونغت) حاكم السودان العام السابق ، فأعلن هذا ان سيادة تركية على مصر زالت ، وان مصر وضعت تحت الحماية البريطانية[2] . كما أعلن خلع الخديوي عباس الثاني ، نظرا لاقدامه على

---

(١) محمد شفيق غربال « تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية » ج ١ : ٢٧ .

(٢) اعلنت بريطانية من تلقاء نفسها الحماية على مصر وبررتها بانها ضرورة حربية فحسب .

الانضمام للاعداء ، وقبول الامير حسين كامل منصب سلطان مصر ، وتكليف رشدي باشا بتأليف الوزارة . أما الآلام التي اضطرت مصر لاحتمالها ابان هذه الحرب فقد تناولها المؤرخون بالتفصيل ؛ تسخير العمال في الاشغال والحركات العسكرية ، واستعمال المرافق العامة لدرجة العطل ، وتحويل المدارس الى مستشفيات ومزاحمة الشعب في غذائه والتحكم في أسعار القطن .. رأى المصري نفسه غريبا في بلده الذي تحول الى معسكر هائل تتزاحم فيه اخلاط الناس ، وتشن منه الغارة على دولة الخلافة بحرا وبرا . ونزل بالبلد من ضروب الذلة والمهانة ما جعل أهله المصريين يبتهلون ان تنتصر الدولة العثمانية وحليفتها المانية على الانكليز . وبرم السلطان حسين كامل بفعال السلطة العسكرية ، ثم توفي سنة ١٩١٧ ، فخلفه أخوه احمد فؤاد الذي يجتاز حكمه مرحلة الحرب العالمية الاولى ليدخل بالبلاد المرحلة الثانية البناءة من حياتها . ومنذ ان عقد الوفاق الودي بين بريطانية وفرنسة (١٩٠٤) الذي ضمن مركز بريطانية الممتاز في مصر ، ما كان ثمة ضرورة لذكر مصر في المعاهدات السرية التي أبرمت اثناء الحرب العالمية الاولى . ونتيجة لذلك فان علاقات بريطانية بمصر خلال تلك الفترة كانت خالية من الزوايا الدولية السياسية لانصرافها الى مسائل الادارة فحسب . على ان هذا الحال سرعان ما تبدل بانصرام الحرب ، لان مصر قد شهدت نهضة وطنية ساهمت عوامل عديدة في ظهورها ؛ فما أذكى الشعور الوطني ، نقاط الرئيس الاميركي ويلسون الاربع عشر ؛ وتصريح تشرين الثاني ١٩١٨ البريطاني الفرنسي الذي تضمن وعدا باستقلال البلاد العربية . في هذا الجو المضطرب نهض رجل من الفلاحين خطيب سمح الاخلاق هو سعد زغلول فحصل على تأييد جماهيري قوي ، تمكن بفضله من فرض تغيير جذري في حالة مصر السياسية . بعد اعلان الهدنة بيومين (١٣ تشرين الثاني ١٩١٨) ، ترأس سعد وفدا باسم الشعب المصري لمقابلة المندوب السامي ، والتحدث اليه في طلب الترخيص له ولعبد العزيز فهمي وعلي شعراوي بالسفر الى لندن لعرض مطالب البلاد في الاستقلال التام ... رفض المندوب ونعت طلبهم بناء على رفض اللورد كيرزون وزير الخارجية ، وكان يوم هذه المقابلة يوم تشكل نواة الوفد المصري الذي اصبح المحرك الرئيسي للوطنية المصرية . ورأى الوطنيون ان مطالبتهم لا تحتمل التأجيل اذ شاهدوا وفود الشعوب الاخرى تتجه الى مؤتمر الصلح في باريس لتعبر عن ارادتها . وزعم ونعت لحكومته ان احدا لا يثق

بزغلول ، وانه لا مجال لمقارنة حركة زغلول بحركة مصطفى كامل[1] • استقالت وزارة رشدي بعد ان ابلغته بريطانية رفضها الترخيص للوفد بالسفر ، ورأيها بأن يؤجل رشدي نفسه سفره الى لندن لعدم ملاءمة الوقت ، وقبلت استقالتها في أول آذار ١٩١٩ • ارسل الوفد لمعتمدي الدول احتجاجا صارخا على تصرفات بريطانية في مصر • سارعت السلطة في ٨ آذار بالقبض على سعد زغلول واسماعيل صدقي وحمد الباسل ونفتهم الى جزيرة مالطة ، واثر ذلك التهبت الثورة في الارياف والمدن وعمت الاضطرابات ، واصطدم الوطنيون بالانكليز ، وقطع كل اتصال مع القاهرة ، وأسرف الانكليز في قمع الثورة ، ولم تهدأ الاحوال الا باستدعاء نجدات بريطانية من سوريه • ودلت الثورة على وجوب الوصول الى اتفاق مع الوطنيين ، وأخيرا عين رئيس الوزارة البريطانية لويد جورج ، الجنرال السير ادموند اللنبي المشهور مندوبا ساميا على مصر ، وكلفه بالحفاظ على الحماية بأية وسيلة • ولاجل تهدئة الخواطر والاضطرابات ، امر اللنبي بالافراج عن زغلول ورفاقه ، والسماح لهم بالسفر من مالطة الى مؤتمر الصلح ، ولعله كان على يقين من ان احدا من الجالسين في مؤتمر السلام لن يعير مطالب الوفد المصري كبير اهتمام •

والحق ان مركز الوفد في باريس كان ضعيفا ، فقد اعترف ويلسون الامريكي ، بطل السلام والنقاط الاربع عشرة ، بالحماية على مصر • كما الزمت معاهدة فرساي المانية بان تعترف بهذه الحماية ، على الرغم من ان الوفد المصري اعلن ان خطته تتلخص في تسوية المسألة المصرية بالاتفاق مع بريطانية العظمى تسوية تحقق استقلال البلاد التام ، وتصون المصالح البريطانية في ما لا يتعارض مع هذا الاستقلال •

أهم الاحداث السياسية في مصر بين ١٩٢٠ ـ ١٩٣٩ :

في شهر كانون الاول ١٩١٩ قدمت الى مصر لجنة لورد ملنر وزير المستعمرات « للتحقيق في اسباب الاضطرابات التي حدثت أخيرا في القطر المصري ، وتقديم تقرير عن الحالة الراهنة في تلك البلاد ، وعن شكل القانون النظامي الذي يعد تحت الحماية خير دستور لترقية أسباب السلام واليسر والرخاء فيها ، ولتوسيع نطاق الحكم الذاتي

(1) Kirk op. cit. , p. 134

فيها توسيعا دائم التقدم والترقي ، ولحماية المصالح الاجنبية » [1] . وكان من مقاطعة المصريين لتلك اللجنة واتفاق كلمتهم على ان زغلول المقيم في باريس هو الوكيل الذي أنابه الشعب المصري عنه للمفاوضة ، ان رحلت لجنة ملنر عن مصر ، بعد ان مكثت فيها من كانون الاول ١٩١٩ حتى أوائل آذار ١٩٢٠ ، ودعت من مقرها في لندن ، الوفد المصري الذي كان لا يزال في باريس للمباحثة في المسألة المصرية ، وأفضت هذه المباحثات الى وضع مشروع نشرته اللجنة في مصر ولندن (آب ١٩٢٠). وفي ايلول ارسل الوفد المصري الى مصر اربعة من اعضائه ، ولم يكن سعد بينهم [2] ، ليستشيروا الهيئات المختلفة ويستنيروا بآرائها في ذلك المشروع [3] ، وعادوا يحملون الى الوفد تحفظات تلك الهيئات . فلما حادث الوفد لجنة ملنر في تلك التحفظات ، أحالت اللجنة امر المناقشة فيها الى المفاوضات الرسمية بين الطرفين ، واشترط الوفد قبولها قبل الدخول في تلك المفاوضات الرسمية . وبذلك توقفت المباحثات ثم نشرت اللجنة تقريرها ، ولم تلبث الحكومة البريطانية بعد نشره ان طلبت من سلطان مصر في أواخر شباط ١٩٢١ أن يعين وفدا لمفاوضتها في وضع اتفاق بين البلدين . دعا السلطان عدلي يكن ، وكان قد اشترك في مفاوضات لجنة ملنر ، لتأليف الوزارة وتشكيل وفد برئاسته يذهب الى لندن للمداولة مع وزير الخارجية لورد كيرزون ، على أساس التقرير الذي وضعته لجنة ملنر .

اختار عدلي باشا أعضاء وفد المفاوضة جميعا من انصاره الارستوقراطيين مستبعدا الوفد المصري ، ونشبت الاضطرابات كرة أخرى (أيار ١٩٢١) في القاهرة

---

(١) انظر نص التفويض في تقرير اللجنة الخصوصية المنتدبة لمصر «وثائق المفاوضات السابقة والمحادثات ، المصدر الرسمي الصادر عن مجلس الشيوخ المصري بعنوان قانون رقم ٨٠ لسنة ١٩٣٦ » ص ٢٣٧ (مطبعة بولاق سنة ١٩٣٧) .

(٢) انظر مذكرة لورد ملنر المؤرخة في ١٨ آب ١٩٢٠ من تقرير اللجنة الى لورد كيرزون بتاريخ ٩ كانون الاول ١٩٢٠ نفس المصدر السابق ص ٢٥ .

(٣) نص المشروع على ان تبرم معاهدة تعترف فيها بريطانية باستقلال مصر شريطة ان توافق على بقاء قوات بريطانية في الارض المصرية ، وتقبل تعيين مستشار بريطاني في وزارة المالية وآخر في وزارة الحقانية ، وشريطة الا تعقد مصر اية معاهدة سياسية مع دولة اجنبية بغير موافقة بريطانية ، وان تمنح بريطانية حق حماية الاجانب من تطبيق القوانين المصرية تطبيقا جائرا عليهم .

والاسكندرية واستهدفت الاجانب وبخاصة اليونان والطليان • اتخذ كيرزون من حوادث الاسكندرية حجة كبرى ابرزها خلال المباحثات ، والح على مسألة القوة العسكرية البريطانية ، فكان لها في نظره ان ترابط في أي مكان من مصر ولاي زمان• ولم تقتصر عن كونها اداة للدفاع عن سلامة المواصلات الامبراطورية في حالتي السلم والحرب ، وانما اصبحت في نظر الحكومة البريطانية وسيلة لمساعدة مصر في الدفاع عن سلامة الحدود المصرية في أي عدوان خارجي ، ولحماية المصالح الاجنبية ، ولمساعدة الحكومة المصرية في قمع الفتن الخطيرة وحفظ النظام[1] ••• وفي ذلك كله ما ينافي مفهوم السيادة المصرية • امتدت المفاوضات في لندن من ١٢ تموز حتى ٢٦ آب ، ولكنها كانت عقيمة ، ورجع عدلي الى القاهرة في أوائل كانون الاول وقدم استقالة وزارته • ثم تألفت وزارة عبد الخالق ثروت بعد ان ابدت بريطانية استعدادها لالغاء الحماية ، وسمحت بانشاء وزارة للشؤون الخارجية ، وخيل للمندوب السامي ان اعتقال سعد والزعماء يهون من شأن المعارضة الشعبية ، ويقلل احتمال نشوب خلافات واضطرابات جديدة ، ولكن هذا التدبير خيب آماله ، لان اعتقال الزعماء أثار البلاد ، فأصبحت في حالة غليان تزايد بنقل الزعماء الى جزيرة سيلان ومنها الى جزر سيشل (كانون الاول ١٩٢١) •

تحقق اللنبي انه لن يظفر بتعاون الساسة المصريين معه الا بالغاء الحماية ، فشرح لحكومته خطورة الموقف ، ووجوب معالجته على وجه السرعة • رفضت الحكومة البريطانية مقترحاته وهمت بعزله ، ثم استدعته الى لندن وسلمت بوجهة نظره ، فأعلن لدى عودته الى مصر تصريح ٢٨شباط ١٩٢٢[1] المتضمن الغاء الحماية واعتراف بريطانية بان مصر دولة مستقلة ذات سيادة على ان تحتفظ بريطانية لمطلق رأيها بأمور

---

(١) انظر تقرير الوفد الرسمي المصري عن نتائج المفاوضات بينه وبين وزارة الخارجية البريطانية ص (٣٨٤ ــ ٣٨٩) من المصدر الرسمي السابق •

(٢) انظر التبليغ الصادر بتاريخ ٢٨ شباط ١٩٢٨ من دار الحماية بالقاهرة بعنوان « تبليغ من المندوب السامي الى حضرة صاحب العظمة السلطان » ص ٣٩٥ من كتاب وثائق المفاوضات السابقة والمحادثات • وانظر « تصريح لمصر » ص ٣٩٦ من نفس المصدر السابق الرسمي الصادر عن مجلس الشيوخ ــ بولاق سنة ١٩٣٧ •

اربعة حتى يحصل الاتفاق عليها بمفاوضات حرة تجري بين البلدين ، وهذه التحفظات هي : الدفاع عن مصر وحماية الاجانب والاقليات ، ومسألة السودان •

حق لخصوم التصريح ان يستقبلوه بعاصفة من الاستياء والاستنكار ؛ فان صدور التصريح بعد نفي الزعماء جعله بمثابة اعتداء جديد على حقوق السيادة المصرية ، والشعب المصري[1] وزاد الحالة سوءا تبليغ بريطانية للدول بأنها لن تقبل أي سؤال أو مناقشة بخصوص علاقاتها مع مصر ، وانها سوف تعتبر اية محاولة للتدخل في الشؤون المصرية عملا غير ودي • وتصرمت سنة كاملة بعد التصريح قبل ان تتمكن الوزارات المتعاقبة في مصر من اعلان الدستور الجديد ، وذلك بسبب الخلاف حول لقب الملك ـ ملك مصر والسودان ـ اذ طلب المندوب السامي حذف النصوص الخاصة بالسودان • وتنازل الملك فؤاد عن حقه في لقب « ملك السودان » ، وعندئذ اعلنت وزارة يحيى ابراهيم الدستور في آذار ١٩٢٣ • وفي ٢٤ تموز ١٩٢٣ تنازلت تركية في معاهدة لوزان عن كل حقوقها في مصر والسودان • وبعد اعلان العفو عاد زغلول وصحبه الى مصر في ايلول ١٩٢٣ حيث هاجم الوفد المصري الدستور بشدة اكسبته في انتخابات كانون الثاني سنة ١٩٢٤ اكثرية ساحقة • فدعي سعد لتأليف الوزارة ، وتوجه الى لندن لمفاوضة حكومة العمال برئاسة رامسي مكدونالد • وخلال المباحثات أصر سعد على وجوب منح الاستقلال التام لمصر مع سحب جميع القوات البريطانية عنها وازالة ما بقي من آثار الادارة البريطانية[2] • انقطعت المفاوضات بناء على هذا الاصرار ، وعاد الوفد المفاوض المصري الى بلاده ، وكانت مضطربة بحركات معادية للقوات البريطانية ، واغتيل السردار (لي ستاك) القائد العام للجيش المصري والحاكم العام للسودان في تشرين الثاني ١٩٢٤[3] ، فأعلن الملك والحكومة أسفهما الشديد للحادث وتحرك المندوب السامي اللنبي في مظاهرة عسكرية نحو دار الرئاسة ، وسلم انذارا بمطالب الحكومة البريطانية الى سعد ، وتتلخص في الاعتذار الكافي وانزال العقاب بالفاعلين ، ومنع المظاهرات ودفع تعويض قدره نصف

---

(١) محمد شفيق غربال ـ المصدر السابق ص ١١٤ .

(٢) Marlow « The Anglo - Egyptian Relations » p. 226.

(٣) Giannini op. cit., p. 346.

مليون جنيه ، وسحب الفرق المصرية من السودان بحجة تحريضها السودانيين على الثورة وموافقة حكومة مصر على ري غير محدود لمنطقة القطن في الجزيرة السودانية ـ ومن قبل كان الري محدودا لتأمين المياه الكافية الى مصر • نفت وزارة سعد مسؤوليتها وقبلت بعض المطالب : الاعتذار ودفع الغرامة ، وتعقب الجناة ، ومنع المظاهرات المخلة بالنظام ، ورفضت ما سوى ذلك • ولا نكران ان التهديد البريطاني الخاص بتعزيز أعمال الري في السودان على حساب مصر ، ترك في نفوس الناس أثرا سيئا ، اذ تحققوا ان الاقتصاد المصري الذي يعتمد على كمية الماء الوارد من السودان سيظل تحت رحمة بريطانية ما كان لها الاشراف الفعلي في السودان •

وعلى أثر هذا الحادث اخرج الجيش المصري من السودان ، كما اخرج الموظفون المصريون من حكومته ، وفضل زغلول الاستقالة على الاستجابة لمطالب الانذار ، وخلفه زيور باشا الذي سلمت وزارته تسليما مطلقا بسطالب الانذارات البريطانية (تشرين الثاني سنة ١٩٢٤) ، وعدلت بريطانية مطالبها فيما يخص ري الجزيرة في السودان •

وفي سنة ١٩٢٧ جرت محادثات اخرى بين رئيس الوزراء المصري عبد الخالق ثروت وبين السير اوستن تشمبرلن وزير الخارجية البريطانية ، وأفضت الى مشروع عرض على الوزارة المصرية فردته لانه لا يتفق في روحه ونصه مع استقلال البلاد وسيادتها ، بل يجعل الاحتلال العسكري البريطاني شرعيا[1] • وفي سنة ١٩٢٩ تجددت المفاوضات بين محمد محمود رئيس الوزارة المصرية وبين المستر هندرسن وزير الخارجية البريطانيه الذي قدم على أثرها الى الحكومة المصرية مقترحات عرضت في سنة ١٩٣٠ على البرلمان المصري[2] ، ففوض الوزارة القائمة يومئذ برئاسة مصطفى النحاس للوصول الى اتفاق شريف مع الحكومة البريطانية ، يوثق عرى الصداقة بين البلدين • ولكن هذه المفاوضات اخفقت لعدم الاتفاق على مسألة السودان : عودة الجيش المصري الى السودان ، وتقييد الهجرة والملكية والتجارة المصرية فيه [3] •

---

(١) انظر المحادثات بين ثروت وتشمبرلن في ملحق ٦ ــ وثائق سياسية ــ من المصدر السابق ص (٣٩٩ ــ ٤٥٤) •

(٢) انظر مفاوضات صيف سنة ١٩٢٩ التي ادت الى مشروع المعاهدة الانكليزية المصرية في ملحق رقم ٧ من المصدر السابق ص (٤٥٧ ــ ٤٧٨) •

(٣) انظر البيان الذي القاه مصطفى النحاس عقب عودته من المفاوضات على مجلس البرلمان في ٣٠ ايار ١٩٣٠ في صفحة ٦٥٨ من نفس المصدر السابق •

وفي عام ١٩٣٢ تحدث اسماعيل صدقي رئيس الوزراء المصري مع السير جون سيمون وزير الخارجية البريطانية يومذاك ، وأشار الى انه من المرغوب فيه ان تجري محادثات بين الدولتين تمهيدا للدخول في مباحثات رسمية ، فأجاب سيمون بأنه شخصيا يرى ان مشروعي سنة ١٩٢٩ وسنة ١٩٣٠ يصلحان أساسا لمفاوضة مقبلة ، ثم ابـدى تحفظين أحدهما خاص بمسألة مواقع القوات البريطانية في مصر ، والآخر خاص بالسودان ووجوب الاحتفاظ بادارته الراهنة [١] .

ان نظرة على الفترة ما بين عام ١٩٢٤ وعام ١٩٣٥ تظهر اتسامها بسمتين :

الاولى انقطاع المفاوضات وتواصلها بين مصر وبريطانية لابرام معاهدة تعترف بأماني مصر ، ولم يصل الطرفان خلالها الى نتيجة مرضية ، فبقيت العلاقات بينهما قائمة على أسس تصريح ٢٨ شباط ١٩٢٢ ، وبقي السلطان الفعلي بيد المندوب السامي . والثانية هي توسع شقة الخلاف بين القصر الملكي وبين حزب الوفد ، بحيث ظل الملك يناهض شعبية الحزب المتزايدة في أوساط الجماهير ، وشد ما كان يرغب في الحيلولة دون وصول زعيم الوفديين للسلطة عن طريق حل البرلمان ذي الاكثرية الوفدية ، لما كان يعتقد من ميوله الجمهورية ، وللحد من سلطانه على البلد .

وعندما لقي سعد وجه ربه (آب ١٩٢٧) ترك وراءه في الحياة السياسية المصرية فراغا لم يملأه زعيم آخر ، واصطدم خليفته مصطفى النحاس ، وقد آلت اليه زعامة الوفد ، مع المندوب السامي لورد لويد الذي تقلد منصبه عام ١٩٢٥ وبقي فيه حتى عام ١٩٢٩ . كما اصطدم النحاس مع الملك ومن ظاهره من الاحزاب الصغيرة الاخرى حتى اذا أقال الملك حكومة الوفد وأحل محلها حكومة اسماعيل صدقي عام ١٩٣٠ ، بادر هذا لتصديق دستور تشرين الاول ١٩٣٠ الذي يتضمن قانونا انتخابيا جديدا يكفل اقصاء الوفد من البرلمان ، ويؤمن أكثرية نيابية لحزب الشعب ورئيسه صدقي. قاطع الوفد الاقتراع وطفق يرقب ديكتاتورية الحكومة الى ان استقال رئيسها صدقي بسبب اعتلال صحته في سنة ١٩٣٣ . وباشتداد الضغط الوطني ، أوعز الملك الى وزارة توفيق نسيم بوضع قانون الانتخاب الذي الغاه صدقي موضع التنفيذ دون

---

(١) انظر محادثات اسماعيل صدقي مع السير جون سيمون بجنيف ، في ملحق رقم ٩ من المصدر السابق ص (٦٦٣ — ٦٦٧) .

ان يلتفت الملك ، وكان يعاني المرض آنذاك ، الى نصيحة وتحذير المندوب السامي السير مايلز لمبسون من مغبة هذا العمل • الامر الذي أدى الى مصالحة مؤقتة بين الوفد والملك ، والى وجود ما سمي بالجبهة الوطنية ، وبذلك عاد النحاس للحكم مرة أخرى •

هذا عن السياسة الداخلية ، أما عن السياسة الخارجية ، فان سحب الحرب التي تراكمت عام ١٩٣٥ في سماء أوربة نتيجة لمغامرة موسوليني الافريقية الشرقية في الحبشة قد هدمت الهدوء النسبي الذي ساد العلاقات المصرية البريطانية خلال السنوات الخمس الماضية • فضلا عن ان الوطنية المصرية وجدت متنفسا لها في الخروج من أفق السياسة الداخلية المصرية ، حيث تنفق طاقتها في صراع حزبي عقيم ، الى أفق ارحب في المداولة مع بريطانيـــة للحصول على الاستقلال والسيادة التامين ، عن طريق الوصول بالمفاوضات التي تعثرت مرارا الى هذين المطلبين • وكان ذلك عندما تقدم في كانون الاول سنة ١٩٣٥ زعماء الاحزاب المتحدة (الجبهة الوطنية) الى المندوب السامي السير مايلز لمبسون يطلبون منه دعوة الحكومة البريطانية الى استئناف المفاوضات[١] • أما بريطانية وحكوماتها المتتابعة فكانت ترغب في ان تصل الى علاقات تعاقدية مع مصر تصون مصالحها الاستراتيجية وتغنيها عن وجود جيش الاحتلال المسؤول عن حماية هذه المصالح • ولكنها مع ذلك كانت لا ترى ضرورة للتعجيل بالتفاهم مع مصر ، طالما كانت لا تشعر بخطر مباشر يهدد بنشوب حرب في هذه المنطقة من العالم • أما عام ١٩٣٥ وبعد مغامرة « الدوتشي » فانها أصبحت مشوقة الى اجراء تسوية مع مصر التي تتمتع بموقع استراتيجي حيوي يصلح كقاعدة تواجه بريطانية منها أخطار الحرب الواسعة المدى في البحر الابيض المتوسط • وأمام هذا المطلب الاستراتيجي الهام لم يعد ثمة أهمية كبيرة لمسألة الامتيازات الاجنبية بنظر

---

(١) طلبت الجبهة الوطنية برئاسة النحاس من المندوب السامي ان يبلغ الحكومة البريطانية انهم مستعدون لابرام المعاهدة التي انتهت اليها مفاوضات النحاس ـ هندرسن سنة ١٩٣٠ آملين ان تحل المسائل التي لم يكن تناولها الحل في المفاوضات المذكورة بالروح الطيبة التي سادت تلك المفاوضات . انظر (خطاب الجبهة الوطنية الى المندوب السامي لدولة بريطانية العظمى المؤرخ في ١٢ كانون الاول سنة ١٩٣٥ ـ في مجموعة الوثائق والمحاضر الرسمية) نفس المصدر السابق ص (٢ ـ ٣) .

بريطانية ، وخير منها ان تمتلك قاعدة هجومية على ليبية وساحل افريقية الشرقي ، تقطع المواصلات بين ايطالية وممتلكاتها في شرقي افريقية • وعلى هذا وجب ليس فقط امتلاك هذه القواعد في مصر السودان ، وانما ان يكون لبريطانية فيهما علاقات ودية تعاونية • أبدت الحكومة البريطانية استعدادها التام للدخول في الحال مع الحكومة المصرية في محادثات واقترحت ان تتباحث الحكومتان ، تمهيدا للمفاوضات بصفة سرية وبروح التحالف المنشود في تطبيق الاحكام العسكرية الواردة في مشروع معاهدة سنة ١٩٣٠ على الحالة التي تغيرت عما كانت عليه من قبل[١] • وفي ١٣ شباط سنة ١٩٣٦ صدر مرسوم بتعيين الهيئة المفاوضة لابرام معاهدة « صداقة ومودة ومحالفة مع بريطانية العظمى » في عهد وزارة علي ماهر ، وكان النحاس رئيس الوفد المفاوض المصري • وقعت المعاهدة في لندن وصدق عليها البرلمان المصري في ١٥ و ١٨ تشرين الثاني والبرلمان البريطاني في ٢٤ و ٢٥ من نفس الشهر • وتحدد مركز بريطانية في مصر ونظم على أساس معاهدة التحالف التي أنهت الاحتلال الاجنبي ، على ان تحتفظ بريطانية بحامية قدرها عشرة آلاف جندي واربعمائة طيار مع لوازمهم في منطقة قناة السويس • ونصت المعاهدة على ان يكون لسفير بريطانية في القاهرة حق التقدم على ممثلي الدول جميعا • كما تعهدت بريطانية بتأييد ترشيح مصر لعضوية عصبة الامم • عقدت محالفة بين الطرفين وتعهد كل منهما بألا يعقد مع أية دولة اخرى معاهدات تضر بهذه المحالفة ، وفي حال الحرب تعهدت مصر بان تعبيء مواردها وتضعها تحت تصرف حليفتها ، وان تفرض عند الاقتضاء الاحكام العرفية والرقابة على المطبوعات ، وان تنشيء الطرق الاستراتيجية اللازمة ، وان تصلح شبكة خطوطها الحديدية في منطقة القناة والصحراء الغربية •• وان تعود القوى المصرية الى السودان ، وان تحرر الهجرة المصرية اليه من جميع القيود ، مع اعتراف مصر ان الهدف الاول من الحكم الثنائي هو رفاه السودانيين ، وان حكومة السودان تعين الموظفين الانكليز والمصريين في وظائفها التي لا يوجد لها سودانيون اكفاء ، وتكون مصر مسؤولة عن حماية الاقليات ، كما أعلنت بريطانية انها ستؤيد مصر في الغاء الامتيازات الاجنبية • وجعلت مدة المعاهدة عشرين عاما على ان يلجأ الطرفان فيما

---

(١) انظر « تبليغ شفوي » ص ٣ من المصدر السابق .

ينشب بينهما من خلاف الى مجلس عصبة الامم بعد انقضاء هذه المدة[1] •

وفي مطلع (تشرين الاول ١٩٣٧) الغيت الامتيازات الاجنبية في مؤتمر مونترو ، وبذلك أزيح عن كاهل مصر عبء الاشراف الدولي الذي طالما أبهظها ، وشعر المصريون لاول مرة بالفخر بعد ان كانوا ينظرون الى الاجانب يلقون عناية والتفات المندوبية البريطانية التي كانت تصدر عنها الاحكام الحقيقية النافذة •

ولقد اعتبر عدد من الزعماء المصريين المعاهدة مع بريطانية على أنها خطوة في الطريق ، نحو تحقيق مطالب مصر القومية ، على الرغم مما فيها من قيود تتنافى ومعنى الاستقلال ، واعباء مالية ، لانفاذ برامج عسكرية ليس لمصر مصلحة مباشرة بها • وقد اتفق المؤيدون للمعاهدة على ان قبولها مع الاسراع بتعديلها يزيل ما بها من مساس باستقلال مصر[2] •

توفي الملك فؤاد في (٢٨ نيسان ١٩٣٦) وخلفه ابنه فاروق ، ولم يكن قد بلغ سن الرشد بعد • ولذا تولى شؤون البلاد مجلس وصاية حتى (تموز ١٩٣٧) • تولى الملك فاروق سلطاته الدستورية ، وعادت الحياة السياسية في مصر الى طابعها القديم ؛ الصراع بين القصر والوفد الذي لبث خفيا منذ عام ١٩٣٣ عاد الى الظهور ، وتجلى بمبادرة القصر لحشد المستائين من حكم الوفد ورئيسه النحاس ، وكان وقتئذ في أوج قوته ، يتمتع بتأييد كافة الاحزاب • ولكن سرعان ما تبدلت هذه الحالة بعد خمسة عشر شهرا من ابرام المعاهدة ؛ ذلك لان المعاهدة لم تعد تعجب الناس ، ولان القصر أضحى مركزا ناشطا لمناوأة الحكومة يحصي عليها انفاسها • وفي نهاية عام ١٩٣٧ جابه النحاس عداوة القصر بصراحة واستقلال • وقد عانى حزب الوفد انشقاقا على نفسه حينما انفض من حوله نفر من أقدم أعوان سعد زغلول من أمثال احمد ماهر والنقراشي ، وأنشأ المنشقون حزبا جديدا سموه « الهيئة السعدية » ، وثبت ان العوامل الشخصية والعلاقات الفردية كانت أقوى من الولاء الحزبي ومن المبادىء

---

(١) انظر نصوص المعاهدة وملاحقها في المصدر السابق الذكر الصادر عن مجلس الشيوخ ص (١٠ — ٢٤) •

(٢) انظر آراء البرلمان المصري في المعاهدة المصرية البريطانية اثناء المناقشات التي دارت حولها . نفس المصدر السابق ص (٤٠ — ٢٢١) •

السياسية • كلف الملك محمد محمود بتأليف الوزارة واشترك فيها الاحرار الدستوريون والسعديون وبعض المستقلين ، وقوي مركز الحكومة بهزيمة الوفد في انتخابات آذار ونيسان ١٩٣٨ • وعندما بدت للعيان نذر الحرب العالمية الثانية في آب ١٩٣٩ ، استقال محمد محمود معتذرا باعتلال صحته وكبر سنه ، والف علي ماهر ــ رئيس الديوان الملكي السابق ــ وزارة من السعديين والمستقلين فقط •

الاتجاهات السياسية والنزعات القومية في مصر :

انحصرت دعوة الحزب الوطني برئاسة مصطفى كامل في استقلال مصر استقلالا داخليا عن السلطنة العثمانية ، وافهام الشعب المصري حقوقه ومسؤولياته التي تقتضي التعاضد والتساند بين المسلمين والاقباط • وكذلك فعل خليفته محمد فريد ، فحدد مصر بأنها (كل وادي النيل من أقاصي السودان الى البحر المتوسط ، ثم البحر المتوسط ، ثم البحر الاحمر بما يشمل كردفان ودارفور) • أما حزب الامة الذي تشكل في الوقت نفسه فكان معظم اعضائه من الملاكين واصحاب الاطيان أي من الطبقة المتوسطة التي لم تكن ثروتها كافية لنيل حظوة الارستوقراطية التركية الحاكمة بمصر • ومن هنا معارضة حزب الامة لتلك الارستوقراطية ، وللولاء السياسي الذي تشعر به مصر نحو تركية ، ولفكرة الجامعة الاسلامية ، بغية عزل الارستوقراطية عن دعاماتها الخارجية • ومقابل ذلك كان حزب الامة معتدلا في مطالبه السياسية من الاحتلال البريطاني ، واعضاؤه يعتبرون من الذين تزودوا بالثقافة الغربية وتأثروا بروحها وتقدميتها اكثر من أعضاء الحزب الوطني ، وكانوا كذلك أقل تمسكا بالتقاليد من الوطنيين ، وهذا ما احفظ عليهم الازهر[١] • وقد عمل لطفي السيد على تحويل الوطنية المصرية نحو الوجهة القومية الديمقراطية ، ودعمها بأبحاث في ماهية الامة والوطن ومركز الفرد فيهما ، كما عني بتمصير القيم ، فجعل الاخلاق والعادات والمناقب مصرية بعد ان كانت عربية واسلامية ، كذلك دعا الى التزام الحياد في الحرب الدائرة بين الدولة العثمانية والطليان (١٩١١) في طرابلس الغرب ، وحض على تحويل المبالغ المخصصة للمنكوبين الطرابلسيين الى بعض المشاريع المصرية الداخلية

---

(١) من امثال احمد لطفى السيد ، وطه حسين ، ومصطفى عبد الرزاق ، ومحمد حسين هيكل .

« لان لا شيء يربط مصر بجاراتها العربيات ، وان مصلحة مصر تناقض مصالح تلك الجارات [1] » .

ولكن ما الذي جعل مصر تتبنى فكرة القومية المصرية ، أو الجامعة العثمانية الاسلامية ؟

يبدو أن العامل الاستعماري له اثر لا يستهان به في هذه النزعات الانعزاليــة والاسلامية لمصر التي نمت على حساب الفكرة العربية . منذ الاحتلال الفرنسي لمصر أيام بونابرت (١٧٩٨ ـ ١٨٠١) حتى العقد الثاني من القرن العشرين ، أوهم الاستعمار مصر انها منفصلة ومتميزة عن غيرها من اقطار العروبة المجاورة لها ، وجعلها تزهو بوضعها الدولي الذي لم يصل لمثله قطر عربي آخر . مما حمل مصر على ان ترسم لنفسها سياسة مستقلة عن جاراتها وتحصر اهتمامها بقضاياها ؛ وعزز الاستعمار عزلة مصر عن اخواتها العربيات بقطع ما يصلها بهم من الصلات والعلائق الثقافية . ولم يتمكن المصريون سريعا ان يدركوا ان الاستعمار كان يعمل كوحدة ، أي ان دوله كانت تضطر برغم نزاعها وحقوقها ان تتعاون فيما بينها في سياسة استعمارية موحدة تجابه الشعوب الخاضعة لها ، بما يؤمن لدول الاستعمار تعويضات متقابلة . والوفاق الودي الذي عقدته دولتا فرنسة وبريطانية (١٩٠٤) هو من أبرز الامثلة على ذلك [2] . ان تعدد القوى الاستعمارية التي تقاسمت اقطار الوطن العربي قد حال دون وعي العرب في المشرق والمغرب لحقيقة وحدة مخطط هذه القــوى الاستعمارية . ولو ان الاستعمار الغربي كان يتمثل في دولة واحدة ، لوعت الاقطار العربية حقيقة وحدة الاستعمار ، ولتعاونت في التخطيط لسياسة خارجية موحدة ، ولفهم المصريون مثلا ان أملهم ليس في فرنسة ولا في تركية ، لان الدولتين عضوان في المحفل الاستعماري الاستغلالي ، وانما أملهم في الالتفات نحو اخوانهم العرب في الاقطار الاخرى الرازحة مثلهم تحت الاستعمار ، والمناضلة مثلهم ايضا للتخلص من نيره ، ولكن الاستعمار البريطاني كان يحول دون وقوف مصر على قضايا الامــة العربية وأقطارها ، ويحاول جاهدا عزلها عنهم . وقد أدرك العرب متأخرين ان

---

(١) د. انيس صايغ « الفكرة العربية في مصر » . بيروت ١٩٥٩ ص ٥٩ .

(٢) نص على اطلاق يد بريطانية في مصر ، مقابل اطلاق يد فرنسة في مراكش .

الاستعمار في سعيه الحثيث لضرب الوحدة العربية ، يحاول ان يجزيء القضية العربية ويجعلها قضايا متعددة • يعالج علنا كلا منها بمعزل عن الاخرى ، ويعالجها سرا كقضية واحدة • ونظرته الى العرب واحدة ، تمليها دوافع واحدة ، دون ان يبدر عنه ما ينبيء بأنه ينظر للعرب كجماعة واحدة • وبذلك يكون بمستطاعه ان يتعامل مع سورية بخلاف ما يتعامل مع مصر ، ومع شمالي افريقية او اقطار شبه الجزيرة • نلمس ذلك في الخطط الفرنسية التي رسمها نابليون حين احتل مصر ؛ فقد حصر اهتمامه أولا بمصر دون سواها ؛ حتى اذا ثبت له بالضرورة انه يحتاج لضم سورية ، حماية لمصر ، اضطر للاهتمام بالقضية السورية ، غير انه لم يكن ليشير اليها كجزء متمم للقضية المصرية ، وفي نطاق قضية عربية واحدة ، لان ذلك يشكل خطرا على مصالحه • والعرب خارج مصر مسؤولون كذلك عن عزلة مصر واقليميتها ، وربما يعود ذلك الى انشغالهم ايضا بمقارعة الاستعمار ، والى عدم ادراكهم ايضا لحقيقة وحدة الاستعمار ، ووجوب مجابهته كوحدة ، والقوميون العرب في ديار الشام الذين وضعوا بروتوكول دمشق لتنشب الثورة العربية على اساسه ، لم يذكروا مصر ، ربما لانهم لم يرغبوا في اغضاب الحليفة بريطانية التي سينكشف لهم وفاءها ، وحينئذ سيتحققون أكثر من أي وقت مضى ان قوى الاستعمار مهما تعددت وتلونت ، متحدة في المصلحة المحتومة ، تماما كما ان مصلحة الشعوب المغلوبة هي في الثورة متحدة على الاستعمار •

هذا الى أن حكام مصر من اسرة محمد علي ضلعوا في مسؤولية تباعد مصر عن الفكرة العربية طوال قرن ونصف • فالاسرة الحاكمة الالبانية لم تحس انها عربية ، ولم تشجع التواصل مع العناصر العربية لا في داخل مصر ولا خارجها •

منذ اليوم الاول للاحتلال البريطاني سنة ١٨٨٢ انصرفت مصر الى مناوءته ومقاومته • وعداؤها المكنون لهؤلاء الاجانب البريطانيين الذين امسكوا بخطامها ومنعوا سيرها الاستقلالي زمن محمد علي ، جعلها تحس بشدة الولاء الذي يجب أن يربطها الى دوحة السلطنة العثمانية ، وتستشعر الروح العثماني في نفوس ابنائها ، فان حقوق السلطان النظرية ، وسيادته على مصر مهما كانت اسمية فانها كانت الحائل الوحيد دون محاولة بريطانية تأييد سيطرتها التامة على مصر • ومن يرجع

الى خطب الزعماء الوطنيين ، والى نفثات الشعراء[1] والكتاب المصريين وقتئذ ينكشف له ماكان لمقام الخلافة العثمانية من تأثير كبير على أهل مصر ، وما كان للسلطان العثماني من جاه ونفوذ بصفته الممثل الاكبر لعظمة الاسلام والمسؤول عن حماية الدين والملة . ومصطفى كامل بطل الوطنية المصرية التي ربطت قضيتها بالآستانة « اسلامبول » ، الم يكن يرى رأي محمد عبده وجمال الدين الافغاني من قبله ، ان انحطاط المسلمين في مشارق الارض ومغاربها وضياع مجدهم يكمن في انقسامهم وتباعدهم ؟ لقد اعتقد مصطفى كامل ان القومية الوطنية المصرية التي تنادي « مصر للمصريين » لا يمكن ان تتأجج وتلتهب الا من مشعل الاسلام ، ومصلحة مصر مرتبطة بمصلحة الاسلام على العموم ، واذا كانت الدولة العلية رأس الاسلام ، فمصر هي روحه . وما كان عجبا اذن أن يولي الوطنيون ، وعلى رأسهم مصطفى كامل ، ومحمد فريد ، أنظارهم قِبَل الآستانة ، أو ليس عز مصر من عز الدولة العثمانية ، وسقوط هذه الدولة معناه سقوط الصلة القانونية الوحيدة التي تفكر بريطانية في الوقوف تلقاءها ، من قبل ان تجعل الاحتلال البريطاني لمصر أمرا مفروغا منه نهائيا ؟

ولطالما فزع السلطان عبد الحميد من احتمال انتقال الخلافة الى القاهرة . على ان مصر ما كانت مكترثة بكل هذا الالتفات نحوها لانشغالها بمصائب الاحتلال ، حتى اذا أرجف بعض الناس في مصر بأن ثمة مساع تبذل لاقامة خلافة عربية ، انبرت لهم الصحف قائلة : « ان مقام الخلافة اسمى من ان يتطاول اليه أحد ، وقد سلم السواد الاعظم من المسلمين زمامه لبني عثمان تسليما »[2] . والدولة العثمانية نفسها كانت تجد ترابطا طبيعيا بين مصر وقضايا البلدان العربية الشرقية ، ولذلك حرصت على ان تعزل مصر بشتى الاساليب طالما كانت ترى جماعات من المثقفين العرب يتجهون بأنظارهم الى القاهرة ليتزعموا الحركة العربية . ولدينا دلالات كثيرة على ذلك ، منها ان شكري العسلي ألقى خطابا في ميدان ابراهيم بمصر ، واشار الى تمثال

---

(١) يعتبر شوقي اعظم من تغنى بمحامد الخلافة وتعظيم رجالاتها ، ومن قوله في آل عثمان :

رضي المسلمون والاسلام   فرع عثمان دم فداك الدوام

(٢) مجلة المنار (عدد ٤٥ يناير ١٩٠٠ ص ٧٠١)

ابراهيم أثناء خطابه وتساءل : « الى أين يشير هذا التمثال » ؟ واستمر قائلا : « ان مصر والشام اختان بينهما رابطة الدين واللسان والعنصرية ، وهذا التمثال يشير بيده الى البلاد الشامية » [١] ، وأعدم العسلي في دمشق بعد ان حكمه الديوان العرفي سنة ١٩١٦ .

ان القومية العربية لم يكن لها جذور عميقة في مصر ، والحركة الشعبية فيها كانت حركة أمة مصرية وحكومة مصرية ظهرت أولا في حركة عرابي سنة ١٨٨٠ ، وظهرت ثانيا في بداية القرن العشرين ، بحركة مصطفى كامل ، واخيرا ستعبر عن نفسها بالحركة الوفدية بزعامة سعد زغلول[٢] . وكان مصطفى كامل يقول : « ان مصر على رغم كونها مسلمة فهي ليست عربية ، ومسلمو مصر بلا نزاع مصريون ،ومعظمهم أجدادهم الفراعنة[٣] . وبعض المفكرين العرب ما كانوا في نظره سوى دخلاء ودساسين[٤] ومنافقين ، شرهم أعظم من أعداء الاسلام الصريحين ، وقد اهتم لاسكاتهم بمحاربة الفكرة العربية لانها في اعتقاده ستغدو ألعوبة بيد دولة كبرى تسلم مصر الى محتليها الانكليز أبدا . وفي الحق ان النزعة المصرية المعتزلة والنزعة العربية الجامعة ستتخذان منذ البدء سبلا متعاكسة خلال فترة متطاولة تمتد نصف قرن على الاقل ؛ فان جماعة كبيرة من المفكرين القوميين اللبنانيين والسوريين وجلهم من النصارى ، اتخذوا مصر موطنا لهم فرارا من استبداد السلطان عبد الحميد . ولقد سعى هؤلاء في منزلهم الجديد بين ١٨٨٠ ــ ١٩١٤ الى تهيئة الاذهان لقبول فكرة القومية العربية ، وأرادوااستبدال الفكرة الجنسية القومية بالفكرة الدينية العامة ، وعكفوا على اللغة العربية يبعثون آدابها وعلومها ويجددونها لملاءمة حاجات

---

(١) الحصري « نشوء الفكرة القومية » ص ٢٣٣ .

(٢) Hourani « Minorities in the Arab World » . p. 31

(٣) Marcel Colomb. « L'èvolution de l'Egypte » (1924 - 1950) p. 165.

(٤) كان مصطفى كامل يكره اصحاب جريدة المقطم ومن إليهم لانهم كانوا يعبرون ويصدرون عن السياسة الانكليزية . ويكره ايضا الموارنة الذين استخدمتهم سلطة الاحتلال في مصر والسودان . ولطالما خاطب السيد عبد الله النديم هؤلاء الموارنة وذكرهم بأصلهم العربي وبأخوتهم للمصريين العرب .

الحضارة الحديثة . وكانت حركتهم هذه سياسية بقدر ما كانت أدبية لغوية ، تستهدف اثارة سخائم النفوس ضد الاستبداد العثماني ، وامداد الشعب العربي بالوعي لذاته ليشعر بوحدته وبعظمة ماضية . ومصر الى اعجابها بجهود هؤلاء السوريين ، فانها كانت تبرم بدعاياتهم التي أدت الى ثورة العرب عبر قناة السويس ، وانتفاضهم على دولة الخلافة العلية . ولذلك ليس عجبا ألا تلاقي الثورة العربية في الحجاز من جانب المصريين سوى الاعراض والاستنكار . بل ان معظمهم توهموا ان تلك الثورة وليدة مطامع شخصية ونتيجة دسائس انكليزية مكشوفة ، فشجبوا الثورة العربية وانتقدوا القائمين عليها . وتفسير هذا الموقف سهل ، فالمصريون لم يقاسوا من ويلات الحكم التركي لا في عصر عبد الحميد ، ولا في عصر من أتى بعده عندما طغى حزب تركية الفتاة ، وقلب ظهر المجن للعرب اخوان الترك في الدين . وانما كان المصريون يعانون من ويلات الاحتلال البريطاني الذي وضع عرب الجزيرة ايديهم بيده لضرب دولة الخلافة الاسلامية ، نصيرة المصريين وموضع أملهم في مقاومة الاحتلال البريطاني الذي يريد ان يمكن لنفسه في ارض مصر . ومصر التي ما فتئت تلزم جانب الدولة العلية وتنافح عن سلطانها ، كم كان يسرها لو ان الظروف ساعدتها لمحاربة الانكليز الى جانب الترك ، تماما كما فعل كثيرون من ابنائها عام ١٩١١ — ١٩١٢ عندما انخرطوا في صفوف الترك والعرب لرد العدوان الايطالي على طرابلس الغرب !

ترقب الناس حملة جمال باشا على قناة السويس بلهفة ورجاء ، وعاشوا طوال أيام الحرب على امل بانتصار تركية ودول الوسط . هل كان لمصر بعد هذا ان تؤيد الثورة العربية ، وتتبنى الفكرة التي أشعلت نارها ؟ .

ولكن هذه الحال لن تدوم ، ذلك ان مصر وجدت نفسها بعد معـاهدة لوزان (تموز ١٩٢٣) منفصلة نهائيا عن السلطنة المنقرضة وعن وريثتها الدولة التركية العلمانية التي ألغت الخلافة الاسلامية ، وتنكرت للدين ، وشردت الخليفة العثماني . وتطلعت مصر حولها فوجدت انها مجاورة لعدة دول عربية تشترك معها في اللغة والدين والاخلاق ، ولكن ماذا يفيدها التطلع الى هذه الدول والوحدات الصغيرة

الضعيفة التي لا تملك سيادتها ولا استقلالها [1] ؟ خير من ذلك وأبقى هو ان تسعى مصر للتخلص من الحماية والاحتلال الاجنبي ، وبعدئذ يمكنها ان تدرس مسألة كيانها « العربي » وتكشف عن ذاتها التي يؤكد أولئك العرب في جزيرتهم انها عربية أصيلة ٠.أما الآن وقد مضى بضع سنين على انقضاء الحرب العالمية الاولى ، فكانت تكتفي بأن يوجد فيها طيف من الشعور بهذا الكيان العربي ، ومن المرجح انه كان للعنصر التركي الذي ينتمي اليه بعض الساسة في مصر اثر لا يستهان به في عزلة مصر عن التيارات العربية التي اتضحت بعد اعلان الدستور العثماني عام ١٩٠٨ ٠

وكانت ثورة ١٩١٩ فاتحة عهد سعيد من العلاقات الاسلامية القبطية ؛ ولكن الذين آزروا الحركة الوطنية من الاقباط فعلوا ذلك كجهد سياسي مصري وعلى الصعيد الاقليمي لا العربي ٠ وقبل ذلك اعتز الاقباط بالفرعونية وبالقوة المصرية على حين كانت القومية عند الحزب الوطني قومية مصرية شرقية عثمانية ٠ وحصر الاقباط اهتمامهم ، بتشجيع الانكليز ، في قضايا طائفتهم وفي مهاجمة الطوائف والدعوات الاخرى ٠

واعتقد بعض أدبائهم وكتابهم أنهم عثروا في أوابد مصر العتيقة على أساس مجدها وسر عظمتها وحقيقة كيانها ومفتاح نهضتها المقبلة ٠ وتساءل هؤلاء ، ألم تعرف مصر قبل عمرو بن العاص وقبل اعتناق الاسلام حضارة رائعة متسامية ؟ أجاب على ذلك الكشف العظيم عام ١٩٣٠ لقبر توت‌عنخ‌آمون فأيد النظرية القبطية الفرعونية في القومية المصرية وفي الكيان المصري ، تلك النظرية التي كان الاحتلال الانكليزي يشيعها ويناصرها ليفرق كلمة الشعب ، وليضعف قوى المقاومة وليعزل مصر عن العالمين الاسلامي والعربي ٠ وطفق الاثريون ينفضون الغبار عن تراث الفراعنة ، ويكتبون الموضوعات عن ضخامة حضارتهم ، أقدم حضارات البشر المعروفة ، وبرز الاعجاب بهذه الحضارة خصوصا لدى الاقباط ، ولدى بعض المصريين المسلمين من أبناء الاسر التركية المتوطنة في مصر ، والتي تستصغر شأن العرب وتكره الدعوة

---

(١) عندما اراد عبد الرحمن عزام ان يحدث سعد زغلول بشأن الوحدة العربية ، قاطعه سعد زغلول بهذا السؤال : « اذا جمعت صفرا الى صفر ، فصفر ، ماذا تكون النتيجة » ؟ ـ عن الحصري : « العروبة اولا » ص ٦٠ .

العربية • ونادى المنادون بوجوب احياء الآثار الفرعونية وبعث الادب المصري القديم واقامة الادب الحديث على أسسه ، وتمجيد مصر الفرعونية والتبرؤ من العرب ، والقول بان لمصر كيانا انسانيا وحضاريا وثقافيا خاصا ، وانها لا تمت الى اقطار العروبة الا بصلات واهية أهمها الدين ، والدين في سبيل الانهزام من الحيـاة الاجتماعية في هذا العصر الحديث ، واللغة التي لا تجعل وحدها من المتكلمين بها أمة واحدة [1] • وراح بعضهم يدعو الى اصطناع اللهجة المصرية الدارجة في التعليم والادب والصحافة والتمثيل والصكوك والرسائل ، بحجة سهولة نشر الثقافة ، وايجاد أدب مصري ولغة مصرية خاصة ، وليعزلوا مصر عن الفكرة العربية وقضايا أقطار العرب • وقد أدت هذه النزعة الفرعونية نظيرة النزعة الفينيقية في لبنان ، الى رد فعل في الاوساط الاسلامية والعربية داخل مصر وخارجها ، بحيث ظل القوميون العرب ينظرون بريبة الى مصر من الزاوية القومية العربية • على ان هذه الحركة الفرعونية أوشكت ان تموت لضعف مقوماتها وأسسها الفكرية والتاريخية ، ولتعاظم الوعي الوطني ، وقوة الانبعاث الاسلامي من حول الجامع الازهر[2] ، وان بقي الاعتزاز بتراث الفراعين على شكل اعجاب هاديء ، أخذ مكانه في الحياة الفكرية ، وأصبح جزءا من الحياة المصرية المعاصرة ، يستغله الزعماء السياسيون والكتاب والشعراء لاستثارة همم الشعب المصري ، وحيا بالثقة اليه ، وجوابا لمن يصم المصريين بالتخلف عن الركب الحضاري • وانحصرت النزعة الفرعونية [3] بمدرسة أدبية لم تمارس أي نفوذ على الكتل ، برغم كل الاوابد الضخمة الجاثمة على أرض مصر ، ذلك ان الاتجاهين الاسلامي خاصة والعربي ، وتقارب مصر مع الاقطار العربية جعل كثيرا من دعاة هذه النزعة يتجهون اتجاها مصريا معتدلا ، أو اسلاميا صريحا أو عربيا في الاقل •

---

(١) فارس « هذا العالم العربي » ص ١٨٨ •

(٢) بيو ــ « سنتان في المشرق » تعريب جريدة النصر الدمشقية عدد ٢٧٥٨ •

(٣) اجاب الاستاذ المؤرخ عبد الرحمن الرافعي على سؤال عن النزعة الفرعونية فقال : « اما ما تسألونني عما يزعم بعض الكتاب من ان مصر فرعونية وان هذه الفرعونية تحول دون اندماج مصر في الوحدة العربية فهذا ما لا اشاطر القائلين رايهم فيه لان الطابع العربي يغلب على الطابع الفرعوني في القومية المصرية » « مجلة الرابطة العربية » (عدد آذار ١٩٣٩ مجلد ٦ جزء ٤٠ ص ٦) •

ولنتناول الاتجاهين الاسلامي والعربي ببعض التفصيل •

أما النزعة الاسلامية فتعتبر ان المسلمين أمة واحدة مهما تباينت اجناسهم ولغاتهم وتباعدت أوطانهم ، وتسعى الى توحيدهم في دولة اسلامية كبرى أو جمعهم في رابطة اسلامية محكمة الاواصر ، ويكون لهذه الدولة الاسلامية الكبرى نظم اجتماعية وسياسية واقتصادية وفكرية مأخوذة من تعاليم الشرع الاسلامي • ومصر التي تذكر في كل مناسبة انها تتزعم الاسلام بأزهرها العتيد ، أقدم جامعات العالم الدينية ، كان يثير حفيظتها ما يفعله الاستعمار الغربي في ديار الاسلام • وتجلى دفاعها عن المسلمين ونضالهم بمناسبة ثورة الريف (١٩٢٤ ـ ١٩٢٥) ، وضرب دمشق (١٩٢٥) وحوادث حائط المبكي (١٩٢٩) وحوادث الظهير البربري (١٩٣٠) ، الذي استهدف تنصير ملايين المسلمين من قبل فرنسة في الشمال الافريقي • ولا نكران ان معظم هذه العواطف نحو البلاد العربية الاخرى وبخاصة فلسطين ، كان حافزها الدين ، فالمصريون كما ذكرنا يعتبرون مصر حامية الاسلام وزعيمة بلدانه من اليابان حتى الاطلسي ، وهم بذلك يعنون بالوحدة الاسلامية الواسعة التي تنظم العروبة والايرانية والتركية وما اليها حتى بلاد الصين • أليس هذا من حقها بعد ان هجرت تركية الدين ؟ ودعت الحكومة المصرية الى تدعيم علاقات الصداقة مع الدول الاسلامية العربية كاليمن والعراق والحجاز ، كما انها لم تصم أذنيها عن سماع دعوات جاراتها الدول العربية لتدعيم صلات الثقافة واللغة والدين بينها وبين مصر ، الامر الذي أشعرها بمركزها الممتاز المتفوق في عالم العرب والاسلام •

والواقع ان النزعتين العربية والاسلامية تتشابكان في مصر ، فينجم عن ذلك ان الحركة العربية تتسم بالسمة والطابع الاسلامي بصورة واضحة • كل ذلك نتيجة لعدم وضوح المفاهيم القومية عند القادة السياسيين ، والى اختلاط المفاهيم القومية العربية والاسلامية في تفكيرهم ، واهم من هذا الى قوة النزعة الاسلامية عند الجماهير •

ولقد أيد هذا الاتجاه الاسلامي تزايد أهمية الجماعات الاسلامية في مصر التي لا ترى حرجا في التدرج من الوحدة الوطنية الى الوحدة العربية الى الوحدة الاسلامية • والولاء في نظرهم لهذه الوحدات الثلاث لا يتنازع ولا يتناقض ؛ فقد حضّ الاسلام

على أن يعمل كل لخير بلده وأمته • ثم ان الاسلام نشأ عربيا ووصــل الى الامم بواسطة العرب ، ونزل كتابه القرآن بالعربية ، فوحدة العرب لابد منها لاعادة مجد الاسلام واقامة دولته •

ومعلوم أن هذه الجماعات الاسلاميــة برزت على المسرح السياسي والفكري كنتيجة حتمية لخضوع مصر للإستعمار الغربي المسيطر على معظم مقدرات العالمين العربي والاسلامي •

وعلى موازاة الفكرة الاسلامية في وحدة كافة الشعوب المسلمة ، كان يلحظ ولادة وحدة تكبر وتنمو تدريجيا ، تقتصر على المسلمين العرب الذين يسهل على مصر ان تتبوأ قيادتهم • والمشروع يبدو حسنا ، ولكن كانت أمامه عقبات متعددة على الرغم من توافر المؤيدين له • فالدعوة العربية هذه تبدت للمسلمين السلفيين في مصر انها معادية لروح الاسلام ، ومناقضة لجوهره ، اذ لا قومية في الدين الاسلامي ، وانما أخوة تغض الطرف عن العرق والجنس واللون ، ولا يفضل أفرادها الا بالتقوى • وصرح كثيرون من العلماء المصريين ، ومنهم شيخ الجامع الازهر ، بعدم تأييدهم للوحدة العربية ، ودعوا لاقامة الوحدة الاسلامية فحسب •

وفي الحق ان دعاة العروبة في بلاد الشام والعراق اذا أقاموا دعوتهم على أساس لغوي وثقافي اكثر منه ديني ، فان هذا ما كان ميسورا في مصر ؛ لان النزعة الدينية وجدت الى جانب النزعة القومية سواء بسواء في أذهان الناس • حتى ان الوفد المصري الى المؤتمر الاسلامي المنعقد في القدس عام ١٩٣١ اشترك هو نفسه في المؤتمر العربي الذي انعقد بعد المؤتمر الاول بقليل • ودافع الوفد عن وجهة النظر الدينية في المؤتمر الاول ، كما دافع عن وجهة النظر العربية القومية في المؤتمر الثاني ، وكان الحال كذلك في مؤتمر بلودان عام ١٩٣٧ وفي المؤتمر البرلماني الاسلامي العربي في القاهرة عام ١٩٣٨ •

غير ان رؤساء الوزارات المصرية المتتالية الناطقين بلسان مصر لم يلتفتوا الى أية دعوة من الدعوتين الاسلامية والعربية • ولعل مرد ذلك الى انهم يرغبون في الإبقاء على عطف وتأييد الدول الغربية لمصر أثناء مواجهتها الاحتلال البريطاني • فان مصر

باستمالتها الرأي العام الدولي تستطيع ان توازن به النفوذ البريطاني[1] • والرأي العام الغربي يهمه ان تبقى مصر بمعزل عن التيارات العربية والاسلامية التي تسبب نفور الاقليات الدينية المصرية من جهة ، وقلق الجاليات الاجنبية على ما لها من امتيازات من جهة ثانية • وحرصت مصر على سير المفاوضات الوئيد بينها وبين بريطانية ، فلم تلتفت الا التفاتة يسيرة الى فعال السلطات البريطانية في ارض فلسطين عام ١٩٣٦ منذ نشوب الاضطرابات فيها بين العرب واليهود والانكليز[2] • وظلت الرابطة الوطنية المصرية قائمة منذ ثورة ١٩١٩ على اساس اشتراك جميع المواطنين في المطالبة باستقلال البلاد •

على أنه بعد ابرام المعاهدة البريطانية المصرية عام ١٩٣٦ اطمأنت مصر الى وضعها الدولي كدولة ذات سيادة ، وبدأت تخرج تدريجيا عن عزلتها [3] وتتطلع الى من حولها من الدول العربية ، فأدركت المدى الذي توصلت اليه بعض هذه الدول في طريق السيادة الوطنية والاستقلال ، وأدركت انها ــ أي مصر ــ من الزاوية العربية أقوى وأغنى الدول العربية ، ومن الزاوية الاسلامية الشرقية تؤهلها ثقافتها وجامعاتها وامكانياتها البشرية وحضارتها الى أن تقوم بدور هام بين دول الشرق الادنى العربي•

وبدا ان مصر تخلت عن انطوائها وعزلتها القديمة ، لتصبح مقر المؤتمرات ومكان الاجتماعات والمداولات التي كانت تعقد من أجل مصلحة البلدان العربية خاصة

Colomb op. cit. p. 173. (١)

(٢) تلمس هـذه الحقيقة في كلام الدكتور محمـد حسين هيكل ، اثناء نقـده لمعاهدة ١٩٣٦ في مجلس الشيوخ المصري عندما يقول « وقد يكون الامتناع خلافنا معها (بريطانية) في مسالة سياسية او اقتصادية اذا سامت السياسة البريطانية شعبا عربيا اسلاميا ــ كأهل فلسطين الهوان . وقد كانت الحكومة المصرية تعمل جهدها لمنع الصحف من نشر انباء فلسطين او العطف عليها باسم الحرص على المفاوضات المصرية البريطانيه » . (كتاب مجلس الشيوخ الرسمي السالف الذكر ص ١٨٥) .

(٣) لا نكران انه كان لاتصالات مصر ببلاد العرب منذ ١٩٣٠ خاصة اثر كبير في بداية اتجاهها نحو العالم العربي ، وكانت رحلات الاساتذة والمفكرين والادباء والطلبة ، ذات اهمية كبرى في تدعيم الروابط الاخوية بين الشعب المصري والشعوب المجاورة . أما الحكومة المصرية فلم تتجه نحو العروبة رسميا الا في الحرب العالمية الثانية واثناء مشاورات الوحدة العربيه .

والاسلامية عامة • ففي تشرين الاول سنة ١٩٣٨ انعقد في القاهرة المؤتمر البرلماني العربي الاسلامي من أجل فلسطين ، وأدار دفته منافحون أقوياء عن العروبة والاسلام[١] •

ان مصر ترددت ، خلال السنين القليلة التي مرت عقب صعود فاروق للعرش وعقب تخلصها من الامتيازات الاجنبية ، بين اتخاذ سياسة عربية تسير بموجبها ، أو تبني سياسة أوسع شرقية واسلامية توجه خطاها • ومن دلائل عدم تبلور الاتجاهات السياسية في مصر خلال هذه الفترة،وترددها وحيرتها بين النزعتين العربية والاسلامية ، محاولات تجديد الخلافة الاسلامية[٢] وأحيائها على يد الهيئة الدينية العليا في الازهر التي كان يتزعمها الشيخ مصطفى المراغي• ففي مصر وجدت طوائف وجماعات تميل الى مبايعة الملك فاروق بالخلافة اعتقادا منها ان تؤدي واجبا دينيا ، على ان هذه الهيئات والطوائف كان نفوذها محدودا ودعايتها محصورة ، فهنالك مقامات دينية لها وزنها في الدوائر المسؤولة تأبى الاعتراف بالخلافة • هذا الى ان حزب الوفد المصري وانصاره يقاومون فكرة بعث الخلافة مقاومة صريحة تجلت في تعليق صحفه على اخبارها[٣] • وفهم أولو الامر ان الصعوبات أمام بعث الخلافة قائمة وعسيرة الحل ، كما فهم المطلعون ان هذه الضجة لا تهدف سوى سبر غور الافكار الشعبية لمعرفة مدى التأييد الذي تلقاه فكرة الخلافة الاسلامية •

على انه بدا للكثيرين من المسلمين المحافظين ان هذا العالم العربي من حولهم يمكن أن يشكل وحدة تكون على رأسها مصر • وتحققوا ان مشروع الوحدة العربية

---

(١) نشر عبد الرحمن عزام مقالة بعنوان « العرب امة المستقبل » في مجلة العرب الصادرة في القدس (عدد آب ١٩٣٢ ص ١٦) أورد فيه ان الوحدة العربية حقيقة واقعة تاريخية وان العالم بحاجة للعرب .

(٢) بذلت محاولات في مصر لبعث الخلافة الاسلامية وسعى الأزهر لذلك ودعا الى مؤتمر في القاهرة يجتمع فيه علماء المسلمين واقطابهم في شهر ايار ١٩٢٦ ، وكان المراغي من اعضائه فقرر يومئذ عدم ملاءمة الظروف لاحياء الخلافة ، وتأجيل البت فيها الى مؤتمر آخر اشترط ان يعقد في القاهرة ليعالج المسألة ويفصل فيها بما يراه موافقا للمصلحة الاسلامية العامة .

(٣)مجلة الرابطة العربية عدد ٢ شباط ١٩٣٨ ص ١٨ .

وان كان أقل طموحاً من مشروع الوحدة الاسلامية ، ولكنه أسهل منالا • ان هذه الوحدة العربية ستدعم مركز مصر وستزيد في مكانتها الدولية • وان موقف العداء الصريح الذي يتخذه بعض علماء المسلمين من مفهوم العروبة هو موقف غير معقول ؛ فالاسلام عربي في الاساس ، لانالعربية كانت وما زالت قوام الاسلام ومادته ولغة قرآنه ولسان نبيه • والواقع ان ما نشرته مدرسة المنار الاصلاحية الاسلامية بزعامة السيد رشيد رضا كان له أثره في تطور التفكير الديني المصري في الفترة ما بين الحربين • ورشيد رضا لم يتردد في تحميل الشعوب غير العربية مسؤولية انحطـاط العالم الاسلامي ؛ فقد صرح بان الدين الاسلامي هو دين عربي في مبدئه وأساسه • ولميكن مبتدعا في ذلك، إذ ان هذه الفكرة قد أوردها الكواكبي (١٨٤٩ــ١٩٠٢) في كتابه أم القرى [١] ، كما ان محمد عبده كان يشير اليها احيانا ، حتى اذا اتى السيد رشيد رضا دعمها وأغنى مفاهيمها وشرحها وخاصة بعد ان قام الشريف حسين بثورته على الترك حين يئس من اصلاح رجالاتهم ، ويئسمن بقاء الدولة العثمانية[٢] • ومشى المفكرون والاسلاميون في ركاب مدرسة المنار ، وتساءلوا معها ألم تكن الوحدة العربية فاتحة الوحدة الاسلامية في سالف الازمان ؟ أوليس من قصر النظر أن لا نعمل للوحدة العربية ونبقى فزعين من دعوتها أو جامدين ازاءها ؟ لئن اختلفت الحركة الاسلامية مع الحركة العربية في الاهداف البعيدة فهما تلتقيان في الغايات القريبة ، لان كلا منهما تضع مسألة تحرير العرب في مقدمة برنامجها • أوليس من الخير ان يكون التجمع العربي تجمعا وقتيا للقوى الاسلامية يستهدف تجمعا أوسع منه ؟ •

نستطيع ان نقول اذن بان المخاوف من فكرة العروبة بدأت تتلاشى ، ليحل محلها بالتدريج حماس يزيده قوة توالي الخطوب دراكا على الشقيقات العربيات وبخاصة على فلسطين المجاهدة ، بحيث اتخذ شعور الاخاء والتأييد للعرب في المغرب وفي

(١) نشرت مجلة المنار مقالات كتاب ام القرى جميعها منذ عام ١٩٠٢ ويمكن الرجوع اليها في اعداد تلك السنة .

(٢) مجلة المنار الجزء ٣ مجلد ١٩ ص ١٥١ ــ ١٥٢ لسنة ١٩١٦ .

فلسطين وسورية طابعا مزدوجا من الاخوة الدينية والقرابة القومية [1] . واجتمع دعاة الرابطة الاسلامية مع دعاة الرابطة العربية على صعيد واحد ، ولكن بقي الاسلام القاعدة الاكثر رسوخا في النزعة القومية بمصر . وظل قادة الفكر المصريين في معظمهم يؤثرون استبدال كلمة الرابطة الشرقية بكلمة الرابطة العربية او بكلمة الرابطة الاسلامية ، وقيل انهم يخشون ان يكون نعت الوحدة بالاسلامية وحتى بالعربية ، مثيرا لمخاوف مواطنيهم الاقباط ، ولكن الاصح من هذا هو ان غالبية المفكرين والكتاب في مصر لم يكونوا قد وصلوا في تفكيرهم الى مرحلة الرابطة العربية القومية ، بل توقفوا عند هذا النوع من الرابطة الشرقية الذي يؤلف جسر انتقال بين مرحلة الرابطة الاسلامية العامة ، ومرحلة الرابطة العربية القومية ، ولا بد من أن يمضي الوقت قبل ان تحل الرابطة العربية هذه محل الرابطة الشرقية[2] . ومهما يكن فان الاتجاه العربي وجد سبيله الى بعض الاذهان ، وظهر في بعض الآراء والاحاديث التي أفضى بها عدد من السياسيين المصريين في تحبيذ فكرة العروبة والعمل لوحدة بلدانها[3] . وقد هاجم مكرم عبيد ، أحد أقطاب حزب الوفد المصري الواسع

(1) يؤيد هذا هو ما صرح به مصري صميم هو محمد توفيق دياب منشيء جريدة الجهاد ، يراجع خطابه في جريدة صوت الاحرار عدد ٧٦٢ لسنة ١٩٣٦ ونقتطف منه : « منذ عشرين سنة أو نحوها ، كان اكثر المصريين اذا ذكر البلدان العربية ، ذكرها في شيء من الموجدة يشبه الالحاد » وبعد ان يذكر ان نظر المصري الى بلاد العرب كان كنظره الى اي قطر شرقي كاليابان والصين مثلا ، يقول « تلك المرحلة الاولى ، كانت مرحلة الوساوس والشكوك ، فلما توالت الخطوب على الاخوات المتقاطعات استيقظت روح الايمان من سباتها العميق فأخذت الالسنة والاقلام العربية كلما ذكرت العروبة وآلام الشقيقات ذكرتها مصحوبة بشعور من الاخاء لم يكن من قبل موفورا » . أنيس المقدسي « الاتجاهات الادبية في العالم العربى الحديث » ص ٩٥ ــ ٩٢ .

(2) ساطع الحصري ــ « آراء واحاديث في الوطنية والقومية » ص ١١٨ ، ومن مظاهر تأييد الفكرة العربية بمصر تاليف جمعية الرابطة العربية ١٩٣٦ للعمل على نشر الثقافة العربية وتوثيق الروابط والعلاقات بين مصر والبلاد العربية ورئيس الجمعية محمد بسيوني رئيس مجلس الشيوخ المصري (الرابطة العربية عدد ٩ سنة ١٩٣٦) .

(3) تصريح محمد محمود ، وعلي ماهر وحسين سري وغيرهم للصحفي السوري شاكر الخردهجي بين عامي ١٩٣٧ ــ ١٩٣٨ (ص ٧٧ من كتابه العرب في طريق الاتحاد .) ، وخطب الدكتور زكي مبارك في نادي المثنى ببغداد فقال « أن مصر عربية في كل شيء في لغتها ودينها واخلاقها » الرابطة العربية ٢٦ كانون الثاني سنة ١٩٣٨ ص ٣٢ .

النفوذ في خطبه التي ألقاها في المدن الشامية ، الآراء الفرعونية الخيالية الانعزالية التي تقفز بمصر قفزات خلفية خطرة ، وهاجم أصحابها من أقباط ومسلمين ، وكرر أن المصريين « عرب » واستطرد يقول ، ان المقصود بقوله هذا « هو هذه الوشائج وتلك الصلات التي لم تفصمها الحدود الجغرافية ولم تنل منها الاطماع السياسية منالا على الرغم من وسائلها التي تتذرع بها الى قطع العلاقات بين الاقطار العربية ، والعمل لقتل الروح العربية بين ابنائها والسعي للتفرقة ، واضطهاد العاملين لتحقيق الوحدة العربية التي لا ريب في أنها من أعظم الاركان التي يجب ان تقوم عليها النهضة الحديثة في الشرق العربي . فالشرق العربي في حاجة الى الوحدة والتضامن امام التيـــار الاوربي الجارف ، وابناء العروبة في حاجة الى ان يؤمنوا بعروبتهم ، وبما فيها من عناصر قوية استطاعت ان تبني حضارة زاهرة وان تخضع البلاد الاجنبية لها حقبة طويلة من الزمان » . ثم يقول : « نحن عرب ، ويجب ان نذكر في هذا العصر دائما أننا عرب قد وحدت بيننا الآلام والآمال ، ووثقت روابطنا الكوارث والاشجان ، وصهرتنا المظالم وخطوب الزمان ، فأحدثت منا أمما متشابهة متماثلة في كل ناحية من نواحي الحياة »(١) .

من هنا تدرك ان الفكرة العربية بدأت تجد طريقها الى نفوس المصريين لتخرجهم عن عزلتهم المأثورة التي دلت الوقائع العملية على بطلانها ، اذ لم يعد يبدو في الافق السياسي ما يبرر مخاوف مصر الاولى التي كانت تراودها كلما فكرت في اجراء اتصالات تؤدي الى ارساء علاقات الود والاخاء بينها وبين الدول العربية مما ينجم عنه أفضل النتائج في مضمار مقارعـــة الاحتلال .

ولا يفوتنا أن نشير الى أثر العرب المقيمين بمصر على تعريف المصريين بقضايا العروبة واحوالها ، فقد بقي في مصر بعد الحرب العالمية الاولى عدد كبير من أحرار السوريين خشية ان تؤدي عودتهم الى سورية لارهاقهم وسجنهم . وكان الاحرار يعتبرون أرض النيل ملجأ لهم من شتى انحاء الوطن العربي ، وأدى تطور المواصلات بين مصر وجاراتها العربيات الى ارتباطها معهم وبدء مرحلة الاتصال الشعبي والرسمي، والمشاركة في المؤتمرات والمناسبات الثقافية والعلمية والسياسية والطبية .

---

(١) مكرم عبيد في مقاله « المصريون عرب » (الهلال نيسان ١٩٣٩ ص ٣٢ و ٣٣)

أما الاحزاب المصرية في هذه الفترة ما قبل الحرب العالمية الثانية ، فكانت احزاب حكم وزلفى وراء السلطان لا أحزاب عقائد ونظريات . وكان حزب الوفد اكبر الاحزاب ، وبدأت نظرته تتطور حوالي عام ١٩٣٩ حتى اذ عقد مؤتمره السنوي في تشرين الثاني ١٩٤٧ نجد ان عروبة مصر ووجوب تقوية العلاقات المصرية العربية كانت محور المؤتمر ومدار بحثه . كذلك فهنالك نفر من رجالات حزب الاحرار الدستوريين أولوا عناية لقضايا العروبة . وهنالك أيضا حزب مصر الفتاة أسسه احمد حسين على الطراز الفاشي (١٩٣٧) ، وبرغم ان الحزب بادىء الامر كان يمجد بمصر وزعامتها على العالم العربي فانه تطور نحو العروبة ، وخطب رئيسه داعيا للوحدة العربية ، وقال ان الروابط القائمة بين العرب تؤهلهم لان يعتبروا أنفسهم أمة واحدة . (من خطابه بدار الشبان المسلمين بالقاهرة ١٩٣٩) . كذلك دعت جمعية الشبان المسلمين ومؤسسها الدكتور عبد الحميد سعيد (١٩٢٧) للاهتمام بقضية فلسطين ، ومراكش وليبية ، وطالبت بصراحة بالوحدة العربية (١٩٣٣) لاول مرة في المهرجان الكبير الذي اقامته في ذكرى معركة حطين . وتعتبر حركة الشبان المسلمين كرد فعل لدعوة حسين واصحابه القوميين المصريين لتوجيه ثقافة مصر نحو البحر المتوسط والغرب .

لم تصم مصر أذنيها عن سماع الدعوة الصادرة اليها من جانب العرب : تقدمي يا مصر الى الامام ونحن نتبعك في طريق العروبة . لان مصر تمتلك من الغنى والقوة ما يؤهلها للقيام بواجب القيادة في العالم العربي ، لاسيما والمؤتمرات العربية اصبحت تعقد فيها ، وقد أشرنا الى بعضها في كلامنا السابق . ونشير الآن الى المؤتمرات الطبية العربية التي بدأت تجتمع في القاهرة منذ عام ١٩٣٧ . لم تكن هذه المؤتمرات مقتصرة على الابحاث الطبية وحدها ، وانما كان مدى تأثيرها أبعد ، فهي وسيلة لاجتماع رجالات الدول العربية يتداولون خلالها في ما يرفع شأن أقطارهم ويوحد جهودهم . وأهم من هذا ، أنها كانت توفق بين الاتجاهات السياسية والثقافية والاقتصادية وغيرها[1] . لقد سجل اشتراك مصر في حركات القومية العربية فتحا

---

(١) خطب الدكتور سامي شوكت رئيس الوفد الطبي العراقي قائلا : « في المستقبل القريب سيأتي يوم نتمكن فيه بقوة حبنا النزيه وشديد تعلقنا بكم من غزو قلوبكم (قلوب المصريين) وسنحتلها تدريجيا بحيث لا يبقى فيها مكانا يتسع لغير العروبة . . ←

غير مسبوق في تطور الفكرة العربية عندما اجتمع المؤتمر الفلسطيني في القاهرة ، وانضم اليه ممثلو الدول العربية من الحجاز واليمن والعراق ، إستعدادا للتوجه الى مؤتمر المائدة المستديرة في لندن سنة ١٩٣٩ • وستجد مصر والدول العربية في الحرب العالمية الثانية ظرفا مواتيا لتحقيق تقارب وتعاون اوثق • وستراود فكرة الاتحاد العربي أذهان المفكرين والسياسيين العرب ، لتتجسد بعد مداولات ومباحثات في منظمة عربية تتولى تنسيق شؤون الدول العربية •

اهم الاحداث السياسية والقومية في السودان :

اما السودان : فقد أصابه بعد الثورة المهدية ما اصاب مصر بعد الثورة العرابية؛ فقد استغلت انكلترة كلا من الثورتين اللتين قامتا في وقتين متقاربين لتحقيق مطامعها الاستعمارية • استغلت ثورة عرابي للتدخل في شؤون مصر واحتلالها ، ثم لم تسمح لمصر باتخاذ الاجراءات اللازمة لمنع استفحال ثورة المهدي الذي دحر قوات الحكومة المصرية وأخذ يستولي على السودان بسرعة خاطفة ، بعد ان ضج السودانيون من مظالم الحكام ، وأغلبهم من الترك والشركس ، وصدودهم عن رعاية مصالح السودانيين واثرائهم غير المشروع واحتكارهم تجارة العاج • وفي سنة ١٨٨٣ طلبت بريطانية سحب بقية الجيوش المصرية من السودان وتركه للمهدي ، بعد رجحان كفته • وعارضت وزارة شريف باشا مطلب بريطانية لان التخلي عن السودان يلحق بمصر ضررا سياسياواقتصاديا • ولما وافق الخديوي على الاخلاء آثر شريف الاستقالة ، ولكن وزارة نوبار باشا أذعنت لطلب بريطانية الذي كان معناه ضياع نصف الدولة المصرية الجنوبي ، وانهيار املاك مصر في افريقية • وأذاع الجنرال غوردون حاكم السودان العام على أهالي الخرطوم (١٨٨٤) ان السودان

وعند ذلك تتوحد جميع هذه الجهود لاعادة انشاء وبناء كياننا المقدس الذي تمتد حدوده من خانقين الى تطوان ومن اعالي حدود الهلال الخصيب الى عدن . سامي شوكت « اهدافنا » ص ٩٣ . وعلقت بعض الصحف المصرية على الخطاب فاشارت « البلاغ » المصرية الى اتفاق الراي بين اقطاب الوفد الطبي العراقي وبعض كبار المصريين على تاليف حزب مصري عراقي يعمل على ايجاد اتحاد عربي للدفاع عن كيان هذه الشعوب . كما علقت جريدة « المقطم » على ذلك ودعت الى الاخذ به والعمل حثيثا في هذا المضمار لفائدة الدول العربية وايجاد اتحاد دولها (نفس المصدر ص ٩٤).

قد فصل عن مصر فعلا ، وارسل الى المهدي يدعوه الى وقف القتال ويمنحه لقب سلطان كردفان ، فرفض المهدي الدعوة ومضى يفتح حواضر السودان ، وضرب الحصار على الخرطوم ، واستعد غوردون للمقاومة وطلب المدد من مصر ، ولكن الثوار الدراويش أنصار المهدي اقتحموا العاصمة وقتلوا غوردون قبل وصول المدد المطلوب . وفي حزيران ١٨٨٥ أذعنت الحكومة المصرية لطلب بريطانية جعل الحدود المصرية مع السودان جنوبي وادي حلفا ، وبذلك انتهى الحكم المصري للسودان .. .

وتوفي المهدي (١٨٨٥) وخلفه عبد الله التعايشي ولم يكن له مزايا سلفه ، فعمت المظالم وتعطلت التجارة وانتشرت الاوبئة والمجاعات، ولكن الانكليز ظلوا يبالغون في اظهار قوته ويشيعون المخاوف من اقدامه على غزو مصر ، لكي يسوغوا بقاءهم في البلاد لحمايتها من غزوه . وفي سنة ١٨٨٩ سارت قوات التعايشي لمهاجمة حدود مصر الجنوبية ، ولكنها منيت بهزيمة ساحقة جنوب وادي حلفا ، فتشجعت الحكومة المصرية ، وعزمت على تعقيب الثوار في السودان ، ولكن بريطانية لم تسمح باحتلال السودان مجددا الا سنة ١٨٩٦ بجيش مصري يقوده الانكليز ، وذلك خشية مد فرنسة سيطرتها على السودان من ممتلكاتها المجاورة . وقاد كتشنر القوة المصرية التي صحبها عدد من الجنود والضباط الانكليز لاسترداد السودان ، وسحق التعايشي والحركة المهدية (١٨٩٨) ، وبعد فترة قصيرة توجه ببعض جنوده وسار في اقليم النيل الابيض قاصدا فاشودة ، حيث طلب من القوة الفرنسية المعسكرة فيها ان تنزل العلم الفرنسي وترفع العلم المصري ، بدعوى ان مصر هي صاحبة السيادة على الاقليم . وتأزمت العلاقة بين بريطانية وفرنسة كما نعلم ، ثم اضطرت فرنسة للرضوخ والانسحاب . وفي مطلع سنة ١٨٩٨ عقدت الحكومتان المصرية والانكليزية اتفاقية السودان التي نصت على الحكم الثنائي للبلد . وهكذا قاسمت مصر انكلترة في حكم ما بقي من السودان بعد اقتطاع اطرافه . فقد احتل الإيطاليون مصوع بعد انسحاب حاميتها المصرية (١٨٨٥) كما احتلوا اريترية ، وعقدوا مع انكلترة معاهدة أقرت بما اغتصبته ايطالية على حدود البحر الاحمر في الصومال . وفي غضون ذلك احتلت انكلترة زيلع وبربرة (١٨٨٤) ومديرية خط الاستواء التي استعصت على المهديين (١٨٨٩) كما استولت فرنسة على جيبوتي في شرقي افريقية (١٨٨٤) .

وحين نشبت الثورة المصرية الشعبية سنة ١٩١٩ ضد الانكليز ، أسس بعض خريجي كلية غوردون في الخرطوم جمعية سرية لمقاومة التعسف البريطاني عن طريق توزيع المنشورات ، وقد تأثر المؤسسون بمبادىء تقرير المصير التي أذاعها الرئيس الامريكي ويلسون ، وبأنبـاء الثورة المصرية • وحين حضرت لجنة ملنر البريطانية الى مصر للتحقيق في أسباب الثورة ، كانت وجهة النظر المصرية تربط قضية السودان بالقضية المصرية ، بينماكانت اللجنة ترى ان قضية السودان منفصلة تماما عن قضية مصر ، وان السودان سيتخذ تطوره مجرى خاصا بموجب اتفاقية الحكم الثنائي وتحت اشراف انكلترة ، وان مصر لا يهمها من السودان سوى ضمان جريان مياه النيل الى أراضيها ، وانكلترة تضمن كل ذلك •

ووضعت حكومة السودان البريطانية خطة استعمارية عريقة لما دعته باشراك السودانيين في الحكم ؛ فمضت تطبق نفس السياسة البريطانية التي عرضنا لطرف منها في الاردن والعراق ومصر ، بتحوير بسيط لا يمس الجوهر لتلائم البيئات المختلفة • وهدفها هو تقوية القبلية العشائرية وترسيخ نفوذها بما يعيق الوعي القومي بين جماهير الشعب ، وخلق مصالح لزعمائها يقاتلون من أجلها ، وبذلك تتفكك الجبهة الداخلية ، وتصبح القوة والنفوذ بيد الانكليز الاستعماريين ، ومشايخ القبائل الذين لا يتعدى أفق احدهم حدود عشيرته وقريته •

سارعت الحكومة لنشر لوائح تعطي سلطات واسعة لمشايخ القبائل الرحل ، وتتظاهر بتدريب بعض السودانيين على الادارة • ورأى المثقفون والمتعلمون السودانيون الجهود المصرية العنيدة لزحزحة الاستعمار البريطاني عن السودان ، واعتبروا كفاح مصر مثلا يحتذى للكفاح من أجل حريتهم ، ولذا عزموا على ربط قضية السودان بقضية مصر ، وواصلت المقاومة السرية نشاطها ضد الانكليز ، وكان شعارها (السودان للسودانيين والمصريون أولى بالمعروف)[1] ، واقتصر هذا النشاط على توزيع المنشورات المعادية للحكم البريطاني في السودان •

وحين صدر تصريح ٢٨ شباط ١٩٢٢ ونص على استقلال مصر ، مع تحفظات أربعة من ضمنها السودان الذي يجب ان يبقى على حاله الراهن تحت الحكم الثنائي ،

---

(١) مكي شبيكة « مختصر تاريخ السودان الحديث » مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية بالقاهرة ١٩٦٣ ص ١٣١

جرى جدل حول لقب الملك ، فاقترحت لجنة الدستور ان يكون (ملك مصر والسودان) ، ولكن الانكليز اعترضوا على اللقب وأصروا على تعديله ، فاضطرت اللجنة الى تأجيل البت في الموضوع الى ان تحل مشكلة السودان • حتى اذا فاز حزب الوفد ، وشكل سعد زغلول اول وزارة دستورية ، ظهرت جمعية (اللواء الابيض) ، ومؤسسها هو علي عبد اللطيف الذي اشتهر بنقده الجريء لسياسة الانكليز في السودان، وارسلت جمعيته البرقيات المؤيدة للمطالب المصرية باستقلال مصر والسودان استقلالا تاما • وخرج اعضاء الجمعية في مظاهرات صاخبة ترفع شعارها وهو علم رسم عليه النيل من منبعه الى مصبه ، وكتب تحته (الى الامام) وعند افتتاح البرلمان المصري (آذار ١٩٢٤) ، اعلن رئيس الوزارة سعد زغلول عن عزم حكومته على تحقيق الاماني القومية لمصر والسودان في الاستقلال ، ورددت المحافل الوطنية السودانية اصداء هذا الخطاب ، وظلت تتابع بلهفة المناقشات البرلمانية حول قضية السودان ، وخاصة تلك التي انتقدت وضع الجيش المصري في السودان تحت قيادة حاكم السودان العام الانكليزي ، كما انتقدت وسائل العنف والقهر لمنع السودانيين من اظهار ولائهم للعرش ولمصر • وأجاب الناطق باسم الحكومة البريطانية في مجلس اللوردات بان مسألة السودان تخص البريطانيين وحدهم ، وان لا تغيير في ادارة السودان القائمة ، وانبرى سعد للرد عليه وتخرج بعض الصحف البريطانية بعناوين تحمل شعار (السودان للسودانيين) وتتصاعد حركة العنف ضد الانكليز في مصر • ووصلت أحوال السودان الى منعطف خطر حين خرجت جمعية اللواء الابيض الى شوارع الخرطوم والمدن السودانية الاخرى ، بمظاهرات ضخمة ، اعلنت مناهضتها للانكليز ، ومساندتها للقضية المصرية التي ارتبطت بقضية السودان ، فقابلتها السلطة باجراءات عنيفة ، واعتقلت اعضاء الجمعية وزجت بهم في السجون (حزيران ١٩٢٤) حيث قضى مؤسس الجمعية شهيدا • وبعد بضعة شهور نظم طلبة المدرسة الحربية في الخرطوم مظاهرة مؤيدة لمصر ، ولكن الجيش البريطاني ضرب حولها نطاقا وانتزع سلاح الطلبة ، ونقلهم الى السجن ، وأقفل المدرسة الحربية[١] •

وبينما كان سعد زغلول يستعد للمفاوضة في لندن بشأن التحفظات الاربعة ،

---

(١) المصدر نفسه ص ١٣٤ •

قررت الحكومة البريطانية بحضور لي ستاك حاكم السودان العام ، واللنبي المندوب السامي في مصر ، أن تجلو القوات المصرية من السودان في حال رفض مصر العمل باتفاقية الحكم الثنائي ، والاستعاضة عن القوات المصرية بقوة دفاع سودانية تأتمر بأمر الحاكم العام • وتفشل المفاوضات ، طبعا ، وتصدر لندن كتابا أبيض تؤكد فيه عزمها على تسليم أمور السودان للسودانيين بينما تنفرد فعليا في حكمه •

وسارعت بريطانية لاستغلال حادثة اغتيال لي ستاك في القاهرة أثناء عودته من اجازته (تشرين الثاني ١٩٢٤) فأبرز اللنبي مطالب حكومته من الحكومة المصرية • وأهم ما يمس السودان منها طلب سحب جميع القوات المصرية ، ضباطا وجنودا ، من السودان ، وتكوين قوة دفاع سودانية من الضباط والجنود السودانيين في الجيش المصري ، على ان تدفع مصر ثلاثة أرباع المليون جنيه لنفقات هذه القوة • ورفض سعد زغلول الموافقة ، واستقال ، وخلفه زيور باشا على اساس قبول المطالب وتنفيذها •

وأوفدت الحكومة المصرية رسولا خاصا للجيش المصري بالسودان ، للانسحاب بلا مقاومة ، بعد ان رفض قواده الجلاء بناء على امر نائب الحاكم العام للسودان • وثارت بعض الفرق السودانية تضامنا مع الجيش المصري ، واشتبكت مع القوات الانكليزية في قتال دام يومين ، نفذت ذخيرة السودانيين في نهايتهما ، واستشهد من أبناء السودان رجال ، منهم من قتل في الاشتباك مع الانكليز ، ومنهم من اعدم بحكم المحاكم العسكرية • وعشية اجلاء القوات المصرية ، وترحيل المدرسين المصريين وبعض الموظفين ، لجأت السلطات الى اجراءات القمع والارهاب والتضييق ، وكان جزاء من يضبط من الطلبة متلبسا بقراءة صحيفة مصرية ، الجلد والطرد من المدرسة •

ومضت حكومة السودان للقضاء على كل نزعة اتحادية بين شطري وادي النيل ، فأنشأت في عهد (جون مافي) الحاكم العام سياسة لتطوير ادارة إهلية سودانية تحكم بالعرف والعادة ، وتتمتع بسلطات كبيرة • وتعمل كذلك للضغط على المتعلمين ومقاومة النفوذ المصري بينهم • لقد رأى (مافي) ألا يشرك المتعلمين بتسليمهم الوظائف والادارات ذات المسؤولية • وفضّل ان يستخدم الزعماء والاعيان لحكم مواطنيهم بحسب العرف والعادة ، ولو اقتضى ذلك احياء نظام اجتماعي بائد ، اختفت تقاليده وأعرافه منذ زمن بعيد • وصدرت اللوائح ببعث سلطة المشايخ من جديد ، ودمج

القبائل في مجموعات كبيرة ، على كره من القبائل الصغيرة التي أخضعت لزعامات أخرى ، واستياء من المتعلمين الذين أقفلت في وجوههم ابواب الادارات والمحاكم ٠

لقد كان السودان يعني بالنسبة لبريطانية اعتبارات استراتيجية واقتصادية ٠ فمن الوجهة الاستراتيجية ، تبرز أهميته من كونه ملتقى الطرق الجوية عبر القارة الافريقية من الشمال الى الجنوب ، ومن الشرق الى الغرب ٠ فضلا عن ان وجود بريطانية في السودان بفضل سيطرته على النيل ، يمكنه ان يضغط على مصر في أخطر مقاتلها ٠ وقد استعملت بريطانية هذا الضغط في (التبليغ الرسمي) الذي حمله اللنبي الى حكومة سعد زغلول عشية اغتيال لي‌ستاك ٠ فقد ورد في التبليغ نص بالانذار يطلق يد حكومة السودان بمياه النيل لزيارة الاراضي المزروعة قطنا كما تريد ، دون ان تتقيد بما جرى الاتفاق عليه من قبل بين البلدين[1] ٠ ومن الوجهة الاقتصادية ، فالسودان يزود بريطانية باحتياجات صناعتها من القطن والاخشاب ٠ ومشروع الجزيرة للري هو مشروع مشترك بين حكومة السودان والشركات البريطانية ، ويعتبر من أكبر المشروعات من نوعه في العالم ٠

وفي سنة ١٩٣٥ فتحت حكومة السودان صفحة جديدة من العلاقات مع مصر ، تقوم على التقارب والتفاهم ٠ وتم ذلك على يد حاكم السودان الجديد (سايمز) الذي اتجه الى التفاهم مع المتعلمين والخريجين ، ورأى ان ينقص من نفوذ الادارات الاهلية التي تحكم بموجب العرف والعادة القديمين ، منذ عهد سلفه (مافي) ٠ ودعا بعثة اقتصادية مصرية لزيارة السودان واستئناف العلاقات الاقتصادية بين شطري وادي النيل ٠ واعاد فتح المدارس المغلقة ، واشرك المتعلمين في الحكومة والبلديات وساهم جديا في المفاوضات المصرية البريطانية التي انتهت بمعاهدة ١٩٣٦ التي نصت ملاحقها على اعادة فصيلة من الجيش المصري الى السودان ، وتعيين خبير اقتصادي في الخرطوم ، ومساواة المصريين والانكليز في الوظائف التي لا يشغلها سودانيون[2] ٠ وقد جرى كل ذلك في فترة ممهدات الحرب العالمية الثانية ٠

---

(١) تمت الموافقة على اتفاقية مياه النيل سنة ١٩٣٩ في عهد وزاره محمد محمود باشا ، وظلت سارية المفعول الى ان عدلت اخيرا عند اقامة السد العالي وترحيل اهالي حلفا .

(٢) شبيكة ، المصدر نفسه ، ص ١٤٠ .

ومن التطورات التي حدثت في هذه الفترة أيضا ، وكان لها أثر بارز في الحركة الوطنية أثناء الحرب وما بعدها وأدت الى الاستقلال ، موقف زعيمي الطائفتين الدينيتين الاكبر في السودان، وهماالسيد علي الميرغني والسيد عبد الرحمن المهدي • فالاول خليفة للطريقة الختمية[٢]• والثاني ابن المهدي الذي انبعثت حركته من جزيرة (آبا) • فقد ظهرت دلائل تقارب وتفاهم بن هذين الزعيمين وبين (مؤتمر الخريجين) وهي هيئة ضمت خريجي كلية غوردون في الخرطوم (١٩٣٨) واستهدفت القيام بعمل جماعي لمصلحة الوطن • وامتد نشاط الحركة الوطنية الى صفوف الشعب عن طريقهما، واصبحت التكتلات السياسية في السودان حتى عهد الاستقلال وقيام الاحزاب ، تستمد قوتها من الطائفية الدينية •

وقد استغلت بريطانية نزعة التدين العميقة لدى ابناء السودان ، اذ ندر منهم من لا ينتمي الى احدى الطائفتين المتنافستين ، المهدية والختمية • واستعانت بالسيد علي الميرغني لضرب المهدية وانصارها ، فأتى مع الجيش الفاتح ، وكان لنفوذه الديني المدعم بالنفوذ الانكليزي الرسمي ، أبعد الاثر في استقرار اوضاع السودان بعد القضاء على حركة المهدي • وفي الوقت الذي خصته الحكومة بامتيازاتها ومنح الاراضي الواسعة ذات الموارد والغلال الوفيرة ، فانها ضيقت على آل بيت المهدي وأنصاره وارهقتهم •

على ان احتياج بريطانية الى معونة جميع السودانيين في الحرب العالمية الاولى ، جعلها تبسط يدها للسيد عبد الرحمن المهدي ، وتنعم عليه بلقب (سير) كمنافسه الميرغني سواء بسواء ، وتقطعه أوسع الأراضي وأخصبها لينعم في بحبوحة مالية عظيمة • وهكذا غدا الزعيمان الدينيان ممالئين للسياسة البريطانية في اخضاع السودان والسودانيين • وذلك بفضل استقطابهما لنشاط الاحزاب السياسية ، بله المنظمات الدينية وغيرها في السودان •

---

(١) الختمية تأسست على بد السيد محمد عثمان الميرغني في القرن التاسع عشر وتزايد اتباعها طوال العهد التركى ــ المصري ، وحين نشبت ثورة المهدي عارضها السيد عثمان ولجأ الى مصر وهناك نشأ ابنه السيد علي . وحكومة السودان اعتبرته اكبر زعيم دينى في السودان ما دام يعارض ويوازن نفوذ المهدي .

وحين قويت فكرة الاتحاد مع مصر بعد الحرب العالمية الثانية ، وزاد مؤيدوها من السودانيين ، ظهر المهدي كأبرز زعيم للسودان ، وشكل أنصاره غالبية الجمعية التأسيسية التي عقدها الانكليز لوضع دستور للسودان • ونادى المهدي باستقلال السودان وانفصاله نهائيا عن مصر ، وبذلك تحقق للسياسة البريطانية ما ظلت تعمل له طوال نصف قرن ، لتفصل السودان عن مصر ، وصار بمقدورها ان تواجه المصريين بالمهدي وتقول : ها هوذا زعيم السودان لا يرضى بالاتحاد معكم ؛ ونحن ننفذ مشيئة السودانيين • لقد عملت السياسة البريطانية على عزل السودان عن مصر ، فوضعت العراقيل في وجه المسافرين بين البلدين ، ووجهت اقتصاد السودان وثقافته بما يكفل ابتعاده عن مصر ، ويضمن رسوخ نفوذ انكلترة فيه • وكذلك قطعت ما كان يصل بين المديريات الثلاث في جنوب السودان ــ ومعظم سكانها من القبائل غير العربية ــ وبين شماله ، ومنعت تسرب الاسلام والعربية الى هذه المناطق ، لئلا يرتبط سكانها ويتوحدوا بالاسلام والعروبة ، ولئلا تؤلف عاطفة الاخوة الدينية بينهم وبين عرب الشمال ، كما الفت بين العرب والاكراد والبربر والزنوج • بينما أباحت انكلترة للمبشرين المسيحيين حرية التبشير وانشاء المدارس ، لكي تعمل على تعميق الفوارق بين الجنوب والشمال ، فيكون انفصالهما أمرا واقعا •

اقطار المشرق العربي
اثناء الحرب العالمية الثانية
(١٩٣٩ ـ ١٩٤٥)

تمهيد :

ان الحركة التي عرضنا لاهم وجوه نشاطها في كل بلد من بلدان الشرق العربي ابان الفترة ما بين الحربين كانت في حقيقتها حركة مزدوجة مركبة ؛ فمن جهة كانت تنشد تحرير بلدان العرب من النفوذ الاجنبي ، ومن جهة أخرى كانت ترمي الى تحقيق وحدتها وجمع شملها • والباحث لا يمكنه ان يفصل حركة النضال في سبيل الوحدة القومية عن حركة النضال من أجل التحرير والاستقلال الوطني ، وينطبق هذا الحكم ــ أكثر ما ينطبق ــ على أقطار آسية العربية التي تخلصت من الادارة العثمانية لترزح تحت ثقل الادارة الاوروبية • وثمة فارق هام يحسن ان نورده في مجال التمييز بين طبيعة هاتين الادارتين ؛ اذ على الرغم من نقائص الادارة العثمانية في البلاد العربية ، غير أنها حفظت جانبا من مقومات وعوامل الوحدة القومية للمجتمع العربي ، ذلك ان العرب كانوا يحكمون من مركز واحد هو مقر السلطنة والخلافة بالآستانة • أما « مكافآت » الحلفاء الاوربيين للبلاد العربية التي عضدتهم في ساعة الشدة ، فكانت تلك الادارة التي قطعت ما كان يصل بينهم من أواصر طبيعية واقتصادية واجتماعية وثقافية وقومية ، وكانت تلك الانظمة الداخلية الجديدة المتعددة التي فرضت انماطا متباينة من الاتجاهات الفكرية والسياسية •

وبعد تجزئة الوطن العربي الى دول متعددة ، أخذت « الشعوب » التابعة لهذه الدول تختلف وتتباعد ، تتيجة التنظيمات والتشكيلات الادارية والقضائية

والاقتصادية والثقافية التي تخضع لاحكامها . وانضم الى عوامل التباعد هذه وجود طائفة من الزعماء والساسة في كل دولة ، ممن أصبحوا مرتبطين بالاوضاع الراهنة ، أخذوا يعرقلون كل ما من شأنه الاخلال بهذه الاوضاع .

ولكن هذه التجزئة القطرية التي أملاها « الحلفاء » على الوطن العربي ما كان لها أن تدوم ، فان قوى التاريخ الداخلية والخارجية كانت تعمل على محوها وازالتها: في كل قطر عربي كانت وشائج القربى اللغوية والحضارية والعرقية .. تعمل من داخل المجتمع ، وتدعو للتقارب مع الاقطار العربية الاخرى ، لرفع نير الاجنبي والتخلص من ربقته . ان النضال القطري من أجل الاستقلال يعتبر بحد ذاته عاملا موحدا يمثل وحدة الآلام والآمال ، كما ان القوى التي كانت تعمل من خارج المجتمع كانت تساعد على تقوية الوعي القومي المشترك بين افراد امة واحدة ، نتيجة لاستخدام وسائل النقل والمواصلات الحديثة التي قربت المسافات بين بلدان العرب .

ولعب الاصطياف في لبنان دورا هاما في توسيع دائرة الاتصال وزيادة التعارف والتقارب بين أبناء الدول العربية المختلفة ، بحيث أصبح لبنان المصيف الطبيعي للبلاد العربية لا سيما بعد تطور وسائط النقل والسفر . فكنت ترى جماعات كبيرة من العراقيين والسوريين والفلسطينيين والمصريين مع أسرهم يقضون فصل الصيف ويستجمون في ربوع لبنان ، حيث يتعارفون ويتكاشفون ويتداولون في شتى الشؤون [1] . ولا ننسى أن نذكر ضمن العوامل المقربة أيضا بين أبناء الامة العربية الصحافة والطباعة والنشر والاذاعة والتمثيل والشعر والآداب التي لا تقف عند الحدود ، بل تنتشر بطبيعتها في مختلف الاقطار الناطقة بالضاد وتساعد على اتصال الافكار وتدانيها ، مما مهد السبيل الى تكوين شعور مشترك عام يشمل مختلف الاقطار العربية دون ان يكون هنالك من يقصد ذلك أو يسعى اليه[2] .

---

(١) ساطع الحصري : « نشوء الفكرة القومية » ص ٢٢٩ .

(٢) نفس المصدر والصفحة .

ولكن اقتحام حواجز التباعد بين الاقطارالعربية لم يكن قاصرا على هذه العوامل غير القصدية ، بل انضم اليها بعض العوامل القصدية ؛ وذلك عندما قام جماعة من القوميين العرب ينظمون القصائد ويلقون المحاضرات وينشرون الكتب والمقالات لايقاظ الوعي القومي ومحاربة النزعات الاقليمية المحلية ، وينتقدون رجال السياسة الذين شغلتهم السياسة المحلية عن المطالبة بالوحدة العربية[1] •

وظل الشعراء والكتاب يحلمون بدولة عربية متحدة تضم الاقطار العربية كافة ، ولم يبدد أحلامهم انقسام القطر الواحد الى دويلات صغيرة ، بل يمكن القول ان هذا التقسيم المصطنع زاد ايمانهم بالوحدة ، فسرعان ما اخذ القوميون يؤلفون الجمعيات ويؤسسون النوادي لبث الفكرة القومية وزيادة تأثيرها في الجماهير •

هذا الى ان بعض الدول العربية التي نالت نصيبا من الاستقلال في الفترة ما بين الحربين على ما ذكرنا ، أخذت تعنى بنشر مبادىء القومية العربية عن طريق ادخالها في المناهج المدرسية ، وتحض على وجوب الاعتزاز بالتراث العربي والقومية العربية •

ان حركة التقارب العربي غذت سيرها منذ عام ١٩٣٦ بحيث اتخذت في المجال غير الرسمي شكل النشاط الثقافي ، وعقد المؤتمرات العربية المتنوعة ، وبخاصة من أجل مسألة فلسطين • وفي المجال الرسمي بما أبرم من معاهدات الصداقة والتحالف وحسن الجوار والاخوة بين طائفة من الدول العربية المستقلة ، وبما عقد من مؤتمرات آخرها مؤتمر المائدة المستديرة في لندن (١٩٣٩) حيث بدا تضامن الدول العربية بكل جلاء ، وظهر ان خطر الصهيونية كان أعظم دافع لتكتل العرب ، وان مسألة فلسطين وحدها ، ان لم يكن لدافع آخر ، سوف توحد شمل العرب وتضاعف نشاطهم ، وهكذا لم تبق المساعي للفكرة العربية محصورة ضمن حدود كل قطر من الاقطار العربية ، وانما بدأت تتعدى الصعيد الاقليمي الى الصعيد العربي •

وعلى ذلك اجتاز الوعي السياسي في معظم بلاد العالم العربي مرحلة هامة من مراحل تطوره القومي ، وآمن من كان يشكك في امكان تنفيذ الوحدة العربية بان الوطنية المحلية لا يمكن ان تحل محل الوحدة القومية الجامعة ، وان تحقق لديه

---

(١) الحصري : المصدر السابق ص ٢٣٠ .

ان مشروع تلك الوحدة لا يسهل تنفيذه على الوجه الذي كان يتصوره القـادة المثاليون •

وجدير بالباحث ان يشير الى ان المرحلة التي مرت بها دول الشرق العربي في الفترة ما بين الحربين العالميتين كانت أساسية وضرورية لا محيص عنها للوصول الى المرحلة الثانية التي ستمر بها اثناء الحرب العالمية الثانية ؛ ذلك ان المرحلة الاولى تقدم للباحث الالوان الاساسية للصورة التي سوف تتمثل بها حركة القومية العربية في المرحلة الثانية من سيرها نحو غايتها في الوحدة والتحرر ، عندما ستجد نفسها في دنيا مضطربة متزلزلة تنقلب فيها الاوضاع السائدة في العالم رأسا على عقب ، ويكون للنفوذ الاوربي شأن آخر ، مما يتيح الفرصة امام الحركة العربية أن تتقدم مستفيدة من كل ذلك لتجتاز المرحلة الثانية التي تختتم بقيام جامعة الدول العربية •

موضوعنا اذن هو بسط الظروف التي تم فيها اخراج الفكرة العربية على هذا النحو الذي أخرجت فيه فعلا ، على ضوء ما عرفنا من الاتجاهات والنزعات السياسية والقومية في كل بلد من البلدان العربية التي تكلمنا عليها ، بحيث نرى كيف تصور سياسة كل بلد من هذه البلدان فكرة التقارب والوحدة ، وكيف نفذها على الوجه الذي « يسمح » به تطوره السياسي والقومي •

ان هذه الظروف هي التي صادفت الحلفاء أثناء صراعهم مع قوى المحور في الحرب العالمية الثانية ، ولنحاول الآن ان نحيط بهذه الظروف •

بدأت الحرب بهجوم الماني صاعق على بولونية ، وما زالت رقعة الحرب تتسع حتى شملت غربي أوروبة وشرقيها ، بعد ان هاجمت المانية البلاد المنخفضة وفرنسة والنرويج وما ان هلّ شهر تموز من عام ١٩٤٠ حتى استسلمت الجيوش الفرنسية للالمان الذين كانوا قد احتلوا اكثر من نصف أراضي فرنسة ، وبقيت بريطانية لوحدها في الميـدان •

ونتساءل ماذا كان صدى انهيار فرنسة في الشرق العربي ؟

انبعثت في بلدان الشرق العربي آمال جديدة لانهيار فرنسة السريع المدهش

وعادت الذاكرة بالعرب الى جبروت فرنسة وصلفها ، واسرافها في التنكر لاماني بلاد الشـــام المجزأة ، وأخذها باضطهاد الوطنيين هنالك ، فشعر العرب بالشماتة والتشفي لما أصاب الكبرياء الفرنسية في بضعة اسابيع ، وبعد بضع معارك فقط ، ولكن ماذا يفعلون وهم يعلمون ان جيوشها في سورية ولبنان ما زالت صاحبة الامر ، وان قوى حليفتها بريطانية ما انفكت تصرف شؤون معظم بلدان العرب ؟

قلنا ان شعور النقمة كانَ عاما بين أبناء الشرق العربي على الحلفاء ، ولكن هل معنى هذا ان العرب كانوا ميالين للمحور ؟

من المحقق ان العرب اذا تمنوا هزيمة بريطانية بعد فرنسة على يد المحور ، فهم لا يرغبون في استبدال سيطرة الالمان والايطاليين بسيطرة الانكليز والفرنسيين . ومن هنا كان انقسام قادة الرأي من السياسيين العرب الى معسكرين فيما يخص طرفي النزاع العالمي : فهنالك أولا فريق يدعو الى الوقوف على الحياد وعدم تقديم المعونة للحلفاء طالما فشلوا في اجراء تسوية عادلة لمسائل فلسطين وسورية ولبنان على وجه يرضي الضمير العربي ، ولا غرو اذا نظر هذا الفريق من الساسة الى يوم الخلاص من الاستعمار البريطاني الفرنسي وكأنه أمر مرهون ومتوقف على نصر المحور . أما الفريق الثاني فيضم نفرا من السياسيين « المعتدلين » كما تسميهم الدوائر الغربية ، الذين كانوا — فيما يقال — يخشون من نظم المحور ودكتاتوريته ويرون فيها خطرا على بلادهم ، ويذهبون الى وجوب دعم الحلفاء عن طريق القيام بالتزامات بلادهم تجاه بريطانية ، كي يحصلوا بمعونتها في نهاية الحرب على اماني بلادهم القومية .

على ان وضع البلاد العربية ، ووجود قوى حليفة في معظمها ، جعل موقف العرب من أحد المعسكرين المتحاربين غير واضح عمليا ؛ فبينما كانت سورية ولبنان وشرقي الاردن لا مجال أمامها للمساومة بسبب ما كان يثقلها من قيود الانتداب ، كانت مصر والعراق تتمتعان بنصيب متساو من الاستقلال والسيادة ، مما يتيح لهما بعض الحرية في تصريف شؤونهما بما لا يمس حدود التزاماتهما نحو بريطانية . ولذلك يصح أن نلقي نظرة على الاحوال السياسية في هذين البلدين أولا ، لنرى ماذا كان يشغل بال الساسة البريطانية فيهما خلال هذه الفترة من الحرب الدائرة من حولهما .

مصـر :

ولنبدأ بمصر لا لانها اكبر البلاد العربية وزعيمة حركتها منذ مؤتمر المائـدة المستديرة (١٩٣٩) فحسب ، بل لانها كانت مركز قيادة الحلفاء في الشرق الاوسط خلال الحرب ، وشغل بريطانية الشاغل لابعاد خطر المحور عنها ٠

استقال محمد محمود في آب ١٩٣٩ لاسباب صحية ، وعهد الى علي ماهر برئاسة الوزارة ٠ وفي هذا الحين كان للنزعات الفاشية والنازية بعض الانصار في مصر ــ دعك من الجالية الايطالية الوفيرة العدد ــ يستمعون الى دعاوي الاذاعات الالمانية ضد الاستعمار البريطاني الذي كبل مصر بأغلال العبودية ، كما ان مراسلي بعض المجلات والصحف الالمانية كانوا ينشرون وعود المانية بتحرير العرب من نير الغرب المهزوم ٠ أوليست هذه الانتصارات في بولونية وغيرها من بلاد اوروبة الغربية تؤيد ان نصر الحلفاء غير مؤكد ؟ أوليس من الافضل ألا تزج مصر نفسها بحرب ضد المانية ؟ ولكن مصر مرتبطة بمعاهدة ١٩٣٦ مع حليفتها بريطانية ، ولا مناص من تقديم ما نصت عليه المادة (٧) للحليفة ، وهو فرض الرقابة على الصحف والانباء واعلان حالة الطوارىء ، وتقييد استعمال الموانىء البحرية والجوية ، واطلاق يد بريطانية في وسائل المواصلات والنقل ٠ اما اعلان الحرب الى جانب الحليفة ، فأمر لم يثبت انها طلبته من الحكومة المصرية في ذلك الحين ٠ وعلى الرغم من التكذيبات الرسمية التي نشرتها السلطات المصرية والبريطانية في هذا الصدد ، فان الرأي العام كان يميل الى تصديق ما كانت تذيعه برلين وروما من ان مصالح بريطانيةالامبراطورية تدفعها لتزج مصر في أتون حرب لا تهددها ٠ ومهما يكن فقد اكتفت الحكومة بقطع علاقاتها الدبلوماسية والتجارية مع المانية ، ومصادرة املاك رعاياها والحجز على من عرف منهم بميوله النازية ٠

على ان تعيين وطني تصفه دوائر لندن بأنه متطرف ــ عزيز المصري ــ رئيسا لاركان الجيش المصري ، ووجود وطني آخر ــ صالح حرب ــ في منصب وزير الحربية المصرية كان يقابل منها ببرود وتحفظ وقلق ٠ وتوقع السفير البريطاني في القاهرة السير مايلز لمبسون بعض الاضطراب في الجو السياسي المصري ، عقب

انتشار شائعات مفادها ان الانكليز سوف يلجأون ثانية الى تدابيرهم واحكامهم التي استعملوها في الحرب العالمية الاولى بالقوة ، وانهم سوف يجندون جيشا من المتطوعة يحارب في الجبهة الاوربية ، وان مدراء الاقاليم سيستعاض عنهم بحكام من الانكليز، وان مساحة الارض المنزرعة قطنا سوف تنقص لتلافي نقص القمح والغذاء . هذا الى ما تردد في بعض الاوساط البرلمانية بشأن التزام مصر جانب الحياد .. أي حياد ؟ الحياد السلبي الذي يحض على الافادة من مصاعب بريطانية بارغامها على تعديل شروط معاهدة ١٩٣٦ ، بما يوافق استقلال مصر التام واتحادها مع السودان[١] ومركز الاجانب فيها ، والغاء المحاكم المختلطة قبل حلول موعدها المقرر . ولكن علي ماهر كان قد أوضح موقف حكومته الى مراسلي التايمس في ٨ ايلول ١٩٣٩ بقوله ان مصر حليفة بريطانية وصديقتها ، وسوف تعمل كل ما في مقدورها لمعونتها . ومع ذلك فان علاقات الحكومة مع السفارة البريطانية كانت غير مرضية . وثارت الازمة في شهر حزيران ١٩٤٠ اثر سقوط فرنسة ، ودخول ايطالية الحرب الى جانب حليفتها المانية التي لم تهزم منذ بداية الحرب .

في ١٢ حزيران قطعت الحكومة المصرية علاقاتها الدبلوماسية مع ايطالية ، وبازاء انهيار فرنسة السريع كان القصر ورئيس الحكومة يميلان الى اتخاذ سياسة «تأمين» عن طريق عدم اثارة أي نزاع مع دولتي المحور ، فقد يكون النصر بجانبهما في النهاية . وبريطانية لا حياة لها بعد سحق فرنسة . ولكن السفير البريطاني أراد أن تكون الحكومة المصرية طوع أمره[٢] ، وأن تعلن الحرب على المحور . بينما صرح
(٢) محاضر مجلس النواب المصري (١٩ حزيران ١٩٤٠) ص ٢٥٦٨ .
السفير الايطالي أن مصر اذا تجاهلت التزامات معاهدتها مع بريطانية ، فيمكنها أن تتفادى أسوأ نتائج الهجوم الايطالي . وهنا نشأت الأزمة بين مصر وبريطانية ، واستقالت وزارة علي ماهر لتخلفها وزارة حسن صبري (٢٣ حزيران) وفي الوقت نفسه ، غادر السفير الايطالي وموظفوه مصر .

---

(١) أثناء الزيارة التي قام بها رئيس الوزراء علي ماهر ووزيرا الدفاع والاشغال الى السودان تلبية لدعوة حاكمها العام ، طالبت مجلة المصور بالامتزاج الكامل بين مصر والسودان وبايضاح « الغموض واللبس » في العلاقات المصرية السودانية «المصور ٨ آذار سنة ١٩٤٠ » .

(٢) محاضر مجلس النواب المصري (١٩ حزيران ١٩٤٠) ص ٢٥٦٨ .

والحق ان هم السياسة البريطانية في مصر كان منصرفا الى موقف مصر « غير المحاربة » ؛ فقد كان يحزن السلطات البريطانية ان تقف جميع الاحزاب ، ما عدا الحزب السعدي برئاسة احمد ماهر ، ضد اعلان مصر الحرب على المحور • والواقع ان احمد ماهر كان يعتبر في نظر الانكليز متطرفا في وطنيته فلم يرضوا عنه ؛ ذلك انهم كانوا يعلمون ان فكرته بوجوب انحياز مصر الى جانب الحليفة البريطانية ، انما كان يستهدف منها تسليح مصر وتدريبها على الحروب الحديثة الكبرى لتقوى على المطالبة بحقوق سيادتها واستقلالها التامين فيما بعد • وهذا يذكرنا بخطة الزعيم الصهيوني (وايزمان) الذي كان يرمي أيضا الى انخراط أكبر عدد ممكن من المتطوعة الصهيونيين في صفوف الحلفاء كي يتسلحوا ويتمرسوا على القتال ، استعدادا ليوم الفصل في فلسطين ، وهذا ما تم فعــلا •

وفي ١١ تموز خطب وزير الخارجية البريطانية في مجلس اللوردات ، وأسف على عدم اشتراك حزب الوفد بالحكومة وأكد ان علاقات البلدين « مرضية جدا »[١] • غير أن الهجوم الايطالي في خريف ١٩٤٠ باتجاه الدلتا ، واحتــلال السلوم وسيدي براني جعل الموقف دقيقا • وأثيرت مسألة دخول مصر الحرب من جديد • ودارت اشاعات وأراجيف شتى في هذا الجو المضطرب ، وساد الذعر في القاهرة ، وعادت محطة باري تؤكد ان ايطالية لا ترمي من دخولها مصر سوى اخراج الانكليز منها • وجدت هذه القالة انصارا في بعض الصحف ، فكتب اسماعيل صدقي في الاهرام (١٩ ايلول سنة ١٩٤٠) ان ايطالية في حالة حرب مع انكلترة وليس مع مصر ، وان الاعتداء الايطالي غير موجه ضد المدن والقرى المصرية ، ولكنه حرب بين اثنين على أرض ثالثة يحتلها الاخير • وصاح احمد ماهر بأن مصر تعهدت بدخول الحرب اذا دخلت القوات الايطالية اراضيها ، ولكن صيحته ضاعت في جلبة المعارضة الوزارية ، وبعد أربعة أعوام دفع احمد ماهر حياته ثمنا لاعلان هذه الحرب •

طالبت بريطانية الحكومة المصرية بشدة كي تطبق التزامات المعاهدة ، وارتكبت

---

(١) Colomb, op. cit. , p. 88.

شتى أنواع الضغط والتدخل في الشؤون المصرية الداخلية • وبعد وفاة حسن صبري في (تشرين الثاني سنة ١٩٤٠) عهد الى حسين سري بتشكيل الوزارة ، وفي أوائل (شباط سنة ١٩٤١) تراجع الطليان بينغازي وبرقة ، وخيم على مصر هدوء لم يدم طويلا لان الفرق الالمانية الافريقية Africa Korps بقيادة رومل تدخلت لاول مرة في حرب الصحراء لنجدة ايطالية في ربيع ١٩٤١ •واكتسحت الفرق الالمانية الايطالية الحدود المصرية الغربية واحتلت السلوم ومرسى مطروح ، في حين هب الالمان لنجدة حليفتهم ايطالية في البلقان ، واحتلوا يوغوسلافية ، وهاجموا اليونان وهبطوا في جزيرة كريت بعد معركة جوية صاخبة ، مما هدد مركز البريطانيين في مصر تهديدا مباشرا ، وجعل موقفهم حرجا في الشرق الادنى والاوسط ، وهذا الامر على غاية من الاهمية والخطورة بالنسبة لمستقبل العلاقات العربية البريطانية ، اذ اصبح من المتعذر ان لم يكن من المستحيل ، اقناع العالم العربي بنصر الحلفاء النهائي •

وفي حين كان الالمان يغرقون بلاد الشرق الاوسط بدعاية عن تفوق النظام النازي، والفوائد التي سيحملها الى البلاد العربية ، كانت دعاية الحلفاء على ما يذكر لورد ويلسون « فارغة غير مؤثرة »[1] • ما السبب في هذا ؟

كان هنالك صعوبتان رئيسيتان تجابهان الاذاعات الحليفة : أولاهما تتلخص في موقف البريطانيين ــ والامريكان بعدئذ ــ من مسألة الصهيونية • وثانيتهما تتلخص أيضا في موقف بريطانية من مسألة الوحدة العربية •

ان سياسة بريطانية ازاء هاتين المسألتين كانت تولد شبهات كثيرة وشكوكا عميقة في نفوس القادة العرب • وهنا يتدخل راديو برلين ، لتنمية هذه الشبهات والشكوك واستثمارها ، والعمل بكل وسيلة على اضرام نار الحقد العربي ضد بريطانية بسبب تأييدها وتحبيذها للصهيونية ، ولا سيما وان هنالك ما يؤيد اتجاه البرلمان البريطاني لاسترجاع سياسة الكتاب الابيض محاباة للصهيونية • ولذا لم يكن من السهل على الاذاعات الحليفة أن تنفي « مزاعم المحور » بخصوص موقف بريطانية الودي من الصهيونية بالدرجة الاولى ، ثم بخصوص موقفها المعادي من الوحدة العربية • أما

---

(١) Lord Wilson : « Eight Years Overseas », p. 29.

بعد ان صدر تصريح ايدن عام ١٩٤١ فقد أصبحت مقاومة دعاوى المحور في موضوع عداوة بريطانية للوحدة العربية امرا سهلا • وحينئذ فقط يخرج هذا السلاح الماضي من يدي المحوريين الذين كان لا يزال امامهم متسع من الوقت لاتخاذه تكأة واستخدامه لمحاربة البريطانيين وتأليب العرب عليهم [١] •

وفي هذا الوقت الذي كانت فيه الدعاية المحورية تبذل الوعود وتمني بالعهود[٢]، جابه الشرق العربي أزمة عسكرية وسياسية خطيرة • أما الازمة العسكرية فقد تمثلت في تمركز رومل والفرق الافريقية في السلوم ، حيث صرح رومل انه يأمل ان يستولي على قناة السويس في شهر (أيار سنة ١٩٤١) ، وبدا ان موقف البريطانيين في مصر أصبح في كف القدر • ليس هذا فحسب ، ولكن الازمة السياسية التي جابهتهم في العراق زادت الحالة سوءا ، وغدا موقف بريطانية في العراق يستدعي معالجة سريعة • ولنعرض موجزين لهذه الازمة التي كان منها نشوب ثورة رشيد عالي الكيلاني في هذا الحين •

العراق :

في العراق بعد اعلان المانية الحرب على بريطانية،قطعت الحكومة العراقية علاقاتها الدبلوماسية مع المانية ، وحجزت على الرعايا الالمان وعلى أملاكهم الخ ••• وتابعت تفاهمها ومشاوراتها مع الدول العربية المجاورة ومع دول ميثاق سعد آباد • غير أن الدوائر السياسية العراقية كانت عميقة الاسف وشديدة التأثر من بريطانية وفرنسة لانكارهما الاستقلال على اخوانهم عرب فلسطين وسورية • وقدم مفتي فلسطين الحاج أمين الحسيني الى العراق يجد فيه متنفسا من الضيق الذي عاناه لمدة سنتين تحت رقابة السلطات الفرنسية في سورية ، بعد ان فر مع نفر من زملائه الوطنيين

---

(١) Nevil Barbour : « Broadcasting to the Arab World », Middle East Journal , Winter 1951, pp. 65 - 66.

(٢) كانت هذه الوعود تصدر عن محطة العرب الحرة في اثينا ، ومحطة باري • ومحطة برلين وغيرها .
Robert, L. Baker, « Oil blood & Sand » N. Y. 1942, P. 97 ff.

الفلسطينيين من ظلم وارهاق السلطات البريطانية • وحاول بعض القادة السياسيين في العراق ان يتوسطوا للصلح بين المفتي والسلطات البريطانية ، على أساس التوفيق بين مطالب المفتي وسياسة الكتاب الابيض البريطاني ••• ولكن دون جدوى •

استقالت وزارة نوري السعيد ، وتألفت الوزارة الجديدة برئاسة رشيد عالي الكيلاني (آذار ١٩٤٠) وبعد انهيار فرنسة ودخول ايطالية الحرب الى جانب المانية رغبت السفارة البريطانية في بغداد الى الحكومة العراقية ان تقطع علاقاتها الدبلوماسية مع ايطالية ، ولكن الحكومة رفضت ذلك ، واحتجت بأن تركية التي ترتبط مع بريطانية باتفاق ١٩٣٩ لم تقطع علاقاتها مع ايطالية • وفي حزيران ١٩٤٠ قرر مجلس الوزراء العراقي ايفاد الوزيرين العراقيين « ناجي شوكت ونوري السعيد »[1] الى أنقرة ، وكان الغرض الرئيسي من ذلك استطلاع رأي الاتراك في مستقبل البلاد العربية عامة ، ومستقبل سورية خاصة بعد ان تحقق قرب انهيار فرنسة ، وللاستئناس برأي الحكومة التركية بصدد قطع العلاقات الدبلوماسية مع ايطالية • ويبدو ان وزير الخارجية التركية نصح بالتريث في قطع العلاقات • وبخصوص مسألة استقلال سورية والموقف الذي ستقفه تركية[2] ازاءها في حالة انهيار فرنسة ، أعلن الوزير التركي أن حكومته ترغب في ان تبقى سورية للسوريين وان تنال استقلالها • ومالت حكومة الكيلاني ، بادىء ذي بدء (خريف ١٩٤٠) لتحقيق الاماني الوطنية والقومية عن طريق التفاهم مع بريطانية ، وكان خطأ رئيسها ان عهد الى السعيد بوزارة الخارجية فأصبح بالضرورة مطلعا على كافة تصرفات الرئيس فيما يتصل بالعلاقات الدولية ، وسيكون لذلك أثر في اخفاق مركز الكيلاني في أثناء المساومة مع الطرفين المتحاربين فيما بعد • فبخصوص مسألة فلسطين جرت مفاوضات في بغداد (تموز ١٩٤٠) بين الكولونيل « نيو كومب » مفوضا من وزير المستعمرات « لورد لويد »

---

(١) يقول العقيد صلاح الدين الصباغ في مذكراته (ص ٢٧٨) ان الراي كان قد استقر على ارسال ناجى شوكت الى انقرة ليقف على وجهة النظر التركية بصدد قطع العلاقات مع ايطالية ، وطلب نوري السعيد أن يرافق ناجي شوكت بصفته وزيرا للخارجية واصر على طلبه هذا فكان له ما اراد .

(٢) الحسنى « تاريخ الوزارات العراقية » ٥ : ١٢٠ .

وبين زعماء فلسطين وعلى رأسهم المفتي . وتطاولت المباحثات بين الطرفين واسفرت عن عقد وقعه عن الجانب العربي جمال الحسيني بمعرفة نوري السعيد والشيخ يوسف يس الذي بقي خصيصا في بغداد لتتبع سير المفاوضات . وقبل الزعماء العرب التعاون مع الانكليز على أساس الكتاب الابيض بعد ادخال بعض التعديلات عليه . وبناء على هذا الاتفاق قررت الحكومة العراقية انها مستعدة لاعلان الحرب والانضمام الى الحلفاء وارسال فرقتين الى جبهة ليبية . ولكن للاسف لم تصادق الحكومة البريطانية على هذا الاتفاق ، وابلغت العرب رفضها في ٢٩ آب سنة ١٩٤٠ ولا غرو في هذا ، فان رئيس الوزارة البريطانية تشرشل كان يصرح دوما انه من اكبر مؤيدي ومحبذي الحركة الصهيونية [١] ، فكيف يمكن ان يقر بحق العرب ؟ فضلا عن أنه في هذا الحين كان يجادل لورد لويد في ضرورة تسليح اليهود في فلسطين ليتمكنوا من الدفاع عن انفسهم تجاه العرب ، حتى يمكن سحب جزء من الجيوش البريطانية المرابطة في فلسطين الى الجبهات الاخرى حيث تدعو الحاجة الى تحشيدها.

والمهم هنا ان نسجل ان معظم العراقيين ضاقوا ذرعا بعناد بريطانية ، وحزّ في نفوسهم انها قابلت استعدادهم لدعمها في أحلك ساعات الحرب بأن اخذتها العزة في الاثم وردت ردا غليظا يغري العراقيين بالحياد . ويجدر بالباحث الا يفيض فيما أفاض به معظم كتاب الغرب عن دور الدعاية المحورية في تحريك مشاعر الناس في العراق ضد البريطانيين ، فالواقع ان مسألة فلسطين كانت أهم عامل يثير حفيظة العرب لا في العراق فحسب ، وانما في جميع الاقطار العربية . واذا كان تأثر العراق بنكبةفلسطين قد فاق تأثر شقيقاته العربيات ، فما ذلك الا لان كثرة اللاجئين الفلسطينيين والسوريين من منفيين ومحكومين وثائرين كانوا يلجأون الى العراق ، لا لانه البلد العربي الذي يمكن ان يجدوا فيه ملاذا وحرية ومعونة فحسب ، ولكن لانه ايضا يقع على مقربة من فلسطين وسورية [٢] .

---

(١) Churchill : « The Second world War » IV, p. 786.

(٢) يذكر العقيد الركن صلاح الدين الصباغ في مذكراته ان المجاهدين من احرار فلسطين كانوا يدربون تدريبا عسكريا يجري بصورة سرية في معسكر الرشيد في بغداد عام ١٩٤٠ (ص ١١٩) .

والحق انه كان من نتيجة موقف بريطانية السلبي ازاء مسألة فلسطين ان حدث انقسام في الوزارة العراقية • وتوسعت الهوة بين من يسميهم الانكليز « بالمعتدلين » وبين من يطلقون عليهم اسم « المتطرفين » ومن الطبيعي ان يزداد نفوذ رشيد عالي وأعوانه ، ويضعف نفوذ نوري السعيد والوصي وحزبهما • ولم يكن بوسع الكيلاني ان يخرج السعيد من الوزارة خشية انتقام بريطاني ولانه يتمتع بحماية الوصي • وفي هذه الاثناء كان الوزير ناجي شوكت في تركية ، اجتمع هناك بصفة سرية مع السفير الالماني « فون بابن » (٥ تموز) وسأله عن موقف الالمان من مسألة استقلال سورية ، فأجاب السفير بأنه شخصيا من الالمان الذين يعتقدون بوجوب منح الشعوب العربية كافة استقلالها كاملا ، ووعد السفير محدثه بأن يتصل بالحكومة الالمانية لمعرفة رأيها ورأي حليفتها ايطالية ، وبأن يسعى لاقناع حكومته باتباع السياسة التي تحقق أماني العرب المشروعة في الحرية والاستقلال [1] •

أجاب شوكت ان العرب يحاولون الآن التخلص من الاستعمارين البريطاني والفرسي وانهم ينظرون الى ايطالية بحذر بوصفها الدولة الاستعمارية الثالثة ، ولذا فهم يخشون على حريتهم واستقلالهم ، ويرجون ان تسارع المانية فتذيع مع حليفتها ايطالية بيانا بحسن نيتهما نحو الاقطار العربية •

هذه المقابلة تذكرنا بمقابلة الامير عبد الله بن الحسين لكتشنر قبل اندلاع الثورة العربية ، فما كان الغرض منها سوى الاستعلام و « جس النبض » • ويبدو ان مساعي السفير نجحت في هذا الصدد ، اذ أذاع راديو برلين في ليلة ٢٨ تشرين الاول سنة ١٩٤٠ التصريح الرسمي الآتي للحكومة الالمانية عن البلاد العربية نورده كما نقلته الوكالة الامريكية في واشنطن « أعلنت الحكومة الالمانية في تصريح رسمي انها كانت تشعر دوما بصداقة صميمية متينة مع البلاد العربية ، وتتمنى حياة سعيدة ورفاها للامم العربية يليق بمكانتها التاريخية والطبيعية وبأهميتها بين شعوب العالم ، وهي — أي المانية — كما كانت في السابق ، تتابع الآن أيضا نضال هذه الامم من أجل استقلالها • وباهتمام الشعوب العربية ، وهي تجاهد وتكافح في سبيل هـذا

(١) الحسني نفس المصدر ٥ : ١٢١ وفقا لحديث الوزير ناجي شوكت مع السيد الحسني •

الاستقلال ، تستطيع ان تعتمد وتضمن عطف المانية في المستقبل • والمانية باعطائها هذا التصريح الرسمي هي على اتفاق تام مع حليفتها ايطالية أيضا » • وكررت محطة برلين اذاعة هذا التصريح عدة ليـال[1] •

وعلى الرغم من عجز القوات الايطالية وتوقفها عند سيدي براني ، فليس بد من ان تأخذ المانية بعين الاعتبار مصالح حليفتها ايطالية ، وهكذا جاءت عبارات التصريح عامة لا تتضمن الاجابة على المطالب العربية المحددة • كذلك عبرت دولتا المحور عن اطماعهما في المنطقة العربية ، فطلبت المانية ان تحل محل بريطانية في شركة نفط العراق ، وطلبت ايطالية ان تحل محل فرنسة في حماية الموارنة في لبنان • هذا الى ان الحكومة الالمانية رفضت تسليم السفير العراقي نص التصريح الخطي • وشعر العرب ان المانية تريدهم ان يبدأوا الثورة ضد البريطانيين في فلسطين ، وان يقوم العراق بعمل ما ضدهم أيضا قبل مده بالمعونة العسكرية ، كأن يقف على الحياد أي لا يسمح باستخدام القوات البريطانية لاراضيه ، ومعنى ذلك نقض المعاهدة العراقية البريطانية دون ان يكون العراق على استعداد لمواجهة ما يترتب على توريط العراق في صدام مسلح مع بريطانية • وقد سعت حكومة الكيلاني لانشاء علاقات دبلوماسية مع الاتحاد السوفييتي مقابل اصدار تصريح منه بتأييد الاماني القومية العربية ، وكان الرأي ان العرب سيفيدون من هذا التصريح من وجهتين اثنتين :

ففي حالة بقاء الصداقة الالمانية السوفييتية وفقا لميثاق عدم الاعتداء المبرم بينهما ما قبل الحرب الثانية ، فان الاتحاد السوفييتي سيصبح عاملا مساعدا بجانب المحور لتأييد استقلال العرب • وفي حالة انهيار الميثاق وتحول الاتحاد السوفييتي الى جهة بريطانية ، وهو الارجح ، فان حكومة موسكو ستصبح في مركز أقوى لمساعدة العرب حين ينتصر الحلفاء •

وفي ذلك الحين كان ستالين يفاوض هتلر بشأن تقسيم العالم الى مناطق نفوذ ، وقد سبق ان اعترف لايطالية بان الشرق العربي يقع في منطقة نفوذها ، وهو الآن يطالب المانية بالجزء الممتد من حدود الاتحاد السوفييتي الجنوبية حتى المحيط

---

(١) الحسني نفس المصدر ٥ : ١٤١ .

الهندي • وكان ذلك اتجاها غريبا من ستالين الذي يتزعم دولة شيوعية تعادي الاستعمار بحكم عقيدتها السياسية • وتتيجة هذا الموقف الشاذ الذي وقفته روسية أثناء الحرب العالمية الثانية ، رفضت حكومة موسكو اصدار التصريح الذي طلبه العرب ، برغم المساعي العربية • ويبدو ان ستالين ما أراد اغضاب بريطانية من اجل منطقة لا تهمه كثيرا • ومن هنا فلا يمكن القول بأن ثورة اول نيسان التي حملت الكيلاني الى السلطة ثانية قد دبرت بالاتفاق مع المحور ؛ لان الثورة قد أملتها ظروف داخلية •

مارست بريطانية الوان الضغط على حكومة الكيلاني منذ تشرين الثاني ١٩٤٠ ، واتهمتها بأنها تنوي اعادة العلاقات الدبلوماسية مع المانية • وبرغم نفي الكيلاني صراحة لذلك ، فقد تابعت بريطانية مساعيها لاحراج الحكم الوطني واسقاطه • وأوعزت كذلك الى حلفائها ؛ فأرسل روزفلت خطاب تحذير الى حكومة العراق من مغبة التقارب مع المحور ، لان ذلك لا يخدم قضية استقلال العراق • كذلك بادر حسين سري رئيس وزراء مصر الى نصيحة زميله العراقي بوجوب مراعاة التحالف مع بريطانية • وامتنعت بريطانية عن شراء التمر العراقي كوسيلة للضغط الاقتصادي ، فالتفت الكيلاني الى اليابان التي عرضت لشرائه شروطا أفضل ، وطلب شراء أسلحة يابانية •

وبينما قوبل هذا التصريح الالماني بالترحاب من جانب العرب عموما ، كان البريطانيون يخشون ان يخرج الامر من يدهم في العراق ، ويزعمون ان رشيد عالي على صلة وتماس بعمال المحور في بغداد • وتلقى السفير البريطاني السير « بازيل نيوتن » تعليمات من لندن تحض الوصي الامير عبد الالـه على وجوب الايعاز الى نوري السعيد ليستعفي من وزارة الخارجية كي تسقط الوزارة الكيلانية ، وتتاح الفرصة للوصي ان يسمي رئيس وزارة جديد معروف بولائه لبريطانية • تسلم الكيلاني كتابا من الوصي يطلب منه الاستقالة ، فرفض ، ونجم عن تدخل الوصي استقالة ثلاثة وزراء منهم نوري السعيد • ولكن الكيلاني لم يكن على يقين من ثقة البرلمان بوزارته ، فطلب من الوصي أن يحل البرلمان ، غير ان الوصي غادر بغداد الى مدينة الديوانية ليصبح بعيدا عن الاحراج ، وعندئذ ابرق الكيلاني اليه يطلب

منه قبول استقالته (نهاية كانون الثاني سنة ١٩٤١) • وعاد الوصي الى بغـداد بعد أيام وعين طه الهاشمي لرئاسة الحكومة • اختار الوصي طه الهاشمي لرئاسة الوزارة ، وهو وسط بين الوطنيين والموالين للسلطة ، ولكن لوحظ ميله لتنفيذ الرغبات البريطانية حين رغبت بريطانيا الى العراق في قطع العلاقات مع ايطالية فورا ، والسماح بتحشيد القوات البريطانية في العراق دون قيد ، وكان هذا الموضوع محل جدل بين حكومة بغداد وحكومة لندن منذ مدة ، ومضى كل فريق يفسر المعاهدة على ما يتفق مع رأيه • وخشي الضباط الاحرار[1] أن تضيع الفرصة من ايديهم بعد ان اعدوا ترتيباتهم منذ عام ، خاصة بعد تولية سفير بريطاني جديد في بغداد هو كيناهان كورنواليس الذي كان عمل مستشارا لوزارة الداخلية العراقية بعد الاستقلال ، والخبير بنشاط السياسيين العراقيين واتجاهاتهم مما يوحي بنية التدخل البريطاني السافر على صعيد جبهة السياسة الداخلية • ومن جهة أخرى فان تشكيل الضباط الاحرار وعلى رأسهم العقداء الاربعة شعروا بأن بريطانية تتآمر مع العرش العراقي على اقصائهم عن الجيش • وخشية ان تفلت الفرصة من ايديهم نهائيا قرروا العمل ؛ وفي مطلع نيسان تحركت قوى العقداء الاربعة وارغمت الهاشمي على الاستقالة ، بينما كان الوصي يفر الى قاعدة الحبانية ومنها الى البصرة [2] ومنها على طائرة بريطانية الى عمان • وتألفت حكومة الدفاع الوطني برئاسة الكيلاني للقيام بتنفيذ مواثيق العراق الدولية ، وخاصة المعاهدة الانكليزية العراقية • وفي يوم ١٠ نيسان انتخب البرلمان القديم الشريف شرف وصيا على عرش العراق بدلا من الامير عبد الاله ، والوصي الجديد الحجازي الاصل يلتقي نسبه مع هاشميي العراق في الجد الخامس •

ماذا كان موقف بريطانية من هذه الاحداث ؟

استقبلت دوائر لندن حكومة الثورة ببرود ، ورأت فيها تهديدا لامنها ومصالحها؛ فالعراق حيوي جدا لانكلترة بسبب وجود خط حديد الموصل بغداد البصرة ، والمطارات الامبراطورية ، وآبار البترول •• ولذا تماهلت في الاعتراف بحكومة

---

(١) كان يتزعمهم عقداء اربعة هم : صلاح الدين الصباغ ، وفهمي سعيد ، ومحمود سلمان ، وكامل شبيب .

(٢) Lord Wilson, op. cit. , p. 105

الكيلاني • وفي ٨ نيسان أرسل تشرشل برقية الى وزير الهند جاء فيها : « كنتم قبل مدة ذكرتم انه قد يكون باستطاعتكم الاستغناء عن فرقة أخرى من جيش الحدود للشرق الاوسط • لقد ساءت الحالة في العراق وعلينا ان نتأكد من سلامة البصرة لان اهتمـــام الامريكان منصرف الى انشاء قـــاعدة جوية كبرى هنـــاك (١) » •• كما تلقى السفير البريطاني الجديد في بغداد السير (كورنواليس) تعليمات من وزير الخارجية البريطانية جاء فيها أن : « الغرض الرئيسي من ارسال الفرق العسكرية الى العراق هو تأسيس قاعدة تجميع وتعبئة كبرى في البصرة ، وان ما يجري في البلاد العراقية باستثناء منطقة الحبانية هو في الوقت الحاضر ليس له حق الاولوية ، وانه لا يجب اعطاء تعهدات بشأن رحيل هذه الفرق الى بغداد او تحركها نحو فلسطين ، فان حق طلب هذه التعهدات لا تملكه حكومة مغتصبة للسلطة عن طريق الانقلاب في بلد طالما انتهكت فيه حرمة معاهدتنا في صميمها ، وان على السير كورنواليس ان لا يجشم نفسه مشقة الايضاح والتفسير •••(٢) » •

ويوم ١٧ نيسان أعلم السفير البريطاني الرئيس الكيلاني عن قدوم فرقة بريطانية الى البصرة • أبدى الرئيس العراقي موافقته وأمر باستقبالها وبذل المعونة لها ، على أن يكون مفهوما بان الحكومة العراقية لا توافق على نزول قوات جديدة قبل مغادرة القوة الاولى أراضي العراق • والواقع انه لم يقم دليل واحد على ان القوة البريطانية الاولى ستغادر العراق خلال المدة المتفق عليها للاستراحة كي تحل محلها قوة بريطانية أخرى • ويوم ٢٨ نيسان طلب السفير الموافقة على نزول قوة جديدة تصل يوم ٢٩ أي قبل موعد رحيل القوة الاولى ، فذهلت الوزارة العراقية لهذه المفاجأة ، وقررت عدم السماح للقوة الجديدة بالنزول قبل رحيل القوة الاولى ، ولكن السفارة البريطانية تجاهلت هذا ، وتم نزول القوات في البصرة • وحينئذ طلب آمر القوى العراقية الآلية المحيطة بقاعدة الحبانية منع الطائرات البريطانية من التحليق في الجو ، ورد القائد البريطاني طالبا سحب القوات العراقية المرابطة في جوار قاعدة الحبانية

---

(١) Churchill op. cit. , III, p. 215.

(٢) Churchill op. cit. , III, pp. 225 - 26.

قبل ان يضطر الى قصفها من الجو • وصباح يوم ٢ أيار فتح البريطانيون النار على العراقيين من الحبانية ، ونشب القتال بين الطرفين • وهنا أبرقت وزارة الخارجية العراقية الى وزيرها المفوض في انقرة كي يتصل بالسفارة الالمانية ، ويبلغها قرار العراق باعادة العلاقات السياسية مع المانية ورغبته الشديدة في معونتها • وأجاب السفير ان الدكتور « غروبا » هو في طريق عودته الى العراق ، أمابصدد المعونة الالمانية للعراق ، فان الاصطدام مع البريطانيين حدث جديد بالنسبة لالمانية ، لانها مهتمة الآن في تعزيز مواقعها الاستراتيجية في البحر المتوسط ، وفي التحشدات اللازمة لغزو روسية ، وتمنى السفير الالماني ان لو تأخر الاصطدام بعض الوقت لتساهم المانية في مساعدة العراق مساعدة ذات قيمة ، ومع هذا فهو يأمل بألا تتأخر المعونة الالمانية كثيرا[1] •

هل من دليل أوضح من هذا على ان الوزارة العراقية لم تكن على أية صلة بالالمان ودعاتهم كما كان يزعم الانكليز ؟

ان موضوع السياسة الخارجية لم يكن العامل الحاكم في احداث الثورة ، فقد سبق ان نوهنا بموقف المحور غير المشجع من قضايا العرب • فضلا عن ما يزعم اعداء العرب من وجود تنسيق بين تحشد القوات العراقية قرب مطار الحبانية في أوائل أيار ، وبين غزو الالمان لجزيرة كريت • ولو صح هذا الزعم لما افتقد العراق مقدراته على مواجهة الغزو البريطاني القامع ، ولو جرى التنسيق بين الحركة وبين القوى الخارجية التي لوحت بالمساعدة ، لما فشلت الحركة الثورية •

ان معظم الكتاب الغربيين الذين تناولوا ثورة العراق ، التبس عليهم أمر مسألة اتصال الكيلاني وحكومته بالالمان • ولا يهمنا ان نعتذر عن هؤلاء الذين وقعوا في الخطأ أو أوقعوا أنفسهم به عن سوء قصد ، وانما يهمنا ان نثبت هنا ونسجل تصميم البريطانيين على احتلال العراق ، وبناء قاعدة التحشيد في البصرة سواء كره العراق أم رضي ، وسواء أكان لها من المعاهدة العراقية البريطانية ما يعضدها أم لا • يؤيد هذا ما ذكره العقيد الركن صلاح الدين الصباغ ـ وقد كان قائد الجبهة

---

(١) الحسني نفس المصدر ٥ : ٢١٦ •

الغربية في ثورة رشيد عالي الكيلاني ــ في مذكراته : « ان بريطانية كانت تعلم سلفا ان الحرب العالمية الثانية ستنشب في (ايلول ١٩٣٩) ، فلما أعلنت بريطانية الحرب على المانية ، وجدت على رأس الجيش العراقي قادة عربا يعملون في سبيل قوميتهم لا في سبيل مصالحهم ، فقرروا الوقوف عند حدود المعاهدة والانتظار ، لا الولوج في النار حتى تنجلي القضية الفلسطينية ، وتتضح سياسة بريطانية حيال العرب بالنظر لتطور الحوادث العالمية . فكان طبيعيا ان يغيظ قرار القادة أذناب الاستعمار حتى وصفوه بأنه قرار معاد لبريطانية ، وبأنه يورث عدم الاستقرار ، لان المصالح البريطانية تنشد السيطرة على الشرق الادنى والبلاد العربية ، ولا يتيسر ذلك الا بزج العراق في اتون الحرب فتأمن جانب الاقطار العربية الاخرى ، وتؤمن سلامة الطرق الامبراطورية وتحشد جيوشها في العراق كما تشاء »[1] .

ان دعوى اتصال الكيلاني وأعوانه بالمحور قبل نشوب الثورة العراقية على البريطانيين في (٢ أيار سنة ١٩٤١) ، هي دعوى باطلة لا تقوم على أساس ، وانما كانت ذريعة لتسويغ ما يخبئه البريطانيون للعراق . ويظهر سوء القصد هذا في ان السفير الجديد كورنواليس على الرغم من انه وصل الحبانية يوم أول نيسان ، فانه لم يقدم أوراق اعتماده الى الوصي الجديد ، بل ظل يماطل ويسوف حتى حدث الاصطدام[2] . كما يظهر سوء قصد بريطانية في البرقيتين سالفتي الذكر المرسلتين الى وزير الهند والى السفير البريطاني .

ومهما يكن الامر فان محاولات الالمان الضغط على تركية لتأمين مرور الاسلحة الى العراق عبر اراضيها لم تثمر ، وبقي عليهم ان يفاوضوا حكومة فيشي كي تسمح بنزول الطائرات الالمانية في المطارات السورية أثناء طيرانها الى العراق . ووافق الجنرال دانتز قائد جيش المشرق الفرنسي على ذلك ، بعد أن أفهم ان هذه التدابير لا يقصد منها بحال اسقاط مركز فرنسة في سورية .

وبعد قمع حركة الانقلاب خضع العراق في السنوات التالية لوطأة احتلال شديدة

(١) مذكرات الشهيد العقيد الركن صلاح الدين الصباغ ص ٤٦ .

(٢) الحسني نفس المصدر .

وأصبحت أراضيه كلها مفتوحة للجيوش البريطانية كمصر ، لم يسارع الوصي بعد عودته الى قلب الاوضاع رأسا على عقب ، وانما مضى في تصفية العناصر الوطنية والقومية بدون ضجة ودون محاكمة احيانا • وشعر نوري السعيد بسخط الشعب عليه ففضل عدم المشاركة في الحكم على التو ، حتى أتيحت له الفرصة في تشرين الاول ١٩٤١ ، وهو الذي سيقدم الكتاب الازرق الى كيزي وزير الدولة البريطاني بالقاهرة ، ثم يبادر الى اعلان الحرب على المحور ، (١٦ كانون الثاني ١٩٤٣) دون أن تضطره مقررات مؤتمر يالطا الى ذلك • وكان قصده هو تحقيق طموح الهاشميين الى زعامة الشرق العربي ، عن طريق الاعتماد على بريطانية •

ومنذ أوائل أيار سنة ١٩٤١ اعتبر البريطانيون سورية ولبنان أرضا يحتلها العدو• وقبل ان تترك الاصطدام العراقي البريطاني الذي انتهى في أواخر ايار بنصر البريطانيين ، تظاهرهم قوى آلية من الفيلق العربي التابع لامير شرقي الاردن ، علينا ان ننوه بالمصاعب التي كانت تحول دون كون المعونة الالمانية مجدية ، وأهمها مسألة تزويد الطائرات الالمانية بالوقود ، اذ ان السلطات البريطانية في العراق كانت تضع يدها على الوقود الخاص بالطائرات • ولذا لم تكن المعونة الالمانية الجوية لتغني شيئا أما توارد نجدات بريطانية عن طريق البصرة وفلسطين وشرقي الاردن •

سورية ولبنـــان :

أحطنا بظروف بريطانية الحرجة في العراق ، وقبل ذلك عرضنا لعلاقاتها المتوترة مع مصر ، ولمركزها القلق في الجبهة المصرية الغربية • والآن سوف نعرض للخلاف الشديد الذي نشب بين البريطانيين وبين الفرنسيين الفيشيين في سورية ، هـذا الخلاف الذي انتهى بنشوب الحرب بين الطرفين • وغايتنا من كل هذا ان نلقي ضوءا على الظروف السيئة والمشاكل المعقدة التي كانت تجابهها بريطانية في ميدان الشرق الادنى ، مما أورثها هما وغما وارهقها في وقت بدت فيه لوحدها تناهض قوى المحور الظافرة في أوروبة وفي شمال افريقية •

ففي سورية ولبنان غدت الاتجاهات الفرنسية مناوئة تماما للبريطانيين ، فبعد

أن تمرد عميدا السلطتين الملكية والعسكرية بيو ، وﻫﺘﻠهوزر على أوامر الحكومة الفرنسية الجديدة في فيشي ، واعلنا عزمهما على متابعة النضال مع الحلفاء البريطانيين، واتفقا مع السلطات البريطانية في فلسطين على ذلك ، اذ بالرجلين ينحازان الى الجنرال بيتان ، « بطل فردان ومحبوب الشعب الفرنسي » ورئيس حكومة فيشي ، تأثرا منها بموقف المقيم العام في تونس ومراكش • وتبعا لهذا وقعت سورية ولبنان تحت نفوذ حكومة فيشي الموالية للالمان • ان ولاء الفرنسيين في سورية ولبنان الى فيشي يظهر بعبارة الجنرال فوجير Fougère فقد خطب في ضباطه بدمشق (٦ كانون الاول سنة ١٩٤٠) قائلا : « ان التعاون مع المانية رغب به المارشال بيتان •• وان حركة الجنرال دوغول تدعو للاسف وليس لها أهمية ما • وان العدو التقليدي لفرنسة هو بريطانية العظمى ، لا المانية التي ترغب عن اخلاص في التعاون مع فرنسة [1] ••» •

فاذا أضفنا الى هذا ان الجنرال دانتز كان أحد أصفياء بيتان ، تأكد لدينا أن مخاوف بريطانية من امكان نزول الالمان في سورية ولبنان ، كان لها ما يفسرها جزئيا شريطة ألا يبالغ فيها • وعلى كل حال فمن المعقول ان ينظر الالمان والطليان الى سورية ولبنان ليكونا تحت نفوذهم ، فهي مفتاح الشرق الادنى والاوسط ، فاذا تسللت اليهما القوات المحورية فان ذلك سيجعل مصر والقناة بين فكي كماشة • ولعلهم ارسلوا لجنة منهم لمراقبة تطبيق شروط الهدنة في الظاهر ، وللعمل بقدر الامكان على نشر الدعاية المحورية في البلدين ، ريثما تسنح الفرصة لاستخدامها قاعدة للوثوب على آبار الزيت في العراق وايران • ومن ذلك أيضا ما كان من ارسال موظف كبير في الخارجية الالمانية الى سورية اسمه (اوتوفون هانتيغ) رئيس قسم الشرق الادنى ، وقد اشيع انه دعا الى تأليف امبراطورية عربية والى عقد مؤتمر اسلامي في دمشق ، ولم يفته ان يثير كوامن العداوة على بريطانية ضاربا على نغمة الصهيونية • والانصاف يقتضي ان نشير هنا الى ان نشاط الدعاة الالمان في البلدين كان محدودا ، لان الجنرال دانتز نفسه كان يمانع في كل ما من شأنه ان يفسح المجال أمام تدخل الانكليز في سورية ولبنان ، وان دعاوى الانكليز فيما بعد بان البلدين

(١) Général Catroux, « Dans la Bataille de la Mediterranée », p. 68

أصبحا مسرحا للدسائس والخطط المحورية كان مبالغا بها • وهي فيما عدا مسألة هبوط بعض الطائرات الالمانية في المطارات السورية لا تستحق الاعتبار •

والخلاصة ان بريطانية ستذكر ما يفسر هجومها في مطلع حزيران ١٩٤١ على البلدين ؛ ولكن ما يفسر هجومها لا يبرره ، ويظل تبرير بريطانية هذا لا يحتوي الا على نصف الحقيقية ، اما النصف الثاني من الحقيقة فهو طموحها منذ زمن طويل الى مد نفوذها نحو سورية ولبنـــان •

فلسطين :

وفي فلسطين أيضا كانت بريطانية بين فريقين متعاديين ، نزاعهما يؤدي الى اضطراب حبل الامن في البلاد خلال هذه الفترة الصعبة التي تحرص فيها على هدوء المنطقة واستقرارها • فالنازي الذي أخذ يطل برأسه على الشرق الاوسط من اليونان وجزيرة كريت ، ومن الشواطيء المصرية القاصية ، قد ينتهزها فرصة للهجوم على فلسطين ، وقطع شريان المواصلات الهام الذي يصل بين حيفا وبغداد ، وانبوب النفط القادم من كركوك الى حيفا • ومن يدري فقد يعاود العرب الغاضبون ثورتهم تضامنا مع الثورة الناشبة في العراق ضد بريطانية التي أيدت الصهيونية وحمتها وغذتها • ولا عجب فقد لبث القوميون العرب طويلا ينظرون الى مملكة العراق نظرة الايطاليين الى مملكة (البيهمونت) ويتوقعون منها ان تحرر اقطار العرب ، وتحطم قيودها ، وتصوغ وحدتها • ربما رأى العرب الفلسطينيون في ثورة الكيلاني مثلا يحتذى ، وفرصة مناسبة للانتفاض على بريطانية ، وربما حلموا اثناء ذلك بزحف العراق نحو سورية يحررها من فرنسة ، ويتقدم منها الى فلسطين ، يصفي مسألة الوطن اليهودي المشؤوم ، ويرسي أسس دولة عربية موحدة تتألف من بلدان الهلال الخصيب ، ذات استقلال مطلق ، وسيادة تامة دون قيد أو التزام •

والسلطات البريطانية ، هل كانت غافلة عن ذلك الشعور الكامن في فلسطين ؟ كلا! والا لسحبت حامياتها القوية من هناك لتستخدمها في ميادين الحرب حيث الحاجة اليها ماسة • ويتمثل صدق قولنا في رد قائد القوات البريطانية في الشرق الاوسط

الجنرال ويلسون على تشرشل عندما أوضح له انه يصعب عليه امداد البريطانيين في العراق ، لان قواته « مشتتة الى أقصى حد في كل مكان » ، وان ارسال امداد من جيوش فلسطين البريطانية الى العراق سوف يترك البلد دون حامية قوية ازاء نشوب ثورة عربية جديدة تتلقى توجيهها من بغداد ، حيث كان المفتي الحاج أمين الحسيني وزعماء الثورة الفلسطينية يوغرون الصدور على الانكليز ، لاسيما بعد ان اصدر المفتي منشورا يدعو فيه المسلمين للحرب المقدسة والجهاد ضد الانكليز (أيار سنة ١٩٤١)(١) .

من المرجح أن اليهود بذلوا ما بوسعهم لتوجيه جزء كبير من المجهود الامريكي الحربي نحو شمال افريقية ، وهي الخطة التي كانت تلائم المصالح البريطانية وتخدم القضية الصهيونية في الوقت نفسه ، وكان ان تقرر غزو الجزائر ومراكش في تشرين الثاني ١٩٤٢ . ان الحركة الصهيونية شعرت بالخطر يتهددها حين وصل الالمان الى العلمين ، فتطلعت الى سحقهم هناك . وصرح وايزمن في الولايات المتحدة ان الاطماح اليهودية لم تعد تكتفي بفكرة الوطن القومي ، وانما تريد تحويل فلسطين برمتها الى (كومنولث) يهودي . وبرر وايزمن هذا التحول باحتمال قيام اتحاد عربي ممتد من العراق الى ليبية ، مما يهدد الوطن القومي بالذوبان وسط هذا المحيط العربي المتلاطم ، فلا بد ان يوسع هذا النطاق بحيث تشتمل حوزته الجغرافية على فلسطين التي حدد رقعتها الانتداب . ومعنى عبارة كومنولث ربما قصد منها ان الدولة اليهودية المقترحة يمكن ان تكون لها روابط واهية مع الاتحاد العربي ، على نسق تلك الروابط التي يرتبط بها اعضاء الكومنولث البريطاني . ويزعم سمنر ويلز وكيل الخارجية الامريكية الذي كان معروفا بميوله الصهيونية ، ان روزفلت كان من أنصار تحويل فلسطين الى كومنولث يهودي ، وخاصة بعد ان لاح في الافق قيام اتحاد عربي في الشرق وذلك في أعقاب تصريح ايدن كما سنرى .

(١) انظر نص المنشور في : Ettori Rossi : « Documenti sull' origine E Gli Sviluppi . . » pp. 225 - 227.

شرقي الاردن :

أما في شرقي الاردن فكانت الحالة هادئـــة في الظاهر ، ولكن وقعت حركات معاديـــة للانكليز تجلت في تمرد الفيلق العربي الاردني ورفضه الســـير الى العراق لاخماد الثورة القائمة فيه وذلك عندما وصلت وحدة من الفيلق الى الحدودالعراقية. ولما أمرها ضباطها الانكليز بمواصلة السير ، أدارت رشاشاتهـــا عليهم وتوعدتهـــم بالرمي ان لم يسمح لها بالعودة الى قاعدتها في شرقي الاردن .

موقف الاقطار العربية من دعوة بريطانيا للاتحاد العربي

وفي نفس اليوم كانت فيه ثورة العراق تلفظ آخر أنفاسها (٢٩ أيار سنة ١٩٤١) أدلى المستر ايدن وزير الخارجيةالبريطانية بتصريح هام ذي توقيت مدروس عنسياسة حكومته بشأن مستقبل الشعوب العربية فقال :

« لهذه البلاد ــ بريطانية ــ تقاليد طويلة من الصداقة مع العرب ، وهي صداقة قد أثبتتها الاعمال وليس الاقوال وحدها . ولنا بين العرب عدد لا يحصى ممن يرجون لنا الخير كما ان لهم اصدقاء كثيرون . وقد قلت منذ أيام في مجلس العموم ان حكومة جلالته تعطف كثيرا على أماني سورية في الاستقلال ، وأود ان أكرر الآن ، ولكني سأذهب الى أبعد من ذلك فأقول ان العالم العربي قد خطا خطوات عظيمة منذ التسوية التي تمت عقب الحرب الماضية ، ويرجو كثير من مفكري العرب للشعوب العربية درجة من الوحدة أكبر مما تتمتع به الآن . وان العرب ليتطلعون الى نيل تأييدها في مساعيهم نحو هذا الطلب من جانب اصدقائنا . ويبدو لي أنه من الطبيعي ومن الحق وجوب تقوية الروابط الثقافية والاقتصادية بين البلدان العربية ، وكذلك الروابط السياسية أيضا ، وحكومة جلالته من ناحيتها سوف تبذل تأييدها التام لاية خطة تلقى موافقة عامة [١] ... »

---

(١) The Times, 30 May, 1941

لنقف قليلا عند هذا التصريح ، ولننف منذ الآن هذا الوهم الذي قد يعلق في بعض الاذهان عن السياسة البريطانية فيساء فهمها ، وهو ان لها اصدقاء من العرب تنتصر لهم وتحقق آمالهم وآمال بلادهم ... ولا شيء من هذا القبيل ، فالسياسة البريطانية تفهم الصداقة والاصدقاء على وجه مخالف تماما للوجه المعروف والمألوف من هاتين الكلمتين . والسياسة البريطانية تسير دوما على اسس بسيطة وواضحة ، وهي لا تعقل هذه الصداقة ولا تعرف هؤلاء الاصدقاء الا بمقدار ما يؤثرون في مصالحها على النحو الذي تفهمه هي .

ان الحديث عن التصريح هو في الواقع الحديث عن الظروف التي صدر فيها . ولا يفوت الباحث المدقق ان يدرك ما ترمي اليه بريطانية من هذا التصريح ، بعد ان عرضنا في كلامنا السابق للأزمات السياسية والعسكرية والاقتصادية التي صادفتها وجابهتها لوحدها . فلم تكن الولايات المتحدة الامريكية قد انحازت بعد الى جانب بريطانية في وقفتها اليائسة ضد المحور . أما فرنسة فقد ذكرنا انها أقصيت عن الميدان مهزومة مهيضة الجناح ، في حين ان روسية السوفيتية كانت لا تزال مرتبطة برباط واه يوشك ان ينفصم لتنقلب عليها حليفتها المانية النازية بغزو صاعق مروع .

وكان لا بد لبريطانية ان تقتصد في مواردها المحدودة للمجهود الحربي باكتساب أكبر قدر ممكن من حسن نية وتعاون الحكومات والشعوب العربية التي تقطن منطقة يعتبر هدوؤها واستقرارها اكبر عامل لاحراز النصر . وهكذا بادرت السياسة البريطانية لتسد الطريق على التأثير النازي ودعايته ، لاسيما بعد ان صرحت الحكومة الالمانية بالاتفاق مع الحكومة الايطالية في تشرين الاول سنة ١٩٤٠ عن اهتمام المحور وتأييده لنضال العرب من أجل الاستقلال . بل ان بعض الناس بدأوا يتحدثون عن تعضيد دولتي المحور لمسألة فلسطين ولفكرة الوحدة العربية[1] ، فلم لا تسبق بريطانية الالمان الذين قد يقنعهم مفتي فلسطين ورشيد عالي الكيلاني ــ وقد التجأ

---

(١) نقلت الاهرام عن جريدة « الشعب » the People الانكليزية مقالا جاء فيه : ان دسائس النازي في الشرق الاوسط امتدت الى بضع جهات ، وان زعماء العرب الذين تشاوروا في الامر تبين لهم ان النازي عرض على بضعة اشخاص منهم عرش الجامعة العربية تحت الحماية النازية . الاهرام ١٩٤١/٥/١٩ .

الى المانيــة ـــ باعلان تصريح الماني ايطالي عن تحبيذ الوحدة العربية ؟ ولم لا تدعم مركز الساسة « المعتدلين » الذين لم تزعزع ثقتهم بان بريطانية سوف تحقق أماني العرب في الوحدة ؟ أو لم يكن خطأ السياسة البريطانية الناجم عدم الاعتراف بحقوق العرب في فلسطين وغيرها من اهم اسباب ثورة العراق ؟ أفلا يجب ان ينزع هذا السلاح الذي طالما لوح به المحور للعرب في ان بريطانية عدو لدود للوحدة العربية ، في هذا الوقت الذي تبدو فيه معركة سورية وشيكة الوقوع ؟

اذن الغاية من تصريح ايدن تحقيق هدف استراتيجي وسياسي ، هو اتاحة المجال لربط الدول العربية كلها الخاضعة لنفوذ بريطانية وغير الخاضعة لها ، بدائرة واحدة هي وزارة شؤون الشرق الاوسط البريطانية التي كان تشرشل رئيس الوزارة البريطانية وضع مشروعها في مفكرته منذ أوائل نيسان ١٩٤١ . ولنزد هذا شرحا .

ان القيادة العامة البريطانية في الشرق الاوسط تنوء باعباء جسيمة ومتنوعة ، وقد طلب الجنرال ويفل القائد العام للقوات البريطانية في الشرق الاوسط ، كما طلب مساعدوه في ١٨ نيسان ١٩٤١ من حكومة لندن ان تمدهم بالمعونة ، وتعفيهم من بعض المهام المدنية والفرعية الاخرى ليستطيعوا التفرغ للعمليات العسكرية الرئيسية. ويذكر تشرشل في مذكراته عن الحرب العالمية الثانية ان ويفل واثنين من كبار زملائه أبرقوا اليه يقولون : « نحن نرى ضرورة لتأسيس نوع من السلطة او المرجع الرسمي هنا ليقاوم ضمن الخطوط العريضة الموضوعة من قبل حكومة جلالته ، بتصريف الشؤون السياسية التي لها مساس وتأثير على اكثر من دائرة واحدة أو منطقة واحدة ، وهذا يستلزم بالطبع ارتباطها مباشرة ومسؤوليتها أمام وزارة الحرب وليس امام اية دائرة واحدة » (من تلك الوزارة)[١] . وكتب تشرشل ان القائد العام ويفل كان يشعر بالاطمئنان لوجود مرجع سياسي عال على مقربة منه ، خلال زيارة مستر ايدن (وزير الخارجية البريطانية زار القاهرة في شباط ١٩٤١) وقد شعر

(١) Churchill , op. cit. , III, p. 311

مع ضباطه بفراغ بعد رحيله » كما ذكر تشرشل ان ابنه « راندولف » ابرق اليه في ٧ حزيران يحثه على وجوب « ارسال عضو مدني من وزارة الحرب الى المسرح العسكري (في الشرق الاوسط) ، ينقطع للمسائل السياسة والاستراتيجية ، ويكون له مساعدون لتنسيق مسائل التموين والرقابة والمخابرات والدعاية » (١) .

وفي الواقع بادر تشرشل في شهر حزيران ١٩٤١ الى تعيين الكابتن « اوليفر ليتلتون » وزيرا للدولة في الشرق الاوسط ، وقد لخص تشرشل في برقية للرئيس روزفلت مهمة ليتلتون في الشرق الاوسط بقوله : « انه يمثل وزارة الحرب على المسرح الحربي ، ليخفف عن كاهل القادة كثيرا من المهام التي لا تتصل بالعمليات الحربية من مثل العلاقات مع فرنسة ، والعلاقات مع امبراطورية الحبشة ، وادارة بلاد العدو المحتلة ، والدعاية والاقتصاد الحربي .. »(٢) .

فالدليل على رغبة بريطانية في تنسيق الاتصال بالدول العربية وتسهيل مهامها في التعامل معها ككل في ظروف الحرب القائمة على الاقل ، هو انشاء وزارة الدولة لشؤون الشرق الاوسط . ان تسمية وزير الشرق الاوسط لم يكن الا اول مرحلة في تسمية وزراء تاج يعملون على اساس اقليمي تلبية لمطالب الحرب ، اذ سيعين وزراء مقيمون أيضا في كل من سنغافورة بعد هجوم اليابان على بيرل هاربور ، وفي غربي افريقية (١٩٤٢) ..

ان مايهم الحكومة البريطانية في الشرق الاوسط هو « تمهيد » الطريق امام تقارب الدول العربية وائتلافها في ما يشبه حلف او تضامن ، يسهل على بريطانية التعامل معها ، ويخفف عنها كثيرا من الجهود التي يقتضيها الاتصال بكل دولة من الدول العربية على حدة . وتقوم وزارة الشرق الاوسط البريطانية عندئذ بدورها في الاتصال مع هذه الكتلة العربية . وبذلك تتفرغ بريطانية للحرب وهي مطمئنة الى ارتباط هذه الكتلة بها والى ولائها ، طالما توسلت بريطانية لتحقيق هذا الهدف

---

(١) Ibid

(٢) Churchill , op. cit. , III, p. 314

السياسي والاستراتيجي بتأييد تقارب محدود بين الدول العربية وتسهيل اتصالها ببعضها ببعض • هذا هو الهدف الاول من اصدار تصريح ايدن بتأييد الاتحاد العربي • والهدف الثاني ولا يقل أهمية عن الهدف الاول هو كون بريطانية ترغب رغبة مؤكدة في استخلاص سورية ولبنان من سيطرة النفوذ الفرنسي المستضعف يومذاك ، عن طريق ضمانة بريطانية لاستقلال البلدين أولا ، ثم عن طريق ادماج البلدين بالحلف أو التضامن أو الاتحاد العربي الذي بعث مشروعه تصريح ايدن ، ثانيا • وعلى ذلك ترتبط المجموعة العربية كلها في الشرق الاوسط بالسياسة البريطانية وهذا عين ما كانت تدعو اليه بريطانية في « اتحاد محميات » الجنوب العربي ـ عدن وحضرموت والمحميات الشرقية والغربية ، حيث ما انفكت السياسة البريطانية تقوم بمساعي وجهود كبيرة لاقناع الشيوخ والرؤساء والامراء باجراء الاتحاد فيما بينهم ، ليسهل عليها حكمهم من دائرة واحدة ، وفقا لمبدأ : وحّد واحكم ، لا فرق واحكم ، لان السياسة الاخيرة تحتاج الى جهود مستمرة ونفقات كبيرة •

أحطنا اذن بظروف واهداف التصريح البريطاني • والواقع ان هذا التصريح كان اشبه بمناورة سياسية بارعة ، تترك عباراته في النفس أثرا واضحا بان الحكومة البريطانية تعترف رسميا بما حقق العرب من تقدم سياسي •

وتمشيا مع أهداف تصريح ايدن بدأت الحكومة البريطانية تدعم السياسة الاستقلالية في سورية ولبنان ، وذلك عندما أعلن سفيرها في مصر السير « مايلز لمبسون » ان حكومته تضمن البيان الذي أذاعه الجنرال « كاترو » بخصوص استقلال البلدين وتشترك به[1] •

وكان البيان الذي أذاعه الجنرال كاترو ، غداة الهجوم على سورية (٨ حزيران)، الذي قام به البريطانيون والفرنسيون الاحرار عقب تصريح ايدن قد اعلن باسم فرنسة الحرة وزعيمها الجنرال « دوغول » الغاء الانتداب عن سورية ولبنان ، ومنحهما الاستقلال والسيادة • وذكر في بيانه ان للسوريين واللبنانيين ملء الحرية في ان يؤلفوا دولا مفردة أو دولة متحدة ، على ان تضمن هذه السيادة وذاك الاستقلال

---

(١) « Correspondance d'Orient », Mars 1945, pp. 126 - 127,

بمعاهدة تحدد علاقات البلدين مع فرنسة[1] •

والواقع ان ضمانة بريطانية لبيان الاستقلال الممنوح للبلدين ، لم تلاق من الفرنسيين الاحرار الترحيب والارتياح ، لانهم كانوا لا يطمئنون الى نوايا بريطانية ، ويخشون ان تشاركهم النفوذ والسلطان على سورية ولبنان ، منتهزة فرصة ضعف الفرنسيين وكونهم عالة عليها في كل شيء[2] •

وقبل ان نشرح صدى تصريح ايدن في العالم العربي ، نتساءل كيف استقبل المحور هذا التصريح •

ضاعفت الاذاعة المحورية حملتها الدعائية ، وشجب راديو برلين التصريح البريطاني وأعلن ان وعود بريطانية للعرب غير صحيحة في هذه الحرب الثانية ، تماما كما كانت وعودها في الحرب الماضية الاولى • ولكن الصحف البريطانية انبرت ترد على ذلك ، فقالت ان الغرض من الدعاية المحورية هو بث بذور الشك والريبة في نفوس العرب[3] • والحق ان الظروف العربية الراهنة هي التي كانت تقرر اتجاه العرب نحو تصديق أحد المعسكرين المتنازعين ؛ فطالما كان التفوق العسكري الالماني راهنا ، فان الدعاية الالمانية كانت تجد طريقها الى أسماع القوم • ولكن على الرغم من أن ظروف بريطانية الحربية يومئذ كانت سيئة ووضعها العسكري حرجا ، غير

(١) انظر نص بيان كاترو في :
« Correspondance d'Orient », Mars 1945, p. 98.

(٢) ابرق تشرشل الى الجنرال دوغول في ٦ حزيران ١٩٤١ .. « ان سياستنا نحو العرب يجب ان تسير وفق خطوط متوازية ، وانت تعلم اننا لا نبغي من وراء ذلك امتيازات خاصة في الامبراطورية الفرنسية ، ولا نريد ان نستثمر وضع فرنسة لفائدتنا، ولذا فاني ارحب بقراركم في الوعد باستقلال سورية ولبنان ، ويجب ان يكون لهذا الوعد كما تعلم اكبر وزن من الضمانة ، وانا أوافق على انه لا ينبغي في اية تسوية للمسالة السورية ان نهدد توازن الشرق الاوسط ، ويجب ان نعمل كل شيء ممكن لتنفيذ اماني العرب ونفي شكوكهم ، وانا واثق من انك تدرك أهمية ذلك . وفي هذه الساعة الرهيبة يجب ان اطلب منك الا تلح على اعلان الجنرال كاترو مفوضا سا. ا على سورية » . Churchill op. cit. , III, p. 394.

(٣) (The Times 9 Octobre 1941).

ان ذلك لم يمنع بعض الساسة العرب من ان يطمئنوا الى وعود بريطانية أكثر من اطمئنانهم الى وعود المحور ، وذلك راجع الى ان هؤلاء رأوا في التصريح البريطاني حقيقة أكثر جلاء وأقرب منالا وتحقيقا من وعود المحور في اقامة الاتحاد الفيدرالي العربي • لان بريطانية على ضعفها كانت في نظرهم تملك زمام الامر في معظم أقطار الشرق العربي ، في حين ان قوى المحور ما زالت بعيدة ، وليس لها من سيطرة ولا نفوذ فعلي في أي قطر من الاقطار العربية •

ولنسرع الى القول بان الذين يذهبون الى ان التصريح البريطاني قد قوبل بالترحيب والرضى من جانب العرب ، لا يقولون الحقيقة كاملة ، تماما كمن يذهب الى ان التصريح قوبل بالفتور واللامبالاة ، بسبب رجحان كفة المحور الحربية ، والدلائل التي تشير الى نصره النهائي •

ووجه الحق في المسألة يجب أن يرى على ضوء الاحوال الداخلية السائدة في كل قطر من الاقطار العربية ، **فسورية ولبنان** ما كان لهما من الاستقلال الا مظاهره ، لان الفرنسيين على الرغم من اعلانهم استقلال البلدين ، استمروا يصرفون شؤون الادارة فيهما ، كما لو كان الانتداب لا يزال نافذا • وهذا لم يكن فقط يعرقل بل يحول دون ممارسة البلدين صلاحيات استقلالهما التام ، وانما كان ايضا حجر عثرة أمام مساعي الاتصال والتقارب بينهما وبين الدول العربية ، ولذلك فان اهتمام ساسة البلدين انصرف اولا وقبل كل شيء الى العمل على الخلاص من النفوذ الاجنبي ، ونوال الاستقلال والسيادة ، وايجاد حكومات وطنية تأخذ على عاتقها اجراء مفاوضات ومباحثات مع الدول العربية الراغبة في التعاون والتضامن والاتحاد •

أما في **شرقي الاردن** فقد استقبل اميرها الهاشمي عبد الله بن الحسين تصريح ايدن بالغبطة والترحيب ، واستجاب له فأرسل في (٢ تموز سنة ١٩٤١) مذكرة الى بريطانيــة يطلب فيهــا تحقيق وحدة أقطــار سورية الكبرى بشكل ينطبق مع وحدتها الجغرافية الاقتصادية [1] •••

---

(١) انظر نص المذكرة في الكتاب الابيض الاردني ــ وثائق عن سورية الكبرى ص ٣٣ ــ ٣٥ . الواقع ان الامير عرض على بريطانية قبل احتلال سورية ، استعداد شرقي الاردن للقيام بواجبها نحو قوميتها وحليفتها لتحرير سورية ولبنان من حكم سلطات ←

أما في **مصر** فقد وجدت ظروف تحول دون التفات الحكومة المصرية الى تصريح ايدن بما ينبغي من الاهتمام : ذلك ان الحرب في جبهة ليبية كانت تهدد مصر تهديدا مباشرا بعد ان توغل المحور فيها ، والوزارة المصرية كانت تنزلق من أزمة الى أخرى بسبب الاحوال الاقتصادية السيئة ، وبسبب انقسام قادة الرأي بخصوص موقفهم من بريطانية . هذا الى ان معظم المفكرين المصريين كانوا يفضلون اتحاد مصر والسودان ، او اتحاد بلدان وادي النيل على اتحاد مصر مع البلاد العربية . ويجب ان ننتظر حتى (شباط ١٩٤٢) لنرى حكومة الوفد في دست الحكم توطد دعائم الاستقرار والامن في مصر ، وعندئذ يصبح لمصر شأن كبير في ميدان التعاون العربي بما كان لها من صداقة بريطانية وتأييدها ، وبما لها من مركز الشقيقة الكبرى بين دول العالم العربي .

أما في **العراق** فبعد اخماد ثورة الكيلاني كلف الوصي عبد الاله السيد جميل المدفعي بتأليف الوزارة (حزيران ١٩٤١) ، وقطع العراق علاقته السياسية مع دول المحور ، ثم عهد الوصي الى نوري السعيد بتأليف الوزارة (تشرين الاول ١٩٤١) ، فانشغل بتصفية الحساب مع القائمين بحوادث الشهرين (نيسان وأيار سنة ١٩٤١) وتطبيق معاهدة ١٩٣٠ ، ولذا فلن يبدر من العراق حركة ازاء تصريح ايدن الا بعد انتصار الحلفاء في معركة العلمين (تشرين الاول ١٩٤٢) .

←

فيشي . ورد عليه المندوب السامي في فلسطين بالتريث (ص ٢٠) . وكرر الامير طلبه في مذكرة ارسلها الى وزير المستعمرات لورد لويد (بتاريخ ٩ تموز ١٩٤٠) وبعد تصريح ايدن بعث بمذكرة يشير فيها الى حقوق عرب فلسطين والى استقلالها فجاءه الرد من المندوب السامي ان تصريح ايدن انما يشمل البلاد العربية كافه (ص ٢٦) .

ثم ارسل الامير مذكرتين الى الحكومة البريطانية يوضح فيهما ــ فيما يوضح ــ أماني سورية وشرقي الاردن بالوحدة العربية ، وجاءه الرد بان الوضع العسكري في الشرق الاوسط ومعارضة بعض زعماء العرب المتطرفين يجعلان هذه الخطوة غير ناضجة . وفي ٢ تموز ١٩٤١ كرر الامير نفس المعاني السابقة بالحاح غريب دون كلل او ملل ، فكان الرد يأتيه غير مشجع ، بدعوى ان البت في قضية الوحدة العربية يرجع امرها الى تبصر العرب انفسهم عندما يكون الميدان اكثر جلاء مما هو عليه الآن ، وينصح بارجاء تنفيذ اي مشروع من هذا النوع ريثما تغدو الحالة اكثر استقرارا . (ص ٣٦ من الكتاب الابيض الاردني) .

ولم تتحرك **المملكة العربية السعودية** بالرد على بيان ايدن ، وبقي ابن سعود يرقب تطور الاحداث الدولية ، دون ان يغيب عنه الخطر الذي يمكن ان ينجم عن امتداد نفوذ « الهاشميين » الى سورية ولبنان ، والتهديد الذي يتعرض له ملك آل سعود اذا لقيت المشاريع الهاشمية المرتسمة يومذاك في الافق العربي ، موافقة بريطانية والحكومات العربية المعنية •

وفي **اليمن** ظل الامام يحيى متمسكا بالعزلة التامة •

أما في **فلسطين** فلم يكن العرب قادرين على شيء ، طالما كان الانتداب البريطاني والمسألة الصهيونية يعقدان الامور ، ويجعلان كل أمنية من جانب العرب للاستقلال أو الاتحاد مع دولة أو دول مستقلة عربية امرا سابقا لاوانه •

هذا هو الاطار العام لموقف العرب من تصريح ايدن الصادر في (٢٩ أيار سنة ١٧٤١) ، رسمنا خطوطه الرئيسية • وبعد ، فما هي تفاصيل هذا الاطار ؟

سورية ولبنـان :

في سورية ولبنان نوجز الازمات السياسية التي حالت دون استجابة البلدين لدعوة الاتحاد العربي التي فاه بها ايدن ، وقد اشترك في هذه الازمات الفرنسيون والبريطانيون والوطنيون في البلدين على الوجه التالي : بعد هدنة عكا (تموز ١٩٤١) التي تلاها استسلام قوات فيشي ، تحرك الوطنيون في سورية ولبنان يطالبون بتنفيذ وعود الاستقلال المبذولة لهم بضمانة بريطانية • وبينما كان تشرشل يرحب بقرار المندوب العام الفرنسي الجنرال كاترو في منح الاستقلال للبلدين ، ويشير ــ ولهذا دلالته ــ الى الضمانة البريطانية وقوتها ، ويبدي رغبته في ان يرى الاستقرار مخيما على ربوع المشرق العربي عن طريق اصطناع كل ما يستطاع لتحقيق آمال العرب وأمانيهم (١) ، كان الجنرال «دوغول » قلقا لا تروق له مشاركة الانكليز للفرنسيين في احتلال سورية ولبنان ، هذا الاحتلال الذي لم يكن يعني في نظره الا خطوة تتبعها

---

(١) مذكرات تشرشل عن الحرب العالمية الثانية جـ ٣ ص ٢٨٧ وما يليها .
Churchill, op. cit. , III p. 287 & Seq.

خطى من برنامج واسع يعده الانكليز الدهاة للسيطرة التامة على الشرق العربي ، ونسف نفوذ فرنسة منه . ولم تكن مخاوف الفرنسيين لتخفى على بريطانية ، ولذا أكد السير « أولفر ليتلتون » وزير الدولة البريطاني في الشرق الأوسط (٧ آب سنة ١٩٤١) ، ان بريطانية ليس لها مصلحة في سورية ولبنان الا ما يخص كسب الحرب الدائرة . وقال ان فرنسة الحرة وبريطانية تعهدتا بالاعتراف باستقلال البلدين، ومتى تم هذا الامر الاساسي فان بريطانية تعترف برجحان مركز فرنسة على أية دولة أوربية أخرى فيهما . وبعد شهر ، في (٩ ايلول) ، قرر تشرشل في مجلس العموم انه ليس لبريطانية مطمح ما في البلدين ، وأضاف ان سورية سوف يعاد تسليمها الى السوريين ليمارسوا في أقصر وقت ممكن حقوق سيادتهم واستقلالهم . واستطرد يقول : « ونحن لا نعتقد أن اقامة الحكومة ــ اوالحكومات ــ السورية المستقلة يجب أن يتأخر حتى نهاية الحرب ، فنحن دوما نرغب في أن يتمتع السوريون بمقدار أوفى من ادارة شؤونهم ، اذ ليس في النية استبدال مصالح فرنسة الحرة بمصالح فرنسة فيشي حتى في أيام الحرب[١] » .

هذا تصريح بالغ الاهمية ، قابله السوريون بالترحيب ، ومضوا يلحون على ممثلي فرنسة طالبين انجاز الوعود . وبصدد الاتحاد العربي قام وزير الدولة البريطاني لشؤون الشرق الاوسط السير « أوليفر ليتلتون » بزيارة لندن (ايلول ١٩٤١) وأجرى مباحثات مع الحكومة طلب بعدها من لجنة الشرق الاوسط ان تدرس موضوع الاتحــاد بين الدول العربية ، بعد استشارة ممثلي بريطانية في تلك الدول . وجاء في تقرير اللجنة انه يومذاك « لا يمكن تطبيق أي برنامج للاتحاد السياسي ، وأنه يجب ان تقصر جهود السلطات البريطانية على تسهيل التعاون الاقتصادي وازالة الحواجز الاقتصادية بين سورية ولبنان وفلسطين وشرقي الاردن ، وتشجيع العلاقات الثقافية بين الدول العربية [٢] » .

ولكن هذا ما كان يعني تخلي بريطانية عن مشروع « الاتحاد العربي » وانما

---

(١) H. C. Debates, 5th Ser. , Vol. 374 col، 76, quoted in Kirk, « The Middle East in the war », Note p. 117.

(٢) Kirk, op. cit. , p. 162

كان يعني انتظار ظروف أفضل يتم بها هذا المشروع بشكل أو بآخر دون حاجة لاثارة شكوك حلفائها الفرنسيين • والاهم من ذلك ان « بعض » الحكومات الوطنية في سورية ولبنان ومصر لم تكن قد وصلت بعد الى كرسي الحكم لتقوم بالاتصالات والاجراءات اللازمة في مثل هذه الاحوال •

وتناولت الصحف البريطانية موضوع الاتحاد العربي فكتبت صحيفة التايمس في (٢٠ ايلول) عن الفيدرال العربي وصلة سورية به تقول : ان حلم الاتحاد الفدرالي العربي طالما لاقى – ويلاقي – ترحيبا من العرب في الشرق الاوسط • وأيا كانت الدرجة التي يمكن ان يتحقق بها هذا المثل الاعلى في المستقبل القريب ، فليس هنالك ما يسوغ التجزئة التي أجريت عام ١٩١٩ على الاراضي العربية في حوض البحر المتوسط الشرقي ، لا من ناحية مراعاة الشعور العربي ، ولا من ناحية التقليد التاريخي والظرف الراهن • ان التجزئة التي فرضت الحواجز بين مناطق النفوذ البريطانية والفرنسية قد ثبت انها ضارة بجميع الاطراف ••• والآن بما ان سورية قد تخلصت من دسائس المحور ، تلك الدسائس التي أمنت منها فلسطين بفضل الجهود المشتركة للبريطانيين والفرنسيين الاحرار ، فليس ثمة مبرر يدعو لابقاء تلك الحواجز المصطنعة[١] » •

وكانت مقالة التايمس بالنسبة للفرنسيين ضغثا على ابالة ، اذ وجدوا فيها ما يؤيد شكوكهم وما يزيد ريبتهم بنيات بريطانية• وصمم الجنرال كاترو ان يستميل السوريين الى جانبه ويفصلهم عن تأثير البريطانيين ، فأعلن رسميا في ٢٧ ايلول استقلال وسيادة الجمهورية السورية اللذين لا يحد منهما سوى القيود التي تفرضها حالة الحرب الحاضرة ، وأمن البلاد السورية ، وسلامة الجيوش المتحالفة • ثم أشار كاترو الى ضرورة عقد معاهدة فرنسية سورية • وفي ٢٦ تشرين الثاني أعلن استقلال لبنان ، وأكد ان لبنان يؤلف وحدة سياسية اقليمية لا تقبل التجزئة ، وان سلامته يجب أن تصان ضد أي افتئات عليها[٢] •

---

(١) Kirk, op. cit. , p. 118

(٢) Catroux op. cit. , p. 233.

ولسنا في صدد بحث فشل ممثل فرنسة في استمالة الوطنيين واغرائهم بعقد المعاهدة ، فالوطنيون ما كانوا يودون الارتباط بشيء البتة • وليس يتسع المجال كذلك لذكر المناقشات والمجادلات التي دارت بين الانكليز والفرنسيين من أجل اجراء انتخابات حرة في البلدين ، ولا لعدم ارتياح الجنرال كاترو الى أساليب الجنرال « سبيرز » رئيس البعثة البريطانية في سورية ولبنان • شكا كاترو من تدخلات « سبيرز » واستغرق ذلك صفحات عديدة من كتابه عن « معركة البحر الابيض الابيض المتوسط » ولا تكاد صفحات هذا الكتاب تخلو من اتهام سبيرز وتحميله مسؤولية التآمر على مركز فرنسة وتعضيد الوطنيين في البلدين •

ويهمنا ان نذكر مبادرة الحكومة البريطانية الى الاعتراف باستقلال سورية (٢٨ تشرين الاول) ، ورغبتها الى حكومة الولايات المتحدة الامريكية ان تحذو حذوها كي يسود الهدوء في الشرق الادنى ، ويثبت مركز الحلفاء في بلاد العرب • وكذلك رغبت فرنسة الحرة الى الولايات المتحدة ان توافق على ما صنعته من أجل استقلال البلدين • ولكن الحكومة الامريكية تريثت بحجة ان اعترافها باستقلال سورية ولبنان دون قيام معاهدة جديدة بينهما وبين فرنسة يمكن ان تضار به الحقوق التي نالتها وفق معاهدة ١٩٢٤ ، لا سيما وان العلاقات الامريكية مع حكومة فيشي ما برحت قائمة ، وان اعتراف بريطانية بمركز فرنسة الممتاز في البلدين ، واصرار الجنرال دوغول على رجحان وضع فرنسة فيهما •• كل هذا كان يثير صعوبات أمام اعتراف الحكومة الامريكية باستقلال البلدين[١] • وكان عدم اعتراف كل من مصر والعراق باستقلال سورية ولبنان له أهمية خاصة ودلالة سنعود الى تفسيرها بعد قليل • ومهما يكن من أمر فان الفرنسيين استمروا يوجهون دفة الحكم بواسطة قرارات يصدرونها ويتصرفون بالمصالح المشتركة كالجمارك وحصر التبغ وامتيازات

---

(١) يذكر كردل هل في مذكراته ان حكومته افهمت الحكومة البريطانية بان عدم اعترافها باستقلال سورية ولبنان يمكن ان ينفع السياسة البريطانية ، ذلك ان الولايات المتحدة تبقى في وضع يخولها ان تلح على فرنسة لكي تصفي الامتيازات الخاصة التي تطالب بها في البلدين في حين ان بريطانية محرومة من هذه الميزة لاعترافها من حيث المبدأ بهذه الامتيازات .

Cordell Hull « The Memoirs of cordell Hull », Vol. 2, p. 1541.

الشركات .. ويستعملون تدابير الامن العربي من أجل خنق المؤسسات الوطنية . وعلى هذا فلا عجب اذا لم يستطع قادة الرأي في سورية ولبنان أن يبدو حراكا ازاء تصريح ايدن ومسألة الاتحاد العربي .

وبينما كان الأخذ والرد على أشده بين الوطنيين والفرنسيين في سورية ولبنان ، بادر الامير عبد الله لعرض وجهة نظره في مسألة الوحدة العربية ، وأعلن رغبته في وجوب تحقيق وحدة أقطار سورية الكبرى ؛ ولعل الامير أحس بأن استقلال البلدين قد يعرقل تنفيذ هذه الامنية ، ولذا أصدر مجلس وزراء شرقي الاردن قرارا في ٦ كانون الثاني سنة ١٩٤٢ ، يطالب فيه برفع الانتداب عن شرقي الاردن لتتصل الى مرتبة البلاد العربية الاخرى ولتتمكن من السعي للوحدة من تلك البلاد ، تلك الوحدة التي صرحت حكومته جلالته بالعطف عليها .

أما الحكومة البريطانية فلم تكن في وضع يسمح لها أن تصغي الى هذه الدعوة أو تلك ، لأن ظروف الحرب في جبهة ليبية كانت تجري على غير هواها وصالحها . ومما أبهظ حملها وأثقله ، أن مصر كانت في هذا الحين تشهد عهد اضطراب وجب على بريطانية أن ترقبه بكل احتياط وحذر لئلا يعرقل المجهود الحربي في الجبهة المصرية الغربية .

مصر :

كانت الوزارة في مصر تتعثر في سيرها وتجابه الازمة تلو الازمة ، فبعد أن أبعدت العناصر التي تعرف بتطرفها الوطني وبعطفها على المحور، جابهت الانتقادات المرة التي وجهت اليها واتهمتها بالتقصير والتباطؤ في اعانة ضحايا الغارات الجوية على الاسكندرية (حزيران ١٩٤١) وتأمين الملاجىء اللازمة لهم . وأمام الحاح بعض النواب اضطر رئيس الوزراء للتصريح بأن حكومته تأمل بأن تفهم المانيه وايطالية بأن مصر غير محاربة . وطلب بعض النواب أن تعلن الحكومة أن مصر بلاد مفتوحة[1] ، وأنه يجب على الاسطول البريطاني أن يجلو عن الاسكندرية كي يمكن اعلانها مدينة مفتوحة[2] .. حنقت السلطات البريطانية وطلبت من رئيس الوزراء

(١) مضابط مجلس النواب المصري (١٨ حزيران ١٩٤١) ص ١٤٥٢ ، ١٤٦٢ .
(٢) الصحافة المصرية (١٩ حزيران ١٩٤١)

ان يضع حدا لهذا « الشعب » الذي يستحيل تنفيذ مطالبه • وزاد الحالة سوءا في مصر ان الازمة الاقتصادية فيها اورثت السلطات البريطانية القلق والمتاعب • في بلاد العرب عموما ، وفي مصر خصوصا كان التضخم النقدي شاملا ، وكان الناس قانعين أن بريطانية هي المسؤولة عن ذلك • والحق ان هذا الاتهام لم يكن دون أساس منطقي ؛ فالسلطات البريطانية التي كان بيدها رقابة اصدار النقد كانت تشتري حاجتها الاستهلاكية باسعار عالية ، مما جعل الباعة والتجار لا يبيعون الى الناس طمعا بربح بيع الجملة الوفير الى البريطانيين[١] • هذا الى اختفاء معظم المواد الغذائية والحاجات الضرورية والكسائية ، مما أثار احتجاجات صارخة من سائر الاوساط • وتحدث الناس عن المجاعة والفوضى وعن المصائب التي تنهال على مصر بسبب وجود السوق السوداء واساليب الاحتكار والتخزين • ووجدت اسباب كثيرة أخرى لعدم الرضا كان منها أزمة وزارية استفحلت حين دخل روملي مدينة بني غازي (٢٩ كانون الثاني) وغذ سيره نحو الشرق • استقالت الوزارة فكان لاستقالتها صدى غير حسن بالنسبة للحلفاء الذين تهدد مركزهم في مصر اهم قاعدة لهم في الشرق الاوسط • وتدريجيا خرج الامر من يد السلطة ، وسارت المظاهرات صاخبة منددة بفكرة استعداء الالمان لمصلحة الانكليز • ولما أطل السفير البريطاني عليها ، لاح له أنها اشارة وجوب التدخل • وكانت مقابلة (٤ شباط) المعروفة التي أرغمت الملك على الانحناء ، واضطرته لاستدعاء النحاس زعيم الاغلبية في البرلمان وتكليفه بتشكيل الوزارة •

ولا يصعب علينا أن نفسر أسباب اختيار الانكليز لحزب الوفد وزعيمه النحاس كي يتسلم زمام الامر في مصر ؛ فالحكومة البريطانية ما كان يفوتها ان تلاحظ ان الحزب الوحيد الشعبي الذي يمكنه تنفيذ التزامات المعاهدة المصرية البريطانية على الوجه الاكمل ودون معارضة قوية انما هو حزب الوفد الذي طالما قاست السلطة البريطانية من حملاته العنيفة على سياستها • وحزب الوفد حينذاك هو حزب الاغلبية البرلمانية ، وكلمته مسموعة لدى الكتل الشعبية • وحزب الوفد هو الذي أبرم معاهدة ١٩٣٦ التي طال الاخذ والرد بشأنها وهو الذي بالغ في امتداحها ، وضمن

---

(١) Ouess « Pan Arab Movement » p. 106.

تصديقها من مجلس البرلمان بنجاح ؛ فلا غرو ان وضعت الحكومة البريطانية ثقتها بالنحاس وحزبه في هذه الفترة الحرجة من الحرب • وعلى هذا النحو تشكلت الوزارة الوفدية برئاسة النحاس ، وبذلك حلت بريطانية مشكلة المعركة السياسية التي جابهتها في مصر منذ مطلع الحرب العالمية الثانية • ولاول مرة ، ودون الاشتراك في الحرب مباشرة ، انحازت مصر الى جانب الحلفاء ، وتمكنت بريطانية من اعداد هجومها المعاكس بعد حين •

وينبغي هنا ان نسجل مسألة على درجة كبيرة من الاهمية ، وهي ان وجود حكومة مصرية محالفة لبريطانية تؤكد الصداقة والاتفاق الودي معها ، قد ترتب عليه نتائج هامة بالنسبة لموضوع « الوحدة العربية » الذي نحن بصدده • ووجه الحق في المسألة ان عقد المعاهدة المصرية البريطانية عام ١٩٣٦ ، كان اساسا لمحاولة « العمل المشترك » بين الحكومتين المصرية والبريطانية في حقل القضايا العربية المختلفة ، وخصوصا عندما تكون الوزارة المصرية وزارة وفدية • وما محاولة العمل المشترك سوى محاولة رسم السياسة « العربية » ؛ ذلك ان الحكومة البريطانية كانت تعلم ان سياستها العربية اذا رسمت بالاتفاق والتفاهم مع « حكومة صديقة أو حكومات صديقة » فسوف تحوز رضى وقبولا اكثر من جانب العرب ، لا سيما اذا كانت هذه الحكومة تتمتع بثقة الدول العربية كلها ، وهي أوفرها نصيبا في مضمار التقدم والثروة والعدد كمصر • ولا حاجة ان القول بان ما يقصد بالعمل المشترك في رسم السياسة العربية انما هو ان تفكر مصر وبريطانية بالسبل التي يحسن اتباعها لتأمين مصالح العرب ومصالح بريطانية على وجه مقبول • فمصر عام ١٩٣٩ جمعت الوفود العربية في القاهرة ومنها توجهوا الى مؤتمر لندن لحل المسألة الفلسطينية • ومصر عام ١٩٤١ نصح رئيس وزرائها زميله الرئيس العراقي رشيد عالي الكيلاني بأن يسوي النزاع مع البريطانيين بالحكمة والتفاهم(١) • ومصر عام ١٩٤٢ يظهر رئيس وزرائها لاول مرة رغبة أكيدة في الاتصال بالدول العربية والسعي من أجل وحدتها • وعلى هذا النحو تبدأ الحكومة المصرية برئاسة النحاس بالسير على سياسة عربية ، لا نقول بايعاز من بريطانية لئلا نقع في التجني ، ولكن نقول بسماح بريطانية واباحتها لمصر

(١) Kirk : « The Middle Erst in the War » Note p. 71

ذلك الاتجاه نحو العالم العربي. فبعد ان كانت السياسة البريطانية تبالغ في اقامة السدود من حول مصر ، مما عزلها عن تيارات الفكرة العربية ، صدر تصريح ايدن باسلوب سياسي جديد يحبذ ويؤيد التعاون بين الدول العربية . واستنادا الى هذا « الترخيص » البريطاني سيبادر النحاس للاتصال مع الحكومات العربية ومع القادة الوطنيين في بلاد الشرق العربي للتداول والنظر فيما يمكن عمله لاخراج فكرة الوحدة العربية على نحو ما .

ولكن قبل ان يدعو النحاس الى الوحدة القومية ، كان عليه ان يبذل المعونة للدول العربية التي لم تستكمل استقلالها وسيادتها كسورية ولبنان . ولم يصعب على النحاس معرفة الجو الخانق الذي تعيش فيه سورية . وعلم ان الدعوة للوحدة العربية لا يمكن ان تلقي اهتماما في سورية ولبنان الا من جانب حكومات وطنية متحررة ، لا حكومات « الموظفين » الحالية التي أقامها الفرنسيون . ومن هنا بدأ النحاس ونوري السعيد يطالبان السلطات الفرنسية في البلدين باجراء انتخابات وطنية حرة تنبثق عنها حكومات تمارس سلطتها الشرعية ، وتستمد قوتها من الرأي العام الشعبي ، وعلقا اعتراف مصر والعراق باستقلال البلدين على هذا الشرط .

ما هي الاجراءات التي بذلت للوصول الى هذا المطلب ؟

نجد ذكرا لها في كتاب كاترو الآنف الذكر ، والرجل حاقد على بعض البريطانيين تآمرهم على فرنسة في سورية ولبنان . قال ان القادة الوطنيين في سورية أجمعوا على طلب اجراء الانتخابات ، وظلت مسألة الانتخابات بين أخذ ورد لا بين الوطنيين والفرنسيين فحسب ، بل بين البريطانيين والفرنسيين أيضا ؛ فقد أصرر الجنرال سبيرز رئيس البعثة البريطانية في سورية ولبنان ، على وجوب منح الحريات السياسة بالسرعة الممكنة . ألح بذلك على الجنرال كاترو فاصطدم معه ، وفاتح بها رئيس جمهورية لبنان المساير لفرنسة ، بحجة ان الحكومة البريطانية تعلق أهمية كبرى على اجراء الانتخابات في لبنان ، فازورّ الرئيس اللبناني منه . وتحدث كاترو مع النحاس في ٢٥ آذار لمعرفة اسباب تأخير اعتراف مصر باستقلال البلدين ، فوجد ان آراء النحاس تنفق مع آراء الوطنيين السوريين ، ومع آراء الكتلة الدستورية في لبنان . ويقول كاترو في ذلك ان بشارة الخوري وهو يتمشى مع الاتجاه العربي ضمن حدود ،

« كان يتلقى تأييدا من مصطفى النحاس ونوري السعيد ، وهذا التأييد لم يكن دون مقابل من جانب رجلين يحلمان بتجميع الشعوب التي تتكلم اللغة العربية » .

قد يكون هذا القول صحيحا ، ولكن الاصح منه ان الرأي العام في سورية ولبنان بل الرأي العام الدولي نفسه كان يدعم مسألة اجراء الانتخابات في سورية ولبنان. وعندما عين (ريتشارد كيزي) وزيرا للدولة في الشرق الاوسط خلفا للكابتن السير اوليفر ليتلتون الح على كاترو بضرورة اجراء الانتخابات ، وقال ان حكومته ترغب في اجرائها لان الوطنيين في العراق ومصر ينتظرونها بفارغ الصبر ، وان التسليم بها يضمن الولاء والاخلاص للحلفاء ، ويخلق في سورية ولبنان شعورا وديا نحو قضيتهم ، ويبطل مفعول دعاية العدو المحورية . وافق كاترو على اجراء الانتخابات ، وفي منتصف حزيران حين كان متوقعا ان يعلن هذا النبأ السار ، تعقد الموقف الدولي اذ خسر البريطانيون معركة الصحراء الليبية ، وفي مطلع تموز شوهد رومل على بعد ٧٠ كيلو مترا فقط من الاسكندرية ، وعلى ذلك تأجلت ، ولم تتم الا في شهري تموز وآب من عام ١٩٤٣[(١)] .

وفي شهر أيار ١٩٤٢ اتصل النحاس بواسطة القنصل المصري في سورية ولبنان بالسيدين جميل مردم وبشارة الخوري ، ورغب اليهما ان يشخصا الى القاهرة للتداول بشأن استقلال البلدين . وسافر الرجلان في أوائل حزيران واجريا مذاكرات سرية مع النحاس في صدد اعادة الوضع الشرعي والحياة الدستورية الى البلدين[(٢)] . ولما رجع بشارة الخوري الى لبنان قام الفرنسيون وصنائعهم بحملة ضده واتهموه بانه باع لبنان ليؤمن انضمامه الى البلاد العربية . أما جميل مردم فقد قدم مذكرة الى السلطات الفرنسية يطلب فيها اعادة الوضع الشرعي السابق الى سورية[(٣)] . والواقع ان الفرنسيين كانوا يتخوفون ــ وكانوا على حق في تخوفهم ــ مما كانت تدور به الالسن آنئذ عن وجود مشروع انكليزي يستهدف تنظيم الشؤون العربية وتنسيقها

---

(١) Catroux, op. cit. , p. 267

(٢) جريدة اخبار اليوم عدد ٢٣ كانون الاول ١٩٤٤ .

(٣) من حديث لكاتب البحث مع جميل مردم بك بتاريخ ١٤ آذار ١٩٥٧ .

عن طريق اقامة حلف (كونفدراسيون) عربي أو نظام اتحادي آخر • والغاية منه ، كما يقول كاترو ، سلخ سورية ولبنان عن نطاق الادارة الفرنسية « المستضعفة » •

والخلاصة ، فان تصريح ايدن بتأييد الاتحاد العربي كان دعوة الى « وحدة عربية » تكون العوبة في يد انكلترة ولو من وراء ستار ، ولذا لم تتبعه جهود جدية من جانب القادة العرب • ويجب ان ننتظر انتصار الحلفاء في معركة العلمين ، (تشرين الاول ١٩٤٢) حتى نشهد بدء المساعي الجدية في سبيل الوحدة او الاتحاد العربي ، ذلك ان معركة العلمين تسجل نهاية عهد وبدء عهد آخر فيه يزول جانب كبير من القيود التي كانت تشل الحركة الوطنية القومية في سورية ولبنان ، بحيث يمكنها منذئذ أن تلبي « داعي » الوحدة العربية وهي مستقلة وذات سيادة ، وتكون بريطانية قد استردت بعد انتصار العلمين ما كانت فقدته من مكانة كبيرة بين العرب ، بعد ما كان من طرد فلول المحور من الجبهة الليبية ، وما تبعها من نصر الروس في ستالينغراد ، والهجوم الروسي المعاكس في جبهة القوقاز ، مما أبعد خطر الهجوم على مصر من ناحية الشمال الشرقي • وبذلك فشلت حركة الكماشة الالمانية وزال الخطر نهائيا عن مصر والشرق العربي ، وتأكد السلطان البريطاني على منطقة الاوسط دون منازع • وحين أخذت الحرب تقترب من نهايتها ، سارع قادة الرأي من العرب الى التداول في أمر جمع شملهم ، مستفيدين من هذا التفاهم الودي والصداقة المثمرة التي بدت تباشيرها بين بريطانية وبين بعض الحكومات « الصديقة » العربية •

نشأة جامعة الدول العربية

قلنا ان العرب لم يخطوا أية خطوة رسمية في سبيل جمع كلمتهم •

في مصر لم تخرج الفكرة الاتحادية التي عرض لها تصريح ايدن عن النطاق الشعبي ، يتناولها بعض المهتمين بالشؤون السياسية المصرية والعربية وهم بين متفائل بها ومتشائم منها[1] • وعندي أن الاتجاه العربي في مصر ليس يقلل من شأنه ان

(١) كتب محمود تيمور في عدد الهلال (كانون الاول ١٩٤٠) ان الامبراطورية العربية لا يمكن ان تعود ، « وكل ما يسعنا ان نطمع فيه هو أن ينشأ تعاون روحي بين الامم العربية » (ص ٨٥) . وكتب نيقولا حداد في نفس العدد عن الحلف العربي واهميته للعرب بعد الحرب ، ودعا الى تأليفه (ص ١٢٣) . وقال فكري اباظة في عدد المصور (٦ حزيران ١٩٤١) « اذا صح ان المستر ايدن لا يعالجه ـ الاتحاد ـ عفواً وانما عن دراسة وعلم ... وجب على اقطابنا وزعمائنا ان يفكروا هم ايضا فيما يجب أن يكون عليه الحاضر والمستقبل » .

معظم الكتاب المصريين كانوا لا يزالون يخلطون بين الرابطة الشرقية والرابطة العربية والرابطة النيلية لان هذا الاتجاه العربي ستعرفه مصر عنصرا من عناصر السياسة الحكومية الرسمية ، لا نزعة من النزعات القومية الشعبية التي يجب ان ننتظر بعض الوقت ايضا لنراها تسود في مصر كما هو الحال في الاقطار العربية الاخرى شمال الجزيرة العربية • ويصح في هذا الصدد ان نشير الى المؤتمرين العربيين اللذين انعقدا في مصر أواخر ١٩٤٢ ، وكان المؤتمر الاول يستهدف دراسة وسائل التعاون الثقافي وتوحيد التعليم في البلاد العربية • أما الثاني فكان المؤتمر الطبي العربي الخامس ، وكان لهذين المؤتمرين أهمية خاصة لانهما انعقدا والجو السياسي عابق بفكرة الوحدة العربية • وهذا فتح جديد في مضمار انتشار الفكرة العربية القومية ، ذلك ان هذه الفكرة لم تبق موضوع بحث واهتمام في المحافل والجمعيات داخل حدود كل دولة من الدول العربية فحسب ، وانما صارت موضع بحث واهتمام في جمعيات ومؤتمرات تضم مواطني جميع الدول أيضا ، وكان هذان المؤتمران من أهم مظاهر هذا الفتح الجديد •

وقد خطب النحاس في وفود المؤتمر الطبي ، وأشاد بالوشائج المكينة التي تجمعهم ••• وأنه بصفته زعيم مصر ورئيس حكومتها ليفتأ يذكر بالخير البلاد العربية ، بل البلاد الشرقية ، ويعمل كل ما في طاقته لخدمتها وتأكيد الصلات بين مصر وبينها [١] •

والواقع انه بعد هذه المؤتمرات الشعبية صارت الحكومات أيضا تشعر بضرورة التعاون والتعاضد لصيانة المصالح العربية المشتركة • وكان مؤتمر المائدة المستديرة الذي انعقد في لندن ١٩٣٩ أول مظهر من مظاهر هذا الشعور اد ضم ممثلين رسميين عن معظم الدول العربية • ومن المؤكد ان جميع هذه الاجتماعات والتشكيلات الشعبية والحكومية المتفرقة والموقتة كان من شأنها ان تمهد السبيل الى ان الحكومات العربية صارت تشعر شعورا متزايدا بضرورة توثيق التعاون فيما بينها والاستجابة للشعور الشعبي القوي الذي كان يدفعها دفعا الى تنسيق الشؤون العربية ، على وجه ينجم عنه اتحاد عربي ، أو على الاقل تضامن وتقارب وتحالف •

---

(١) انظر نص الخطاب في الاهرام ١٩٤٢/١٢/٢٢ •

وبانتظار الخطوة العملية التالية التي ستتخذها الحكومة المصرية برئاسة النحاس في المجال الرسمي الدولي العربي ، سنعرض لمساعي القادة العرب في العراق لنتعرف على الشكل الذي استجابوا به لدعوة الاتحاد العربي •

قلنا أنه عهد الى نوري السعيد بتأليف الوزارة العراقية (تشرين الاول ١٩٤١)• والرجل « معتدل » في سياسته وميال نحو بريطانية ـ هكذا تصفه المراجع الانكليزية• وسواء أكان بقاؤه في الحكم راجعا الى ولائه للبيت الهاشمي في العراق ، ام الى قبول الدوائر البريطانية ، أم الى « حنكته السياسية » ••• فقد ظل يلعب دورا هاما في تاريخ العراق ، ويهمنا من ذلك كونه صاحب مشروع وحدة بلدان الهلال الخصيب الذي سنتناوله ببعض التفصيل ، لانه يمثل دعوة من الدعوات التي بدت في الجو العربي من أجل انجاز هدف العرب في الاتحـاد •

مشروع وحـدة بلدان الهلال الخصيب :

المشروع في خطوطه العامة لم يكن جديدا على السياسة العربية ؛ فالملك فيصل ـ كما بينّا في موضع آخر ـ كان يرجو ان يتحقق اتحاد سورية والعراق ، وبذل لذلك مساع كثيرة ذهبت هباء بسبب المعارضة الفرنسية وغيرها يومذاك • وفي (تشرين الاول ١٩٣٨) ، أثناء انعقاد مؤتمر الشعوب الاسلامية في القاهرة للدفاع عن فلسطين ، قدم المندوب السوري مشروع اتحاد سورية مع العراق ، أيدته مصر ، ورفضه العراق • وكانت غاية سورية من هذا الاتحاد ان تصل الى وضع مع فرنسة يماثل الوضع الذي وصل اليه العراق مع انكلترة • وقبل نشوب ثورة الكيلاني بذلت الحكومة العراقية ما وسعها من جهد لتحرر سورية من نير فرنسة فيشي ولكن دون جدوى[1] • وعندما تحررت سورية ولبنان من الفيشيين ، بُذلت لهما الوعود بالاستقلال الذي اعترف به فعلا دون ان يرتبط البلدان بمعاهدة تحدد علاقاتهما مع فرنسة • وبدا واضحا ان وضع سورية غدا أفضل سياسيا من وضع العراق المقيد بالتزامات معاهدة ١٩٣٠ ، وذلك عندما رفض الوطنيون السوريون عقد معاهدة مع

(١) صرح جميل مردم بك لكاتب البحث ١٩٥٧/٣/١٤ انه تم الاتفاق مع بعض المسؤولين العراقيين للقيام بحركة في سورية تحررها من الفرنسيين .

فرنسة على غرار المعاهدة العراقية الانكليزية ، أو المعاهدة السورية الفرنسية لعام ١٩٣٦ • ومع ذلك فكان لا يزال ثمة مجال للأخذ والردّ بخصوص وضع البلدين النهائي •

وفي أوائل عام ١٩٤٣ قدم نوري السعيد مذكرة الى كيزي وزير الدولة البريطاني في الشرق الاوسط ، تتضمن مقترحات العراق بشأن الوحدة :

١ ـ أن تتوحد سورية ولبنان وشرق الاردن من جديد في دولة واحدة •

٢ ـ أن نظام الحكم في هذه الدولة سواء كان ملكيا أو جمهوريا ، متحدا أو اتحاديا يجب أن يقرره أهالي هذه الدول أنفسهم •

٣ ـ أن تنشأ جامعة عربية تنضم اليها العراق وسورية مباشرة ، ويمكن أن تنضم اليها الدول العربية متى شاءت •

٤ ـ أن يكون لهذه الجامعة مجلس دائم يعين أعضاؤه الدول الاعضاء ، ويرأسه أحد حكام الدول ، ويتم اختياره بطريقة تتفق عليها الدول ذات الشأن •

٥ ـ يكون مجلس الجامعة العربية مسؤولا عن الآتي : الدفاع ، الشؤون الخارجية ، العملة ، المواصلات ، الجمارك ، حماية حقوق الاقليات •

٦ ـ يمنح اليهود في فلسطين شبه حكم ذاتي ، ويكون لهم الحق في ادارة أقاليمهم في المدن والريف ، بما في هذا المدارس والمؤسسات الصحية والبوليس ، مع الخضوع لاشراف الدولة السورية •

٧ ـ تكون القدس مدينة ، لمعتنقي جميع الاديان حق الدخول اليها للحج والعبادة ، وتنشأ لجنة خاصة مؤلفة من ممثلي الاديان الثلاثة لضمان مثل هذا الامر •

٨ ـ يمنح الموارنة في لبنان ، اذا طالبوا بهذا ، نظاما خاصا مثل الذي كان لهم خلال السنين الاخيرة لحكم الامبراطورية العثمانية ، ويرتكن هذا النظام الخاص وكذا النظم المنصوص عنها في الفقرتين ٦ ، ٧ السابقتين الى ضمان دولي •

هذا هو مشروع نوري السعيد فما هي الملاحظات عليه ؟

ملاحظات على المشروع :

تنظر الى المشروع من نافذتين ، الاولى هي النافذة البريطانية ، والثانية هي النافذة العربية .

فالمشروع من النافذة البريطانية يبدو ذا إغراء كبير : ها هي ذي خمسة أقطار عربية تؤلف بمعونة بريطانية جامعة أو اتحاداً اقليميا في منطقة حيوية جدا من العالم . ولهذا فوائده لا في خطط ما بعد الحرب الدفاعية والاستراتيجية والاقتصادية فحسب ، بل في كون هذا المشروع الاتحادي يقدم فرصة فريدة للتخلص من مشكلة الوطن القومي اليهودي ، تلك المشكلة الشائكة التي خلقتها بريطانية بيديها ، ثم تظاهرت أنها في مركز المحرَج لا يدري كيف المخرج . بواسطة هذا الاتحاد كذلك ، سيمتد نفوذها الى سورية ولبنان . وطبيعي ان يتم هذا بعد تصفية امر فرنسة فيهما بحيث لن يسمح لها بعرقلة قيام الاتحاد عن طريق الاصرار على مزايا قديمة وحقوق بائدة . وسيكون البلدان مدينين لبريطانية ان أنقذتهما من غلظة الفرنسيين واسرافهم ، مما يسهل اتجاههما نحوها ان لم يكن برد الدين ، فبعرفان الجميل .

كل هذا حسن ان جرت الامور على ما يرام من جانب الدول العربية التي يعنيها أمر هذا الاتحاد . وهنا ينبغي أن تستعمل بريطانية نفوذها لتؤمّن مصادقة قادة الدول العربية غير الداخلة في الاتحاد كالمملكة العربية السعودية ومصر ، وهذا أمر لم تخف مصاعبه على بريطانية برغم ما لها من دالة ونفوذ كبيرين على دول الشرق العربي كافة . فالسعوديون لا يقبلون أن يتسع سلطان الهاشميين . والموارنة لا يرضون عن وضعهم الحاضر بديلا ، أما العودة الى نظام ما قبل عام ١٩٢٠ فتعني ارتماءهم في أحضان فرنسة المشوقة الى ترسيخ قدمها في لبنان عن طريقهم ، وناهيك عن نظام الحكم الجمهوري الذي يصر عليه السوريون .

واذن على الرغم من الفوائد الكبرى التي يؤمنها المشروع لبريطانية فهنالك صعوبات جمة تعترضه وكلها من طرف العرب .

والمشروع من النافذة العربية تدخل فيه دولتان ترتبطان ببريطانية وهما : العراق وشرقي الاردن . ويتصور نوري السعيد ، وهو على حق في هذا ، أن تمتنع بعض

الدول ــ سورية ولبنان ــ عن الدخول في الاتحاد ، ولذا فيجب « فرض » الوحدة أو الاتحاد عليها كي لا يؤلف « عجزها » في الدفاع عن نفسها خطرا على جيرانها وعلى سلم العالم . ولكن لماذا يفترض وقوع عدوان على الدول العربية من جهة مجهولة لا يعرف العرب ماذا سيكون موقفهم منها في المستقبل[1] ؟ وهل « ضعف » الدول العربية المرحلي يبرر « فرض » تسوية الاتحاد عليها دون رغبة منها ؟ ألا يعني هذا ان بريطانية سيكون لها اليد العليا في شؤون هذا الاتحاد ، وبذلك يظل العرب مربوطين أبدا الى عجلة الامبراطورية البريطانية ؟

وبالنسبة للصهيونيين ووضعهم في فلسطين فقد لاحظ واضع المشروع تأييد وزيرين بريطانيين لمسألة انشاء دولة يهودية في فلسطين . وقدر أنه ما لم يصل العرب والبريطانيون الى تسوية مرضية للمسألة ، فان المستقبل غير مضمون النجاح ، وهو يبدو مظلما قاتما ، وكان على حق في كل ذلك . ولكن لم يكن على حق في معالجته لمسألة الوطن القومي اليهودي الذي سيكون له شبه حكم ذاتي . فعلى الرغم من أن وجود اليهود في سورية الكبرى يطرد مخاوف عرب فلسطين من أن يفوقهم اليهود بالعدد يوما ، ويجعلهم أكثر مقدرة على مواجهة الصهيونية ، فقد تنقلب الآية ويصبح العكس هو الصحيح ؛ لان الحركة الصهيونية اذا لم تصدّ ويكبح جماحها في فلسطين ، فلا فائدة في اشتراكها في وحدة سياسية أكبر كسورية الكبرى الا للصهاينة اليهود . ذلك أنهم يرون فيها مجالا أرحب لنشاطهم بحيث لا يمكن منع امتداد الجذور الاقتصادية اليهودية على رقعة أوسع من الارض ، لا سيما وأنهم مؤيدون برأس مال ضخم في أوروبة وأمريكة . ان نوري السعيد نفسه يعترف في الكتاب الازرق أن قيام اليهود في وطنهم القومي « كجماعة ذات استقلال داخلي في دولة كبرى يزيد من امكانياتهم الاقتصادية »[2] . وفي سورية الكبرى يغدو التمييز مستحيلا بين المواطنين العرب والصهاينة اليهود ، بينما كان الامر ممكنا في فلسطين.

---

(١) الخطر الذي يفهم من المذكرة ليس الخطر الالماني ، وانما هو خطر يقع في فترة ما بعد الحرب ؛ لان الالمان والطليان في هذا الحين كانوا يجلون عن افريقية الشمالية ، وبذا ابتعد خطرهم نهائيا ، وهو يقصد الخطر الشيوعي المناوىء للمعسكر الغربي البريطاني الامريكي .

(٢) الكتاب الازرق ص ١٢ .

ومأخذ آخر على المشروع هو أنه من غـير المنطقي أن يميز بين بعض الشعوب العربية على أساس تجاورها الجغرافي وتماثلها في بعض الصفات لتبرير اتحادها ، ومن غير العملي أن لا يضم الاتحاد مصر منذ البداية ، اذ يصعب بعدئذ دعوتها للانضمام اليه ، وهي الشقيقة الكبرى التي تكسب الاتحاد أو الجامعة قوة ومنعة وطابعادولياء

وجدير بنا أن نشير الى أهمية الكتاب الازرق في تاريخ الوحدة العربية ، فهـو فضلا عن كونه وثيقة هامة سترتسم دوما في جو المشاورات والمداولات التي ستتلو من أجل الوحدة العربية ، فقد كان يسجل نقطة البـدء في انقسام الرأي بين قـادة العرب ، بعد أن طرحت أمامهم صراحة وجهة النظر الحكومية العراقية ، لأن نوري السعيد بعد أن بعث بكتابـه الى كيزي رأى أن يبعث صورا منه أيضا الى القـادة العرب بصفة خصوصية •

وهكذا فمنذ تصريح ايدن (أيار ١٩٤١) حتى ما بعد معركة العلمين ، لم تتعد جهود العاملين من أجل الوحدة العربية نطاق الاستشارة أو المكاشفة والمداولة التي لم تتخذ أية صيغة رسمية عملية •

وفي ٢٤ شباط ١٩٤٣ صدر تصريح ايدن الثاني بخصوص « عطف » بريطانية على أماني العرب في الاتحـاد •

وفي الحق أنه قبل تصريح ايدن الاول لم يكن لدى بريطانية ما يضمن لها نجاح مشروع « اتحاد » الدول العربيـة ، ذلك أن النحاس لم يكن قد توصل بعـد الى سدة الحكم في مصر ، كما أن وزارة العراق لم تكن مأمونـة ومستقرة ، ولم تكن سورية ولبنان قد تحررتا فعلا ليقوما باتخاذ تدابير الانضمام الى مباحثات الاتحـاد العربي • ولكن هذه الاحوال كلها كانت قد تبدلت حين تفوه ايدن بتصريحه الثاني وأصبحت الظروف مواتية للسير قدماً في هذا المشروع •

فقد صرح ايدن في مجلس العموم : « إن الحكومة البريطانية تنظر بعين العطف الى كل حركة بين العرب لتعزيز الوحدة الاقتصادية والثقافية والسياسية ، ولكن من الجلي أن الخطوة الاولى لتحقيق أي مشروع ، يجب نأ تأتي من العرب أنفسهم ، والذي أعرفه أنه لم يوضع حتى الآن مثل هذا المشروع الذي ينال استحسانا عاما »•

ويهمنا آن نعرف صدى تصريح ايدن الثاني لـدى سلطات فرنسة الحرّة لأنـه يصوّر لنا موقف فرنسة التقليدي من الوحدة العربية ، كما يوضح لنا موقف لبنان الخاص من هذه الوحدة ، وهو موقف اتسم بالحذر والتردد في الاندماج بوحـدة أو اتحـاد عربي •

رأت فرنسة في التصريح البريطاني « مقلباً » جديـداً مـن مقالب السياسـة البريطانيـة • ولم يخف عليها أن بريطانية تود أن تجذب سوريـة ولبنان الى صف الدول العربية وحكوماتها المعاهدة لبريطانيـة ليكون لها أمر الشرق العربي كله • ولا ننسى أن الفرنسيين كانت تتجه سياستهم دائما الى الخيلولة دون اشتراك البلدين العربيين في أي مؤتمر عربي من شأنه أن يقوي حافز الوحدة القومية • ومـن أجل ذلك لم تسمح السلطات الفرنسية للمندوب السوري بالذهاب الى مؤتمر فلسطين الذي عقد في لندن ١٩٣٩ ، وتوسلت لذلك بوسيلة شيطانية اذ طلبت مـن المندوب وهو باستامبول جواز سفره بدعوى لزوم التأشير عليه ، ثم لم ترده له •

ولطالما اتهمت السلطات الفرنسية الجنرال سبيرز بأنه على اتصال مع الوطنيين في سورية ولبنان • وكانت تعتقد ، ويظهر هذا جليا في ما كتبه الجنرال كاترو ، وفي ما كتبه معاونه روبير مونتان « Robert Montagne » ان ممثل بريطانية سبيرز كان من جملة أعماله أيضا تهيئة سورية لتلعب دورها في الاتحاد العربي القادم بعد طرد فرنسة منها • وتظهر خطط فرنسة المعادية للاتحاد العربي صراحة في برقيـة أرسلها الجنرال كاترو بتاريخ ٨ آذار سنة ١٩٤٣ الى الجنرال دوغول بصدد موضوع المعاهدة العتيدة التي كانت فرنسة تبذل أقصى جهدها لاقناع الوطنيين في سورية ولبنان بتوقيعها مع فرنسة • يقول كاترو[١] : « من أجل ابرام المعاهدة ، أقترح أن تستخدم الوسائل التالية في كل من البلدين :

« يمكن أن نتوسل لعقد المعاهدة مع لبنان باستخدام المشاعر العاطفية التي تربط اللبنانيين الى فرنسة ، وباستخدام غريزة الدفاع اللبناني ازاء مشاريع الابتلاع العربية • أن النزعة اللبنانية ــ Libanisme ــ لها حاليا أنصار كثيرون حتى في صفوف المسلمين ، وكذلك القول بتوافق المصالح الفرنسية اللبنانية له مؤيدون يؤمنون بأنه ليس كمثل فرنسة دولة تضمن سلامة لبنان ــ صنيعتها (!) •

---

(١) Catroux : op. cit. , 336.

« أما في سورية فمن الطبيعي أن أؤيد الرأي القائل بأن تعضيد فرنسة ضروري من أجل الحفاظ على سلامة الاراضي السورية ضد تهديد الصهيونيين والاتراك[1] » ولكي أضمن حياد التيار المعارض الذي يدفع بالسوريين نحو البريطانيين على أساس مشروع التجمع العربي ، فانني سوف لا أظهر نفسي عدواً لهذا المشروع ، فبينما أوافق عليه وأرى وجوب تدعيم أواصر اللغة والثقافة والاقتصاد التي توحّد بين البلاد العربية ، فسوف أشير الى أنه في مثل هذا النظام (نظام الاتحاد العربي) يجب أن تلعب سورية دور الموجّه القائد ، وذلك لاسباب جغرافية وتاريخية وفكرية ، مع التنبيه الى أن دمشق يجب أن تكون مركز هذا النظام . ولأجل تأكيد هـذا التفوق « السوري » تجاه البلدان العربية الموالية لبريطانية ، سأعلن بأن سورية بحاجة الى مساندة فرنسة » . وهنا يصل كاترو الى بيت القصيد من تلك الخطـة الفرنسية التي يهيئها للبلدين فيقول : « وأخيراً سأقول ان جوهر الارتباط بفرنسة وفق معاهدة لن يكون عقبة فيوجه مشروع التجمع العربي ، لانهذا النظام الاتحادي ينبغي أن يحترم بالضرورة استقلال الدول المشاركة فيه . هذا من جهة ، ومن جهة ثانية فان فرنسة وبريطانية العظمى سوف تتشاوران بخصوص سياساتهما في الشرق الادنى كما تتشاوران بخصوص غيرها » .

وقبل أن يبادر الرئيس المصري مصطفى النحاس لاتخاذ التدابير العملية الكفيلة بنقل ما دار من حديث الوحدة العربية ومشاريعها ، الى المحيط العربي الرسمي ، تقدم الامير عبد الله بمذكرة سياسية الى الحكومة البريطانية بخصوص « حل المسألة السورية بوجه خاص والمسألة العربية بوجه عام » [2] .

---

(١) وماذا بعد لواء الاسكندرون السليب ؟ !

(٢) يذكر الكتاب الابيض الاردني أنه اجتمع عدد من المجاهدين القدماء في يومي ٥ و ٦ آذار سنة ١٩٤٣ بعمان وتبادلوا المشورة في موقف فرنسة الحرة من سورية ولبنان وما يبدو من نكولها عن تنفيذ الوعد المعلن باستقلال البلاد مع استئثار الفرنسيين بالسلطة واستبقاء الدستور معطلا والادعاء باستمرار الانتداب ، فاجمع الراي على وجوب الاحتفال بذكرى ٨ آذار احتفالا شعبيا مع المطالبة بتحقيق ميثاق البلاد المشترك في الوحدة والاستقلال التام ، وقد عهدوا الى لجنة منهم بوضع مشروعين عمليين يحققان مرامي الميثاق القومي وقيام الاتحاد السوري ورفعا في مذكرة سياسية الى سمو الامير » .

وتختتم المذكرة التي أرسلها الامير الى الحكومة البريطانية بقولهـا ان العرب جميعهم متفقون في أمانيهم بدليل أن « رئيس وزراء العراق قدم مذكرة قبل بضعـة أشهر الى وزير الدولة مستر كيزي تتفق تماما مع ما كنا ارتأيناه وطلبناه • وتطلب الحكومة الاردنية من الحليفة صديقة العرب أن تعير آراءها ومطالبها العناية التي تشترك فيها مع العراق وسورية الشمالية »[1] •

والحق أن اقتراحات نوري السعيد في كتابه الازرق ، واقتراحات الامير عبد الله في مذكرته السابقة لم تكن متناقضة في الاساس ، ومع ذلك يلاحظ بعض التباين بينها:

المشروع العراقي سكت عن بعض المسائل الصعبة وترك أمرها للمستقبل على أنها تفاصيل سيأتي دورها • منها مسألة نظام الحكم ، ومسألة تسميـة رئيس أو ملك الاتحاد المقترح ، ومسألـة مصير الاقضية السورية الاربعة التي كانت قد ضمت الى لبنان عام ١٩٢٠ والتي رأى المشروع الاردني وجوب سلخها عن لبنان في حالة رفضه الانضمام الى الوحدة أو الاتحاد السوري • ومنها عدم دخول المشروع العراقي في تفاصيل العلاقة التي ستنشأ بين بريطانية وبين الاتحاد العربي عقب قيامه • في حين أن المشروع الاردني حدد هذه العلاقة وجعلها على غرار المعاهدتين العراقية والمصرية •

جامعة الدول العربية خطوة اولية على طريق الوحدة :

ذكرنا غير مرة ذلك المحور المصري البريطاني الذي أخذ يلوح في أفق العلاقات بين مصر وبريطانية غداة توقيع معاهدة ١٩٣٦ على يد حكومة النحاس الوفديـة ، وما كان من محاولة « العمل المشترك » من جانب الطرفين المذكورين لحل القضايا العربية المختلفة ، ورسم السياسة العربية المرجوة • ونحن اذا ذهبنا الى القول بأن النحاس تلقى « عرض » بريطانية بالمبادرة الى العمل من أجل الاتحاد العربي ، فـلا

---

(١) الكتاب الابيض الاردني ، عمان ١٩٤٧ ، ص ٧٢ — ٧٣ •

تستند في هذا المثل الا على الحدس والتخمين[١] . وان كنا نجزم بأن بريطانية اذا صح عزمها أن تشرك بلدا عربيا « صديقا » في مسألة الوحدة العربية ، فلن تلجأ الا الى مصر والنحاس، بعد أن مالت شمس العراق الى الغروب اثر فشل ثورةرشيدعالي الكيلاني ، ودمغ بالانحراف من جانب الجماهير العربية ، وبعد أن أعلنت بريطانية بأن مقترحات نوري السعيد بخصوص الاتحاد العربي لا تنال موافقة جميع القادة العرب . هذا الى مركز القاهرة وأهميتها في الشرق العربي ، وكونها مقر وزارة الشرق الاوسط البريطانية .

دعا النحاس باشا رئيس الوزارة العراقية نوري السعيد للتشاور معه أولا بشأن مسألة الوحدة العربية ، لما كان يعلمه من سبقه في بحث المسألة ، ولما يمكن أن يعرض من آراء تساعد على جلاء موقف بعض الدول العربية مع الرؤساء العرب الآخرين للدول العربية المستقلة . وتم الاجتماع بين الرجلين في نهاية شهر تموز ١٩٤٣ واستغرقت المشاورات ستة أيام . ثم تلتها مشاورات بين النحاس وبين رؤساء وحكومات ومندوبي شرقي الاردن والمملكة العربية السعودية وسورية ولبنان واليمن ، واستمرت حتى ١٠ شباط ١٩٤٤[٢] .

ان هذه المشاورات وما تبعها من اجتماعات اللجان التحضيرية والفرعية التي حضرتها الوفود العربية الى جانب وفد يمثل عرب فلسطين ، قد أسفرت عن توقيع بروتوكول الاسكندرية (٧ تشرين الاول ١٩٤٤) وميثاق جامعة الدول العربية (٢٢ آذار ١٩٤٥) .

ويلاحظ أن ميثاق الجامعة رغم تساوقه جملة مع بروتوكول الاسكندرية ، كان أقل اصرارا على بعض النقاط التي تهم المصلحة العامة للجامعة ؛ فبينما تصور البروتوكول أن تتخلى الدول العربية عن جانب من سيادتها لمصلحة الجامعة ، أكد

---

(١) بقول الامير عبد الله في « مذكراتي » .. انا على جهل تام من درجة تحقيق اماني الوحدة او الاتحاد وما يملكه رئيس وزراء مصر من وعود سرية يعلمها هو من لدن انكلترة وامريكة والى اي حد هي . (ص ٢٤٥) .

(٢) انظر تفاصيل ما دار في اجتماعاتها في د. احمد طربين « الوحدة العربية في تاريخ المشرق المعاصر » دمشق ١٩٧٠ ، ص ٤٢٥ ـ ٥١٢ .

الميثاق هذه السيادة وعمل على احترامها واستعادتها واستبقائها .

تبدأ ديباجة البروتوكول :

« اثباتا للصلات الوثيقة والروابط العديدة التي تربط بين البلاد العربية جمعاء وحرصا على توطيد هذه الروابط وتدعيمها » ـ وتزيد ديباجة الميثاق : « على أساس احترام استقلال الدول وسيادتها »[1] .

ولم تظهر في الميثاق المادة التالية الهامة التي نص عليها البروتوكول : « ولا يجوز في أية حال اتباع سياسة خارجية تضر بسياسة جامعة الدول العربية أو أية دولة منها » . ومن المؤكد أن عدم النص عليها في الميثاق لم يكن يقصد به تخويل الدول عقد معاهدات تضر بالجامعة وسلامة دولها وسياستها ، لأن الاعمال التحضيرية لا تؤيد ابرام معاهدة تنافي أحكام الميثاق . فضلا عن أن ما ورد في الديباجة من توجيه الجهود الى ما فيه خير البلاد العربية ودعم الروابط بينها ، يدل على أن هذه الاغراض لا تتحقق الا باتباع سياسة مواتية للمصلحة العربية العامة فلا تضار الجامعة أو مصالح دولها الاعضاء . ولكن مع كل ذلك فقد كان من المفضل ابقاء النص الاول الذي ورد في البروتوكول وتضمينه الميثاق ، لأن ايداع نسخ من المعاهدات والاتفاقيات التي تعقدها دول الجامعة مع دولة أخرى من الجامعة أو من خارجها لا يؤلف رقابة فعالة تمنع الدول ، اذا شاءت ، من عقد معاهدات تمس مصالح الجامعة أو دولها كما سيحدث فيما بعد .

وحذف أيضا المبدأ الثالث في البروتوكول الذي ينص على تدعيم الروابط

---

(١) اصبحت ديباجة الميثاق كما يلي :
« تثبيتا للعلاقات الوثيقة والروابط العديدة التي تربط بين الدول العربية وحرصا على توطيد هذه الروابط وتدعيمها على اساس احترام استقلال الدول وسيادتها وتوجيها لجهودها الى ما فيه خير البلاد العربية قاطبة وصلاح احوالها وتأمين مستقبلها .. » . (محاضر اللجنة التحضيرية الثانية ص ٤ ، ص ٣٠) .

بين الدول العربية في المستقبل[1] ، وحلت محله المادة التاسعة التي تخـول الـدول الراغبة في تعاون أوثق وروابط أقوى أن تعقد ما تشاء منها وهي المادة التي اعتمدت عليها سورية ومصر حين اندمجتا في الجمهورية العربية المتحدة (١٩٥٨) •

والميثاق يلزم كل دولة من دول الجامعة أن لا تتدخل بنظم حكم دول الجامعـة الاخرى ، ولم يكن البروتوكول يتضمن ذلك • كما اختفت ضمانة استقلال لبنـان من الميثاق لأنه اشتمل على ضمانات كافية لسيادة الدول المشتركة فيه كافة •

واذا سئلنا ما السبب في عدم تساوق الميثاق مع البروتوكول ، نجيب بأن اللوم في الضعف الذي يسود بعض مواد الميثاق لا يقع على واضعيها ، فهم من أقطـاب القانون ، وانما يقع على موقف قادة بعض الدول العربية غير المتطابق مع موقف قادة بعض الدول العربية الاخرى ، فالميثاق لم يكن في حقيقته سوى نتيجة منطقية لعملية التوفيق بين هذه المواقف المتعددة وبين مطالبها المحددة والثابتة •

وبعد ، فان مسألة ضعف مواد الميثاق في تدعيم الروابط الاخوية وتوحيدالاتجاه السياسي بين الدول العربية وما الى ذلك ، ليست سوى مسألة الاتجاهات السياسية والاهداف المتباينة التي تسير بحسبها كل حكومة عربية مـن دول الجامعة • مـع التنبيه الى أن انقسام الرأي في البلاد العربية حول مسألة الوحدة العربية لا يرجع فقط الى ما ذكرنا من الاتجاهات السياسية في هذه البلاد ، وانما يرجع أيضـا الى اختلاف نزعات واتجاهات القادة العرب التي تتراوح بين الفكرة القومية العربيـة في أدنى حدودهـا ، والفكرة القومية العربية في أقصى حدودها • ان قصة الرجـال المفاوضين في تاريخ مباحثات الوحـدة العربية لها أهميتها ، فلكل منهـم شخصيته

---

(١) نص المبدأ الثالث : « مع الاغتباط بهذه الخطوة المباركة يرجو اللجنة ان توفق البلاد العربية في المستقبل الى تدعيمها بخطوات اخرى وبخاصة اذا اسفرت الاوضاع العالمية بعد الحرب القائمة عن نظم تربط بين الدول بروابط امتن واوثق » .

ونص المادة التاسعة : « لدول الجامعة العربية الراغبة فيما بينها في تعاون اوثق وروابط اقوى مما نص عليه هذا الميثاق ان تعقد بينها من الاتفاقات ما تشاء لتحقيق هذا التعاون . ان المعاهدات والاتفاقات التي سبق أن عقدتها او التي تعقدها فيما بعد دولة من دول الجامعة مع اية دولة اخرى لا تلزم ولا تقيد الاعضاء الآخرين » .

وصفاتــه ، وفي كــل منهم عنــاصر القــوة وعناصــر الضعف لا يشــارك فيهــا غيره مــن الناحية القوميــة • وهــذا يجعلنا نقرر أن أكثر القــادة لم يكونــوا يمثلون اتجاهات بلادهم الصحيحة ولم تتمثل فيهم آمال جماهيرهــم وتطلعاتها نظرا لتجاهلهم النزعات القومية الوحدوية الصادرة عن القواعد الشعبية • ويصدق هذا القول خاصة على مندوبي العراق وشرق الاردن •

ومهما يكن من أمر فكل الدلائل كانت تشير الى أن معظم الدول العربية ما عدا سورية كانت لا ترغب في أن تكون جامعتها أوثق ترابطا مما تقرر في الميثاق ، وهي مراعاة لنزعة التحفظ والحيطة التي بدرت مــن بعض الدول العربية ، وافقت عــلى النص المذكور للميثاق • وصادقت سورية على الميثاق على أمل أن تبادر الــدول العربية الى تعديله فيما بعد ، عندما تطمئن على سير الامور ، وتعاين الخير الــذي يعود عليها جميعا فتترك الحذر والتحفظ •

ان أمل واضعي الميثاق في هــذا الامر يبدو جليــا في الفقرة الاولى من المــادة (١٩) ونصهــا :

« يجوز بموافقة ثلثي دول الجامعة تعديل هذا الميثاق وعلى الخصوص لجعــل الروابط أمتن وأوثق ••• » •

وكانت بريطانية راضية عن اخراج فكرة الوحدة العربيــة على الشكل الذي تحقق ، لأنها لا ترغب في أن يكون للعرب وحدة قوية تنهي خلافاتهم وخصوماتهم ، حتى تضمن مصالحها المتنوعة في المشرق العربي الذي اجتمع له من ظروف الموقــع والموارد ، ولا سيما النفط ، ما يجعله مطمح أنظار الــدول الكبرى • والواقع أنــه حتى ولو نجحت بريطانيــة في الضغط على الهاشميين كي يتخلّوا عن مشاريعهــم الاتحادية الجزئية ، لبقيت المملكة العربيــة السعودية واليمن والبنــان مترددة في الاندماج ضمن اتحاد عربي متين •

وجملة القول اننا نعتقد أن الشكل الذي أخرجت فيه الوحدة العربية في ٢٢آذار ١٩٤٥ هو الشكل الذي ينطبق مع ماعلمنا من الاتجاهات والاهداف السياسية المتباينة

لدى الرؤساء والملوك العرب ، وأن بريطانية كانت تأمل أن تنضوي جامعة الدول العربية في تيار سياستها على وجه يؤكد سلطانها وسيطرتها على المنطقة العربية • وبذلك كانت الجامعة وميثاقها نتيجة حتمية لمباحثات اللجان في ادوارها المختلفة • ولو سادت تلك المباحثات روح من الثقة والاتفاق والتضحية بمبدأ السيادة الفردية ، لسجل التاريخ للحكام والرؤساء العرب في عام ١٩٤٥ موقفا غير الذي سجل، ولكانوا حقا يمثلون اتجاهات ونزعات شعوبهم الظمأى لصلة الروح ، والتواقة لانجاز وحدة العرب في جميع اقطارهم مادامت هي القادرة على حماية بلدانهم وصون كرامتهم وسيادتهم •

ماذا تمثل الجامعة على الصعيد القومي ؟

ليس للجامعة وجود خارج ما تشتقه من وجود اعضائها ، فالسلطة بكليتها مركزة بيد هؤلاء الاعضاء ، بحيث أن تكوين الجامعة يعكس حقيقتين أساسيتين هما :

١ ـ ان الجامعة لم توجدها جمعية عمومية تأسيسية لممثلين عن الشعوب العربية يمكنهم أن يخولوها الصلاحيات • بالعكس ، الجامعة هي ما أوجده مؤتمر ممثلي الدول ذات السيادة ، لا الشعوب •

٢ ـ ان الدول التي أوجدت الجامعة قد حبست عنها السلطة اصلا وفرعا، فالدول لم تخول الجامعة أي سلطان عليها منفردة او مجتمعة ، بما يجعلها قادرة على ان تتحدث عنهم وتعمل لحسابهم، لان دول الجامعة تشبثت بجميع السلطات والصلاحيات وحافظت على السيادة الاقليمية لكل منها • فالجامعة ليس لها سلطة لتنسيق السياسات والاعمال بين أعضائها ، وانما هؤلاء هم الذين ينسقون شؤونهم الفردية أو الجماعية خلال مشاوراتهم في نطاق الجامعة ، اذ لاشيء ملزم في نطاق الجامعة ما لم يكن له صفة اجماعية • ولعل خير تعريف للجامعة انها ندوة ومكان لاجتماع الدول العربية الاعضاء لتبادل وجهات النظر فيما بينها ، وليست مخولة ضد استقلال الدول أو سيادتها بشيء • ذلك أن الجامعة في واقعها تمثل حلا وسطا بين ما ترمي اليه المثالية القومية والواقعية السياسية • بين النظرة القومية العربية التي ترى أن الحدود

والتنوع أمور طارئة في الوطن العربي ، وبين النظرة الاقليمية للدول العربية الراغبة في الحفاظ على حدودها المصطنعة وسيادتها الراهنة . وكان النصر للنظرة الثانية الاقليمية بشكل حاسم برغم ماورد في ديباجة البروتوكول والميثاق من اعتراف مكتوب بالنظرية الشعبية للامة العربية وللمشاعر القومية . ولقد فضل بعض المبعوثين العرب في مداولات الوحدة الجارية أن يكون للبناء العربي الجديد فضيلة مشاركة الدول العربية المستقلة آنئذ ، نظرا لعدم رغبة البعض في الانضمام الى أي نوع من الاتحاد (سواء في وحدة او اتحاد أو تضامن وحلف) ، ولذا اقتنعوا بهذا التجمع المهلهل ولم يغب عنهم أنهم ضحوا بقوة البناء وجدوى فعاليته وتماسكه من أجل الشمول العربي المنشود وامتداد البناء المقترح . ولقد مر بنا كيف أن حكومتي العراق وشرق الاردن وقفتا بجانب الاتحاد الفيدرالي او الدولة الموحدة لاجزاء بلاد الشام الاربعة مع العراق ، ولكن في ظروف المحادثات لم تكن حكومات السعودية ومصر واليمن راغبة في المشاركة حتى في تجمع مهلهل مع وحدة الهلال الخصيب ، كذلك لم تكن حكومتا سورية ولبنان راغبتين في مثل ذلك [1] .

لقد رأينا اذن ماذا تمثل الجامعة ، ولا بد أن نتابع ما قامت به في المجال العربي.

وعلى الرغم من أنها احرزت بعض النجاح في تقديم مساعدة هامة لسورية أيام حوادث العدوان الفرنسي عام ١٩٤٥ ، وتقديم مساعدة كذلك الى ليبية ابان نظر القضية الليبية امام الامم المتحدة ، الا أن اخفاق الجامعة في معالجة قضية فلسطين كان تاما . وحين اسهمت الجامعة في الارتقاء بالتعاون بين الدول في بعض الميادين غير السياسية ، فهي لم تنقل الفكرة القومية العربية الى صعيد الوحدة السياسة. ومع ان وجود الجامعة قد جعل تقدم الدول العربية نحو توثيق علاقاتها وتقوية صلاتها أمرا ممكنا ، وأدى بدوره الى تعمق رجالات الحكومات العربية في ادراك اعتماد دولهم بعضها على بعض وشعورهم بالحاجة الماسة لمزيد من الانسجام العربي الداخلي ، فان ذلك لم يكن من شأنه أن يهيء الفرصة لتمتين الوحدة السياسية

---

(١) F. A. Sayegh « Arab Unity, Hope & Fulfillment », N. Y. 1958, pp. 122 - 3

بين الدول العربية الاعضاء في الجامعة ، اذا زالت العقبات السياسية والعقد النفسية التي ترسخ التصاق الحكام العرب بسيادة دولهم .

واذا أردنا أن نحكم على جامعة الدول العربية في ضوء مساهمتها في السير مباشرة نحو الوحدة السياسية أو في ضوء ما قامت به في عقد السنين الاول الذي تلا تأسيسها ، فاننا نقول ان الجامعة خيبت الكثير من الآمال المعقودة عليها ، فبدلا من أن تعمل على زيادة توثيق الروابط بين الدول العربية ، مالت الى تجميد الاوضاع الراهنة والثبات على مبدأ السيادة الفردية القطرية ، وتركتها عند النقطة التي كانت هذه الاوضاع وصلتها حين تأسيس الجامعة . وبعبارة اخرى انها بقيت — اساسا — جامعة للوحدات السياسية لاوحدة سياسة في حد ذاتها . ولعل اعظم اثر للجامعة في قضية الوحدة العربية ، هو انها ساعدت على عدم اتباع كل قطر عربي سبيلا منفصلا في تطوره ، ومنعت نشوء اوضاع متباينة تسيء الى امكانات التقارب العربي وتحد من مقدرته على الوحدة السياسية مستقبلا . فالجامعة رغم انها لم تكن وعاء للوحدة السياسية بسبب طبيعة تكوينها فانها قربت بين قطاعات الوطن العربي في وجه عربي جامع وصانت امكانات الوحدة العفوية القوميـة للعرب . وهكذا فان أول جهد بذلته الدول العربية لتحقيق فكرة الوحدة في الاربعينات ، كان نجاحا محدودا جدا إذا لم يكن فشلا كاملا . ان الجامعة لم تكن تجسيدا للوحدة ، ولكن كانت في احسن احوالها أداة قادرة اذا أحسن استغلالها على تحضير الدول العربية من اجل الوحدة . ولا حاجة الى القول بأن فشل الجامعة تقع مسؤوليته على الدول الاعضاء التي ليس للجامعة عليها أية سلطة ملزمة . فهذه الدول بتصميمها على اتباع خطة تجعل للمشاكل والاعتبارات المحلية سبقا على الامور الحيوية التي تهم العرب في مواجهتهم السيطرة الاجنبية ومخططاتها ، كانت تفتقر الى سعـة الافق والى التمرد على الوضع الاراضي الراهن . وكان الامل أن كسب معارك التحرر الوطني سيؤدي الى تحقيق الوحدة ، ولكن الوقائع اظهرت في كل دولة طبقة من الحكام والسياسيين وطلاب الوظائف الذين ارتبطت مصالحهم بالحفـاظ على الوضع الراهن . هذا الى أن المثقفين والمفكرين من أفراد الشعب كانوا يتحملون قسطهم من المسؤولية عن (انفصالية) دولهم . لان الشعوب وعلى رأسها هؤلاء المثقفين والمفكرين فشلت في اقناع حكوماتهـا بأنها جـادة في تحقيق الوحدة .

فانصرفت الى الكلام أكثر مما انصرفت الى الجهد والعمل •

ومهما يكن الامر ، فان القوميين العرب في مسعاهم الدائب لاقامة مؤسسات سياسة أوثق وأقرب الى فكرة الوحدة من الجامعة ، وجدوا أن امامهم سبيلين

١ ــ أن يحولوا الجامعة الى اداة سياسية فعالة وحدوية ــ اما باعادة النظر فيها أو في ميثاقها ، أو بواسطة تدابير تكميلية تتبناها داخل اطارها•

٢ ــ أن يوجدوا صروحا جديدة لوحدة عربية مستقلة عن الجامعة •

ولكن الطلائع القومية الواعية أدركت أنه لابد من توفر شرطين اذا اريد لفكرة الوحدة ان تتجسد في شكل اوثق من الجامعة ، وهما : ١ ــ كشف عجز الجامعة عن تحويل نفسها الى وعاء للوحدة بسبب التيارات المتنازعة والمتوازنة في اطارها ، وخاصة بسبب تمسك كل دولة عضو بمبدأ السيادة الفردية ، وأن يظهر ذلك عمليا للحكام وللرأي العام الشعبي •

٢ ــ مضاعفة الجهد لتقوية الوعي القومي وايقاظ الشعور بالقومية العربية وبث الايمان بوحدة الامة العربية ، وحينئذ تتوضح السبل امام الوحدة ، وتزول العقبات وتنهار العوائق التي تعترضها بكل سهولة • اما اذا بقي الشعور القومي ضئيلا والايمان بالوحدة العربية ضعيفا ، فان أتفه العوائق تبدو بمثابة العقبات التي لا يمكن اقتحامها ، فتتعطل الجهود امام اولى الصدمات وتنهار العزائم أمام أصغر المشاكل[1] • وحين تقوى فعالية الشعب وحين يصبح وزن الرأي العام حاسما ان لم يكن العامل الفعال المقرر لسياسة الدولة ، فان واضعي سياسات الدول لابد ان يسترشدوا بالشعب نفسه ، ويستوحوا من مصالحه وارادته العامة • وبهذا يمكن اضعاف القوى النابذة المعوقة للوحدة ، التي اخرجت فكرة الوحدة على الشكل الذي ظهر في منتصف الاربعينات •

ان الوفاء بهذين الشرطين للقيام بالتحويل القومي المطلوب ، قد استغرق من العرب أكثر من اثني عشر عاما ، ولم تظهر ثمراته الا في شباط ١٩٥٨ حين ترجمت

(١) ساطع الحصري « العروبة أولا » ، الطبعة الثانية بيروت ١٩٥٥ ، ص ٥ ــ ٦

نفسها الى حقيقة ملموسة بقيام الجمهورية العربية المتحدة التي طوت بين جناحيها عاملي سورية ومصر ، وعبرت لاول مرة عن تحقيق مضمون هذين الشرطين جزئيا ، وبنجاح محدود ارضيا .

الفهرس

الصفحة

الفصل الاول

تكوين المشرق العربي (١٨٠٠ — ١٩٢٠)

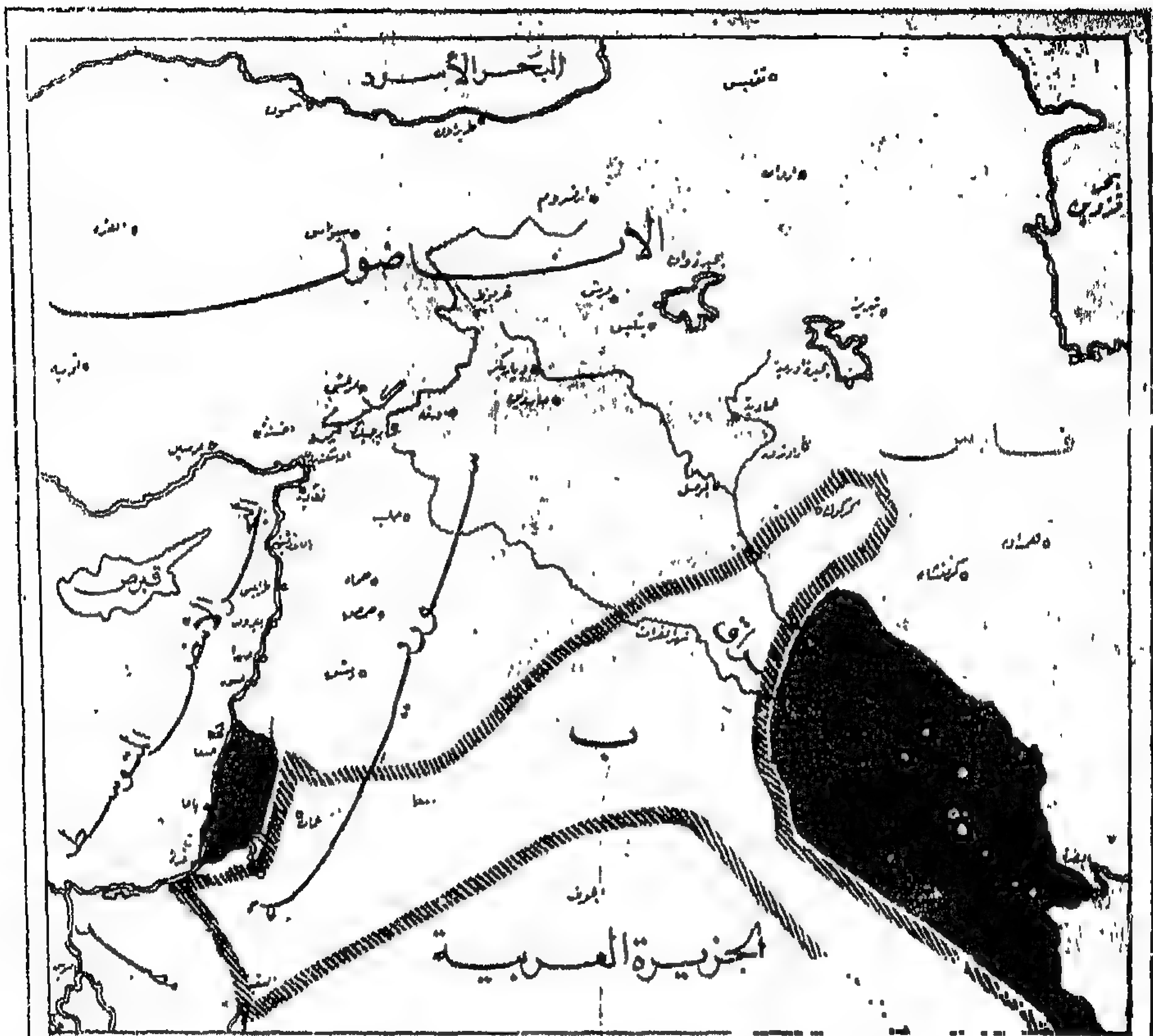
الصفحة

الفصل الثـاني

الفصل الثـالث

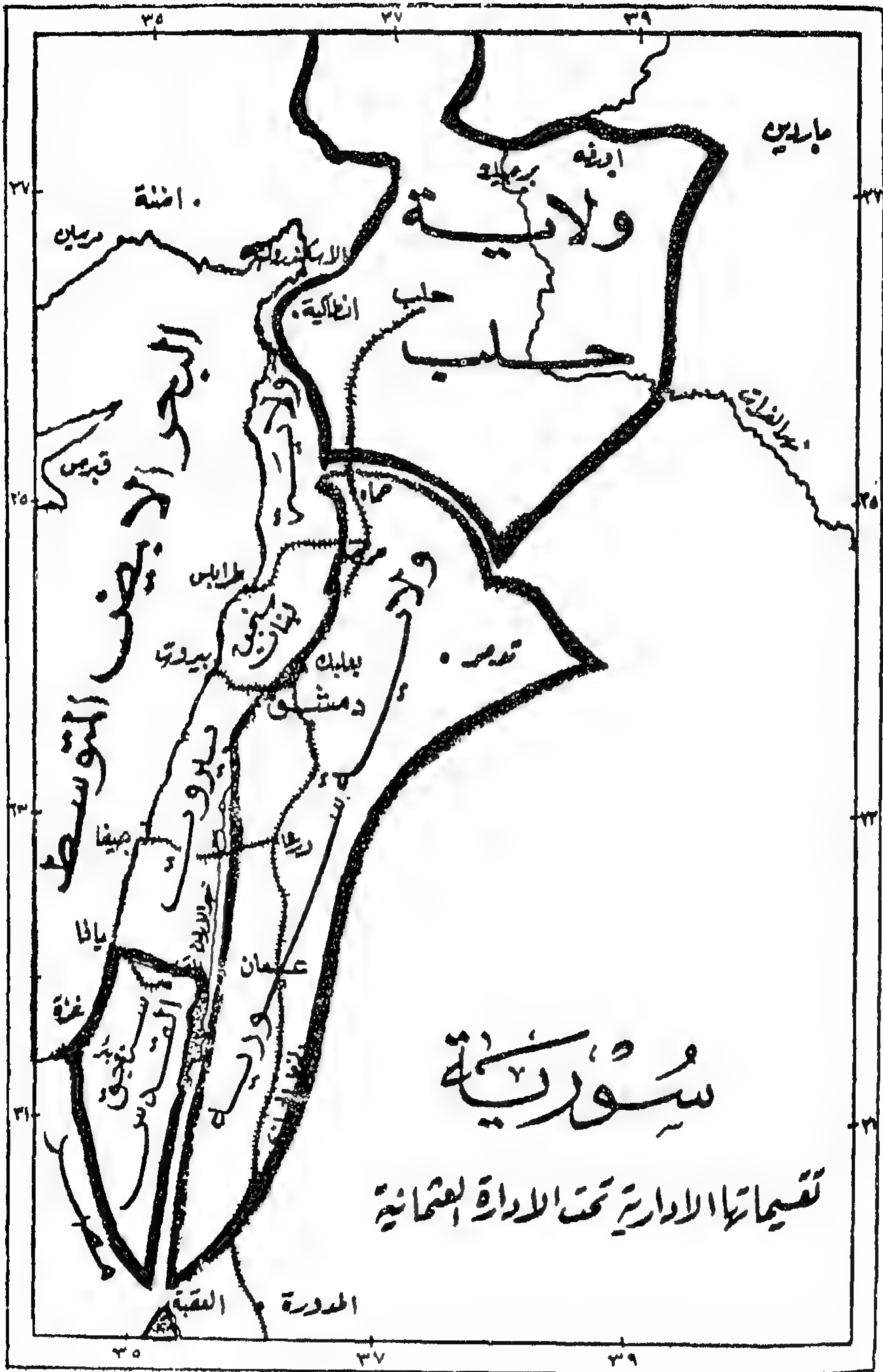
الصفحة

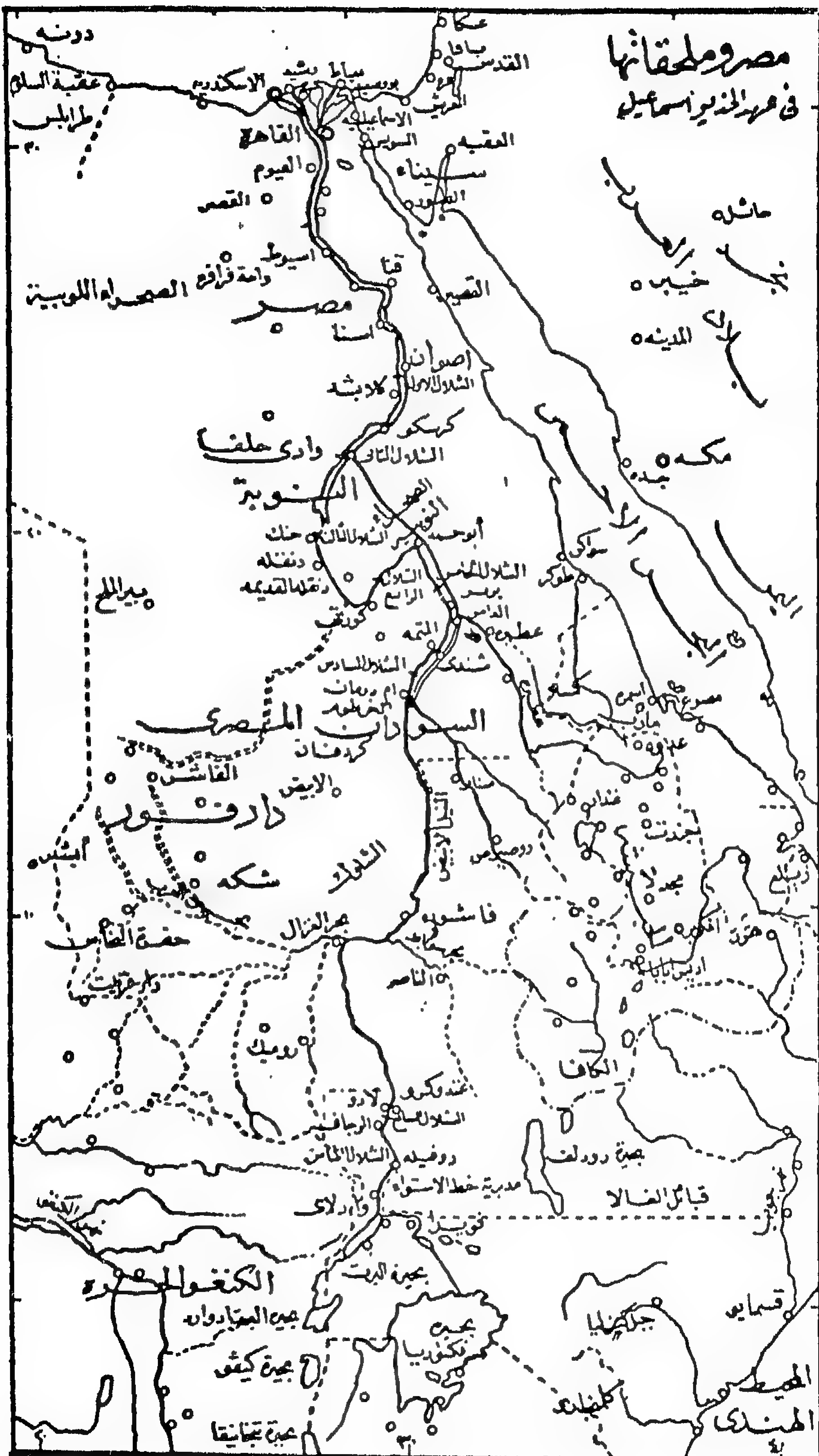
المصادر والمراجع : يمكن الاطلاع عليها في هوامش وحواشي الكتاب



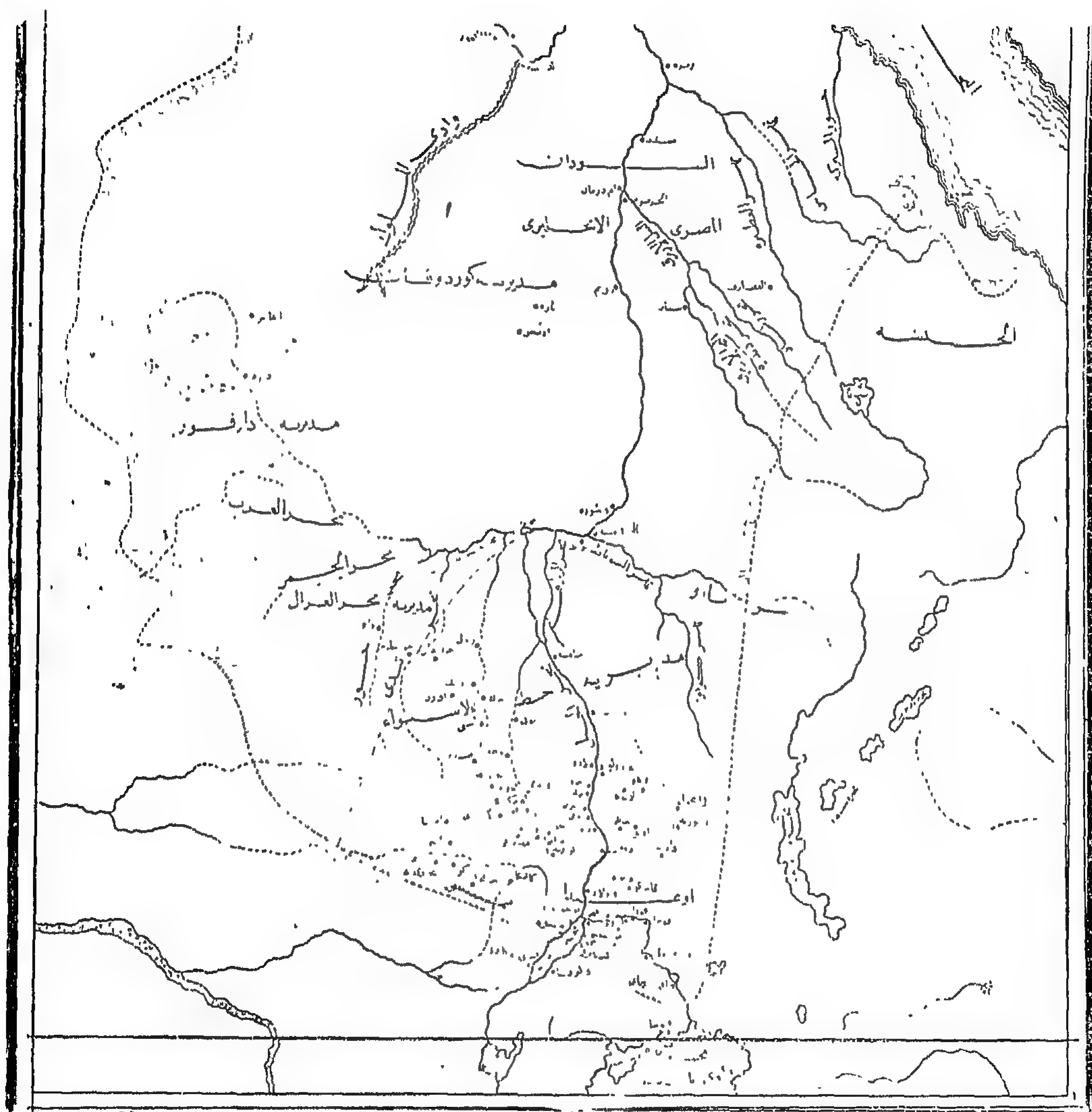
تقسيم بلاد الشام والعراق

كما نص عليه اتفاق عام ١٩١٦ سايكس بيكو


سورية
تقسيماتها الادارية تحت الادارة العثمانية
ولاية حلب
البحر الابيض المتوسط
اضنة
حلب
انطاكية
حماه
طرابلس
بيروت
دمشق
بعلبك
تدمر
حيفا
يافا
غزة
عمان
العقبة
المدورة
قبرص
ماردين
اورفه
بيروت
القدس
الشام
٣٥
٣٧
٣٩



مصر وملحقاتها
في عهد الخديو اسماعيل
الاسكندرية
رشيد
دمياط
بورسعيد
الاسماعيلية
السويس
القاهرة
الفيوم
العريش
القدس
يافا
عكا
العقبة
سيناء
القصير
اسيوط
قنا
اسنا
اصوان
مصر
الصحراء اللوبية
واحة فرافرة
طرابلس
ماشلة
خيبر
المدينة
مكة
جدة
سواكن
وادى حلفا
النوبة
دنقلة
دنقلة القديمة
بربر
الخرطوم
السودان المصرى
كردفان
الفاشر
الابيض
دارفور
شكه
فاشوده
بحر الغزال
الناصر
رومبك
الكاف
بحيرة رودلف
قبائل الغالا
الكنغو الحرة
بحيرة البرت
بحيرة فكتوريا
بحيرة تنجانيقا
بحيرة كيفو
قسمايو
المحيط الهندى


السودان
المصرى
الانكليزى
ام درمان
الخرطوم
مديرية كوردوفان
مديرية دارفور
بحر العرب
بحر الجبل
مديرية بحر الغزال
خط الاستواء
الحبشة

إمارات الخليج العربي

الحدود السياسية الدولية
حدود لم تحدد بعد

مقياس الرسم
١٠٠ ٢٠٠ ٣٠٠ كم

العراق
البصرة
الكويت
الأحمدي
المنطقة المحايدة
إيران
الخليج العربي
السفانية
الجبيل
رأس تنورة
القطيف
الدمام
الظهران
المنامة
البحرين
قطر
الدوحة
الرياض
الهفوف
بندر عباس
مضيق هرمز
رأس مسندم
بحر البنات
ساحل الصلح العماني
أبو ظبي
دبي
الشارقة
عجمان
أم القيوين
رأس الخيمة
الفجيرة
خورفكان
شناص
صحار
الخابورة
السوق
مسقط
قريات
صور
رأس الحد
خليج عمان
عمان
عبري
البريمي
المملكة العربية السعودية



صدر باشراف لجنة الانجاز

سعر المبيع للطالب (٤٦) ل.س